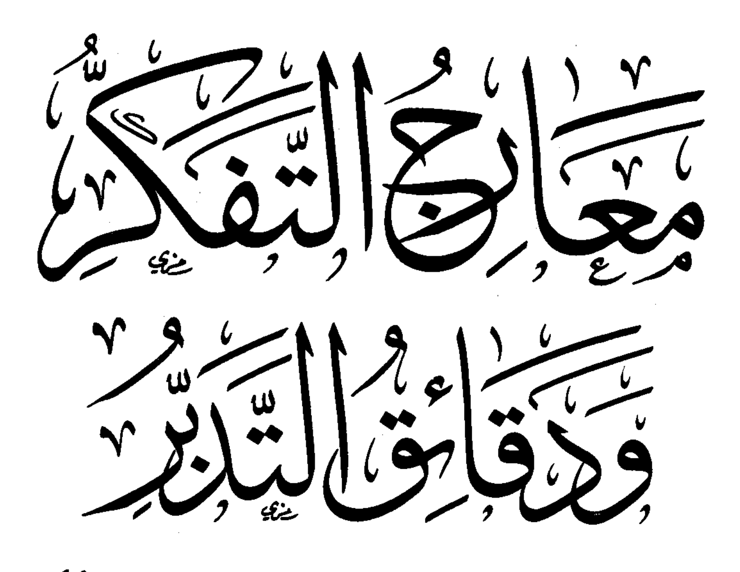


تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

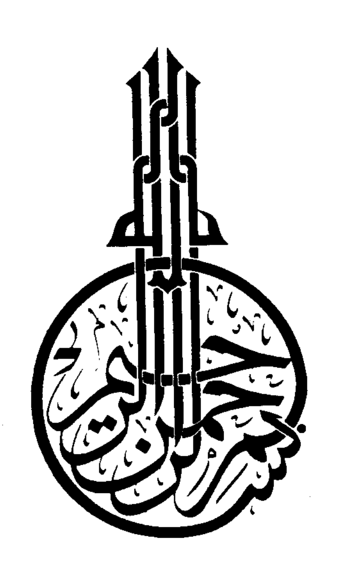
المجلد الثامن

تفسير سور

طه/٤٥ - الواقعة/٤٦ - الشعراء/٤٧

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق




معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطّبعَة الأولىٰ
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلب جميع كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلَمْ - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشّاميّة - بَيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعُودية عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : 2895
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سورة طه

٢٠ مصحف - ٤٥ نزول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ

---

١ ـ • سكت أبو جعفر سكتةً لطيفةً بدون تنفُّسٍ على «طا» و«ها». ولم يَسْكُتْ هذه السكتة بَاقي القرّاء العشرة.

١٠ ـ • قرأ حمزة: [لأَهْلِهُ امكُثُوا] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لأَهْلِهِ امكُثُوا] بكَسْرِ هاء الضمير، وهما لغتان عربيتان جائزتان.

١٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إنّيَ آنسْتُ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكان ياء المتكلم.

١٠ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: ﴿لَّعَلّيَ ءَاتِيكُم﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان ياء المتكلّم.

١٢ ـ • قرأ نافع: [إنّيَ أنا رَبُّكَ] بفتح يَاء المتكلم وكَسْر همزة «إنَّ» وقرأها ابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [أَنّيَ أنا رَبُّكَ] بفَتْحِ ياء المتكلّم، وفتح همزة «أنَّ» من: «أنّي».

وقرأها باقي القراء العشرة: [إنّي أنا رَبُّكَ] بإسكان ياء المتكلم وكَسْرِ همزة «إنّ» من [إنّي]. =

إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ

= وسبق أن عرفنا أنّ فتح ياء المتكلم وإسكانها وجهان عربيان لنُطْقِها. كَسْرُ همزة «إنّ» على معنى أن الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرّ محذوف، أي: نودي أن يا موسى بأني أنا رَبُّك، وهما وجهان نحويان جائزان.

١٢ ـ • قرأ يعقوب: [**بالْوَادي**] فأثبت الياء في الوقف فقط.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**بالوَادِ**] بحذف الباء في الوقف والوصل.

١٢ ـ • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزةٌ، والكسائي، وخلف: [**طُوىً**] بالتنوين، على أنّ اللفظ مَصْرُوف، بتقدير أنه نكرة وهو اسم وادٍ أو مكان ما.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**طُوىٰ**] بدون تنوين، على أنّ اللفظ ممنوع من الصرف، بتقدير أنه معرفة، إذْ هو اسم بقعة معروفة.

١٣ ـ • قرأ حمزة: [**وأنّا اخترْنَاكَ**] بضمير المتكلّم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَا اخترْتُكَ**] بضمير المتكلم المفرد.
والقراءتان تدلّان على أن الله عزّ وجلّ خاطب موسى أوّلاً بضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابة في قلبه، ولإشعاره بأنّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبوبيته. وبعد ذلك عاد إلى مخاطبته بضمير المفرد، لإيناسه.

١٤ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**إنّيَ أنا اللّهُ**] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٤ ـ ١٥• قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**لِذِكْرِيَ إنّ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٨ ـ • قرأ ورش، وحفص: [**وَلِيَ فيها**] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ
﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً
أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ
طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي
﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي
وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾
وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ
﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ

٢٦ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي] بفتح ياء المتكلّم من [لِيَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٠ ـ ٣١• قرأ ابْنُ عامر: [أَخِيَ ٱشْدُدْ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٢ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي] بضم همزة [أُشْرِكْه] على معنى أنّ موسى يجعل أخاه شريكاً له في رسالته.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَشْرِكْهُ] بفتح الهمزة، على معنى أن موسى سألَ رَبَّه أن يجعل أخاه هارون شريكاً له في أمره.

والقراءتان تدُلّان على أنّ موسى قال أولاً: [وَأُشْرِكْهُ] ثم رأى أنّ هذه العبارة لا تليق في مقام متلقي الرسالة عن ربّه فعدَل عنها، وقال سائلاً ربَّهُ: [وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي].

يَأۡخُذۡهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ

٣٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [وَلْتُصْنَعْ] بلام الأمر وجزم الفعل. وهي تدلُّ على أمرِ التكوين الصادر عن الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِتُصْنَعَ] بكسر اللام على أنها لام التعليل، ونَصْب الفعل بأن مضمرة. وهي تدلُّ على الغرض من جعله يُنْشَأ في القصر الفرعوني.

٣٩ ـ ٤٠• قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَيْنِيَ إِذْ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٤٠ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [جِيتَ] بإبدال الهمزة ياء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [جِئْتَ] على الأصل دون إبدال.

٤١ ـ ٤٢• قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [لِنَفْسِيَ اذْهَبْ] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٤٢ ـ ٤٣• قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [في ذِكْرِيَ اذْهَبَا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن

٥٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [مَهْداً] مَصْدر «مَهَدَ». وقرأها باقي القراء العشرة: [مِهاداً] أي: فراشاً.

أي: مَهَدَها فجعلها كالفِراش.

٥٧ ـ • قرأ السوسي وأبو جعفر: [أَجِيتَنَا] بإبدال الهمزة ياءً. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَجِئْتَنَا] على الأصل دون إبدال.

٥٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [لاَ نُخْلِفْهُ] بالجزم على أنه جواب الطلب. وقرأها باقي القراء العشرة: [لاَ نُخْلِفُهُ] بالرَّفع، على أنه ليس جواب فاجْعَلْ. والإعرابان وجهان عربيان جائزان.

٥٨ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [سِوًى] بكسر السِّين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [سُوًى] بضم السين. كسر السين وضمها لغتان عربيتان.

يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ
﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا
فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن
يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ
﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾
قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا
تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا

---

٦١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، ورُويس، وخلف: **[فَيُسْحِتَكُمْ]** من فعل: «أَسْحَتَ الشيءَ» أي: استأصَلَهُ فلم يُبْقِ له أثراً.
وقرأها باقي القرّاء العشر: **[فَيَسْحَتَكُمْ]** من فعل: «سَحَتَ الشيءَ» أي: استأصَلَهُ فلم يُبْقِ له أثراً. فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ ـ • قرأ ابن كثير: **[إِنْ هَذَانِّ]** مع المدّ المشبع. وقرأها أبو عَمْرو: **[إِنَّ هَٰذَيْنِ]**، وقرأها حفص: **[إِنْ هَٰذَانِ]**. وقرأها باقي القراء العشرة: **[إِنَّ هَٰذانِ]**.

٦٤ ـ • قرأ أبو عمرو: **[فاجْمَعُوا]** من فعل: «جَمَعَ يَجْمَعُ» يقال: جَمَعَ المتفرّق.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَأَجْمِعُوا]** من فعل «أَجْمَعَ يُجْمِعُ» يقال لغة: أَجْمَعَ الأَمْرَ، أي: أحكمه وجمع متفرّقه.
ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

٦٦ ـ • قرأ ابن ذكوان ورَوْح: **[تُخَيَّلُ]** بالتاء. وقرأ باقي القراء العشرة **[يُخَيَّلُ]** بالياء. القراءتان وجهان جائزان في العربية.

٦٩ ـ • قرأ البزّي في الوصل: **[تَّلَقَفْ]** بتشديد التاء. وقرأ ابن ذكوان: **[تَلَقَّفُ]**=

صَنَعُوٓاْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ

= بفتح اللام وتشديد القاف، ورفع الفاء. دون ملاحظة أنه جواب الطلب، وهو جائز نحوياً. وقرأ حَفْص: [تَلْقَفْ] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وجزم الفاء. وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلَقَّفْ] بفتح اللام وتشديد القاف، وجزم الفاء. الجزم على أنه جواب: [وَأَلْقِ].

٦٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [كَيْدُ سِحْرٍ]. وقرأ باقي القراء العشرة: [كَيْدُ ساحِرٍ] مؤدّى القراءتين واحد، وهما من قبيل التفنُّن في التعبير.

٧١ ـ • قرأ حفص ورُويس: بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية من: [ءَامَنتُمْ] وقرأ قنبل في الوصل بإبدال الهمزة الأولى واواً وتسهيل الثانية.

وقرأ شعبة، ورَوْح، وحمزة، والكسائي، وخلف: بتحقيق الهمزتين.

وقرأ باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية من غير إدْخال، وهو وجه قنبل حالة الوقف.

٧٢ ـ • قرأ وَرْش، والسوسي، وأبو جعفر: [نُوثِرَكَ] بإبدال الهمزة واواً. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [نُؤْثِرَكَ] بالهمزة الساكنة.

٧٥ ـ • قرأ السّوسي: [ومَنْ يَأْتِهْ] بإسكان الهاء. =

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن

= وقرأ رُويس، وقالُون بخُلْفٍ عنه: [وَمَنْ يَأْتِهِ] بكسر الهاء من غير صلة.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَمَنْ يَأْتِهِ] بكسر الهاء مع الصلة، وهو الوجه الثاني لقالون.

وهذه القراءات وجوهٌ عربيّة في الأداء، نزل القرآن بها.

٧٧ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [أنِ أسْرِ] بوصل همزة «اسْرِ» ويبدؤون بهمزة مكسورة. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنْ أَسْرِ] بقطع الهمزة مفتوحة وصلاً ووقفاً، ويبدؤون بهمزة مفتوحة.

٧٧ ـ • قرأ حمزة: [لاَ تَخَفْ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لاَ تَخَافُ] أي: حالة كونِكَ لَا تخاف. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

٨٠ ـ ٨١• قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [أَنْجَيْتُكُمْ ـ وَوَعَدْتُكُمْ ـ مَا رَزَقْتُكُمْ] بضمير المتكلم المفرد. وقرأها أبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَنْجَيْنَاكُمْ ـ وَوَعَدْنَاكُمْ ـ وَمَا رَزَقْنَاكُمْ] بضمير المتكلم العظيم.

وفي القراءتين تنويع في الخطاب، فالإفراد للمؤانسة، وضمير المتكلم العظيم لتربية المهابة، والإشعار بعظمة الربوبيّة.

وقرأها الباقون: [أَنْجَيْنَاكُمْ ـ وَوَاعَدْنَاكُمْ ـ وَمَا رَزَقْنَاكُمْ].

٨١ ـ • قرأ الكسائي: [فَيَحُلَّ ـ وَمَنْ يَحْلُلْ] من: «حَلَّ يَحُلّ». وقرأها باقي القراء=

يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ

= العشرة: [فَيَحِلَّ ـ ومَنْ يَحْلِلْ] من فعل: «حَلَّ يَحِلُّ» وهما وجهان عربيان.

٨٤ ـ • قرأ رُويس: [عَلَى إِثْرِي] بكسر الهمزة وإسكان الثاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَى أَثَرِي] بفتح الهمزة والثاء.

ومعنى القراءتين واحد: إذْ يقال: جاءَ في إثْره، وجاء في أَثَرِه، أي: عَقِبَه.

٨٧ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: [بِمَلْكِنَا] بفتح الميم.

وقرأها حمزة، والكسائي، وخَلَف: [بِمُلْكِنَا] بضم الميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمِلْكِنَا] بكسر الميم.

وهي لغات متكافئات.

٨٧ ـ • قرأ أبو عمرو، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [حُمِّلْنَا] بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

يظهر أن بعض بني إسرائيل حَمَل باختياره، وبعضَهُمْ حُمِّلَها بتأثير غيره كزوجته مثلاً.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾

٨٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بكَسْر الهاء.
والقراءتان وجهان عربيان.

٩٣ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو: [تَتَّبِعَنِي] بإثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات هذه الياء في الوصل والوقف.
وقرأ أبو جعفر بإثباتها مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة بحذفها وصلاً ووقفاً.

٩٤ ـ • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [يَاابْنَؤُمِّ] بكسر الميم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يَاابْنَؤُمَّ] بفتح الميم.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [بِرَأْسِيَ إِنّي] بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراءة العشرة بإسكانها.
وأبدل الهمزة مطلقاً أبو جعفر والسوسي، وأبدلها حمزة في الوقف فقط.

٩٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [تَبْصُروا به] بتاء المخاطبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَبْصُرُوا به] بياء الغائبين.
والقراءتان تعبّران عن بيانين قالهما السّامِري أحَدُهما واجه به موسَىٰ وحاضري مجلسه. والآخر تحدَّث به عن الغائبين من بني إسرائيل.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

٩٧ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [لَنْ تُخْلِفَهُ] أي: تَعِدُنَا بعَدَمِ إخلافه. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَنْ تُخْلَفَهُ] أي: نَعِدُكَ بعَدم إخلافه. القراءتان تُعبّران عن بيانين.

٩٧ ـ • قرأ ابن وَرْدان: [لَنَحْرُقَنَّهُ] من فعل: «حَرَقه يَحْرُقُه».
وقرأ ابنُ جَمّاز: [لَنُحرِقَنَّهُ] من فعل: «أحْرَقَ يُحْرِق».
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ].
هذه القراءات وجوهٌ عربية جائزة. وقراءة الجمهور تدلُّ على أن موسى عليه السلام شدّد في عبارته في بعض أحوال غضبه من اتخاذ العجل.

١٠٢ ـ • قرأ أبو عمرو: [نَنْفُخُ] بنون المتكلّم العظيم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُنْفَخُ].
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: نأمُرُ بالنفخ في الصُّور، فيُنْفَخُ فيه من قِبَل الملك المكلّف بالنفخ فيه.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ

---

١١٠ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَيْدِيهِمْ] بكَسْرِ هاء الضمير وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

١١٢ ـ • قرأ ابن كثير: [فَلَا يَخَفْ]، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَلَا يَخَافُ]. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، فقراءة: [فَلَا يَخَفْ] عبارة طَمْأَنةٍ منذ الحياة الدنيا.

وقراءة: [فَلَا يَخَافُ] تعبّر عن حال المؤمن الذي عَمِلَ من الصّالحات بأنّه سوف يكونُ غَيْرَ خائف يوم الدين.

١١٤ ـ • قرأ يعقوب: [مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ إِلَيكَ وَحْيَهُ] بضمير المتكلّم العظيم باعتبار أنّه الآمِرَ بالوَحْيِ إليه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيكَ وَحْيُهُ] أي على لسان جبريل عليه السلام المأمور بأن يوحِيَ إليك القرآن.

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

١١٦ ـ • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلاَئِكَةُ اسْجُدُوا] بضم تاء الملائكة مراعاة لضم جيم اسْجُدُوا.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا] بكسر تاء الملائكة على الأصل.

١١٩ ـ • قرأ نافع، وشعبة: [وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَأُ] بكسر همزة «إن» على أن الجملة ابتدائية.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ] بفتح همزة «أن» على اعتبار أن الجملة معطوفة على [أَنْ لاَ تَجُوعَ].

أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن

١٢٥ ـ • قرأ نَافع، وابنُ كثير، وأبو جعفر: [حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىٰ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلّم.

١٣٠ ـ • قرأ شعبة، والكسائي: [تُرْضَىٰ] أي: راجياً أن يُرضيك الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَرْضَىٰ] أي: إذا أرضاك رَبُّكَ فإنَّكَ تَرضَى. فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

١٣١ ـ • قرأ يعقوب: [زَهَرَةَ] بفتح الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة: [زَهْرَةَ] بإسْكان الهاء، وهما وجهان عربيان لنطق كلمة «زَهْرَة».

١٣٢ ـ • قرأ ورْشٌ، والسُّوسي: [وَامُرْ] بإبدال الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأْمُرْ] دون إبدال.

رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

١٣٣ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وابن جمّاز، ورَوْح: [أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ] بتاء التأنيث.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ] بياء التذكير.

ولِوَرْش، والسّوسي، وابن جمّاز إبدال الهمزة ألفاً.

وضمّ رُوَيْس هاء الضمير في الوصل والوقف، وكسرها باقي القراء العشرة.

١٣٥ـ • قرأ قُنْبل، ورُوَيْس: [السِّرَاط] بالسّين.

وَأَشَمَّ خلف عن حمزة: الصاد زاياً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الصِّراطِ] بالصاد.

(٢)

مما ورد في السيرة النبويّة بشأن سورة (طه)

جاء في سيرة ابن هشام ما يلي:

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عُمَرَ فيما بَلَغني أنّ أُختَه فاطِمة بنت الخطّاب، وكانت عند سَعِيد بن زَيْدِ بْنِ عَمْرو بْنِ نُفَيْلٍ، وكانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ وأَسْلَمَ بَعْلُها سَعِيدُ بْنُ زَيْد، وهما مُسْتَخْفِيات بإسْلامِهِما مِنْ عُمَر، وكانَ نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّحَّام، رجلٌ من قومه، من بني عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ قد أَسْلَم، وكان أيضاً يَسْتَخْفِي بإسْلامِهِ فَرَقاً مِنْ قَوْمِه، وكانَ خَبَّابُ بْنُ

الأَرَتّ(١) يَخْتَلِفُ إلى فاطِمَة يُقْرِئُها القُرْآن.

فخرج عُمَر بْنُ الخطَّاب يوماً مُتَوشّحاً سَيْفه، يُريدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَهْطاً من أصحابه، قد ذُكِرُوا لَهُ أَنَّهُم قد اجْتَمَعُوا في بَيْتٍ عند الصَّفَا، وهم قَرِيبٌ من أَرْبَعين، ما بَيْنَ رجالٍ ونساء، ومع رَسُول اللَّهِ ﷺ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنُ عبد المطَّلب، وأبو بَكْر بْنُ أبي قُحَافَة الصِّدّيقُ، وعليُّ بنُ أبي طالب في رجالٍ من المسلمين رضي الله عنهم، ممَّنْ كان أقام مع رسول الله ﷺ، ولَمْ يَخْرُجْ فيمن خَرَجَ إلى أرْض الحبَشة، فلقِيَهُ «نُعَيْمُ بنْ عبد الله» فقال له: أيْنَ تُريدُ يا عُمَر؟ فقال: أُريد محمّداً هذا الصابئ، الَّذي فرَّقَ أمْرَ قُرَيْشٍ، وسَفَّهَ أحلامَها، وعابَ دينَها، وسَبَّ آلِهَتَها، فأقْتُله.

فقال له نُعيْم: واللَّهِ لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ يا عُمَر، أتَرَىٰ بني عَبْدِ مَنافٍ تَارِكِيكَ تَمْشِي على الأرض وقَدْ قَتَلْتَ محمّداً؟! أفَلَا تَرْجعُ إلى أهْلِ بيتِك فتُقيم أمْرَهم؟

قال: وأيُّ أهل بيتي؟

قال: خَتَنُكَ(٢)، وابْنُ عَمِّكَ سعيد بنُ زيد بن عَمْرو، وأُخْتُكَ فاطِمَةُ بِنْتُ الخطّاب، فقد ـ واللَّهِ ـ أسْلَمَا، وتابعا محمّداً على دينِه، فعلَيْكَ بهما.

فرَجَعَ عُمَرُ عامداً إلى أُخْتِهِ وختَنِهِ، وعندهُما «خَبَّابُ بْن الأرتّ» معَهُ

---

(١) ذُكِرَ أن عُمَرَ بنَ الخطَّاب، وهو أمير المؤمنين، سأل «خبَّاب بْنَ الأرَتّ» عمّا لقي في ذاتِ الله، فكَشَفَ ظَهْرَهُ، فقال عُمَر: ما رأيْتُ كاليوم! فقال: يا أمير المؤمنين، لَقَدْ أُوقدَتْ لي نارٌ، فما أطفأها إلا شَحْمِي.

(٢) **خَتَنُكَ** أي: زوج أختك فاطمة، **الخَتَنُ**: زوج البِنْت، وزوج الأخت، وكلّ من كان من قِبَل المرأة، كأبيها، وأخيها.

صحيفة، فيها «طه» يُقرِئُهما إيَّاها، فلمَّا سَمِعُوا حِسَّ عُمَر تَغَيَّبَ «خبَّابٌ» في مَخْدَعٍ لهم، أو في بَعْضِ البَيْتِ، وأخَذَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ الخطَّابِ الصحيفة فَجَعَلَتْهَا تَحْتَ فَخِذها، وقد سَمِعَ عُمَرُ حينَ دَنا إلى البَيْتِ قراءة «خبَّابٍ» عَلَيْهِما، فلمَّا دَخَلَ قال: ما هٰذِهِ الهَيْنَمَة[1] الَّتي سَمِعْتُ؟

قالَا له: ما سَمِعْتَ شَيْئاً.

قال: بلى واللَّه لَقَدْ أُخبِرْتُ أَنَّكُمَا تَابَعْتُمَا مُحَمّداً على دينه، وبَطَشَ بخَتَنِهِ «سَعِيد بْنِ زَيْد» فقامَتْ إليه أُخْتَهُ فاطمةُ بِنْتُ الخطَّابِ، لتَكُفَّهُ عَنْ زَوْجِهَا، فضَرَبَها فَشَجَّهَا.

فلمَّا فَعَلَ ذلكَ قالَتْ لَهُ أُخْتُهُ وخَتَنَهُ: نَعَمْ قَدْ أَسْلَمْنَا وآمَنَّا باللَّهِ ورسوله فاصْنَعْ ما بَدا لكَ.

فلمَّا رأىٰ عُمَرُ ما بأُخْتِهِ من الدَّمِ نَدِمَ على ما صَنَعَ، فارْعَوَىٰ، وقال لأُخْتِهِ: أَعْطِيني هٰذِهِ الصحيفة الّتي سَمِعْتُكُمْ تَقْرَؤُونَ آنفاً أَنْظُرْ ما هذا الّذي جاءَ به محمّد، وكان عُمَرُ كاتباً، فلمّا قال ذلك، قالَتْ له أُخْتَهُ: إنَّا نَخْشَاكَ عليها.

قال: لا تخافي، وحَلَفَ لها بآلهتِهِ لَيَرُدَّنَّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك طَمِعَتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنَّك نَجِسٌ على شِرْكِكَ، وإنَّه لَا يَمَسُّهَا إلَّا المُطَهَّرون.

فقامَ عُمَرُ فاغْتَسَل، فأَعْطَتْهُ الصحيفة، وفيها «طه» فقرأها، فلمَّا قرأ مِنْهَا صَدْراً قال: ما أَحْسَنَ هذا الكلام وأكْرَمَه!

فلمّا سمع ذلك «خبَّابٌ» خرَجَ إليه، فقال له: يا عُمَر، واللَّهِ إنّي لأَرْجُو أن يكون اللَّهُ قَدْ خَصَّكَ بدَعْوَةِ نَبِيِّه، فإنّي سَمِعْتُه أمْس وهو يقول:

---

(١) **الهَيْنَمَة**: صوت كلام غَيْرَ ظاهر.

اللَّهُمَّ أيِّد الإسلام بأبي الحَكَمِ بْنِ هشام، أو بِعُمَرَ بن الخطاب، فاللَّه اللَّهَ يا عُمَر.

فقال له عند ذلكَ عُمر: فدُلَّني يا خَبَّابُ على محمّد حتَّى آتِيَهُ فأُسْلِمَ.

فقال له خبَّاب: هو في بيتٍ عند الصَّفا، معَه فيه نَفَرٌ مِنْ أصحابِهِ، فأخذ عُمَرُ سَيْفَهُ فتَوَشَّحَهُ، ثُمَّ عَمَدَ إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرَبَ عليهم الباب، فلمَّا سَمِعُوا صَوْته، قامَ رجُلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خَلَل الباب، فرآهُ مُتَوشِّحاً السَّيْفَ، فرَجَعَ إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: يا رَسُول الله، هذا عُمَرُ بْنُ الخطَّاب مُتَوشِّحاً السَّيف، فقال حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِب: فَأْذَنْ له، فإنْ جاءَ يُرِيد خَيْراً بذَلْنَاهُ له، وإنْ كانَ جاءَ يُرِيدُ شرّاً قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ.

فقال رسول الله ﷺ: ائْذَنْ له، فأذِنَ له الرَّجُل، ونَهَضَ إليه رسُولُ الله ﷺ حتَّىٰ لَقِيَهُ في الحُجْرَةِ، فأخَذَ حُجْزَتَه[1]، أو بمَجْمَعِ رِدائه، ثم جَبَذَهُ به جَبْذَةً شَدِيدَةً، وقال: مَا جاءَ بكَ يا ابنَ الخطَّاب، فواللَّهِ ما أَرَى أَنْ تَنْتَهِي حتَّى يُنْزِلَ اللَّهُ بكَ قَارِعَةً[2].

قال عمر: يا رسُول الله، جِئْتُكَ لأُومِنَ باللَّهِ وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

فكبَّرَ رسولُ الله ﷺ تكبيرَةً عَرَفَ أهْلُ البَيْتِ من أصحاب رسولِ الله ﷺ أنَّ عُمَرُ قَدْ أسْلَم.

فتفرَّقَ أصْحَابُ رسُولِ اللَّهِ ﷺ من مكانهم، وقَدْ عَزُّوا في أنْفُسِهِمْ

---

(١) **الحُجْزَة**: مَوْضع شدّ الإزار.

(٢) **القارعة**: المصيبة الشديدة.

حينَ أسْلَمَ عُمَرُ مع إسْلامِ حمزة، وعَرَفُوا أنَّهما سَيَمْنَعَانِ رسُولَ الله ﷺ، ويَنْتَصِفُونَ بهما من عَدُوِّهم.

(٣)
موضوع سورة (طٰه)

يدور موضوع سورة (طٰه) حول الرسول والقرآن وبعض وظائفهما في النّاس، وتحذيرِ من يُعْرِضُ عن القرآن من النّاس، من سوء المصير يوم الدين، مع بيان بعض ما يجري في يوم القيامَةِ من تغييراتٍ وأحداث كونيَّة، ومع بيانات تتعلَّق بآدم عليه السلام، وبَعْضِ ما أنْزَل الله عليهِ لهدايَةِ الجيلِ البشريّ الأوّل، فمَنْ بَعْدَهم حتَّى احتاج الناس إلى رسُولٍ بعد آدم، وأنّ الله حذّر الجيلَ الأوّل من الإعراضِ عمّا يأتيهم مِنْ هدىً، كما حذّر النّاس في الدين الخاتم من الإعراضِ عن القرآن، الذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ للناس أجمعين، واسْتَتْبَعَ هذا التحذير الإنذارَ بعقابٍ مُشابِهٍ لأنواع العقاب الّتي عاقب الله بها كفّار القرونِ السابقة.

وقد تضمَّن هذا الموضوع توصيةً من الله لرسوله وحَمَلَةِ رسالَته من أُمَّتِهِ ببَعْضِ الوصايا التي تتطَلَّبُها وظيفة حامل الرسالة الرَّبانيَّة للنّاس.

وجاء في آخر السورة معالجة الكافرين حول بعض أقوالهم الّتي ظهرت قبل نزول سورة (طٰه)، وفي هذه المعالجة إقناعٌ وإنذارٌ بالعقاب.

وقد اقتضىٰ هذا الموضوع عرض لقطاتٍ من قصّة موسى عليه السلام، وتتضمَّنُ هذه اللّقطات جوانب تربوية ينتفِعُ بها الرسولُ ﷺ، والّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وتتضمَّن تلويحات بعصَا الإنذار لمَنْ كَفَرَ وعصىٰ، قياساً على ما جرىٰ لفرعون وقومه.

وتتضمَّن آيضاً بيان بعض ما جرى لبني إسرائيل من اضطهادٍ في مصر، وما كان منهم من أحداثٍ بَعْدَ خروجهم منها، وفي هذا البيان ما

يفيد بشأن موضوع السّورة الأسَاسي، لمن أحْسَنَ التدبُّر واسْتَبْصَر وعَقَلَ، فقِصَصُ الرُّسلِ وأُمَمِهِم مُتَشابِهَة، ويُسْتَفاد من قِصَص السابقين لِلّاحقين الشيءُ الكثير.

(٤)
دروس سورة (طه)

تشتمل هذه السورة على تسعة دروس:

الدرس الأول:

يتضمَّنُ ما يلي:

(١) بيان وظيفة الرَّسُول التبليغية.

(٢) بيان وظيفة القرآن التعليميَّة والتذكيريَّة.

(٣) بيان أنّ القرآن كلام الله وتنزيلٌ من لَدُنه، مع التذكير بأنَّ مُنَزّل القرآن هو خالِقُ الأرض والسماوات العُلَا، وهُوَ العظيم الرَّحْمٰنُ الذي على العرش استوى، وله ما في السماواتِ وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وأنّه يَعْلَم السِّرّ وأخفى، وأنَّهُ الله الذي لا إلٰه إلّا هو لَهُ الأسماء الحسنى.

وهو الآيات من (١ ـ ٨).

الدرس الثاني:

يتضمن بيان لقطات من قصة موسى بدءاً من وصوله إلى قرب جبل الطور، في رِحْلَةِ رَجْعَتِهِ إلى مصر من مَدْيَن، هو وأهله، ومكالَمةِ الله له، وتكليفهِ وظائفَ رسالَتِهِ، وأحداثِ قيامِهِ برسالَةِ ربِّه في مصر، حتَّىٰ خروجه ببَنِي إسرائيل من مصر، وعُبُورِهِمُ البَحْر، وغَرَقِ فِرْعَوْنَ وجنوده، مع ذكر بعض الأحداث التي جرت في سيناء بعد العبور.

وفي عرض هذه القصة غطاتٌ تربويَّة عظيمة للرسول وللذين آمنُوا به واتّبَعُوه، وإنذاراتٌ للّذين كفروا به ولم يَسْتَجِيبوا لدعوته.

وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩).

الدرس الثالث:

يتضمَّن تحذير من يُعْرِضُ عن القرآن الّذي آتاه اللَّهُ نبيَّه ذِكْراً للعالمين، من سوء المصير يَوْمَ الدّين.

مع عرض لَقْطَةٍ من لقطات أحوال المجرمين يومئذٍ.

وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ ـ ١٠٤).

الدرس الرابع:

يتضمَّن لقطاتٍ من وصف يوم القيامة، وما يكون فيه من تغييراتٍ كونيّة، وأحداثٍ كبيرة.

وهو الآيات من (١٠٥ ـ ١١٢).

الدرس الخامس:

يتضمَّن بياناً عن القرآن، وتربيةً شِبْهَ مُعْتَرِضَة موجّهة للرّسول ﷺ تُوصِيهِ بعَدَمِ تعجّلِهِ بتَرْدِيدِ آيات القرآن حين تَنْزِيلِهِ عَلَيْهِ، من قَبْلِ أنْ يُقْضَى إليه وَحْيُه.

وهو الآيتان: (١١٣ و١١٤).

الدرس السادس:

يتضمّن لقطات من قصّة آدم عليه السلام، وبيانات تتعلّقُ بما أنزل الله عزّ وجلّ على الجيلِ البشريّ الأوّل من هُدىً، وأنّ الله حذَّرَهم من الإعراضِ عَنْه، وهذا التَّحْذِيرُ يَنْسَحِبُ على كُلِّ الناس حتّى آخر إنسانٍ مُكلّفٍ في الحياة الدُّنيا، أنْ لا يُعْرِضَ عمَّا أنْزَلَ اللَّهُ للنَّاس على توالي

الأجيال، ومعلومٌ أنّ المَطْلُوبَ العَمَلُ وِفْقَ آخِرِ تنزيلٍ أنزلَهُ الله لعباده.

وهو الآيات من (١١٥ ـ ١١٧).

الدرس السابع:

يتضمّن تحذير مُكذّبي الرسول محمد ﷺ والكافرين بما أنزل الله عليه من عقابٍ إهْلَاكِيٍّ شامل، مشابهٍ للعقاب الذي أنزله بكفّار القُرون الأولىٰ.

وهو الآيتان: (١٢٨ و١٢٩).

الدرس الثامن:

يتضمَّن توصية الله لرسوله، ولكلّ حامل رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، بالصَّبْرِ والتَّسْبِيحِ، وأنْ لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى ما مَتَّعَ اللَّهُ به أصنافاً من البشر، بزينَةِ الحياة الدنيا لامْتِحَانِهِم فيه.

ويتضمن تَوْجيه اللَّهِ لرَسُولِهِ ولكل حاملِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ، لملاحظة ما هو خير وأبقى، وهو ما أعدَّهُ الله من نعيم باذخ ومُلْكٍ عظيم يوم الدّين لأوليائه. والتوصية بأنْ يَأْمُرَ أهله بالصلاة وأن يصطَبِرَ عليها.

وهو الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٢).

الدرس التاسع:

يتضمَّن معالجة بعض أقوال الكافرين الاقتراحيَّة، بالإقناع وبالإنذار بالعذاب والإهلاك.

وهو الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٥) آخر السورة.

(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (طه) وهو الآيات من (١ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

• سكت أبو جعفر سَكْتَةً لطيفة بدُونِ تنفُّسٍ على «طَا» و«ها»، ولم يَسْكُتْ هذه السكتَةَ باقي القرّاء العشرة.

التدبّر التحليلي:

• [طه] حرفان من الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعضِ سُور القرآن، وقد ذكَرْتُ ما يَكْفِي بشأنها لدَى تدبّر أوّل سورة (القلم).

وذكروا أنّ كلمة (طه) هي بمعنى: يا رجل، في لغة «عك» وفي لغة «عكل» وفي لغة «طي»، وقيل: هي كذلك في اللُّغة النبطيّة، وفي اللُّغة الحبشيّة، وفي اللُّغَةِ السّريانية.

ولفظ «طه» اسْمٌ لهذه السورة.

ولم يصحّ أنها اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، أو اسم من أسماء الرسول محمّد ﷺ.

قول الله عزّ وجلّ:

[مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾]:

الخطابُ في هذه الآية موجّه للرَّسُول محمّد ﷺ، وهو ينسحبُ من بعده، فيشْمَلُ كُلَّ حَمَلَةِ رسالَتِهِ من أُمَّتِهِ.

[لِتَشْقَىٰ]: **الشقاء**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على كلّ ما لا يسُرُّ الإنسان من أُمُورٍ، وعلى كُلّ ما يُخالفُ رغبةً له ومطلوباً من مطالبه، في عاجلِ أمْرِهِ أو آجله، من أدنى المزعجات والمكدّرات، إلى أشد المؤلمات.

أي: ما أنزلْنَا القرآنَ علَيْكَ يا مُحمَّد لتَكْلِفِيكَ أعمالاً تشقىٰ بها،

أي: تُتْعِبُ نَفْسَكَ وقَلْبَكَ بها، كتَحْمِيلِكَ واجِبَ حَمْل الناس على الإيمانِ به، وبما جاء فيه، وواجِبَ حَمْلِ النَّاسِ على تطبيقِ شرائعه، وأحكامه، وما جاء فيه من أوامِرَ ونواهي.

وقد جاء في القرآن معالجةُ نَفْسِ الرَّسول ﷺ، بشأن حُدودِ مسؤوليّته تجاه رسالته، في نصوص متعدّدة، وفي مراحل متتابعة من تاريخ رسالته صلوات الله عليه، وبأساليب بيانية مختلفة، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول) خطاباً له:

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول):

﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

- **[إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾]**:

قام في أذهاب المفسّرين أنّ «إلَّا» في هذه الآية أداةُ استثناء، أو الاستثناء بها استثناء منقطع، فأخذوا يُؤَوّلون تأويلات لا لزوم لها.

والأَوْلَى أنْ نَعْتَبِر «إلَّا» هنا وفي مواضع أخرى مشابهة، أداة استدراكٍ بمعنى: «لَكِنْ» وعندئذٍ فلا حاجة في العبارة إلى تأويل.

وعلى هذا يكون المعنى: ما أنزلْنا علَيْكَ القُرْآنَ لتكليفِكَ أعمالاً

تَشْقَىٰ بها، لكِنْ أنْزَلْنَاهُ لتَقُومَ بتَبْلِيغِهِ، وبيانِ ما جاء فيه، ومتابَعَةِ تذكيرِ مَنْ يَخْشَى، وليكون نَصُّهُ دواماً أداة تَذْكيرٍ لِمَنْ يَخْشَوْنَ عقاب رَبّهم، بما هو مَطْلُوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

[تَذْكِرَةً]: التَّذْكِرة: تأتي بمعنيَيْن:

المعنى الأول: التذكِرَة: اسْمٌ لمَا يُسْتَذْكَرُ بهِ الشيءُ المطلوب تَذَكُّره، كالرَّتيمة، وكالبطاقة الّتي تُذَكّرُ بموعد اللّقاء والاجتماع.

المعنى الثاني: التَّذْكِرَة: مَصْدَرٌ لفِعْلِ «ذَكَّر» يقال لُغةً: ذكَّرَهُ تَذْكيراً وتَذْكِرَة.

قال الصَّرْفيون: ونَدَرَ مجيء مَصْدَرِ «فَعَّل» على «تَفْعِلَة» ومن هذا النادر: «ذكَّرَ تَذْكِرَةً» و«جَرَّبَ تَجْرِبَةً» و«بَصَّرَ تَبْصِرَةً».

ويمكن حمل لفظ «تَذْكِرَة» في الآية على المعنيَيْن:

• فنقول على الأول: لكِنْ ليكون القرآنُ نصاً ثابتاً مكتوباً، يَسْتَذْكِرُ به من يَخْشَوْنَ ربَّهُمْ، ما هُو مطلوبٌ منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

• ونَقُول على الثاني: لكِنْ تذكيراً مِنْكَ ومِنْ حَمَلَةِ رِسَالَتِكَ من أُمّتِكَ، لمن يَخْشَى.

أي: أن تُتَابعَ بالتَّذْكِير بالقرآن مَنْ تَجِدُ لدَيْه استعداداً لأنْ يَخْشَى اللَّهَ وعقابَه.

[لِمَنْ يَخْشَى]: أصْلُ معنى الخشية، الخوف من شيءٍ مَخُوفٍ منه.

والخشية من اللَّهِ عزّ وجلّ في مُسْتَواها الأعلىٰ، خوفٌ مصحوبٌ بتعظيمٍ، وإجلالٍ، ومَهَابَةٍ، وقد يَقْتَرِنُ بها الحبُّ.

قول الله عزّ وجلّ:

• [تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَاوَاتِ العُلَىٰ ﴿٤﴾]:

[تَنزِيلاً]: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وهو بمعنى «الإِنْزَال» مَصْدَرِ «أنزل» لأنّ الفعل المضعف أخو الفعل المهموز.

وقد يُخْتَارُ لفْظُ «التَّنْزِيلِ» للدَّلَالَةِ على الأناة والتَّمَهُّل.

وهو مفعول مطلَقٌ من الفعل في [أَنزَلْنَا] في الآية (٢) بشيءٍ من التأويل، أو هو مفعولٌ مُطْلَقٌ من فِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: نُزِّل تنزيلاً بأناةٍ وتَمَهُّلٍ مِمَّنْ خلقَ الأرض والسَّمَاوَّتِ العُلَى.

وقد سبَقَ أنّ ظَهرَ لنا بالتدبُّر، أنَّ كُلَّ عطاءاتِ الله وما يأتي منه لمخلوقاته، هو إنزالٌ وتَنْزِيل، لأنَّهُ جلَّ جلالُهُ العلِيُّ الأعْلَى، ولَوْ كان ما يَخْلُقُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ صُنْعاً مِنْ صُنْعِهِ في الأرض، لَمْ يُنْزِلْهُ مِنَ السَّماء، كقوله تعالىٰ في سورة (الزُّمَر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ... ﴿٦﴾﴾.

في معظم النُّصوص القرآنيَّة الّتي اجْتَمَعَ فيها ذِكْرُ السَّمَاواتِ والأَرْضِ، نجد أن لفظ «السَّماوات» أو «السَّماء» قد جاء مُقَدَّماً على الأرض، وهذا هو ما تقتضيه حِكْمَةُ البَدْء بذِكْر الأكْبَر، وبَعْدَهُ يأتي ذِكْرُ ما هو أصْغر.

لكن جاء في هذه الآية البَدْء بذكر الأرض، لمراعاةِ فَنِّيَّة التناظُرِ بين رؤوس الآيات، الّذي من أجْلِهِ وُصِفَت السَّماوات بكلِمَةِ [العُلَىٰ].

[الأَرْضَ] هي هذا الكوكَبُ الذي نَعِيشُ عليه، بكلّ ما فيه مِنْ منافع وعجائبِ خَلْقٍ رَبَّانيّ.

[والسَّمَاوَاتِ]: هي السَّماوات السَّبْعُ، ويُلْحَقُ بها الكُرْسِيُّ والعَرْش، لأنَّها تَقَعُ في جِهَةِ العُلُوّ بالنِّسْبَةِ إلى الأَرْض وسُكَّانها، فالسَّماءُ في اللُّغَةِ كُلُّ ما عَلَا وارْتَفَعَ عن رأسِ مُشاهِدِهِ، وهو غَيْرُ مُنَكَّس القامَةِ.

[**العُلَىٰ**]: على وَزْنِ «الفُعَل» جَمْعُ «العُلْيَا» على وزن «الفُعْلَى» مثل «الكُبْرَى» تُجْمَعُ على «كُبَر» والصُّغْرَى تُجمَعُ على «صُغَر» وهو جَمْعٌ قياسي.

العُلَا: أي: المرتفعة، وارْتفاعُهَا العظيم مشهودٌ لكُلِّ ذي نظر.

أمَّا ما في السَّماواتِ من عجائب خَلْقِ الله ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ فَشَيْءٌ لا تَسْتَطِيعُ كُلُّ الخلائق حَصْره.

أي: إنَّ الذي خَلَق الأرض والسَّماوات العُلَا، هُوَ الذي أنزل القرآنَ على رسوله محمّد ﷺ، فلا بُدَّ أنْ تَكُونَ عظمَةُ القرآن متناسِبَةً مع عظَمَةِ مُنْزِله، خالِقِ الأرض والسَّماوات العُلَا.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾:

أي: خَالِقُ الأرض والسَّماواتِ العُلا هو الرَّحمٰن، وهو على العرش استوى.

[**الرَّحْمٰنُ**]: اسم من أسماء الله الحسْنَى، وهو يَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ متَّصِفٌ بالرَّحْمَةِ العظمىٰ.

الرَّحْمة: صفة من صفات الله الجليلة، وهي صفة نَفْسيَّة نثبِتُها لله عزَّ وجلَّ على ما يليق بجلاله.

ومن آثار صفة الرَّحمة لله عزّ وجلّ، العَطاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البُؤْسِ، والإمدادُ بما يَسُرّ، ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويطمئِنُ القلب، ويُمْتِعُ ذا الحياة بما يطيب لديه، ويَهبُه ما يُلَبِّي حاجاته، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرِّ والضُّرَّ والسُّوء، ويَهْدِيه إلى ما فيه خيرُهُ وسعادته في عاجل أمْرِهِ وآجله، ويُبَيِّن له ما فيه شرٌّ وضُرٌّ وأذىٰ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة جداً.

[عَلَىٰ العَرْشِ]: **العَرْش**: كائِنٌ عظيم، فوق السَّماوات السَّبْعِ وفوق الكُرْسي، وهو أعْظَمُ مِنْها. وليس لدينا بيانٌ صحيحٌ عن الرسول ﷺ يُبيِّنُ وَصْفَهُ، أو يُبَيِّنُ وَصْفَ الكرسي، والذي التقت على بيانه الآثار أنَّ السماوات السَّبْع بالنسبة إلى الكرسي كحلْقَةٍ مُلْقاةٍ في أرضٍ فلاة، وأنّ الكرسيّ بالنسبة إلى العرش كحلقةٍ ملقاةٍ في أرض فلاة.

[اسْتَوَىٰ]: **الاستواء**: في اللُّغَة الاستقامةُ والاعْتدال، يُقالُ لغة: استوى فلانٌ على كذا، أي: اعتدَلَ واستقام فوقه.

ويقال: استوى إلى فِعْلِ كذا، أي: اعْتَدَل واستقامَ متوجّهاً لفِعْله، قاصداً إليه، لا يَلْوِي على شيءٍ آخر.

ويقال: استوى فلانٌ على سَرِير المُلْكِ، أي: تولّىٰ تَصْرِيف شُؤُون مَمْلَكَتِهِ.

وأحْسَنُ بيان حول الاستواء الذي وصَفَ الرَّحْمٰنُ به نفسه، ما قاله الإمام مالِكٌ إمامُ دار الهجرة:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاستواءُ غَيْرُ مجهولٍ، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عَنْه بِدْعَة».

قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾:

• [لَهُ]: أي: مِلْكُ اللَّهِ جميعُ ما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرَىٰ، ولفظ «ما» هي في الأصل لغير العاقل من الأحياء، ومن الأشياء، ولكن قد تُسْتَعْمَلُ من باب التَّغْليب على ذوي العقل والعلم، كما في هذه الآية.

وقد جاء استعمال لفظ «مَنْ» الخاصة بذوي العقل والعلم، في قول

الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) دالاًّ على أنّهم مِلْكه:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ونظيره في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

[كُلٌّ لَهُ قانِتُون]: أي: كُلٌّ لَهُ طائعونَ خاضِعُون، والمرادُ بالطاعَةِ والخضوعِ هُنا ما كانَ مِنْهُمَا جَبْرِياً لا اختيارِيّاً، نظراً إلى أنّ مَنْ في الأرض يوجَدُ فيهم عاصُونَ ومُسْتَكْبِرُون، وغير طائعين ولا خاضعين باختيارهم الحرّ.

[لاَ يَسْتَحْسِرُون]: أي: لا يتعَبُون ولا يَمَلُّون، وهم الملائكة.

● **[وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ]**: **الثَّرى**: التُّرَابُ النَّدِيُّ، ويُطْلَقُ أيضاً على النَّدَى.

أي: لِلَّهِ الرَّحمٰن مِلْكُ كُلِّ ما في السَّماوات من أشياء وأحياء، وكُلُّ ما في الأرض من أشياء وأحياء، وكُلُّ ما في داخل الأرض مِنْ كُنُوزٍ إنْباتِيَّة، بسبَبِ النَّدَى والماء الذي يَبُلُّ الترابَ فيكُونُ صالحاً لظُهُورِ النَّبَاتِ ونمُوّه، وكلُّ ما في داخل الأرض من كُنُوزٍ أخرى، كالمعادن على اختلافها، والمياه والنفط، والفَحْمِ الحجريّ، والحرارة، وغير ذلك مما أودعَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في باطن الأرض.

واخْتِير لفظ «الثَّرىٰ» هنا لحكمَتَيْن:

الحكمة الأُولَى: مراعاةُ فَنِّيَّة التَّناظُرِ بَيْنَ رُؤوس الآيات.

الحكمة الثانية: أنَّ سَطْحَ الأرض وما تكشِفُهُ المحاريثُ والحفريَّاتُ منها داخِلٌ في عُمُومِ عبارة: [**وَمَا فِي الأَرْضِ**] لأنَّ أكثر النَّاس يَفْهَمُونَ من الأرض ما هو مَرْئيٌّ منها، ولا يفهَمُون من لفظ «الأَرْض» ما هو داخِلٌ في أعماقِهَا حتَّىٰ مَرْكَزِ كُرَتِهَا.

فاقتضَىٰ البيانُ التَّنْبِيهَ على هذا الباطن، بعبارة: [**وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**]، أي: وما تحت الترابِ النَّدِيّ المَبْلُولِ، الَّذِي يُهِمُّكُمْ لزراعَتِهِ واستنباتِ ما تحتاجُونه لأنْفُسِكم وأنعامكم ودوابِّكم.

وإذا كان كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرض وما بَيْنَهُمَا وما في باطِنِ الأرض، داخلاً في مِلْكِ الله عزَّ وجلَّ، فلا بُدَّ أنْ يكُونَ خاضِعاً لسُلْطانِ مُلْكِهِ في كلِّ التصاريف والتدبيرات.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾:

• [**وإنْ تَجْهَرْ بالقَوْل**]: الجَهْرُ بالقول هو إعلانُه برفع الصوت عند النُّطْقِ به.

وفي استعمال «إنْ» الدَّالَّة على النُّدْرَة، إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسُول ﷺ رُبَّما جَهَرَ بِبَعْضِ دُعَائِهِ، من شِدَّةِ ما أصابَ نفْسَهُ من ضِيقٍ، بسبب عدم استجابةِ كبراء قومه لدعوته.

• [**فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى**]: **السِّرّ**: هو ما حدَّث به المحدّث غيرَهُ بمقدار ما يُسْمِعُه، واستكْتَمَهُ إيَّاهُ، حتَّى لا يصلَ العلم به إلى غيره.

والآراء الأُخرى الّتي ذكرها بَعْضُ المفسّرين في تعريف السرّ يُبْطِلها ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧):

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا . . . ﴿٣﴾﴾.

فقد عبَّر الله عزّ وجلّ عن حديث النبيّ لبَعْضِ أزواجه بأنَّه أَسَرَّهُ لها، فهو سِرٌّ، وهذا الحديث لا بُدَّ أن يكون بكلامٍ مَسْمُوع.

والأَخْفَى مِنَ السِّرِّ: هو ما حدَّث به الإنسانُ نَفْسَه في داخِلِ نفسه، دون أن يَنْطِقَ به، كالخواطر، والأحاديث الكثيرة الّتي تجري داخل النفس، دون أن يَنْطَلِقَ منها على اللّسان شَيْءٌ.

إنّ الأفكار الّتي يُعَبَّر عَنْها بالكلام لها ثلاثَةُ أحوال:

(١) إمَّا أن يَجْهر النّاطق بها، إذْ يَرْفَعُ بها صَوْته، دون أن يحاول إخفاءَها عن أحَد.

(٢) وإمَّا أنْ يُحدِّثَ بها مَنْ يَسْتَأْمِنُهُ على سرّه، وهو حريصٌ على إخفائه عن غَيْرِ مَنِ اسْتَأْمَنَه.

(٣) وإمَّا أن يُحَدِّث بها نَفْسَهُ في داخل نَفْسِهِ، دون أن يَنْطِقَ به.

ولعلّ الرَّسُول ﷺ أعْلَنَ بعْضَ دُعائه لرَبّه، فيما يتعلَّقُ بإعراض قومه عن القرآن وهجرهم له، وعدم استجابَتِهِمْ لدَعْوَته، كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقولِ الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

فأعلن الرسول ﷺ بدعائه هذا، وجَهَرَ به، فأعْلَمَهُ اللّهُ عزّ وجلّ بأنّه لا حاجة إلى جَهْرِكَ بِمِثْلِ هذا الدُّعاء، فإنَّ ربَّكَ يَعْلَمُ مناجاتك لَهُ سِرّاً، ويَعْلَمُ أحاديثَ نفسك وخواطِرَك.

وقد سبقَ لدى تدبّر الآية (٣) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بيانُ أدبِ الدُّعاء والذّكر لله عزّ وجلّ، وكذلك لدى تدبّر الآية (٢٠٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

والتوجيه للرَّسُول ﷺ في هذا يَعُمُّ كلَّ فَرْدٍ من أفراد أُمَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾:

هذه الآية بمثابة قرينة مُشْعِرَة بالمراد بالآية (٧) السابقة لها، وهو أنّ الرَّسُول ﷺ قد جَهَرَ بالقول في بَعْضِ دعائِهِ لربِّهِ، وكان أدَبُ الدُّعاء أن يناجي رَبَّه به مناجاةً، أو يَكْتَفِي بالدُّعاء النَّفسي.

فذِكْرُ الأسماء الحُسْنَى، الّتي يَدْعُو المؤمِنُ بها رَبَّه، وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

يُشْعِرُ بأنّ الأمرَ الذي وجَّهَهُ الله عزّ وجلّ لرسُوله، يتعَلَّقُ بدعاءٍ جَهَرَ به، وكان الأَوْلَى أن يلتزم أدب الدُّعاء، فيناجي ربَّه، أو يَدْعُوَهُ في نَفْسِهِ.

ويُؤكّدُ هذا قول الله لرسوله في الآية الثانية من هذا الدرس: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾.

• [**اللَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ**]: أي: الله لا مَعْبُودَ بحقٍّ عبادةً تَنْفَعُ العابِدَ إِلَّا هو جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

وقد جاءت هذه العبارة تمهيداً لعبارة [**لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**]، أي: الّتي لا عبادةَ للَّهِ بالدُّعاء إلّا بها.

وأسْمَاءُ اللَّهِ الحُسْنَىٰ تَشْمَلُ كُلَّ أسمائه وصفاته، ومِنْها ما جاء في الحديث الصحيح:

«إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسماً مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّة».

[**الحُسْنَى**]: مؤنَّثُ «الأحْسَن» فهي أفضل الأسماء بالإطلاق العامّ الشامل.

ولعلَّ في ذكر «الحُسْنَى» إشارَةً إلى أنّه يَحْسُنُ أن يَسْتَخْدِمَ الداعي في دعائه من أسماء الله ما يُلائِمُ المدعُوَّ به.

فإذا كان المطلوب يتعلَّقُ برحْمَةِ الله، سأل ربَّه باسمَيْ الرحمٰنِ الرحيم.

وإذا كان المطلوب يتعلَّقُ بغُفْران الذنوب، سأل الداعي ربَّهُ باسْمَي العَفُوّ الغفار.

وإذا كان المطلوبُ الانتقام من الظّالم المكابر، سأل الداعي ربَّه بأسمائه المنتقم القهّار الجبار.

وهكذا...

وبهذا انتهى تدبّر الدَّرْس الأوّل من دُرُوس سورة (طه)، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

(٦)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه) وهو الآيات من (٩ وحتى بعض الآية ٩٩)

وهذا الدرس يتضمن لقطات من قصة موسى عليه السلام ولطوله يَحْسُنُ تجزئته إلى فقرات

الفقرة الأولى
الآيات من (٩ ـ ٣٦)

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا

ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

القراءات:

١٠ ● قرأ حَمْزَة: **[لِأَهْلِهُ امْكُثُوا]** بضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: **[لِأَهْلِهِ امْكُثُوا]** بكَسْر هاء الضمير، وهُما لغتان عَرَبيانِ جائزتان.

١٠ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر: **[إنّيَ آنسْتُ]** بفتح ياء المتكلّم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٠ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبُو جَعْفر: **[لَعَلّيَ آتيكُمْ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَعَلّي آتِيكُمْ]** بإسكان ياء المتكلّم.

١٢ ● قرأ نافع: **[إنّيَ أنا ربُّكَ]** بفتح ياء المتكلّم وكسر همزة «إنَّ».

وقرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[أنّيَ أنا ربُّكَ]** بفتح ياء المتكلّم، وفتح همزة «أنّ» من «أنّي».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنِّي أَنَا رَبُّكَ] بإسكان ياء المتكلّم، وكَسْرِ همزة «إنّ».

كَسْرُ همزة «إنَّ» هو على أنَّ الجملة ابتدائية، وفتحها هو على تقدير حرف جرّ مَحْذوف، أي: نوديَ يا مُوسَىٰ بأنّي أنا رَبُّكَ.

وهما وجهان جائزان، وفيهما تفنُّنٌ في التعبير.

١٢ • قرأ يعقوب: [بِالْوَادِي] فأثبت الياء في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِالْوَادِ] بحذف الياء في الوقف والوصل.

١٢ • قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [طُوىً] بالتنوين، على أن اللفظ مصروف، بتقدير أنه نكرة وهو اسْمُ وادٍ، أو مكان ما.

وقرأها باقي القراء العشرة: [طُوىٰ] بدون تنوين على أنَّ اللفظ ممنوعٌ من الصَّرْف، بتقدير أنه معرفة إذ هو اسم بقْعَةٍ مَعْرُوفة.

١٣ • قرأ حمزة: [وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ] بضمير المتكلّم العظيم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ] بضمير المتكلّم المفرد.

والقراءتان تَدُلّان على أنَّ الله عزّ وجلّ خاطب موسى بضمير المتكلّم العظيم أوّلاً، لتربيَةِ المَهَابَةِ في قَلْبِهِ، ولإشعاره بأنّ الخالق قد اصطفاه بعظمة رُبوبيَّتِهِ، وبَعْدَ ذلك عاد إلى مخاطبَتِهِ بضمير المفرد لإيناسِهِ، فالسِّبَاقُ والسِّيَاق اشتملا على خطاب الله له بضمير المفرد.

١٤ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنَّنِيَ أَنَا اللَّهُ] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ] بإسكان ياء المتكلّم.

١٤ ـ ١٥ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [لِذِكْرِيَ إِنَّ] بفَتْحِ ياء المتكلّم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

١٨ • قرأ وَرْش، وحفص: [وَلِيَ فِيهَا] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِيْ فِيهَا] بإسكان ياء المتكلّم.

٢٦ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي] بفتح ياء المتكلم من [لِيَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي] بإسكان ياء المتكلم من [لِي].

٣٠ ـ ٣١ • قرأ ابْنُ عامر: [أَخِيَ اشْدُدْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَخِي اشْدُدْ] بإسكان ياء المتكلّم.

٣٢ • قرأ ابْنُ عامر: [وَأُشْرِكْهُ] بضمّ الهمزة على أن موسَىٰ يجعلُ أخاهُ شَرِيكاً له في أمْرِ رِسالته.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَأَشْرِكْهُ] بفتح الهمزة، على أنْ موسَىٰ عليه السَّلام سَأَلَ ربَّهُ أنْ يَجْعَلَ أخاه هارون شريكاً لَهُ في أَمْرِهِ.

والقراءتان تَدُلَّانِ على أنَّ موسىٰ عليه السَّلامُ قال أوّلاً: [وَأُشْرِكُهُ فِي أَمْرِي] ثمّ رَأى أنَّ هٰذِهِ العبارة لا تَلِيقُ في مقام متلقّي الرسالة عن رَبّه، فعَدَلَ عَنْها، وقال سائلاً ربَّهُ: [وَأَشْرِكْهُ].

تمهيد:

هذه فقرة تَصِفُ حَدَثاً جرىٰ لموسى عليه السلام، وهو راجعٌ بأهْلِهِ من أرْضِ مَدْين إلى مصر، حيث قومُه وأهْلُهُ الإسرائيليون، بعْدَ أنْ خرج منها خائفاً يترقَّبُ، حذراً من أن تَقْتُلَهُ السُّلطةُ الفرعونيّة، إذْ شاع في المصريين خَبَرُ قَتْلِهِ المصرِيَّ انتصاراً للإسرائيليّ المظلوم الذي اسْتَنْجَدَ به، إذْ وَكَزَهُ وَكْزَةً فقضَىٰ عليه.

والحدث العظيم الّذي تَصِفُ هذه الفقرة لقطاتٍ منه، هُو نداء الله لموسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن، ومكالمته له، ومَنْحُه آيَتَيْ العَصَا واليد، وتكليفُهُ حَمْلَ رسالةٍ عظمىٰ لفرعون والمصريّين، ولبَنِي إسرائيل، ولكلِّ مَنْ تَبْلُغُهُمْ دَعْوَته.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾:

العطف في مطلع هذا الدرس الثاني يدُلُّ على ربطه بالدرس الأول، وهذا الرَّبْطُ يُشْعِرُ الرَّسولَ المخاطب به بأن ينظر متفكراً فيما لاقىٰ موسى من متاعب ومشقّات في حَمْلِهِ رسالةَ ربه، وأنه لم يكن مكلّفاً أن يحوّل فرعون وقومه إلى الإيمان والإسلام، من الكفر والعصيان، بل كان مكلّفاً أن يُبَلِّغ رسالة ربّه بالبيان وبالحجة والبرهان، فإذا نظر إلى قصّة موسى بإمعان هان عليه ما هُوَ فيه. ثم على حَمَلة رسالة محمّد من أمّته أن ينظُروا هذا النظر ويَنْتَفِعُوا به.

[هَلْ]: حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن النّسبة الحكميّة في حالةِ الإيجاب، لا في حالة السَّلْب، والنِّسْبَةُ الحكميّة ما يُعْرَفُ عند المناطقة بالتصديق.

والاستفهام في هذه الجملة خارجٌ عن أصْلِ دلالته، وهي طلَبُ الإفْهام والإعلام، إلى معنى آخر من المعاني الكثيرة الّتي يخرج فيها الاستفهام عن أصل دَلَالته.

ونفهم هُنا أنّ المرادَ التَّنبِيهُ على أمْرٍ يُرادُ الإعلام به، ممَّا يتعلَّقُ بالنبيّ الرَّسُولِ مُوسَى عليه السلام.

[أَتَاكَ]: فعل «أتىٰ» هو في الأصل بمعنىٰ المجيء لذاتٍ من الملموسات، واستُعْمِلَ بمعنى العِلْم بالخبر، أو وُصولِ الكلام المتضمِّن للخبر، وهذا من التوسُّع اللّغويّ الذي صارَ بمثابة الحقيقة.

[حَدِيثُ موسَىٰ]: **الحديثُ**: كُلُّ ما يَنْطِقُ به اللّسان من كلامٍ ذي معنى.

و«مُوسَى» هو النبيُّ الرَّسُول، مُوسَىٰ بْنُ عمران، بن قاهث، بْن عازر، بن لاوي، بن يعقوب، بن إسْحاق، بن إبراهيم عليهم السلام.

لفظ «موسىٰ»: اسم مصري معناه «ولد»، ومعناه بالعبري «مُنْتَشَل»، أي: مُنْتَشَلٌ من الماء.

عمران: هو عند أهل الكتاب ينطق «عمرام» و«قاهث» هو عندهم «قهات».

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾:

[إِذْ]: ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، وهو هنا زَمَنُ بعض الأحداث الماضية التي جرَتْ لموسَىٰ عليه السّلام، بَعْدَ أنْ رأىٰ ناراً وهو في رحلة عَوْدَتِهِ إلى مصر، مع أهله من أرض مَدْيَنَ، الّتي تَزَوَّجَ فيها ابْنَةَ الشيخ الصالح، وأقام فيها نحو (١١) عاماً، خَدَمَ عَشْراً منها صِهْرَهُ أبا زوجته، والحادية عشرة هي الّتي جعل له صِهْرُهُ فيها مقابل خدمته له ما ولدتْ غنمُهُ من «قالِب ألوان»، أي: من غير ألوان أمَّهَاتها، بَعْد أن أدَّى في خدمته «أَوْفَىٰ الأجلين وأَكْمَلهُمَا» وهو عشر سنين، وكان قال له صِهْرُه: أُنْكِحُكَ إحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ على أنْ تَأْجُرَني ثماني حِجَجٍ فإنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ[1].

(١) سورة القصص/٢٨، الآية (٢٧).

قال أهل الكتاب: واسْمُها «صَفُّورَة».

• [إذْ رَأَىٰ ناراً]: قال المفسّرون والمؤرّخون: قد حصل ذلكَ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وباردَة، وأنّ موسىٰ وأهْلَهُ تاهُوا، فلم يَهْتَدُوا إلى السُّلوكِ في الدَّرْبِ المألوف إلى مِصْر، وأنَّهُ جعَلَ يُورِي زِنَادَهُ فلا يُعْطِي شرَراً لِيُوقِدَ ناراً، وقد اشتَدَّ الظلامُ والبَرد.

• [فقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا]: أي: فقال لزوجته ووَلَدَيْهِ ورُبَّما كان معهم خادم: امْكُثُوا، دلَّ على هذا مخاطَبَتُه لهم بضمير الجماعة: امْكُثُوا.

لفظ «الأهل» يطلَقُ على الأقارب، والعشيرة، والأصحاب، والزوجة، وأهْلُ الدَّار هم سُكَّانها.

ولهذا قال الله عزّ وجلَّ بشأنِ لوطٍ عليه السّلام في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وكان أهْلُهُ عليه السلام ابْنَتَيْهِ وزَوْجته.

[امْكُثُوا]: المَكْثُ: التوقُّفُ والانتظار والتمهُّل، يقالُ لغة: «مَكَثَ بالمكان يَمْكُثُ مُكْثاً ومَكْثاً ومُكُوثاً» أي: توقَّف، وانتظَرَ، وتَمَهَّل.

• [إنّي آنَسْتُ ناراً]: أي: إنّي أبْصَرْتُ ناراً، يُقالُ لغة: «آنَسَ الشيءَ»، أي: أحَسَّ به. وآنَسَهُ، أي: أبْصَرَه. وآنَسَ الصَّوْتَ: أي: سَمِعَه. وآنَسَ الأمْرَ، أي: عَلِمَه.

• ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾:

[لَعَلِّي]: ذكَرَ هذه العبارة التي تدلّ على الترجّي، لأنه لم يكن جازماً بتحقّق كلا الأمرين وكان يُرَجّح تحقُّقَ أحدهما، والترديد بحرْفِ «أو» يجعل القضية مانعة خُلُوّ، لا مانعة جمع.

[بقبسٍ]: **القبَسُ**: لفظٌ يُطْلَقُ على النار، ويُطْلَقُ على شُعْلةٍ منها.

وقد دلَّتْ عبارة: **[لَعَلّي آتيكم مِنْهَا بقبَسٍ]** على أنّ موسى عليه السّلام وأهْلَهُ كانوا بحاجةٍ إلى نارٍ يوقدونها، وأنّ الزناد الذي كان معَهُ لم يُورِ فلَمْ يستطعْ إيقادَ النار الّتي يحتاجون إليها.

ودلَّتْ عبارةُ: **[أوْ أجِدُ على النّار هُدىً]** على أنَّهُمْ كانوا تائِهين عن الطريق الموصل إلى مصر، فهم بحاجة إلى من يَهْدِيهم، ويدُلُّهم على الطريق. ودلَّ حرفُ **[علَى]** دون «عند» على أنّ موسى عليه السلام قصد المشرفين على إيقاد النار، لأنّهم يكونون أصحابَ معرفة بالطريق غالباً.

نظرة إلى ما جاء في النُّصوص القرآنيَّة الأخرى بشأن هذا الحدث:

(١) جاء بيان هذا الحدث في سورة (النَّمْل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[بِشِهابٍ]: **الشهاب**: الشُّعْلة المُلْتَهِبَة من النار.

[تَصْطَلُونَ]: أي: تَسْتَدْفِئُون. وهٰذه العبارة تدلُّ على أنَّهُمْ كانوا يُعانُونَ من شِدَّةِ البَرْد.

ولٰكِنْ جاء في هذه الآية قول موسىٰ لأهله على سبيل الجزم: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾.

بينما جاء التعبير في آية سورة (طه) على سبيل الترجّي لا على سبيل الجزم، إذْ قال فيها: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾، فكَيْفَ نُوَفِّقُ بيْنَ العبارتَيْن؟

أقول: يظهر أنّ موسى عليه السّلام لمّا رأى ناراً فرح برُؤيتها، فقال

دُونَ تَرَيُّثٍ عبارَتَهُ على سبيل الجزم، كما جاء في آية (النمل). ولمَّا هدأتْ فَرْحَتُهُ، عدَّلَ عبارتَه فجاء بها على سبيل الترجّي، كما جاء في آية (طه) إذْ رأى أنّ الجزمَ في مِثْلِ هذا لا يليق بحكيم عاقلٍ رشيد، وربّما قالت له زوجته: هلْ أنْتَ واثق ممّا تقولُ على سبيل الجزم، فتراجَع عن جَزْمِهِ، وعدَّل عبارته، فجعلها بصيغة الترجّي.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجذْوة: مثلّثة الجيم في اللغة، وهي الجَمْرَة الملتهبة.

أضافت هذه الآية من سورة (القصص) أن رِحْلَة عودته إلى مصر كانت بعد أن قضىٰ أجَلَ خدمَتِه لصِهْرِهِ أبي زوجته، وكانت أوْفَى الأجلين وأكملهما، وهما (٨) أو (١٠) سنوات.

وأضافت بيان أنّ النّارَ التي آنَسَها قد رآها من جانبِ جَبَل الطور، ويُسمَّى عند الإسرائيليين: «جَبَل اللّهِ حُوريب».

وجاء التعبير في آيَتَي (النمل) و(القصص) بعبارة: [بِخَبَرٍ] أي: بخبر عن الطريق الموصل إلى مصر. أمّا التعبير في آية (طه) فقد جاء بعبارة: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، والمرادُ خَبَرٌ يَهْدِيه الطريق الموصل إلى مصر، فهو من التفنُّن في التعبير، قالوا: ولم تكن ناراً ذات لهب يُحْرِق، وإنّما هو نور على شكل نار.

فالآيات الثلاث متكاملات، وفي بعضها بيانٌ عن التعديل الذي جاء في عبارة موسىٰ عليه السلام، من الجزم إلى الترجّي، مع ما في تغيير بعض العبارات من تفنّنٍ بياني.

وهكذا نجد فيما يَبْدو في النُّصوص القرآنية من مكرّرات أنَّها متكاملات، لكنَّ تدبُّرها يحتاج إلى أناةٍ وتأمّلٍ وتفكيرٍ بعُمق.

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

• ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾:

وفي قراءة حمزة: [**وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ**] بضمير المتكلّم العظيم.

[**فلمَّا أَتَاهَا**]: أي: فحِينَ وُصولِهِ إلى قُرْب مَوْقع النار مُباشرَةً.

[**نُودِيَ يَا مُوسَىٰ**]: أي: نَادَاه اللَّهُ عزّ وجلّ: يا مُوسَى.

• نظرة إلى ما جاء في النّصوص الأُخْرى بشَأْنِ هذا الحدث أيضاً:

(١) جاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وجاء فيها أيضاً خطاباً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، فلكلّ صالحٍ للخطاب:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٣) وجاء بيانٌ عنه في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾:

شرح المفردات والجمل:

• **[إِنّي أنَا رَبُّكَ]**: عبارة جاء فيها التوكيد بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الإسمية ـ وضمير الفصل «أنا»» لأنّ الخطاب من وراء المنظور، لإنسان لم يَسْبِقْ له أن تلقَّىٰ وحي رَبِّه، لا بمخاطبة الله له، ولا عن طريق وسيطٍ من الملائكة، فَهُوَ يحتاج أن يؤكَّد له الخبر.

أي: إنّني أنا الّذي أُكَلِّمُكَ من وَرَاءِ حجابٍ خالِقُك، ومُمِدُّكَ بعطاءات رُبوبيّته دواماً، والمدبِّر لكُلّ مقاديرِكَ على توالِي الأزمان.

• **[فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ]**: أي: فاخْلَعْ ما تَلْبَسُ بقَدَمَيْك. وهذا أمْرٌ له بأن يقف بين يدَيْ ربّه موقفَ الخُضُوع والتواضع والأدب الجمّ، وكان هذا من أدب الوقوف بين يدَيِ الله في تعليماتِ الدّين، وألْغِيَ في الإسلام.

وجاء عند الإسرائيليين، في الإصحاح الثالث من سفر الخروج، أنّ الله قال له:

«اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجلَيْكَ، لأَنَّ المَوْضِعَ الَّذِي أنْتَ واقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

• **[إِنَّكَ بِالْوَادِ المُقَدَّسِ طُوىً]**: بالوادي المقدّسِ، أي: بالوادي المطَهَّرِ من الأرجاس المعنويّة بتطهيرِ الله له، فمِنَ المناسب أن تُلْصِقَ قدَمَيْكَ حافِيَتَيْنِ بتُرَابِهِ ورِمَالِهِ.

الوادي المقدّس: هو الوادي المتَّصِلُ بجَبَلِ الطُّور، فأسْفَلُ جَبَل الطور شَاطئه.

المقدَّس: أي: المطهّر. **القُدْسُ**: الطهارة. ويقال لغة: قَدُسَ الشيءُ: أي: طَهُرَ. ويُقالُ: تَقَدَّسَ: أي: تَطَهَّر.

طُوىً: مَصْرُوفَةً وغير مصروفة، اسْمُ هذا الوادي الذي يَتّصِلُ جانبٌ منه بجبل الطور.

[وَأَنَا اخْتَرْتُكَ]: أي: وَأَنَا اصْطَفَيْتُكَ انتقاءً من الأخيار، وفي القراءة الأخرى: **[وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ]** بضمير المتكلم العظيم، وقد سبقَ بيان النظرة التكاملية بين هاتَيْنِ القراءتَيْن، لدى ذكر القراءات.

[فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ]: أي: فاسْمَعْ بإصغاءٍ كاملٍ ووعْيٍ تامٍّ، للكلام الّذي نُوحِي بِهِ إليكَ، على قراءة **[وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ]** أو أُوحِيَ به إليك على قراءة: **[وَأَنَا اخْتَرْتُكَ]**.

• **[فلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ]**. **[فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ]** عبارتان متماثلتان مَعْنىً، ومُتَشَابِهَتَانِ لفظاً مَعَ تغييرٍ ترادُفيٍّ بين: «أتاها» و«جاءَها».

ونُداؤُهُ كان من الله عزّ وجلّ له، وبنداءٍ عال يَسْمَعُهُ، وقد حَصَلَ هذا النداء قبل أن يُقرِّبَهُ اللَّهُ نجيّاً فَيُنَاجِيَهُ دون رفع صَوْت.

﴿مِن شَـٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: شاطئ الوادي الأيْمَن، هو جانِبُ الطُّور الأيْمَن، فشاطئ النهر، أو شاطئ الوادي، هو جانبه.

ونفهم بداهةً أنّ شاطئ الوَادِي الواقع إلى جانب الجبل، هو أسْفَلُ الجبَلِ الملاصِقُ للوادي.

ووُصِفَ كُلٌّ مِنْهُما بالأَيْمَنِ لأنَّ موسىٰ عليه السلام كان متوجّهاً بوجْهِهِ لمِنْطِقَةٍ وُسْطَىٰ مِنَ الجبل، فالطَّرَفُ الأَيْمَنُ من الجبل ومن الوادي يَنْطَبِقُ عليه ما جاء في النَّصَّيْن مِنَ الوَصْفِ، إلَّا أنَّ أحدَهُمَا رَاعَىٰ جانبَ الوادي، والآخر راعىٰ جانبَ جبل الطور.

وجاءت الآية (٤٤) من سورة (القصص) فأبانت أنّ هذا الجانب هو الجانب الغربيُّ الواقِعُ إلى جهة الغرب.

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

البُقْعَة: هي القطعة من الأرض المتميّزَةُ مِمّا حَوْلَها.

المُبَارَكَة: أي: الّتي جعل الله عزّ وجلّ فيها البَرَكَة، وهي الزيادةُ والنّماءُ من الخَيْر.

مِنَ الشَّجَرة: أي: من حُدودِ الشجرةِ وامْتِدَادَاتِ جُذُورِهَا وفروعها، إذ جعلها اللّهُ مباركة. وهي التي رأى موسى عليه السَّلام النَّارَ ساطِعَةً منها، ولم تَكُنْ ناراً لاهِبَةً، وإنما كانت نوراً على صُورَةِ نار.

وسمَّاها الإسرائيليُّون في الإصحاح الثالث من سفر الخروج «عُلَّيْقَة»، وظنَّ بَعْضُ باحثي أهل الكتاب أنّها من شَجَر «السَّنْط».

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ (النمل).
- ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ (القصص).
- ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ (مريم).
- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ (طه).

يظهر لمتدبّر هٰذه النصوص تدبُّراً تكامُلِياً ما يلي:

(١) أنّ اللّهَ عزّ وجلّ نَادَاهُ أوّلاً بما جاء في نصّ سورة (النمل):

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

[**وَسُبْحَانَ اللَّهِ**]: أي: وتنزيهاً للَّهِ عمَّا لا يليقُ بجلالهِ وعظيم سلطانه.

[**رَبِّ العالمين**]: أي: خالِقِ كُلِّ الكائناتِ، والمتصرف فيها بِحِكْمَتِهِ دواماً وبِسُلْطانِ رُبُوبِيَّتِهِ.

[**إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ**]: أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم الَّذِي يجب أن تَعْرِفَهُ الآنَ يا مُوسَى، هو «أَنَا اللَّهُ» الَّذِي تُؤْمِنُ به، ويُؤْمِنُ بِهِ آبَائُكَ وأَجْدَادُكَ حتَّىٰ إبْرَاهِيمَ.

[**العَزِيز**]: أي: القَوِيُّ الغَالِبُ.

[**الحَكِيمُ**]: أي: الَّذِي يُقَدِّرُ مقاديرَه، ويقضي أقضيتَهُ، ويُنَفِّذُهَا بحِكْمَةٍ بالغة.

(٢) وأنّ اللَّهَ عزّ وجلّ نَادَاهُ بعد ذلك بِمَا جاءَ في سُورة (القصص):

﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

[**أنْ**]: حرف تَفْسِير للمقولِ في النّداء.

[**إنّي أنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين**]: أي: إِنّي أنا اللَّهُ الَّذي تُؤْمِنُ به، أنْتَ وآباؤك المؤمنون الموحّدُون، وأنا رَبُّ العالِمينَ جميعاً، أي: خالِقُ الكائناتِ كلّها، والمتصرّف فيها بحكمته دواماً، وبسلطانِ رُبوبيّتِهِ الشاملة لكلّ ما في الكون من حوادث وتصاريف.

وبما جاء في سورة (طه): ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

(٣) وبعدَ ذٰلِكَ قَرَّبَهُ اللَّهُ نَجِيّاً، أي: قرَّبَهُ بعْدَ النِّداء، فجَعَلَهُ مُنَاجَىٰ، **المناجاة**: هي الإسرار بالحديث، إذ قد انتهى حدث النداء، وهو ما جاء في سورة (مريم): ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

(٤) وبَعْدَ أنْ قَرَّبَهُ نَجِيّاً سَارَّه بقوله الذي جاء في سورة (طه):

﴿وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾، وبَعْدَهُ تلطَّفَ به مؤانِساً، فقال له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣)﴾ كما في قراءة جمهور القرّاء العشرة.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾.

في هذا التكليم الرَّبَّاني من وراء حجابٍ لموسى عليه السَّلام، بَيَانُ سِتّ قضايا:

القضيَّة الأولى: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾:

أي: اعْلَمْ بتأُكيدٍ شديدٍ يا موسى، أَنَّني أنا الأزليّ الأبديُّ خالِقُ الأكوان، والمتصرّف فيها دواماً بحِكْمَته، والمُهَيْمِنُ عليها دواماً بعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وخَلْقه، والخالِقُ لأحداثِها دواماً برُبُوبِيَّتِهِ، واسْمِي العَلَمُ الجامِعُ لكُلّ أسْمائي وصِفَاتي الحُسْنَىٰ: «اللَّهُ» وهو الدّالُّ على أنّني الخالقُ والمتصرِّفُ والمُهَيْمِنُ على كلِّ الأكوان، والدّالُّ على أَنَّكَ عَبْدٌ مِنْ عبادي، وعلى أنني أنا إلٰهُ آبائك الموحّدين، المؤمنين بي رَبّاً لا إلٰه إلّا هو. كلُّ هذه المعاني من لوازم دلالات اسم العلم «اللّه».

القضية الثانية: جاءتْ في قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السلام: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾:

أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الوجودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنَا الَّذي ذَكَرْتُ لَكَ اسْمِي العلم «الله»، ومن يعبدني يَجِدْ أثَرَ عبادته لي في عاجل أمْرِهِ في الحياة الدنيا، وآجل أمْرِهِ يومَ الدّين.

لفظ «إلٰه» معناه مَعْبُود. ولمَّا كانت المعبودات الأُخْرَى من خَلْقِ الله، والمتَّخذَةُ «آلِهَةً» عِنْدَ مُؤَلِّهِيهَا، باطِلَةً، لا تَسْتَحِقُّ أن يكُونَ لها من الإلٰهِيَّة شيءٌ، ولا تَجْلُبُ عبادتُها نفعاً لعابديها، ولا تَدْفَعُ عنهم ضرّاً، بل تَجْلُبُ لهم عذابَ الله الأبدي، لأنّ عبادتها عُدْوَانٌ على صاحِبِ حقِّ العبادة، إذْ هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الرُّبُوبِيَّة التَّامَّةُ الكاملةُ لخَلْقِهِ، وحَقُّه على مَرْبُوبيه الّذين يَغْمُرُهم بأيادي نِعَمِهِ وفَضْلِهِ دواماً أنْ يَعْبُدوه، لِيَجْزِيَهُمْ بالسعادة الأبديَّة الخالدة في جنّات النعيم، ولِيَدْفَعَ عنهم عذابَ الحريق المقرَّرَ في خُطَّتِهِ لمن جَحَدَ رَبَّه في رُبُوبيَّته، أو جَحَدَ إلٰهِيَّتَهُ، أوْ أَشْرَكَ بهما أو بأحَدِهما غَيْرَهُ.

القضيَّة الثالثة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾:

أي: إذا عَرَفْتَ يا مُوسَىٰ أنَّه لا مَعْبُودَ بحقٍّ غَيْرِي، لأنَّنِي أنا الله الرَّبّ، فاعْبُدْنِي.

العبادة: تَشْمَلُ الطَّاعَة بفِعْل ما أمر الله به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ الله عنه، وإفراده بالدُّعاء لأمور العاجلة، وأمُور الآجلة، والتقرُّبَ إليه بفعل ما يُحِبُّ من عباده أنْ يَفعلوه، وترك ما يُحِبُّ من عباده أنْ يَتْرُكُوهُ، ابْتِغَاءَ مَرْضاته.

القضية الرابعة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

الصَّلاة: عبادةٌ معروفة في كلّ الأديانِ الرَّبَّانيَّة، وهي المعبّرةُ عنِ الصِّلَة المتكرِّرة من العَبْدِ بِرَبِّه، في مواقيت معلومة.

وهي داخلةٌ في عبادة العباد لله عزّ وجلّ، ولكن جعلها الله بِحِكْمَتِهِ بمثَابَةِ وِعَاءٍ لأداءِ عبادة ذِكْرِهِ، ووظيفةً واجبةً تكرّرُ في كلِّ يومٍ عدّة مرَّاتٍ، في أوقات مُوسَّعات، وفيها مع الأذكار والتلاوات حركاتٌ جَسَدِيَّة، تَشْتَمِلُ على القيام، والرُّكُوع، والسُّجود والجلوس، ومن حقوق الصلاة لله عزّ وجلّ استيفاءُ الواجبات والشروط الّتي لا تكونُ تامَّةً إلَّا بها، والمبيَّنَةُ في تعليماتِ الدِّين.

وتحقيق ذلك يتطلَّبُ عنايةً خاصَّةً، لإقامتها على الوَجْهِ المطلوب فيها شرعاً.

وإقامَةُ الصلاة: تكُونُ بالمواظبة على أدائها في أوقاتها، كما فَرَض الله، وبأدائها مُسْتَوْفاة الحقوق من واجباتٍ وشروطٍ.

عبارةُ [لِذِكْرِي]: تُبَيِّنُ الغرضَ الدِّينيَّ من عبادة الصلاة، وهُو تكرارُ ذكرِ الله والحضُورُ معه، بما في الصلاة من تلاواتٍ وأذكار.

وقد جعل الله عزّ وجلّ التلاواتِ والأذكار المذكِّرَة بالله وبصفاته الجليلة، وبحِكْمَتِهِ العظيمة، في أوعِيَةٍ من التَّحَرُّك، والمُكْثِ، لأنَّ هذا التنقُّلَ بين التحرُّك والمُكْث، أكثر ملاءمةً لواقع حال الإنسان، إذْ يقضي مطالب حياته كلَّها ما بين تحرُّكٍ ومُكْثٍ، ولا يَقْضِيها وهو ساكن دواماً، أو مُتَحَرِّكٌ دواماً.

وفي أعمال الصلاة الّتي تشترط لها الطهارة، وفيها الوقوف والركوع والسجود والجلوس، حِكَمٌ عظيمة، تُعَبِّرُ عَنْ خضوع العبد لربِّه، حتى غايَةِ الخضوع بالسُّجود، وتُعبِّرُ عن طاعَتِهِ ومراقبته لربِّه، ملاحظاً أنّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانَهُ ـ مُطَّلِعٌ عليه دواماً، يَعْلَمُ أعْمَقَ خواطِرِهِ، لا تخفىٰ عليه خافية.

القضية الخامسة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السلام:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إنّ ساعةَ البَعْث للحياة الأُخرىٰ يوم الدّين، آتيَةٌ لَا مَحَالة، لأنَّهَا إحدَىٰ بُنُودِ خُطَّةِ الخَلْقِ الرَّبَّاني للمَخْلُوقين في الحياة الدُّنيا للابتلاء.

وبما أنَّ الخَلْقَ في الحياة الدُّنيا للامتحان قد تحقَّق، وهو القِسْمُ الأوّلُ من حِكْمَةِ الخَلْق، فلا بُدَّ أنْ يتحقَّقَ القِسْمُ الآخر من حكمةِ الخَلْقِ، وهو الحياة الأُخرىٰ، لتحقيق الحساب، وفَصْلِ القضاء والجزاء.

[**أَكَادُ أُخْفِيهَا**]: اشتغل المفسّرون في فهم المراد بهذه العبارة، وذَهَبُوا في هذا مذاهبَ متعدّدةً من التأويلات، وأرى أنَّها لا تحتاج إلى كلِّ ذلكَ إذا فَهِمْنَا مِنْهَا: أنَّ الله عزَّ وجلَّ كادَ يخْفِي الإخبار عن السَّاعَةِ كُلِّها، لا عَنْ وَقْتِ حُدُوثِهَا فقط، مُكْتَفِياً بالدّليل العقليّ الذي يدُلُّ عليها، وهو الدليل المستند إلى حكمة الله عزّ وجلّ، لكنَّه جلَّ جلالُهُ لم يَفْعَلْ، بل أخبر عن قيام السّاعَة، نظراً إلى أنّ الناس قَلَّما يَهْتَدُونَ إلى الدليل العقليّ الذي يدُلُّ عليها، ما لم يُنَبَّهُوا عليها تنبيهاً مقترناً بالإخبار عن حُدُوثِهَا، وعمّا يكون بَعْدَها، فكان من الحكمة الإخبارُ عن السّاعة بصريح العبارة، مع التّنبيه على الدليل العقلي الذي يدُلُّ عليها، كقول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

[**لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى**]: أي: لتُجْزَى يَوْمَ الدِّين كلُّ نَفْسٍ مَوْضُوعَةٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، بما تَسْعَى علىٰ تَتَابُعِ الزَّمَنِ في هٰذهِ الحياة الدنيا.

الجزاء: مقابلةُ العَمَلِ بما يُلائِمُه من خيرٍ أو شرّ، فيكون بمقابلَةِ الحسنَةِ بمِثْلِهَا فما فَوْقَ تَفَضُّلاً، وبمقابَلَةِ السَّيِّئة بمِثْلِهَا فما دُون تجاوزاً وصفحاً.

القضية السادسة: جاءت في قول الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾:

[فَلَا يَصُدَّنَّكَ عنها]: أي: فلا يَصْرِفَنَّكَ ولَا يَمْنَعَنَّكَ عن السَّعْيِ للظفر بأعظم الجزاء في جنَّاتِ النعيم يوم الدّين بَعْدَ قيامِ السّاعة.

[مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بها]: أي: مَنْ لَا يُؤْمِنُ بقيامِ ساعة البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، لأنه غير مؤمن بقضيَّة الجزَاءِ الرَّبَّانيّ.

[واتَّبَعَ هَوَاهُ]: أي: واتَّبَعَ وهو كافر بالساعة هواه المتعلّق بزينة الحياة الدنيا، وزُخْرُفِهَا، ومتاعِها الزائل الفاني.

وربّما كان اتّباعَهُ هَواهُ هو الذي طَمَسَ بصيرته، فكفرَ بساعة القيامة والبعث ليوم الجزاء.

الهَوَى: ميل النفس لما تحبُّ ولو كان فيه ضرٌّ وشرٌّ، وإثمٌ وعصيان، وفي الهوىٰ معنى السقوط في مَهْوَاة، كالسقوط من شاهقٍ إلى وادٍ سحيق، وكالسقوطِ في بئرٍ عميقة.

[فتَرْدَىٰ]: أي: فتَسْقُطَ في أودية الآثام والجرائم، وبذلك تنالُ سَخَطَ الله وعذابَه.

وفي خطاب الله عزّ وجلّ النبيّ الرَّسُول المختارَ المفضَّل بمكالمته لَه، بمِثْل هذا الخطاب الشّديد التحذير، دليل على أنّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلام مكلَّفُونَ القيامَ بأحكام الدّين، وأنّهم غير مَعْفِيّين من الواجبات، بل هم أوّلُ المأمُورين بها، وأوّلُ المسلمين، بل ربّما كانت التكاليف الموجَّهَةُ لهم أشَدّ، كوجوب قيام اللَّيْل بالنسبة إلى الرسول محمّد ﷺ، دون سائر المسلمين.

ولكن رُبّما يجعل الله لهم بعض أحكام خاصّة، تقتضيها وظائف رسالاتهم، كإباحة تعدُّد الزوجات للرَّسُولِ محمّد ﷺ فوق الأربعة.

يقالُ لغة: «رَدِيَ في الهُوَّةِ يَرْدَى رَدىً» أي: سقط فيها. ويقال: «رَدِيَ» أي: هَلَكَ، وهذا المعنى من لازم السُّقُوط في الهُوَّةِ غالباً.

* * *

(١) قول الله عزّ وجلّ في مكالمته لموسى عليه السلام، في سورة (طه):

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

(٢) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

(٣) وجاء بيان هذا الحدث في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ

غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه النصوص الثلاثة من سور (طه) و(النمل) و(القصص) متكاملات الدَّلاَلات حَوْلَ حدَثٍ كلِّيٍّ واحدٍ، جرى لموسى عليه السلام عند مناجاة ربّه له عندَ جَبَل الطّور، وبيان تكامُلِهَا يَحْتاج تدَبُّراً يراعَىٰ فيه ترتيبُ جُزْئِيَّاتِ الحدثِ الكلّي على وِفْقِ الترتيب الطبيعيّ الحكيم الذي يَهْدِي إِلَيْهِ الفكرُ السليم.

أولاً: يأتي في أولىٰ جُزْئِيَّاتِ هذا الحدث بَعْضُ ما جاء في سورة (طه) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

دلَّ هذا البيان على أنَّ الله عزّ وجلّ بدأ مناجاتَهُ لموسى عليه السلام، بدايةً إيناسيَّة، مع ما فيها من تَوْطِئَةٍ لمنحة آيَةِ العصا الّتي تنقلب بقُدْرَةِ الله وأَمْرِهِ التَّكْوِينيّ ثُعْباناً مُخِيفاً مُرْعباً لِلأَقْوِياء الأشدّاء.

- **[وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى]**:

هذه الجُمْلَةُ الاستفهاميَّة معطوفة بالوَاو على مَا جاءَ قبلها من خطاب الله لَهُ في السورة.

[ما]: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن غير ذي العقل والعلم،

[تِلْكَ]: اسْمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، واختير أن يكون للمؤنث، لأنّ لفظ العصا مؤنثٌ مجازيّ التأنيث.

واختير هنا اسْمُ الإشارة الموضوع للبعيد، ليتناسب مع نداء الله عزّ وجلّ لموسىٰ، بأداة النداء «يا» الموضوعة لنداء البعيد، الذي يدُلُّ هُنَا

على بُعْدِ المنزلَةِ بَيْنَ العَبْدِ والرَّبّ، وإنْ كان الله عزّ وجلّ قد قَرَّبَ مُوسَىٰ إلَيْهِ نَجِيّاً، كما سَبَقَ بيانُ هذا، الوارد في سورة (مريم).

[**بِيَمِينِكَ**]: أي: بِيَدِكَ اليُمْنى، فدَلَّ هذا البيانُ على أنَّ موسىٰ عليه السلام كان أيْمَنَ ولم يَكُنْ أعْسَر، إذْ كان يَسْتَعْمِلُ عصاه بِيَدِهِ اليُمْنى.

[**يا مُوسَىٰ**]: نداءٌ فيه إيناسٌ وتَلَطُّفٌ وتحبُّب.

● ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

لمَّا شعرَ موسىٰ عليه السَّلام بإيناس ربِّهِ لَهُ إيناساً يُشْعِرُ بالتحبُّب، بَعْدَ أنْ كانَ قالَ لهُ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾، رَغِبَ أن يُطِيلَ الإجابةَ على السؤال، بذِكْرِ بعض ما يَسْتَفِيدُهُ من عَصَاه الَّتي يَسْأَلُهُ ربُّهُ عَنْها. ورُبَّما ظنَّ أنَّ رَبَّه سَيَسْأَلُهُ عن هدَفِهِ من اتّخاذه العصا، فبسَطَ الجواب، شُعُوراً مِنه بأنّ سؤال ربّه عن العَصا المَشْهُودَة في يَدِهِ، سَيَسْتَتْبِعُ سؤالَهُ عن هَدَفِهِ من اتّخاذِهَا، وكانَ يَكْفِيهِ أن يقول: هي عصايَ.

[**أَتوَكّأُ عَلَيْهَا**]: أي: أعْتَمِدُ عَلَيْهَا، فأجْعَلُ بَعْضَ ثِقَلِ جِسْمِي مَحْمُولاً عَلَيْهَا في المَشْي، أو في غيره.

[**وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي**]: أي: أخبِطُ بها الشَّجَرَ، لِيَسْقَطَ الوَرَقَ، فَتأكُلَ مِنْهُ غَنَمِي.

يقالَ لغة: «هَشَّ الراعي يَهُشُّ هشّاً» أي: ضرَبَ الشجرَةَ بالعَصَا، لِيَتَسَاقَطَ الورَقُ منها علىٰ مَسْرَحِ غَنَمِهِ فتأكُلَ مِنْهُ.

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾: «**مَآرِب**» جَمْعُ «مَأْرَب» و«مَأْرُبَة» وهُمَا و«الإرْبُ» و«الأَرَبُ»: الحاجةُ. البُغْيَةُ الّتي يُرادُ الحصُولُ عليها.

أي: ولي فيها حاجاتٌ أخرى، كقِتالِ عَدُوّ، وسَوْقِ غنم، ودَفْعِ ذئب، أو كَلْبٍ عَقُورٍ، أو غير ذلك.

وأعجبني ما نقل الشوكاني عند تفسيره لهذه العبارة، ما جاء في قول بعض العرب بِشَأْنِ منافع العصا:

«عَصَايَ أَرْكُزُهَا لِصَلَاتِي، وأُعِدُّهَا لِعُدَاتِي، وَأَسُوقُ بها دَابَّتِي، وَأَقْوَى بِهَا عَلَى سَفَرِي، وأَعْتَمِدُ بِهَا فِي مَشْيَتِي، لِيَتَّسِعَ خَطْوِي، وَأَثِبُ بِهَا النَّهْرَ، وتُؤَمِّنُني العَثْرَ، وَأُلْقِي عَلَيْهَا كِسَائِي فَتَقِينِي الحرَّ، وتُدْفِئُنِي مِنَ القَرِّ، وتُدْنِي إِلَيَّ مَا بَعُدَ مِنِّي، وهِيَ تَحْمِلُ سُفْرَتي، وعِلاَقَةُ إِدَاوَتِي، أَعْصِي[1] بِهَا عِنَدَ الضِّرَاب، وَأَقْرَعُ بِهَا الأَبْوَابَ، وَأَقِي بِهَا عُقُورَ الكِلَاب، وتَنُوبُ عَنِ الرُّمْحِ في الطِّعَانِ، وعَنِ السَّيْفِ عِنْدَ مُنَازَلَةِ الأَقْرَانِ، وَرِثْتُهَا عَنْ أَبِي، وَأُوَرِّثُهَا بَعْدِي بَنِيَّ».

❊ ❊ ❊

وبَعْدَ هذا الحوار الإيناسِيّ والتمهيدي:

- جاء في سورة (طه) ما في قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسَىٰ عليه السلام:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: أي: قال الله لموسَىٰ: أَلْقِهَا، الضمير يَعُودُ على العصا.

- وجاء في سورة (النمل) بعبارة: [**وَأَلْقِ عَصَاكَ**].

- وجاء في سورة (القصص) بعبارة: [**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ**].

عباراتٌ عَن الأمرِ بإلْقَاءِ العَصَا، جاءت مُمَهِّدَةً لما بَعْدَهَا، في كُلِّ نَصٍّ منها، بحسب السّوابق واللّواحِق في السُّوَر التي هي منها.

وبَعْدَ هذا الأَمْرِ بإلْقَاءِ العَصَا يَأْتِي مَضْمُونُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

---

(١) أي: أضْرِبُ بها.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: فلمَّا أَلقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ على الأَرْض تحوَّلَتْ بصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ، فصارَتْ حيَّةً حَقِيقِيَّة تَسْعَىٰ، أي: تَمْشِي بِسُرْعَةٍ ونَشَاطٍ مخيفٍ مَشْيَ الثَّعابين ذَوَاتِ الحَرَكة السَّرِيعَة.

وجاء لهذه العبارة تَكْمِيلٌ في سُورَةِ (النمل) الآية (١٠) وفي سورة (القصص) الآية (٣١).

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

[**تَهْتَزُّ**]: أي: تَتَحَرَّكُ تَحَرُّكاً سَرِيعاً.

[**كَأَنَّهَا جَانٌّ**]: **جانٌ**: نوع من الحيَّاتِ أَكْحَلُ العينَيْنِ، يَضْرِبُ إلى الصُّفْرَة، كثيرُ الحركةِ وسَرِيعُها، يُجْمَعُ على «جِنَّانٍ» و«جَوَانٍ»، أي: كأَنَّها جانٌّ في السُّرْعَة والحرَكة المخيفة، لا في سائر الصفات، لأنّ هذا الصِّنف من الحيات غَيْرُ مُؤْذٍ.

[**وَلَّى مُدْبِراً**]: أي: انْهَزَمَ مُبْتَعِداً، معطياً ظَهْرَهُ إلى جهة العصا الّتي انْقَلَبَتْ حيَّةً مخيفة تَسْعَى.

وَلَّى: أي: ابْتَعَد.

مُدْبِراً: **الإدبار**: هو إعطاء الدُّبُر للشيء، فجمَعَ مُوسَىٰ عليه السلام بين الابتعاد وإعطاءِ الدُّبُر.

[**ولَمْ يُعَقِّبْ**]: أي: ولَمْ يَكِرَّ ولَمْ يَرْجِعْ من شدَّةِ خَوْفِهِ على نفسه، بحَسَبِ طبيعَتِهِ البشريَّة ذاتِ الحِدَّةِ والسُّرْعَةِ في التَّنْفِيذِ.

❁ ❁ ❁

وبعد هذا الحدَثِ الذي جَرَى من مُوسَىٰ عليه السلام، يَأْتِي في متابعة البَيَان مضمونُ قولِ الله عزّ وجلّ لموسَى في سورة (القصص):

﴿... يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ومضمون قول الله له التكميليّ الذي جاء في سورة (النمل):

﴿... يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾﴾.

هاذانِ النَّصّان متاكمِلان في الدَّلاَلَة على المعنى المراد.

أي: أقْبِلْ كارّاً إلى المكان الذي فرَرتَ مِنْهُ خَوْفاً من الحيّة، ولَا تخف أنْ تُؤْذِيكَ، إنَّكَ من الآمِنِينَ بتأمِينِ رَبِّكَ لك، إنّي لَا يَخَافُ لديّ المُرْسَلُون المختارُونَ مِنّي لِحَمْلِ رِسالةٍ ذاتِ شَأْنٍ. لٰكِنْ يَخَافُ مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ مِنْ عِقابي، بِمَعْصِيَةِ أَوَامِرِي، ومَعْصِيَةُ الأنبياءُ والرُّسُل تكون في حُدُودِ التكاليفِ الزَّائِدَةِ الّتي تُوَجَّهُ لهم خاصَّةً من حقوقِ مرتبَةِ الإحسان، أعْلَىٰ مراتب المؤمنين المسلمين، ورُبمّا من حدود مَرْتَبة البِرِّ.

أمّا حُدُود مَرْتَبَةِ المتَّقِين فهم معصومون عن معصية الله في حقٍّ مِنْ حُقُوقها، لأنَّ الله عزّ وجلّ أمَرَ الناس بأن يَتَأَسَّوْا بهم فِي حُدُودِها، فلَوْلَا العِصْمَةُ لكان اللَّهُ يأمُرُ بالتأسّي بهم في معاصيهم.

ثمَّ لَا يَخَافُ مَنْ عَصَى مِنهُمْ، مَنْ بَدَّلَ حُسْناً بتوبةٍ وعَمَلٍ صالح، بَعْدَ سُوءٍ ارْتَكَبَهُ، فإنّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ فَيُؤَمِّنُهُ، لأنَّهُ غَفُورٌ رَحيم.

أي: وأنت يا مُوسَىٰ لَسْتَ مِنَ الظَّالمين، فَلَا تَخَفْ.

❁ ❁ ❁

وبَعْدَ هذا الّذي تكامَلَتْ بشَأْنِهِ النصوصُ الثلاثة، قال الله عزَّ وجلَّ خِطاباً لموسىٰ عَلَيْهِ السّلام مَا جاء بيانُه في سورة (طه):

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾:

[**خُذْهَا وَلاَ تخَفْ**]: أي: خُذِ الحَيَّة كَمَا لَوْ كَانَتْ عَصًا.

[**سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**]: أي: سَنُرْجِعَها بَعْدَ أنْ تُمْسِكَ بها وهي حيَّةٌ تَسْعَىٰ، إلى ما كانت عليه عصا، لَا حياة فيها وَلَا حَرَكَة.

[**سِيرَتَها الأُولَى**]: **السِّيرَة**: الطريقة ـ الحالة الّتي يكُونُ عليها الشيء.

[**الأُولَىٰ**]: أي: السَّابقة التي كانت عليها.

جاءَت كلمة «سِيرَة» من عبارة [سِيرَتَها] منصوبةً، مع أنّ فعل «نُعِيدُ» لا يَنْصِبُ مباشرة، بل يتعدَّى إلى معموله بحرف الجرّ «إلى».

قال الأخفش والزَّجّاج: سَنُعيدُها إلى سِيرَتِها الأولى، أي: إن لفظ «سيرَة» نُصِبَ بنَزْعِ الخافض، فصار بمثابةِ المفعول به.

أقول: من الجائز أنْ نُقَدِّرَ في الكلام محذوفاً على طريقة القرآن في المحاذيف، وأصل العبارة قبل الحذف كما يلي:

سَنُعِيدُهَا، فَتعُودُ سيرَتَها الأُولى. يُقالُ لغة: عادَ الأمرُ كَذَا، أي: صارَ إيَّاه.

وكان هذا تَدْريباً عَمَلِيّاً من الله عزَّ وجلَّ لموسَىٰ عليه السلام، حتى يكونَ على ثقة مُسْتَقبلاً بما يُجْرِيهِ اللَّهُ لَهُ في العصا من آيَةٍ باهِرَةٍ، أمام فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، ثمّ أَمَامَ جَماهِيرِ قومه.

وطَوَت النصوص الثلاثة ما كان من موسىٰ عليه السلام، أي: فَكَرَّ موسىٰ راجعاً، وأخذ الحيَّةَ، فأعادَهَا الله إلى ما كانت عليه سابقاً عصاً كَسَائِرِ العِصِيِّ.

❀ ❀ ❀

وبَعْدَ بيان آيَةِ العَصَا، يأتي بيانُ الآيَة الثانية الَّتي آتاها الله لموسى عليه السلام، وهي آيَةُ اليَد.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه) خطاباً لموسىٰ عليه السلام:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) خطاباً له أيضاً:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص) خطاباً له أيضاً:

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذه النصوص الثلاثة متكاملاتُ الدَّلالت على المعنى المراد بيانه، مع تفنُّنٍ في بعض العبارات بتغيير بعض الكلمات.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه) خطاباً لموسى عليه السلام:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ... ﴿٢٢﴾﴾.

ضَمُّ الشَّيْءِ إلى الشَّيْءِ يكُون بجمعهما معاً.

الجَنَاح: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على ما يَطِيرُ به الطائر، ويُطْلَقُ توسُّعاً لُغَوِيّاً على العَضُدِ، وعلى الإبط، وعلى الجانبِ من الإنسان.

﴿... تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وأخْرِجْهَا تَخْرُجُ

بَيْضَاءَ حَسْنَاءَ مِنْ غَيْرِ أنْ تكونَ عَلِيلَةً مَرِيضةً بمَرَضِ البَرص، وقد كانَ موسىٰ عليه السلام أسْمَر. عبارة: [مِنْ غَيْرِ سُوءٍ] احْتِرَاسٌ مِنْ أنْ يَسْبِقَ إلى الذِّهْنِ أنَّها تخرج بَرْصَاء.

قالوا: فإذا هي تَبْرُقُ كالبَرْقِ.

﴿... ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: حالةَ كون هذه التحويلة في اليَدِ آيَةً أخرىٰ، غَيْرَ آيَةِ العصا وتحويلها إلى حيَّةٍ تَسْعَىٰ.

الآية: العلامَة الدَّالَّة، والعلامة على إثبات صِدْق الرسول، في كونِهِ رَسُولاً من رَبِّه، لَا بُدَّ أن تكُونَ من الخوارق المعجزة الَّتي لا يَسْتَطِيعُ البشر معارضتها بمِثْلِهَا.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾: أي: لِنُرِيَكَ في هٰذا اللِّقاء بَعْضَ آياتِنَا الكُبْرَى الَّتي سَنُجْرِيها لك مُسْتَقْبلاً.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل) خطاباً لموسى أيضاً:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ لتَضُمَّها إلى جَناحك، فتكامل نَصّا «طه» و«النمل».

جَيْبُ القميصِ أو الثَّوب: ما يَدْخُلُ مِنْهُ الرَّأسُ عِنْدَ لُبسِهِ، يجمع على: «جُيُوب» و«أجْيَاب».

وإدْخال اليَدِ في الجيب يكون بإدْخالها في المكان المنفتح من القميص مِنْ تَحْت الرَّقَبَة، لإيصَالها إلى الإبِط، أو الجنب.

وأضاف هذا النص عبارة:

﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: هاتان الآيتان كائنَتان في حِساب تِسْعِ آياتٍ قَرَّرْنا أنْ نُؤْتِيكَ آيَّاها، وقَدْ أَرَيْنَاكَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ، وسَنُرِيكَ الآيات السَّبْعَ فيما بَعْدَ حينَ تُؤَدِّي وظائفَ رِسالتِك.

وجاءت عبارة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ لبيان الغرض من الإرسال لفرعَوْن وقومه. وهي في موقع جواب سؤالٍ مطويٍّ، مضمونُه: مَا الغرض مِن الرّسالة ومِنْ هٰذه الآيات؟

الجواب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وما زالوا مُتَمادِينَ في فِسْقِهِم.

الفِسْق: هو العصيان والخروج عن الحقِّ والواجب، وأوامر الله ونواهيه. تقول العرب: «فَسَقَ يَفْسِقُ ويَفْسُقُ فِسقاً وفُسُوقاً، إذا عَصَىٰ وخرج عن الحقِّ والواجب».

ويُقالُ: فَسُقَ، أي: فَجَر.

وهو مصطلح إسلاميّ مأخوذٌ مِنْ قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبة، إذا خَرَجَتْ من قِشْرَتِهَا، ومعلومٌ أنَّها إذا خرَجت من قِشْرَتها تعرَّضَت بسُرْعَةٍ إلى الفساد.

وسُمِّيَتِ المؤذياتِ من الحيوانات فواسِق، والفأرة فُوَيْسِقَة، لأنها بخروجها من جُحْرِهَا تُفْسِد.

(٣) وقَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (القصص) خطاباً لموسى أيضاً:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

جاء في هذا النَّصِّ كَلِمَةُ [**اُسْلُكْ**] بدلَ: [**أَدْخِلْ**] في نصِّ سورة (النّمل) وكلِمَةُ «اسْلُكْ» هي بمعنى كلمة «**أَدْخِلْ**» فهما من التفنُّنِ في اختيار الكلمات.

وجاء في هذا النصّ إضافةُ عبارةِ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: أي: مِنَ الرُّعْب.

يظهر أنّ مُوسَىٰ عليه السّلام على الرُّغم من إقبالِه وعودتِهِ إلى المكان الذي فرَّ مِنْهُ، طاعةً لأمْرِ ربِّه، وعلى الرُّغم من أخْذِهِ الحيَّة التي عادَتْ بأخْذِهِ لها سِيرَتَها الأُولَىٰ، عصاً كسائرِ العصيّ، ما زالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجفاناً مكيانيكيّاً، من تَأْثيرِ الخوفِ السابق، فقال اللَّهُ لَهُ هٰذا القول.

﴿جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: أي: واضمم يَدَكَ اليُسْرَى إلى جانِبِ جِسْمِكَ الأَيْسَر، حيْثُ قَلْبُكَ، لِيَسْكُنَ مِنْ أثَرِ الرَّهَب الذي كان قد أصابه.

واخْتَرْتُ في الفهم اليَدَ اليُسْرَى لأَنَّها الأقرب إلى تَسْكِين رَجفانِ الجانب الّذي فيه القَلْب.

أمّا اليُمْنَىٰ فقد تناوَلَ بها الحيَّة التي عادَتْ كما كانت عصاً، وصار يَتَوَكَّأُ عليها كسابق عَهْدِهِ بها.

إذا كان انقلابُ العصا حيَّةً مُرْعبةً، قد أخافت مُوسىٰ وهو بَيْنَ يَدَيْ ربِّه يُنَاجيه، ففرَّ منها ولم يُعَقِّبْ حتىٰ أمَرَهُ اللَّهُ بالرُّجوعِ، فكيف يكونُ حال فرعون وملَئِهِ، حين إجراء هذه الآية الرَّبانيَّة أمامَهم؟!

﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾:

«ذانِ» اسم إشارة للمثنَّى المذكر، والكاف لخطاب المفرد. والمشارُ إليه آيتا العصا واليَد.

﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ مثنى «بُرْهَان» وهو الحجَّةُ البيِّنَةُ الفاصلَة، وجمعه «بَرَاهين».

أي: فذانِكَ الخارقان: خارِقُ العصا التي تنقلب حيَّة حقيقيَّةً مُخِيفةً جداً، وخارِقُ اليَدِ السّمراء الّتي تنقلب إلى بَيْضاء تبرُقُ كالبَرْقِ، هُمَا

بُرْهَانَانِ من ربِّك. أي: حُجَّتان بَيِّنتان فاصِلَتان، تُثْبتان أَنَّكَ رسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّك.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾: في هٰذه العبارة بيانُ أنَّ الـمُرْسَلَ إليهم أوّلاً، فِرْعَوْنُ وملَؤُه.

الملأُ: أشراف القَوْم وسَراتُهم، الّذين يَمْلَؤُون عُيُونَ العامة، ومَلَأُ فرعون هم وُزَرَاؤه، وحاشيةُ قَصْرِه، وكُبَرَاءُ المصريِّين المسانِدُون والموالُون لِفِرْعون.

ولمَّا كان سائر المصريين يومئذٍ تبعاً لفرعَوْن وملَئِهِ، كانت رِسالة موسىٰ وهارون موجَّهةً لهم جميعاً.

وقد سبقَ في النصِّ الذي هو من سورة (النمل) بيان أنّ الرسالَة شاملةٌ فرعَوْنَ وكُلَّ قَوْمِهِ، أشرافهم وعلِيَتَهُم وعامَّتَهم، إذ جَاءَ فيه قول الله عزّ وجلّ: ﴿... إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ... ﴿١٢﴾﴾.

الآيات التسع:

بالنظر في النصوص التي تتحدَّثُ عن آيات الله لموسىٰ عليه السلام، والمبيّن في النصّ الذي من سورة (النّمل)، أنّ عَدَدها تِسْعُ آياتٍ، نَسْتطيع أنّ نبيّنَها فيما يلي:

(١) آيَةُ العَصَا التي تَنْقَلِبُ ثُعْباناً مُرْهباً.

(٢) آيَةُ اليد التي تَنْقَلِبُ بيضاء لامعةً كالبرق.

وقد سبق آنفاً بيان الدليل عليهما من القرآن.

(٣) آية الطوفان، وجاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج (٩) بيان أن الله أمطر عليهم بَرَداً لم يكن مثله، فأهلك النباتات، وبعض الحيوانات والناس.

(٤) آيةُ الجراد، وجاء عند الإسرائيليّين في سفر الخروج (١٠) أنّ موسى أنذر فرعون بجراد يغطي وجه الأرض، ويأكلُ جميع الشجر النابت في الحقول، وحصل ذلك.

(٥) آيةُ القُمَّل، وجاء في سفر الخروج (٨) أنّ هارون ضرب بالعصا تراب الأرض فصار البعوض على الناس والبهائم، وأن موسى أنذر فرعون بالذّبان، فخربت الأرض من الذبّان، وهو الذباب المؤذي.

(٦) آيَةُ الضفادع، وجاء في سفر الخروج (٨) أن موسى أنذر فرعون بالضفادع التي تَصْعَدُ وتدخلُ في البيوت وتكون في كل مخدع وعلى كلّ سرير، وتسقط في الأطعمة، وحصل ذلك.

(٧) آيَةُ الدَّم، وجاء في سفر الخروج (٧) أن موسى وهارون ضرب بعصاه النهر فتحوّل كلّ الماء الذي في النهر دماً.

دَلَّ على هذه الآيات الخمس، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

وقد سبقَ تدبُّر هذا النصّ في موضعه من تدبُّر سورة (الأعراف).

(٨) آيَةُ الرِّجْزِ، وهو عذاب من الله أنْزله بفرعون ومَلَئِهِ وقومه، كأمْرَاضٍ وأوجاعٍ لا عَهْدَ لهم بمِثْلِها.

دلَّ على هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

وقد سبق تدبُّرُ هذا النصّ في موضعه من سورة (الأعراف).

(٩) آية السّنين المجْدِباتِ والنقصِ في الثمرات والطَّمْسِ على أموالهم والضغط على قلوبهم: **الطَّمْسُ على الشَّيْءِ**: يأتي بمعنى التَّشْوِيهِ، ويأتي بمعنى الإزالةِ والمَحْوِ. يقال لغة: طمَسَتِ الريح الأثَرَ، أي: أزالَتْهُ ومَحَتْهُ، ويقال: طَمَسَ على عَيْنِهِ، أي: أعْمَاهَا. وقد دلَّ على هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

ودلَّ عليها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) حكايَةً لما دَعَا به موسىٰ عليه السلام رَبَّه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

عرفنا الطمس على الأموال، أمّا الشَّدُّ على قُلُوبهم فالّذِي أَرَاهُ أنّه نوع من عَصْرِ قلوبهم بالمكاره والمؤلِمَاتِ في حياتهم، لأنّ قول موسى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يُشْعِرُ بأنّ الشَّدَّ على قُلُوبهم هو من العذابِ الأليم الّذي دَعَا رَبَّهُ أن يُنْزِلَهُ بهم.

وأمَّا ما ذهب إليه المفسّرون من أنّ المراد اجْعَلْ قُلوبَهُمْ قاسِيَةً لَا تَقْبَلُ الحَقَّ ولَا تَنْشَرِحُ للإيمان، فهو يَتَنَافَى مع قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ إذْ تُشْعِرُ هٰذه العبارة بأنَّ موسىٰ حَرِيصٌ على إيمانهم، لكنَّهُ رَأَىٰ عَدَمَ جدوىٰ الآيات الّتي لم يَذُوقُوا فيها العذابَ الأليم، فَسَأَلَ رَبَّه أن يَطْمِسَ على أموالِهم التي تُغْرِيهم بالاسْتِمْرَارِ في الكُفْر، وأنْ يَشُدَّ على قُلُوبهم بالمؤلمات الموجعات رجاء أن تَلِينَ نُفوسُهم وقُلُوبُهُمْ فَيُؤْمِنُوا.

الشَّدُّ على القُلُوب بالعذاب يكون بالمؤلمات الموجعات لإلَانَتِهَا للحق.

والرَّبْط على القُلُوبِ للتَّثْبِيتِ والمعونَة يَكُون بالمُطَمْئِنَاتِ من عناصر القاعدة الإيمانية، وبالصِّلَةِ بالله عن طريق عبادته وحُسْنِ مراقبته، والاعتصام بالأذكارِ والتلاوات، وبنفحاتٍ يُلْقِيها الله على قلوب المؤمنين.

وأمَّا آيَةُ فَلْق البحر، فَمَعَ أنَّها أكبر الآياتِ وأعْظَمَها، إلَّا أنَّها لم تَكُنْ آيَةً لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، إذْ كانتْ سبباً لإنقاذ بني إسرائيل وعُبورِهِم البحر، وسبباً لإهلاكِ فرعون وملَئِهِ وجنوده. وإدْراكُ فِرْعَوْنَ لَهَا وهُوَ يَغْرَقْ لم يَنْفَعْهُ بشيء، وقد كان مُسْتَيْقِناً هو ومَلَؤُه بصِحَّةِ بَراهِينِ الآياتِ التِّسْعِ السابقات، إلَّا أنهم كانوا مُعَانِدِين مُسْتَكْبِرين مُكَابِرين.

وممَّا لا شَكَّ فيه أنّ آيَة فَلْقِ البَحْر قد كانت آيَةً لِبَني إسرائيل، وآيَةً لِمَنْ بَقِيَ في مِصْرَ مِنْ قَوْمِ فرعون، فَلَمْ يَهْلكُوا معَ الهَالكِينَ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾:

القراءات:

٢٦ • قرأ نافع، وأبو عَمرو، وأبو جَعْفر: **[وَيَسِّرْ لِيَ]** بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان هذه الياء.

٣٠ ـ ٣١ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: **[أخِيَ اشْدُدْ]** بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان هٰذه الياء.

٣٢ • قرأ ابْنُ عامر: **[وَأُشْرِكْهُ في أَمْرِي]** بضم همزة «أُشْرِكْهُ» على أن المُشْرِكَ لَهُ في أمْرِهِ هو موسىٰ عليه السلام.

وقرأ باقي القرّاء العَشْرة: [وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي] بفتح همزة «أَشْرِكْهُ» على أن موسىٰ يَدْعُو رَبَّهُ بأن يَجْعَلَ أَخَاهُ هارون شَرِيكاً له في أمر رسالته.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، فإمَّا أنْ يكون موسىٰ عليه السلام دعا أوّلاً بأن يجعل الله أخاه شريكاً لَهُ في أمْرِه، وبَعْد ذلك قال: «وَأُشْرِكْهُ في أمْرِي» أي: فإذا جعلْتَهُ شريكاً في أمْرِي فأنا أُشْرِكُهُ فيه.

وإمَّا أنْ يكونَ قالَ أولاً: «وَأَنَا أُشْرِكُهُ في أمْرِي» وبعد ذلك رأىٰ أن مثل هذا القول لا يليق به أن يقوله لربِّهِ، فتراجعَ وسَأَلَ رَبَّهُ قائلاً: [وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي].

وجاء بشأن هذا الطَّلَبِ الذي طَلَبَهُ موسى عليه السلام من ربِّه تكْمِلَتَانِ للمُرَادِ بَيَانُهُ في القرآن المجيد.

(١) فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٦ نزول) بعد بيان أنّ الله عزّ وجلّ أمَرَهُ أنْ يَذْهَبَ برسالته إلى فرعون وملَئِهِ حكايَةً لِقَوْلِ مُوسَىٰ عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

• قرأ نافع وابْنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جَعْفر: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلّم، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكَان.

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سُورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

القراءات:

١٢ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [**إنِّيَ أخَافُ**] بفتح ياءِ المتكلّم. وقرأها باقي القُرَّاء العشرة بالإسْكان.

١٢ ـ ١٤• قرأ يَعْقوب: [**يَكَذِّبُوني ـ يَقْتُلوني**] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف. وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم: [**يُكَذِّبُونِ ـ يَقْتُلُونِ**].

والقراءتان وجهان عربيَّان جائزان، وحذف الياء إيجاز في النطق وتخفيف.

١٣ • قرأ يَعْقُوبُ: [**ويَضِيقَ صَدْرِي ولاَ يَنطَلِقَ لِسَاني**] بنَصْبِ فعلَي «يضيق» و«يَنْطَلِق» عطفاً على: [**أَنْ يُكَذِّبونِ**] أي: أخاف أنْ يُكَذِّبُوني، وأخافُ أنْ يَضِيقَ صَدْرِي ولا يَنْطَلِقَ لساني.

وقرأهما باقي القُرّاء العشرة بالرَّفْع: [**ويَضِيقُ صَدْرِي ولاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي**]: أي: وَأَنَا يَضِيقُ صَدْرِي ولَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فيما أعْهَدُ مِنْ أَمْرِي، عطفاً على: [**أَخَاف**]، أو على الاستئناف.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المرادِ بيانُه، وهما تَدُلَّان على أنَّ مُوسَىٰ عليه السّلام عَبَّر بالعبارتَيْن، إحداهما أبان فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بحَسَبِ العادة، والأُخْرَى أبَانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أنْ تُسَيْطِرَ عَلَيْهِ صِفَتُهُ المعتادة.

• تدبُّر هذه النصوص الثلاثة من سورة (طَه) و(القصص) و(الشعراء) تَدَبُّراً تكامُلِيّاً:

أدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السّلام عِظَمَ المسؤوليّة، وثِقَلَ الرّسالَةِ الكبيرة الّتي كلَّفَهُ رَبُّهُ جلَّ جلالُهُ أن يقومَ بوظائِفها، فجالَتْ في خواطِرِهِ ثلاثة تخوُّفاتٍ تعترضُه في سبيله للقيام بما أمَرَهُ الله عزّ وجلّ به، فعَبَّرَ عَنْهَا في مُنَاجَاتِهِ لربِّهِ وهو يُكَلِّمُهُ بجانب الطور في اللّقَاء الأوّل، وفي الختام سألَ ربَّهُ مسائل تتعلَّقُ بمخاوفه، فقال الله له: لَقَدْ أُوتيتَ سُؤلَكَ يا مُوسَىٰ.

التخوُّف الأوّل: أن تَقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الفِرْعَوْنيّة، لأنَّه كان قبلَ خروجه من مصر قد قتل من القِبْطِ رَجُلاً، انتصاراً لإسرائيليٍّ وجَدَهُ مَظْلُوماً مُعْتَدىً عليه من قِبَلِ القبطيّ، إذْ وَكَزَهُ وَكْزَةً بِجُمْعِ يَدِهِ على ذَقَنِهِ فقضىٰ عليهِ، وكان المكان خالياً إلّا مِنَ الإسرائيليّ، فدَفَنَهُ على ما ذكر الإسرائيليون.

وظنَّ أن الخبر سيبقَىٰ خفيّاً لَنْ يَنْتَشِرَ بين المصريّين ولَنْ يَصِلَ إلى القَصْرِ الفرعَوْني، لكنَّ الخبرَ فَشىٰ بينَ الإسرائيليّين، ثم وصل إلى الأقباط بسُرْعَةٍ، فإلى رجال القصر، فرأى رجال القصر أن يقتلوه، فأقْبَلَ إليه ناصحٌ لَهُ صلة بالقصر، وأخبره أنّ القوم يَأْتَمِرُونَ به ليقتُلوه، ونصَحَهُ بأنْ يخرجَ من مصر، فاسْتَجابَ لنَصِيحَتِهِ، ففرَّ من مصر خائفاً يَتَرَقَّبُ من يَعْرِفُهُ فيقْبِضُ عليه، لكِنَّ الله أعْمَىٰ عنه العيون، فخرج حتَّىٰ وصَلَ إلى أرْضِ مَدْين الّتي لم يكن للمصريين سلطَةٌ عليها حينئذٍ، وقضىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ له بأن يَأْمَنَ، ويُرْزَقَ رِزْقاً حسناً، ويتزوَّجَ ابْنَةَ الرَّجُلَ الصالح من المؤمنين بشعيبٍ عليه السّلام، وربَّما كان رئيساً دينيّاً في قومه، كما يَذْكُرُ الإسرائيليُّون.

وقد عبَّر عَنْ تَخَوُّفِهِ هذا بقوله لربِّه كما جاء في النصِّ الذي من سورة (القصص) وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

وبقوله لربِّه كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

فأضافَتْ هٰذه العبارة بيانَ أنَّ تخوُّفَهُ من قَتْلِهِمْ لَهُ، سببُه أنّ لهم عليه ذَنباً، وهُوَ قَتْلُه قبل أكْثَر من عشر سنين للقِبْطيّ.

فأجابَهُ الله عزّ وجلّ على هذا التخوُّف بقولِهِ لَهُ: [. . . كَلَّا] في الآية (١٥) من سورة (الشعراء) بهذه الأداة التي فيها معنَىٰ الزَّجْر، أي: لا يليق برسولٍ اختارَهُ الله لحَمْلِ رسالتِهِ أنْ يَخافَ مِنَ القَتْلِ، أو أنْ يَشُكَّ في حمايَةِ رَبِّهِ له.

وطَمْأَنَهُ على نفسه وعلى نَفْسِ أَخِيهِ هارون بأنَّه سَيَحْمِيهمَا مِنْ كُلّ المخاوف، وسيَجْعَلُ لهما سُلْطاناً من قُوَّةٍ غيبيَّةٍ قاهرة، تَجْعَلُ بتدبيراته فرعَوْنَ ومَلأَهُ وجُنُودَهم، لا يُفَكِّرُونَ بقتلِهِمَا أو إيذائهما، مخافة عاقبة ذلك، لأنّ قُلُوبَهُمْ سَتَكُونُ على يَقِينٍ مِنْ صِدْقِهِمَا.

وأبان الله له أنّ حمايته لهما ستَكُونُ بآياته الخوارق ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ ممَّا هو ظاهِرٌ وممّا هو خَفِيٌّ غيبيٌّ.

فقال تباركَ وتعالىٰ لَهُ كما جاء في سورة (القصص):

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[سُلْطاناً]: أي: قُوَّةً قاهرةً غيبيَّةَ الأدوات أو مشهودَتها.

التخوُّفُ الثاني: حَالُ عُقْدَةٍ لسانِهِ الّتي كان سَبَبُها أنَّهُ في طفولَتِهِ وضَعَ جَمْرَةً في فَمِهِ بَدَلَ تَمْرَةٍ، فاحْتَرَقَ طَرَفُ لِسانِهِ فصارَتْ فيه عُقْدَة، وكان إذْ ذاك في حِجْرِ فرعونَ كما ذكروا، واللّٰهُ أعلم بسبب عقدة لسانه.

فتخوَّف عليه السّلام أن تكُون هذه العقدة مانِعَةً لَهُ مِنْ أن يُحْسِنَ بيانَ رِسالَتِهِ لفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ.

وقد عبَّرَ عَن تخوُّفِهِ هذا بقوله لربِّه كما جاء في سورة (القصص):

﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

[رِدْءاً]: أي: مُعِيناً ونَاصراً. **الرِّدْءُ في اللُّغَة**: المعين والناصر. والقُوَّةُ والعِمَاد. يقالُ لغة: رَدأ البَنَّاءُ الجدار مثلاً، أي: دَعَمَهُ وقَوَّاه.

[**يُصَدِّقني**]: أي: يَكُونُ سَبَباً في تَصْدِيقِ القوم لي إذْ نكُونُ قُوَّتَيْن.

وقال موسىٰ عليه السَّلام أيضاً ما جاء بيانُه في نصّ سُورَةِ (الشعراء):

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: أي: ولا يَنْدَفِعُ لساني بقُوَّةٍ وسُرْعَةٍ بالبيان، للعُقْدَةِ الَّتي فيه، فأَرسِلْ إلى هارونَ لأنَّهُ أَفْصَحُ منِّي لساناً، وأقْدَرُ علىٰ أن يَنْطَلِق لِسَانُهُ منِّي.

الانطلاق: السُّرْعَةُ في التحرُّك، ومِنْهُ انطلاق الخَيْل في السّباق.

وقد أجابَهُ الله عزّ وجلّ في النصِّ الذي جاء في سورة (القصص) بقوله:

﴿... سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ... ﴿٣٥﴾﴾.

العَضُدُ: هو من اليَدِ ما بَيْنَ المِرْفَقِ إلى الكَتِف، وجمعه: «أعْضاد» وشدُّ العَضُدِ كنايَةٌ عَنْ تَقْوِيتِهِ بأخيه.

وبقوله له كما جاء في نَصِّ (الشعراء) بأسلوب غَيْرِ مُباشر:

﴿... قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: قَدْ أَرْسَلْنَا إلى أخيك هارون، وتحقَّقَ طَلَبُكَ، فاذْهَبَا مَصْحُوبَيْن بآياتنا الخوارق، وآياتنا البيانيَّة، إنّا معكُمْ مُسْتَمِعُون لما تَقُولَان، ولما يُقالُ لَكُما، ومؤيّدون وناصرون وحَافظون.

وقد جاء التعبير هنا بضمير المتكلّم العظيم، لإشعار موسى عليه السلام بعَظَمَةِ الرُّبُوبيَّة القادرة على تأييدِهِمَا وحمايتهما ونُصْرَتهما.

❁ ❁ ❁

التخوُّفُ الثالث: أنّ موسى عليه السّلام يَعْلَمُ من نفسه أنَّه مَفْطُورٌ على طبيعة التعجُّلِ والحدَّةِ وسُرْعَةِ الغضب، الّتي يَضيقُ مَعْها صَدْرَهُ تُجاه ما يَرَاهُ مخالفاً للحقّ أو الخير، أو لمزاجِهِ وإحساسات نَفْسِهِ، أو مصادماً لما يُرِيدُهُ ويَرْغَبُ فيه، من خير.

فهو يتخوَّفُ من أن تجْعَلَهُ طبيعَتُهُ هٰذه يتصرَّفُ تَصَرُّفاتٍ لَا تَحْسُنُ من رَسُولٍ داعٍ إلى اللّهِ حكيم، وقائدٍ رشيد، لأنَّها تُحَطِّمُ حاجز الحِلْمِ والصَّبْرِ الحَمِيدَيْن.

وقد عَبَّرَ موسىٰ عليه السلام عن هذا التخوُّف، بقوله لربِّه كما جاء في نصِّ سورةِ (الشُّعراء):

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى . . . ﴿١٣﴾﴾.

ضِيقُ الصَّدْرِ يكُونُ بعَدَمِ قُدْرَةِ صاحِبِهِ على تحمُّلِ المزعِجَاتِ والمؤلمات للنَّفْسِ، بصَبْرٍ حميد، وحِلْمٍ رَشِيد، ولا سيما لدَىٰ تَعَامُلِهِ مع النَّاسِ ذوي الأخلاق والطباع المختلفة.

❁ ❁ ❁

وبعد أنْ أبانَ موسىٰ عليه السَّلام لربِّه تخوُّفاتِهِ الثلاث التي سَبَقَ شَرْحُها، سأل ربَّهُ بشأنِهَا جميعاً، مع غيرها من مطالب، قائلاً في دُعائِهِ مَا جاءَ بيانُهُ في نَصِّ سورة (طه):

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾:

تدبُّر هذا النصّ:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾:

[**اشْرَحْ**]: دُعاءٌ بصيغة الطلَب. **الشَّرْحُ**: البَسْطُ والتَّوْسِعَة. وشَرْحُ الصَّدْرِ يكون بجَعْلِهِ واسعاً قادراً على تَحَمُّلِ المُزْعِجَاتِ والمكارِه، بِصَبْرٍ حَمِيد، وحِلْمٍ رَشيد، دُون انْدِفاعٍ بغَضَبٍ سَريع.

الصَّدْر: معروف، فيه القلب والكبد والرِّئة ونحوها. ولكنَّ الصَّدْر في تَحْلِيلِ النفس هُو الوعاء الذي يَحوِي في الإنسان خصائص نفسه، من سَطْحِ هذه الخصائِصِ إلى عُمْقِها، وتأتي في سَحْطِها الأهواء والشهواتُ. ويأْتِي في عُمقِهَا مَرْكَزُ استقرار المعارف الكبرى، والإيمانِ، والإراداتِ الشدِيدَاتِ من مُسْتَوَى العزم.

- ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وسَهِّلْ لِي كُلَّ أُمُورِي، ولا تَجْعَلْ فيها عسيراً ولَا صَعْباً. استفيد العموم من إضافة «أَمْر» إلى ياء المتكلّم.

التَّيسير: التسهيلُ، وجَعْلُ الشيء مطاوعاً هيّناً ليّناً منقاداً، لا تَقِفُ دُون تحقيقه أو دُونَ تحقيقِ الغاية منه، عَقَبَاتٌ ولَا مَوَانِعَ ولا سُدود.

واليُسْر: هو ضِدُّ العُسْر.

- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾:

حَلُّ العُقْدَة: فَكُّها. العُقْدَة في المنظور: عُقْدَةُ الخَيطِ أو الحَبْلِ حينَ يُدارُ بَعْضُه على بَعْضٍ ويُشَدّ. ونظيرها يكون في المعنويّات غَيْرِ المنظورة.

عُقْدَةُ اللّسان: عَيْبٌ في نُطْقِ اللّسان خِلْقِيٌّ أو طارِئٌ، يجعل اللّسان غيرَ قادِرٍ على النُّطْقِ بانطلاقٍ ويُسْرٍ وسَلَاسَة، وإفهام سريع للمراد بيانه بالكلام.

[يَفقَهُوا قَوْلي]: أي: يَفْهَمُوا قَوْلِي بإمعان. **الفقه**: هو في اللُّغة الفهم، والعِلْم. ويُسْتَعْمَلُ الفقه للدّلالة على العِلْم ببواطِنِ الأُمُورِ ودَقَائِقِهَا وخَفَايَاها، وعلى البحث عنها للتوصُّلِ إلى مَعْرِفتها، فهُوَ أَخَصُّ من مُطْلَقِ العِلْم.

أي: واحْلُلْ يا رَبّ عُقْدَةً من لِساني، وهي العقدة الَّتي تَحْبسُ نُطْقِي بَعْضَ الشيء، فإذا حَلَلْتَها بقُدْرَتِكَ وحِكْمَتِكَ صِرْتُ قادراً على إفْهَامِ الَّذين أُبَلِّغُهُمْ رِسَالَاتِكَ دقائِقَ المعاني الّتي أُقِيمُ بها عَلَيْهِمُ البراهِينَ الدّامغة، والحجج السَّاطعة القاطِعَة، الكاشفة لباطل المجادِلِينَ بالباطِلِ، الّذين يُرِيدُونَ أنْ يُدْحِضُوا الحقّ بزُخْرُفٍ من القول.

• ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾:

الوزير: المُوَازِرُ المعين المساعد المسانِد.

أيْ: واجْعَلْ لي مُوازِراً مُعِيناً مُسَاعِداً يَحْمِلُ مَعِي أثْقَالَ وَظَائِف رِسالَتي.

الوَزْرُ، والوِزْرُ، والوِزْرَةُ: حَمْلُ ما هُو ثقيلٌ على الظَّهْر. هو في المادّيات ظاهر، وفي المعنويات هو من قِبَلِ التوسُّعِ اللُّغوي.

﴿...مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾: سأل مُوسىٰ عليه السَّلام رَبّه أن يَجْعَلَ الوزير الّذي يختارُهُ لَهُ مساعِداً مُسَانِداً مِنْ أهله، وعَيَّنَ أخاه هارونَ على وَجْهِ الخصوص لعِلْمِهِ بأخيه، وبأنَّهُ أهْلٌ لهٰذِهِ الوِزارة الدِّينِيَّة، دِيناً وخُلُقاً وبَياناً وحِكْمَةً وحِلْماً.

• ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾﴾: أي: قَوِّ بِهِ قُوَّتي. **الأَزْرُ**: القوّة. يُقال لغة: شَدَّ أَزْرَهُ، أيْ: قوّاه.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ الشَّدِّ في القرآن بمعنى التَّقْوِيَة، وبمعنى الشَّدِّ الضَّاغِطِ المؤلم، كشَدِّ وَثَاقِ الأسير، والشَّدِّ على القُلوب بالكُروب، وبالمؤلِمَات المحزنات.

• ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾﴾

أي: واجْعَلْهُ شَرِيكاً لي في أمْرِ رِسالَتِي الّتِي كلَّفْتَنِي إيَّاها، وحَمَّلْتَنِي وَظَائِفَها. وفي قراءة ابن عامر: [**وَأُشْرِكْهُ في أَمْرِي**] بضمِّ همزة «أُشْرِكُه» أي: فإنْ جَعَلْتَهُ وزيراً شريكاً لي في أَمْرِ رِسالَتِي، أُجْعَلْهُ شَرِيكاً في ذلك.

• ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾

أي: مِنْ أجْلِ أن نَتساعَد ونَتَسانَد على تَنْزِيهِكَ عمّا لَا يَليقُ بجَالِكَ وعظيم صفاتِكَ، تنزيهاً كثيراً في مَفْهوماتِ التنزيه، وكثيراً في تِكْرارِهِ طوال أزْمَانِنَا، بَيْنَنَا وبَيْنَ أنْفُسِنَا، وفي دَعْوَتِنا الّتي نَقُومُ بها إذْ نَدْعُو النّاسَ إلى دِينِكَ وصراطِكَ المستقيم.

التَّسْبِيحُ لله: تَنْزِيهُهُ وتَقْدِيسُهُ عن كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانه. وهو تمجيد لِلَّه بصِفاتِهِ السَّلْبِيَّةِ التي هو مُنَزَّهٌ عنها. وهو عَكْسُ **التَّوْقِير**: الذي هو تمجيد لِلَّه بصفاته الوجوديَّة الّتي هي لله عزّ وجلّ على ما يليقُ به.

• ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ونَذْكُرُك بمحامِدِكَ الجَلِيلَةِ، وصِفاتِك العظيمة، وأسمائِكَ الحُسْنَى، في أَنْفُسِنا، وفي دَعْوَتِنَا للناس الّتي نقوم بها، ذِكْراً كثيراً، بِبَيان كمالِ ذاتِكَ، وكمال صفاتِكَ وأسمائك، وبتكرارِ ذلك تكراراً كثيراً طَوال أَزْمان حيواتنا.

• ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾:

أي: إنَّكَ كُنْتَ ومَا زِلْتَ ولَنْ تَزال بِنا بَصيراً ما دُمْنَا في الوجود. وهٰذا يَجْعَلُنا نَطْمَعُ بثوابك العظيم الذي تَتَفَضَّلُ به علينا، مقابل قيامِنَا بتَسْبِيحِكَ كثيراً، وذِكْرِكَ كثيراً.

إنّ صِفاتِ الأزلِيّ الأَبدِيِّ ذاتُ كَيْنُونَةٍ دائمة، فما كان منها هو كائن دواماً.

البصير: في إطْلَاقِهِ على الله عزّ وجلّ يَدُلُّ على أنَّ اللَّه بالِغُ الغايَةَ العُظْمَىٰ في صِفةِ الرُّؤْيَة، وهي الّتي يَرَى فيها كُلَّ مَا يُمْكِنُ عَقْلاً رُؤْيَتَهُ، مَهْمَا صَغُرَ أَوْ كَبُر، ومَهْمَا بَعُدَ أو قَرُبَ.

هٰذه الأَدْعِيَة الّتي دَعَا بها مُوسَىٰ رَبَّهُ في أُولَىٰ مكالمة الله لَهُ بِجَانِبِ جبل الطّور، قد أجابه الله بشأنها:

إذْ كان الجواب الأخير من الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام، ما جاء بيانُهُ في النَّصِّ الذي من سورة (طَه) وهو قول اللَّهِ تبارك وتعالىٰ فيه:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ: قَدْ أَعْطَيْنَاكَ كُلَّ ما سَأَلْتَنَا إِيَّاه يا مُوسَىٰ، جاء فِعْل: [**أُوتِيتَ**] بصيغَة المَبْنِي لما لم يُسَمَّ فاعله، ومن المعلوم البَدَهِيّ الظاهِرِ أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ هو الذي آتاه سُؤْله.

ودَلَالة العموم الّتي شملَتْ كلَّ مطالبه أفادَتْها إضافة السُّؤْلِ إلى ضمير المخاطب، وهو موسىٰ عليه السّلام.

السُّؤل: هو في اللّغة الشَّيْءُ الذي يُطْلَبُ بالسؤال.

وقَدْ جاء في النَّصَّيْن الآخَرَيْن كما سَبَق بيانُه، ما يَدُلُّ على أنّ الله عزّ وجلّ قد أتاه سُؤْلَهُ بشَأْنِ أخِيهِ هارون، وبشأن ما كان يتخوَّفُ منه، فجاء في نصِّ سورة (القصص) قولُ الله سبحانه

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وجاء في نصّ سورة (الشعراء) قول الله عزّ وجلّ:

﴿...فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: أَرْسَلْنا مَعَكَ أخاكَ فاذْهَبَا، وهذا المطويُّ في اللّفظ يُفْهَمُ باللُّزومِ الفكريّ.

❁ ❁ ❁

وهكذا ظهر لنا تكامل النصوص الثلاثة في دلالاتها، دُونَ تكرار، إلّا ما يَقْتَضِيه التعريف بأصْل الموضوع، ولا يُفْهَمُ المراد بالنّص من دونه، وما يقتضيه ترابُط فقرات النصّ.

وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد.

❁ ❁ ❁

تابع التدبر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثانية
الآيات من (٣٧ ـ ٦٠)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لموسىٰ عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ

﴿ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

القِراءات:

٣٩ ● قرأ أبو جعفر: [**وَلْتُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي**] بلام الأمر، الّتي هي هُنا لَامُ أمْرِ التكوين، وبجزْمِ الفِعْلِ بلام الأمر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلِتُصْنَعَ**] بكَسْرِ اللّام، على أنّها لَامُ التَّعْليل، وبنَصْبِ الفِعْل بأنْ مُضْمَرَةٍ بعد لامِ التعليل، وهٰذِهِ القراءَة تدلُّ على الغرض مِنْ جَعْلِهِ يُنَشَّأ في القَصْرِ الفرعونيّ تَنْشِئَةَ القادةِ، وعليماً بما يجري في القصر من أمور.

٣٩ ـ ٤٠ ● قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: [**عَيْنِيَ إِذْ**] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بالإسْكَان.

٤٠ • قرأ السُّوسي، وأبُو جَعْفَر: [جِيتَ] بإبْدال الهمزة ياءً.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرةِ: [جِئْتَ] على الأصل دون إبدال.

٤١ ـ ٤٢ • قرأ نافِعٌ، وابْنُ كَثِيرٍ، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [لِنَفْسِيَ أَذْهَبْ] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرةِ بالإسكان.

٤٢ ـ ٤٣ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر: [في ذِكْرِيَ اَذْهَبَا] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٥٣ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [مَهْداً] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِهَاداً].

٥٨ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [سِوَىٰ] بكسر السِّين، والباقون بضمّها، وهما لغتان عربيتان للكلمة.

تمهيد:

ممّا ذكر ابن كثير مُتَفرِّقاً في كتابه «قصص الأنبياء» أجمع مع بعض اختصار وتصرّفٍ في التعبير، ما يلي مما يتعلّق بمنة الله على موسى إذْ أنْجاه وهو طفل صغير من الذَّبْحِ، بمقتضى أمر فرعون مصر بقتل الذكور من مواليد الإسرائيليّين.

(١) أنَّ فرعون مصر الَّذي وُلِدَ في عهده موسىٰ عليه السَّلام، قد استَعْبَدَ بني إسرائيل، وأذلَّهم، وجَعَلَ يستخدمهم في أخسِّ الصنائع والحِرَف، ويُسَخِّرُهم في الأعمال الشاقَّة، وقد أمَرَ بذبح مواليدهم من الذّكور، واستبقاء مواليدهم من الإناث.

(٢) وكان الحاملُ لَهُ على هذا الظُّلْم الشنيع أنّ بني إسرائيل كانوا يتدارسُونَ فيما بينَهُمْ، عن إبراهيم عليه السّلام، أنّه سيخرج من ذُرِّيَّتِهِ، بَنِي إسْحَاق ويَعْقُوبَ غلامٌ يكونُ هَلَاكَ مَلِك مِصْرَ على يَدَيْهِ، فتحدَّث بها القِبْطُ فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فأمَرَ عِنْدَئِذٍ بقَتْل أبناء بني إسرائيل، حَذَراً من وجود هذا الغلام.

(٣) ورُوي عن ابن مَسْعُودٍ وعن أناسٍ من الصحابة أنَّ فِرْعَوْن رأىٰ في منامه، كأنّ ناراً قد أقبلَتْ من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضرّ بني إسرائيل، فلمَّا استيقظ هاله ذلك، فسأل من له عِلْمٌ بتعبير الأحلام، فقالوا له: هذا غلامٌ يولَدُ من هؤلاء يكون سَبَبُ هلاك أهل مصر على يَدَيْهِ، فلهذا أمَرَ بقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل، واستحياء المولودات من الإناث منهم.

(٤) وذكر عَدَد من المفسّرين، أنّ القِبْط شَكَوْا إلى فرعون قلّةَ بني إسرائيل، بسبب قتل وِلْدَانهم من الذكور، وأنّهم خافوا أن يتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الّذين يقومون بما كانَ بنو إسرائيل يقومون به من أعمال شاقّة، أو أعمال دنيئة حَقِيرَة، فأمَرَ فرعَوْن بأن تقتل أبناؤهم عاماً، وأن يُتْرَكُوا عاماً.

وذكروا أنّ هارون وُلِدَ في عام المُسَامَحَةِ عن قَتْلِ الأبناء، وأنّ موسىٰ وُلِدَ في عامِ قَتْلِهِم، وأنَّ أُمَّه لما حملت به ضاقت بحملها ذَرْعاً، وأخذت تحترز من أوَّلِ ما حَمَلتْ به، ولم تَكُنْ تُظْهِرُ عليها مَخايِل أنَّها حُبْلَى، خَوْفاً من أنْ يأتيها وَلَدٌ ذكر، فيقتلَه جُنُودُ فرعون.

فلمَّا وَضَعَتْهُ ألْهَمَها الله عزّ وجلّ أنْ تَتَّخِذَ لَهُ تابوتاً (صندوقاً) وربطت حبلاً بهذا الصندوق، وكانت دارُها مُتاخِمَةً للنّيل، فكانت تُرْضِعُه، فإذا خَشِيَتْ من أحدٍ وضعَتْهُ في ذلك التّابوت، فأرْسَلَتْه في ماء النيل،

وأمسَكَتْ طرف الحَبْلِ عندها، فإذا ذَهَبَ الرُّقباء من القِبْطِ اسْتَرْجَعَتْه إليها.

فأَرْسَلْتَه ذاتَ يوم، وذَهِلَتْ أن تَربط طرف الحَبْلِ عندها، فذهَبَ مَعَ النّيل وجَرَيَانِهِ، فمَرَّ على ساحل قَصْرِ فرعون، فالْتَقَطَهُ آل فرعون.

(٤) وذكروا أنّ جواريَ القصر الفرعونيّ التَقَطْنَهُ من النّيل في تابوتٍ مُغْلق عليه، فلم يتجاسَرْنَ على فَتْحِهِ، حتَّى وَضَعْنَهُ بين يَدَيْ امرأة فرعون، فلمَّا فتَحَتْ غطاءه، وكَشَفَتِ الحجابَ، ورأَتْهُ أحبَّتْهُ حُبّاً شديداً جداً.

فلمَّا جاء فرعَوْنَ قال: ما هذا؟ وأمَرَ بذَبْحِهِ، فاسْتَوْهَبَتْهُ منه، ودَفَعَتْ عنه، وقالت: «قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ؟

قال فرعونُ: أمَّا لَكِ فَنَعَم، وأمَّا لِي فَلَا».

(٥) ولمّا استقرَّ الصَّبِيُّ «موسىٰ» بقصر فرعون، أرادُوا أن يُرْضِعُوه، فلَمْ يَقبل ثَدْياً، ولا أَخَذَ طعاماً، فحاروا في أمْرِهِ، فأَرْسَلُوهُ مع القوابل والنساء إلى السُّوقِ، لعلّهم يَجِدُون مُرْضعةً يَرْضَىٰ أنْ يَرْضَعَ من ثَدْيها.

فبينما هم وُقوفٌ به، والناسُ عاكِفُون عليه، إذْ بَصُرَتْ به أخْتُه، فلَمْ تُظْهِرْ أنَّها تَعْرِفُهُ، بل قالت: «هَلْ أَدُلُّكُمْ علىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وهُمْ لَهُ ناصحون؟».

قالوا لها: ومَا يُدْرِيك بنُصْحِهِمْ وشَفقتهم عليه؟

قالت: رغْبَةً في سُرُور المَلِكِ، ورَجاء مَنْفَعَتِهِ.

فذهبوا معها إلى مَنْزِل أبيها وأُمِّها، فأخَذَتْهُ أُمُّهُ، فلمَّا وضَعَتْ حُلْمَةَ ثَدْيها في فَمِهِ الْتَقَمَها، وأخَذَ يَمْتَصُّ حليب أُمِّهِ ويَرْتَضِعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً.

وذهب البشير إلى «آسية» امرأة فرعون، فأعلمها بما جرىٰ، فاسْتَدْعَتْ هذه المرضعة (الّتي هي أُمُّه في الحقيقة) إلى قصرها، وعرضَتْ

عليها أنْ تكونَ عندها، وأنْ تُحْسِنَ إليها، فأبَتْ، وقالَتْ: إنّ لي بَعْلاً وأَوْلَاداً، ولَسْتُ أقْدِرُ على هذا إلّا أنْ تُرْسِلِيهِ معي، فأَرْسَلَتْهُ مَعَها، ورَتَّبَتْ لها رَوَاتِبَ، وأجْرَتْ عليها النفقات والكساوي والهِبَات.

ورَدَّ الله ابْنَها إليها تُرْضِعُه، وتَحْضُنُه، مأجورةً مُعَزَّزةً مُكرَّمة.

ما جاء عند الإسرائيليين بشأن هذه القصة:

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج ما يلي معناه:

قام في مصر مَلِكٌ بَعْدَ المِلك الذي كان في عهد يوسف عليه السّلام، ولم يَكُنْ يَعْرِفُ يوسُف. فرأىٰ أنّ العبرانيّين يتكاثرون، وتعظُمُ قوّتُهُمْ في مصر. وتصوّر أنّه إذا قامَتْ حَرْبٌ بَيْنَهُ وبين أعدائه أن ينضمّ العبرانيون إلى الأعداء، فأمَرَ الشَّعْبَ المصريّ بتَسْخِيرِ الإسرائيليّين، وإذْلَالِهِم، واسْتِعْبَادِهِم استعباداً قاسِياً، ثُمَّ أمَرَ بِقَتْلِ مواليدِهِم من الذُّكور.

وفي السَّنة القاسية الّتي كان القبط يقتلون فيها مواليد العبرانيين الذكور، وُلِدَ موسىٰ، من بيت لاوي، أباً وأمّاً.

فخَبَّأَتْهُ أُمُّه ثلاثَة أشهر، لكنّها لمّا لَمْ يُمْكِنُها أنْ تخبّئه أكثر من ذلك، أخَذَتْ له سَفَطاً من البَرْدِي ذا غطاء (**السَّفطُ**: صندوق يُصْنَعُ مِنْ قُضْبانِ الشَّجر) وطَلَتْهُ بالحُمَرَ[1] والزّفت، ووضَعَتْ ابنها فيه، ووضَعَتْهُ بَيْنَ الحلفاء (الحلفاء: نباتٌ قليل الارتفاع ينمو في المستنقعات، وعلى بعض شواطئ النيل ويُفْتَلُ إلى حِبَال) على حافَّة النَّهر، ووقفت أُخْتُهُ من بعيد لتَعْرِف ماذا يُفْعَلُ به.

(١) **الحُمَر**: نوع من القار المعدني، شبيه بالقطران الشديد، ويتحوّلُ إلى زفت إذا جُمّد تماماً، وكان يُسْتعمل ولا زال في طلاء المراكب البحرية، ويوجَدُ في البحر الميّت وبالقُرْب منه. وكان يستخدم في بابل عوضاً من الإسمنت. (عن كتاب قاموس الكتاب المقدّس).

فنزلت ابنَةُ فرعَوْنَ إلى النَّهرِ لتغتسل، وكانت جواريها ماشياتٍ على جانب النهر، فرأتِ السَّفَط بين الحَلْفاء، فأَرْسَلَتْ أَمَتَهَا وأَخَذَتْهُ، ولمَّا فَتَحَتْهُ رأتِ الوَلَد، وإذا هُوَ صَبِيٌّ يَبْكي، فرَقَّتْ له، وقالَتْ: هذا من أَوْلادِ العبرانيّين.

وقالت أُخْتُهُ لابْنَةِ فرعونَ: هَلْ أَذْهَبُ وأدْعُو لكِ امْرَأَةً مُرْضِعة من العبرانيات لِتُرْضِعَ لَكِ الوَلَد.

فقالت لها ابْنَةُ فِرعون: اذهبي بهذا الولَدِ وأرْضِعِيهِ لي، وأنا أُعْطِيكِ أُجْرَتَكِ.

فأخذت أمُّ الصبيّ ولدَها وأَرْضَعَتْهُ، ولمَّا كَبِر جاءَتْ إلى ابْنَةِ فرْعَوْن وأعْطَتْهَا الصَّبِيّ، فتَبَنَّتْهُ ولداً لها، وسمَّتِ اسْمَه «موسىٰ» وقالت: إنّي انْتَشَلْتُهُ من الماء.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسى في سورة (طه) الّتي أتابع تدبُّر دروسها:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لموسىٰ بعبارة [لَقَدْ] ويعطف الجملة على الجمل السابقة لها في السورة.

[مَنَنَّا]: أي: أحْسَنَّا وتَفَضَّلْنَا وأنْعَمْنَا، باسْتِعْمَال ضمير المتكلّم العظيم، إذ كان في هذه المِنَّة أَلْطافٌ رَبَّانِيَّةٌ عَجِيبَة.

المنّ: هو في اللُّغَةِ الإحسان والتفضُّلُ والإنعام. يُقالُ لغة: «مَنَّ فُلانٌ على صَدِيقِهِ يَمُنُّ مَنّاً»، أي: أَنْعَمَ عليهِ بِنِعْمَةٍ طيّبة.

[مَرَّةً أُخرَى]: أي: غَيْرَ مِنَّةِ مُكَالمَتِكَ، ومَنْحِكَ النُّبُوَّة والرِّسالة، وآيَتِي العصا واليد، مع ما سَنُعْطِيكَ من آياتٍ لَمْ نَكْشِفْ لكَ مفرداتها في هذا اللّقاء.

وهذه المنَّةُ الأخرىٰ الّتي سَيَأْتي بيانُها هي مِنَّةُ حِمايَتِهِ من الذَّبْحِ، بأيْدِي جُنودِ فِرْعَوْنَ صاحبِ الأمْر بذَبْحِ المواليدِ الذكور مِنْ بني إسرائيل.

● ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذاكرتِكَ يا موسىٰ أننا أوحَيْنَا إلى أُمِّكَ إلهاماً منّا أنْ تَعْمَلَ أعْمالاً كانت سبباً صوريّاً في نجاتك من الذَّبْحِ وتنشئتك في القَصْر الفرعَوْني تَنْشِئَةَ أَبْناءِ المُلُوك.

أو مَنَنَّا عليكَ وقْتَ أنْ أَوْحَيْنا إلى أُمِّك ما يوحى.

[ما يُوحَىٰ]: أي: ما يُوحَىٰ نظيرُه لغير الأنبياء والمرسلين، إذْ يأتيهم إلْهاماً على شَكْلِ خواطر قويَّة دافِعَةٍ بقوة إلى العمل بمقتضاها، أو بواسِطة حُلْمٍ جَلِيٍّ يُرَىٰ في المنام، أو بواسطة مَلَكٍ يأتي بصورة إنسان ناصحٍ غير معروف أنَّه ملك. وقد جاء في بيانات الرسول ﷺ أنَّ الله أرسل ملائكة لبَعْضِ عباده، فبلَّغُوهم وأخبروهم أخباراً صادقة دون أن يكون المرسَلُ إلَيْهم أنبياء، كما جاء في حديثِ الأقرع والأبرص والأعمىٰ، عند البخاري ومسلم، وكما جاء في الصحيح من أنَّ الملائكة سلَّمَتْ على عِمْران بن الحصين، وهو ليس بنبيّ، وكما جاء في حديث الذي ذهب ليزور أخاً له في الله ساكنٍ في بلدٍ غير بلَدِهِ فظهر له الملَكُ وسألَهُ عن قَصْدِهِ وحادثه، فليس مثل هذا مقتضياً للنُّبُوَّة.

وقد اتّفق جمهور أهل العلم أنّ النبوّة لَا تكونُ للنِّسَاء، فلَمْ تكُنْ أمُّ موسى نبيَّةً يُوحَىٰ إليها كما يُوحَىٰ إلى الأنبياء.

• ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾:

[أنْ] تفسيرية جاءت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، فالعبارة جاءت تفسيراً للفِعْلِ في: [أَوْحَينا].

وأصْلُ معنىٰ القَذْفِ رَمْيُ الشيء بقوة، وليس هذا هو المراد بالعبارة هنا. ولكِنْ جاء استعمال فعل [اقْذُفِيهِ] للدّلَالَةِ على أنّها حينما تَضَعُهُ في التابوت، فإنَّها تَقْتَلِعُهُ بعُنْف من قَلْبها المُتَعَلِّق بوَلَدِها، والمطلوبُ منها أن تَضَعَهُ بسُرْعَةٍ في التّابوت، ودُونَ تردُّد، لأنَّ العمليَّة تحتاجُ سُرْعَةً وجُرْأَة بلا تَرَدُّد، إخفاءً لِلأَمْرِ عن عُيُونِ السُّلطَةِ الفرعَوْنِيَّة وسائِرِ المصريّين، وكثير من الإسرائيليين، كَيْلَا يَشِيعَ وُجودُ صَبِيٍّ ولِيدِ سَنَتِهِ في بيتٍ من بيوت بني إسرائيل.

﴿فِى ٱلتَّابُوتِ﴾: أي: في الصُّنْدوقِ الَّذي تُعِدِّينَهُ إعداداً حسناً، ليطْفُوَ على الماءِ دون أن يتعرَّضَ للغرق، حين تُلْقِينَهُ في النيل.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾: أي: وبفَوْرِيَّة وسُرْعَةٍ تُشْبِهُ سُرْعَةَ قَذْفِ الحَجَرِ، ضَعِيهِ في اليَمِّ، حتَّىٰ لَا يَشْعُرَ أحدٌ بما فَعَلْتِ.

هذان أمران تكليفيَّان جاءا إلى أمّ موسىٰ، تضمَّنَهُمَا ما أُوحي إليها به، على ما سبق به البيان بشأن المراد بالوَحْيِ إليها.

«اليَمُّ»: البَحْر، وهو الماء الواسع الكثير، وأُطْلِقَ لفظُ «اليَمِّ» على نَهْرِ النيل لأنَّه عظيم، وماؤه واسِعٌ وكثير.

• ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾:

هذا أَمْرٌ تكوينيٌّ صادرٌ عن الرَّبِّ الخالِقِ، فلا بُدَّ من تحقُّقِهِ في وقته

المحدّد له. وقد تحقَّق فعلاً على ما تمَّتْ به إرادَةُ اللَّهِ وقضاؤه.

[السَّاحل]: هو شَطُّ البَحْر، وسُمّي ساحلاً لأنّ الماء سحَلَ أرضَهُ، أي: قَشَرَ عنها سَطْحَها بأمواجه، ومَدِّه وجَزْرِهِ.

والمراد بالساحِلِ في هذه العبارة جانِبُ الساحل من النَّهر، لا السَّاحِلُ نفسه، أو طرَفُ السَّاحل الذي تتوقف عنده الأشياء التي يحملها الماء.

• ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾:

أي: وسيَحْدُثُ بوصوله إلى جانب الساحل حَدَثُ أخْذِهِ من قِبَلِ آلِ فرعون الكافر، الّذي هو عدُوٌّ للَّهِ بسبب كفره، وعَدُوٌّ لموسى، لأنّه من أبناء بني إسرائيل الّذين أمَرَ فرعون بقَتْلِهِمْ عقب ولاداتهم، إذِ اعْتَقَدَ أنَّ هلاكه وهلاكَ أنصاره وجنوده سيكونُ على يدَيْهِ.

جاء فعلُ: **[يَأْخُذْهُ]** مجزوماً على أنَّهُ جوابٌ للطلَب في: **[فَلْيُلْقِهِ]** لأنَّ إرادة الله عزّ وجلّ قدَّرَتْ أنْ يَترَتَّبَ أخْذُ آل فِرْعَوْنَ له، بَعْدَ وُصوله إلى جانب ساحل قَصْرِهِ. وبَعْدَ انْتشاله بأيْدي الجواري، أو بِيَدِ بِنْتِ فرعون، أو بِيَدِ زوجته، فمصيرُهُ إلى فرعون نفسه، لأنّه هو سَيِّد القَصْر والآمِرُ الناهي فيه، ويكون في الحقيقة هو الذي يَأْخُذُهُ إذْ يُوافق على تَبَنِّيهِ أو تَرْبِيتِهِ في قَصْرِهِ كأحدِ أولاده.

• ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾:

أي: وأنْزَلْتُ بإلْقَاءِ سريعٍ على ذاتِك شيئاً خاصّاً من لَدُنّي وبأمْرِي، يَجْعَلُ مَنْ يُشاهِدُك يَميلُ قَلْبُه إلَيْكَ حُبّاً، فيتعلَّقُ بك.

وهكذا كان حينما شاهَدَهُ أهْلُ قَصْرِ فرعون، بنظراته وقَسَماتِهِ الأخَّاذَة الجذَّابَة، إذ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُهم به.

• ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾:

يُقالُ لُغة: صَنَعَ الرَّجُلُ فَرَسَهُ، أي: تعهَّدَهُ وأحْسَنَ القيامَ على تربِيَتِهِ وتَدْرِيبِهِ.

ويقال: صَنَعَهُ على عَيْنِهِ، أي: تولَّىٰ توجيهَهُ وتَنْشِئَهُ وتَرْبِيَتَهُ على الكمالات، في مختلفِ أطوارِ إعْدَادِهِ وتَرْبيته.

ويقال: صَنَعَ عَمَلَهُ بِعَيْنِ فُلان، أي: قام بعَمَلِهِ مشمولاً برعايته.

أي: وقدَّرْتُ وقَضَيْتُ إيصالَكَ إلى آلِ فرعون، وإلقاءِ محبَّتِكَ في قلوبهم، لتُنَشَّأَ في القَصْرِ الفرعونيّ إنشاءً خاصّاً، تُصْنَعُ فيه صُنْعاً راقياً بعنايتي بك، وحمايَتِي ورعايَتي لك.

﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: أي: على المكان المُحَاط بعنايَتِي بك، وحمايتي، ورعايتي لك.

أُطلقَ لفظ العَيْن، وأُرِيدَ به بالغُ العِناية؛ لأنْ العَيْن بها تكُونُ الرُّؤية والمراقبة، فيكونُ مُوسَىٰ على المواضع الّتي تَشْمَلها وتحيطُ بها عناية الله الدائمةُ لَهُ، كدوام رؤيَةِ الله لكلّ ما يُمْكِنُ عقلاً رؤيَتُهُ في الوجود كلّه.

• ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ﴾:

أي: وضع في ذاكرتك الأحداث الّتي كانت حين مشي أُخْتِكَ متابعةً لك عَنْ بُعْد، تُراقب ماذا سيَحْدُثُ بالتابوت، وإلى أيْنَ يَصِل.

ولمّا علمت أنَّه وَصَل إلى القصر الفرعوني، وأنَّه قَدِ التَقَطَهُ آلُ فرعون، جعَلَتْ تقتربُ إلى الطُّرُق المُؤَدِّيَة إلى القصر.

ولعلَّها كانت تنادي: من يُرِيد مُرْضِعَةً مُرَبِّيَةً حاضِنَةً، لِطِفْلٍ ذَكَرٍ أوْ أُنثى.

يُشْعِرُ بهذا عبارَةُ [فَتَقُولُ] بصيغة الفعل المضارع الدالّ على تكرار

القول، ومثل هذا إنَّما يكُونَ مِنَ الباعَةِ المتجوِّلين، أو عارضي وعَارِضَاتِ الخَدَماتِ المتجوِّلين والمتجوِّلَات.

ولمّا عَلِمَتْ بأنّ آل فرعون طَلَبُوا له مُرْضِعَةً مُرَبِّيَةً حَاضِنَةً، يَقْبَلُ الطُّفْلُ الرَّضاع منها، إذ لَمْ يَقْبَلْ الطُّفْلُ ثَدْيَ مُرْضِعَةٍ مَا في القَصْرِ أوْ مِنْ حَوْلِهِ، أقْبَلَتْ أُخْتَهُ فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾؟: أي: يتعَهَّد بإرضاعِهِ، وتَرْبِيَتِهِ، وخِدْمَتِهِ، وحَضانَتِهِ لَكُمْ.

قالُوا لها: ومَنْ يَكْفُلُه؟

قالَتْ: أُمِّي.

قالوا لها: هَلْ لَهَا لَبَنٌ؟

قالَتْ: نعم، لبَنُ أخِي هارون، وكان هارون أكْبَرَ من مُوسَىٰ، ولكنه ما زال في السِّنِّ الّتي يُحِبُّ فيها الرَّضاع، قالوا: هارون أكبر من موسى بثلاث سنين.

قالوا: أحْضِرِي أُمَّكِ لنَرَىٰ هل يَقْبَلُ الصَّبِيُّ ثَدْيَها أمْ يَرْفُضُهُ، كما رَفَضَ أثْداءَ المُرْضِعَاتِ الأُخْريات.

فجاءت أُمُّها، وألْقَمَتْهُ ثَدْيَها فقَبِلَهُ، وأخَذَ يَرْضَعُ منه اللَّبَنَ.

وكانَ كُلُّ هذا من ألطاف الله الخفيَّة، ليَرُدَّ الطِّفْلَ إلى أُمِّهِ، ولتَسْعَدَ بإرْضاعه، وحضانته، وإقامَتِهِ عندها.

• ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾:

فعل «رَجَعَ» يُسْتَعْمَلُ لازماً ومتعدّياً، ففي اللّازم تقولُ مثلاً: «رَجَعْتُ إلى داري». وفي المتعدّي تقول مثلاً: «رَجَعْتُ الصَّبِيَّ إلى أُمّه».

«رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعاً، ورُجوعاً، ورُجْعَىٰ، ورُجْعاناً ومَرْجِعاً»، وفي لغة هُذَيْل يقال: «أَرْجَعَهُ إرْجاعاً» في المتعدِّي.

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: اسْتُعْمِلَ التعبيرُ بقُرَّة العَيْن، كنايَةً عَنِ السُّرُورِ والرِّضا.

أي: من أجل أنْ تكونَ راضِيَةً مَسْرورةً بمشاهَدَتِك وإرضاعِكَ، وتَرْبِيتها وحضانتها لك.

أصل معنى «تَقَرَّ» تَبْرُد، ضدّ تَسْخُن. يقال لغة: قَرَّتْ عين فلان، أي: بَرَدَت، وفي هذا التعبير كنايَةٌ عن سروره، ورضاه؛ لأنَّ بَرْدَ العين المضادَّ لسخُونَتِهَا يكون في حالة السُّرُور والرِّضا.

﴿وَلَا تَحْزَنَۚ﴾: أي: فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمّك، وقَدَّرْنَا أنْ تكونَ أنْتَ سالِماً من الآفات والأمراض والعاهات والعوارض المؤلمة بَعْدَ ذَلِكَ، كي تَقَرَّ عَيْنُ أُمِّكَ برَجْعَتِكَ إليها، ولكَيْلا تَحْزَنَ من أجلك إنْ أصابك مكروهٌ بَعْدَ ذلك، وفي هذا حَذْفٌ من الأوائل لدلالة الأواخر.

ولولا هذا التقدير لكانت عبارة: [**وَلاَ تَحْزَنَ**] مساويَةً في المعنى لعبارة [**تَقَرَّ عَيْنُها**] بأسْلُوب التعبير بنقيض الكلام، وهذا إطنابٌ لَا داعي له.

الحزنُ: مشاعر ألم في النفس بسبب فَوات محبُوب أو مَرْغوبٍ فيه، أو بسَبَبِ مَكْرُوهٍ نازلٍ أو مُتَوَقَّع النزول، كالحُزْنِ من أجل محكوم عليه بالقتل، ويَنْتَظِرُ تنفيذ الحكم فيه.

وطوىٰ النصُّ بيان موافقةِ آل فرعون على إرضاعه عند هذه المرأة المرضعة من بني إسرائيل، فالفاء في [**فَرَجَعْنَاكَ**] تعطف على محذوف مقدّر ذهناً، وتسمّىٰ عند النحاة الفصيحة.

❁ ❁ ❁

وقد جاء بيان هذا الحدَث من قصة موسى في طُفُولَتِهِ الأولى في

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) مشتملاً على إضافاتٍ مكمّلاتٍ لبعض جوانب الحدث:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

القراءات:

٨ • قرأ حمزة والكسائي وخَلَفٌ: **[وَحُزْناً]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَحَزَناً]**.

حُزْناً وَحَزَناً: لغتان عربيتان، والمعنى واحد.

٨ • قرأ أبو جَعْفَر: **[خَاطِينَ]** بحذف الهمزة في الوقف والوصل. وكذلك قرأها حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[خَاطِئِينَ]** على الأصل دون حذف.

التدبّر:

هذا النصّ متكامل الدّلالات مع النصّ الذي سبَقَ تدبُّره آنفاً من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(١) فهذا النصّ من سورة (القصص) قد جاء عَرْضاً لكلّ مُتَلَقٍّ للخبر، بأسْلُوبِ قصَّةٍ تُرْوىٰ.

أما النَّصّ السابق الذي من سورة (طَه) فهو حكايةُ ما خَاطَبَ الله به موسىٰ، بذكْرِ مِنَّتِهِ عليه.

(٢) وجاء في نصّ سورة (القصص) إضافَةُ ما في البيان التالي من المعاني، حكايةً لما خاطب الله به أمّ موسىٰ وحياً، على ما سبق في بيان المراد بالوحي إليها:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾:

أي: اسْتَمِرّي على إرْضاعِهِ في الخفاء، عن أعْيُنِ الرُّقَباءِ، أو مُشَيِّعِي الأنباء، فإذا خِفْتُ عليه أن يُعْلَمَ أمْرُه فضعيه في صندوقٍ يَحْمِلُهُ الماء كما يَحْمِلُ الفلْكَ، وألْقِيهِ في اليَمّ.

هذا البيان يَدُلُّ على أنَّ وَضْعَهُ في التابوت، وإلقاءه في اليمِّ، لم يكن عَقِبَ ولادته مباشرة، بَلْ كان بَعْدَ مُدَّة أَرْضَعَتْهُ فيها سرّاً، وهي تُخْفِي أن يكونَ لها ولَدٌ تُرْضعه، وقد تكونُ هذه المدَّة ثلاثَةَ أشْهُرٍ كما ذكر الإسرائيليّون في سفر الخروج.

وظاهر هذا النصّ يُشْعِرُ بأنَّهُ قد كانَ وحياً صريحاً ببيانٍ قولي، إذْ جاء فيه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بضمير المتكلّم العظيم، لكِنَّ هذا غَيْرُ قَطْعِيٍّ الدلالة.

فقد يكون رُؤيا مناميّة ذاتَ وضوح، كأنْ تَرَىٰ في المنَامِ أنَّها جَعلَتْهُ في صُنْدُوقٍ مُحْكَمٍ صالحٍ لأنّ يَطْفُو على الماء ولا يَغْرَق، وهذا الصندوق على قَدْرِ راحَةِ جِسْمِهِ، وأنَّها أَلْقَتْهُ في النيل، وأنّ قائلاً قال لها في المنام: لَا تخافي عليه هلاكاً، ولا تَحْزَني لفراقِهِ، وأنَّ اللَّهَ جلّ جلالُهُ

وعَظُمَ سلطانَهُ ـ رادُّه إليك. وأنّها رأتْ أنَّهُ عاد إلى حِضْنِها فتربَّى بعِنَايَتِهَا، ورأتْ أنَّه صارَ رَجُلاً كبيراً يَدْعُو إلى الله في الناس، ومعه بعض الآيات الخوارق.

فَمِثْلُ هذه الرُّؤيا تُعَبَّر بما جاء بيانُه في النصّ، لأنَّها واضِحَةُ الدّلالة.

هذا إذا لم يَكُنْ الذي أخْبَرها ملَكاً من الملائكة، جاءها على صورة إنسان، دون أن تكون نَبِيَّةً.

(٣) وجاء في نصّ سورة (القصص) إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾:

• فجاء في هذه الآية بيان أنّ مَن الْتَقَطَهُ من النِّيل إلى جانب شَطِّ قَصْرِ آلِ فِرْعَوْن، هم آلُ فِرْعَوْن، وهذا يَصْدُق بأن تكون اللّاقطة الأولى له امرأةَ فِرْعون، أو ابْنَتَهُ، أوْ جواري القَصْر الفرعونيّ، لأنَّه وصلَ بَعْدَ ذلك إلى آلِ فِرْعَوْن جميعاً وعَلِمُوا به، وهم أصحاب الكَلِمَةِ المجابَةِ عند فِرْعَوْن نفسِهِ، سَيِّدِ القَصْر.

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل»، إلّا أنَّها لَا تُسْتَعَملُ غالباً إلّا في أشْراف الأهل، وذوي المكانة المُطَاعَةِ فيهم، فآلُ فرعون هم من كانت لهم مكانَةٌ في قَصْرِهِ من أهله، وكَلِمَتُهُم مُجابَة عند سيّد القصر.

• وجاء في هذه الآية بيان الغاية من تقدير الله وقضائِهِ بالتقاط آل فِرْعَوْن لَهُ من النّهر، وتَنْشِئَتِهِ مَحمِيّاً فيه، وتَرْبِيَتِهِ كتَرْبِيَةِ أولاد المُلُوك، هي أن يكون في المستقبل عَدُوّاً، وليكون سبباً في إنزال الحزْنِ فيمَنْ سيبقى منهم بَعْدَ إهلاك الله فرعون ومن كان معه غَرَقاً في البحر، وهم يتابعون بني إسرائيل الخارجين من مِصْر، في اتّجاه سيناء.

الحُزْن والحَزَن: ضِدُّ الفَرَح والسُّرُور. يقال لغة: «حَزَنَهُ الأَمْرُ يَحْزُنُه حُزْناً» و«أَحْزَنَهُ الأَمْرُ إحْزاناً».

قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لُغَةُ قُرَيْش، و«أَحْزَنَهُ» لغة تميم.

ويقالُ: «حَزِنَ الرَّجلُ يَحْزَنُ حَزَناً» فهو «مَحْزُونٌ، ومُحْزَنٌ، وحَزِينٌ، وحَزِنٌ» من قومٍ «حِزَانٍ، وحُزَنَاء».

الحزْنُ: مشاعر ألم في النفس، بسبَبِ فواتِ محبوب أو مَرْغوب فيه، أو بسبب حُدُوثِ مكْرُوه، أو تَوَقُّعِ حدوثه، كالحزن على محكوم عليه بالقَتْل وهو يترقَّبُ التنفيذ.

قالوا: واللام في [لِيَكُونَ] من عبارة ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقبة، وليست للغاية.

أي: الْتَقَطُوهُ ليكون عاقبة أمْرِهِ أنْ يَصِيرَ عَدُوّاً لمريدي قتله والتخلُّصِ منه فيهم، وليكون حَزَناً، أي: سبباً مُحْزِناً لسائر من يبقَىٰ منهم، بَعْدَ هلاكِ فرعون ومن معه من آله، كالنِّسَاءِ الكوافر، وكالذين لم يخرجوا من كفَّارِ آل فِرْعَوْن، مع فرعون وجنودِهِ لقتال بني إسرائيل الخارجين من مِصْرَ بقيادة موسىٰ عليه السّلام.

● وجاء في هذه الآية إضافة البيان التالي:

﴿... إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾.

هذه الجملة فيها معنىٰ التعليل لقضاء الله بأن يكون لهم في المستقبل عَدُوّاً وحَزَناً.

هامان: هو الوزير الأول لفرعون، والمعين الأكْبَرُ له على ارتكاب العدوان والظُّلْم والجرائم المختلفة وارْتكاب الخطايا، مع الإصرار على الكُفرِ عناداً واستِكْباراً.

[كانُوا خاطِئِينَ]: أي كانُوا مُذْنِبِين عن عَمْدٍ وإصرار، اتّباعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسلطان، بفرض جبرُوتِهِم وكِبْرِيائِهِم في الأَرْض.

يُقالُ لُغَةً: «خَطِئَ يَخْطَأُ خَطَأً وخَطْأً» أي: أذْنَبَ عن عَمْدٍ، وكذلِكَ: «أَخْطَأ».

وتُسْتَعْمَلُ المادة أيضاً بمعنى الغَلط عن غَيْرِ عَمْدٍ.

(٤) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: وقالت امرأةُ فِرْعون له: هذا الصبيُّ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، وقالَتْ له: لا تَقْتُلُوه، أي: لا تأمُرْ جُنُودَكَ بأنْ يقتلوه. وقالت لهُ: عَسَىٰ أنْ يَنْفَعَنَا إذا كَبِر ونَما في قَصْرِنا فيكُون لنا قوّةً على الإسرائيليين وغَيْرِهِم، أو عسىٰ أنْ نَتَبَنَّاهُ ونَتَّخِذَهُ ولداً لنا.

عَسَىٰ: فعلٌ غَيْرُ متصرّف، ومعناه المقاربة على سبيل الترجّي، وهي هنا في النصّ تامّة لا تحتاج إلى خبرٍ مَنْصُوب.

وصَرَفَ اللّهُ عن أذْهَانَ فرعون وآله، احْتِمَالَ أنْ يكونَ هو الوَلَدُ المَحْذُورَ منه من بني إسرائيل، والّذي صدَرَ الأمْرُ الفرعونيّ بقَتْل المواليد الذكور لبني إسرائيل مِنْ أجْلِهِ، وهذه من ألطاف الله الخفيّة، وقد دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: ولم يَحْصُل لهم أقَلُّ تَصَوّر احتماليّ بأن يكون هو الوَلَد المحذور منه.

وعبارة [قُرَّةُ عَيْنٍ] سبَقَ تفسير نظيرها قريباً لدى تدبّر النصّ الذي من سورة (طه).

(٥) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾:

الفُؤاد: هُوَ عُمْقُ القَلْبِ في كيان الإنسان النفسيّ.

أي: وإنَّ فُؤادَ أمّ مُوسَىٰ بعدَ إلْقَائِهِ في تابوته في النّيل نَحْوَ آخر اللّيل وِفْقَ الوحي الرّبّاني الذي جاءَها، أصْبَحَ فارغاً، أي: خَفِيفاً طائِشاً، غَيْرَ ذِي وزنٍ ثَقِيل يُثَبِّتُه، وبخفّته وطَيْشِهِ صارَ مُؤهَّلاً لأنْ يتأثَّر بآلامِ نَفْسِهَا على ولَدِهَا، فيُعْطِيَ بطيشه وخِفَّتِهِ توجيهَهُ لإرَادَتِهَا، فتُصْدِرَ أوامرها لِلَسانها بأن يَبُوحَ بما فعلَتْ سرّاً، وعندئذٍ يفتضِحُ أمْرُها ويتعرّض الصبيُّ للقتل بعد استخراجِهِ من النهر.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾:

«إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمُها ضمير الشأن الذي يُحْذَفُ دواماً في اللّسان العربي.

أي: إنَّ الشَّأْنَ الخطير أنَّ أمَّ موسىٰ كادت لَتُبْدِي أمْرَ ما فعلَتْ بولَدِها، إذْ وَضَعَتْهُ في صندوق، وألْقَتْهُ في النّيل، وعندئذٍ يفتضحُ أمْرُها، ويشيع خَبَرُها.

لكنّ الله عزّ وجلّ رَبَطَ على قَلْبِها بِربَاطٍ معنويٍّ من التجلُّدِ، والصَّبْرِ، والثّقَةِ بالله، والتوكُّلِ عليه، فهو الذّي أوحىٰ إليها وحياً على ما سبق بيانه، بأن تَضَعَهُ في صندوقٍ، وتلقيَهُ في اليَمّ.

وبهذا الرَّبْط الرَّبّاني ارْتَقَتْ مَنْزِلَتُها مِنْ فِئَةِ المؤمنات إلى فئة المؤمنين من الرّجال، إذ المؤمنون الصابِرُون الثابتون المتوكّلُونَ على الله من الرّجال يَضْبِطونَ بإراداتِهِم الحازماتِ تصَرُّفاتهم علىٰ مقتضىٰ الحكمة، بخلاف

النساء فإنَّ طبائعَهُنَّ تغلِبُهُنَّ فتدفَعُهنَّ الخِفَّة إلى تصرُّفاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْباها، إلَّا من يَعْتَنِي اللَّهُ بها مِنْهُنَّ، فيَرْبطُ على قَلْبِها، فيَجْعَلُها في خصائصِها النفسيَّةِ كفُضَلَاءِ الرّجال المؤمنين.

وهذا نظير وصف الله عزّ وجلّ مريمَ علَيْها السَّلام بأنَّها كانَتْ من القَانِتِين، ولم يَقُلْ من القَانِتَاتِ.

الرَّبْط على القلوب في دلالات النُّصوص القرآنية يُفيدُ معنىٰ التَّثْبِيت والتقويةِ ومَنْعِها من الاندفاع بخفَّةٍ وطَيْش، وعواملُ هذا الرَّبْطِ التثبيتيّ هي عوامل إيمانيّة، من الثقة بالله وبحكمتِهِ، والتوكّلِ عليه، وتسليم الأمْرِ إليه، والرّضا بقضائِهِ وقدره، وسائر مُمِدَّاتِ النَّفْسِ بالصَّبْرِ والحِلْم والقُدْرَة على تَحَمُّلِ المُؤْلِمَات.

بخلاف الشَّدِّ على القُلوب، فهو يُفِيدُ معنى الضغط عليها بالمؤلمات والمكارِهِ والكُرُوب والمخاوفِ والأحزان.

(٦) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾:

[**لِأُخْتِهِ**]: قالوا: اسْمُها مَرْيم، وقد كانت حينئذٍ فتاةً راشِدة.

[**قُصِّيهِ**]: أي: تَتَبَعِي تنَقُّلاتِ أخيك في الصندوق الذي هو فيه، وتتَبَعِي حَرَكَته، وإلىٰ أيْنَ يَصِل.

تقولُ لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقُصُّهُ قَصّاً وقَصَصاً» أي: تَتَبَّعْتُ أثَرَهُ شيئاً فَشَيْئاً.

[**فَبَصُرَتْ بِهِ**]: أي: فعَلِمَتْ به، يُقالُ لُغة: «بَصُرَ بالشَّيْءِ، يَبْصُرُ بَصَراً وبَصَارَة» أي: عَلِمَ به علماً صحيحاً مؤكّداً، فهو به بَصِير.

[عَنْ جُنُبٍ]: أي: حالة كونها متجاوزة مكاناً يَفْصِلُ بَيْنَها وبين النّيل بمقدارٍ هو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجود فيه مراقباً لما يَحْدُث في النّهر.

الجنُبُ: البعيد، ويُطْلَقُ أيضاً على القريب، فهو من الألفاظ الّتي تُطْلَقُ على المتضادَّيْن، إلّا أنَّ المراد هنا المعنى الأوّل والله أعلم.

[وَهُمَ لاَ يَشْعُرُونَ]: أي قُصِّيهِ في حالة أنّ الّذين يعنيهم قتل مواليد بني إسرائيل من الذكور، أو يَعْنِيهم إشاعة الأخبار عنهم، لَا يَشْعُرُونَ بوجود مراقب متابعٍ لشيءٍ ما في النَّهْرِ.

الشُّعُور بالشيء: هو العلم به، ولو من أدنى درجات الإحساس به، أخذاً من مسِّ الشعر الذي يحصُلُ به إحساسٌ خفيف.

(٧) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً، إضافة ما في البيان التالي من المعاني:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾:

أي: ومَنَعْنَاهُ بأمْرِ التَّكْوين من قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ مَا تُرْضِعُهُ غَيْرَ ثَدْيِ أُمّه.

التحريم في اللُّغَة: المَنْع، وهو يكون بأمْرٍ تكوينيّ، ويكون بأمْرٍ تكليفي، ويُسَمَّى حينئذٍ: نَهْياً.

المراضع: جمع «مُرْضِعٍ» و«مُرْضِعَة» وهي الّتي تُرْضِعُ من ثَدْيِها لَبَناً.

﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: من قَبْلِ وصُولِ أُخْتِهِ إلى مكان طلَبِ مُرْضعٍ للصَّبيّ المُلْتَقَط والمُنْتَشَلِ من النَّهْر.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

عبارة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ فيها تكريرٌ لمضمون ما جاء في نصّ سورة (طه) مع بعض تغيير في التعبير، هو من باب التفنُّن في القول، مع إيضاحٍ في المعنىٰ.

أي: فقالت أُخْتُه لمَّا عَلِمَتْ أنَّه لم يَقْبَلْ أثْدَاء المُرْضعات اللّواتي عُرِضْنَ عليه: هلْ أدُلُّكُم على أهْلِ بَيْتٍ يَقُومُونَ بإرْضَاعِهِ، وتَرْبِيَتِهِ، وحَضَانَتِهِ، وخِدْمَتِهِ، لكُمُ بالأجْرِ، في كفَالَةٍ حسنة، وهم أَهْلُ نُصْحٍ لمَنْ يَكْفُلُونَهُ.

عبارة: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، مضافة في نَصّ سورة (القصص) إلى ما جاء في نصِّ سورة (طه) فبينَهُما تكامل.

﴿نَٰصِحُونَ﴾: أي: مُخْلِصُونَ، لَيْسَ في كَفَالَتِهِمْ لَهُ غِشٌّ، ولَاخيانَةٌ لِلْأَمَانَةِ.

وأرادت بعبارة: «أهل بَيْتٍ» أمَّها، وأبَاهَا، ونَفْسها، وسائرَ من في بَيْتِ أبيها، إلَّا أنّ الّتي تُرْضِعُه هي أُمُّها.

وهنا طوىٰ النصّ ما جَرَىٰ من تفاوُضٍ بَيْنَ طالبي المرضع للصبيّ، وبين أخته الّتي لم تكشفْ أنْ لها علاقةً ما به، فجاء ما بَعْدُ في النَّصِّ معطوفاً على هذا المطويّ، لإمكان العِلْمِ به استنتاجاً فِكْرِيّاً.

(٨) وجاء في نصّ سورة (القصص) أيضاً:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

في هذه الآية تكريرٌ لبَعْضِ ما جاء في نصّ سورة (طه) مع تغيير لفظ [فَرَجَعْنَاهُ] إلى لفظ [فَرَدَدْنَاهُ] والمعنى فيهما واحد. ومع اختلافٍ في كون

ما في سورة (طه) قد جاء خطاباً لمُوسىٰ، وما في سورة (القصص) قد جاء جزءاً من حكاية لقطاتٍ من قصّة موسىٰ المُوَجَّهَةِ لكُلّ مُتَلَقٍّ لها.

وجاء في هذه الآية إضافة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

فأبانت هذه العبارة أنّ من مقاصِدِ رَدِّهِ إلىٰ أُمِّهِ أنْ تَعْلَمَ أنّ وَعْدَ الله حقٌّ، إذْ أوحىٰ إلَيْهَا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ إذْ كان من الممكن أن يحفَظَهُ الله ويرعاه دون أن يَرُدَّهُ إليها. وجاء التعليق علىٰ حقيقةِ: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بقوله جلّ جلاله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: جاهلون لَا يَعْلَمُونَ هٰذه الحقيقة، ولا سيَّما وَعْدَه بالبعث، والحياة الأُخرى، وما فيها من جزاءٍ في الجنَّةِ دار المؤمنين المُسْلِمين، أو في النَّارِ دارِ العُصَاةِ والمجرمين.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه) خطاباً لموسىٰ في اللّقاء الأول بجانب الطُّور:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ من سورة (طه) يُتابع الله عزّ وجلّ في تكليمه لموسىٰ عليه السلام بجانب الطُّور بيان مِنَنِهِ علَيْهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه ـ مُذَكّراً له بها، ومُبَيّناً له ما خَفِي عليه منها، ومطمئناً لَهُ بأنَّه سيَكُونُ مُعْتَنًى به مِنْ رَبّه طَوال حياته.

فذكر له في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ ثلاث مِنَنٍ غير المِنَّتَيْنِ اللّتين سبق بيانهما، فتصير المِنَنُ خمساً.

المِنّة الأُولى: حمايتُهُ من القتل، وهو وليد محكومٌ عليه بالقتل، من قِبَلِ فرعون مصر، إذْ هو في الحقيقة المقصود بقتل كلِّ المواليد الذكور من بني إسرائيل.

المنّة الثانية: اختيارُهُ للنُّبُوَّة والرّسالة ذاتِ المهمّات العظمىٰ.

المنّة الثالثة: تنجِيَتُهُ من عقوبةِ القتل، لأنَّه قتل قبطيّاً كان يتقاتل مع إسرائيليّ، فاستغاث به الإسرائيليّ، ورأىٰ أنّ القِبْطِيَّ هو المعتَدِي الظالم، فوَكَزَهُ وَكْزَةً كانَتْ هيَ القاضِيَة عليه، ولم يكن يَقْصِدُ قَتْلَه، وإنّما كان يَقْصِدُ دفعه وكفَّهُ عن الإسرائيلي، في قصّة جاء بعض تفصيل لها في سورة (القصص).

المنّة الرابعة: إقامَتُه الآمنة المطمئنَّةُ أكثر من عشر سنين، في أهل مَدْين آمناً، مرزوقاً، ذا زوجَة حسنة صالحة، هي بنت رَجل الدّين الأوّل في مَدْين.

المنَّة الخامسة: اصطناع الله له لنَفْسِهِ، اصْطِناعاً مصحوباً ببالغ العناية والرّعاية والإتقان، ليُحَمِّلَه مُهِمَّاتِ الرّسالة العظمىٰ، الّتي حَمَّلَهُ إياها.

التَّدَبُّر:

حكاية قول الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ . . . ﴿٤٠﴾﴾:

﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾: أي: فخَلَّصْناكَ من القتل، الذي ائْتَمَرَ به مَلأُ[1] فرعون ليَقْتلوك، عقوبة لك على قَتْلِكَ القبطِيَّ انتصاراً للإسرائيليّ.

---

(١) **ملأ فرعون**: هم وزراؤه وأهل مشورته. **الملأ**: هم أشراف القوم وسراتهم، سُمُّوا ملأ لأنَّهم يَمْلؤُون عُيُون العامّة.

النجاة: الخلاصُ من المكروه، يقال لغة: «نَجَا مِنْهُ يَنْجُو، نَجَاءً، ونَجَاةً» أي: خَلَصَ من أذاه. ويُقال: «نَجَّىٰ فُلَانٌ فلاناً تَنْجِيَةً» أي: خَلَّصَهُ من مَكْرُوهٍ متوقّع الحدوث.

﴿مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: أي: من الكَرْب الّذي نزلَ بك بسبب خَوْفِكَ من عقوبة القتل، سُمِّيَ غمّاً، لأنّه يُحِيطُ بالقلْبِ من كلّ جوانبِهِ، ويغلّفُهُ تغليفاً تامّاً بالمؤلمات الموجعات، من الخوف والحزن ونحوهما.

فدَلَّ هذا على أنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي دَفَعَ بألطافِهِ الخفيَّة، الرَّجل ذا الخبرة بما يجري في القصر الفرعوني حتَّىٰ جاء إلى مُوسىٰ وقال له كما جاء في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وأنَّ الله عزّ وجلّ هو الذي سَتَرَهُ بألطافه الخفيَّة عن عُيُونِ القوم، إذْ خَرَجَ من مِصْرَ خائفاً يترَقَّبُ، وحَذِراً من أن يَعْرِفَهُ أحدٌ، أو يَدُلَّ عليه أحد، كما جاء بيانه في سورة (القصص) أيضاً:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

وأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي هداه بألطافِهِ الخفيَّة سَواءَ السَّبِيل حين توجَّه تِلْقَاءَ مَدْين فارّاً من مِصْر، وهو ما جاء بيانه في سورة (القصص) أيضاً:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

سواء السبيل: أي: وسط الطريقِ الموصل إلى مَدْين، ووَسَطُ الطريق هو أعْدَلُه وأعلاه.

والبُعْدُ عن سواءِ السبيل يقاسُ بالبُعْدِ عن وسطه من ذات اليمين، أو من ذات الشمال.

وسواءُ السبيل: الطريق المستوية السَّهْلَة، والسَّواءُ من الأرض هي التي يكون تُرابُها كالرَّمْل، لَيْس فيه حجارة مؤذية، والتي تكون مستوية سَهْلة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ﴾: أي: وامْتَحَنَّاكَ امتحاناً شديداً صعباً، فيما مضى من عُمْرك، بالمكاره، وبالشهوات، فنَجَحْتَ في امتحانِكَ، إذْ كُنْتَ صَبُوراً، محافظاً على حدودِ الله تقيّاً، ولا يخفىٰ ما في القصور الملكيّة من مغريات مزلقات فيها امتحانٌ عظيم للإراداتِ، ولا سيما تجاه فِتَنِ الشَّهوات.

الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، يقال لغة: «فَتَنَ المُخْتَبِر فُلاناً يَفْتِنُهُ، فَتْناً، وفُتُوناً» أي: ابْتلاه، واختبره، وامتحنه.

أصْلُ الفَتْن: الصَّهْرُ بالنار للمعادن ونحوها، يقال لغة: «فَتَنَ الصَّائِغ الذَّهَب» أي: أذابه بالنّار، ليختبر ما فيه من خليط لَيْسَ ذهباً، أو ما فيه من شوائب.

﴿فُتُونًاۚ﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَق، ويُفْهَمُ من التنكير هنا على ما يَرىٰ البلاغيُّون مع القرينة، أنَّهُ كان فُتُوناً شَدِيداً وصعباً على النفوس، فالمعنى: وفَتَنَّاكَ فُتُوناً شديداً صَعْباً، وبهذا عَلِمْنا مدىٰ صلاحيَّتِكَ لتَحَمُّلِ أعْبَاءِ رِسَالَةٍ نكلّفكَ فيها أمُوراً ثَقِيلَةً جِدّاً، تتطلَّبُ رجلاً قويّاً من أُولِي العَزْمِ، ذا صَبْرٍ وتجَلُّدٍ وعَقْلٍ راجحٍ وحِكْمَةٍ في تَصْرِيفِ الأمور، مع إيمانه العظيم برَبّه، وقُنُوته له، وخضوعِهِ لأوامره ونواهيه، ورضاه بمقاديره.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾:

[فَلَبِثْتَ]: اللُّبْثُ بالمكان الإقامة فيه، يقال لغة: «لَبِثَ بالمكان يَلْبَثُ، لَبْثاً، ولُبْثاً، فهو لَابِثٌ، ولَبِثٌ» أي: أقام فيه.

والمعنى: فأوصَلْنَاكَ يا مُوسَىٰ بألطافنا الخفيَّة إلى مَدْين، وهيَّأْنَا لَكَ فيها، رِزْقاً وزوجةً صالحةً حَسَنَةً، وإقامَةً آمِنَةً مُسْتَقِرَّة، لا خوف فيها ولا قلق، ورزقناكَ فيها ذُرِّيَّةً، ومالاً من غنم.

وفي بيان هذا إشارة خفيّة إلى مِنَنِ اللَّهِ عليه في مَدْين.

والأعوام الّتي لَبِثَ فيها في مدين أقلُّ تقدير لها أحد عشر عاماً، عشْرَةٌ منها كانت خدمةً لأبي زوجته مقابل تزويجه ابْنته، على عاداتِ أهل ذلك الزمان، فموسىٰ عليه السّلام قد أدّىٰ أوفي الأجَلَيْنِ وهو عشر سنين، ولم يقتصر على أدناهما وهو ثماني سنين، لما سبَق بيانه.

وفوق العشر تأتي سنة خدمة مقابل أجر، وهو ما تَلِدُ غنمه من قوالب ألوان.

ولا ندري هل أقام في مدين أكثر من ذلك أم لا؟ الله أعلم؛ إذ لا نملك دليلاً بإثبات أو نفي.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ إقامَتِكَ السّنين الّتي لَبِثْتَهَا في مَدْين، جِئْتَ للقائنا إلى جانب الطور ومكالَمَتِنا، ولمنحك النبوّة والرّسالة العظيمة، ووصَلْتَ إلى المكان المحدّد لك، وفي الزمان المحدّد لك، وقد كانت تحرُّكاتُكَ كلُّها مُعْتَمِدةً ومبنيَّة من حَيْثُ لا تشعُر، على قَدَرٍ حَدَّدْنَا فيه كلَّ حَرَكة تتحرَّكها مع الأزمان، ومنها حَرَكَةُ وصولِكَ إلى لِقائِنَا جانب الطور، كلُّ ذلك قد سبَقَ أن قدَّرْناه وأمْضَيْنَا به قضاءَنا، بمقتضى سابق علمنا بكل صغيرة وكبيرة من أُمُورِكَ، ومنها حركة وُصُولِكَ في الزمان والمكان المقدَّرَيْن.

أصل مادّة كلمة «القَدَر» بفتح الدال وإسكانها، يَدُورُ حَوْلَ مقادير

الأشياء وحُدُودِ كَمِّيَّاتِ وحَدَاتها الصغرى، من كُلِّ ما يمكن عقلاً تجزئته وتَقْدِيرُ كَمِّيَّةٍ له.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾:

اصطنع: أصلها «اصْتَنَع» على وزن «افْتَعَلَ» من فعل «صَنع» بإضافة تاء الافتعال إليه، للدّلالة على كَثْرَةِ العناية والدّقّة والإتقان في الصُّنع، وقلبت التاء طاء على وفق القاعدة الصرفية في مثل هذا.

ومع أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً، ومع أنّ الصُّنْعَ فيه معنى العناية بالتعهُّدِ والتَّنْشِئَةِ والتربية، إلَّا أَنَّ فِعْل «اصْطَنَعَ» يَدُلُّ على مزيد من العناية والدِّقَّة والإتقان في الصُّنْع.

﴿لِنَفْسِى﴾: أي: للدّين الذي يَشْتَمِلُ على الإيمَانِ برُبُوبيّتي، وإلْهِيَّتِي اللَّتَيْنِ لا يشارِكُنِي فيهما أحَد، وتَشْتَمِلُ على تكليف الموضوعين موضوع الامتحان بعبادتي وَحْدِي، وابتغاء مَرْضاتي، والطمع في ثوابي، والخوف من عقابي وعذابي، وهذه كلُّها لنفسي.

وأنت يا موسىٰ رَسُولي إذ اجْتَبَيْتُكَ واخْتَرْتُكَ لأداء رسالتي المتعلّقة بالدّين الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ لعبادي.

وهذا الاصطناع لموسىٰ مِنَّةٌ من مِنَنِ الله عليه.

وينبغي أن نَعْلَمَ أنّ الله عزّ وجلّ لَيْسَ لِنَفْسِهِ مصلحة ما من عناصر الدّين المتعلِّقَةِ بنفسه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ إذْ لا تَنْفَعُهُ عبادةُ عابديه، ولا يَضُرُّه جحودُ جاحديه، ومَعْصِيَةُ عاصيه، وإنما يقيم الله بعباده عَدْلَه، ويَمْنَحُهُمْ فَضْلَه، فالأَمْرُ كلُّهُ راجِعٌ إليهم كما جاء في الحديث القدسي، الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

«قالَ اللَّهُ تَعالَىٰ: يَا عِبادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وجَعَلْتُهُ مُحَرَّماً بَيْنَكُمْ فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي: كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَنْ أَطْعَمْتَهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَسْكُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أنّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْر، يَا عِبَادِي، إنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ»[1].

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لموسىٰ عليه السّلام، مِمَّا جاء بيانه في سورة (طه):

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم الحديث (٤٣٤٥).

كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات بيان تكليف الله عزّ وجلّ مُوسىٰ وأخاه هارون بأنْ يَحْمِلَا رِسَالَته إلى فِرْعون، وهي تَشْتَمِلُ على أَمْرَيْن:

الأمر الأوّل: دَعْوَتُهُ إلى الإيمان باللَّهِ وبِرَسُولَيْهِ، وبرسالَتِهِ الموجَّهَةِ لَهُ ولسائر الناس، وإلى الإسلام للَّهِ بطاعَتِهِ والعَمَلِ بأوامره ونواهيه، مع توصية الله لموسى وهارون بأن تكون دعوتهما لفرعَوْن بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذه تكونُ بالترغيب والترهيب.

أمّا الترغيب فجاء بعبارة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ومعلوم أنَّ الجنَّة هي دار السّلام يَوْمَ الدّين.

وأمّا الترهيب فجاء بعبارة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾: وجَهَنَّمُ هي دارُ العذَاب يَوْمَ الدِّين.

الأمر الثاني: مطالَبَتَهُ بأنْ يَأْذَنَ لِبَنِي إسْرَائيلَ بالخروج من مِصْرَ إلى الأرض الّتي قَدِمَ أجدادُهم منها في عهد يوسف عليه السّلام، مَعَهُمَا وبقيادتهما لهم. ومُطالَبَتَهُ بأنْ لَا يُعَذِّبَهم، أي: بأنْ يَرْفَعَ العذاب الذي فرضَهُ عليهم، وهو عذاب التسخير والإذلال والاستعباد.

وفي هذه الآيات بيانٌ مُخْتَزَلٌ للموضوعين الّذين جَرَى الحوار حولهما بين مُوسَىٰ وهارون من جهة، وفرعون من الجهة المقابلة.

والموضوعان هما:

(١) موضوعُ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ الخالق جلَّ جلاله.

(٢) موضوع الجزاء يوم الدّين بالثواب، أو بالعقاب.

التدبُّر:

قول الله عزّ وجلّ في حكاية خطابه لموسىٰ عليه السلام في لقاء المناجاة الأولى:

• ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾:

عبارة: [**وَأَخُوكَ**] معطوفة على فاعل فعل [**أَذْهَبْ**] وهو ضمير مُسْتَتِرٌ، لوجود ضمير الفصل المؤكّد له: [**أَنْتَ**].

أي: أذهب أنت يا موسىٰ، وأخوك هارون معكَ، فخاطبَ الله عزّ وجلّ موسىٰ حضوريّاً، وبالمواجهة غير المنظورة لموسىٰ، وكلّف هارونَ بالذهاب وهو غائب.

ويظهر أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ أرْسَلَ جبريلَ في ذلكَ الوقت، إلى هارونَ، فنَبَّأَهُ، وحَمَّلَهُ رِسالة ربّه مع أخيه موسىٰ عليهما السّلام، وقال له: اذهَبْ أنْتَ وزيراً مع أخيك موسىٰ بآيات رَبّكما، ولا تَنِيَا فِي ذِكْره.

• ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾: أي: مَصْحُوبَيْنِ بآياتي الخوارقِ الّتي كَشَفْتُ لَكَ في هذا اللّقاء آيَتَيْنِ منها، هُما آيَةُ العَصَا، وآيَةُ اليَد.

• ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾: أي: ولَا تَضْعُفَا، ولا تَفْتُرا، ولا تكِلّا، ولا تَعْيَيَا، في الدُّعوة إلى الإيمان بِي، وبصِفَاتِي، وبرسالَتِي لعبادي، والدّعوة إلى الإسلامِ والاسْتِسْلَامِ لأوَامري ونواهِيَّ، والقيامِ بعبادَتِي وَحْدِي لا شريكَ لي، بكلّ وجوه العبادات.

ولَا تَنِيَا أيضاً في ذِكْرِي في أَنْفُسِكُمَا، وفي عبادتكما لي، لتكونا على صِلَةٍ دائمةٍ بي.

فهذه كُلّها من عناصر ذكر الله عزّ وجلّ.

يقال لغة: «وَنَىٰ في الأمْرِ يَنِي، وَنْياً، وَوُنِيّاً، ووَنَاءً، ووَنَىً» أي: فَتَر، وضَعُفَ، وكَلَّ، وأَعْيا.

ويُقالُ: «ونَّىٰ رَبُّ العَمَلِ العامل عِنْدَه» أي: أتْعَبَهُ، وفَتَّرَهُ وأضعفه.

وجُوهُ ذِكرِ اللَّهِ عزّ وجلّ:

إنَّ ذِكْرِ الله عزّ وجلّ يكون بثلاثة وجوه:

الوَجْهُ الأوّل:

يكون بذكرِ اللَّهِ في النفس، وهذا يكونُ باستحضار المَعْلُومات المتعلّقات بالله عزّ وجلّ، بأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وبياناتِهِ في دينِهِ الذي اصطفاهُ لعباده، وبِنِعَمِهِ الّتي لا يَسْتَطِيعُ إحصاءَها عِبَادُه.

وهذا الاستحضار يكُونُ في الذاكرة الحاضرة في الذّهن، أو في جهاز التصوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجها من مخازن المعرفة في عُمْقِ النّفس.

ومن هذا الذكر ما جاء بيانه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

الوجه الثاني:

يكونُ بذِكْرِ اللَّهِ باللّسَان، لأنَّهُ من الوسائل المساعِدَة على ذِكْرِ الله في النَّفْس.

ومن ذكر الله باللّسان ما سبَقَ بيانَهُ في الوجه الأوّل، ومنه تلاوة آياته في كتابه.

وهذا الذِّكْرُ باللّسَان قد يكون بالجَهْرِ والإعْلان، وقد يكونُ بما هو

دون الجَهْر من القول، وهو الأفضل، إلّا في مجالات التعليم والتوجيه.

وأضعف أحوال الذِّكر اللّسانيّ ما يصير عادةً غير مصحوبَةٍ باستحضار فكري.

الوجه الثالث:

يكونُ بدَعْوَةِ الناس إلى الله بالحكمة والموعِظَةِ الحسنة، وبشرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته لهم، وبيانِ أنّه الخالق الرّبّ الذي لا رَبَّ غَيْرُه، ولَا إلٰه إلّا هُوَ، وبيانِ نِعَمِهِ الكثيرة على عباده، وبيان ابتلائه لهم في ظروف الحياة الدنيا، إعداداً لمجازاتهم يوم الدّين، على ما قَدَّمُوا وأخَّرُوا من عمل صالحٍ أو فاسد، وبيان حكمته في تصاريفه في كونه، وإتقانه صُنْعَ كلّ شيء.

ويكون بتلاوة آيات كتابه المجيد عليهم، وشَرْحها لهم، لإقناعهم بالحقّ والخير والفضائل والكمالات، وتنفيرهم من الباطل والشرّ والرَّذَائل والنقائص، وترغيبهم فيما أعَدَّ اللَّهُ للمؤمنين المسلمين من ثوابٍ عظيم فضلاً منه، وترهيبهم ممَّا أعْتَدَّ للعصاة وللكافرين المجرمين من عذاب، على مقادير أعمالهم السّيِّئَةِ بالعدل.

ومن هذا الوجه قول يوسف للّذي ظنَّ أنّه ناجٍ من رفيقَيْه في السِّجن، وهو الذي رأى أنّه يَعْصِرُ لفِرْعَوْنَ خَمْراً: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: تحدَّثْ بِمَا شاهَدْتَهُ من أمْري، عند سَيِّدِكَ فرعون، لعَلَّهُ يُعيد النَّظَرَ في أمْرِ سجني، ويَكْتَشِفُ الحقّ، فذِكْرُهُ يوسُفَ عليه السلام عند سيِّدِهِ لَيْسَ المُراد به ذِكْر اسمه فقط، بل المراد ما يَشْمَلُ كُلَّ ما يتعلَّقُ به مِنْ أمْرِ عَلِمَهُ، وهُوَ مَعَهُ في السِّجْنِ، ومنه دَعْوَة يوسُفَ صاحِبَيْهِ في السِّجْنِ إلىٰ دِينِ الله الحقّ.

وهذه الوجوه الثلاثة مُرادةً بعبارة: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

فتضمَّنَتْ هذه الآية (٤٢) بيانَ أنَّ اللَّهَ كلّف موسى وهارون حَمْلَ رسالة الدَّعْوَةِ إلى دين الله، في شعب بني إسرائيل، وفي الشعب المصريّ كلِّه، وفي مقدّمتهم فِرْعَوْنُ وآلُهُ ومَلَؤُه.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسى:

• ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تخصيصُ فرعون، ويُلْحقُ به ملَؤُه وهم وزراؤه، ومُسْتَشَارُوه، ومَنْ لَهُمْ كلِماتٌ مستجاباتٌ في قَصْرِهِ، وتأثيرٌ في أوامر القَصْرِ ونواهيه وأنظِمَتِهِ وقرَارَاتِهِ.

ولمّا كان فرعونُ موسىٰ مَلِكاً مستبدّاً، ومتّخذاً نَفْسَهُ إلٰهاً في قومه، وكان قومُهُ لا يَرَوْنَ إلَّا مَا يَرَىٰ، ولا يتَّبِعُونَ إلَّا ما يأْمُرُ به أو يأْذَنُ به، كان إقناعُهُ حتَّىٰ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ وسيلَةً لإيمان وإسلام كلّ الشعب المصريّ، الخاضع الخانع لسلطانه الاستبدادي، ومن أجل هذا خاطب الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السّلام بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ والمعنىٰ تبَلّغْ أنْتَ، وأبْلِغْ أخاكَ بتكليفي هذا.

ومع هذا فقد وصل مثل هذا التكليف إلى هارون عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: في هذه العبارة بيان حكمة تخصيص فِرْعوْنَ بالذهاب إليه، وهي أنَّهُ طَغَىٰ، أي: وكان طغيانُه سَبباً في فَسَادِ شعْبِهِ في زمانه، وسبباً في طغيان آلِهِ ومَلَئِهِ وأنصارهم وأعوانهم وجنودهم.

طَغَىٰ: أي: تجاوزَ كلَّ حُدود الحقّ والعدل والخير، إلى الظلم الفاحش، والعدوان الشّنيع، والفساد العريض.

يقال لغة: «طغَىٰ الشيءُ، يَطْغَى، طَغْياً، وطغياناً» أي: جاوز الحدّ الذي يمكن بالصبر والحلْم احتماله، وصار ضارّاً ضَرَراً كبيراً، أو صار مُفْسِداً إفساداً عَرِيضاً، أو ظالماً ظُلْماً فاحشاً.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسى:

- ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾:

أي: فأبلغاه رسالتي بقولٍ ليّن، فيه رِفْقٌ ومداراةٌ وتلطُّف.

اللّيِنُ: السَّهل المطاوع المستساغ القابلُ للدَّفْعِ كالعجين الرخو، والقابل للانقياد، الذي لا شِدَّةَ فيه ولا صلابة.

وضدّ اللّيِّن: القاسي الصُّلْب الشديد، والخَشِنُ الجارح المُؤْذي.

فاللّيِّنُ من القول هو المقبول منه، المستساغ في النفس، والمرغوبُ في استماعه، والّذي لا تشتمئزُّ منه الأسماع، ولا تَنْفِرُ مِنْه الطّباع.

والقول اللّيِّن من عناصر الحكمة في الدَّعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم.

وضدّ القول اللّيِّن، القولُ القاسي الصُّلْبُ العنيف، والخشن الذي فيه فظاظةٌ وغلظَة، والمكروه الّذي تَشْمَئِزُّ منه الأسماع، وتَنْفِرُ منه الطباع، وتوجيه مثل هذا القول القاسي، أو الخشن في الدّعوة إلى الله، أو في النُّصْحِ والإرشاد، منافٍ مُنَافَاةً تامَّةً للحكمة المطلوبة من حَمَلَة رسالة الرَّسول في الناس.

وقد عَلَّمَ الله عزّ وجلّ موسىٰ عليه السّلام أسلوب القول اللَّيِّن، بتقديم نموذج منه، في قوله له الذي جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

نلاحظ في عبارة التعليم هٰذهِ أنّها اشتملت على عدَّة كلماتٍ هي من التَّلطُّف التكريمي قبل عرض المقصود بالذات.

• [هَلْ]: أداة استفهام، فيها معنى العرض التخييريّ، لا التكليف الإلزامي.

• [لَكَ]: كلمتان: الأولى حرف جرّ، والثانية كاف الخطاب، وقد كان من المُمْكِن الاستغناء عنهما، لكنَّ التلطُّفَ بتطويل مقدمات العرض التكريمي اسْتَدْعاهما.

• [إِلَىٰ أَنْ]: كلمتان: الأولى حرف جر، والثانية حرف ناصب للفعل المضارع، ويؤوّل مع الفعل المضارع بمصدر، وقد كان من الممكن الاستغناء عنهما، لكنَّ التلطُّفَ بتطويل مقدمات العرض التكريمي استدعاهما.

• [تَزَكَّىٰ]: هنا بدأ عَرْضُ المقصود بالذّات، ومع ذلك قد حصل فيه اختصارٌ وتقليلٌ في اللّفظ، إذ أصْلُ الفعل «تَتَزَكَّىٰ» فحذفت إحدى التّاءَيْنِ اختصاراً، وتخفيفاً على أُذن فرعون المدعُوّ.

قول الله عزّ وجلّ في حكاية ما قاله لموسىٰ:

﴿... لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فَقُولَا لَهُ قولاً ليّناً حالَة كَوْنِكُمَا راجيَيْنِ نَفْسِيّاً أن يتأثّر بدَعْوَتِكُما، وطامِعَيْن في أن يستجيب استجابة أراديَّةً لما تقدّمان لَهُ من حقائق يقتنع بها، مقرونَةً بالبُرْهَانَيْنِ من آياتِنَا الإعْجَازِيَّة، أوْ أن يستجيب خشية من عذابنا الأليم الّذِي تخوّفَانِهِ منه، وهو جزاء يوم الدّين، في جهنم دار المجرمين والظالمين، مع تخويفه من عذاب وإهلاك معجلين، كما حصل لكفار القرون السابقة.

إن طمعَ موسىٰ وهارون عليهما السلام باستجابة فرعون لدعوتهما، يجعلهما مُتَفَائلين، والتفاؤل بتحقيق المُرَاد يزيد من هِمَّةِ الساعي إلى تحقيق ما يريد، فيجعلُه يضاعف جهده واجتهاده، مع التزام كمالَ الحكمة والقول اللّيِّن الرشيد، وحُسْنِ الملاطفة والمداراة، والبُعْدِ عن كلِّ خُشُونَةٍ وقَسَاوَةٍ وفَظاظَةٍ وغِلْظَة، خَشْيَةَ التنفير.

فعل «يتذكّر» وتصاريفه ومصدره، استعمل في القرآن المجيد، للدَّلَالة على الأثر النفسيّ والقلبيّ والسُّلوكي، لحضور المعلومة ذات التأثير فيهما عند استِعْدَادِهِما للتأثُّر، في السّاحة الحاضرة للتَّذَكُّر، استدعاءً لها مِنْ مخازن المعرفة، أو وروداً حديثاً لها من الخارج، عن طريقِ بيانٍ واردٍ، أو تأمُّلٍ فكريّ ذاتِيّ، أو بتأثيرِ حَدَثٍ، أو ظاهرةٍ كونيّة، أو غير ذلك.

فصار هذا المراد بهذه المادّة اللّغويّة، بمثابَةِ مُصْطَلحٍ قرآنيّ، كمصْطَلح الصَّلَاةِ، ومصطلح الزكاة، في الدَّلَالَةِ على مَعَانِيهِمَا في النّصوص الدينيَّة.

وهذا الأثر النفسيّ والقلبيّ والسُّلوكيّ، هو المطلوبُ الدينيُّ الغائيُّ من الذِّكْرِ، والتَّذَكُّرِ، واكتساب المعارف الدينية، وهو الدافع للسُّلُوكِ الدِّيني الملائم له، والمطلوب فيه.

فمثلاً: إنّ أثر معرفة أنَّ اللَّهَ قد خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الكَوْنِ، وأتْقَنَ كُلَّ شيءٍ فيه صُنْعاً، هو الإيمانُ بكمال قدرته وشمولِ عِلْمِهِ كلَّ شَيْءٍ، والإيمانُ بكمال حكمته في مقاديره.

وأثر هذا الإيمان في السُّلوك يكون بالرّضا بقضاء الله وقدره، وبالخضوع له، وعبادته وحده لا شريك له.

وهكذا إلى أمثلة كثيرة يَصْعُبُ استيعابها.

﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي: أو يخاف من عقاب الله وعذابه، في حالة عدم استجابته لدعوة الرَّسُولين بمَنْطِق الحقّ، وبُرهان المعجزة.

التَّرْديدُ بحرف «أو» في هذه العبارة، لا يمنع من عدم تحقُّق المرجوّين، أو أحدهما، ولا يمنع من اجتماعهما، فالقضيّة ليسَتْ مانعة جَمْعٍ ولا مانعة خلُوّ بحسب مصطلح عُلَمَاءِ المنطق.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾:

[قَالاَ]: هذه العبارة تَدُلُّ على أنّ هارون عليه السلام، قال لأمين الوحي جبريل عليه السّلام، في مصر، مثلما قال موسَىٰ عليه السّلام في مناجاته لربّه بجانب الطّور، فمع كونهما متباعِدَيْنِ قد تخوَّفا تخوُّفاً واحداً، فأفكارُهما قد تواردت متّفقةً حوْلَ هذا التخوّف، دون سابق محادثةٍ أو مشاورة بينهما.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾:

أي: أنْ يُسْرِعَ ويَعْجَلَ بطَرْدِنا وعدم الاسْتِمَاعِ إلينا، أو يَعْجَلَ بعقوبَتِنا، ولا يَنْتَظِرَ حَتَّى يَسْمَعَ دَعْوَتَنا، ومَطَالِبَنا.

يقال لغة: «فَرَطَ، يَفْرُطُ، فُرُوطاً، وفَرْطاً» أي: عَجِلَ وأسْرَعَ، ويقال: «فَرَطَ مِنْهُ خَيْرٌ أو شَرٌّ» أي: سبَقَ دُونَ أَناةٍ ورَوِيَّةٍ.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾:

أي: أو أنْ يتجبَّرَ ويُسْرِفَ في الظُّلْمِ حتَّىٰ القَتْل.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسىٰ مخاطباً، وقال لهَارُون ببلاغ أمين الوحي جبريل عليه السلام: لَا تخافَا، مطمئناً لهُمَا أنَّهما لن يُصِيبَهما من قِبَل فرعون مكروهٌ من تَسَرّعٍ أو طغيان، ونفهم من هذا أنَّ اللّه عزّ وجلّ

سيوقع في قلبه الخوف ممّا مَعَهُمَا مِنْ خَوارِق وآياتٍ معجزات مخيفات.

وعبارة: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فيها مزيد تثبيتٍ على الطُّمَأْنِينَة بأسْلُوب الكناية، فكون رَبِّهما مصاحباً لهما، ويَسْمَعُ ويَرَىٰ كُلَّ ما يحدُث منهما أو عليهما عند فرعون، من لوازمه الذِّهْنِيَّةِ أنَّه سيَحْمِيهما ويَحْفَظُهُما ويَنْصُرُهما بعزَّتِهِ، إنْ أراد فرعونُ بهِما سُوءاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا التعليم الرَّبَّاني الّذي اشتملَتْ عليه هاتانِ الآيتان، الموجَّهتان لموسىٰ وهارون عليهما السلام، عُنْوانات سِتِّ قضايا:

القضيَّة الأُولى: بيانُ أنَّهما رسُولَان مُرْسَلَان من رَبِّه، ويَحْمِلَانِ إلَيْهِ رِسالةَ مِنْهُ، دلَّتْ عليها عبارة: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿...فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: إنَّا رَسُولَان، ولكنَّنَا بمثَابَةِ رَسُولٍ واحد، لأنَّنا مُتَعَاضِدان متكاملان، فَما يَقُولُه أحَدُنا يُعَبّر عن قولِنا جميعاً، لا يَنْفَرِدُ أحَدُنَا عن الآخر بشيءٍ.

وهذا نظير قول وَفْدٍ من جمهورٍ كبيرٍ للوافدين عليه: نَحْنُ شَخْصٌ واحد، أو رَجُلٌ واحد، أي: متكاتِفُونَ مُتَعَاضِدُون، لا ينفرد أحَدُنا برأيٍ على خلاف آراء الآخرين.

وبين هٰذيْن التَّعليمَيْن تكامُلُ، أي: فقولَا لَهُ مَرَّةً: إنَّا رَسُولا رَبِّكَ،

فأسْمِعَاهُ أنَّه خاضِعٌ لرُبُوبيَّةِ اللَّهِ المهيمِنَة عليه في كلّ صغيرة وكبيرَةٍ من أمورِ حياته ومَوْته، وقولا لَهُ مرَّةً أُخْرَى: إنَّا رَسُولُ رَبِّ العالَمِين، أي: فنَحْنُ رَسُولان بمثابة رسولٍ واحد، ورَبُّكَ هُوَ رَبُّ العالَمِينَ جميعاً من أحياء وغير أحياء في السَّماوات والأرض.

القضيةُ الثانية: مُطالَبَتُهُما بأنْ يَأْذَنَ لبَنِي إسْرائِيل جميعاً بالخروج من مِصْر بقيادتهما، وعَوْدَتِهما إلى الأرض الَّتي قَدِمَ أجدادُهم مِنْها أيَّام يُوسُف عليه السلام، دلَّتْ على هذه القضيَّة عبارة: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وكان بنو إسرائيل على ما يَزْعَمُون قَدْ وَصَلَ عَدَدُهم إلى قُرابَةِ ستمائة ألْف نسمة، ورفض ٱبْنُ خَلْدُون أن يكون هذا العدد صحيحاً، نظراً إلى المُدَّةِ الزمنية بين دخولهم مصر في عهد يوسف عليه السلام، وخروجهم منها بقيادة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

القضيَّة الثالثة: مطالَبَتُهما بأنْ لَا يُعَذِّبَ بني إسرائيل، أي: بأنْ يَرْفَعَ عنهم عذابَ التسخيرِ والإذلالِ والاسْتِعْبَادِ الذي فَرَضَهُ عَلَيْهم، إذْ سَخَّرَهُمْ هُوَ في أعمال البناء، وفَسَحَ المجال للمصريّين بأنْ يُذِلُّوهُم ويَسْتَعْبِدُوهُم، دلَّتْ علىٰ هذه القضيَّة عبارة: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾.

من الحكمة في هذا التعليم تقديم ما يتعلَّقُ بقَوْمهما بَنِي إسرائيل، كأنَّهما مَنْدُوبَان من قِبَلِ شَعْبِهِمَا بعَرْضِ مطالبهم على فرعون.

أي: إنَّ بني إسرائيل كانوا يُعَانُون إذْلالاً واستعباداً مِنْ قِبَلِ فرعون وآله، ومن قِبَلِ سائر المصريّين، وبما أنَّهُمْ مقيمون غُرَباء في نظر المصريّين، ولَيْسُوا مُشاركين في وطَنٍ لهم فيه كُلُّ حُقُوقِ المواطنين، فإنَّهُمْ يُفَضِّلُون أن يخرجوا من مصر، ويَعُودُوا إلى الأرض الّتي قَدِمَ منها أجدادهم.

لكن فِرْعَوْن وملَأَهُ كانوا يَخْشَوْنَ أن يَخْرُجُوا من مِصْر، ويُعِدُّوا جَيْشاً

قويّاً محارباً، ويَعُودُوا إلى مصر فاتحين، ويَسْلُبُوهُمْ مُلْكَهُمْ وأموالهم، فلَمْ يَكُنْ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أنْ يَأْذَنُوا لهم بالخروج.

القضية الرابعة: بيان أنَّهما جاءَا بعَلاَمَةٍ مُعْجِزة من ربِّه، تُثْبِتُ أنَّهما رسولان مَبْعُوثان مِنْهُ، ولَيْسَا مُدَّعِيَيْنِ أنَّهما رَسُولان مِنْ رَبِّه دون آيَةٍ بيِّنَةٍ، دلَّتْ على هذه القضيَّة عِبارة: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

الآية في اللّغة: العلامة، والآيَةُ الرَّبَّانيَّةُ معجزةٌ خارقة باهرة، وهما يَقْصِدان آيَة العصا، وآية اليد.

القضيَّة الخامسة: دَعْوَتَهُما لَهُ إلى الإيمان بالله وبصفاته وبسائِرِ أركان الإيمان، وإلى الإسلام للّهِ وطاعَتِهِ في أوامره ونواهيهِ، إلى سائر مضامين الدِّين الّذي اصطفاه الله لعباده، مع إطماعه بالسَّلامة الدنيويَّة والأُخْرَوِيَّة. دلَّت على هٰذه القضيَّة عبارة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: والأَمْنُ والسَّلامَةُ على من اتَّبَعَ الهُدَىٰ الَّذِي أَرْسَلَنَا اللَّهُ به، إذْ يُسَلِّمُهُ اللَّهُ في الدنيا من عذابه، ويُسَلِّمه في الآخرة بدخولِهِ جنَّتِهِ دارِ السَّلام والأَمْنِ الكاملين: الأَمْنِ الغذائي، والأَمْنِ الصحيّ من كلِّ الآلام والعوارض والآفات، والأمن النفسيِّ بتحقيق أمانيها ومطالبها وكلّ ما تَشْتَهِي وتَهْوَىٰ.

القضيَّة السادسة: تَحْذِيره من عذَاب اللَّهِ الأليم في الدّنيا والآخرة، إذا كذَّبَ بأَنَّهُمَا رَسُولَا رَبِّه، وكذَّبَ برسالَتِهِ الّتي حَمَّلَهُمَا واجِبَ تَبْلِيغِها، ومن أن يتولَّى مُدْبِراً، ومُبْتَعِداً عن اتّباع الهدى. دلَّتْ على هذه القضيَّة عبارة: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

[العَذَابَ]: أي: عذابَ اللَّهِ يوم الدين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ من عذابٍ مُعَجَّلٍ في الدّنيا.

[علىٰ مَنْ كَذَّبَ]: أي: مُنْصَبٌّ على مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ رَبِّه، وكذَّبَ بما جاؤُوا به عنه.

[وتَوَلّىٰ]: أي: أدارَ ظَهْرَهُ ونَأىٰ، ولَمْ يَتّبِعْ هُدَىٰ اللّه.

وطَوَىٰ النصّ أنَّهما جاءا إلى قَصْرِ فِرْعون، واسْتَأْذَنا بالدُّخُولِ عليه، فأذِنَ لهما بالدُّخول، باعتبارهما مُمَثّلَيْن ونائِبَيْن عن الإسرائيليين في مصر، وأنَّهما قالَا لَهُ كما جاء في التعليم الرَّبَّاني.

ويظهر أنّ موسىٰ عليه السلام قد كان صاحب اللّسان الأوّل، وأنَّ هارون عليه السَّلام كان مُساعداً له وَوَزيراً.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

سؤالٌ من فِرْعَوْن عن ذاتِ الرَّبِّ، مُوهِماً أنَّ هذا الرَّبَّ إنْسَانٌ مِثْلُهُ مِنْ مُلُوكِ الأرض، وتغاضَىٰ عَنْ قولِ مُوسَىٰ له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وعَنْ قوْلِهِ: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

وأضاف إلى هذا ما جاء في التعليم الذي جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: قال موسىٰ عليه السّلام: إنَّه لَيْسَ رَبَّنَا فقط، بل هو ربّ العالمين جميعاً، وهو الذي أعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدىٰ.

أي: وضعَ بعطاء منه في كلّ شيءٍ مُخَطَّط صفاته الذّاتيّة، من مادّيّات، ومعنويّات، ونفسيَّات، فهي كامِنَةٌ مُسْتَقِرَّةٌ في أعْماقه، فإذا أخذ في النّماء أوّ في التَّحَرُّكِ الإرادي، أو غير الإرادي، جرىٰ نماؤه وتحرُّكه وَفْقَ هذا المخطَّط المستقرّ في أعماقه.

هذه الإجابَةُ إجابَةٌ عِلْمِيَّةٌ دَقيقَة لها سَطْحٌ وعُمْق، ويَفْهَمُ مِنْها كُلُّ ذي فكر بِحَسَبِ قُدْرَته على التفكّر، وكُلُّ ذِي عِلْمٍ بحسب مَبْلَغِهِ مِنَ العِلْمِ.

وقد كان النّاس في النظرات السَّطحيّات يُدْرِكُونَ أنْ لكلّ حيوانٍ من العجماواتِ، وأنَّ لِكُلِّ إنْسَانٍ طباعاً نفسيَّةً يتصرَّفُ بمقتضاها.

ثُمَّ كشَفَتِ العُلومُ الحديثَةُ في القرن العشرين الميلادي عُمْقَ ما دلَّتْ عليه هذه الإجابة، باكتشافِ «الكُرُومُوزُومات» المترجمة بالصِّبْغِيَّات، الموجودة في عُمْقِ الخلَايَا النباتيّة والحيوانية، والمورثات الجينيَّة فيها، وأنَّ نماء النباتاتِ والحيواناتِ وتحرُّكاتها الإراديَّة وغَيْرَ الإراديَّة تكُونُ على وَفْقِ الخَصَائِصِ الموجودة في هذه الصبغيَّات وهٰذه الجيناتِ الصُّغْرَى جدّاً في عُمْقِ الخلايا.

وهٰذه الموجِّهَاتُ الداخلاتُ في عُمْقِ الذَّرَّاتِ، تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ في الوجود من مَخْلُوقاتِ اللَّهِ، من ذواتِ الحياة المدركَةِ حيَواتُها، ومن غَيْرِ ذَواتِ الحياة.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: وبَعْدَ أنْ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ بقضائِهِ وقَدَرِهِ، وأَجْرَى تَنْفِيذَهُ بِخَلْقِهِ، هدىٰ كلَّ عُنْصُرٍ صَغِيرٍ أو كبيرٍ للنَّمَاءِ أو للتحرُّكِ على وَفْقِ ما رَسَم اللَّهُ لَهُ في خَصَائِصِهِ، ومَسِيراتِهِ، فالمَجبُورُ مِنْها يَنْمُو ويتَحَرَّكُ بنظام جَبْرِيّ، والمختارُ منها يتحرَّكُ وَفْقَ نظامٍ تخييريّ، لمحاسبَتِهِ ومجازاتِهِ على ما اخْتَارَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

❊ ❊ ❊

وقد جاء تكميلٌ لهذا الحوار في سُورَةِ (الشُّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها حكايةً لبعض ما جرَىٰ من حوار:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ

مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وهنا يأتي مَا جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

وهنا يأتي ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهو قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ في نصّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: قال فِرْعَوْنُ لموسىٰ عليه السَّلام ما دَلَّ عَلَيْهِ هذا البيان، وهو يَشْتَمِلُ على مقالةٍ فيها أَرْبَعُ قضايا، الثلاث الأُوَل مِنْهَا مُصَدَّرَةٌ باستفهام تَقْرِيريٍّ من فِرْعَوْن لموسىٰ عليه السّلام، لانْتِزَاعِ إقرارهِ بها، والرابِعَةُ يتَّهِمُ فِرْعَوْنُ بها مُوسَىٰ بأنَّهُ من الكافرين، أي: من الجاحدين لِلْمِنَنِ الّتي أَنْعَمَ بها القَصْرُ الفرعوني عليه.

الكفر: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ جُحودِ النِّعْمَةِ للتَّنَصُّلِ من أداء واجب الشكر عَلَيْهَا.

القضيّة الأُولى: استفهام تقريريٌّ، يمْتَنُّ به فِرْعَوْنُ على مُوسَىٰ عليه السّلام بأنّ القَصْرَ الفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كانَ وَليداً حديث الولادة، حتَّىٰ بلغَ واكْتَمَلَ، ولَمْ يَقْتُلْهُ كَشَأْنِ سائر مواليد سنته من الإسرائيليين، إذِ الْتَقَطَهُ بعضُ آلِهِ من النّيلِ وأحبُّوهُ وكَرَّمُوهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الإِسْرَائِيليين.

دلَّتْ على هذه القضيَّة من نصّ (الشعراء) عبارة: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

التربية: تجمع في معناها كلَّ ما يتطلَّبُه إنْشَاءُ المُرَبَّى، ورعايَتُهُ وحفظه، وتنميتُهُ، جَسَدِيّاً، ونفسيّاً، وفكرِيّاً، وسلوكيّاً.

والمراد: ألَمْ نُرَبِّكَ في ضِمْنِ أسْرَتِنَا الملكيَّة كأحَدِ أولادنا، منذ كنْتَ حديث الولادة، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً ذا قوّة تَسْتَنِدُ فيها إلى أنَّكَ واحدٌ من أفراد القَصْرِ المَلَكِيّ في مصر.

القضيَّة الثانية: استفهامٌ تَقْرِيريٌّ، يَمْتَنُّ به فِرْعَوْنُ علىٰ مُوسَىٰ بأنَّهُ لَبِثَ في رِعَايَةِ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ، وحمايته، ومَنْحِهِ فُرَصَ الارتقاء والنجاح في أُمُورِهِ كُلّها كأحَدِ أفراد القَصْرِ، طَوَالَ سِنين مِنْ عُمْرِهِ.

قيل: لَبِثَ في القصر الفرعونيّ (١٨) سنة من عمره، وقيل: (٣٠) سنة، وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

دلَّت على هذه القضيّة عبارةُ: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، أي: أَوَلَمْ تُقِمْ في كَنَفِنَا كأحد أفراد القصر من آلِنَا، سِنِينَ من عُمْرك، ونَحْنُ نَرْعَاكَ، ونَمْنَحُكَ ما تَطْلُبُ من مطالب، ونُمِدُّكَ بقُوَّةٍ من سلطاننا، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجولة.

الاستفهام التقريريُّ الوارد في القضيَّة الأولى، مُنْسَحِبٌ على هذه القضيَّة الثانية.

[**وَلَبِثْتَ**]، أي: وأَقَمْتَ في قَصْرِنَا كواحدٍ منَّا إقامَةً طويلةً امْتَدَّتْ طوالَ سنين من عُمْرِكَ. **اللُّبْثُ**: الإقامة في المكان زَمَناً لَيْسَ بالقَصِير.

القضيَّة الثالثة: اسْتِفْهَامٌ تقريريٌّ يُقرّرُ به فِرْعَوْنُ موسىٰ عليه السلام، بأنَّهُ قتَلَ نفساً من المصريّين، انتصاراً لإسرائيليٍّ هو من شيعته وقومه، وهذه الجريمةُ تستحِقُّ عقُوبةَ القتل، ويظهر أنّ هذه العقوبة قَدْ سقطَتْ بمُرُورِ الزّمَن، بمقتضىٰ قانونهم حينئذ.

دَلَّتْ على هذه القضية عبارة: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾، أي: أوَ لَمْ تَرْتَكِبْ جريمة قَتْلِ المصريّ، انتصاراً لرَجُلٍ من قومِكَ الإسرائيليّين.

الاستفهام التقريريُّ مُنْسَحِبٌ على هذه القضيّة أيضاً.

ومراد فرعون من تقرير مُوسَىٰ عليه السّلام بهٰذه القضايا الثلاث، إشْعَارُهُ بأنّ ما جاءَ الآن به، لا يَتَلَاءَمُ مع سابقِ عَهْدِهِ، في القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ وآله، ولا سيما مطالبَتُه بالإذْنِ لبَنِي إسرائيل بأنْ يَخْرُجُوا من مصر، مع الاحتمال القويّ بأنّه يُرِيدُ أن يَخْرُجَ بهم، ليُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتِلاً، ويَرْجِعَ بجيشه لتقويض مُلْكِ أَوْلِياءِ نِعْمَتِهِ، وانْتِزَاعِهِ مِنْهُمْ بالقوّة، والاستيلاءِ على أموالهم وممتلكاتهم، وهم خبراء بأرض مصر، وبرجالها، وبمراكز قُوىٰ سلطان القَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ فيها، إنّ هذا العَمَل مُنَافٍ لفضيلة الوفاء.

أي: فكيف يتلأم هذا مع ما يَدْعُو إليه من حقٍّ وخَيْرٍ ورُشْدٍ وفضائِلَ، في الدّين الجديد الذي يَدْعُو إليه.

القضية الرّابعة: إدانَةُ فِرْعَوْنَ لمُوسَىٰ عليه السّلام بأنَّهُ مِنَ الكافرين الجاحدين، لِمَا قَدَّمَهُ له القَصْرُ الفرعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ ومِنَنٍ، وقد كان يجب عليه أن يكون من الشاكرين لهذه النِّعَمِ والمِنَنِ، فيكُونَ مِنَ المؤيّدِينَ المناصرين، ومن ذوي الولاء الصادق، لا من الكافرين الجاحدين، الذين يُقابِلُون الإحْسَانَ بالإساءَةِ، والخَيْرَ بالشَّرِّ، والجميلَ بالقبيح.

دلَّت على هذه القضيَّة عبارَةُ: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: من الجاحدين للنّعم والمِنَنِ التي تَلَقَّوْهَا من أولياء الإحْسَانِ إليهم.

رَدُّ مُوسَىٰ على فرعون:

فردَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على فرعون بما جاء بيانُه في نصٍّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ تعبيراً عمَّا جاء في مقالته له:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى

حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

بدأ موسىٰ عليه السَّلام بالإجابَةِ على قَتْلِهِ المِصْرِيَّ انْتِصاراً لأحَدِ أفراد قومِهِ الإسرائيليّين، فأبَانَ أنَّه قتلَه في الزَّمن الَّذِي كانَ فيه من الضَّالّين الجَاهِلين، الّذين يَنْدَفِعُونَ مع أهوائهم وعصبيَّاتِهِم وَوَلَاءَاتِهِمُ القَوْمِيّة، وفي الزَّمَنِ الَّذِي كانَ فيهِ خاضعاً لمؤثراتِ مَدْرَسَةِ القَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ النَّفْسِيَّةِ والاجتماعيَّةِ والتَّسَلُّطِيَّةِ، وأبانَ أنَّه لَمَّا عَلِمَ بأنّ مَلأَ القَصْر يَأْتَمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَّ مِنْهُمْ، وخَرَجَ من مصر هارباً، وأقام في مكانٍ لَا سُلْطَانَ لحُكَّام مِصْرَ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ، وأبَانَ له أنَّ اللَّهَ رَبَّهُ وَهَبَ لَهُ حُكْماً عَقِب فراره مِنْ مِصْر، وأنّ اللّه رَبَّهُ جَعَلَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ من المُرْسَلِينَ.

دلَّت على هٰذه الإجابَة عبارة:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾:

[إذاً]: قَالُوا: هِيَ هُنَا حَرْفُ جوابٍ، أيْ: نَعَمْ، قَدْ فَعَلْتُهَا في حالِ أنّي كُنْتُ من الجاهلين، الذين لا يعرفون الكثير من الأمور الّتي فيها تفريقٌ بينَ الحَقِّ والباطل، والخير والشّرّ، والصالح والفاسد.

الضَّلال: يأتي في اللُّغة بمعنى الجَهْلِ بالشَّيْء، لخُلُوّ الذِّهْنِ من معرفَتِهِ، ومنه قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضُّحى): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، وهذا المعنى هو المعنىٰ المناسب هنا.

ولست أدري لِمَاذا لم يُورِد النحويّون احْتِمالَ أن تكونَ [إذاً] هُنا دالَّةً على الظَّرْفِيَّة، وأن يكون التنوينُ عوضاً عن مضافٍ إليه محذوف، كما قالوا في نحو: «حينَئِذٍ» و«يَوْمَئِذٍ»، فهذا المعنى هو الأقرب خُطوراً في الذهن بحسَب سوابق العبارة ولواحقها، أي: فعلْتُها حينئذٍ وأنا مِنَ الضَّالّين.

• ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أي: فَعَقِبَ وَقْتِ خَوْفي مِنْكم أنْ تَقْتُلوني، هَرَبْتُ منكُمْ إلى حَيْثُ لَا يُمْسِكُ بي جُنُودُكم، لِيَسُوقُوني إلَيْكم.

[لَمَّا]: ظرفٌ للزمان الماضي هُنَا، أي: حين خِفْتُكُمْ فيما مضَىٰ عَقِب قَتْلِي المَصْرِيّ.

• ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾:

الهِبَة: العَطِيَّة الخالِيَةُ من الأعواض والأغراض. يقالُ لغة: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهْباً، وَوَهباً، وهِبَةً، فَهُوَ: وَاهِبٌ، وَوَهَّابٌ، ووَهُوبٌ، ووهَّابَةٌ».

[حُكْماً]: **الحُكْمُ**: فقْهُ الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقّ والباطل وحُدودهما. والخَيْرُ والشّرّ وحُدودهما، والحسَنِ والسَّيّء وحُدُودها، وبناءً علىٰ الفقه، يُصْدِرُ مَنْ أُوتي الحُكْمُ أحكامَهُ العِلْمِيَّةَ، وأحكامَهُ القضائيَّة.

أي: فَأَعْطاني رَبِّي بِفَضْلٍ مِنْهُ فِقْهاً في الأُمور، بَعْدَ أنْ كُنْتُ جاهلاً.

• ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

أي: وَجَعَلَني نبيّاً من الأنبياء، ورَسُولاً مِنَ المُرْسَلِين، الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ قَبْلِي لتبليغ أُمَمِهِمْ رسالَات رَبّهم إليهم.

وقد دَلَّ الواقع التاريخيُّ على أنّ اللّه قد جعلَه نبيّاً ورَسُولاً في زمنٍ متأخّرٍ عَنْ زَمَنِ فراره من مصر، عَقِب قَتْلِهِ المصري. لكنَّ عبارة: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ تَدُلُّ على أنَّ هذه الهِبَة قَدْ كانت عَقِب فراره من جنود فرعون في مصر، فالعطف بالواو لعبارة: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لا يَدُلُّ على الاقْتِرانِ في الزّمن بَيْنِ هِبتِهِ الحُكْمَ وبَيْنَ جَعْلِهِ من المرسلين، إذْ بَيْنَ الزَّمَنَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ سنين.

وبَعْدَ أن أجابَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ فِرْعَونَ على ما قَرَّرَهُ به بشَأْنِ قَتْلِهِ للمصرِيّ انتصاراً للإسرائيليّ، وجَّهَ مُوسَىٰ لَهُ الجوابَ على المِنَنِ الَّتي امْتَنَّ فِرْعَوْنُ بِهَا عَلَيْهِ، وعلى إدانَتِهِ له بأنَّه مِنَ الجاحِدِينَ الذين لا يُقابلون الإحسانَ بالشّكر، بما دَلَّتْ عليه العبارة التالية من نصّ سورة (الشعراء):

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟!:

[تَمُنُّهَا]: أي: تتحدَّثُ بأنَّكَ تفضَّلْتَ بها عليَّ، وتعتبِرُها مِنْ مَحَامِدِك وإحْسَاناتِك.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أنْ جَعَلْتَ بني إسرائيلَ عبيداً لكَ ولقوْمِكَ، بالقَهْرِ، والغَلَبَةِ، وقُوَّةِ سُلْطانك.

والمعنىٰ: أتِلْكَ الّتي ذَكَرْتَها من تَرْبِيَتِي وليداً فِيكُمْ، وإقامَتِي فيكُمْ، كأحَدِ أفراد قَصْرِكُمْ، تَصْلُحُ لأنْ تكونَ نِعْمَةً على أحدٍ مِنْ بني إسرائيل الَّذين جَعَلْتَهُمْ عَبِيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ، بالقَهْرِ والغَلَبَةِ وقُوَّةِ السلطان؟

أشار عليه السَّلام إلى المِنَنِ الّتي امْتَنَّ بها عليه فرعون باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البَعيد، للدَّلَالة على احتقارها بجانب الاستعباد المسَلّط على بني إسرائيل، من قِبَلِ فِرْعَوْن ومَلَئِهِ وسَائر المصريّين.

وطوى موسَىٰ عليه السّلام في نفسه بيان أنّ المِنَّة لربّي الَّذِي أنْقَذَنِي من القَتْلِ الذي فَرَضْتُمُوهُ على مواليد الإسرائيليين، وأنا واحِدٌ منهم، إذْ وَضَعَتْنِي أُمّي في التَّابوت، فأوْصَلَهُ رَبِّي إلى قُرْبِ شاطئ قَصْرِكُمْ، والْتَقَطَنِي من طرف النَّهرِ بعضُ آلِكَ، وألْقَىٰ محبّتي في قُلوبكم، وصرَفَ نفوسَكُمْ عن قَتْلِي مع مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أبناء قَوْمي، إذْ تَصَوَّرْتُم أنّني سأَنْفَعُكُمْ، أو أنْ تَتَّخِذُوني وَلَداً مِنْ أولادِكم بالتَّبَنِّي.

تلك في الحقيقة لَيْسَتْ مِنَناً مَنَنْتُمْ بها عليّ على سبيل الإحسان، وإنَّما نَظَرْتُمْ فيها إلى مصالِحكُمْ، مع مُراعاة عَواطف بعض آلِكُمْ، الَّذِين أَلْقَى رَبِّي محبَّتي في قُلُوبهم.

عندئذٍ انتقَلَ فِرْعَوْنُ إلى حوارٍ آخر مع مُوسَىٰ عليه السّلام، وهذا الحوار يتعلّق بربِّ العالمين الّذي ذَكَرَهُ مُوسَىٰ، ويَدْعُو إلى الإيمان به، فقال لموسَىٰ كما جاء في النصِّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

التدبّر:

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

[مَا]: اسم استفهامٍ يُسْتَفْهَمُ به عَنْ غَيْرِ ذي العلم، ويُسْتَفْهَمُ به عَنْ صِفاتِ ذي العلم، ومن صفاتِهِ حقيقةُ ذاته.

وقد سَأَلَ فِرْعَوْنُ مُوسَىٰ عليه السَّلام بمقتضىٰ دَلَالَةِ هذه العبارة، عن حقيقةِ ذاتِ رَبّ العالَمِين.

فأعرض موسَىٰ عليه السّلام عَن إجابَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حَقِيقَةِ ذاتِهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ عَنْ الإدْرَاكِ ذاتُه ـ لأنَّ حقيقةَ ذاتِهِ لا يستطيع مخلوقٌ إدْرَاكَها، ولأنّ نور ذاته أو نوراً من ذاتِهِ لا يستطيع البَشَرُ إدْرَاكَهُ بأجِهزَةِ الإدْراك الّتي وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ إيَّاها.

ولكن أجابَه بعباراتٍ فيها تَفْصِيلُ آثارِ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ في كونه، الجامعة لكثيرٍ من صفاته الجليلات العظيمات، كالعِلْم المحيط بكلِّ شيء، وكالإرادة الحكيمة، والقدرة على خَلْقِ ما يشاء، والتدبير الدائم الكامل لتصاريف الكون، والرَّحْمَةِ بعباده.

فذكر عليه السَّلام بعضَ مظاهر صفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ:

• ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

خاطبَ موسَىٰ عليه السَّلامُ بما دَلَّ عليه هذا البيان فرعونَ ومَلَأَهُ مِنْ حَوْلِهِ.

أي: رَبُّ العالَمين هُوَ مَنْ لَهُ الصِّفاتُ الجليلات العظيمات الّتي مِنْ آثارِهَا خَلْقُ السَّماواتِ والأَرْضِ، وخَلْقُ مَا بَيْنَهُمَا، والهَيْمَنَةُ على تَصارِيفِ كلِّ ذٰلِكَ، وبقاءُ كلِّ ذلك في الوُجُودِ، بصفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ على وَفْق حِكْمَتِهِ وشُمُولِ عِلْمِهِ كلَّ شَيْءٍ، وقُدْرَتِهِ على ما يَشاءُ.

• ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّين لأنْ تُفَكِّرُوا بالحقائق الّتي أعْرِضُهَا عليكم، فتَصِلُوا إلى إدْراكِ الحقّ، فتوقِنُوا برَبّ العالَمِين الَّذِي أَدْعُوكُمْ إلىٰ الإيمان به، عن طريق البراهينِ والأدِلَّةِ العقليَّة، بالنظر في لوازم خَلْقِهِ للعالَمين، ومن العالمين السَّماواتُ والأرضُ وما بَيْنَهُمَا.

اليَقِين: هو العِلْمُ الّذي لَا شَكَّ فيه، وأدْنَىٰ مَرَاتِبِهِ ودَرَجاتِهِ ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نظريَّةٍ عَقْلِيَّة، أوْ خَبَرِيَّةٍ صادِقَةٍ لا يَعْتَرِيهَا شكٌّ.

والمعنى: فإذا كُنْتُمْ غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ لأَنْ تُفَكِّرُوا فتوقنوا مستقبلاً بالحقِّ الّذي أدعُوكُمْ إلى الإيمانِ به، مَهْمَا قَدَّمْتُ لَكُمْ من الأدِلَّةِ، فإنّ بَيَاني هذا لَنْ يُغَيِّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لربِّكُمْ شيئاً.

عندئذٍ استغلَّ فِرْعَوْنُ عَدَمَ إجابَةِ مُوسَىٰ له عن حقيقة ذات رَبِّ العالمين، فنظر إلى من حَوْلَهُ من مَلأ قومه، فقال لهم ما دَلَّ عَلَيْهِ قول اللَّه عزَّ وجلّ:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟:

أيْ: أَلَا تَسْمَعُونَ إجابَتَهُ غَيْرَ المطابقة للسؤال، إنّي أسْأَلُهُ عَنْ ذاتِ رَبِّ العالمينَ الّذي يَدْعُونَا إلى الإيمانِ به، فلا يجيبني ببيانِ حقيقة ذاتِهِ،

وإنَّما يَأْتِي بذكر بَعْضِ عناصِرِ كَوْنِهِ رَبَّ العالمين، فيَذْكُرُ أنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ في عَقْلِهِ خَلَلاً.

فَتَابَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ بيانَهُ الّذي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ أيضاً رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأوّلين السَّابقين، الّذين ماتُوا عند انتهاء آجالهم في الحياة الدُّنيا.

❀ ❀ ❀

وهُنا يَأْتي مَا جاء بَيَانَهُ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف ٤٥/ نزول) تَكْميلاً لما طُوِيَ في نصّ سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه) حكايةً لما دَلَّ عليه قولُ فِرْعَون لموسَىٰ عليه السّلام:

• ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾:

استغلّ فرعونُ حديثَ مُوسىٰ عليه السَّلام عن آبائهم الأوّلين، فطرَحَ عَلَيْهِ هذا السّؤال.

[فَمَا بَالُ]: أي: فما شَأْنُ وَمَا حَالُ الأُمَمِ السَّابِقة، الّتي مَاتَتْ وتَفَتَّتَتْ ذَرَّاتُ أجْسَادِهَا في تُرَابِ الأَرْضِ، ولم تَبْقَ لهم حياةٌ ولَا حركةٌ ولَا أجْهِزَةٌ يُحِسُّونَ بها، هل صاروا عَدَماً، أم سوف يحاسبون ويجازَوْنَ كما تزعم، وقد ضَلُّوا في الأَرْضِ ولم يَبْقَ لهم أثر؟!.

البَالُ: الشأنُ والحال.

القُرون: جمع «القَرْن» وهم أهل زمانٍ واحدٍ كانُوا يعيشون فيه.

فأجابَ موسَىٰ عليه السّلام بما جاء بيانُ معناه في سورة (طه) أيضاً:

• ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾:

أي: إنَّ خَلْقَهُمْ أَوَّلاً بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً، قد كان مسبوقاً بقَدَرٍ وقضاءٍ فيه تفصيلُ كلِّ جزئيَّةٍ من ذواتهم وصفاتهم طوال رحلة حياتهم، وهذا قد كانَ مَشْمُولاً بعلم الله الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وبَعْدَ أنْ مَرُّوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِم في الحياة الأولى، كان العلم الرَّبَّانيُّ مُحِيطاً بكلّ ما كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا من أعمالٍ ظاهرةٍ أو باطنة، جَسَدِيَّةٍ أو نفسيَّة.

فإعادَتهم إلى الحياة الأُخرى للحسابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجَزَاءِ هيِّنٌ عَلَيْهِ، إذْ يُعِيدُ خَلْقَهُمْ ويَبْعَثُهُمْ إلى الحياة الأُخْرَى، كما بَدَأَ خَلْقَهُمْ.

وإجابَةُ موسَىٰ عليه السلام قد تناولَتْ من هذا الدليل جانب العِلْمِ الرَّبَّانيّ، ليفهم فرعَوْنُ، وأذكياءُ مَلَئِهِ لَوَازِمَ هذا العِلْمِ من القدرة على الإعادة، كما كانت القدرة على البَدْءِ، وأمّا الحساب والجزاء فمن لوازم كَوْنِ الرَّبّ حكيماً، لا يجعل المُسْلِمَ كالمُجْرِمَ، ولَا المُحْسِنَ كالمُسيءِ.

وهٰذه الإجابة اشتملَتْ على قضيَّتَيْن، ويلزم من بيانهما عَقْلاً قضيَّةٌ ثالثة:

القضيَّة الأُولىٰ: أنّ عِلْمَ الْقُرُونِ الأُولَىٰ من البشر، ما يَتَعَلَّقُ بإنشائها الأوّل، وما يتعلَّقُ بذَوَاتِهَا وصفاتها، وما قدَّمَتْ مِنْ أعمالٍ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ في كِتَابٍ لَمْ يُغَادِرْ صَغِيرَةً ولَا كَبِيرَةً إلَّا أَحْصَاهَا، دلَّتْ على هٰذه القضيَّة عبارة: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ﴾.

وقد قرَّبَتْ لَنَا مكتشفات القرن العشرين، عن طريق أدوات تَسْجِيلِ

الصَّوْتِ والصُّورة، عظمة الكتاب الربَّاني الذي يُسَجِّلُ كلَّ شَيْءٍ، حتَّىٰ أحاديثَ النفوس وخواطِرَ الأفكار، ودقائقَ مَا في الخَلَايَا والذَّرَّات.

القضيَّة الثانية: أنّ رَبّي يُحيطُ عِلْمُهُ الّذي هو صفةٌ مِنْ صِفاتِ ذاته، بكلّ ذلك، إذْ يَسْتَحِيلُ عقلاً أن يَتَعَرَّضَ عِلْمُه وهو خالِقُها ومُتَابِعُها بقَاءً وتصاريفَ حكيمةً، بصفات رُبُوبِيَّتِهِ، للضَّلال عَنِ الواقع والبُعْدِ عنه، ويَسْتَحيل عقلاً أن يتعرَّض لِنِسْيَانِ شَيْءٍ منه، وهو محيطٌ بكلّ شيءٍ علماً، ما مضىٰ، وما هو كائنٌ، وما سيكون أو سوف يكون.

دلَّت على هذه القضيَّة عبارة: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾:

[لاَ يَضِلُّ]: أي لا يضيع عن العِلْمِ الحقِّ. **الضَّلَال**: يَأْتي في اللّغة بمعنى الضَّيَاع في المتاهات، بعيداً في مسائل العلم عَنِ الحقِّ والواقع.

[وَلاَ يَنسَىٰ]: أي: ولا يتعرَّضُ لنسيان المعلومات كما تَتَعَرَّضُ الخلائق لذلك، إنّه سبحانه وتعالىٰ مُنَزَّهُ عن نسيان شَيْءٍ ممَّا لَدَيْهِ مِنْ عِلْم.

القضيَّة الثالثة: هي بعضُ لوازم كَوْنِ عِلْمِ القرون الأُولىٰ عِنْدَ الله ربِّ العالمين، في كتابٍ مُدَوَّنٍ فيه كلُّ مَا يُمْكِنُ العِلْمُ به، وفي واسع عِلْمِهِ الشَّامِلِ لكلّ شيء، والذي لا يتعرَّضُ لضلالٍ ولَا نِسْيَان.

وهي أَنَّهُ سَوْفَ يبعَثُهُمْ إلى الحياة مرَّةً أُخرَى، ليحاسِبَهُمْ ويجازيَهُمْ، في زمان يُقالُ له: يوم الدّين.

وهذا اللّازمُ مطويٌّ غير مصرَّحٍ به في النصّ، لكن سبقَ أنْ أَعْلَمَ موسَىٰ عليه السّلام به فرعَوْنَ ومَلأَه.

❁ ❁ ❁

وهنا يأتي مَا جاءَ بيانُهُ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول)

حكايةً لقول فرعَوْنَ، مستغلّاً جَهْلَ معظم مَلَئِهِ بدقائقِ ما تفيدُه أجْوِبَةُ مُوسَىٰ عليه السّلام، ومستغلًّا ما فَرَضَهُ من إلٰهِيَّتِهِ الّتي جعل فيها نفسه معبوداً لقومه، ومستغلًّا خضوعَهُمْ وخُنُوعَهُمْ واسْتِسْلَامَهم لكلّ ما يقول لهم من رأي:

• ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾

قال هٰذا تَهَكُّماً، وإنكاراً لأنْ يكونَ رَسُولاً، أو صالحاً لأنْ يَحْمِلَ رسالَةً من رَبِّ العالمين على ما يَدَّعي.

أي: أنا أسْأَلُهُ عن أشياءَ معيَّنَةٍ، وهو يجيبُ بأجْوِبَةٍ بَعِيدَةٍ عمَّا أسْأَلُه عنه، وهذه من صفات المجانين، وأكَّدَ لَهُمْ جُنُونَهُ بالمؤكدات التاليات: «إنّ ـ والجملة الإسميَّة ـ واللّامِ المزحلقة» أي: بما يَدُلُّ في لغته على مثل هذه المؤكّدات.

ولم يَلْتَفِتْ مُوسَىٰ عليه السَّلام لاتِّهامِ فرعون له بالجنونِ في مخاطبَتِهِ لمَلَئِهِ، بل تابعَ بيانه بقوله الذي دلَّ على معناه قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: رَبُّ العالمين هو المدَبّر والمتصرّف بصفات رُبُوبِيَّتِهِ لمكان شروق الشمس وزمانه، ولشُرُوقها، وحَرَكَتِهَا، ومَسِيرها، والمدَبّر والمتصرّف بصفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لمكان غروب الشمس وزمانه، ولغروبها، وظهور اللّيل والكواكب فيه.

وهو رَبُّ كلّ ما بَيْنَ المشرِق والمغرب من أشياء، وناميات، ورياحٍ وسُحُبٍ وقُوىٰ ظاهرةٍ أو خفيَّة، وظلمةٍ وضياء، وأحياء وبَشرٍ، وغير ذلك.

❁ ❁ ❁

وهُنَا يأتي البيان الذي في الآيات من (٥٣ ـ ٥٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

- قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[مَهْداً]** مصدر «مَهَدَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مِهَاداً]**، أي: فِراشاً.

وفي الجمع بين القراءتين جمعاً تكامليّاً أقول: مَهَدَهَا فَجَعَلَها فِرَاشاً.

يُقالُ لغة: مَهَدَ الفراشَ يَمْهَدُهُ مَهْداً، أي: بَسَطَهُ وَوَطَأَهُ، وجعله مُرِيحاً للجلوس أو الاضطجاع عليه، واسْتِعْمال لفظ «مَهْدٍ» الذي هو مصدر «مَهَدَ» هو من إطلاق المصدر على اسم المفعول، مثل إطلاق الخرق على المخروق، والنقب على المنقوب، مع احتمال أن يكون لفظ «مَهْد» يراد به سرير الطفل الممهّد، فيكون على التشبيه كالمهاد، والتكامل مع هذا هو على معنى أن بعض الأرض كالمهد، وبعضها كالمهاد.

تمهيد:

هذه الآيات الأربع جاءت بياناً مُباشراً من الله عزّ وجلّ لا على سبيل حكايَةِ مقالات موسَىٰ عليه السلام لفرعون وملَئِهِ، مع أنَّها تابعة في أفكارها لمقالاته، وقد جاءت بمثابة تَكْميلٍ للبيان الذي قَدَّمَهُ موسَىٰ عليه السّلام لفرعون وملئه، وهذا البيان التكميليّ جاء ضِمْنَ البيان الذي يحكي بدلالاته مقالات موسىٰ عليه السَّلامُ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ.

ويظهر لي أنّ الغَرَضَ الدَّلَالَةُ على أنَّ ما قاله موسَىٰ حقٌّ وصِدْق، وأنَّه تعبيرٌ عمّا أمَرَهُ الله ببيانه للقوم، بدَلِيل أنّ الله عزّ وجلّ أكْمَلَهُ ببيان مضافٍ من عنده، كشأن التلميذ حينما يقولُ قولاً في مسائل علميّة بحضور أستاذه، فيبادر الأستاذُ فيضيف كلاماً تكميليّاً من عنده، قاطعاً حديثَ تلميذه قَطْعاً مؤقّتاً، ليُشْعِرَ مُسْتَمِعي حديثِهِ بأنّه مُوافِقٌ كُلَّ الموافقة على أقوال تلميذه في المسائل الّتي أبانَها وشرَحَها، وليشعِرَهم بأنَّها بمثابة أقوال صادرة عنه شخصيّاً، وهذا فَنٌّ قُرْآنيٌّ تكرَّر في عِدَّةِ سُور من القرآن المجيد.

وليس مستبعداً أيضاً أن يكون المراد بإيرادها بياناً مباشراً من الله عزّ وجلّ، الإشعارَ بأنّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قد قال نظيرها بلسانه لفرعون وملئه، فقال في عبارة لهم نحو ما يلي: الذي جَعَلَ لكم الأرض مَهْداً ومِهَاداً وسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلاً، وأنزل من السماء ماءً فأخْرَجَ به أزواجاً من نباتٍ شَتَّىٰ، وأباح لكم أن تأكلوا منها ما يفيدكم وينفعكم ولا يضرُّكم ولا يؤذيكم، وأنْ تَرْعَوْا أنْعَامَكُمْ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولي العقول الحصيفة النظيفة المستنيرة، من الأرض خلقكم، وإلى الأرض يُعيدُكم فتكونون فيها أجزاءً من تُرابها، ومن الأرض يخرجُكم في حين آخرَ مرَّةً أُخْرَى.

وعلَّق اللَّهُ عزّ وجلّ عليها بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وكان من أمْرِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ ذلكَ أنَّنا أَرَيْنَاهُ آياتِنَا التِّسْعَ كلَّها في سنين عَدِيدَة، قَبْلَ أنْ نَأْمُرَ مُوسَىٰ بالخروج ببني إسرائيل من مصر، وقبل أن يُتابعهم فرعَوْنُ وآله وجنوده لقتالهم، وقَبْلَ أن يتمّ في هذا الحدَث فَلْقُ البحر لموسَىٰ وبني إسرائيل، وعبور بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون من مكان الفلْق، ومتابعة الجيش الفرعوني لهم بقيادة فرعون من مكان الفلق

نَفْسِهِ، وضمِّ مياه البَحْرِ عليهم، وإغراقهم جميعاً، بَعْدَ نجاةِ بني إسرائيل.

وكانت هٰذه الآية بمثابة فاصِلَةٍ أنْهَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها بيانَهُ المباشر.

وفي هذا الأُسْلُوب البيانيّ أيضاً، إشعارٌ بأنّ مقالات موسَىٰ عليه السَّلام لفرعون ومَلَئِهِ، هي مقالات منزَّلَاتٌ عَلَيْهِ من رَبِّهِ، فكأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هو الذي يخاطِبُهُمْ بها على لِسانِ نبيّه ورسُوله موسَىٰ عليه السَّلام، مع جعل صيغة الكلام بأسلوب حديثٍ من موسى لهم، لا بأسلوب: يقول رَبُّكُمْ كذا وكذا.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ـ وفي القراءة الأخرى [مِهَاداً] هذا خطاب من الله عزّ وجلّ مُوَجَّهٌ للناس جميعاً.

أي: ورَبُّكُمْ هُو الذي جَعَلَ لكم الأرض بمثابَةِ الفراش الممهَّدِ الصالح لراحة الجالِسِ أو المضطجع عليه.

وفي هذا تشبيهٌ لمعظم سَطْحِ الأرض بالفراش الممهَّدِ المَبْسوط، نظراً إلى مَا في معظم سطحها من انبساطٍ، في السُّهول، والوديان، وفي مواضع من الجبال، ونظراً إلى جَعْلِها صالحة للتسوية والتمهيد، بأعمال التعرية، والتكسير، والحفر، والتجريف، والنقل.

ولولا هذا الجَعْلُ الرَّبَّانيُّ الحكيم في تكوين الأرض، لكانَ من الممكن أن تكونَ صُلْبَةً شديدَةَ القساوة، وأنْ تكونَ على شَكْلِ مُرْتَفعاتٍ ومنخفضاتٍ كأشواك ظهر القنفذ، لا تَصْلُحُ لإقامَةِ الناس عليها، ولا تصلُح للانتفاع بها بأعمالٍ يستطيع الناس القيام بها، منها أعمالُ البناء والتعمير، وأعمال التمهيد والتسوية، ومنها أعمال الحرث والزَّرْع، وأعمال

شقّ الطُّرُق، وتمهيد السُّبُل، وتكسير الصُّخُور ونحتها، وحَفْرِ الأنفاق، وحفر الآبار، إلى غَيْر ذلك من أمور كثيرة، جالبة منافع ومصالح للناس، ولو بمشقَّة وأعمال صعبة.

وكُلُّ ذلك بسبَبِ أنَّ الله قد جعلَها للناس مهداً، وجَعْلَها مِهَاداً، كالفراش الصالح للبَسْطِ والتمهيد، والتسويَةِ، والجلُوسِ والاضطجاعِ عليه، براحةٍ تُلائم أجسادهم ومصالِحَهُمْ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾:

[**وَسَلَكَ لَكُمْ**]: أي: وأدْخلَ وأنفذ لكم. يُقالُ لغة: «سلَكَ، يَسْلُكُ، سَلْكاً، وسُلُوكاً»، أي: دَخَلَ ونفَذَ، ويقال: «سلَكَ الشَّيْءَ، في الشَّيْءِ، وسَلَكَهُ به»، أي: أدخله فيه.

فالمعنى: وأدْخَلَ وأنفذ لَكُمْ في الأرض سُبُلاً تَسْلُكُونَ فيها، لتَصِلُوا إلى ما تريدون الوصول إلَيْهِ من أماكن ومواضع في الأرض.

السُّبُل: جمع «السبيل» يُذكّر ويُؤَنَّث، وهو الطريق، وما وضَحَ مِنْه.

هذه العبارة: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ صالحةٌ للدَّلَالَة على ما جعل الله عزَّ وجلَّ في الأرض من سُبُلٍ صالِحَةٍ للسُّلُوكِ فيها، قَبْلَ خَلْقِ الناس، وصالحة للدَّلَالَة على ما منح اللَّهُ الناس من قُدْرات يشُقُّون بها الطُّرُق، ويُمَهّدون بِهَا السُّبُل.

فما منحَ اللَّهُ النَّاسَ القُدْرَةَ على عَمَلِهِ وصُنْعِهِ، وما جَعَلَ في الأشياء من مطاوعة لأعمال العاملين، وصُنْعِ الصَّانِعين، كلُّهُ من خلق الله ومن جَعْلِهِ في كَوْنِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وسَمَتْ حكمتُه ـ فنتائج أعمالِ عبادِهِ هي من جَعْلِهِ عزّ وجلّ، لأنّها من آثار ما مَنَحَهُمْ وهَيَّأَ لهم، ولولا ذلك ما استطاعوا أنْ يَعْمَلُوا شَيْئاً، وما اسْتَطَاعُوا أنْ يَصْنَعُوا شيئاً.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾:

[مِنَ السَّماءِ]: أي: من السَّحَابِ الواقع في جهة العُلُوّ بالنسبَةِ إلى سُكَّانِ الأرض.

السماء: هي في اللُّغة كُلُّ ما عَلَا فَأَظَلَّ، وسَمَاءُ كلّ شَيْءٍ أعلاه. وأصْلُ لفظ «سَماء» مَصْدَرُ: «سَمَا، يَسْمُو، سُمُوّاً، وسَماءً» أي: علا، وارتفع، وتطاول، ثُمّ أُطْلِقَ على كُلِّ ما هو في جهةِ العُلُوِّ بالنِّسْبَةِ إلى المكانِ الذي يُوجَدُ فوقه مَا هو سامٍ عَلَيْهِ، وفي جهة العلوّ بالنسبة إليه.

فالسّقْفُ سماءٌ بالنسبة إلى ما تحته، والمظلّة سماء بالنسبة إلى المستظلّين بها، والسَّحابُ سماء بالنسبة إلى سُكّان الأرض، والغلاف الغازيّ سماء بالنسبة إليهم أيضاً.

أي: وربُّكُمْ هو الذي أنزل من السّماء ماءً.

وجاء وصف هذا الماء الذي يَنْزِل من السَّحاب في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بأنّه طَهُورٌ، أي: طاهرٌ بنفسه مُطَهّرٌ لغيره، فقال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿...وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

وجاء وَصْفُهُ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بأنَّه مبارَك، أي: كثير الخير وكثير النفع، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا... ﴿٩﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿...فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾:

في هذه العبارة التفاتٌ من الحديث عن الغائب، إلى التكَلُّم، وهٰذا الالتفات من محاسن الفنون البلاغية، لما فيه من إثارةٍ للانْتِبَاهِ.

وجاء في هذه العبارة استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنّ الموضوع الذي جاء بيانُه فيها يتعلّقُ بخَلْقٍ إبداعيّ عظيم، من الرّبّ الجليل العظيم.

أي: فأخْرَجْنَا بالماءِ الذي أنْزَلْنَاهُ من السَّحاب، وجَعَلْنَاهُ سبباً من أسْبابنا، أصْنافاً كثيرةً من نَباتٍ مُتفرّقٍ في بِقاعِ الأرض.

[أَزْواجاً]: أي: أجْناساً وأنواعاً وأصنافاً، جمع «زَوْج» بمعنى: جِنْسٍ، أو نَوْعٍ، أو صنف.

[شَتَّى]: أي: مُتَفَرِّقَةً، جمع «شَتِيت» أي: متفرّق.

وهذه ظاهرة من ظواهر إنْعام الله على عباده في الأرض، إذْ أخْرَجَ منها بالماء المبارك نباتاتٍ ذوات أجناس، وأنواع، وأصناف كثيرة، فمِنْهَا ما هو لغذاء الناس ولذّاتهم واستمتاعاتهم، ومنها ما هو لغذاء سائر الأحياء في الأرض، ومِنْها ما هو للدّواء وأنواع العلاجات، ومنها ما هو للانتفاع به في اللّباسِ والعِمْران كالأقطان والأخشاب، ومنها ما هو للانتفاع به في إعداد المطاعم والمشارب ونحو ذلك، ومنها ما هو للانتفاع به في الصناعات المختلفات، كالقُطْنِ والمطّاط، إلى غير ذلك من منافع لا يَسْتطيع الناس إحْصاءَ مفرداتها.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾:

في هٰذه العبارة التفاتٌ من التكلّم إلى خطاب النّاس، أي: كُلُوا يا أيُّها الناسُ ممّا أخْرَجْنَا لَكُمْ من الأرض، مما هُو صالحٌ لأنْ يُؤْكَلُ دُون أن يُحْدِثَ ضَرراً أو أذىً، ممّا فيه غذاؤكم، ولذاتُ مطاعِمِكُمْ كالفواكِهِ والتّوابل. وارْعَوْا أنْعَامَكُمْ الّتي خلقناها لكم، لطعامكم وشرابكم، وكثير من مَصَالِحِكُمْ ومَنَافِعُكم كحملكُمْ وحَمْلِ أثقالكم، وجَرِّ عَرَباتكم، وحَرْثكم، وكاستخدامكم لأصوافها وأشعارِهَا وأوبارها، لصناعة ملابِسِكُمْ، وفُرُشِكُمْ، وغير ذلك من منافع كثيرة.

صيغة فعل الأمر في «كُلُوا» وفي «وَارْعَوْا» هي للإذن والإباحَة، بشرطِ اجْتِنَابِ ما حرَّم الله منها، ممّا فيه ضَرَرٌ أَوْ أذىً، كالنَّباتاتِ السامَّاتِ، والنباتات المخدّرات، الّتي خلَقها الله للاستعمالات الدوائيّة، بمقادير محدَّدة تستعَمْل عند الضرورة العِلَاجِيَّة، وهذه القيودُ قد دَلَّتْ عليها نصوصٌ أخرى، وفق المنهج التكامليّ في دلالات النّصوص.

[وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ]: أي: واجْعَلُوها ترعَىٰ من نباتات الأرض، بإرْسالها في المراعي، أو وَضْعِهَا فيها، أو جَلْبِ ما تَرْعَاهُ إليها.

يقال لغة: رعَىٰ الراعي ماشيته، أي: جَعَلَهَا تَرْعَىٰ.

ويقال: رعَىٰ الحيوانُ النبات، أي: أَكَلَه.

الأنعام: هي الأمْوالُ الراعيَة، وهي الإبلُ والبقر والغنم، ولفظ «الأنعام» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

الآيات: هي العلامَاتُ الدَّالّاتُ على معنىً ما، وتُسْتَعْمَلُ الآية الكونيَّة، فيما فيه دلالَةٌ قوِيَّةٌ إعجازيَّة، على صفة أو أكثر من صفات الرَّبّ الجليل، ومعلومٌ أنَّ إثبات الصفة يستلْزِمُ عقلاً إثباتَ الموصوف بها.

﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لأصحاب العقول الواعية الدَّرَّاكَة لآياتِ الله في كونه.

النُّهَىٰ: هي العقول، ومُفْرَدُها «النُّهْيَةُ».

والمعنى: أنّ أصحاب العقول الحصيفة النُّظيفة الدَّرَّاكة، يَفْهَمُون أنَّ جَعْلَ الله الأرض مهداً ومهاداً، وسَلْكَ سُبُلٍ فيها، وإنزالَ ماءٍ من السَّمَاءِ كان به إخراج أَصْنَافٍ كثيرةٍ من نباتٍ شَتَّىٰ، يُقَدِّم آياتٍ جَلِيلاتٍ تدلُّ على

طائفة عظيمة من صفاتِ الرّبّ الخالق، الدَّالَّاتِ على وُجُودِهِ، وعلى رُبُوبِيَّتِهِ الدائمة لكونه، إيجاداً، وإمداداً، وبقاءً، وتصاريف، وإحياءً، وإمَاتَةً، وإفناءً، وإعداماً، وإعادة متى شاء، وعلى ما يشاء.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: عودةً إلى الحياة أُخرىٰ، يقال لغة: «تَاوَرَهُ الأَمْرُ» أي: عاوَدَهُ تارَةً بَعْدَ تَارَة. **التَّارَة**: المدَّةُ والحين.

والمعنى: من الأَرْض، أي: من ترابها ومائها خَلَقْنَا أجْسَادَكم، وإليها نُعِيدُكُمْ فنجعَلُكُمْ فيها، ضِمْنَ تُرابها، وأجزاءً منها، ومنها نخرجكُمْ في حينٍ آخر، فنُعِيدُكُمْ إلى الحياةِ مرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتحقيق الجزاء.

ضمّن فعل: [**نُعِيدُكم**] معنى فعل: نجعلكم، أو نُدْخلكم، فعُدّي تَعْدِيَته.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: ونُؤَكّدُ أنَّا أَرَيْنَا فِرْعَوْنَ آياتِنا التِّسْعَ كلَّها، التي آتَيْنَاهَا موسَىٰ، فلَمْ يَعْمَلْ بما فَرَضَتْهُ عليه دلَالَاتُهَا، بلْ كَذَّبَ بها، وكذَّبَ رَسُولَيْنا مُوسَىٰ وهارون، وأبَىٰ أن يُؤْمِنَ بالحقِّ، استجابَةً لدَعْوَتِهِمَا، وخُضوعاً لدلالات آياتنا الباهرات المعجزات.

في هٰذه الآيَةِ نقلَةٌ إلى آخر تاريخ دَعْوَةِ موسىٰ وهارون في مِصْر، قُبَيْلَ أنْ يَأْمُرَ اللَّهُ مُوسَىٰ بأنْ يخرجَ ببني إسرائيل متَّجِهاً شطر سِيناء.

وهذه النَّقْلَةُ الّتي لا تُتَابعُ سَوَابِقَها، ولا تَتَلاءَمُ مع ما جاء بَعْدَها من

بيانٍ في السّورة، قَدْ جَعلَهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ فاصِلَةً خاتِمَةً لكلامه المباشر، الذي جاء معترضاً بَيْنَ فقرات قِصَّةِ مُوسَىٰ مع فرعون وملئه.

* * *

وهنا يأتي بيانٌ جاء في النَّصّ الذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

لقد ضاق صَدْرُ فِرْعَوْنَ من رُدُودِ موسَىٰ عليه السّلام، الدَّقيقة والمحكمة، فلَمْ يَجِدْ لدَيْهِ إلَّا وسيلَةَ التهديدِ الأوّليّ بالسّجْنِ.

أي: قال فرعَوْن لموسَىٰ عليه السّلام: لَئِنْ اتَّخَذْتَ مَعبوداً تطيعُه وتَعْبُدُهُ غَيْري، لأَجْعَلَنَّكَ في السّجْنِ مع المسجونين من العصاة والمجرمين.

وهنا جاء دَوْرُ ما آتاه الله من آيَتَيْنِ باهِرَتَيْنِ لإخافَتِهِ، ورَدْعِهِ عن أن يَتَصَرَّفَ تصرُّفاً فيه إيذاءٌ له ولِأَخِيهِ هارون، فقال له ما جاء بيانُه في الآية التالية:

- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: أتَأْمُرُ بسَجْنِي ولو جِئْتُكَ بشَيْءٍ عظيم، يبيّن لك أنّي رسُولُ رَبّ العالَمِين حقّاً وصِدْقاً؟

- ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: قال فرعونُ لموسى عليه السّلام: فَأْتِ الآنَ بهذا الشَّيْءُ المُبِينِ الّذِي ذكَرْتَهُ، إنْ كُنْتَ من الصادقين في أنّكَ نبيٌّ ورسُولٌ من رَبّ العالمين.

- ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فألقى موسىٰ عليه السَّلامُ عَصَاهُ، ففَاجَأَتْ فرعَوْنَ ومَلأَهُ بتَحَوُّلِهَا ثُعْباناً واضحاً جَلِيّاً مُرْعِباً مخيفاً.

وأدْخَلَ يَدَهُ في جَيْبِهِ[1] إلى إبطِهِ، وأخرجها فَفَاجَأَتْ القَوْمَ بتَحَوُّلها بَيْضاء مُتَلأْلِئَةً كالبَرْقِ اللّامِعِ.

وأدْهَشَ بهاتَيْن الآيَتَيْنِ فرعَوْنَ وملأَهُ في مَجْلِسِهِ، وأدْرَكَ فرعون قُوَّة تأثيرهما على من حَوْلَهُ من قومه، وأراد أن يتدارَكَ الموقف الصَّعْبَ:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فرَدَّدَ مَلَؤُهُ مقالته، وهو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم . . .﴾.

عندئذ قال لهم فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كما جاء في سورة (الأعراف) في الآية (١١٠)، وفي سورة (الشعراء) في الآية (٣٥).

أي: فما الشيء الذي تشيرون به عليّ. يُقال لغةً: «أَمَرَ فلاناً بشيء» أي: أشار به عليه.

• ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء).

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ (الأعراف)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: [سَحَّارٍ] كنصّ (الشعراء).

---

(١) الجيب: فُتْحَةُ الثوب عند الصدر.

[أَرْجِهْ]: أي) «أَرْجِئْهُ»، وهي قراءةٍ جاءت في النصّ الذي من سورة (الأعراف)، والمعنى: أخِّرْهُ وأجِّلْهُ، يُقالُ لغة: أَرْجَأَهُ، أي: أَجَّلَهُ، أوْ جَعَلَ لَهُ أجلاً.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أجلاً مُحَدَّداً، لإجراء مباراة سحريَّة بَيْنَهُ وبَيْنَ سَحَرَةِ مصر، وأرْسِلْ مَبْعُوثين من قِبَلِك، لِلْبَحْثِ في المدائن المصريَّة عن كلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ولو لم يكن ماهراً، وعن كُلِّ سحَّارٍ عليم ماهر، وحاشِرِين إليكَ من يَجِدُونَ من السَّحَرَة في مصر، إعداداً للمباراة الّتي تُقِيمُها بَيْنَهُ وبينهم.

❁ ❁ ❁

وهنا يأتي بيانٌ جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

● ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾:

اتّهَمَ فرعَوْنُ موسَىٰ عليه السّلام بأنّ هَدَفَه انتزاعُ حُكْم مِصْرَ من فرعون وآله وأنصارهم، فوصَف أنَّ الآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ جاء بهما هُما من أعمال السّحر، وأنّه اتّخذهما ليأْذَنَ له بإخراج بني إسرائيل من مصر، وليُعِدّ مِنْهُمْ جيشاً، ثمّ يعود بهذا الجيش فاتحاً مصر، ومُنْتَزِعاً مُلْكَها بالقوّة، ومخرجاً من مصر أوْلياء أمْرِهَا وكلَّ أنصارهم، أي: ليَجِدُوا أنْ لَا نَجاةَ لهم من قوّة جَيْشِهِ المقاتل إلّا الفِرار، والخروج من مصر هاربين حَذَرَ القَتْل.

وإذْ وضَعَ فِرْعَوْنَ هذا التَّصوُّرَ في ذِهْنِهِ، قال لموسى عليه السَّلام: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وكان السِّحْرُ حينئذٍ هو القوّة المعنويّة الْمُرْهِبَة لعامّةِ الشَّعْبِ المصري، وكان أمراً شائعاً في المدائن المصريّة.

وقال له: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾: و[سِوىً] في قراءة نافع، وابْن كثير، وأبي عَمْرو والكسائي، وأبي جعفر.

[مَوْعِداً]: **الموعد**: يُطْلَقُ على الوَعْدِ، وعلى مكانه، وعلى زَمَانِهِ. أي: حَدِّدْ بوَعْدٍ مِنْكَ مَكانَ المباراة الّتي سَنُجْرِيها بَيْنَك، وبَيْنَ سَحَرَتِنا، وحَدِّدِ زَمَانَها، واخْتَرْ أنْ يكونَ المكان بَيْنَكَ وبَيْنَ سَحَرَتِنا مكاناً سُوىً، أي: مكاناً مُتَساوي المواقع بالعَدْل.

المكانُ السُّوى: هو المكان المعتدل الذي يكون فيه فَرِيقا المباراة متعادِلَيْن في كُلِّ شيء.

وأعْطى فِرْعَوْنُ مِنْه وعداً بأنْ لا يُخْلِفَ إحضارَ سَحَرَتِهِ المباراة، في الزمان والمكان الّذي يُحَدِّدُهُ مُوسَىٰ عليه السلام، وطَلَبَ مِنْهُ أنْ لَا يُخْلِفَ حُضُورَهُ هٰذه المباراة.

فوافق موسَىٰ عليه السلام، وقال لِفِرْعَوْنَ ما جاء بيانه في الآيَةِ التالية:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾:

كان للمصريّين حينئذٍ عِيدٌ يَخْرُجونَ فيه من مساكنهم مُتَزَيِّنِينَ، ويَلْتَقُون في مكانٍ واسعٍ جامع، يَأْكُلُونَ ويَشْرَبُون ويَمْرَحُونَ ويَلْعَبُونَ فيه، كشأنِ معظمِ الأمَمِ في أعيادها.

فاختار موسى عليه السَّلام ذٰلِكَ اليَوْمَ لإجراءِ المباراة، ليكُونَ أجْمَعَ للنّاس، واختارَ المكانَ الّذِي يَلْتَقِي النّاس فيه يومَ عيدهم، لأنَّهُ مكانٌ واسع، وفيه مَوْضِعٌ سُوىٰ لإجراء المباراة.

[مَوْعِدُكُمْ]: أي: زَمَانُ إجراء المباراة ومكانه، وهو مبتدأ.

[يومُ الزِّينَة]: هو الخبر، واقْتَصَرَ على ذِكْرِ اليوم دون ذكر المكان، لأنّ يومَ الزينة له مكانٌ معروف محدَّدٌ عِنْدَهُمْ، يَلْتَقُون فيه يَوْمَ عيدهم، فتَعْيينُ هذا اليوم يتضمَّن تَعْيينَ المكان.

وطلَبَ مُوسَىٰ عليه السّلام من فرعون بأنْ يُحْشَرَ الناسُ في ذلكَ المكان وقْتَ الضُّحَىٰ، لإجراء المباراة في ذلك الوقت المناسب تماماً للحضور والاجتماع، ومشاهَدَةِ المباراة، وفي طلَبِهِ حَشْرِ الناس تحَدٍّ ظاهر.

الحَشْرُ: الجَمْعُ والسَّوْق، يُقال لغة: «حَشَرَ الأمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ ويَحْشِرُهم» أي: جَمَعَهُمْ وساقهم.

الضُّحى: هو الوقت الذي يكُونُ ما بَيْنَ ارتفاع الشمس أوّل النهار حتى الزوال.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: أي: فانْصَرَفَ عن مجلِس هٰذه المواعدة بَيْنَه وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام.

التَّوَلّي: الإدْبار، والنأي، ومن أدْبَر ونَأىٰ فقد انْصَرَف عن المكان الذي كان فيه.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: أي: فجمع سَحَرةَ المدائن المصرية الَّتي يُرِيدُ أن يكيدَ بهم، ضِدَّ آيَتَيْ موسَىٰ عليه السّلام.

الكَيْد: التدبير الخفيّ والظاهر بحقٍّ أو بباطل، فيه مكرُوه لِمَنْ دُبِّر ضدّه. ويُطْلَقُ الكَيْدُ على الحَرْبِ وإعداد وسائلها. ويُطْلَقُ على الحيلَة، وعلى كلّ تدبيرٍ يَرْجُو صاحِبُهُ به النَّصْرَ، أو النجاة.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إعدادٍ في زَمَنٍ متراخٍ لكَيْدِهِ، أتىٰ لحضور المباراة في الزمان والمكان اللَّذَيْنِ تَمَّ التواعُدُ لإجراء المباراة فيهما.

❋ ❋ ❋

وهُنا يأتي مَوْقع بيانٍ جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝٤٠﴾:

وبيان آخر جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾:

وبيانٍ ثالثٍ جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾:

وقرأ حمزة، والكسائيُّ، وخلَفٌ: **[بِكُلِّ سَحَّارٍ]**: أي: عليمٍ ماهرٍ في السّحر. وجمعاً بَيْنَ القراءتَيْنِ نَفْهَمُ أنَّهُ طلبَ إحضارَ كُلِّ ساحِرٍ عليم ولو لم يكن ماهراً بارعاً في سِحْرِهِ، وإحضارَ كلّ سَحَّارٍ عليم ماهرٍ بارعٍ في سِحْرِهِ.

هذه النصوص الثلاثَةُ متكاملاتُ الدَّلالاتِ فيما بَيْنَهَا.

- فالنّصّ الذي من سورة (يونس) أبَانَ أنّ فِرْعَوْنَ أمَرَ مَنْ تَحْتَ سُلْطَانِهِ بأنْ يَأْتُوهُ بكلِّ ساحرٍ عليم، وبكلِّ سحَّارٍ عليم.
- والنصّ الذي من سورة (الشعراء) أبان أنَّ السَّحَرَةَ قَدْ جَمَعُهُمْ

جُنُودُ فرعون لإجراء المباراة في ميقاتِ يومٍ معلوم، وهو الميقات الّذي عيَّنَهُ موسَىٰ عليه السلام، وهو يومُ الزينة.

• والنصّ الذي من سورة (الأعراف) أبَانَ أنَّ السَّحَرَةَ جاؤُوا إلى فِرْعَوْنَ وقالوا له: أئِنَّ لَنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبين، فقال لهم فِرْعَوْنُ: نَعَمْ، وإنَّكُمْ سَتَكُونُونَ عندي من المقرَّبين الّذين أُنْعِمُ عليهم، وأُلَبِّي مَطَالِبَهُمْ.

وجاءَ تأكيد ما جاء في هذا النصّ مع تغييرٍ يسيرٍ في بعض العبارة يتضمَّنُ إضافة بيانية، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عبارة [فَلَمَّا]، أي: فَحِين جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا له... فدَلَّ هذا البيان على أنَّ السَّحَرَةَ طالَبُوا فرعون بالأجْرِ مُنْذُ وَقْتِ وصولهم إليه، وإخباره إيَّاهم بالمهمّة الّتي يُكَلِّفُهُمْ إيّاها.

وأضاف أيضاً كَلِمَةَ «إذاً»، أي: وإنكم حينئذٍ سَتَكُونُونَ مِنَ المقرّبين إليّ، الّذين يحظَوْنَ بإنْعَامَاتي.

تدبّر بعض الفقرات:

• ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ (الشعراء):

أي: فَجَمَعَ جُنودُ فرعَوْنَ السَّحَرَةَ، لإجراء المباراة في الموعِد المحدَّد زماناً ومكاناً، فصارَ مَعْلُوماً لكلٍّ من بَلَغَهُ خَبَرُ المباراة.

[لِمِيقاتِ]: اللّام للتعليل، وفي العبارة محذوف، تقديره: لحضور المباراة في ميقاتِ يوم معلوم.

الميقات: الوقت المُعَيّنُ لفِعْلٍ ما. والموعِدُ الذي جُعِلَ لَهُ وَقْت، والمَوْضِعُ الّذِي جُعِلَ لشيءٍ يُفْعَلُ عِنْدَه.

• ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (الشعراء): أي: وقال مُذِيعُو نبأ المباراة على سبيل العرض لا الإلْزام: هَلْ أنْتُمْ مجتمعون؟ وفي هذا العرض تَرْغيب في الحضور، فالاستفهام في العبارة استفهامٌ يُرادُ به العَرْضُ الترغيبيّ.

• ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: رَاجِينَ أنْ نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ، فنَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ السِّحْرَ، ونَعْمَلَ مِثْلَ أعمالِهِمْ، إنْ كانُوا هُمُ الغالبينَ في المباراة بينهم وبين موسَىٰ الَّذي يقُولُ: إنَّ ما جاء به هو مِنْ آياتِ رَبِّ العالمين، الَّذِي يَدْعُو إلى الإيمان به، والإسلام له، هو وأخوه هارون.

❁ ❁ ❁

تابع التدبّر التحليليّ للدّرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السلام

الفقرة الثالثة
الآيات من (٦١ ـ ٧٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ

مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

القراءات:

٦١ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، ورويس، وخلف: [فَيُسْحِتَكُمْ] من فعل «أَسْحَتَ الشَّيْءَ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أثراً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَيَسْحَتَكُمْ] من فعل: «سَحَتَ الشَّيْءَ» أي: اسْتَأْصَلَهُ فَلَمْ يُبْقِ لَهُ أثراً.

فالقراءتان متكافئتان لغة.

٦٣ • قرأ ابْنُ كثير: [إِنْ هَذانِّ] بتشديد النون المكسورة مع المدّ المشبع. وقرأها أبو عَمْرٍو: [إِنَّ هٰذَيْنِ]. وقرأها حفص: [إِنْ هَذانِ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة [إِنَّ هٰذَانِ].

«إِنْ» في قراءتي: ابْن كثير، وحفص، هي المخفّفة من الثقيلة، وهذه يجوز إعمالُها، ويجوز إهمالُها، والأَرْجَحُ في اللّغة إهمالُها، كما في هاتَيْنِ القراءتين.

و«إنّ» في قراءة أبي عمرو جاءتْ ثقيلةً عاملةً بحسب الأصل.

وأمّا قراءة باقي القرّاء العشرة: [إِنَّ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ] فأحْسَنُ توجيه لها أنّها جاءت على لغة من يجعلون المثنىٰ كالمقصور، يُرْفَعُ ويُنْصَبُ ويُجَرُّ بالألف، وهي لغة عَدَدٍ من قبائل العرب، فحرَكات الإعراب تكونُ مُقَدَّرَة غَيْرَ ظاهرة.

وأمّا تشديدُ النون في قراءة ابن كثير فقد ذكر النحويّون لها عدَّة توجيهات متكلَّفات، وأرىٰ أنّ النون الثانية أضيفت للتأكيد، فصارت النون المشدَّدَة شبيهةً في تأكيدها لنُون التوكيد الثقيلة في نحو: «لَتُنْصَرَانِّ ـ لَتَسْعَيَانِّ ـ لَتَرْمِيانِّ» ومعلومٌ أنّ الزيادات التوكيديَّة في اللّسانِ العربيّ كثيرة. والشَّبَهُ هنا واضح بَيْنَ: «إنَّ هٰذَانِّ» وبَيْنَ «لَتُنْصَرَانِّ» في إرادة التوكيد.

وهذه القراءات من التفنُّن في التعبير، ومن مراعاةِ بعضِ اللّغاتِ العربيّة.

٦٤ • قرأ أبو عمرو: [فَأَجْمَعُوا] من فعل: «جَمَعَ يَجْمَعُ» يقال لغة: جَمَعَ المتفرّق، أي: ضمّ بعضه إلى بعض.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَأَجْمِعُوا] من فِعْل: «أجْمَعَ يُجْمِعُ» يقال لغة: أجمع الأمْرَ، أي: أحْكَمَهُ وجمع متفرّقه.

ومؤدَّى القراءتين واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

٦٦ • قرأ ابن ذَكْوَانَ ورَوْح: [تُخَيَّلُ] بالتاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُخَيَّل] بالياء.

القراءتان وجهان جائزان متكافئان في اللّسان العربي.

٦٩ • قرأ البَزّي في الوَصْلِ [تَّلَقَّفْ] بتَشْديد التاء، وفتح الام وتشديد القاف المفتوحة، وبالجزم.

ـ وقرأ ابن ذَكْوان: [تَلَقَّفُ] بفتح التاء واللام وتشديد القاف المفتوحة ورفع الفعل، دون ملاحظة أنّه جواب الطّلب، وهو جائز عند النحاة.

ـ وقرأ حفص: [تَلْقَفْ] بإسكان اللام، وتخفيف القاف، وبجزم الفعل.

ـ وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَلَقَّفْ] بفتح اللام، وتشديد القاف المفتوحة، وبجزم الفعل.

والجزمُ هو على أنّه جواب: [وَأَلْقِ].

وفي هذه القراءات تفنُّن في التعبير، وبين تخفيف القافِ وتشديدها تكاملٌ في الأداء البياني، يدُلُّ على أنّ الحيَّة بدأتْ أوّلاً تتلقَّفُ بشِدَّة، حتى إذا لم يَبْقَ إلّا القليل من الحبال والعصي خَفَّفَتْ من شدّتها، فأخَذَتْ تَلْقَف.

٦٩ • قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: [كَيْدُ سِحْرٍ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [كَيْدُ ساحِرٍ].

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وهما من قبيل التفنُّنِ في التعبير.

٧٢ • قرأ ورش، والسّوسيّ، وأبو جعفر: [نُوثِرُكَ] بإبْدال الهمزة واواً.

وكذلك حمزة في الوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة [نُؤْثِرُك] بالهمزة السّاكنة المحقّقة.

وهي وجوه من الأداء في ألسنة بعض القبائل العربية، أنْزِلَ بها القرآن المجيد.

٧٥ • قرأ السوسيّ: [وَمَنْ يَأْتِهْ] بإسكان الهاء.

وقرأها رُوَيْسٌ، وقالون بخُلْفٍ عنه: **[ومَنْ يَأْتِهِ]** بكَسْرِ هاء الضمير من غير صلة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[ومَنْ يَأْتِهِ]** بكسر الهاء مع الصِّلة.

وهي وجوهٌ عربيَّةٌ في الأداء، نزل القرآن بها.

تمهيد:

هذه الفقرة من الدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصة موسىٰ عليه السلام، تَحْكِي لقطات من فصل المباراة الّتي جرت بينه وبين سَحَرَةِ فرعون، وانتصارِ آيته على سِحْرِهِم، في حَشْدٍ جامع عظيم من الشعب المصريّ، ومن مَلِكه فرعون ومَلَئِهِ وجُنْدِهِ، في يوم الزّينة، وفي المكان الذي يقيمون فيه عِيدَهُمْ عادةً، كما عيَّنَ لَهُمْ موسىٰ عليه السلام، بطلَبٍ من فرعون، كما سبقَ بيانه قريباً.

وفيها بيان أنّ انتصار موسَىٰ بآيته قد جَعَلَ السَّحَرة يَخِرُّون ساجدين، ويُعْلِنُونَ إيمانهم برَبّ العالمين، رَبّ موسَىٰ وهارون، الأمر الّذي أغْضَبَ فِرْعَوْنَ أشدّ الغضب، فهدّدهم بأنَّهُ سوفَ يُقَطِّعُ أيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ من خلاف، وبأنْ يُصَلِّبَهُمْ في جذوع النخل إذا أصَرُّوا على موقفهم ولم يتراجعوا.

فلَمْ يَعْبَأ السَّحَرة بتهديداته، بَلْ أصَرُّوا على موقفهم بإيمانٍ صحيح صادق، وأعْلَنُوا إيمانهم بشجاعَةٍ نادرة، وقالوا له: ٱقض ما أنْتَ قاضٍ، إنَّما تَقْضِي هذه الحياة الدُّنيا.

وتحوّل السَّحَرَة من أدواتِ قُوَّةٍ لفِرْعَوْنَ ومَذْهَبِهِ الدّيني، إلى دعاة إلى دين الله الحقّ، إذْ رَأَوْا من البيِّنات الرَّبَّانيَّة ما أدْهَشَهُمْ، وجعلهم على يقين كاملٍ بأنّ ما جاء به موسَىٰ وهارون حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

وقد كانت تفصيلات دعوة موسى وهارون الإيمانيَّة قد بَلَغَتْهُمْ مِنْ قَبْل، إذْ كانا يَنْشُرانِها بين الإسرائيليّين وبَيْنَ المصريّين، وكان المصريّون يَتَنَاقَلُونها عنهما، دون أن يؤمنوا بها، وكانت هذه التفصيلات الإيمانيّة مستقرة في مخازن ذاكرات السَّحرة، فلمَّا رأوا البُرْهانَ العظيم، بابتلاع عصا موسى الّتي انقلبت حيَّةً حقيقيّةً كلَّ حبالهم وعِصيّهم السّحرية، ولم يبق لها أثر، ورأوا أنّ مُوسَىٰ عليه السّلام أقبل إلى الحيّة العظيمة، فتَنَاوَلَها بيَدِهِ فعادت عصاً كما كانت، ولَيْسَ في ساحة المبارات مِنْ أدواتِ سِحْرِم شيء، تيقّظَتْ فيهم فِطَرُهُمُ الإيمانيَّة، وخافوا من عذاب الله المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدّين، تحوّلُوا إلى دُعاةٍ إلى دين اللَّهِ الحقّ.

وربّما تقدّم كبيرهم أو بعض كُبَرائهم يَدْعُونَ فِرْعَوْنَ بالنيابة عن السَّحرة جميعاً، إلى الإيمان بما جاء به هارون وموسى، وأنذروه بعذاب الله يَوْمَ الدّين، في جهنّم دار عذاب المجرمين بالحَرِيق، وأطْمَعُوه بالدّرجات العُلَا في جنَّاتِ عَدْن إنْ آمَنَ وعَمِل صالحاً، لأنّ هذا الثواب العظيم هو ثوابُ كُلِّ مَنْ يَأْتِي رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ صالحاً، وثوابُ كلّ من تَزَكَّى، فطهّر نفسه من أرجاس الكُفْر والعصيان، ونمَّاها بفعل الخيرات والصالحات.

التدبّر التحليلي:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

مقدمة:

ما جاء في هذه الآيات الأرْبع قد كان قَبْلَ بَدْءِ المباراة، وفي اليَوْمِ الّذي جَرَتْ فيه.

ويَظْهَرُ أنَّهُ قَدْ كان داخلَ المدينة في صباح اليوم، قُبَيْل الخروج إلى مكان عيدهم القوميّ المعيّن لإجراء المباراة فيه، وفي يوم هذا العيد، بدليل أنّه بَعْدَ انتهاءِ المباراة، وانتصار آيَة موسىٰ عليه السلام على سِحْرِ سَحَرَة فِرْعَوْن، وإيمان السَّحَرَة بربِّ موسىٰ وهارون، وسُجُودِهِمْ أمامَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ والحَشْدِ المصريِّ الكثير، وإعلانِهِمْ إيمانَهُمْ، قال فرعون لهم كما جاء في نصّ سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ومثل هذا لَا يقولُه فِرْعون إلَّا إذا وَصَل إلَيْهِ عِلْمٌ بذهابِ موسَىٰ عليه السَّلام إلى المكانِ الذي أُعِدَّ في المدينة نُزُلاً للسَّحَرَةِ المَجْلُوبِينَ من المدائن المصرية، صَباحَ يومِ المباراةِ، وأنّه اجْتَمَعَ بالسَّحَرَةِ وحادَثَهُمْ.

فدَلَّ هذا على أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام قال لهم في هذا اللّقاء كلاماً دلَّ على مَعْنَاهُ قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أي: عذاباً شديداً شاقّاً لَكُمْ بِسَبَبِ ما تُعِدُّونَ أنْفُسَكُمْ له، مِمَّا تَفْتَرُونَ به على الله.

أُجْرِيَتْ كلمة «وَيْل» هُنَا مجرَىٰ المصادر المفردة، بسبب إضافتها، فالنَّصْبُ فيها هو على تقدير: يُعَذّبكم الله عذاباً شديداً.

«وَيْل»: كلمة عذاب، تأتي في التحذير من عذاب شديد، وتأتي في الدُّعَاءِ بالعذاب الشديد. وتأتي أيضاً بمعنى الحُزن، ومنه قولُ المتفجِّعِ على نَفْسِهِ، أو علىٰ مَحْبُوبٍ له: «وَيْلِي ـ وَيْلَكَ ـ وَيْلَهُ».

﴿لَا تَفۡتَرُواْ﴾: **الافتراء**: اختلاقُ الكَذِب عَنْ عَمْد، ولمَّا كان السِّحْرُ عملاً تَضْليليّاً باطِلاً، قَدْ يَتَّخِذُهُ السَّحَرَةَ وَسِيلَةً لجَعْلِ الباطل حقاً، وجَعْلِ الحقِّ باطلاً، في تَصَوّر الناس المَخْدُوعِينَ به، وقد يتّخذونه وسيلةً للإقناع بمذهبٍ من مذاهب الكُفْرِ بالله، والإقناع بأنّ دين الله الحقّ باطل، كان من قبيل الافتراء على الله بأكاذيب عَمَلِيَّة، إذْ هي في هذه الأحوال تكون مقترنةً بادّعاءاتٍ باطلاتٍ، مُصَرَّحٍ بها في اللّفظ، أو غَيْرُ مُصَرّحٍ بها.

﴿كَذِبًا﴾: نائب مفعول مُطْلَق، إذْ جاء من معنى الفعل في عبارة: [**لاَ تَفْتَرُوا**]، فالمعنى: لا تَكْذِبُوا على اللّهِ كذباً مختلقاً.

﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾: وفي القراءة الأخرى: [**فَيَسْحَتْكُمْ**]، أي: فيَسْتَأْصِلَكُمْ بالعذاب، فلا يُبْقِي منكم أثراً ما.

• ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾: أي: وقد خَسِرَ، وحُرِمَ، وذهبَتْ أعْمَالُهُ الّتي عَمِلَها لتحقيق مُرَادِهِ سُدىً، كُلُّ مَنِ افْتَرَىٰ على الله.

فعل «خاب» يأتي في اللّغة بمعنى: «خَسِرَ ـ حُرِمَ ـ لم يَنَلْ ما طلب ـ ذهَبَتْ أعمالُه الّتي عملها سُدىً ضائعة».

فالمعنى: قال موسىٰ عليه السّلام للسَّحَرَة، في لقائه لهم قُبَيْل المباراة: إنّي أُحَذِّرُكُمْ من عذابٍ شديدٍ إذا افْتَرَيْتُم على الله، فلا تَفْتَرُوا على الله كذِباً، فَيَسْتَأْصِلَكُمْ بعذابٍ يُعَاقِبُكُم به على افترائِكُمْ عليه. وقال لهم: اعْلَمُوا أنّ مِنْ سُنَنِ الله السابقة والدائمة في المجتمع البشريّ، أنَّ مَنِ افْتَرَىٰ على الله كانت عاقِبَتُهُ الخيبَةَ، بالحرمان. والخسران، وبذهاب

أعماله الّتي عملها سُدىً ضائعةٌ، مَهْمَا كانت شاقّةً ومضنيةً، وذاتَ نفقاتٍ كثيراتٍ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: فتجاذبُوا بطريقة الانتزاع بتكلّفٍ وعُنْفِ مجادلة، الكلام المتعلِّق بالسِّحر، لموسَىٰ وما لدَيْهِ من سِحْرٍ، أوْ آيَةٍ ربَّانِيَّة.

وفي هذا التجاذب التنازعيّ معنى مخالفة بعضهم لبَعْضٍ في الرأي، مَعَ شيءٍ من المخاصَمة:

• فقال بعضُهم: إنّ ما جاء به موسَىٰ لَيْسَ من نوع السّحر، وسيغْلِبُكُمْ، وتفتضحُون، وتَسْقُطُونَ من أعين الناس صاغرين، فجمهورُ المشاهدين كثيرون جدّاً.

• وقال الفريق الآخر: بل ما جاءَ به مُوسَىٰ هو من نوع السّحر، وإنَّنا بكَثْرَتِنَا سنغلِبُهُ مَهْمَا كان عَمَلُهُ السِّحْرِيّ قوياً.

وبَعْدَ التّنازع في الرَّأي تغلَّبَ الرأي الثاني على أصحاب الرأي الأوّل، واعتمدتْ إقناعاتُهُمْ على الإطماع بالأجْرِ الكبير الّذي سينالونَهُ من فرعون، إذا كانوا هم الغالبين، وعلى الإقناع بترديد مقالة فرعَوْن، الّتي ردَّدَها ملَؤُه مِنْ بَعْدِهِ، ثم شاعَتْ بأسلُوبٍ دعائيّ بين جمهور المصريّين، بأنّ موسَىٰ وهارون يريدان بسِحْرِهِما الاستيلاء على الحكم، وطَرْد كلّ أنصار الملك من مصر، بعدَ قَتْلِه أو إلجائه إلى الفرار، والاستيلاء على ممتلكاتهم.

• ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: **«النَّجْوَى»**: الإسرار في المحادثة، وجاء فعل: «أسَرُّوا» للدَّلالة على شدّة إخفاء تناجيهم.

أي: فتنازع السَّحرة الكلامَ بَيْنَهُمْ بشأن ما أعَدُّوهُ للقيام بمهمّة مباراة موسَىٰ عليه السّلام، بسِرِّيَّةٍ بالغة، عَنْ مُوسَىٰ وهارون، وعن غَيْرِهِما، لئلا يَصِلَ أَمْرُ اختلافهم إلى فِرْعَوْن، فيتدارَكَ الأَمْرَ، باستبعاد الذين يَرَوْنَ أنّ ما جاء به موسَىٰ لَيْسَ من نوع السّحر، بلْ هو آية رَبَّانِيَّة، أو بجعلهم هدفاً لِعِقابه.

وهذا الإسرار بالنجوى يؤكّد أَنَّهُمْ ما زالُوا في المدينة، لم يخرجوا إلى مكان المباراة بعد، وأَنَّهم دَخَلُوا حجرَةً خاصّةً، وأَغْلَقُوا بابَها، ومنَعُوا أي إنسانٍ من الدُّخول عليهم وهم فيها، بحُجَّةِ أَنَّهُمْ يتشاوَرُونَ حولَ الأعْمَالِ والحِيَلَ السِّحْرِيَّةِ الّتي سيقُومُونَ بها.

• ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾:

دلَّ هذا البيان الرَّبَّانيّ على أنّ أصحاب الرأي الثاني قد انتصروا في نهاية التنازُع بينَهُمْ، على الّذين كانوا يَرَوْنَ أنّ ما جاء به موسَىٰ آيَةٌ حقيقيَّةٌ من رَبِّهِ، وليس من قبيل السِّحْر، فاتَّفقوا جميعاً في آخرِ الأمر على أنّ مُوسىٰ وهارونَ ساحران، وأَنَّهُما يُرِيدان بسِحْرِهِمَا الاستيلاء على مُلْكِ مِصْرَ بجيش يُعِدُّونَه من الإسرائيليّين.

﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾: «إنْ» في هٰذه العبارة، هي المخفَّفةُ من الثقيلة «إنَّ»، وهي هنا مُهْمَلَةٌ غيرُ عاملة، وما بَعْدَهَا مُبْتدأ وخبر، و«اللّام» في عبارة: [لَسَاحِرانِ] هي اللّامُ المزحْلَقَةُ إلى الخبر، بسبب «إنْ» وهي لام التأكيد التي تدخُلُ على المبتدأ، فالعبارة مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إنْ ـ الجُمْلَة الإسميّة ـ اللّام المزحلقة».

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا﴾:

هذه هي العبارة الّتي قالَها فِرْعَوْنُ لِمَلَئِهِ في قصره، بَعْدَ أنْ شاهَدَ آيَتَيِ العَصَا واليَدِ اللّتَيْنِ أجراهُمَا الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام.

فردَّدَها مَلَؤُهُ من بَعْدِهِ، وطارَ الإعلامُ بها حتَّىٰ وَصَلَ إلى السَّحَرَةِ الّذين يَعْتَبِرُون أنْفُسَهُمْ القوّة المعنويَّة لفرعَوْن وحُكْمِهِ، ولمذْهَبِهِ الاعتقاديّ الدينيّ، القائم على الشّرك، وتَرْبِيبِ وتَأْلِيهِ غير الله عزّ وجلّ، فهم من أنْصار الملكِ بصورة طبيعيّة، فيلحَقُهُم ما يَلْحَقُ كُلَّ أنصار الملك، إذا انتزع الإسرائيليون من فِرْعَوْن وجنوده مُلْكَ مصر.

• ﴿. . . وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾:

«الطَّرِيقَة»: يُرادُ بها هنا المذهب الدينيّ، والنّظامُ الإداريّ الفرعَوْنيَّان السّائدان في مصر حينئذٍ.

وهي في اللّغة تطلق على: «السّيرَة ـ المذهب ـ الحال ـ الفرقة».

﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أي: «الفُضْلَى» مؤنّث «أمْثَل» بمعنى «أفضل» أي: فطريقتكم هي المفضّلة على سائر الطُّرُق دينيّاً، ونظاماً إداريّاً.

والباء في عبارة: [**بِطَرِيقَتِكُمْ**] هي للتعدّيَة، كالتعدية بالهمزة، أي: لِيُذْهِبَا من واقع حالكم وواقع حال الشَّعْبِ المصريّ المذهب الاعتقاديَّ الدينيّ، والنظام الإداريّ، الفرعونيّان، فيُلْغِيَانِهِمَا من الوجود، ويُحلَّان محلّهما مَذْهَبَهُما الدينيّ، ونظاماً إداريّاً مُنْبَثِقاً عنه.

والتعدية هنا نظير التعدية في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ في الآية (١٧) من سورة (البقرة)، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ. . .﴾.

• ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّاۚ﴾:

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾، أي: فأحْكِمُوا أمْرَكُمْ، وأعِدُّوا وسائلكم، واجْمَعُوا المتفرّقَ من ذلك في نظامٍ عامٍّ واحد، ونظيرها قراءة: [**فَاْجْمَعُوا كَيْدَكُمْ**].

«الكَيْد»: التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقٍّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبّر ضدّه، ويُطْلَقُ الكيد أيضاً في اللّغة على: «الحرب وإعداد وسائلها ـ الحيلة ـ كلّ تدبير يحقّق لمدَبّره النَّصْرَ أو النجاة».

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾، أي: ثمّ بَعْدَ تَمَهُّلٍ، وأنَاة، وإتقان وإحكامٍ في الإعداد، ودون تعجُّلٍ جالبٍ للأخطاء، ائتُوا لمباراة موسَىٰ حالَة كونكم صفّاً واحداً غَيْرَ مُتَفَرّقين.

والمراد تنظيم العمل على خطٍّ مستقيم واحد بلا تفرُّقٍ ولا اختلاف، وعلىٰ خُطَّة عَمَلٍ لَا يُعَارِضُ فيها بَعْضُهُمْ بعضاً، ولا ينقضُ فيها بعضُهم عَمَلَ بعض.

«الصَّفّ»: هو في اللّغة القوم المصطفُّون المنتظمون كالسَّطر المستقيم، ويُقالُ لُغَةً: «صَفَّ القَوْمُ، يَصُفُّونَ، صَفّاً» أي: انتظمُوا في صَفٍّ واحدٍ.

• ﴿...وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾:

«قَدْ»: هنا من أدوات التحقيق والتوكيد، وهو حرف يختصّ بالأفْعال.

«أَفْلَحَ»: أي: ظفر، وفازَ بما يريد.

﴿مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي: من كان هو الغالب القاهر. يقال لغة: «اسْتَعْلَى فلانٌ على فلان»، أي: قهره وغلبه.

فالمعنى: ونُحَقِّقُ ونؤكّد أنْ من كان هو الغالب اليَوْمَ في المباراة، ظفر وفاز بما يريد.

وانقضَّ مجلسهم الذي أسَرُّوا فيه النَّجْوَىٰ على هذا القرار الأخير، وأخذوا أدواتهم السِّحْرِيَّة، وذهَبُوا إلى حيث يكون الاجتماع الحاشِدُ

الجامع، الذي كان يومَ الزينة، ودخلوا السَّاحَة المخصّصة للمباراة بينهم وبين موسىٰ وأخيه هارون عليهما السلام



قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾:

وجاء حول هذا البيان الذي جاء في هذه الآيات من سورة (طه) نَصّانِ آخران، أحَدُهما في سورة (الأعراف)، والآخر في سورة (الشعراء).

• فالّذي من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) هو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

• والذي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) هو قول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

تمهيد:

هذه نصوص ثلاثة متكاملاتُ الدّلالات فيما بينها، وهي تتعلّقُ بفصل إجراء المباراة بين آية موسىٰ عليه السلام الرَّبّانيَّة، وبين سِحْرِ سَحَرَةِ فرعون.

والتدبُّر التكامُليُّ يتطلَّبُ من المتدبِّر أنْ يَدْرُسَها معاً دراسةً تكامُلِيَّة، لِيَجْمَعَ منها البيان الذي أراد اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يُبَيِّنَهُ بِشأْنِ هٰذِهِ المباراة، وما جَرَىٰ فيهَا من أحداث، بِدْءاً ووسَطاً، وخِتاماً.

وأستعين بالله الرَّبِّ العزيز الحكيم الرحيم الوهَّاب، لاكتشاف التكامل فيما بَيْنَها، وفهم فقراتها فهماً سَدِيداً، وتدوين ذلك، ليَعْلَمَ القارئ الدَّرَّاكُ جانباً من جوانب إعْجازِ القرآن المجيد.

التدبّر:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

• ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥﴾:

(٢) وجاءت العبارة عَنْ هذه الفكرة في سورة (الأعراف) بقول الله تعالىٰ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝١١٥﴾:

[**أَنْ تُلْقِيَ**]: أي: أَنْ تَطْرَحَ في ساحَةِ المُباراة ما عِنْدَكَ.

فلَمْ يَأْتِ في عبارة الأعْراف ذِكْرُ الأوّلِيَّةِ في الإلْقَاءِ، لكِنَّهَا تُفْهَمُ ذِهْناً مِنَ السِّبَاق والسِّياق، ومن كونها مباراةً بين فَرِيقَيْنِ حول شيءٍ يُقَدِّمُهُ كُلٌّ منهما.

ومع هذا فقد جاء التَّصْرِيح بذِكْرِ الأوّلِيَّةِ في سورة (طه) لئلّا تكونَ العبارة مُكرَّرَةً تَكْريراً تَطابُقِيّاً، ولإشْعَارِ أهْلِ التَّدَبُّرِ بأنَّ مَا يُمْكِنُ أنْ يُفْهَم بالقرائن، أو باللّوازم الذهنيّة، من المُسْتَحْسَنُ حَذْفَهُ في الكَلَام البَلِيغ المبنيّ على الإيجاز، وأنَّه لَا يَصِحُّ لدَىٰ تدبُّر النُّصوص الرَّفيعة التوقُّفُ عِنْدَ حُدُودِ دَلَالَاتِ الألْفاظ المَنْطُوقَة، ولهذا كان من الحكمة حَذْفُهُ في نصّ سورة (الأعراف) التي نزلَتْ أوّلاً، وكان من الحكمة أيضاً التنبيه عليه في نصّ سورة (طه) الّتي نزلت بَعْدَها بخَمْسِ سُور.

فالمعنى بحسب عبارة سورة (طه): قالَ السَّحَرَة بِلِسَانِ كبيرهم المتحدِّث عنهم لموسَىٰ عليه السَّلام: يَا مُوسَىٰ، اخْتَرْ أَحَدَ الأمْرين:

• إمَّا أنْ تُلْقِيَ مَا عِنْدَكَ مِنْ عَمَلٍ لِلْمُبَارَاة أوَّلاً.

• وإمَّا أنْ نكونَ نَحْنُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى مَا عِنْدَهُ من عَمَل.

وهذا تخييرٌ عادلٌ منهم، تقتضيه مباراة قائمةٌ على العَدْلِ بَيْنَ فريقَيْن.

والمعنى بحسب عبارة سورة (الأعراف) إذا صَرَّحْنَا بالمطويَّاتِ فيها يكُونُ مُشَابهاً للمعنى الذي فهمناه من نصّ سورة (طه).

❊ ❊ ❊

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

• ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سُورَة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾:

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

النظرات التكاملية:

هذه العبارات الثّلاث متكاملات الدّالّات:

• ففي عبارة سورة (الأعراف): ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾.

• وفي عبارة سورة (طه): ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾.

• وفي عبارة سورة (الشعراء): ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أمّا عبارة سُورَة (الأعراف) فقد جاءت مُوجَزَة جداً، ويفهم الذهن الدَّرَّاكُ منها ما جاء في العبارتين الأخريَيْن.

وأمّا العبارة الّتي من سورة (طه) فقد جاء فيها التصريح بكلمة «بَلْ» مع الإيجاز في العبارة أيضاً.

وأمّا العبارة التي من سورة (الشعراء) فقد جاء فيها التصريح بما أفصِلُهُ بأقواسٍ كما يلي: قالَ «لَهُمْ مُوسَىٰ» أَلْقُوا «مَا أَنْتُمْ مُلْقُون».

هذه العبارة تَصْلُحُ مِثالاً للمساواة، إذ هي مُسَاوِيَةٌ للمعاني المراد

التعبير عنها، لكنّ العبارتين الأُولَيَيْن قَدْ جاءَتا مُوجَزَتَيْنِ، وإحداهما أكْثَرُ إيجازاً من الأخرى، وما جاء في سُورَة (الشعراء) يُمْكِنُ فَهْمُهُ بالتأمُّل الدَّقيق فيهما.

فعبارة [**أَلْقُوا**] يفهم منها بالتدبّر الدقيق: بل ألقوا وأنا مستهين بما أنتم مُلْقُون. وكذلك عبارة [**بَلْ أَلْقُوا**].

[**أَلْقُوا**]: أي: اطْرَحُوا في ساحة المباراة ما عِنْدَكم من كَيْدٍ سِحْرِيٍّ أَعَدَدْتُمُوهُ لها، فأنا متحدّيكم، وقابلٌ تَحَدّيكم.

وقد طلب منهم أنْ يُلْقُوا أوّلاً، ليَتَسَنَّى له إبطال كيدهم كُلِّه بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَة، واستغلَّ لهذا تخييرهم له.

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾:

جاءَت كلمة «مُوسَىٰ» إطْناباً مُفِيداً، لمراعَاة رُؤوس الآيات، ولتكميل الميزان اللَّفْظِيِّ لِلآيَة.

وفي العبارة محذوف، تقديره: فَأَلْقَوْا حبالَهُمْ وعِصِيِّهم فإذا..

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

نظرات تكامليّة:

التكامل في هذه العبارات الثلاث واضح، ويَدُلُّ التَّأمُّل على أنَّ

عبارة سُورَة (الشعراء) ذاتُ مَوْقِعٍ أوّل في الترتيب، ويأتي بعدها موقع عبارة سورة (الأعراف)، ويأتي بَعْدَهُمَا مَوْقِع عبارة سورة (طَه).

وجمعاً من هذه النصوص يكون المعنى كما يلي:

(من سورة الشعراء):

فطرح السَّحَرَة في ساحة المباراة أدواتهم السّحرية، حبَالَهُمْ وعِصِيِّهم، وأقْسَمُوا بقوة فرعون الإلٰهيَّة الغَالِبَة لسائر القوىٰ، قائلين بَعْدَ القسم جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وفي هذه العبارة تأكيدٌ بالمؤكّدات: «إنّ ـ الجملة الإسميّة ـ اللام المزحلقة ـ ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوّة فرعون الغالبة المادّية والمعنوية؛ إذْ جعل فرعون نفسه إلٰهاً على شعْبه. **العزّة**: هي القوة الغالبة.

(من سورة الأعراف)

فلمَّا ألْقَوْا ما لَدَيْهِمْ من أدواتٍ سِحْرِيَّة وأجْرَوْا أعْمَالَهُمْ، سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ واسْتَرْهَبُوهُم بما أَرَوْهُمْ في خداعٍ بَصَرِيّ، من ثَعَابِين تَتَحَرَّكُ وتَسْعَىٰ في ساحَةِ المباراة، بِسِحْرٍ عظيم جاءُوا به.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: أرْهَبُوهُمْ إرهاباً قَوِيّاً، فالقُوَّة أحَدُ معاني صيغة «اسْتَفْعَلَ»، والمعنى: أوقَعُوا الرَّهْبَةَ بقوة في نفوس المشاهدين

الرّهبة: الخوف من مكروهٍ متوقّع.

(من سورة طَه):

فلمَّا ألْقَوْا ما أعَدُّوهُ للمباراة، إذَا حِبَالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ قَدْ أثَّرتْ على عَيْنَي موسىٰ الرسول حامل الآية الرَّبَّانيَّة، بمقتضىٰ بشريّته، فصارَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ من سِحْرِهِمْ أنَّها ثعابين تَسْعَى.

فأحَسَّ مُوسَىٰ بخوفٍ ما في نَفْسِهِ أنْ يَتَأثَّر جمهور المشاهدين بهم،

فَلَا يَلْتَفِتُوا إلى ما سيقدّمه من آيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ عظيمة، للتشابه في النظر، ولَمْ يكن قد خطر في باله أنّ عصاه الّتي ستتحَوَّلُ حيَّةً، سَتَبْتَلِعُ ابتلاعاً حقيقياً كُلَّ أدَواتِ سِحْرِ السَّحَرَة، وأنَّها قادرة بخَلْقِ الله على ابتلاع السَّحَرَة، وابتلاع فرعون وملَئِهِ وجنوده، وكلِّ أنصاره، لو شاء الله ذلك.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُصْنَعُ في خيالِهِ صُوَرٌ تخيُّليَّة، وطُيُوفٌ لَيْسَ لها حقيقة في الواقع، بل هي قائمة على تَزْييفاتِ السَّحَرةِ بخداعٍ بصريّ، والشيء الذي صنَعَهُ التَّخْيِيل هو الإيهام بأنّ حبالهم وعصيّهم ثَعَابين، وأنَّها تَسْعَىٰ، مع أنَّها في الحقيقة ما زالَتْ حبالاً وعِصِيّاً، لم يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ من حقيقتها.

«**التخييل**»: هو في اللُّغة التَّلْبِيس، والتشبيه، والتأثير على المخيّلَة في الدماغ، بوسائل خداعيَّةٍ، لا تُغَيّرُ من الواقع الحقّ شيئاً، وتقتصر على إحداث صُورٍ وطيوف كواذب، ليس لها حقيقة في الواقع، وإنَّما هي تأثيرات سِحْرِيَّة على الأعْيُنِ فيما تُشَاهد.

[**تَسْعَىٰ**]: أي: تَمْشِي بسُرْعَةٍ كسُرْعَةِ من يَعْدُو. **السَّعْي**: هو في اللّغة السُّرعة الزائدة في المشي بهمَّة ونَشَاطٍ وقوَّة، فهو بين العَدْو، وبَيْن المَشْي الهادئ المتَّزِن من غير إسراع.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾: أي: فأَحَسَّ موسَىٰ عليه السّلام بشيءٍ من الخوف في نفسه، من أنْ تتساوىٰ في نظر الجماهير المحتشدة آيَته وسِحْرُ سَحَرَة فرعون، أحسّ بهذا الخوف بسبب المفاجأة الّتي أثَّرَتْ على بَصَرِهِ، وكان عارضاً بمقتضىٰ طبيعَتِهِ البشريَّة الانفعالية الّتي تتأثّر بالعوارض قَبْلَ المحَاكَمَةِ العقليّة.

﴿خِيفَةً﴾: الخيفَةُ كالخَوْف، وهي مصدرٌ لفعل «خاف، يخافُ، خَوْفاً، ومخافَةً، وخِيفَةً».

الخوف: شعورٌ نَفْسِيٌّ مُؤْلِمٌ مُزْعِجٌ، ويكون من تَوقُّعِ حُلول مكروه، أو فوات محبوبٍ، أو مَرْغوبٍ فيه.

﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾: وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ سِحْرَ سَحَرَة فِرْعَوْنَ بأنَّهُ سِحْرٌ عظيمٌ، لدقَّةِ وسائِلِهِمْ فيه وخفائها، لكنَّ سِحْرَهُمْ لم يتجاوز حدود خداع الأبصار، ولَمْ يَقْلِب حقائق الأشياء التي اتَّخَذُوها أدواتٍ لسِحْرِهِم، وإنَّما أثَّر على النفوس، وعلى إدْرَاكَاتِ الحواسّ الظاهرة والباطنة.

❁ ❁ ❁

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه):

﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾:

(٢) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

(٣) وجاءَتِ العبارة في سورة (الشعراء) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

نظرات تكاملية:

هذه نصوص ثلاثة متكامِلاتُ الدَّلالاتِ فيما بينها، مع تكرار بعض العبارات الّتي لا بُدَّ من تَكْرارها، لإحكام الرَّبْط التكامُلِيّ بيْنَ الفقرات، بشأن الموضوع الوارد الحديث عنه في كلّ سورة من السّور الثلاث.

ويدُلُّ التَّأَمُّلُ مع إمْعَانِ النَّظر في تكامُلِهَا على ما يلي:

(من سورة طه):

• ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾: أي: قُلْنَا له بوساطَة رسُول الوَحْي: لَا تَخَفْ من مُسَاواة أعمالهم السِّحْرِيَّة في المظهر، لآيَتِنَا البُرْهَانِيَّة، فآيَتُنَا كُبْرَى ستُبْطِلِ كُلَّ ما صَنَعُوا، لأنَّ مَا صَنَعُوه لَا حقيقة له، إذْ هُوَ إيهامٌ وخداعٌ للأعْيُن.

من سورة (الأعراف):

• ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ... ﴿١١٧﴾﴾: أي: وأوحَيْنَا إلى موسى أن اطْرَحْ عصاكَ في ساحة المباراة، ودلَّتْ عبارة [**أَوْحَيْنَا**] هنا على أنّ ما جاء في سورة (طه): ﴿قُلْنَا﴾ أنَّ هذا القول قد كان عن طريق الوحي.

من سورة (طه):

• ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

جاءَتْ فكرةُ الإلْقَاءِ هُنا تكراراً لِمَا جاء في سورة (الأعراف) لئلَّا يكُونَ في نَصِّ سورة (طه) فجوةٌ فِكْرِيَّة، ولئلَّا يكونَ تكراراً تطابُقِيّاً اقتضتِ الحكمة البيانيَّة التَّغْيِيرَ في التعبير، مع تكْمِيلٍ في البيان.

من سورة (الشعراء):

• ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: فانْقَلَبَتْ عَصَاهُ حَيَّةً عظيمة، وفَاجَأَتِ المُشاهدين بأنَّها شرعَتْ تَبْتَلِعُ ابْتِلَاعاً حَقِيقياً ثَعَابِينَ السَّحَرَةِ الّتي هِيَ في الحقيقة مَا زَالَتْ حِبَالاً وعِصِيّاً.

واجْتَهَدَ السَّحَرَةُ اجْتِهَاداً بَالِغاً للمُحَافَظَةِ عليها مَوْجُودَةً في سَاحَةِ المباراة، ومنع حيَّةِ مُوسَىٰ مِن ابْتِلَاعِهَا فَلَمْ يُفْلِحُوا، وقد كان هذا

الاجتهاد مرافقاً لابْتِلَاعِ حَيَّةِ مُوسَىٰ الَّتي كانت عصاً حِبَالَهُمْ وعِصِيِّهِمْ، بدلَالَةِ الفِعْل المضارع في عبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾، أي: وهم ما زَالُوا يُجَدِّدُونَ أعْمَالَهُمْ السِّحْرِيَّة الكواذب، الَّتي تَعْتَمِدُ على كذِبٍ خداعيٍّ للأَعْيُنِ، وليس لَهُ حقيقةٌ في الواقع.

من سورة (الأعراف):

• ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

جاءت عبارة: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ هنا تكريراً لما جاء في سورة (الشعراء) لتكميلها بما جاء في الأعراف بَعْدَها، ولولا هذا التكرير لكان في نص سورة (الأعراف) فَجْوَةٌ من الصَّعْبِ مَلْؤُهَا بهذه العبارة، ولا سيما أن سورة (الأعراف) قد نزلت قبل سورة (الشعراء) بسَبْع سُوَر.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾: أي: فَغُلِبُوا في ذلِكَ المكان الذي جرَتْ فيه المباراة.

﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾: أي: وانْقَلَبُوا انْقِلَاباً مَعْنَوِيّاً من مكانهم العالي الّذي كانوا مُسْتَكْبِرِينَ فيه، حالة كونهم أذلّاء، يَشْعُرُونَ بصِغَرِ مكانتهم، وضَآلَةِ قِيمَة نفوسهم، وبُطْلَانِ طَرِيقتهم، أمام عظمة الحقّ الرَّباني الّذِي أجراه الله لموسَىٰ عليه السلام.

وهذا لا يقتصر على السَّحَرَة، بل يمتدُّ إلى فرعَوْنَ، ومَلَئِهِ، وجنودِهِ، وأنصاره في الشعب المصري.

الصَّاغر: هو في اللّغة الراضي بالذُّلِّ والضَّعَةِ، يُقالُ لغة: «صَغُرَ، يَصْغُرُ، صَغَاراً، فَهُوَ صَاغِرٌ» أي: رَضِيَ بالذُّلِّ والضَّعَةِ.

والصَّاغِر: الوضيع الذليل الحقير، ذو القيمة الضئيلة، أو الَّذِي لَا قيمة له.

من سورة (طه):

● ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾:

قُدِّمَ هارون هنا، مع أفضليَّة موسى عليه، لمراعاة الفواصل، في سوابق هذه الآيَةِ ولواحِقها.

﴿فَأُلْقِيَ﴾: عبارة فيها عطفٌ على محذوف، تقديره: فأَلْقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ، فانْقَلَبَتْ حيَّةً حقيقيَّةً عظيمةً تَسْعَىٰ بِسُرْعَةٍ مُخِيفَةٍ في ساحة المباراة، وأخذت تَبْتَلِعُ بسُرْعَةٍ ما صنَعَ السَّحَرَة، فأُلْقِيَ السَّحَرَة سُجّداً.

قدَّمْتُ في الترتيب هنا ما جاء في سورة (طه) مراعاةً لحَرْف العطف «الفاء» في أوّلِ الآية، إذِ الفاء تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب.

من سورة (الشعراء):

● ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ على نصّ سورة (طه) عبارة: **[آمنّا بربِّ العالمين]**.

من سورة (الأعراف):

● ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

ترجّح لديّ تأخيرُ هذا النصّ في الترتيب، عن النَّصَّيْنِ السَّابِقَيْنِ، لأنَّه معطوف بالواو، الّتي تَدُلُّ على مُطْلَقِ الجَمْعِ، لا بالْفَاءِ الّتي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب.

جاء في هذه النصوص الثلاثة تكريرُ ما كان من السَّحَرَةِ بَعْدَ انتصار موسَىٰ بآيَتِهِ الرَّبَّانيَّة العجيبَة المُذْهِلَة، مع بَعْضِ إضافاتٍ في بَعْضِ العبارات، ومع تغيير طفيفٍ فيها، لتتلاءَم مع سوابقها في سُورِها.

والغَرَضُ من هذا التكرير توكيد انتصار الإيمان على الكُفْر، بألْسِنَةِ وأعمالِ القوَّةِ المعنويَّة لأهل الكفر في مصر، وهم سَحَرَةُ فِرْعَوْن، إذْ أقنعَتْهُمْ بالحقيقة آيَةُ الله البرهانيّة العظيمة، وأدْرَكُوا أنَّها معجزة حقيقيَّةٌ، وليسَتْ خداعاً للأعين، بخلاف سِحْرِ السَّحَرَة، فقد كانَ مجرَّدَ تخييلٍ وخداعٍ للأعين.

ومعلومٌ أنّ السَّحَرَة هم أعْلَمُ الناس بهذه الحقيقة.

تدبُّر مفردات وجُمَل هذه النصوص:

• **[قُلْنَا لاَ تَخَفْ]**: هذا وحْيٌ جاء به أمين الوحي لموسىٰ عليه السّلام، وهو في موقف المباراة، تثبيتاً له وطَمْأَنةً عن النتيجة الظافرة الغالبة لسِحْرِ كلِّ سَحَرَة فرعون.

وجاء بنون المتكلّم العظيم، إشعاراً له بأنّ اللَّهَ يُطَمْئِنُهُ بعظمة ربوبيته.

[لاَ تخف]: تكليف له بأن يَنْتَبِهَ، فيكُفَّ نفسه عن الخوف، ويصرف عن نفسه دواعيَهُ، بالثقة التامّة بربّه الذي أعطاه آية العصا.

[إنَّكَ أنتَ الأَعْلَىٰ]: هذه الجملة تُعَبِّر عن قضاء الله وقدَرِهِ في هٰذه القضيّة، خاطبَ الله عزّ وجلّ بها موسى عليه السّلام.

أي: إنَّكَ يا مُوسَىٰ ستكونُ أنت الأكثر عُلُوّاً في نفوس الجمهور الكبير، الذي حضر لمشاهدة المباراة، وفي نفوس السَّحَرة الذين سيكونون صاغرين مَغْلُوبين، وفي نفس فرعون المعتزّ بملكه، والمدَّعي أنَّه إلٰهٌ لشَعْبه، وجاء توكيد الجملة بـ (إنّ ـ والجملة الاسمية ـ وضمير الفصل) مراعاة لحالة مُوسى النفسية عليه السلام.

[وألْقِ ما فِي يَمِينِكَ]: جاء في هذه العبارة التصريح بأنَّ عَصَاهُ كانت في يمينه، فأمَرَهُ الله بطرحها في ساحة المباراة، ليجريَ اللَّهُ بها ما أجراه

بعد ذلك، بينما جاء الاكتفاء في النصّ الّذي من سُورَةِ (الأعراف) بأمْرِهِ بأنْ يُلْقِي عصاه.

[تَلْقَفْ ما صَنَعُوا]: أي: تتحوَّلْ فوراً حيَّةً عظيمة، وتَبْلَعْ كلَّ ما صَنَعُوا مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ بحبالهم وعِصِيِّهم.

فأدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السّلام التدبير الرَّبَّاني، وزال عَنْهُ كلُّ أثَرٍ للخوف.

[مَا صَنَعُوا]: أي: كُلَّ الأشياء المادّيَّة الّتي صنعوها، وهي حبالُهُم وعصيِّهم، وما طَلَوْها به من موادّ وعناصِرَ تجعلُها توهم بأنَّها ثعابين تَسْعَىٰ.

[إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحر]: وفي القراءة الأخرى: [كَيْدُ سِحْرٍ]: «إنَّما» أداة حصر وقَصْر، أي: ما صَنَعُوا بأعمالهم قلباً لحقائق الحبال والعصيِّ بجعلها ثعابينَ حقيقيَّة، ما صَنَعُوا فيها إلّا كَيْداً سِحْرِيّاً تخييليّاً ضمن حُدُود إراءَةِ الأعين، بإيهامِها كذباً وافتراءً على الحقيقة أنَّها ثعابين حقيقيَّة، وهذا الكيد هو الّذي كانَ يَصْنَعُهُ السَّحَرَة في الأشياء.

والقصر هُنا قصر إضافي، وهو من قَصْر الموصوف على الصفة، أي: ما صَنَعُوا بالإضافة إلى أعمال مباراتهم إلّا عَمَلَ ساحِرٍ، وعملاً من نوع كَيْدِ السِّحر.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾

الفَلَاح: هو الظفر والنجاح والفوز بالمراد.

السَّاحِر: «ال» هنا للجنس، وتفيد التعميم على كلّ أفراد الجنس، أي: ولا يُفْلِحُ كُلُّ ساحر.

حيث: هنا ظرف مكان، وهو مبنيٌّ على الضمّ في محل نصب على أنّه ظرف.

أي: ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ في مكانٍ ما يأتيه، ويَعْمَلُ فيه أعمالَهُ السِّحْرِيَّة، إذ يجعله الله عزّ وجلّ في النتيجة خائباً خاسراً مُبْتَلَىً بالمصائب والنّكبات.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾: جاءَ فِعْلُ «أُلْقِيَ» مَبْنِيّاً لما لم يُسَمَّ فاعله، للدّلالة على أنَّ سلطان آيَةِ الله بابْتِلاعِ كلّ ما صنعَ السَّحَرة، جعَلَتْهُمْ بتِلْقائيَّةٍ مَقْسُورِين على أن يخرّوا سُجّداً لله ربّ العالمين، مُجْرِي هذه الآيَة العظيمة لموسَىٰ عليه السلام.

والفاء في عبارة: [فَأُلْقِيَ] دليلٌ على أَنَّهُمْ خَرُّوا ساجدين، عَقِبَ ابتلاع عصا موسى الّتي انْقَلَبَتْ حيَّةً كلَّ ما صَنَعُوا، فلم يكن مِنْهُمْ تَلَكُّؤٌ ولا تَرَيُّث، انْدِهَاشاً بالحَدَثِ، ومُعْتَرِفِين بالخيبة، وأَنَّهُمْ مَغْلُوبون حقاً.

﴿سُجَّدًا﴾: جمع «ساجِدٍ» ويجمع هذا على «ساجدين» قياساً مطّرِداً، وهو ما جاء في نصَّيْ (الأعراف) و(الشعراء).

السُّجُود: هو في اللُّغَةِ يكون بإحْنَاءِ الظهر وتطامُنِهِ، وأقصاه يكون بوضع الجبهة على الأرض.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾: يحكي الله عزّ وجلّ بهذه العبارة إعلانهم إيمانهم برَبِّ موسَىٰ وهارون، وهو رَبّ العالمين، لأنّ مُوسَىٰ وهارونَ قد أبانا لفرعون ولِمَلَئِهِ، ولكلّ من دَعَوْهم من المصريين أنَّ رَبَّهُما هو رَبُّ كلّ العالمين، أي: رَبُّ كلّ ما في الكون سوى الله عزّ وجلّ.

وجاء في نصَّيْ: (الأعراف) و(الشعراء) التصريح بأنّ السَّحَرَة أعْلَنُوا إيمانهم برَبّ العالمين، رَبّ موسىٰ وهارون.

وسبقَ بيان الحكمة في تقديم هارون على موسىٰ في نصّ سورة (طه)، وأنه قد كان مراعاة للفاصلة، حتَّىٰ تتلاءَم مع فواصل الآيات قبلها وبعدها في السورة.

❁ ❁ ❁

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾:

(٢) وجاءَت العبارة في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾.

(٣) وجاءت العبارة في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾:

* * *

هذه النُّصوص الثلاثة مُتكامِلَاتُ الدِّلالَاتِ فيما بَيْنَها، فَلْنَتَدَبَّرْهَا لنكتشف التَّكامُل الذي تشتملُ عليه.

إنّ التأمُّلَ في هذه النصوص الثلاثة يَكْشِفُ أنَّها تُعَبِّرُ عَنْ مواقف ثلاثة، وقفها السَّحَرَة أمام فِرْعَوْن، محاسباً ومُؤنّباً لهم على مَا كانَ منهم من إيمانٍ بما جاء به موسى وهارون، ثُمّ إسلام واسْتِسْلامٍ لأوامر ونواهي

رَبّهما الّتي يُبَلِّغانها عنه، مع خُرُوجِهِم عن طاعته ومِلَّتِهِ والخضوع والخنوع لِنِظَامِ دولَتِهِ الإداري، الّذِي يُحَرِّم عليهم اتّخاذَ دِينٍ غيرِ دِينِ الملكِ من كلّ قبطيّ.

ويَدُلُّ التأمُّلُ في هذه النصوص الثلاثة على ما يلي:

(أ) أنّ نصَّ سورة (الأعراف) قد جاء مُعَبّراً عن موقفهم الأوّل أمام فِرْعَوْن، محاسباً ومُؤَنّباً، ومتوعداً بشرّ.

(ب) وأنّ نصَّ سورة (الشعراء) قَدْ جاءَ مُعبّراً عن مَوْقفهم الثاني أمام فرعون، بَعْدَ أنْ أنْظَرَهُمْ، رَجَاءَ أن يَتُوبُوا، فيحتفظَ بهم قوّةً معنويّةً لِدِينه، ولنظام دولته الإداري.

(جـ) وأنّ نصَّ سورة (طه) قد جاء مُعَبّراً عن موقفهم الثالث الأخير أمام فرعون، بعد أن أنظرهم إنظاراً ثانياً، رَغْبَةً في أن يتوبوا، ويَرْجِعُوا إلى الخضوع والخنوع له ولنظام دولته.

التدبّر التحليلي لهذه النصوص:

النص الذي من سورة (الأعراف):

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾:

أي: قد فعلْتُم كبيرَةً عظيمةً في حقِّ مَلككُمْ ودَوْلَتِكُمْ وشَعْبِكُمْ القِبطيّ عَلَيْكُمْ، إذْ آمَنْتُمْ بمُوسَىٰ وبما جاء به عن رَبِّه، قَبْلَ أن أمْنَحَكُمْ إذْناً بذلك، إنَّها من كُبْرَيَاتِ الجرائم في نظام دولَتِنا لشَعْبِنَا القِبْطِيّ، وهذه خيانةٌ عُظْمَىٰ للمَلِكِ، وللدُّسْتُورِ، وللنظام العامِّ في البلاد، وهي تَسْتَحِقُّ أشدَّ العقوبات الّتي تنتهي بالموت.

الإيمان: هو الاعتقاد الجازم في القَلْب، بقضيَّةٍ من القضايا القابلة للتصديق وللتكذيب.

الإذن: هو الإعلام بإبَاحَةِ العَمَلِ، والرُّخْصَة فيه.

وقد كان هذا قَبْلَ أنْ يَثْبُتَ لدىٰ فِرْعَوْن أنّ سَحَرَتَهُ أسْلَمُوا لأوامر ونواهي رَبّ موسى وهارون التي يُبَلِّغانها عنه، فاقتصر على تأنيبهم ومحاسبتهم على إيمانهم الّذي أعْلَنُوهُ.

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

لقد بلَغَ فِرْعَوْنَ أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ قد مَرَّ على السَّحَرَةِ في دار إقامَتِهِمْ الّتي أقامَهُمْ فيها، إذْ جَلَبَهُمْ من المدائنِ المصريَّةِ، وجَمَعَهُمْ في دارٍ للتشاور والتَّعاون، استعداداً لإجراء المباراة بينهم وبَيْنَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، إذْ قام في ذِهْنِهِ أنَّ ما جاء به مُوسىٰ هو نوعٌ من أنواع السِّحر.

وبَلَغَ فِرْعَوْنَ أنَّهُمْ ﴿أَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بَعْدَ مُرُورِ مُوسَىٰ عليه السَّلام عليهم ومحادثتهم صَباح يوم المباراة.

فتَوَهَّمَ أنَّ مُوسَىٰ أقْنَعَهُمْ بأنَّهُمْ إذا انْحَازُوا إلَيْهِ في المباراة، فسَيَجْعَلُهُمْ شُرَكَاءَهُ في مُلْكِ مصر، وُزَرَاءه، وأعوانه، وآمِرين ناهِينَ بسُلْطانٍ نافذ، فقال لهم:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ﴾.

وهذه هي الفكرة الّتي أعْلَنَهَا؛ إذْ قال لِلْمَلإِ حَوْلَهُ يومَ مجيء موسىٰ الأوّل إليه، كما جاء في سورة (الشعراء):

﴿. . . إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ . . . ﴿٣٥﴾﴾.

المكر: هو في اللّغة تَدْبير أمْرٍ ما في خفاء، يَكُونُ في الشرّ، ويكُونُ في الخير، واللّهُ خَيْرُ الماكرين.

ولا بُدَّ أنْ يكونَ السَّحَرَةُ قد نَفَوْا عَنْ أنْفُسِهِمْ هٰذِهِ التُّهْمَة، وأنَّهُمْ أسَرُّوا النجوىٰ لإعدادِ خُطَطِهِم سِرّاً، حتَّىٰ لا يَبْلُغَ مُوسَىٰ شيءٌ من تَرْتيباتهم، فيُعِدَّ أعْمَالاً سِحْرِيَّةً مضادَّة لَها.

وكان فرعَوْنُ حَريصاً على أنْ يَسْتَبْقِي السَّحَرَة قُوَّة مَعْنَوِيَّة لنظام حكمه، وقوّة مَعْنَوِيَّةً لِمِلَّتِهِ، ولملَّةِ القِبْط السائدة في مصر حينئذٍ، إذِ اتَّخَذَ نَفْسَهُ فيها إلٰهاً مُطَاعاً في كُلِّ شيءٍ، فأبْعَدَ أجَلَ مَا تَوَعَّدَهُمْ بكلام دلَّتْ عليه عبارة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وبعد إمهالكم مُدَّةً يكُونُ عقابي فوريًّا إذا لم تتوبوا أو لم ترجعوا إلى ملّتِي وطاعَتِي.

كلمة «سوف» تُسْتَعْمَلُ غالباً للتَّأجيل الطويل، أو لما هو في حُكْمه، بخلاف «السين» فإنَّها تُسْتَعْمَلُ غالباً للتأجيل القصير، أوْ لِمَا هُوَ في حُكْمِهِ[1].

وغَرَضَهُ من هذا التأجيل الذي فيه فُسْحَةٌ مُطَوَّلَةٌ، أنْ يَتَرَاجَعُوا ويُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ، وعَوْدَتَهُمْ إلى ما كانوا عليه، أنصاراً وقُوَّةً معنويَّةً لِفِرْعوْنَ، ولدينه، ولنظام حُكمه الإداري.

وجاء تَوَعُّده بعبارة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، أي: إنْ لم تَتُوبُوا وتَرْجعوا إلى حظيرتي.

تقطيعُ الأيدي والأرجُل من خلافٍ يكونُ بقطع اليَدِ اليُمْنَىٰ والرِّجْلِ الْيُسْرَى، أو بقَطْعِ اليَدِ اليُسْرَى والرِّجْلِ اليمنى، وهذا النوع من التشويه العقابيّ في الأعضاء أخَفُّ ضرراً من قَطْعِ اليُمْنَى من كلٍّ منهما، أو الْيُسْرَى مِنْ كُلٍّ مِنهما، لأنّ السّالمة تُعِينُ المقطوعَة من جِهَتِها.

وزاد فرعون في تَوَعُّدِهِ وتَهْدِيده، فأعْلَنَ لسَحَرَتِهِ أنَّه سَيَتْركُهم مُقَطّعي الأيْدِي والأرْجُل من خلاف زمناً يُعَذَّبُونَ فيه، ثم لَيُصَلِّبَنَّهُمْ أجْمَعِين،

---

(١) هذا ما توصَّلْتُ إلَيْه عَنْ طريق استقراء النصوص القرآنية.

تَصْلِيباً عَنِيفاً شديداً يكونُ به تَعْذِيبُهُمْ، وموتُهُمْ صَبْراً بَعْدَ ذلك، ويكون به التشهير بهم، أمام الغادِينَ والرَّائِحين من الشَّعْبِ المصريّ وغيره، ليكونوا عِبْرَةً لكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بمخالفة دين الملِكِ، ونظام حكمه.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطراف الجِسْم، وتَعْلِيقُهُ على خشبةٍ معروفَةٍ بالصّليب، وتكون على شكل سطر قائم عموديّ، وسطرٍ أُفُقِيٍّ يوضَعُ وسَطُهُ على السَّطر القائم، دون رأسه بنحو الرُّبع، فيكون مثل رأس الإنسان وذراعَيْهِ في حالة كونهما مَبْسُوطتين في امتدادٍ أفقيّ، وكون جسمه متدلّياً إلى الأسْفل.

وقد يكون هذا الصَّلْبُ على سُوقِ شَجَرٍ ذواتِ سُوقٍ مرتفعةٍ عالية، كالنَّخْلِ والسَّرْوِ، ونحوهما.

وشدُّ أطراف جِسْمِ المَصْلُوب قد يكونُ بالحبال، مشدودة على الشيء المصلوب عليه، وقد يكون بضَرْبِ مَسامِيرَ في أطرافِ المَصْلُوب إمْعَاناً في تَعْذِيبِهِ، وإدْخَالِهَا في الشَّيْءِ المصلوب عليه، وعلى هذا المعنى يُمْكِنُ حَمْلُ عبارة: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وهو ما جاء في النصّ الذي من سورة (طه) أي: مُثَبَّتِينَ بمَسَامِيرَ داخِلَةٍ في جذوع النخل، أي: في سوقها.

وجاء فِعْلُ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ وفِعْل: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ مُشَدَّدَيْنِ، للدّلالة على العنف في التعذيب. والفِعْلان جوابان لِقَسَمٍ مَنْوِيٍّ، واللّام واقعة في جواب القسم.

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾: أي: إنّا إلى ربّنا راجِعُون.

يُقالُ لغة: «انْقلَبَ»، أي: رجَعَ وانْصَرف.

وفي عبارتهم هذه كناية عن أنَّ الله سيَشْمَلُهم برحْمَتِهِ غفراناً وإسعاداً، إذْ يَغْفِرُ لَهُمْ ما سَلَفَ من خطاياهم، ويُدْخِلُهُمْ في جنَّتِهِ، فيَمْنَحُهُمْ فيها سعادةً أبَدِيَّةً خالِدَة.

• ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: أي: وما تُنْكِرُ عَلَيْنَا وَمَا تَكْرَهُ مِنَّا. يقال لغة: «نَقَمَ الشَّيْءَ يَنْقِمُهُ، ونَقِمَهُ يَنْقَمُه»، أي: أنْكَرَهُ وكَرِهَه.

والمعنى: أنت تَعْلَمُ يا فرعون أنّنا لم يَكُنْ مِنَّا مَكْرٌ في المدينَةِ مع موسىٰ، وإنَّما أنْكَرْتَ وكَرِهْتَ منَّا أنّنا آمَنَّا بآيَاتِ رَبِّنَا لمَّا جاءَتْنَا، وخَشَيْتَ أنْ يَكُونَ إيمانُنا سبباً في إيمان شعب مصر بالله رَبّ العالمين، وإسلامهم له، وخروجهم عن الإيمان بِمِلَّتِك، وعَنْ نظام حُكْمِك.

وبَعْدَ هٰذا أعْلَنَ السَّحَرَة الْتِجَاءَهُمْ إلى رَبِّهم داعين:

• ﴿... رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أشعر السَّحَرَةُ فِرْعَوْن في هذا الدُّعاء بأنَّهُمْ مُصَمِّمُونَ على موقفهم، وأنَّهُمْ لَنْ يَتَرَاجَعُوا، وأنَّهُمْ مُسْتَعِدّون لتَحَمُّلِ ما تَوَّعَدَهُمْ به حَتَّىٰ الموت، فهم يَسْأَلُونَ اللَّهَ رَبَّهُمْ أنْ يُصَبِّرَهم، وأنْ يُثَبِّتَهُمْ على الإسلام، حتَّىٰ إذا جاءَتْ مَنَاياهم توفَّاهم في آجالهُمْ مُسْلِمِينَ.

والمعنى: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ أنْ تُفْرِغَ عَلَيْنَا إنَاءً واسعاً كبيراً مَمْلُوءاً بالصَّبْرِ، حتَّى يُجَلِّلَنَا، فَنَصْبِرَ على عذاب فِرْعَوْن.

ورَبَّنَا نَسْأَلُكَ أنْ تَتَوَفَّانا حَالَةَ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ لكَ، مُسْتَسْلِمِينَ لأوامرك ونواهِيك، ومُطِيعِينَ لكَ فيها.

جاء في هذه العبارة استعارةُ «أفْرِغْ عَلَيْنا» للدَّلالة على معنىٰ: أنْزِلْ علينا. تشبيهاً للصَّبْرِ بماءٍ بارِدٍ يُطْفِئُ حرارة التَّعْذِيب، فلا يكونُ معَهُ شُعُورٌ زائِدٌ بالألم، وهذا الماء البارد موضوع في إناء واسِعٍ كبير مالِئٍ له، ويكونُ إنزالُهُ إفراغاً بسُرْعَةٍ تَدْفَعُ حرارة التعذيب بسُرْعَة، ولا يكون على طريقة إلْقَاءِ قطراتٍ فقطرات، أو حفناتٍ فحفنات.

الإسلام: هو الاسْتِسْلامُ للَّه في أوامِرِهِ ونواهيه، وطاعته فيها.

النصُّ الذي من سُورَة (الشُّعراء):

• ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾:

هذا النصّ يُعَبِّر عنِ الموقف الثاني الّذي وقفه السَّحرةُ أمامَ فِرْعَوْنَ بَعْدَ إيمانهم وإسلامهم.

وأدْرَكَ فِرْعَوْنُ من كلامهمْ في اللِّقاءِ الأوّل، أنَّهُمْ لم يَكْتَفُوا بالإيمان، بل أسْلَمُوا لمَا يُبَلِّغُهُمْ مُوسَىٰ مِنْ أوامرِ ونواهي ربّ العالمين، وإسلامُهم لها يَسْتَلْزِمُ عَمَلَهُمْ بها، وتَرْكَهُمْ للعمل بمقتضى دين فرعون، وبمقتضىٰ نظام حُكْمه، فوضع في دماغِهِ أنهم مُؤْمِنُونَ بموسَىٰ ومُسْلِمُونَ له.

وقد جاءتْ في هذا النصّ إضافة الأفكار التالية:

الفكرة الأولى: محاسبة وتأنيب فرعون للسَّحَرَةِ على إسلامهم لموسىٰ بعد أن آمَنُوا به وبما جاء به عن رَبّه.

دلَّ على هذه الفكرة استخدام عبارة [**لَهُ**] بدَلَ [**بِهِ**] الّتي جاءت في نصّ سورة (الأعراف) في عبارة: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، بينما جاءت في (الشّعراء): ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾.

وتحليل هذا أنَّ فعل «آمَنَ» يتعدَّىٰ بحرف الجرّ «الباء» فيقال لغة: «آمَنَ به» أي: اعتقده اعتقاداً قَلْبِيّاً جازماً به.

أمّا ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ فهي على تضمين فعل: «آمن» معنى فعل: «أسْلَمَ»

فعُدِّيَ تَعْدِيته، أي: آمَنْتُمْ به وأسْلَمْتُمْ له، والتقدير مع الإيجاز في التعبير يكون كما يَلِي: فآمَنْتُمْ بِهِ مُسْلِمِينَ له، فأغْنَتْ الجملة الواحدة بهذه التعديَة عن جملَتَيْن، وهذا من روائع الإيجاز القرآني.

الفكرة الثانية: قول فرعون للسَّحَرَةِ عن موسىٰ عليه السلام، ما دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً عنه: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي: إنَّ مُوسَىٰ هو كبير السَّحَرَة، وهو الذي علّم جميع سَحَرَةِ مِصْرَ أصُولَ السِّحْرِ وأعماله، ليُعِدَّ نَفْسَهُ مُسْتَعِيناً بهم للاستيلاء على مُلْكِ مصر، ويجعل السَّحرة شركاءَه في الحكم.

هذه مقالَةٌ افترائيَّة قالَها فرعون للسَّحرةِ على سبيل الاتِّهام الباطل، والتَّزْيِيف للواقِعِ والحقيقة.

إنّ فرعون هو الذي أمَرَ بجلب كلّ السَّحَرَة من المدائِنِ المصريَّة، ولم يَسْبِقْ لهم أنِ الْتَقَوْا موسىٰ عليه السَّلام، وفرعونُ يَعْلَمُ عِلْماً يَقِينيّاً بأنّ مُوسَىٰ كان فارّاً من الحكم المصريّ، خوف أنْ يُقْتَلَ جزاءَ قَتْلِهِ القِبْطيَّ خطأً، انتصاراً للإسرائيليّ، وخطؤُه كان بسبَبِ أنّ قُوَّةَ وَكْزَتِهِ أعظم من احتمال الإنسان العاديّ لها، وأنَّه كان أيَّامَ فراره خارج حُدُود مصر كلّها، وفي أرض لا سلطان للحكم المصريّ عليها حينئذٍ، ويَعْلَمُ فرعون أيضاً أنْ مُوسَىٰ عقب عودته إلى مصر مباشرةً، اسْتأْذَنَ هو وأخوه هارون بأن يَدْخُلَا قصره لمقابلته، فأذن لَهُمَا، وجرى ما جرى، ومنذ ذلك الحين صار هو وأخوه محلَّ مراقبة عيون فرعون. وقد كان السَّحرة مُنْتَشِرِينَ في المدائن المصريّة قَبْلَ عَوْدَةِ مُوسَىٰ إليها، وكانُوا هم القوّة المعنويّة لدِين فِرْعَوْن ونظام حُكْمِهِ الإداريّ.

فعَلَىٰ أيَّةِ شُبْهَةٍ بنىٰ فرعونُ اتّهام موسىٰ واتّهام سَحَرَتِهِ بأنَّه كبيرهم الّذي علّمَهُمُ السِّحْر؟!.

هذا هو حالُ الحكّام والمُلُوكِ الجبابرَة الظَّلمة، يَقْذِفُون الاتِّهامات ضدّ خصومهم، أو مخالفي إراداتهم وأنظمتهم، وهم منها بُرءَاءُ بَراءَةً واضحة جليّة، ليُزَيِّنُوا لشُعوبهم أسبابَ التخلُّص منهم، وليُعَذِّبُوهم بناءً على تحقُّقِ اتِّهامهم بها كذباً وتزويراً.

ومن المعتاد أنَّ جماهير عامَّة الشعب يُصَدِّقُونَ مقالات جبابرة الحكّام بغباء، ويُرَدِّدُونَها تَرْدِيداً بَبَّغائِيّاً، ويُساندُ جَبابِرَةَ الحكّام في العادة مُنْتَفِعُونَ من قِبَلِهِمْ، ويكون لهؤلاءِ دعاياتٌ وأقوالٌ مَقْبُولة لدىٰ الجماهير الّتي لا عِلْمَ لها بألاعيب السياسة وأكاذيب السَّاسَة الجائرين الظالمين الجبّارين.

الفكرة الثالثة: توكيد عَزْمِهِ على تقطيع أيدي السَّحرة وأرْجُلهم من خلاف، وعلى تَصْلِيبهم أجمعين، بعبارة تفيد التوكيد في لغته.

وقد دلَّت عليه لام الابتداء المؤكّدَة في عبارة: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بينما جاءت في نصّ الأعراف: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

الفكرة الرابعة: قول السَّحَرة لفرعون بَعْدَ أنْ هدَّدهم وتَوَعَّدَهُمْ إذا لم يَعُودُوا إلى حظيرته كما كانوا، ما دَلَّتْ عليه العبارة القرآنيَّة: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا نَعْتَبِرُ ما سَتُنْزِلُهُ بنا بمقتضى تهديدِك ضارّاً لنا، بل هو يزيدُنا عِنْدَ رَبّنا سعادة وأجراً عظيماً، وما نلقاه من جنودِكَ وَزَبَانِيتك لا يزيد في اعتبارنا على كَوْنِهِ أذىً. ومن هذا المعنى قول الله عزّ وجلّ للمؤمنين عن الكافرين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران الآية ١١١).

يقال لغة: «ضَارَهُ أمْرُ كذا يَضِيرُهُ، وضارَهُ يَضُورُه»، أي: أضَرَّ به.

إنَّ السَّحَرَةَ بَعْدَ إيمانهم وإسلامهم، قد صارت لديهم بصيرة إيمانيَّةٌ نَفَّاذَة، وتعلُّقٌ كاملٌ بالآخرة، واسْتِهَانَةٌ بالدُّنيا وما فيها، فقالُوا لفرعون: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، وقَالُوا لَهُ كَمَا جاء في سورة (طه) في اللِّقاء الثالث:

﴿... فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾.

الفكرة الخامسة: قول السَّحَرَةِ لفرعون ما دلَّتْ عليه العبارة القرآنيّة: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١﴾.

لم يكُنْ هذا المعنى قائماً في أذهانهم في اللّقاء الأول، فلَمْ يُورِدُوه، لكنَّهُمْ أدْرَكُوا بَعْدَ ذٰلِكَ أنَّ لهم خطايا كثيرة، سبَقَ أنِ ارْتَكَبُوهَا، فهم إذا صَبَرُوا على العذاب الذي يتوعَّدُهُمْ فرعَوْن به، فإنَّهُمْ يَطْمَعُونَ أنْ يَغْفِرَ لهم به رَبُّهم خطاياهم، بسَبَب أن كانوا أوَّل مَنْ آمَنَ من القبط بما جاء به موسىٰ وهارون عن الله الرَّبّ جلّ جلاله.

[أَنْ كُنّا] أي: بأنْ كُنّا، والباء المقدّرة سببيّة.

فالمعنى: لقد سبقَ أنْ كانَ مِنَّا خطايا كثيرة في جَنْبِ الله، ونَطْمَعُ الآن أنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خطايانا، بسببِ أنْ كُنَّا أوّل المؤمنين من القبط.

ذكرتُ قَيْدَ: من القبط، إذْ سبقَ إلى الإيمان بموسىٰ وهارون وبما جاءا به عن الله، رجالٌ كثيرون، ونساءٌ كثيرات من بني إسرائيل.

فالرأي الّذي زعمَ أنَّ السَّحرةَ قد كانوا من بني إسرائيل، وأنَّ فِرْعَوْن أخذهم وأكْرَهَهُمْ على تعلُّم السِّحْرِ ليكونوا قوَّةً لدِينه، ولنظام حُكْمه الإداريّ، لَيْسَ له دليلٌ من الكتاب ولا من السُّنَّة، بل تَدُلُّ النصوص القرآنيّة على خلافه، كما أوضحَتُ لدىٰ تدبُّر نصوص سابقة، ولدى تدبُّر هذا النصّ.

«خطَايَا» جمع «خَطِيئَة» وهي الذَّنْبُ والمعصية.

النصّ الذي من سورة (طه):

﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا

وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾:

هذا النَّصُّ يُعَبِّرُ عن الموقف الثالث، وهُوَ الموقف الأخِيرُ الذي وَقَفَهُ السَّحَرَة بَعْدَ إيمانِهِمْ وإسلامهم، أمَامَ فِرْعَوْنَ ومُحَاسَبَتِهِ وتَوَعُّدِهِ وتَهْدِيدِهِ لَهُمْ، بأنْ يُقَطِّعَ أيْدِيَهُمْ وأَرْجُلَهُمْ من خلاف، وبأن يُصَلِّبَهُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ حتَّى يَلْفِظُوا أنفاسَهُمُ الأخيرة.

وقد جاءت فيه إضافَةُ الأفكار التالية على ما جاء في نَصَّيِ سورتي (الأعراف) و(الشعراء)، وفيما يلي بيان هذا:

(١) **الفكرة الأولى**: قرارُ البَتِّ بإنجاز ما كان قد تَوَعَّدَهُمْ وهَدَّدَهُمْ به، بَعْدَ أنْ رَأى أنَّ تأجيلَهُمْ وتأخيرهم وإطْماعَهُمْ لَمْ يُغَيِّر من موقفهم شيئاً، بل ازدَادُوا في إصرارهم على إيمانهم وإسلامهم للَّهِ ربِّ العالمين.

فبينما قال فرعون لهم في الموقف الأوّل: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو ما جاء في نصّ سورة (الأعراف) بعبارَة تَسْوِيفِيَّة لا تأكيد فيها، وفيها إطماع لهم بأن يُرَاجِعُوا أنْفُسَهُمْ، ويَرْجِعُوا إلى الخضوع والخنوع لأوامر فرعون، ونَصْرِ مِلَّتِهِ ونظامه الإداري.

وكذلِكَ في الموقف الثاني مع مزيدِ تأكيدٍ بالوعِيدِ ومُحافظةٍ على التَّسْويف: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو مَا جاءَ في نصّ سورة (الشعراء)، ففي هذه العبارة مَزيد تأكيد بلام الابتداء الداخلة على «سَوْف».

إذا بفرعَوْن في الموقف الثالث يُعْلِنُ قرارَهُ دونَ أنْ يَقْرِنَهُ بتَأْجِيلٍ أو تأخير أو تَسْويف، فيَقُولُ لَهُمْ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، فهذا التعبيرُ يَدُلُّ على الفورية، لأنّ لام الابتداء من خصائصها تخليص المضارع للحال، واستبعادُ معنى الاستقبال من صيغته.

(٢) **الفِكْرة الثانية**: بيانُ أنَّ تَصْلِيبَهُمْ سيكُونُ في جذوع النخل، إذْ يَأْمُرُ بتَسْمِيرِ أطرافهم في هذه الجُذُوع، ليكون هذا أشدّ تَعْذِيباً، وأكثر تشهيراً.

ويظهر أنَّهُ قد كان في طُرُق مَدينتهم حينئذٍ نَخْلٌ متقارب، تَصْلُحُ لِتَثْبيتِ أطرافهم في جذوعه، بمَسامِير حديديَّة تَدْخُلُ في هذه الجذوع.

دلَّتْ على هذه الفكرة عبارة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾: أي: ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ ولَأُثَبِّتَنَّ أطْرَاف أجْسَادِكُمْ في جذوعِ النخل، بمسامير حديديَّة تدخُلُ نَافِذَةً مِنْهَا في جُذُوعِ النخل، فتثبُتُونَ عليها فتموتون تَعْذِيباً وصَبْراً، وتكونُ مواقعُ تَصْلِيبكُمْ أَمَاكِنَ تكونون فيها عُرْضَةً لمُشاهَدَةِ الغادِينَ والرّائحين، تَشْهيراً بكم، وعبرةً لمن تحدّثُهُ نَفْسُه بأن يَسْلُكَ طريقتكم من القبط.

(٣) **الفكرة الثالثة**: دلَّ على معناها التعبير القرآنيُّ عمَّا قالَه فرعَوْن للسَّحرة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾:

اللّام في عبارة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ هي لام الابتداء الّتي تخلص الفِعْل المضارع للحال، وتُؤَكّدُ مضمون الجملة.

أي: ولَتَعْلَمُنَّ في العاجِلِ الحاضر أيُّنَا أشَدُّ عذاباً في إيلامه، وأبْقَىٰ في دوامه، عذابي، أمْ ما خَوَّفَكُمْ مِنْهُ مُوسَىٰ وأخوه هارون.

ويظهر أنَّهُ بعد انتهاء هذا الموقف، أمَرَ فرعونُ بتنفيذ قراره التَّنْجِيزيّ بشأنِ السَّحَرَة، وأنَّهُمْ أُخِذُوا وقُطِّعُوا وصُلِّبُوا في جُذُوعِ النَّخل، وكانوا في الصَّفّ الأوَّلِ من الشهداء عند رَبّ العالمين.

(٤) **أفكارٌ خَمْس**: دلَّ على معناها التعبير القرآنيُّ عمَّا ردَّ به السَّحَرَةُ على فرعَوْن، بشَأْنِ تَوَعُّدِهِ المشدَّد، والقريب التنفيذ:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾:

(أ) ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾:

أي: لَنْ نُؤْثِرَ حُجَجَكَ الواهِيَة الضعيفَة للإقناع بدينِك ونظام حُكْمِك الظالم الغاشم المستبدّ، على ما جاءنا من البيِّناتِ الحقّ من رَبِّنا.

ولَنْ نُؤْثِرَكَ على الّذي فطَرَنا وخَلَقَنا، وجعل الحياة الدُّنيا مَرحلة ابتلاء واختبار وجعلَ الآخرة غاية حساب وفصل قضاء وجزاء، وهي الحياة الباقية الخالدة.

لَنْ نُؤْثِرَك: أي: نُؤَكِّدُ لك أنّنا لَنْ نختارك ولَنْ نُفَضِّلَكَ يا فِرْعَوْنُ مَهْمَا هَدَّدْتَنَا، ومَهْمَا أطْمَعْتَنَا بما عِنْدَكَ من خير.

(ب) ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: أي: فاقْطَعْ رَجاءَكَ ونَفِّذْ وَعِيدَكَ الذي تَوَعَّدْتَنا به إذا شِئْتَ.

هذه العبارة تَدُلُّ على أمْرَيْن:

الأمْرُ الأوّل: يتعلّق بمَعْرِفَتِهِمُ الجليَّة، ويقينهم الكامل، بما جاءهم من البيِّنات.

وهذه البيّنات تَشْمَلُ البراهِينَ العقليَّة، والآيات الإعجازيّة، وفي مقدّمتها عصا موسىٰ، الّتي انْقَلَبَتْ بأمْرِ الله التكوينيّ فصارَتْ حيَّةً عظيمة، وابتلعَتْ ابتلاعاً حقيقيّاً لَا صُوريّاً، كلّ أدواتهم السّحرية، الّتي كانوا قَدْ أعَدُّوها للمباراة، فلَمْ تُبْقِ منها شيئاً، ثمّ عادت بأمْرِ الله التكوينيّ عصاً كما كانت، بمُجَرَّدِ أنْ قَبَضَ عليْهَا مُوسَىٰ عليه السّلام.

الأمْرُ الثاني: يتعلّق بإيمانِهِم الكامل الصّحيح الصّادِق باللّٰهِ الذي

خَلَقَهُمْ وأبْدَعَ إيجادهم على نظام الفطر، من العمق الباطن الذي يحتوي خريطة وجودهم وصِفَاتهم، إلى الظاهر المطابق تماماً لما في الخريطة المستقرَّة في العمق، فهو جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ الذي خَلَقَهُمْ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُونُوا شيئاً مذكوراً، وجعل الحياة الدُّنيا مَرْحَلةً قصيرَةً جدّاً للامتحان، وجعل الآخرةَ الحياة الخالدة، التي يكونُ فيها الحسابُ وفَصْلُ القضاء، وتحقيق الجزاء.

(ج) ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾:

أي: فأمْضِ بأمْرِكَ مَا أنْتَ قاضيهِ عَلَيْنا، فإنَّهُ لَا يَزِيدُ على إنْهَاءِ هٰذه الحياة الدُّنيا، بأنْ تَأْمُرَ بتَعْذِيبنا حتَّىٰ مَوْتِنَا.

[**فَاقْضِ**]: أي: فأمْضِ، **القضاء**: هو في اللُّغة إمضاءُ الشَّيْء وإنهاؤه وإتمامُهُ، إرادةً، أو قَوْلاً، أو فِعْلاً، أو غَيْرَ ذلك.

(د) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ﴾:

أي: واعْلَمْ يا فرعونُ أنَّنا آمنَّا بربِّنا فاطرنا، ليغفر لنا بإيماننا ما سلَفَ من خطايانا، ويظهر أنَّ هذه الحقيقة الدينيَّة قَدْ تَعَلَّمُوها من موسىٰ وهارون عليهما السَّلام، بَعْدَ الموقفين السابقين أمام فرعون.

فأَعْلَمُوا فرعونَ بأنّ الإيمان بَعْدَ كُفْرٍ يَجُبُّ الآثَامَ السابقة الّتي كانت في جنب الله، فهم مُطْمَئِنُّون بأنّ الله عزّ وجلّ سيغفر لهم خطاياهم السَّابقة الّتي ارتكبوها. ومن هذه الخطايا ما أكْرَهَهُمْ علَيْهِ من السِّحْرِ، إذْ جَلَبَهُمْ بالقَسْرِ من مختلف المدائن المصرية، وفرض عليهم أنْ يُعِدُّوا وَسَائِلَهُمْ السِّحْرِيَّة لمباراة آيَةِ مُوسَىٰ المعجزة، وفرض عليهم أنْ يمارِسُوا كفريّاتٍ وشِرْكِيَّاتٍ لاستخدام كفرة الجنّ ومَرَدَتِهِم، لمساعَدَتِهِمْ في أعمالهم السِّحْرِيَّة.

(هـ) ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾: أي: وإذا كُنْتَ تُطْمِعُنَا بخَيْرَاتِكَ إذا عُدْنَا

إلى حظيرة دينك ونظام مُلْكِكَ الإداري، وتَتَوَعَّدُنَا بعذابِكَ الشَّدِيد الباقي، إذا أَصْرَرْنَا على مَوْقِفِنَا، فعَطَاءُ الله خَيْرٌ مِنْ عطائك وأبْقَى، وعذابُ الله أشَدُّ من عذابِكَ وأبقى.

وإنّنا قد اخْتَرْنَا ما هُوَ خَيْرٌ وأبْقَىٰ، واخترنا الخلاصَ ممَّا هُوَ أشدُّ مِنْ عذابِكَ وأبْقَى، بالإيمان بربّنا والإسلام له.

وإذْ عَلِمَ السَّحَرَة أنَّهُمْ مَقْتُولُونَ على أيدي زبانية فرعون لا محالة، بَعْدَ التهديد بإنجاز ما كان قد جعلَهُ وَعِيداً مؤجّلاً، تَحَوَّلُوا إلى دُعاةٍ إلى دينِ الله، وما جاء فيه من الحقِّ، فوجَّهُوا لفِرْعَوْنَ بياناً مصحوباً بالنُّصْحِ، والموعظة بالترهيب والترغيب بجُرْأةٍ عظيمة نادرة، وإقبالٍ على الآخرة، وما دَلَّ على هذا البيان لم يأتِ في نصَّي سورتين (الأعراف) و(الشعراء)، بل جاء في سورة (طَه)، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾:

لا بُدَّ أن يكون هذا البيان ممّا تعلّمه هؤلاء الرّجالُ المؤمنون، الّذين كانوا سَحَرَةً، من دَعْوَةِ موسىٰ وهارون، بَعْدَ إيمانهم، إذْ لَمْ يَضَعْهُمْ فرعون في سِجْنٍ مُغْلَق، ولم يَحْجُرْ عليهم أن يلتقوا موسىٰ وهارون، طمعاً في عودتهم إلى حظيرة دينه ونظام حُكْمه الاستبدادي، الذي لا يسمح لشعبه من القبط أن يَرَوْا غَيْرَ ما يَرَىٰ هُو، ويزعمُ أنَّهُ لا يَهْدِيهم فيما يَرىٰ إلّا سبيل الرشاد.

• ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: إنَّ الشَّأْنَ العظيم المرهب المخيف هو ما يَلي: مَنْ يأتِ ربَّه كافراً غير مؤمِنٍ ولا مسلم، فإنَّ لَهُ بالاستحقاق المؤكّد الذي لا مَفَرَّ لَهُ

مِنْهُ، نارَ جَهَنَّم، وهو فيها دائم البقاء، لا يموتُ فيَسْتَرِيحَ بالـمَوْتِ من العذاب، ولا يَحْيَا حياةً مُرِيحَةً خالِيَةً مِنَ العذاب، بل يَكُونُ في عذابٍ دائم متجدِّد مهما امتدَّ الزمان، لأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لو أبقاه في الحياة الدنيا خالِداً مخلّداً، لَبَقِيَ كافراً بِرَبِّهِ جاحداً له مُجْرماً عاصياً بلا نهاية، فكان عقاب كُفْرِهِ الأبَدِيّ فيما لو أبقاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الحياة الدنيا أبداً بلا نهاية، أن يَخْلُدَ في عذاب جهنَّمَ خُلُوداً أبَدِيّاً بلا نهاية.

[مُجْرِماً]: أي: كافراً، غَيْرَ مُسْلِمٍ ولَا مُؤْمِنٍ.

جاء في القرآن لفظ «المجرمينَ» عنواناً مُقَابِلاً للمسلمين الصادقين، أي: المسلمين المؤمنين. وجاء وصفاً للكافرين الّذين أهلكهم اللَّهُ عزّ وجلّ في الدنيا إهلاكاً عامّاً مستأصلاً، كقوم نوحٍ عليه السلام، وقوم هود عليه السّلام، وقوم صالح عليه السّلام. وجاء وصفاً للّذينَ يُعَذَّبُونَ بعذاب الحريق في نار جهنّم. وجاء لفظ «المجرم» مقابلاً للفظ «المسلم»، ولا يكون المكلّف مسلماً صادقاً، ما لم يَكُنْ مؤمناً حقّاً وصِدْقاً. فدلَّت هذه الاستعمالات القرآنيّة على أنَّ الـمُجْرِمَ في المصطلح القرآنيّ هو الكافر الذي يَسْتَحِقُّ الخلود في عذاب النار، إذ لَا هو مُسْلِمٌ ولَا هُوَ مُؤْمِنٌ.

فجاء في العبارة لفظ **[مُجْرِماً]** إجمالاً لعبارة: غير مُسْلِمٍ ولَا مُؤْمِنٍ، وهذا من الإيجاز في التعبير.

«مَنْ» في عبارة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ اسْمُ شَرْطٍ جازم، وجواب هذا الشرط: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾.

والضمير في **[إنَّهُ]** هُوَ ضَميرُ الشَّأْن.

• ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: ومَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بَعْدَ مَوْتِه ويَوْمَ الدِّينِ مُسَجّلاً في صحيفة أعماله،

أنَّهُ قَدْ كانَ في الحياة الدُّنيا مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحات، أي: مُؤْمِناً مُسْلِماً عَمِلَ في إسلامِهِ أعمالاً صالحاتٍ مُرْضِيَاتٍ لِلَّهِ رَبِّهِ، فأُولٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجات العُلَا.

جاءت عبارة ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفصِّلَةً لصفاتِ المُسْلِمِ الصادقِ في إسْلَامِهِ مع مَزِيدٍ من العمل الصالح، في مقابل «المجرم»، فجاء التقابُلُ بَيْنَ مُجْمَلٍ في العبارة ومُفَصَّل.

وجاء لفظ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مراعاةً للمَعْنَىٰ الجمعيّ في لفظ «مَنْ» الشرطيّة، وجاء بصِيغَةِ اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم.

وجاءَ تفسير الدرجات العُلَا، بأنَّها جنَّاتُ عَدْنٍ، أي: جنَّاتُ إقامَةٍ دائمة، وثباتٍ واستقرار دائِمَين.

جنَّاتُ عَدْن: هي في المصطلح القرآني، تَقَعُ في مَنْزِلَةٍ وُسْطَىٰ بَيْنَ الفردوس الأعلى، وبَيْنَ المنازل الدُّنيا فيها(١).

ومن أوصاف جنّات عدْنٍ أنّها تجري من تحتها الأنهار، أي: من تحت أشجارها وقصورها.

وجاء في وصف أهلها أنَّهُمْ خالدون فيها.

• ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أي: وذلكَ الجزاء المقرّر لمن يأتِ ربَّهُ مؤمناً قد عَمِلَ الصَّالحات، يكونُ أيضاً لِمَنْ تَزَكَّىٰ، أي: لِمَنْ تَطَهَّرَ بالتَّوْبَةِ والإيمان بَعْدَ أنْ كان يَحْمِلُ أرْجَاسَ الكُفْرِ وارتكاب قبائحِ الذنوب، لأنّ الإيمان الصحيح الصادق يجبُّ ما قبله.

هذه الحقائق الدينيَّة الّتي تعلَّمها السَّحَرَةُ من مُوسَىٰ وهارون،

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (مريم).

وأعْلَمُوهَا لِفِرْعَوْنَ في دَعْوَتِهِمْ لَهُ إلى الإيمان والإسلام، هيَ من الحقائق الّتي تنزَّلَ بها القرآن، وجاءت في كلّ رسالاتِ الرُّسُلِ من عَهْدِ آدمَ عليه السّلام، حتى رِسالة محمّد بن عبد الله ﷺ.

وهي من عناصِرِ الدّين الذي اصطفاه الله للناس جميعاً، لأنّ الدِّين عِنْدَ الله الإسلام.

❁ ❁ ❁

تابع التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطات من قصة موسى عليه السّلام

الفقرة الرابعة
الآيات من (٧٧ ـ ٧٩)

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

القراءات:

(٧٧) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأَبُو جَعْفر: [**أَنِ اسْرِ**] بِكَسْرِ النون وهمزة وصْلٍ بَعْدها. ويَبْدَؤونَ بهمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ إذا بَدَءُوا بَعْدَ وَقْف بفعل [**اسْرِ**] وهي من فعل «سَرَى».

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ بإسكان النون، وهمزة قَطْعٍ بَعْدها، من فِعْل: «أَسْرَىٰ».

وهما وَجهان عَرَبيَّان متكافئان.

(٧٧) • قرأ حمزة: [**لاَ تَخَفْ**] علَىٰ أن «لا» حرف نهي يجزم الفعل

المضارع. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ على أنّ «لا» نافية، والفعل بعدها مرفوعٌ لخلُوّه من الناصب والجازم.

والقراءتان متكاملتان في أَدَاء المعنى المراد بيانُه، ففي «لا» الناهية كلَّفَه الله موسَىٰ أَنْ لا يَخاف، وفي «لاَ» النافية أبان له أنَّه لا يَجِدُ في عبوره مَا يخاف منه على نفسه، ولا على مَنْ معه من بني إسرائيل، وما مَعَهُمْ من أحمالهم، وأثقالهم ودوابّهم.

تمهيد:

طوىٰ النّصُّ هنا الذي من سورة (طه) بيان أحداثٍ كثيرةٍ جَرَتْ بَيْنَ مُوسَى عليه السَّلام من جهة، وبَيْن فرعون وملئه وقومه من جهة أُخْرى، وقَدْ جاء في متفرّقاتٍ من النُّصوصِ في عدّة سُور بياناتٌ مُوجزاتٌ لهذه الأَحْدَاثِ، ومنها أَنَّ الله عزَّ وجلَّ أجرىٰ لموسَىٰ الآيات التّسْعَ كلَّها الّتي كذَّبَ بها فِرْعَوْنُ ومَلؤُهُ وأنصارُهم جحوداً، واعتبروها من أنواع السّحر، مع أنَّ نفوسَهُم قَد استَيْقَنتها، لَكِنْ جَحَدُوها ظُلْماً وعُلُوّاً.

ويظهر أنّ إجراءَ هذه المعجزات قد كان خلال عدَّة سنين، جرَتْ فيها مفاوضاتٌ مُتَعَدِّدَات بين موسىٰ عليه السَّلام، وبَيْن فرعون، وكَانَ فرعون يطلب من موسَىٰ عليه السَّلام رفْعَ المصائب الّتي تأتي بها آيات الله، بدُعاء منه لربّهِ، ويَعدُه بأنه إذا تحقَّق رفْعُ البلاء أذِنَ لَهُ بأنْ يَخرجَ بِبَنِي إسرائيل من مصر، لكنَّهُ كان يَنْكُثُ كلَّما رَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ بَلاءَ الآيَةِ ومصائبها.

وكان فرعونُ وملؤه يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْلِمِينَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِهِمْ، وقومُهُم لَهُمْ عَابِدون، يعْنُونَ مُوسَىٰ وهارون عليْهُمَا السَّلام.

وانْتَقَلَ النَّصُّ مُفَاجَأَةً إلى بَيانِ فَصْل خروج بني إسرائيل بقيادة موسَىٰ وهارُون مِنْ مصر، دون إذْنٍ مِنْ فِرْعَونَ، وبيان فَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ بآيَةِ عَصَا

مُوسىٰ، وبيان خروج جميع بني إسرائيل وما معهم ناجين، وبيان اتّباع فرعون وجنوده لهم من مكان الغرق نفسه، إلَّا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ضَمَّ مياه الْبَحْر عليهم فأغْرَقَهُمْ جميعاً.

وقد جاء حول هذا الْفَصْل من قِصَّةِ مُوسَىٰ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ مِمَّا كَانَ تمهيداً له عدَّةُ نصوص قرآنية هي متكامِلَةُ الدَّلالاتِ فيما بَيْنَها، ويُسْتَفادُ مِنْ جَمْعِها إدْراكٌ كامِلٌ لما تَّحْسُنُ بحَسَبِ حكمة الله مَعْرِفَتُهُ من أحْداثِ هذا الفصل.

وأُقَدِّمُ تَدَبُّراً لَها وفْقَ الترتيب الذي يفتح الله عليّ به، عن طَرِيقِ التأمُّل فيها، ومَا تقتضيه طبيعة الأحداث.

نظرات تدبرية تكامليّة:

أقدم فيما يلي نظرات تدبريّة لمخْتَلِف النصوص المتَعَلِّقة بفَصْلِ رِحْلَةِ الخروج، وبعض ما يتّصل بها من مقدماتٍ كانت قُبَيْلَها.

والنصوص الّتي استخرجتها للدراسة التدبريَّة التكامليّة هي كما يلي:

(١) مِنْ سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) الآيات من (٣٦ ـ ٤٠).

(٢) من سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) الآيتان: (١٣ و١٤).

(٣) من سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) الآيات من (٢٣ ـ ٤٥).

(٤) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٣).

(٥) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (٥٢ ـ ٦٨).

ومن سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) الآيات من (٧٧ ـ ٧٩).

(٦) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآيات من (٩٠ ـ ٩٢).

(٧) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) الآية (١٣٦).

(٨) من سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) الآيات من (١٥ ـ ٢٦).

أولاً

نَصُّ سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول)

الآيات من (٣٦ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

القراءات:

(٣٧) • قرأ ابن كثير: [قَالَ مُوسَىٰ] بحذف حرف العطف.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بإثبات حَرْف العطف الواو. وفي القراءَتَيْن إشارةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَحْسُنُ الوصل بحرف العطف «الواو» باعتبار، ويحْسُنُ الْفَصْل بترك حرف العطف باعتبار آخر.

فباعتبار أنّ الموضوع يتحدّث عن الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السَّلام، في جملة: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾ وجملة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ كان الوصْلُ مُسْتَحْسَناً.

وباعتبار أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام كان يتحَدَّث في أحوال مختلفة قائلاً: [رَبِّي أعْلَمُ بِمَنْ جاء بالْهَدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ] دون أنْ يكون جواباً لمقالتهم، كان الفصل مستحسناً.

(٣٧) • قرأ حَمَزَةُ، والكِسَائي، وخَلَف: [وَمَنْ يَكُونُ] بالياء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَمَنْ تَكُونُ] بالتاء.

وهما وجْهان عربيان جَائِزان ومتكافئان، لأنّ عاقبة الدّار مجازيّة التأنيث.

(٣٧) • قرأ نَافع، وٱبْنُ كثير، وأبو جعفر، وأبو عَمْرو: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياءِ المتكلّم. وقرأ باقي القراء الْعَشَرَةِ [رَبِّي أَعْلَمُ] بإسكان ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٣٨) • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِر، وأبو جعفر: [لَعَلِّيَ أَطَّلِعُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَعَلِّي أَطَّلِعُ] بإسكان ياء المتكلم.

(٣٩) • قرأ نافع، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [لاَ يَرْجِعُونَ] ببناء الفعل للمعلوم.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [لاَ يُرْجَعُونَ] ببناء الفعل لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بيانُه، أي: لاَ يُرْجَعُون بإرجاع الله لهم، فهم لا يَرْجِعُون، هذا ظَنُّهم، لكنَّهُمْ يُرْجَعُونَ فَيَرْجِعُونَ مطاوعين قهراً.

تمهيد:

ما جاء في هذا النصّ دلَّ على أحداثٍ من المراحل الأخيرة، للنَّشاط الدَّعَوِيّ الّذي قام به موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلام، في سِيرَتِهما

مع فرعون وملئه وعموم القبط طَوَال سنين، وهذه المراحل الأخيرة مسْبُوقةٌ بإجراء الله عزَّ وجلَّ الآيات التِّسْعَ كُلِّها الّتي آتاها الله عزَّ وجلَّ لموسَىٰ عليه السَّلام خلال هذه المدّة من سيرته معهم، لإقناع فرعون فمن دونه بأنَّهُ هو وأخوه رسولان حقًّا وصِدْقاً، من عِنْدِ الله رَبّ الْعَالَمِين، وإقناعهم بأنّ الدين الذي جاءا به وبلّغاهُمْ إيّاهُ هو من عند الله رَبّ العالمين حقًّا وصِدْقاً.

ولا بُدَّ أن تكون دعْوَتُهُمَا قد اقترنَتْ بالإقناعات الفكريّة بأنَّ لهذا الكون رَبًّا يتصرّف بالعالمين وحْدَه، بصفات ربوبيَّته العظيمة، وأنَّهُ هو الإلَه الّذِي يجبُ أن يُعْبَدَ وحْدَه لا شريك له.

فما كانَ من الجمهور الأعظم من القبط، بدءاً من فرعون ونزولاً إلى سائر الشعب المصريّ إلّا التولّي والإدبار، وعدَمُ الاستجابةِ لدعوة موسَىٰ وهارون، واعتبار أنَّ الآيات البيّنَاتِ الإعجازيَّةِ التّسع التي جاءَا بها، هي من أنواع السِّحْر العظيم، خلافاً لما يَدَّعيان افتراءاً، من أنَّها آياتٌ حقيقيَّةٌ يُجْرِيهَا اللهُ رَبّ العالمين لهما، تصديقاً لهما بأنهما رسولان من قِبَلِ رَبّ العالمين حقًّا وصِدْقا، وأنَّهُما يُبَلِّغان عنه قضايا الدين حقًّا وصدقاً.

وفي هذا النصّ عرض أبْرَز مواقف فرعون في هذه المراحل الأخيرة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن مُوسَىٰ عليه السَّلام وسيرته في مصر:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى. . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: فلما جاءَ موسَىٰ فرعَوْنَ وملأه فمَنْ دونَهم من سائر القبط،

باستثناء من كان يكْتُمُ إيمانه، بآياتنا التِّسْعِ البيّنات وهي: «آيَة العصا ـ وآيَةُ اليد ـ وآيَةُ السنين، وهي الَّتي حصل فيها جَدْبٌ ونقصٌ من الثمرات في كلّ مصر ـ وآيَةُ الطوفان ـ وآيَةُ الجراد، وآيَةُ الْقُمَّل ـ وآيَةُ الضَّفادع، وآيَةُ الدَّم، وآيَةُ الرِّجْز وهو نوع من العذاب أنزلَهُ الله عليهم»[1] قالوا: ما هذا إلَّا سِحْر، أي: أعمال سحْرِيَّةٌ كُبْرىٰ. أمّا ادِّعاءُ أنَّها آياتٌ من آيات الله رَبّ العالمين فهو ادّعاءٌ مفترىً على الله.

قول الله تعالى تَتِمَّةً لِحِكايَةِ مَقالتهم:

• ﴿... مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: ما سمعنا بهذا الذي جاء به موسى وأخُوهُ هارون، من توحيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلَهيّة لموجود أزلِيٍّ أَبَدِيٍّ واحد، في أخبار آبائنا الأوّلين السّابقين، الذينَ كانوا علىٰ مِثْلِ دينِنا، فموسَىٰ وهارون قد جاءَا بدينٍ لم يَسْبِقْ لنا به عِلْمٌ، أو خبر مُتَوارَثٌ عن آبائنا، فهما مفْتَرِيان عَلَىٰ الحقيقة، ولَيْسَا على هُدىً، ولم يَأْتيا كما يَزْعُمَانِ بالْهُدَىٰ من عِنْدِ خالق الكون، وادّعاءاتُهما عن البعث، والحياة الأخرى، وعن الجنَّة دار المؤمنين المتقين، وعن النار دار الكافرين المجرمين، ادّعاءات باطلات مفتريات على الحقيقة، وما نَحْنُ عليه وما وَرِثْناه عن آبائِنَا هو الْهُدَىٰ.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

هذا رَدُّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وبيانُهُ الّذي كَانَ يُكرّرُه، وهو يشْتَمِلُ على ثلاث قضايا:

---

(١) وانظر لواحق تدبّر الآية (٢١) من سورة (طه) عند تدبر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

القضية الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾: أي: وبما أنَّه كذلِكَ، وهو الذي يجازي من أطاع ومَنْ عَصَىٰ، ومن الْتزَمَ هُداه، ومن افترى عَلَيْه، فَلْيَرْتقِبْ كلُّ فريقٍ منَّا عَاقِبَةَ أَمْرِهِ في الدنيا، وفي الآخرَةِ يَوْمَ الدّين.

القضية الثانية: دلّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

عاقبة الدار، وعُقْبَىٰ الدار: قد جاءا في القرآن للدلالة على دار النعيم يَوم الدين، وقد جاء في سورة (الرَّعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول) تفسير عُقْبَىٰ الدّار بأنَّها جَنَّات عَدْن، فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾:

العاقبة والْعُقَبَىٰ: مترادفان في المعنى، وهما بمعنىٰ: آخر كلّ شيء وخاتمته، وبمعنى: جزاء الأمر.

و(ال) في: ﴿ٱلدَّارِ﴾ هي للْكمال، ومعلوم أنّ الدار الكاملة في العاقبة الحسْنَىٰ هي جنَّاتُ عَدْنٍ فما فَوْقَها مِنْ دَرَجات، وأنّ الدار الكاملة في العاقبة السوأى هِي دركات عذاب الحريق، في جهنم دار عذاب المجرمين.

والإضافة في عبارة: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وعبارة: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ هي على معنى «في» أي: عاقبةٌ حسَنَةٌ جدًّا في الدار العظيمه الكاملة في صفاتها، والتي هي جنَّاتٌ عَدْن، ذَواتُ الدَّرجات الرفيعات في عُموم الجنَّة.

القضيَّة الثالثة: دَلَّت عليها عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: إنَّ الشَّأْن العظيم الّذي هو مِنْ سُنَنِ الله في عباده، أنَّ الظالِمينَ بالافتراء على الله، أو بجُحُودِ رُبوبيّتِهِ وإلَهيَّتِه والتمرُّدِ على طاعَتِه، لاَ يكون لهم فلاحٌ في الدنيا، ولا في الآخرة.

الفلاح: هو في اللُّغة الفوز، والنجاة، والظفر، والبقاء في السلطان.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

هَامَان: يظهر أنَّه الوزير الأول، والْيَدُ الْيُمْنَىٰ لفرعون، وذو السلطان النافذ في مملكته.

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾: أي: فاتَّخذ وسائِلَك ليوقد الْعُمَّالُ النار على اللَّبِن من الطين لِيَصِير آجرًّا.

﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾: أي: فأمُرْ الْبنَّائِينَ بِبِنَاءِ صَرْحٍ شاهقٍ لي، واتَّخذ كلّ ما يلزم لذلك.

الصَّرْح: هو في اللّغة القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهب في السّماء.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ﴾: أي: لِأَطّلِع، «لَعَلَّ» هنا بمعنى لام التعليل.

أَطَّلِع: أي: أنظر وأشاهد، يقال لغة: «اطّلَعَ إِلَىٰ الشيء» أي: تَطَلَّعَ وَنظر ليَعْرفه.

كان الإلّه في تَصَوُّرِهِمْ هو الإنسان الذي يجب على النّاس طاعة أوامره ونواهيه، والذي يجب على الشعب أنْ يخضعوا له خضوعاً تامًّا، ويكْتَسِبُ هذا الإنسانُ إلهيّتَهُ بقوَّةٍ وراثيَّةٍ من آبائه وأجدادَهِ الآلِهَةِ، وتكون هذه القوة المعنويّة في ذاتِ الملِك، وتمنَحُهُ هذا الحقَّ متَىٰ ملَكَ، إذْ تَحُلُّ فيه روح الإلّهيَّة الّتِي كانت في آبائه وأجداده.

وبما أنَّ فرْعَون قد كان هو مَلِكُ مصْرَ غَيْر مُنَازع، فإنَّه لا يَعْلَمُ أن

لِلْملأ وهم أعْيان مملكته مِنْ إلَه غيره، تجب طاعتُه، ويجب الخضوع له، وبما أنَّه هو إلَه الأعيان فلا بُدَّ أن يكون إلَهاً لكلّ من دونهم من شعب مملكته.

وبهذا أعْلَنَ أنَّهُ إلَه كلِّ شَعْبِه من القبط.

وإذْ يَدَّعي مُوسَىٰ أنّ إلَهَهُ في السَّماءِ، فأبن لي يا وزيري الأول، ويا ساعدي الأيمن، يا هامان، صَرْحاً مِنْ آجُرّ، لأرقَىٰ في طبقَاتِ هذا الصَّرْحِ لعلّي أشاهد في الأجواء العليا إلَه موسىٰ، فإذا لم أَجِدْ له وُجوداً فموسَىٰ كاذبٌ في ادّعاء أنَّ إلَهَهُ في السماء.

إنّ فرعون يخدع شعْبَه، إذْ يَزْعُمُ أنَّه إذا بنىٰ بناءً عالياً شاهقاً. وصَعَدَ إلى أعْلاَه فلا بُدَّ أن يُحيطَ نظره بكلّ شيء، فإذا لم يَجِدْ إلَهَ مُوسَىٰ، فإنّ هذا الإلَه لا وجودلَه، ومُوسَىٰ كاذبٌ في ادّعائه.

ويظهر أن جمهور شعبه كان يومئذٍ ساذج التفكير، أمّا الأذكياء فقد أغرقهم بالمنافع، فَهُمْ يُؤَيّدون أقوالَهُ، وهم يَعْلَمُونَ أنَّها باطلة ساقطة، لا قيمةَ لها، فَهُمْ يشاركونه في خِداع جمهور الشعب السَّاذج.

وأحْكَمَ خَدِيعَتَهُ التي أراد ترويجها في شعبه، إذْ قال قَبْلَ بناء الصَّرح عن موسى عليه السَّلام: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ فأظهر بهذه العبارة اهتمامَهُ بالتَّعرُّفِ على إله موسى، فلم يَقُلْ: وإنَّه من الكاذبين، بل جعل ذلك احتمالاً ظنيًّا، وأنّ مراقبة السماء من أعلَىٰ الصرح تكشف صحَّةَ هذا الظنّ أو عدم صحته.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤٠﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: وامتَنع عن قبول الحقّ معاندةً وتَكَبُّراً. وتَكَبَّرَ تكَبُّراً شدِيداً.

الاستكبار: يأتي في اللّغة بمعنىٰ الامتناع عن قَبُول الحق معاندة وتكبُّراً. ويأتي بمعنى التَكَبُّرِ بشِدَّةٍ، أخذاً من دلالة صيغة «استَفْعَل».

أي: وتكبَّر فرعون هو وجنودُه تكبُّراً شديداً، وامتنعوا عن قبول الحقّ الربّاني، بغير دليلٍ يُعْطِيهم شيئاً قَلِيلاً من العذر.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ - وفي القراءة الأخرى: [**لَا يَرْجِعُونَ**]:

أي: ولم يقْبَلُوا الإيمان بنبَأ البعث والجزاء في حياة أخرى، بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، من قِبَل رَبّ العالمين، مع أنّ هذا النبأ مقرونٌ بحججٍ عقليّة بيّنَة، وآيات إعجازيَّةٍ بَاهرة، آتاها الله موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلام.

وكان ظَنُّهُمْ الّذي اعْتَمَدُوا عَلَيه لإنكار يوم الدين، ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا باطلاً، يتَخيَّلُ أنَّ الحياة قاصرةٌ علىٰ هذه الحياة الدّنيا.

• ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ... ﴿٤٠﴾﴾: أي: فجعلنا في نفسه غيظاً يَدفعُه لاتّباع موسىٰ وقومه بجيشٍ قوي لمقاتلتهم، وقتْلِ كُبَرائهم، وإعادة سائر شعب بني إسرائيل عبيداً، وجعلنا في نفسه الخوف من عودة موسى بعد هذا الخروج بِجَيْشٍ مقاتل، وزيَّنَا لَهُ تكوين جيش لملاحقتهم وقتالهم، واسْتَدْرَجْنَاهم حتَّىٰ دَخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفلق.

فلمَّا اكْتَمَلَ دُخولُهُمْ جميعاً في الطريق الذي عَبَر منه موسَىٰ وقومُهُ وما معهم، وبَعْدَ أنْ تَمَّ عُبُورُ آخِرِ عابر من بني إسرائيل وما معهم وخروجهم من اليمّ، ضمَمْنَا على فرعون وجنوده فِلْقَتَي البحر فأغْرَقناهم أَجْمعين.

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾: أيْ: فَطرحْنَاهم وأَبْعَدْنَاهم من الحياة، كما يُطْرَحُ الشيء المحْتَقَرُ المكروه، ومنْهُ نَبْذُ النَّواة.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: فتفكّر أيُّها الصَّالِحُ للنظر التَّفَكُّرِيّ أيًّا كُنْتَ في مجاري قضاء الله وقدره وجزاءاتِهِ المعادلات، كيف كان عاقبة فرعونَ وجنوده، الظالِمِين ظلماً من دركة الكفر عناداً ومكابرة وإصراراً على الباطل، اغتراراً بزينات الحياة الدُّنيا.



ثانياً
نصّ سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول)
الآيتان (١٣ ـ ١٤)

قال الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتُنا التِّسعُ كلُّها، والفاء في عبارة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ تَعْطِفُ عطف ترتيب مع تعقيبٍ على آخر الآيات، لا على آيتي العصا واليد فقط.

﴿مُبْصِرَةً﴾: أي: واضحة مُضِيئة بَيّنة، يقال لغة: «أَبْصَرَ الطّرِيقُ فهو مُبْصِرٌ» أي: استبان ووضح.

قال أبو إسْحَاق: معنى «مُبْصِرَة» تُبَصِّرُهُمْ، أي: تُبَيّنُ لهم، وقَالَ الأخْفَش: إنَّها تُبَصِّرُهم، أيْ: تجْعَلُهم بُصَراء[1].

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (بصر).

وعلى هذا ففِعْلُ: «أَبْصَرَهُ» مثل فعل: «بَصَّرَهُ» أي: جَعَله يُبْصِر.

فالمعنى على هذا: فلمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبَصِّرَةً لهم بأنّ مُوسَىٰ وهارون رسولان من ربّهما صادقان، وبأنَّ مَا جاءَا به من قضايا الدين حقٌّ وصِدْقٌ يُبلّغانه عن الله ربّ العالمين.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: ما جاء به موسىٰ وأخوه هارون نوع من أنواع السِّحْرِ الكبرى، الّتي لم يتوصَّلْ إلى معرفتها سَحَرَةُ مصر كلُّهم.

﴿مُّبِينٌ﴾: أي: واضح جلِيّ، من فعل: «أَبَانَ الشَّيْءُ إبَانَةً فَهُو مُبِينٌ» أي: ظهر ووضحَ وكانَ جليّاً.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: أي: أنْكَرُوها، مع علمهم علماً يقينيًّا بأنَّها حقٌّ، أي: أنكرُوا كَوْنَها آيات من عند الله رب العالمين.

الجحود: هو إنكار كون الشيء حقًّا، مع الْعِلْم بأنَّه حقٌّ.

يُقَال لغة: «جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحوداً» أي: أنكر الحقّ مع العلم بأنَّه حقٌّ، ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّه، وجَحَدَهُ بحَقِّهِ» فالباء في [**وَجَحَدُوا بِها**] استعمالٌ عربيّ، ولا حاجة إلى البحث عن الغرض من ذكر الباء في العبارة، فهي للتعدية.

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾: أي: وعَلِمَتْ أَنْفُسُهم عِلْماً يقينيًّا لاَ شكَّ فيه أنَّها آياتٌ من آيات الله رَبّ العالمين حقًّا.

«**اليقين**»: هو العلْمُ الذي لا شكّ فيه، وأدْنَىٰ دَرَجاتِه ما اعتمد على أدلّة نظريَّةٍ فكرية. أو خبريَّةٍ صادقة لا يعتريها شكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أنْفُسُهم» وهو من جموع القلّة، إشارة إلى أن أصحاب هذا الاستيقان هم فرعَوْن وآله وأعوانهم المخلصون لهم، مثل: هامان، وقارون، وهؤلاء قليلون يناسبهم جمع القلة، وهم الذين جَحَدوا آيات الله البيّنات ظلماً وعلوًّا.

﴿ظُلۡمٗا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوىٰ، الّتي لا يُحْتَمَلُ من العصاة تجاوُزُها، أي: حالَة كونهم ظالمين، استعمل المصدر على معنى اسم الفاعل. أو مفعول لأجله، أي: وجَحَدُوا بها بسَبَبِ إصرارِهم في نفوسهم على الظلم الّذي لهم فيه سلطانٌ عظيمٌ ومنافع ومصالح.

﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾: أي: وحالَة كوْنهم مستكبرين، أو بسبب إصرارهم في نفوسهم على العلُوّ في الأرض، وعدم قبولهم اتّباع رسولي ربّهم، وعَدَم قبولهم الدِّين الذي جاءا به.

فقد كانوا يرَون أنَّ إيمانهم يَجْعَلُهم يخْسَرونَ شيئاً من سلطانهم في الأرض على شعبهم، وعبيدهم بني إسرائيل.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أي: فانْظُر أيُّها الناظر المتفكّر، كيف كَانَ جزاء المفسدين في الأرض، إذْ أغْرَقناهم وجنودهم أجمعين.

عاقبة عمل العامل: الجزاء الذي يكون بعده مباشرةً، أو بَعْد فاصلٍ زمنيّ، والأصل فيه ما يأتي عقبه.

المفسدون: هم الذين ينشرون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفْسَد فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: حولَهُ عن صلاحه، أو أتْلَفَه، وتحويل الشيء عن صلاحه يجعلُه غير صالح ولا نافع، وربَّما يجْعَلُه ضارّاً كريهاً مفْسداً لِغَيْره.

إضافات هذا النصّ علىٰ نصّ سورة (القصص):

بالمقارنة تبيّن لي أنّ هذا النصّ من سورة (النمل) قد أضاف إلى النصّ الذي سبق تدبُّرُه من سورة (القصص) فكرتين:

الفكرة الأولَى: أنّ فرعَوْنَ وملأه، ومن ورائهم شعب مصر، جَحَدوا

كون الآيات التّسْع آيات أجراها الله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون، لإثبات صِدْقِهما في ادّعاء أنَّهما رسُولا رَبّهما، وإثبات صِدْقِ ما جاءا به من الدّين عن رَبّهما، وادَّعَوْا كذباً وافتراءً على الحقيقة أنّ هذه الآيات العظيمات نوعٌ عظيمٌ من أنواع السّحر، مع أنّ أنْفُسَ فرْعَوْن ورهط ملئه معه كانت على يقينٍ كامل بأنّها آيات من عند الله ربّ العالمين، وليست من السِّحْر الذي زعَمُوه.

الفكرة الثانية: أنَّهُمْ كانوا قوماً مُفْسِدينَ في الأرض، بينما جاء في نصّ سورة (القصص) أنهم كانوا ظالمين.

فتكامل النّصّان في حدود البيانات التي اشتملا عليها.

وقد أجمل نصّ سورة (النمل) كلّ سيرة موسى الدعوية المصحوبة بالآيات الإعجازية التي أجراها الله له في مصر، بعبارة غاية في الإيجاز والطيّ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ فطوىٰ النصّ هُنَا كُلّ الأحداث الّتي جاء بعض تفصيلٍ لها في النصوص الّتي تحدَّثَتْ عن سيرة موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا السَّلام في مصر، وذكَرَ النَّصُّ هنا الفِقْرَة الأخيرة، وهي قولهم عن كلّ الآيات الرَّبَّانيّة الّتي أجراها الله لموسى ويُلْحَقُ به وزيرُهُ هارون عليهما السلام: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كُلُّ هذا الذي جرىٰ على يَدِ مُوسَىٰ وأخيه هارون طَوال سنين سِحْرٌ واضِحٌ جَليٌّ، يعتمد على أعمال سِحْرِيَّةٍ، تَصِلُ إلى حَدِّ تغييرِ حقائق الأشياء والتصرُّفِ في الظواهر الطبيعيَّة.

ومعنى النصّ بعد هذا التحليل: فعقب أنْ جاءتهم كُلُّ آياتنا الواضحات المضيئات بقوّة بيانها في أزمان متفرّقة، حتَّىٰ الآية الأخيرة منها وهي آية الرِّجْزِ.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج، في الحديث عن

آخر الآيات الرّبانية قبل خروج بني إسرائيل من مصر مباشرة، ما يلي:

«٢٩ فَحَدَثَ في نصف اللّيلِ أنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بِكْرٍ في أرْضِ مِصْرَ مِنْ بكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ إلَىٰ بِكْرِ الأَسِيرِ الَّذِي فِي السِّجْنِ وكُلَّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ ٢٠ فقامَ فِرْعَوْنُ لَيْلاً وكُلُّ عَبِيدِهِ وجميع المصريّين. وكَانَ صُرَاخٌ عظيمٌ فِي مِصْرَ. لأنَّهُ لم يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيِّتٌ. ٢١ فدَعَا مُوسَىٰ وهَارُونَ لَيْلاً وقالَ: قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أنْتُمَا وَبَنُوا إسرائيل جَمِيعاً..».

فقد يكون هذا هو الزّجْر، وقد تكون هذه الآية آخر الآيات الرَّبانية الّتي آتاها الله لموسى عليه السَّلام، ولكن كيف يأمُر فرعون بني إسرائيل بالخروج من مصر ثم يلاحقهم ليقاتلهم لأنهم خرجوا.

وعلى الرُّغم من شدّة وقْعِها، وما فيها من مصائب، جحَدَها فرعَوْنُ وكُبَراء دولته، حالة كونهم ظالمين بهذا الجحود، وظالمين في مخْتَلِفِ تَصَرُّفَاتِهِم، وحالة كونهم مُسْتَمْسِكِين بعُلُوّهم علىٰ شعب مصر القبطي، ومن يَرَوْنهم في مصر عبيداً لهم وهم بنو إسرائيل.

أو جحدوها بسَبَبِ حِرْصِهِمْ على أن يسْتَمِرُّوا ظالمين، وذَوِي عُلُوّ في أرض مصر، مُسْتَمْتِعين بمشاعر العظمة، ونفوذ أوامِرِهم ونواهيهم دون معارضة ولا معصية، وما يَحْصُلُونَ عليه بذَلِكَ من منافع ولذَّاتٍ وتحقيق مصالح خاصّة.

فأخَذْنَاهم واسْتَدْرَجْنَاهم، وزيَّنَّا لهم العبور في طريق الْبَحْر بين فِلْقَتَيْه الجامِدَتَيْنِ كالجبلَيْنِ العظيمين، حتى أغْرَقناهم جميعاً.

فانظر أيُّها المتفكّرُ أيَّا كنْتَ، في حكْمَتِنَا وعَدْلِنَا وعقوباتنا العادلاَتِ القاهرات، وانْظُرْ كيف كانت عاقبة هؤلاء المفسدين في أرض مصر، فرعون ومَلَئِه وجنودهم.

❁ ❁ ❁

ثالثاً
نصّ سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول)
الآيات من (٢٣ ـ ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

تمهيد:

هذا نصٌّ طويلٌ من سورة (غافر) يتضمَّن الحديث عن المراحل الأخيرة، من سيرة موسىٰ ومعه أخوه هارون عليهما السلام، في مسيرتهما الدّعَويّة، لفرعون وَسَاعِدَيْه الأيْمَنِ والأيْسَرِ: هامان من القبط، وقارون من بني إسرائيل، ويُلْحَقُ بهم ملأ فِرْعَونَ الّذين لهم نفوذ في قَصْرِه وهم أعْيَانُ دَوْلته، ثُمَّ سَائرُ شَعْبِ مصر.

وفي هذا النصّ تفصيل أحداثٍ لم يأتِ بيانٌ عنها في النصوص الأخرى، وبيانُها بالتفصيل مع تَدَبُّر النصّ يطول كثيراً.

ويَحْسُن هنا أَنْ أقْتَصِر على المقْدَار الموفي ببيانٍ غير ذي طولٍ، وإذا يسَّر الله عزّ وجلّ، وأمَدَّ بالْعُمْر وقضى، فَسَأَسْتوفي التدبّر بالتفصيل الْمُسْهَب على مقدار مشيئته، لدى تدبّر سورة (غافر).

وجدير بالمتدبّر الحصيف، أن يقعَ في تقديره باستمرار أنّ بيْنَ هذا النصّ وبيْنَ سَائِرِ النُّصُوص الواردة في القرآن المجيد بشأن الحديث عن هذه المراحل الأخيرة من سيرة دعوة موسى ومعه أخوه هارون في مِصْرَ قَبْل الخروج ببني إسرائيل منها، تكاملاً في الدلاَلاَت على المعاني المراد بيانها، ضِمْن منهج القرآن الكريم في توزيع عناصر الموضوع الواحد، على النُّصوص المتفرّقَةِ الواردة في سُورٍ متعددة منه.

نظرات حول تَدَبُّر تحليليّ للفِقرات:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾:

لم يُذكَرْ في هٰذِهِ الآيَةِ هارونُ عليه السَّلام، لأنَّهُ وزيرُ أخيه موسى، والمساعد له، فهو مُلْحَقٌ به حُكْماً.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بآيَاتِنا التِّسْعِ الخارقَاتِ الّتي أجراها عزّ وجلّ لموسىٰ وهارون، وقد سبَق من قريبٍ بيانُها بالتفصيل.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: وبرهان عقْلِيٍّ واضح الدَّلالة، مُلْزِمٍ بالتَّسْلِيم، لِمَنْ كان ذا فِكْرٍ سليم، مستَعِدٍّ للتَّنازُلِ عن أهوائه، ونزَعَاتِهِ، ونزغاتِ شيطانه، ومُسْتَعِدٍّ للإيمان بالحقّ.

السُّلْطان: يأتي في اللّغة بمعنىٰ: «الْحُجّة والبرهان» وبمعنىٰ: «الْقُوَّة والْقَهْر» وبمَعْنَىٰ «الْمُلك والْوِلاَيَةِ على الناس» والمناسب هنا المعنى الأوّل.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾:

خُصَّ هؤلاء الثلاثَةُ بالذكر في هذا النصّ، للدَّلالة على أنَّ فِرْعَوْنَ هو المَلِكُ الّذِي جعلَ نَفْسَهُ إلَهاً لشَعْبه، وأنَّ هامان وَزِيرُه الأوّل، وساعِدُه الأيْمَنُ المنفّذ لرَغباته، والمَشارِكُ لَهُ في السُّلطان على شعب مصر، ولأنّ

قارونَ وزيرُه الثاني، وساعدُه الأيْسَر في التَّسَلُّطِ على شعْب بني إسرائيل، إذْ هو إسرائيليٌّ مُنْتِفعٌ من القصر الفرعوني، ليُحقِّقَ مَطالِبَ فرعون في بني إسرائيل، في البغي عليهم.

ذُكِرَ قارُونُ هنا في هذا النصّ إضافة على ما جاء في النَّصَّيْنِ السابقين.

• ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فقال هؤلاء الثلاثة عن موسى عليه السَّلام: هذا ساحِرٌ كذّابٌ في ادّعاء أنَّه رسُولُ رَبّ العالَمِين، وكذلك قالوا عن هارون، لأنَّه وزيرُ مُوسىٰ وساعِدُه الأيمن، فما يكونُ حَديثاً عن موسَىٰ ينْسَحبُ على هارون.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾:

هذا بيانٌ صادرٌ عن الله عزّ وجلّ، أي: فلمَّا جاءهم موسى باعتباره الرَّسُول الأوّل بالحقّ، من الآيات البيّناتِ الخوارق، والحجج البرهانيّة الدامغة.

• ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ﴾:

أي: اقْتُلُوا من أولاد الّذين آمَنُوا مع مُوسَىٰ برَبّ العالمين، وبما جاء به من عند ربّه على ما يَزْعُم، الْمَوالِيدَ الذُّكور، واستبقُوا المولودات الإنَاثِ أحياءً، لِيَبْلُغُوا مَبْلَغَ النّساء، فنَنْتَفِعَ مِنْهُنَّ بالاستعباد والتَّسْخِير.

عبارة: ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ذَاتُ لاَزِمٍ فِكْرِيّ يُفْهَمُ بالتّلْقَائِيَّة، أي: آمَنُوا بِمُوسَىٰ وهارُونَ رَسُولين، وآمَنُوا بالله رَبّ العالمين، وآمَنُوا بما جاءا به من عند الله، وكانوا مع موسَىٰ بهذا الإيمان مُصَاحِبين له.

ومعْنىٰ: ﴿وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ﴾: احرصوا على استبقاء مواليدهم من الإناث، لأنَّ مصيرهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نساءً، وعندئذٍ نَسْتَعْبِدُهُنَّ، ونُسَخِّرُهُنَّ، ولا يَسْتَطِعْنَ أَنْ يُكَوِّنَّ جيشاً لِقِتَالِنا.

• ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾:

الكيد: التدبير، سواءُ أكان خفيًّا أم ظاهراً بحَقٍّ أمْ بباطل، وفيه مَكْروه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

وكيْدُ الكافرين إنّما يَكُونُ بالباطل، ضدّ الحقّ وأصحابه، وهو لاَ يكُونُ إلَّا في ضلالٍ، أي: لا يكون إلَّا منْغَمساً في ضلالٍ، أي: في ضياع، فلا يُحقّقُ في آخر الأمر لهم إلَّا خيْبَةً وخَسَاراً، لأنهم يريدون بكيْدِهِمْ إدْحَاضَ الحقّ الرَّبَّاني.

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾:

أي: وقال فِرْعونُ لهامانَ وقارونَ وَسَائِرِ مَلَئِهِ من آلِهِ وأَهْلِ مشورته: دَعُوني أقْتُلْ مُوسَىٰ، ولاَ تُشِيرُوا عَلَيَّ بِعَدَم قَتْلِهِ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ أُنفِّذَ فيه الْقَتْلَ بِسُرْعَةٍ وسِرّيّةٍ، دُونَ أن يَصِلَ إِلَيْهِ عِلْمٌ بِعَزمنا عَلَىٰ قَتْلِهِ، أَوْ بإصْدَار قرارِنا بقَتْلِهِ.

• ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾:

• **[أو أَنْ يُظهِرَ]** في قراءة حفص ويعقوب، من فِعْل «أَظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

• **[أَوْ أَنْ يَظْهَرَ]** في قراءة شُعْبَة، وحمزة والكسائي وخلَف من فِعْل: «ظَهَر يَظْهَرُ» وبالعطف بحرف العطف «أو».

• **[وَأَنْ يُظْهِرَ]** في قراءة نافع، وأبي عمرو، وأبي جعفر، من فعل: «أظْهَرَ يُظْهِرُ» وبالعطف بحرف العطف «الواو».

• **[وَأَنْ يَظْهَرَ]** في قراءة ابْنِ كثير، وآبْنِ عامر، من فعل «ظَهَرَ يَظْهَرُ» وبحرف العطف «الواو».

مؤدىٰ قراءتي **[يُظهِرَ]** و**[يَظْهَرَ]** متقارب، وفي «يُظْهِر» معنىٰ: ويَعْمَلَ

مُوسَىٰ على إظهار الفساد. وفي [**يَظْهَرَ**] معْنَىٰ: وتكون جُرْأَتُه علَيْنا في دعوته، وإجرائه الخوارقَ سَبباً في جُرْأة بني إسرائيل علَيْنا، وربّما في جرأة القِبْط أيضاً.

وفي قراءتي: «أو» و«الواو» دلالة على أنّ فرعون قال مرّة: ما يدُلُّ على تخوُّفه من حدوث أحد الأمرين: تبديل الدّين، أو ظهور الفساد في الأرض، ومرادهُ بظهور الفساد، خروج الشعب عن طاعته، والخضوع لأوامره ونواهيه. وأنه قال مرّة أخرى بعد ذلك ما يدلُّ على تخوُّفه من حُدوث الأمرين كليهما.

وتبديل الدين يكون بأن ينتشر الدين الذي جاء به موسىٰ في الشعب القِبْطي، بتأثير دعوته، وتأثير خوارقه الّتي يأتي بها.

وإظهار الفساد يكونُ بأن يتمرَّدَ الشعبُ المصريّ على أوامر القصْرِ الفرعوني ونواهيه، والثَّوْرَة على التقاليد السُّلْطانيّة المتبعَة.

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وبلَغَ موسىٰ عليه السَّلام، ما عرَضَهُ فرعَوْن على أهل مشورته، إذْ قال لهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ولعَلَّ الذي أبْلَغ موسىٰ ذلك سرّاً مؤمِن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، وهو من أهل مشورة فرعون، إذْ كان يتّصِلُ بموسى عليه السلام سِرّاً، ويأخذ عنه القضايا الدينيّة وأدلّتَها.

فاستعاذ موسَىٰ عليه السَّلام قائلاً: لكُلّ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنْ بَنِي إسرائيل، ومن القبط: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ولا بُدَّ أنْ تكون هذه المقالة العلنيَّةُ قد بَلَغَتْ فِرْعَوْنَ وملأهُ، فخافوا من دُعائه، قبل أنْ يُصْدِرُوا قراراً بالأَمْرِ بقَتْلِهِ، وربّما عَدَلُوا عن ذلك بسبب دُعائه.

﴿عُذْتُ﴾: أي: لُذْتُ، واعْتَصَمْتُ، والْتَجَأْتُ، إلى ربّي وربّكُمْ، ليحْمِيَنِي مِنْ كيْد فرعَوْنَ وملَئِه، ومِنْ كَيْدِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ بقُوَّتِهِ وسلطانه، جبّارٍ مُتَسَلِّطٍ يُكْرِهُ النَّاسَ بالْقُوَّةِ والعنف علىٰ ما يريد، ولا يُؤْمِنُ بالجزاء الرَّبَّانِيّ يَوْمَ الْحِسَاب.

• ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وقال مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ يَكْتُمُ إيمانَهُ وإسْلامَهُ عن فِرْعَوْنَ وملَئِه، وعَنْ كُلّ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُوصِلَ الْعِلْمَ إلى الْقَصْر الفرعوني، بأنّه آمن بموسَىٰ واتَّبَعَ دِينَهُ الَّذي يَدْعُو إلَيْه.

ولا بُدَّ أن يكونَ هذا الرَّجُلُ من أهْلِ مشُورَةِ فِرْعَوْنَ في قصرهِ، ومن الذين يَحْضُرُون المجالسَ الّتي تُعْرَضُ فيها قضايا الدولة، وما ينْبَغِي أنْ يُتَّخَذَ مِنْ قراراتٍ وأوامر حيالَها.

• ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾؟!:

أي: إنَّ هذا الرَّجُلَ مُوسَىٰ لم يَعْمَلْ عَملاً يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْقَتْلَ بمقتضى أنظمةِ وأعْرَاف الْقَصْرِ الفرعوني، فَمَا هي ذَرِيعَتُكُمْ لِقَتْلِهِ بمُقْتَضَىٰ أنْظِمَتكُمُ الْمَرْعِيَّة.

ألأجْلِ أَنّهُ يَقُولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وليْسَ فرعون مصر ربّي، تَقْتلونَهُ وقد جاءَكُم بالْبَيّناتِ مِنْ الآياتِ الخوارق، وهي الآيات التّسع، وجاءَكُمْ بالْبَيّنَاتِ والحجج والبراهين العقليّة من ربّكُمْ؟!.

ويظهر أنّ هذا الرَّجُلَ المؤمِنَ من آل فرعون قَدْ قَالَ قولَهُ، هذا وما بَعْدَهُ في إحدى الجلَسَات الرسميَّة، لمجالس المداولات الاستشاريَّة في القصر الفرعوني، إذْ هو أحَدُ أعضائه.

• ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وإنْ يَكُنْ (حُذِفَتْ النُّونُ تخفيفاً وإيجازاً في اللَّفظ) كاذباً على رَبّه فيما ادّعاه، فإنَّ كَذِبَهُ سَيَجْنِي عَلَيْهِ، فيُنْزِلُ الرَّبُّ علَيْهِ عذابَه، لأنَّهُ يَفْتَرِي عليه، والرّبُّ لا يَتْرُكُ أحداً يَفْتَرِي علَيْهِ دُونَ أَنْ يُنْزِلَ به عقابه.

• ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ... ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وإنْ يكُن صادقاً في أنّه رسولُ رَبّ العالمين، وصادقاً فيما يُبَلّغُ عنه، فلا بُدَّ أنْ يُصِيبكُمْ نازالاً بكُمْ بعْضُ الذي يُنْذِرُكم إيَّاهُ من عذاب الله، في أخف الاحتمالات، إنْ لم يُصِبْكُمْ كلُّ ما أنذركم به.

﴿يَعِدُكُمْ﴾: أي: يَعِدُكم به، **الوعد**: يكون في الخير، ويكون في الشرّ، يُقال لغة: وَعَدَهُ بنفع، ووَعَدَهُ بضرّ.

لقد خَفَّف هذا المؤمِنُ مِنْ أسْلُوبه الإنذاريّ، ليكُون كلامُهُ أوقَعَ في نفوس كُبَراءَ الدَّولة الفرعونيّة، ذوي الكِبْر والبَأْسِ والكلمة السلطانيّة النافِذَةِ في ظلّ تَمْكِينِ فرعَوْنَ لهم.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: إنّ الله رَبّ العالمين، لا يَترُكُ أحداً يَسِير مَهْدِيًّا ناجحاً في حالة كونِه مُسْرِفاً في ادّعائه على ربّه، متجاوزاً حُدُودَ الحقّ، كذَّاباً في ادّعاءاته عليه.

لكنَّ الّذي رأيْنَاهُ، هو أن الله قَدْ أمَدَّهُ بالآيات التي أجراها لَهُ، فكان فيها مَهْدِيًّا على صراط الله المستقيم.

• ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ... ﴿٢٩﴾﴾:

في هذا الخطاب تودُّدٌ من مُؤْمِنِ آل فرعَوْنَ، لأعضاء المجلِسِ الفرعونيّ، بعبارة: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أي: أنا مِنكُمْ وأنْتُمْ مِنّي، لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ،

حَالة كونِكُمْ ظاهِرِينَ في الأرض المصريّة، بتمليك الله لَكُمْ هذا المُلْكَ، وتَمْكينِكُمْ مِنَ الظُّهورِ والتَّفوُّقِ السُّلْطانِيّ، ومِنْ واجِبكُمْ أنْ تَشْكُرُوا الله على ما حَباكُمْ من هذا المُلْك، لا أن تُقاوِمُوا دَعْوَةَ رسُوله، وتُحارِبُوها.

• ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا... ﴿٢٩﴾﴾؟!.

أي: فَمَنْ يَنْصُرُنا، فيحْمِينَا من بأسِ الله إنْ جاءنا؟!. ضُمِنَ فعل «يَنْصُر» معنى فعل: «يَحْمي، أو يقي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَته.

البأس: هو العذابُ الشديد.

وتلطَّفَ في عبارته فلَمْ يَقُلْ: إذا جاءَنَا، مبيّناً رُجْحانَ تَحقُّقِ الوقوع، وإنما قال: ﴿إِن جَآءَنَا﴾ مبيّناً احْتِمالَ تحقُّق الوقوع ولوْ بالظّنّ الضعيف، وهذا من حكمته في الدّعْوَة إلى الله.

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾:

دلَّ هذا القول الذي صدر عن فرعون، على أنَّهُ قَدْ ضَاقَ صَدْرُه من أقوال هٰذا الرجُل من آلِه، وأراد أنْ يَقْطَعَ عليه الحديث، خَشْيَة أن يُؤَثّر على غَيْرِه من كُبَراء دوْلَتِه في مجْلِسِه الاستشاري، فقال لهم: ما أُرِيكم فيما أقدّمُ لَكُمْ من رأْي، إلّا مَا أراهُ أنَا لِنَفْسِي، وما أهديكُمْ فيما أقُولُ لَكُمْ إلّا سَبيلَ الرَّشاد.

الرَّشاد، والرُّشْدُ، والرَّشَدُ: السُّلُوك الفكريُّ، والنفسيُّ، والخُلقيُّ، والعمليُّ، الموافق للحقّ والصواب، أوْ لِمَا هو الأفضل والأحْسَنُ، والأكثر نَفْعاً، والأبْعَدُ عَن الضرر.

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

أي: لكِنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ لَمْ يَنْقَطِعْ عن متابعة كلامه، في مجلس

فرعون الاستشاريّ، وأغْفَلَ إشارة فرعَوْن له بأنْ يكُفَّ عَنْ مُتابَعَةِ حديثه، إذْ قَدَّم فرعَوْن كلمتَه القاطعة، بل تابع كلامه، وربّما تابع كلامَهُ في جَلْسَةٍ أُخْرَىٰ لاحِقَة.

فأبانَ خوفَهُ عليهم بعْدَ أنْ تلَطَّف بهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ من أنْ يُنْزِلَ الله بهم عذاباً وإهلاكاً شاملاً، مثل ما أنْزَلَ مِنْ عذابٍ وإهلاكٍ في يَوْم الأَحْزَاب، أي: في الأيَّام الّتي أنزل فيها عذابَهُ وإهلاكه، وفي عبارة: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذه الأيَّام هي بمثابَةِ يوم واحِدٍ، لتَشابُهِ نتائجها في التعذيب والإهلاك، ولأنَّها خاضِعَة لسُنَّةٍ ربّانِيَّةٍ جزائيَّةٍ واحدة.

والمرادُ بالأحْزَاب أحزَابُ الكفْرِ والعناد الّتي سلَفَتْ في التاريخ البشري. وقد جاء تفسير ذلك بعبارة: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

الدَّأبُ: العادة، والسُّنَّةُ الثابتَةُ الّتي تَتَكَرَّرُ في أحداث الدهر. أي: مثل سُنَّةِ الله الجزائيّة الّتي تكرَّرَتْ في قوم نوح، وقوم عادٍ، وقوم ثمود، والّذين من بَعْدِهم من أقوام أهلكهم الله عزّ وجلّ بسبب كُفْرهم، وعنادهم، وتمرُّدِهم على رُسُلِ ربّهم.

- ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾:

أي: وتعذيب الله لهؤلاء الأقوام وإهلاكُهم إهلاكاً جماعيًّا ماحِقاً، قد كان بمقتضىٰ حِكْمَةِ الله رَبِّ العالَمِينَ وعَدْله، ولم يَكُنْ ظُلْماً منْهُ لَهُمْ، لأنَّ الله لاَ يُرِيدُ بحالٍ من الأحْوالِ ظلْماً ما لعباده، فيما يجريه عليهم من تَعْذِيب وإهلاك جماعيٍّ شامل.

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾:

﴿ٱلتَّنَادِ﴾: هو التنادِي، حُذِفَت الياء إيجازاً في نُطْق اللفظ، وتخفيفاً، ونظيرُه في القرآن كثير، وهو من أساليب العرَبِ في النطق.

يقال لغة: تَنَادَىٰ القوم، أي: صار ينادِي بعضهم بعضاً.

وأطلقت عبارة: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ على «يوم الدّين» لما يحْصُل فيه من تنادٍ، إذْ يُنَادِي فيه أهل الإيمان أهْلَ الكفر نداءً عَنْ بُعْدٍ بين الفريقين، وينادي فيه أهل الكفر أهل الإيمان.

ومن التنادي يوم الدين، ما يلي:

(١) قول المنافقين للمؤمنين في المحشر عند السَّوْق، كما جاء في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا . . . ﴿١٣﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

- ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ . . . ﴿٣٣﴾﴾:

أي: يَوْمَ تُحاوِلُونَ أنْ تَنْأَوْا وَتَبْتَعِدُوا عَنْ مكان دَارِ الْعَذَابِ، مُدْبرينَ عنها، تَجْعَلُونها وراء ظهوركم رَغْبَةً في أنْ تَفِرُّوا منها.

• ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ . . . ﴿٣٣﴾﴾:

«مِنْ» معناه هنا «الْبَدَل». أيْ: ما لَكُمْ بَدَلَ الله من عاصِمٍ يَعْصِمُكُمْ مِنْ عذابه، الّذي قضىٰ به عليكم بسَبب كُفْرِكُمْ وإجرامكم.

• ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ. . . ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ومَنْ يَحْكُم الله يَوْمَئِذٍ عليه بالضَّلاَلِ، بناءً على إدانَتِهِ بأنَّه كَانَ في الحياة الدُّنْيا ضَالًاَ كافراً مُجْرِماً باختياره الحرِّ، فَمَا لَهُ منْ هَادٍ يحْكُم لَهُ بالهداية، إن الحكْمُ يومئذٍ إلَّا لله.

ولا بُدَّ أن تكون هذه الحقائق الدينيَّة قَدْ تَعلَّمَها مُؤمنَ آل فرعون من موسى في لقاءاته السّرّية له، بعْدَ إيمانه بصِدْق الآيات الخوارق الّتي آتاه الله إيَّاها، أو من هارون عليه السَّلام، فكلاهما كانَا رَسُولَيْن يَدْعُوان في مصر إلَىٰ دِينِ الله الحقّ.

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ. . . ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وأُأَكّد وأُحِقّقُ أنّه قد جاءكم يوسف من قبلِ موسَىٰ وهارون، بالحجج والبراهين الواضحات، حولَ الإيمان بالرَّبّ الواحد الذي هو الإله في الوجود، لا إله إلَّا هو، وحول وُجُوبِ اتّباع ما أنزل الله لعباده من شرائع الدِّين وأحكامه.

• ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ. . . ﴿٣٤﴾﴾:

﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ **الزوال**: التحوُّل والانتقال. يقالُ لغة: «زَالَ من مكانه، وزال عن مكانه، يَزُولُ، زوالاً، وزَوَلاَناً» أي: تَحوَّلَ عنْهُ، وانْتَقَلَ إلَىٰ غَيْره.

أي: فما تحوّلْتُم عَنْ مكانِ انغماسِكُمْ في شَكٍّ ممَّا جَاءكم بِهِ عَنْ ربّكم.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ . . . ﴿٣٤﴾﴾:

﴿هَلَكَ﴾: أي: ماتَ بعْدَ أن توفَّاهُ الله أجلَه في الحياة الدنيا.

أي: حتَّىٰ إذا مات اعْتَرَفْتُم بأنَّهُ كان رسولاً من رَبّكم، وزعمْتُم أنّ الله لَنْ يَبْعَثَ من بَعْدِه رَسُولاً، يُبَلِّغُكُمْ عنْ رَبّكم ما يجب عليكُمْ أن تُقْلِعُوا عنه، من كُفْرِيّاتٍ وجرائم. فصرتُمْ بعْد موتِه منطلقين في رُكُوب الآثام التي لكم بها لذَّاتٌ وشهواتٌ وتحقيق أهواء بإسراف، ولَيْسَ بينكُمْ ذو سلطانٍ يرْدَعُكُمْ عنها، ويخوِّفُكم من عَذَابِ ربكم.

• ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فضَلَلْتُمْ في أقوالِكُمْ وسُلُوككم، فحكَمَ اللَّهُ عَليكُمْ بالضلال، وكذلكَ الّذي كان منكم، وحُكِمَ بِهِ عليكُمْ بالضلال، إذِ ارْتَبْتُمْ شاكّين في الحقّ الرَّبّاني، وإذْ أَسْرَفْتُمْ في رُكُوب الآثام، يُضِلُّ اللَّهُ بِعَدْلِهِ وحكْمَته، كُلَّ مَنْ هو مُسْرِفٌ في آثامه، مُرْتَابٌ شَاكٌّ فيما جاء عن رَبّ العالمين، مقروناً بالبراهين الْيَقِينِيَّة، فَسُنَّةُ اللَّهِ في عباده واحدة.

• ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: الّذِين يجادِلُونَ في صِحَّةِ آيَاتِ الله البرهانية من الخوارق، وفي صحة آياته البيانيَّة المؤيَّدَة بالبراهين العقليّة، ليَتَّخِذُوا المجادلَةَ وسيلةً لإنكار الحقّ الرَّبَّاني، وليْسَ لَدَيْهم حجَّةٌ صَحِيحةٌ جَاءَتْهُمْ من رَبّهم، من براهين عقليَّة، أو كتابٍ صحيحٍ مُنَزَّلٍ من عند الله، يَكُونونَ مَمْقُوتين من الله ومن الّذين آمَنُوا باللَّهِ مقْتاً كبيراً.

• ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: كَبُرَ مَقْتُ عَمَلِهم، عند الله، وعند الذين آمنوا بالله وبما أَنْزَل الله لعباده.

المقْتُ: أشَدُّ الكراهيَة.

• ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾:

الطَّبْعُ علىٰ القلب: جَعْلُهُ محجوباً عن إدْراكِ شيءٍ مَا يتعلَّقُ بما هو محجوبٌ عنه.

الطَّبْعُ في المادّيَّاتِ الْمُحَسَّةِ كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم، إذا أَرْسَلُوا رَسَائِلَ وَأَرَادُوا المحافظة على سِرِّيَّة ما فيها، أقْفَلُوها بإحكام، ووضَعوا عند مكانِ إقفالها طِيناً خاصّاً يطبعونَ علَيْه خاتَمَهم الخاصَّ بهم، فيجفُّ الطينُ ومِثَالُ الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ مَا في داخِلِ الرّسالة إلَّا بِكَسْرِ خاتم الطين.

وعلى سبيل التشبيه والتوسُّع في التعبير جاء في القرآن التعبير بالطبْعِ والختم على القلوب، للدّلالة على أنَّها صارَتْ محجوبةً عن إدْراكِ شيءٍ مَا يتعَلَّقُ بما هي محجوبَةٌ عَنْه.

وطبْعُ اللَّهِ عزّ وجلّ على قَلْبِ الْعَبْد، يكونُ نتيجةً لما يكْسِبُهُ الْعَبْدُ بإرادته الحرَّةِ، من أعْمَالٍ ظاهرة وباطنة، يتولَّدُ عَنْها بمقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في قوانين الأسْبَاب والمسَبَّبَاتِ الثابتاتِ نتيجةُ الطَّبْع، وهذه القوانين إنَّما تتحقَّقُ نتائجها بخلق الله عزّ وجلّ، كإماتةِ الله مَنْ يقْتُلُ نفسه بِحَديدة، أو يَحْتَسي شراباً فيه سُمٌّ قاتل.

فالمعنى: مثل ذلك الطبع الّذي طبعَهُ الله عَلَىٰ كُلِّ قُلُوبكم، فَحَجبَكُمْ عن إدْراكِ الحقّ الرَّبَّانِي، بسبب كِبْرِكُمْ، وحِرصِكُمُ الشديد علىٰ الْعُلُوِّ في الأرض، وبسَبَبِ جبروتِكُمْ وقَهْرِكُم الظالم لعباد الله، يطبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ جوانب قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ، فلا يَكونُ في جانِبٍ منها مقدارٌ غيْر محجوبٍ تَدْخلُ مِنْهُ أنْوار الهداية الرَّبَّانِيَّةِ إليه، وهذا من سُنَنِ الله في عباده المتكبّرين الجبَّارِين.

إنّ هذه الحقائقَ الدينيَّةَ ما كان لمؤمن آل فرعون أنْ يَعْلَمَها وينطقَ بها في دعْوَتِه، لكُبَراء رجال الْقَصْر الفرعوني، ما لم يكُنْ قد تَلَقَّاها من موسَىٰ أو من هارون عليهما السلام، وتلَقَّىٰ مَعَها وُجوب الدَّعوة إلى دين اللَّهِ بجُرْأةٍ حكيمة.

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾:

ما جاء في هذا البيان دلَّ على حركة مُراوَغَةٍ اتّخذَها فِرْعَوْنُ، بَعْدَ البيان المنطقيّ الحكيم المؤثّر، الّذي قدّمه المؤمن من آلِه وأَهْل مشورته، بمُوسَىٰ عليه السَّلام وبما جاء به عن ربّه، ووقوفِه في مَجْلِس مستشاريه موقف الدَّاعي إلى الإيمان بالحقّ الرَّبّاني.

وغرض فرعَوْن أنْ يُشْعِر المؤمن من آله، ومَنْ يكون قَدْ تأَثَّر بِبَعْض أقواله، بأنَّه سيَبْحثُ في قضيَّةِ صِدْق مُوسَىٰ بحثاً جادّاً، عن طريقِ بناء صَرْحٍ رَفيع البنيان، يحتاج إتمامه زمناً طويلاً، رَغْبَةً في أن يَصْعَدَ إلى أعلاه، فيَصِلَ إلى أسْبَاب السَّمَاوات، فيتخذها مُرْتقياً إليها، ليُشَاهِدَ فيها إلَه موسَىٰ.

لم يكن فرعونُ من الغباء الّذي يتصوَّر معه أنَّهُ قادر بوسائله أن يرتقي إلى السماوات، لكنَّهُ أرادَ أنْ يخادع بأنَّهُ سَيَتَّخِذُ وسائِلَ يَصِلُ بها إلى إلَه مُوسَىٰ في السماء، فإنْ شاهده آمن به، وإنْ لم يشاهده ظهر له أنَّ مُوسَىٰ كاذبٌ من الكاذبين.

وقدّم فرعون عبارة غير مقطوع بها في قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ليُخَفِّفَ بها شِدَّة انْدِفاع المؤمن بموسى من آله في الدعوة إلى الإيمان بموسىٰ وبما جاء به، وليُؤَجّل بحث الموضوع، ويَتَّخِذَ في السّرّ وسائلَ يتخلَّصُ بها من هذا المؤمن من آله، فيمكُرَ به، ويُدَبّر أمْرَ قتله دون أن يَشْعُرَ به أحد.

ألاَّ أَنَّ مَكْرَ الله كان أسْرع من مكْرِه، وكَيْدَ الله كان أشَدَّ مِنْ كيده، فأحْبَط تَدْبيراته، واستدرجَهُ إلى مُتَابَعَةِ بني إسرائيل الّذين خرَجوا من مصر دون أن يأذن لهم بالخروج، وأغْرَقَهُ الله وأغْرق جيشه في البحر.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ . . . ﴿٣٧﴾﴾:

هذا بيانٌ رَبَّانيٌّ جاء تعليقاً على مُراوَغَة فرعون.

أي: ومثل ذلك التزيين الّذي زيَّنَهُ الشيطان لفرعون في مراوغته بأمرِه لهامان ببناء الصَّرْحِ للاطلاع إلى إله موسَىٰ، بغية قَطْعِ دَعْوَة المؤمن مِنْ آلِه، في مَجْلِس وزرائه وأهل مشورته، زُيِّن له أيضاً سُوءُ عَمَلِه الّذي يَعْمَلَهُ دواماً، لتحقيق أهوائه وشهواته، وفرض سلطانه الاستبداديّ علىٰ شَعْبه، وسُلْطَانِه الاستعْبَاديّ لشعب بني إسْرائيل، وسُوء عَمَلِه الّذي دبَّره ضِدّ المؤمن من آله. ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾: أي: وصُرِف بضواغط نزعاته وأهوائِهِ، وبوساوس الشيطان وتسويلاته عن السَّبيل، الذي هو صراطُ الله المستقيم، عقيدةً، وقولاً، وعَملاً، وخُلُقاً، ظاهراً وَباطناً.

• ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾:

الكَيْد: التدبير لتحقيق أمْرٍ مَا، بحقٍّ أو بباطل، بخَيْر أو بشَرّ.

التَبَابُ: الانقطاع، وقد يعقُبُ الانقطاعَ الخسْرَانُ والهلاكُ. والمرادُ هُنا الانقطاع عن تحقيقِ ما يَرْجُو فرعونُ من الكَيْد الذي كادَهُ ويَكيدُهُ، لأنَّ كَيْدَهُ قد كان بباطل وشرّ، إذْ سَيُخَيِّبُ الله أُمورَهُ ومَسَاعِيَه الظّالمة الآثمة، فلا يتحقَّقُ له في النتيجة ما كان يَرُوم.

وقد دلَّتْ هذه الْعِبارَةُ باللّوازِم الذهنيَّة، ودَلائِلِ اقتران البيان بالبيان، على أنَّ فِرْعَوْن كادَ المؤمِنَ من آلِهِ، ليَتخلَّصَ مِنه بالقتل، دون أنْ يُثِير سائر آله عليه، لكِنَّ كيْدَهُ انقطعَ فَلَمْ يتحقَّقْ له مَا أراد.

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾:

دَلَّ هٰذا البيانُ عَلَىٰ أنَّ مؤمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ كَشَفَ هُوِّيَّتَهُ لجميع آله، للْقِبْط من حَوْله، وصار داعِيَةً حكيماً رَشيداً إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بما جاء عن الله، ببلاغاتِ مُوسَىٰ وهارون، واتّباع ما أنْزَلَ اللَّهُ لِعِباده مِنْ شَرَائِعَ وأحكام.

• ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: يَا قومِ إنّي بدافع حِرْصي على نجاتِكُم وسعادتكم، أقول لكم: اتّبِعوني فيما أَدْعُوكُمْ إلَىٰ الإيمان به، أُبَيِّن لَكُمْ سَبِيلَ السُّلُوكِ الفكريّ، والنَّفْسِيّ، والخُلُقِيّ، والْعَمَلِيّ، الموافق للحقِّ والصواب، والموافق لما هو الأفضل والْأَحْسَنُ، والْأَكْثَرُ نَفْعاً، والْأَبْعَدُ عن الضرر، والذي يحقِّقُ لكُمْ خيْرَ الدُّنيا، والنجاة من عذاب اللَّهِ يوْمَ الدّين في الجحيم، والسَّعادة الخالدة في جنَّاتِ النعيم.

• ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾:

أي: يَا قَوْمِي الَّذِينَ هم أهْلِي وعَشِيرَتي وأبناءُ بلَدِي، أُخْبِرُكُم بحِقيقَةٍ أنْتُمْ غَافِلُون عنها، ما هذه الحياة الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ سريع الزوال، فَعُمْرُ الإنْسَانِ فيها عُمْرٌ قَصِيرٌ مَشْحُونٌ بالْأَكْدَار، بَيْنها استمتاعات مُحَبَّباتٌ، إلَّا أنّها كالرَّذَاذِ ضِمْنَ أكْدَارٍ ذَوَاتِ حَرٍّ شَدِيد، أَوْ غبارٍ غَيْرِ حَمِيد.

المتاع: هو في اللّغة ما يُنْتفع به مقداراً مَا مِنَ الزَّمَن، لَكِنَّ مَصِيرَهُ إلى الزّوال والفناء، ولا يَبْقَىٰ منه إلَّا كما يَبْقَىٰ من الأحلام بَعْدَ اليقظة.

• ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وإنَّ الدّار الآخِرَةَ في الحياة الأخرى بعد البعث، هي دار الإقامة الدائمة، والسُّكون والاطمئنان، والاستقرار.

يقال لغة: قَرَّ في المكان، أي: أقام متمكّناً ساكناً مُطْمَئِنًّا مستقرّاً.

ودار القرار: هي دار الاستقرار، والإقامة الدائمة، بسكون واطمئنان، وهذا المعنى اصطلاح قرآني، مأخوذٌ من الوضع اللُّغَوي، بإضافة معنى الدوام إلَيْه، أي: الخلود بلا نهاية، والمرادُ بدار القرار الجنّة.

• ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا... ﴿٤٠﴾﴾:

أي: من عَمِل سَيئةً فإنَّهُ سوف يُجْزى جزاءً مثلَ سَيِّئته يَسُوؤُه، ولا يُجْزىٰ جزاءً يَسُرُّه، وهذا الجزاء يكون مساوياً لسَيِّئَتِهِ، ولا يُظْلم بمجازاتهِ أكثرَ من سيئته، وتقديرُ المساواة يكون بميزان العدْلَ الرَّبّاني الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرَّة.

• ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: ومَنْ عَمِل صَالحاً كما شَرَعَ اللهُ لعباده مِنْ صالِحات، سواءٌ أكان ذكراً أَمْ أُنْثىٰ، حَالَةَ كَوْنِهِ مُؤْمِناً باللهِ وَبِكُلِّ ما أَمَرَ الله بالإيمان به، فَأُلَئِكَ يَدْخُلُونَ يوم الدّين الجنَّةَ، حالَةَ كونِهِمْ يُرْزَقُون فيها أرْزاقاً لاَ تَنْقَطِع، وهم يَنَالُونَ مِنْ فيْضِها بغيْرِ تَقْدِيرٍ ولا حسابٍ مَعْدُودٍ عليهم، بل ينالون منها على ما يحبُّون، ويشتهون، ويلَذُّ لهم.

هذهِ البيانات الّتي جعَلَها مؤمنُ آل فرعَوْن جزءاً من عناصِرِ دعْوَته لقَوْمِهِ، أخذاً من موسَىٰ وهارون عليهما السلام، مطابقَةٌ لما جاء في القرآن المجيد بياناً للنّاس أجمعين، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ وحْدَةِ القاعدة الإيمانة في الرّسالَتَيْنِ الموسويّة والمحمّديّة، إلّا أنَّ الذين دَوَّنُوا دين موسَىٰ حَذَفُوا وَأَضَافُوا وبَدَّلُوا مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِم جهلاً، أوِ افتراءً على دينِ الله الحقّ، وهو الإسلام، أو أنَّهم نَسُوا حظًّا مما ذُكِرُوا به.

• ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

دَلَّ هذا البيان على أنَّ جدالاً حادّاً قَامَ بَيْنَ هٰذا المؤمِنِ من آل فِرْعَوْن، وبيْنَ عِلْيَةٍ مِنْ آلِهِ ورجال الْقَصْر الفرعَوْني.

ويظهر أنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يكُنْ حاضراً مجلس المجادلة، لكنَّه كانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بما يجري فيه من دون أن يكونَ حاضراً فيه، ويَسْهلُ الْأَمْرُ بالتَّسمُّعِ من وراء حجابٍ لا يحجُبُ الأصوات.

﴿مَا لِيَ﴾؟!: في هٰذه العبارة محذوف، أي: مَالِي وَما لَكُم؟! وفي هذه العبارة استفهام تعجُّبِيٌّ مِنْ أمْرِهِ مع أمْرِهم، ومن الفارق الشاسع جدًّا بين دَعْوَتِه لهم، ودَعْوَتهم له، ومن التناقض بينهما.

أي: أيُّ شيءٍ هو لي تُنْكِرُونَه علي، من نقصٍ في الفكر، أو كراهيَةٍ لأسْرَتي وآلي، أوْ ولاءٍ لغيرِ أهلي وعشيرتي وقومي، حتَّىٰ تَنْظُروا إليّ نَظَراتِ ارْتيابٍ وشَكٍّ، وحتَّىٰ تُعْرِضوا عن الإصغاء لما أدعوكم إليه.

وأيُّ شيءٍ هو لَكُمْ تَتَميَّزُونَ بِهِ عَنِّي، وأنَا مِنْكم وأنْتُمْ مِنِّي، وأيُّ شيءٍ هو لكُمْ يَجْعَلُكُمْ تُلْغُونَ عُقُولكم، وتسْتَخْدِمونَ ذكاءَكُمْ، في غير ما يجب أن تسْتَعْمِلُوهُ فيه، من إدراك الحقّ، واستبصاره، والعمل بمقتضاه.

أنا أَدْعُوكم بالبراهين القواطع إلَىٰ النجاة من عذاب الله في الدُّنيا، وفي النار يوْمَ الدّين، وأدْعوكم إلى تحقيق سعادتكم بالإيمان بربّكُمْ والإسلام له.

وأنتم تَدْعُونني إلى الكُفرِ بالله وبما أُنْزِلَ مِنْ عنده، وإلى سُلُوك سُبُلٍ تُؤَدِّي في نتائجها بيقين إلى عذاب النار عذاباً أَبدِيًّا خالداً.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ... ﴿٤٢﴾﴾:

أي: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بالله رَبِّي وربِّ العالَمِينَ جميعاً، الّذي قامَتْ ودَلَّتْ على ربُوبيَّتِهِ البراهينُ القواطع، الّتي تفيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيَّ الّذي لاَ شكَّ فيه، وتَدْعُونَنِي لِأُشْرِكَ بِرُبوبِيَّتِه أوَ بإلَهيَّتِهِ كائناتٍ هي من خَلْقِه، دُونَ أَنْ يكُونَ لِي بِرُبُوبيَّتها وإلَهيَّتِها عِلْمٌ مُكْتَسَبٌ بدليلٍ تَقْبَلُهُ العقول، أو خَبَرٍ صادقٍ عن الله رَبِّ العالِمين، الّذي قامَت براهين العقل على أنَّهُ واحد في رَبُوبيّته وفي إلَهيّته.

يَا عجباً مِنْ أمْرِي معَ أَمْرِكم، ومن دَعْوَتي مَعَ دَعْوَتكُمْ، ما هُوَ الشيء الذي تَرَوْنه لي، من نقْصِ عقْل، أو كراهيَةٍ لكُمْ، أَوْ عَدَم حِرْصٍ على مصالحكُمْ، وابْتِغَاء الخيرِ والنَّفْع لَكُمْ؟!.

إنَّه داعيةٌ إلى الله العزيز الرحيم، من مستوىٰ القمة في دَعْوَتِه، وهو ما جعل الله عزّ وجلّ يُنْزِلُ بياناً، مشعراً بأنّها حقٌّ، وبأنَّها بمثابَةِ بيانٍ مُنَزَّلٍ من لَدُنْه، ومضمونُها هو في الحقيقةِ مأخوذٌ من بيانٍ مُنَزَّلٍ من لَدُنْهُ على مُوسىٰ وهارون عليهما السلام.

وقد جاء في هذا البيان تفصيل موجز لقوله لهم: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾:

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: وأنا أدْعُوكُمْ إلى الإيمان بالْعَزيز الْغَفَّار، وإلى الإسلام والاستسلام لأوامِره ونواهيه.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: القويّ الغالِب لكلّ القوىٰ، إنَّها مخلُوقَاتٌ لَهُ، ومُسَيَّراتٌ بِسُلْطَانِهِ، وفي ذكر هذا الاسم تخويف لهم.

﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾: أي: كَثِير السّتر لذنوبُ عباده وآثامِهِمْ، ومعاصيهم له، لأنَّه رحيم بهم، وهذا السَّتْرُ يَسْتَلْزِم مع ملاحظَةِ الرَّحْمَةِ العظيمة، عَدَم

العقاب، وفي ذكر هذا الاسم منْ أسماءِ الله الحُسْنَىٰ إطماع لهم بأن يستغفروه، بعد أن يؤمنوابه ويُسْلِموا له، ليغفر لهم، ولا يعاقبهم على ما سلَفَ من كُفْرِهِمْ وجرائمهم.

• ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ. . . ﴿٤٣﴾﴾:

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لتَوْكيد الكلام وتوثيقه، وقَدْ تَحْمِلُ أحياناً معنىٰ القسم، فهِيَ مثل: «حَقًّا ـ لا بُدَّ ـ لاَ شك ـ لاَ مَحَالة».

وأصْلُ معنىٰ الجرْم الْقَطْعُ، وكأنَّ أصْلَ العبارة قبل اختصارها والاكتفاء ببَعْضِ كلماتَها: لاَ جَرَمَ جارِمٌ ممَّا أَقُولُ شيئاً، أي: لا قطعَ قاطعٌ مِنْ كلامي شيئاً، وبكَثْرَة التداوُلِ حصل الاكتفاء بعبارة: «لاَ جَرم».

فالمعنى: لاَ شَكَّ وَلاَ رَيْبَ في أنَّ مَا تَدْعونني إليه، ليْسَ لَهُ في الحقيقة والواقع دَعْوَةٌ ما، لاَ في الدنيا، ولا في الآخرة، وإنّ الّذي تدعونني إليه لا يَزيدُ على كونِهِ أقوالاً وهْمِيَّةً أنْتُم تقولُونَها بأفواهِكُمْ، وليْسَ لها في الواقع حقيقة.

• ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ. . . ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولا جرَمَ أنَّ مَرْجِعَنَا بَعْدَ الموتِ والْبَعْث، إلى حساب الله لنَا، وفَصْلِ قضائه، وتَحْقِيقِ جزائه، فالْيَوْمُ الآخِرُ، والحياةُ الأُخْرى مِنَ الحقائق الثابتَةِ بيقِين.

المَرَدُّ: المرْجِعُ، وهو يُطْلَقُ على مكان الرُّجوع وزمانه، ومصْدَرٌ ميميٌّ من فعل رَدَّ.

يقالُ لغة: «رَدَّه، يَرُدُّه، رَدّاً، وتَرْدَاداً، ورِدَّةً» أي: أرْجَعَه، ويأتي بمعنى: منَعَهُ وصَرَفه.

• ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولا جَرَمَ أنَّ المتجاوزين لحُدود الحقّ والواجب، الْغَالِين في التجاوز، بالكفر، والشِّرْكِ بالله، وارتِكَاب الجرائم الكبرىٰ، هُمُ الملازمُون لعذاب النار.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: المصاحِبُون لها بملازمَةٍ مسْتَمِرَّة.

• ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ... ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فَسَتَذْكِرُونَ مستقبلاً حينما يَنْزِلُ بِكُمْ عذابُ الله، مَا أقولُهُ الآنَ لَكُمْ بصراحةٍ وجرأةٍ، حرصاً مِنِّي على نجاتكم وسعادتكُمْ، ودُونَ خَوْفٍ ممَّا سَتُدَبِّرُونَهُ ضدِّي، للتخلُّصِ منّي ومن دَعْوَتي.

• ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فإذا دَبَّرْتم مَكِيدَةً ضدُّي، مِنْ قَتْلٍ فما دُونه مِنْ عذاب، فإنّي أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ الله، مُتَوَكّلاً عَلَيْه، ليحْمِيَني من كَيْدِكم، وَإِنّي أعْلَمُ أَنَّ الله بَصِيرٌ بِكُلّ عباده، وأنَا وأنتم عباد من عباده الذين لا تخفَىٰ عليه من أمورهم خَافيَةٌ ما.

التَّفْويض: جَعْلُ التَّصَرُّفِ كُلِّه تَحْتَ إِرادة مَنْ حَصَلَ التفويض إليه. يقال لغة: «فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَىٰ فُلاَنٍ» أي: جعلَ لَهُ التصرُّف فيه.

• ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ... ﴿٤٥﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ الربَّانيُّ، على أنَّ القومَ، فرعونَ ورِجالَ دولَتِهِ، قَدْ مَكَرُوا في الخفاء، ضِدَّ هٰذا الرَّجُلِ المؤمن مِنْ آلِ فرعون مَكْراً بِسَيِّئَاتٍ يُسْكِتُونَ بها لِسَانَه، عن الدَّعْوةِ إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، وإلى ما جاء به مُوسَىٰ عَنْ رَبِّه.

وعبارة: ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ تُشْعِرُ بأنّ ما مَكَرُوه لم يَصِلْ إِلَىٰ قرار الحكم بقَتْلِهِ، لئلا يغْضَبَ أَوْلياؤُه من آلِ فرعون.

• ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وأحَاط بآل فِرْعَوْنَ الَّذِين سَاءَتْهُمْ دَعْوَةُ هذا المؤمِنِ منهم، سُوءُ العذاب.

سُوءُ الْعَذَاب: أي: العذابُ السُّوءُ، وهُوَ شَدِيدُهُ، وشَاقُّهُ، ومؤلِمُه، فقد أغْرَقَهُمُ الله بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ غَيْرِ طويلة.

وجاء تفسير العذاب السُّوءِ، بقول اللهِ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ بَعْدَ إهلاكهم بالإغراق، كَانَ من أمْرِهم في البرزَخ الفاصل بيْنَ الموت والبعث، استمرار عَرْضِ نفوسهم على النّارِ، غُدُوّاً وَعَشِيًّا تَعْذِيباً لها، ثم بعد بعثهم يوم تقوم ساعة الإحياء للحياة الأخرىٰ، ويَخْرُجُونَ من الأجداث سراعاً، ويُحَاسَبُونَ ويفْصِلُ بشَأْنِهِمْ قضاء الله، يقولُ الله لملائكَتِهِ المختصين بسَوْق الْمُجْرِمِينَ إلَىٰ جَهَنَّمَ: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ الكافِرِينَ المجرمين إلَىٰ جهَنَّمَ، واجْعَلُوهُمْ في داخِلِها ضِمْنَ مُحِيطٍ بهم، يَذُوقون فيه أشَدَّ العذاب.

فماذا يَذْكُرُونَ حينئذٍ مِنْ متاع الحياة الدُّنيا الذي كانوا فيه، وَمَاذا يَذْكُرُونَ من زُخْرفِهَا الّذي كانُوا يتَعَاظَمُونَ بِهِ ويَسْتَكْبِرُونَ؟!.

❁ ❁ ❁

رابعاً

نَصُّ سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥١ نزول)

الآيات من (١٠١ ـ ١٠٣)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

القراءات:

(١٠١) • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلْ] من فعل «سَال» بتخفيف الهمزة، وجَعْلها ألفاً. وكذلك قرأها حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فاسأَلْ] من فعل «سَأَل» بتحقيق الهمزة.

وهما وجهان عربيان في النُّطْق.

يقال لغة: «سَأَلَهُ عَنْ كذا، وسَأَلَهُ بِكذا، يَسْأَلُه سُؤالاً، وتَسْآلاً، ومَسْأَلَةً» أي: طَلَبَ منه أن يُعْلِمَهُ بالشّيء الذي سألَهُ عنه، ذاتاً، أوصفة، أو أن يُعْطِيَه إياه.

(١٠٢) • قرأ الكِسَائِيُّ: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتَ] بضمير المخاطب.

والقراءتَان متكامِلَتَان في تأدِيَةِ المعنىٰ الذي خاطبَ به موسَىٰ عليه السَّلام فرْعَون: أي: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَا، وعَلِمْتَ أنت يَا فِرْعون.

تمهيد:

من الظاهر في هذا النص من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥١ نزول) أنَّه يُعَبِّرُ عن بعض مواقف قد كانت في المراحل المتأخرة من سيرة موسَىٰ الدَّعَوِيَّةِ في مصر لفرعَوْنَ ومَلَئه وسائر قومه.

إذْ جاء فيه أنّ موسىٰ عليه السَّلام قَدْ واجَهَ فرعون بقوله له بشجاعة وثباتٍ وثِقةٍ بالله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾: أي: مُعَاقباً مِنْ رَبّكَ بالإهلاك، قال له هذا القول وهو مُتَمكّنٌ من موقفه، على ثِقَةٍ كاملة بأنّ الله

حامِيهِ وناصِرُه ومُهْلِكٌ عَدُوِّه، ولوْ لَمْ يكُنْ يَعْرفُ كيْفَ يكونُ هذا الإهلاك، ولَمْ يَكُنْ عنْدَهُ خَبَرٌ رَبَّانيٌّ بِه، لذلِكَ وجَّهَ عبارَتَهُ بأسلوب الظنِّ، لا بأسلوب اليقين.

التدبّر:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ... ﴿١٠١﴾﴾:

يُؤكِّدُ ويُحقِّقُ رَبُّنا بعبارَةِ «لَقَدْ» أنَّهُ جلَّ جلاله، قد آتىٰ بعظَمَةِ رُبوبيَّتِهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام الآياتِ التِّسْعَ كلَّها، وأجْرَاها لَهُ فعلاً، وقد سبق بيان هذه الآيات التِّسْع في أكثر من موضع[1].

• ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ... ﴿١٠١﴾﴾:

تدُلُّ هذه الجملة علىٰ أنّ الآيات التِّسْعَ مسجَّلَةٌ ومُدَوَّنَةٌ عنْدَ بني إسرائيل، وليْسَتْ من تاريخ موسى الْمَنْسِيّ عندهم، أو الْمُهْمل، أو دخل في أصْلِ فكرة الآيات تحريف، وربّما دخل التحريفُ والتغييرُ في بعض التفاصيل الجزئيّة، أو في بعض التفسيرات.

وليْسَ المرادُ توجيهَ الرّسُول ﷺ لأن يتوثَّقَ من خبر الله هذا من عُلَمَاء بني إسرائيل بَلِ المراد إعْلاَمُ غَيْرِه مِن ذوي الشّكّ، بأسلوب مخاطبته.

ورُبَمَا يكون الخطاب في النصّ مُوَجَّهاً لكلّ صالحٍ للخطاب من الناس، وفيهم غَيْرُ مُؤْمنٍ بالله وبما أُنزل في كتابه على رسُوله محمّد ﷺ، فقال الله له: فاسْأَلْ بَنِي إسرائيل عن آياتِنا التّسعِ الكبرى، الّتي أجْرَ يناها لموسَىٰ في مصر، فهي بالنظر إلى فِكْرَتِها العامةَ، لا إلَىٰ تفصيلاتها، مُدَوّنَةٌ فِي كُتُبِهم.

---

(١) انظر لواحق تدبر الآية (٢٣) من سورة (طه) لدى تدبّر الآية (٣٢) من سورة (القصص).

ولدَىٰ مُراجعتي لأسفارهم وَجَدْتُ الحديث عنْها مُدَوَّناً في سِفْرِ الخروج، في الإصحاحات: «السّابع ـ والثامن ـ والتاسع ـ والعاشر».

﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾: أي: إذْ جاءهم موسىٰ عليه السَّلام بكلّ الآيات التّسع، وليْسَ المراد إذْ جاءهم أوّلَ قُدُومِه من مَدْين، بَعْدَ مكالمة الله له عند جبل الطور حاملاً رسالة رَبّه، بدليل قول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ إذْ جاء هذا القولُ معطوفاً بالفاء الّتي تَدُلُّ علَىٰ الترتيب مع التعقيب، وهذا التعقيبُ لم يكُنْ إلّا بَعْدَ إجراء الآيات التِّسْعَ كلِّها في مصر، طَوال عدّة سنين.

أي: إنَّ جُرْأَتَكَ يَا مُوسَىٰ علَيْنا بوصْفِكَ رَجلاً من رِعيَّتِنا، إذْ تقابلُنَا بنِدّيّة، لا تكونُ إلّا من إنْسانٍ فاقِدٍ لوعْيِهِ، غَيْرِ مُدْرِكٍ لِقُدْرتِنا علَىٰ قتْلِه في أيَّة لحظة، وفقدُ الْوعْي هذا بَعْدَ أنْ ثبتَ لنا أنَّكَ غَيْرَ مَجْنُونٍ طَوال قيامِكَ بدعوَتِكَ في مِصْر، وإجرائِكَ السّحْرِيَّاتِ الكبرىٰ الّتي تُسَمِّيها آياتِ بَيّنَاتٍ من رَبّ العالمين، وهي التِّسْعُ الّتِي أجْرَيْتَها، فَهَٰذِهِ الجرْأَةُ النِّدِّيَّة لاَ تَكُونُ إلا مِنْ إنْسَانٍ مَسْحُورٍ، فاقِدٍ لِوَعْيِه الْإِرادِيّ، بتَأْثير السّحر، غَيْرِ مُقَدّرٍ للعواقب الوخيمة التي يُعَرِّضُ نَفْسه لهَا، إذْ يُواجِهُ مَلِكاً قادراً على الانتقام منه بجُرْأَةٍ مستَنْكَرَة جدًّا.

أقول: إنَّ فرعَوْنَ لَوْ لاَ خَوْفُهُ على نَفْسِهِ من آياتِ مُوسَىٰ الخوارق، ولولا يقينُهُ بأنَّ ما جاء به حقٌّ من ربّه وليْسَ سِحْراً، لمَا تَرَدَّدَ في قَتْلِ موسَىٰ، ولمَا تأخّرَ لحظةً واحدةً عَنْ تَنْفيذ ذلك.

• ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ . . . ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: ليْسَ صَبْرُكَ عليَّ مبنيًّا على اعتقادِكَ بأنّي مسحور، بل لأنَّكَ موقِنٌ في قَرارَةِ نَفْسِك بأنَّهُ مَا أنزلَ هٰذه الآيات التِّسْعَ إلّا رَبُّ السَّماوات والأرض، الّذي بِيَدِه ملكوتُ كلّ شيءٍ، وهو القدير على ما يشاء بأمْرِ

التكوين، وهٰذه الآياتُ قَدْ أنْزَلَهَا حالَةَ كونها بَصائر، فأنْتَ تخافُ من نِقْمَتِه إذا عَزَمْتَ عَلَىٰ أنْ تَمَسَّنِي بِسُوء، وأنا أدْعُوكَ وَأدْعُو قومَكَ إلى الإيمان بِه، والإسلام له، هٰذِهِ هِيَ حقيقَةُ ما يَمْنَعُكَ عَنِ الفتْكِ بي.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: «ها» للتَّنْبِيه، «أولاَءِ» اسم إشارة يُسْتَعْمَلُ غالباً للمشار إليهم من ذوي العلم. ويُسْتَعْمَلُ لغةً أيضاً بِقِلَّةٍ للإشارة إلى جَمْعِ غير ذوي العلم كما هُنا، والْغَرَضُ البلاغيُّ تَنْزِيلُ الآياتِ مَنْزِلَةَ مُعَلِّمِين يقَدِّمونَ بَراهِين تَدُلُّ على طائفة من صفات الله العظمى، وتَدُلُّ عَلَىٰ صِدْق الرَّسُول الذي أجراها الله له، فهي بصائر.

﴿بَصَآئِرَ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَة» وتأتي هذه الكلمة في اللّغة للدلالَةِ على عِدَّة معانٍ، منها معنى: «الحجّةِ والْبُرْهَان» وهذا المعنى هو المناسب هنا. ونَصْبُ [بَصائِرَ] على أنها حال، أي: حالَةَ كَوْنِها بَصَائر.

• ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾:

أي: وإِنِّي لأظُنُّكَ يَا فِرْعون مُهْلكاً من قِبَل رَبّك رَبّ السَّمَاوات والأرض، بسَبَب إصرارِكَ على الكُفْرِ به، وإصرارِكَ على اعْتِبار آيَاتِه نَوْعاً من أنواع السِّحْر، وإصْرَارِكَ على تَكْذِيب رَسُولَيْ رَبّك، والتكذيب بما جاءَا بِه عنه. إنَّ أعمالَكَ هذه تُقَدِّمُ ظنًّا راجحاً بأن الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه ـ سَيُهْلِكُكَ، جَرْياً علىٰ سنته في عِبَادِه الكافِرِينَ المجرمين.

هذا الخِطَابُ الْعَنيفُ من موسىٰ عليه السَّلام لفرعَوْنَ، جاءَ بَعْدَ عدَّة سنين كَانَ يَتَلَطَّفُ معه فيها، ويُخَاطِبُه بخطابٍ ليّنٍ رفيقٍ، لا عُنْفَ فيه ولاَ شِدَّة، وكان يكْتَفِي بالكنايات، وبالإشَارَاتِ المغلّفَات بأدب الخطاب.

﴿مَثۡبُورٗا﴾: أي: مُهْلَكاً مِنْ قِبَلِ رَبّك. **الثُّبور**: الْهَلاَك. يقالُ لغة: «ثَبَرَ فُلاَنٌ، يَثْبُرُ، ثَبْراً، وثُبُوراً» أي: هَلَكَ وانْصَرَفَ من عالم الأحياء. ويقالُ أيضاً: «ثَبَرَهُ الله يَثْبُرُه» أي: أهلكه.

• ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ... ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فأراد فِرْعَوْنُ أن يَسْتَفِزَّ بني إسرائيل من الأرض.

يقال لغة: «اسْتَفَزَّهُ يَسْتَفِزُّه» أي: اسْتَخْرَجَه، وخَتَلَهُ حتَّىٰ أَلْقَاهُ في مَهْلَكَة. وهذا المعنىٰ هو المناسبُ هنا.

ويأتي فِعْل «اسْتَفَزَّهُ» بمعنَىٰ استَخَفَّهُ بالْمُخِيفَاتِ والمفْزِعَات.

فما الذي أراده فرعون؟

نظرْتُ في جُمْلَة النصوص فوَجَدْتُ أنّ فِرْعونَ وملأَه وسائر القبط، قد كانوا شدِيدي الحرص على إبقاءِ بني إسرائيل في مصر، لتسخيرهم في أخَسِّ المِهَنِ والأعمال وأحْقَرِها، وفي أكثرها مشَقَّةً وإعْناتاً.

ووجَدْتُ أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، قد أَلَحَّ عِدَّة مَرَّات في مطالَبَتِهِ لفرعون بأنْ يَسْمَح لبني إسرائيل ويَأْذَنَ لَهُمْ بالخروج خروجَ هجرة جماعِيَّةٍ من مصر، وعَوْدتهم إلىٰ الأرض الّتي قَدِم منها أجدادهم أيَّامَ يُوسُف عليه السَّلام قبل أكثر من أربعة قرون، كما ذكر الإسرائيليون[1].

فلا يتلاءم مع هذا تفسير استِفْزَازِ فرعونَ لبني إسرائيل من الأرض بإخراجهم منْ كلّ أرْض مصر، لأنَّ هذا هو أحد مطالب موسى عليه السَّلام بشأنِ بني إسرائيل، وهو ما يَرْفُضه فرعون ومَلَؤُهُ وسائر القِبْط بشدّة، فبنو إسرائيل قد كانوا مستَعْبَدِينَ حينئذٍ في مصر لهم، فكيف يسْمَحُونَ لعَبِيدهم بالخروج منها خروجاً نهائيًا.

وهنا أرى أنّه ليْسَ من المقبول عقلاً أن تكون إرادةُ فِرْعَوْنَ مُوجَّهَةً لاستفزازهم، بمعنى إخراجهم وطرْدِهم من كلِّ أَرْض مصر.

---

(١) جاء في الإصحاح (١٢) من سفر الخروج عند الإسرائيليين، أنَّ مُدَّة إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، قد كانت (٤٣٠) سنة.

فما المرادُ إذَنْ من استفزازهم من الأرض؟

أقول: كان بنو إسرائيل يحْتَلُّونَ في مصر أفضل أراضيها، وهي أرْضُ «جَاسَان» الّتي هي جزْءٌ من أرض «رَعْمَسِيس» الّتي مَنَحَها يوسف عليه السَّلام منذ أيامه لأبيه، وسائر أهل أبِيه وذُرّيّاتهم، الذين قَدِمُوا منْ أرْض «كنْعان» وكانت أرض «جَاسَان» خصيبَةً في مصر، وهي واقعة في شرق الدَّلْتا، كثيرة المرعىٰ للقطعان والمواشي، وكان بنو إسرائيل رُعاةً للقطعان والمواشي.

جاء في الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين: «١١ وأسْكَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ وإِخْوَتَهُ مُلْكاً في أَرْضِ مِصْرَ في أفْضَلِ الأرض، أرْضِ رَعْمَسِيسَ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْن».

أقول: فالّذِي يظهر أن فرعون موسى أراد أن يسْتَفِزَّ بني إسرائيل من هٰذه الأرض المتوارثة من أجدادهم، مُنْذُ عَهْدِ يُوسُفَ عليه السَّلام، وأراد أنْ يُوَزِّعَهُمْ في شَتَّىٰ أرض مصر، حتَّىٰ لا يكونَ لَهُمْ تجَمُّعٌ في مكانٍ واحِدٍ، وليكُونوا مُشَتَّتِين في مختَلِفِ بُلدان مِصْرَ ومَدَائِنها وقراها الصغيرة والكبيرة.

هذا مَا ظهر لي والله أعلم.

لكِنَّ إرادة فرعون هذه لم تَتَحَقَّقْ، إذْ جاء الأمر الرَّبَّاني لموسَىٰ عليه السَّلام، بأنْ يخرجَ ببني إسرائيل من مصر، متّجِهاً شَطْرَ سيناء.

وعلم فرعون بخروجهم بعد أن تَجَاوزوا حدود المدينة، فجمع جيشاً كبيراً من جنوده في مختلف مدائن مصر وقُرَاها، وأتْبَعُوا مُوسَىٰ عليه السَّلام وبَني إسْرَائيل، لمقاتَلَتِهِمْ وقَتْلِ قادَتِهِمْ، ورَدِّ عامّتِهم إلى مصر، وتم بهذا الإتْباع إغراق فرعون وكلّ مَنْ معه وما معه، في البحر الأحمر، وكان يُسَمَّىٰ بَحْرَ «سُوف» كما جاء عند الإسرائيليّين.

دَلَّ على إغراقهم قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

• ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فأغْرَقْنَا بعَظَمَةِ رُبُوبيَّتِنا وبحِكْمَتِنَا وعَدْلِنا، فرعونَ ومَنْ معه من آله وجُنْدِهِ جَمِيعاً، ويَلْزَمُ من هذا إغراق وإتلاف كُلِّ ما معه من خيل، ومَرْكبات، وأسْلِحَةٍ، وعَتَادٍ، وتَمْوين.

وانفلق عمود الصُّبْح، وفرعَوْنُ ومن مَعَهُ غارقون، وقَذَفَ الْبَحْرُ الكثيرين مِنْهُمْ على الشَّطّ الآخِرِ المقابِلِ لشَطِّ الْعُبور وشاهَدَهُمْ بَنُو إسرائيل هَلْكَىٰ، وأَبَانَ الله عزّ وجلّ أَنَّه أَنْجَىٰ بَدَنَ فِرْعَونَ الهالِكِ فرمَاه على الشاطِىء، لِيَرَاهُ قومُه، ولِيَكُونَ عِبْرَةً لكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

❋ ❋ ❋

خامساً

نصُّ سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول)

الآيات من (٥٢ ـ ٦٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

القراءات:

(٥٢) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جَعْفر: **[أَنِ ٱسْرِ]** بوصل الهمزة، وكَسْرِ النون في الوصل، من فعل: «سَرَىٰ» يقالُ لغة: «سَرَىٰ بِفُلاَنٍ لَيْلاً» أي: جعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَنْ أَسْرِ]** بإسكان النون، وقطع همزة «أَسْرِ» من فعل «أَسْرَىٰ» يقال لغة: «أَسْرَىٰ اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِي» أي: سَرَى. ويقال: «أَسْرَىٰ فُلاناً، وأَسْرَىٰ بِهِ» أي: سَرَىٰ به.

فالقراءتان لغتان عَرَبيَّتَان متكافئتان.

(٥٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[بِعِبَادِيَ إِنَّكُمْ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[بِعِبَادِي إِنَّكُمْ]**: بإسْكان يَاء المتكلم. وهما نُطْقَانِ عَرَبيَّانِ متكافئان.

(٥٦) • قرأ نافع، وٱبْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وهشام، وأَبُو جعفر، ويعقوب: **[حَذِرُونَ]** جَمْعُ «حَذِر» مبالغة اسم الفاعل «حَاذِر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[حَاذِرُونَ]** جمع «حَاذِر» اسم فاعِل مِنْ «حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَراً فَهُوَ حَاذِر» وحَذِر في المبالغة.

يقال لغة: «حَذِرَ الشَّيْءَ وَحَذِرَ مِنْه» أي: خاف من شرّه واحْتَرَزَ منه، فهو حاذِرٌ وَحَذِر.

(٥٧) • قرأ ابن كثير، وابنُ ذكْوان، وشُعْبة، وحمزة، والكسائي: **[وَعِيُونٍ]** بكَسْر العين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَعُيُونٍ]** بضمّ العين.

كَسْرُ الْعَيْن وضَمُّها لُغَتَان في هذه الكلمة، فالقراءتان متكافئتَان.

(٦٢) • قرأ حفص: [مَعِيَ رَبِّي] بفتح ياء المتكلم من «مَعِيَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسْكان هذه الياء.

(٦٢) • قرأ يعْقُوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياءِ المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [سَيَهْدِينِ] بحَذْف ياء المتكلم تخفيفاً، وهي مُقَدَّرَةٌ ذهْناً.

(٦٤) • وقف رُوَيسٌ فقط بهاءِ السَّكْتِ في [ثَمَّ] فإذا وقف قَالَ: [ثَمَّهْ] وهذا من لغة العَرَب في النُّطْق.

وهُنا يأتي أيْضاً نصُّ سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ مع إيجاز واختزال وبعض إضافات:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

وقد سبق بيان القراءات فيه، والتمهيد المتعلق به، وبقي تدبُّر فقراته، ويجده القارىء ضمن تدبّر النصّ الآتي من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

تمهيد:

من الواضح في هذا النصّ الذي من سورة (الشعراء) أنَّهُ يُعَبِّرُ عن المراحل الأخيرة، لوجود مُوسَىٰ عليه السَّلام وبني إسرائيل في مصر، وخروجهم منها ليلاً بتدبيرٍ وأمْر من الله عزّ وجلّ، أَوْحَىٰ به الله لموسَىٰ عليه السَّلام، وأنّ فرعَوْنَ وجُنودَه الّذِين جمَّعَهُمْ مِنْ كلِّ مَدَائن مِصْرَ وأرْضها، أتْبَعُوا بني إسرائيل على الطريق الذي خَرَجُوا منه مُشْرِقين، أي:

عند شروق الشمس في اليوم الذي اسْتَكْمَل فيه فرعون حَشْرَ جيْشِه وسَوْقَ فيالِقه، من مختلف المَدَائِنِ المصريّة مُراعِياً السُّرْعَة الْقُصْوىٰ، لِلَّحاقِ بهم وإدراكهم، وقِتَالِهم، وإكراه عامَّتِهم على الرُّجُوع إلى الذُّلّ والاسْتِعْبادِ في مصر.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وأبلَغْنَا مُوسَىٰ عن طريق الوحْي أمْرنا بأن يخرج ليلاً مع بني إسرائيل من مصر، فخرج بهم في اتّجاه سِيناء.

﴿أَنۡ أَسۡرِ﴾: «أنْ» تفسيريَّة بمعنىٰ: «أي» وما بَعْدَهَا يُفَسِّرُ مَا هُو مُبْهم في عبارة [**وأوحينا**]. ويجوز أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن محذوف وجوباً كما يقول النحويّون، وتقديرُه: أنَّ الشأن العظيم الخطير هو أمْرُنا لك بأن تَسْرِيَ لَيْلاً بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِي﴾: الباء الجارة هُنَا للتَّعْدِية، لأنَّه يقال لغة: «أسْرىٰ فُلاَناً وأسْرَىٰ بِه» أي: جعله يَسِيرُ ليلاً.

ووصف الله جمهور بني إسرائيل الخارجين مع موسىٰ عليه السَّلام بأنَّهم عبادُه على معنيين:

الأول: العبودية الاختياريَّة والجبريَّة معاً بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ كان منهم قَدْ آمَنَ فعلاً بموسَىٰ وبما جاء به عن ربّه.

الثاني: الْعُبُوديّة الْجَبْرِيَّة بالنِّسْبَةِ إلى الَّذِين لم يُؤْمِنْ بَعْدُ به وبما جاء به منهم، ولم يُسْلِمْ لَهُ، وهو خارج مَعَه خروجاً قَوْمِيًّا، لا انتماءً دِينيًّا.

دلَّ على هذا المعنى الثاني قول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: أن يُعَذِّبهمْ إذا آمَنُوا بموسَىٰ وأسْلَمُوا له.

وكانَ اتّباع هؤلاء لموسَىٰ عنْدَ الخروج بهم من مصر اتّبَاعاً قَوْمِيًّا قَبَلِيًّا.

ويَدُلُّ على هذا الفهم الاستئناسُ بما جاء في الإصحاح (١٤) من سِفْرِ الخروج، وهو قولُ الإسرائيليين في حكايتهم لحادثَةِ الخروج والنجاة من فرعون وقومه، ومَا صنعه الرَّبُ بهم من إغراق، وإهلاك:

«٣١ ورَأَى إسرائيلُ الْفِعْلَ العظيم الّذي صَنَعَهُ الرَّبُّ بالمصريّين. فخاف الشَّعْبُ وآمَنُوا بالرَّب وبِعَبْدِهِ مُوسَىٰ».

هذا يَدُلُّ على أنَّهُمْ لم يكونوا قَدْ آمَنُوا من قَبْل، وأنَّ خُرُوجَ كثير منهم مع موسَىٰ قَدْ كان خروجاً قَوْمِيًّا قَبَلِيًّا، ولم يَكُنْ طاعَةً للهِ ورسوله.

فتصَوُّرُ أَنَّ كُلَّ بني إسرائيل الّذين خرَجوا مع موسى من مصر قد كانوا مؤمنين مُسْلِمين، تَصَوُّرٌ لاَ يُؤَيِّدُهُ نصٌّ قرآنيّ، ولا خَبَرٌ تاريخيّ.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: أَعْلَمَ اللهُ عزّ وجلّ بهذا الوحْي أنَّ فِرْعَوْنَ وجيشاً معه سَيَتَّبِعُونَهُمْ، لقتالهم، ورَدّ جمهورهم إلى الْعُبُودِيَّةِ والتسخير والإذْلال.

ولهذا الإعْلاَم لوازم فِكريَّة، أي: ولكِنّي سَأَتَوَلَّىٰ إنْقَاذَكُمْ وَتنجيَتَكُمْ من عَدُوِّكُمْ بما أشاء من وسَائِلي، فَلا تَخف من اتّباع جَيْش فِرْعَوْن لَكُمْ، وكُنْ أنْت وقومُكَ مطمئنين لتدبيري، وقضائي وقَدَرِيَ.

وجاء نظير هذا البيان في الموجز المختزل الذي جاء في النصّ الذي من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى... ﴿٧٧﴾﴾:

فجاء في هذا البيان إضافة عبارة التأكيد والتحقيق: ﴿وَلَقَدْ﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: فلمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بخروج بني إسرائيل دون إذْنٍ منْه، أرْسَلَ قُوّاداً من قِبَلِه حَاشِرِينَ جُنُودَ قِتَالٍ في المدائن المِصْرِيَّةِ، من كُلِّ أرْض مِصْر، لِتَكْوين جَيْشٍ كبير، يُتَابعُ بَني إسْرَائِيل الفارِّين، بقيادة مُوسى عليه السَّلام.

والمرادُ رَدُّ جماهيرهم إلى الذُّلِّ والعبوديَّةِ، بَعْدَ قَتْلِ زُعَمائِهِم الَّذِين قَادُوا أشباطَهُمْ في الخروج، ومَنْعُهُمْ من تكْوِين جَيْشٍ خارج مصر، ومِنْ عَوْدَتِهم مُقَاتِلين للاستيلاء على حُكْمِ مصر، بقيادة موسَىٰ وَأخيه هارون.

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون:

• ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المشارُ إلَيْهِمْ هم بَنُو إسرائيل.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لَجَمَاعَةٌ ضَعِيفَةٌ من الناس قَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَىٰ الْقِتال، فالسَّيْطَرَةُ عليهم سَهْلَةٌ ومَيْسُورَة.

وتُجْمَعُ «شِرْذِمَة» عَلَىٰ «شَرَاذِم». ويُطْلَقُ لفظ «الشِّرْذِمَة» في اللُّغَةِ على القطْعَةِ من الشيء، ويقال لغة: «ثِيَابٌ شَرَاذِم» أي: ثياب مُمَزَّقَةٌ بالِيَةٌ خَلَقَة.

وقد جاء تأكيد هذه العبارة بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون لقومه:

• ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

الغيظ: الغضبُ الشديد. يقال لغة: «غاظَهُ، يغِيظُهُ، غَيْظاً» أي أغْضَبَهُ أشدّ الغضب. ويُقَالُ أيضاً: «أَغَاظَهُ»

أي: وإنَّ هؤلاء الإسْرَائيليين قَدْ أَغْضَبُونا أشدّ الغضب، بتصرّفاتهم، وبخروجهم من مصر دون إذْنٍ مِنَّا، فلا بُدَّ من الانتقَامِ منْ زُعَمَائِهِمْ وَتَأْدِيب جماهيرهم.

يخاطبُ فرعون قومَهُ بضمير المتكلّم العظيم، إذِ ادَّعَىٰ لنَفْسِه الإلَٰهيَّة والرُّبوبيَّة. وجاء تأكيد العبارة بـ «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة» لتَدُلَّ على عبارته التوكيديَّة في لغته.

قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول فرعون لقومه:

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**حَذِرُون**]: أي: خائفونَ على مُلْكِ مصر وعلىٰ الشَّعْب المصريّ من خروجهم، إذْ قَدْ يُكَوِّنُون خارِجَ مصر جيشاً قويًّا، ثم يَرْجِعُونَ مقاتِلِينَ، لانتزاع الحُكْم، واستعباد الإسرائيلين للشَّعْبِ المصري كُلِّه بِقُوّة السُّلْطانِ، انتقاماً من استِعباد الشَّعب المصريّ لهم بسُلْطَانِنا الفرعوني.

هذا ما دَلّت عَلَيْهِ عبارة: ﴿لَجَمِيعٌ﴾: أي: الْمَلِكُ ورجال دولَتِه وسائِر القبط في مصر.

وجاء توكيد العبارة بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة» لتدُلَّ على عبارته التوكيديَّة في لغته.

وكان هذا البيان في الآيات من (٥٤ ـ ٥٦) من فرعون عن بني إسرائيل، لإغراء القادرين على القتال من الشعب المصري بالالتحاق بهذا السَّوْق الجبريّ للجنود النظاميّين، وليَتَطَوّعَ غيرهم فيلْتَحقوا بالجيش

النظامي، طمعاً في المنافع والمغانم الّتي سيَنالُونَها بخروجهم الظافر، على الشرذمَةِ القلِيلينَ من الإسرائيليِّين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾:

تحدَّث الله عزّ وجلّ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ عن حِكْمَتِه في تَدْبيراتِهِ للانتقام من فرعون وجنوده.

أي: وكان في إغرائهم وتَهْيِيجِهم منَّا لنفوسهم وقلوبِهم، وإحداثِ الغضب الشديد فيها، والرَّغبةِ في متابعَةِ بَنِي إسرائيل الضعفاء، أنْ أخْرَجْنَا فِرْعَوْنَ وآلَهُ، وعِلْيَةَ قوْمِهِ، ممّا يَمْلِكُون من كنوز ذهبيَّةٍ وغيرها، جَمَعُوهَا بقُوَّةِ سُلْطَانِهم في مصر، وأخرجْنَاهم من مقامٍ كريم، كانوا فيه مُكَرَّمِينَ، مُفَضَّلِين، أعِزّاء، ذوي عُلُوٍّ في أرض مصر، وهو مقامُ سُلْطَتِهِمُ الَّتِي هي لَهُمْ في عُمُومِ مصر.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْع «جَنَّة» وهي الحديقة المكتظَّةُ بالأشجار، فهي سَاتِرَةٌ لما تحتها من أرضٍ وأشياء وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: **الْمَقَامُ**: يُرادُ به المكان المعنويُّ الرفيع، الّذي كَانُوا فيه أهْلَ وِلاَيَةٍ وحُكْمٍ وسُلْطان.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مُفَضَّلٍ عَلَى ما سِواه من الْأَمْكِنَةِ المعنويَّة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾:

تبادر لأذهان كثيرٍ من المفسّرين، أنَّ الله عزّ وجلّ مَلَّكَ بَنِي إسرائيل، مَا كان لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وعِلْيَةِ قَوْمِهِ في مصر، ففهموا هذه الآيَة على وفق هذا الذي تبادر لهم.

مع أنّ الثابت تَاريخيًّا أنَّ بَنِي إسْرائيل لم يَعُودوا إلى مِصْرَ بَعْد أنْ خَرَجُوا منها، بلْ أبقاهم اللهُ عزّ وجلّ تائهين في صحراء سينا وما حَوْلَها مما يتّصِلُ بها بَرّاً أربعين سنة، لأنَّ معظمهم قَدْ رَفَضُوا أنْ يَدْخلوا أرض الكَنْعَانيين مُقَاتِلين، وقالوا لموسَىٰ عليه السَّلام: إنَّ فيها قَوْماً جبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها ما داموا فيها، وقالوا له: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّك فقاتِلا إنَّا هـٰهنا قاعِدُون.

وبعد أنْ تُوفِّي هاونُ ثمّ مُوسىٰ عليهما السلام، ومضت أربعون سنة تائِهين في الأرض، غير مستقرِّين في مُدُنٍ ولا قُرىٰ، وبَعْدَ أنْ نشأ جيل جديد قادر على القتال، هيّأ اللهُ عزّ وجلّ مَنْ يقودهم، فَدَخَلُوا أَرْض الكَنْعَانِيّين بقتال، وهي أرض فلسطين، ونصَرَهُمُ الله ومَلَّكهم مَا كَانَ لِمُلوك هٰذِهِ الأرض الجبابرَة الوثنيِّين الكفرة، من جنَّاتٍ وعُيونٍ وكُنُوزٍ وَمقامٍ كريم.

وبالتأمُّل والتفكير الدقيق، ظهر لي أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يُرَادُ به أنَّهُ قَدْ حصَلَ لِقَوْمٍ آخَرين غَيْرِ المصريّين، نظير ما حَصَلَ للمصْرِيّين مع بني إسرائيل، فنَصَر اللهُ عزّ وجلّ بني إسرائيل عَلَيْهِم، وَمَلَّكَهُمْ مَا كان لملوكهم وأثريائهم مِنْ جنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كرِيم، وهنا يأتي مَوْقع. قول الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: وجعَلْنَا بني إسرائيل هُمْ المالِكينَ لَهَا، بَعْدَ مالكيها السابقين، عن طريقِ القتالِ والحرْب.

وبهذا ينْحَلُّ الإشكال، ويَتِمُّ التوفيق بَيْنَ النصّ القرآنيّ وبَيْنَ الواقع التاريخيّ.

ونلاحظ أنّ هذه الآية (٥٩) قد قَفَزَت بعبارَةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أكثر من خمْسِينَ سَنَةً إلى جهة الأَحْداث الّتي حَدَثَتْ في المستقبل، بعيداً عن حَدَث عُبُور بني إسرائيل البحر، وغَرَقِ فرعَوْنَ وكُلِّ جنوده الّذِين تابَعُوا بني إسرائيل معه.

وقد جاءت هذه الآية كالمعترضة، ضِمْنَ الكلام عن تَسَلْسُلِ الأحداث بتتابُع، للإشْعَارِ بأنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ منَحَ بني إسرائيل مَا كانَ وَعَدَ به أجدادهم المرسلين، وكان تأخير تحقيق وعده بسبب من بني إسرائيل أنفسهم، إذْ رَفَضُوا أن يَدْخُلُوا أرض الكَنْعانيين مقاتلين بقيادة موسىٰ عليه السَّلام، ليظفروا بالأرض المقدسة (= الْقُدْس ومَا حوْله) وهي الأرض التي بارك الله فيها.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: أي: فسَارَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته في أثَرِ جمهور بني إسرائيل، على الطريق الذي ساروا فيه.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتْبَعُهُ، تَبَعاً، وتُبُوعاً، وتَباعاً، وتَباعَةً» أي: سارَ في أثره. وكذلكَ يُقَال: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» بمعنى: سار في أَثَرِه يَطْلُبُه.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: حالَة كونهم داخِلِين في وقْتِ شُروق الشمس. يقال لغة: «أَشْرَق الْقَوْم» أي: دخَلُوا في وقْتِ شروق الشمس، عند طُلُوعها، ومَدِّ ضيائها على الأرض.

لم يُحَدِّدِ النصّ اليوم الذي أَتْبَعُوهم فيه، فلا بُدَّ أَنْ نُقَدِّر زمَناً ما، يُسْتَطاعُ فيه جمع الجيش وحشْرُه وسوقُهُ من المدائنِ المصريّة، وإعدادُه بأقْصَىٰ سُرْعَةٍ لملاحَقَةِ بني إسرائيلَ على الطريق الذي سَلكُوه.

وجاء في النصّ الموجز الذي من سورة (طه): ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ... ﴿٧٨﴾﴾: أي: فأتبعهم فِرْعَوْنُ مصحوباً بجنوده، الباء في: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ للمصاحَبَة.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: فلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته، إلى مكانٍ يُمْكِنُ أنْ يرَىٰ فيه كُلٌّ جَمْعٍ من الْجَمْعَيْنِ الآخر.

يُقَالُ لغة: «تراءَىٰ الفريقان، أو الجمعان، أو الشخصان المتباعدان» أي: رأىٰ كُلٌّ منهما الآخر، أوْ وصَلاَ إلَىٰ مكان يُمْكِنُ فيه أن يرىٰ كلٌّ منهما الآخر.

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: أي: قَالَ أصحابُهُ المؤمنون به والمسلمون له، والملازِمُون مرافقته، والمحيطون به كالْهَالة، وهُمُ الّذينَ اختارَهم موسَى عليه السَّلام واستَخْلَصَهُمْ من قومه، لصُحْبَتِه في حِلِّه وَتَرْحَالِه.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: مُدْرَكون: اسْمُ مفعُولٍ من فِعْلِ: «أَدْرَكَ». يقال لغة: «أَدْرَكَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ» أي: لَحِقَهُ وبلَغَهُ وَنَالَهُ.

والمعنى: قال أصحاب موسى المقرّبون له: إنَّ جَيْشَ فِرْعَوْنَ سَيُدْرِكُنا، وسينالُنا بأَسْلِحَتِهِ مقاتِلين لنا، فقد وصَلَ هٰذا الجيش إلى مكانٍ يَرَوْنَنَا فِيه ونراهم، وأمَامَنَا الْبَحْرُ، فماذا نَفْعل للنَّجَاة من هذا الجيش الّذِي لا قِبَلَ لنا بمقاتَلَتِه؟.

قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لِرَدِّ مُوسَىٰ على أصحابه:

• ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: أجابَ مُوسَىٰ عليه السَّلام أصحابه الذين هم صَفْوَةُ قومه، بعبارة زَاجِرَةٍ، هِيَ: ﴿كَلَّآ﴾.

وعَلَّلَ عليه السَّلام هذا الزجر بقوله لهم: إنَّ مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَني بأنْ أَسْرِيَ بِبَنِي إسرائيل، وأعْلَمَنِي بأَنَّنَا مُتبَعُونَ، فَهُو حَتْماً سَيَهْدِيني إلى وسِيلَةِ النجاة مِنْ هذا الجيْشِ الّذي لاَ قُدْرَة لقَوْمِي بني إسرائيل على مقاتلته.

وكانوا قَدْ وَصَلُوا إلى بَحْرِ «سُوف» وهو «الْبَحْرُ الأحمر».

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾:

وجاء في النصّ الموجز المختزل الذي جاء في سورة (طه):

• ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾:

﴿يَبَسًا﴾: أي: يَابِساً. يقال لغة: «أَرْضٌ يَبَسٌ» أي: صُلْبَةٌ شديدة، ويُقَال: «مكانٌ يَبَسٌ» أي: مكانٌ كان فيه ماءٌ، فذهب ماؤهُ وجَفَّ ويَبِسَ.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾: دَركـاً: أي: لا تـخـاف إدْراكَ جَـيْـشِ فِرْعَوْن لَكُمْ. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: ولا تَخْشَىٰ غَرَقاً. حُذِفت كلمة «غرقاً» على سبيل الاكتفاء، للعلم بها من القرينة، لأنّ المطلوب سلوك طريق بَيْنَ مَاءَيْنِ مُرْتَفِعَيْن جَامِدَيْنِ، كلُّ واحدٍ منهما كالْجَبَلِ العظيم.

فالمعنى المسْتَفادُ من النصَّيْن مع مُلاحظة التَّكامل فيما بينهما:

فعَقِبَ إعلان أصحاب موسَىٰ تَخَوُّفَهُمْ مِنْ إدْراك جيش فرعونَ لهم، وتخوُّفهم من البَحْرِ إذَا فَرُّوا مِنْ مواجَهَةِ الجيش الفرعوني، وبَعْدَ إجابة موسَىٰ عليه السَّلام بقوله لهم: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أوْحَىٰ اللهُ عزّ وجلّ إلى موسَىٰ مُبَاشَرَةً بأنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بعَصَاهُ لينْشَقَّ ويَكُونَ لهم في قَاعِ الْبَحْرِ طريقٌ يَابسٌ جَافّ، فإذا عَبَرَ هو وقومه فيه فإنَّهم لا يخافُون أنْ يُدْرِكهم عَدُوُّهم، ولا يَخْشَون فيه غرقاً فضرَبَ موسىٰ عليه السَّلام مُبَاشرةً بعَصَاهُ الْبَحْرَ، تنفيذاً للأمْرِ الرّبانيّ، فانفلقَّ الْبَحر.

﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أي: فانْشَقّ.

﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾:

الْفِرْق: الْفِلْقُ من الشَّيء إِذَا انْشَقَّ.

الطَّوْدُ: الْجَبَلُ العظيم الذَّاهِبُ صُعُداً فِي الجوّ.

جاء في نصّ سورة (طـه) ذِكْرُ لفظ «طريق» مُفْرداً غير مجموع، ولا نجد في القرآن أنَّهُ كان مُقَسّماً إلى عِدَّةِ طُرُقٍ.

ورُويَ عن ابن عبّاس أنَّ الْبَحْرَ قد انفلق فيه اثنا عَشر طريقاً، لِكُلِّ سِبْطٍ من أسْباط بني إسرائيل طريقٌ، والله أعلم.

والمعنى: فكان كلُّ قِسْم انْفَرَقَ من الماء مُنْحازاً لإحداثِ طريق يَعْبُر منه بنو إسرائيل إلى الشاطىء الآخر، كالجبل العظيم قائماً ثابتاً، لا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شَيْءٌ إِلَىٰ الطريق الْيَبَس الّذِي جَعَلَهُ اللهُ في قَاعِ الْبَحْرِ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: وقَرَّبْنا. يقالُ لغة: «أزْلَفَ الشَّيْءَ، وَزَلَفَهُ» أي: قَرَّبَه، وجَعَلَهُ يَدْنو من الجِهَةِ الّتي قَرَّبَهُ إليها.

﴿ثَمَّ﴾: اسم يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو ظَرْفٌ لا يتصرَّف، وقد تلحقه التاء، فيقال: ثَمَّةَ، ويُوقَفُ عليها بالهاء.

في هذه الآية يتحدَّثُ رَبُّنَا بِعَظَمَةِ الرُّبُوبية، إذْ يُجرِيْ في كونه ما يشاء، ويْخلُقُ فيه ما يَشَاء، ويَتَصَرَّفَ فِيه على ما يشاء من كلّ أَمْرٍ حكيم.

والمعنى: وقَرَّبْنَا هنالِكَ منْ وراء بني إسرائيل الذين عَبَرُوا في الطريق الَّذي شقَقْنَاهُ لهم في الْبَحر فِرْعَوْنَ وَكلَّ جيشهِ، وطَمَسْنَا على بصائرهم، فدَخَلُوا في الطريق الْيَبَسِ متابعين بني إسرائيل، دُون أنْ يُدْرِكُوا أَنَّ الله قَدْ فَلَقَ الْبَحْرَ لهم ليُنْجِيَهم، وثورةُ الْغَضَبِ المجنونَة مَعَ الطَّمَعِ بالظفر ببَنِي إسْرَائيل طَمَستْ بصَائِرَهُمْ جَمِيعاً، فأعماها عن إدْرَاكِ المصِيرِ الَّذِي هم إلَيْهِ صَائرون.

وجاء في هذه الآية التعبير عن فرعون وجَيْشِه بعبارة: ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ استهانة بهم وتحقيراً لهم.

وجاء تَصْرِيحٌ بأنَّ مِيَاهَ الْبَحْرِ قَدْ غَشِيَتْهُمْ في الموجز المختزل الّذي جاء في سورة (طه) الّتي هي قاعدة التدبُّر هنا، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: فَعَلاَهُمْ وَجَلَّلَهُمْ وَأَحَاطَ بأجْسَادِهم غطاءٌ مائيٌّ عظيم، مَا غَشِيَهُمْ من الْيَمِّ، الَّذِي أطبقَتْ عَلَيْهِمْ فيه مياه البحر التي عادت سائلة، كما كانت قبلَ فَلْقِ الْبَحْر لِبَنِي إسرائيل.

قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء):

• ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: وأخْرَجْنَا مُوسَىٰ وَجميع من معه من بَنِي إسرائيل، ويُلْحَقُ بهم ما كان معهم من مواشيهم، وأشيائِهِمْ من أرْزاقٍ وغيرها، من الطريق الْيَبَسِ في البحر، إلىٰ الشَّاطىء المقابل لشاطِىء العبور.

وتَرَكَ اللهُ عزّ وجلّ الْبَحْرَ على حاله المفروق مُدَّة من الزَّمن، حتَّىٰ يكونَ المصريون في وسط الطريق الْيَبَسِ في البحر، دلَّ على هذا حرف الْعَطْفِ: «ثُمَّ».

ولمَّا وصل الجيش المصريُّ بقيادة فرعَوْن إلى نحو الثلث الأخير من الطريق الْيَبَسِ داخل البحر، أمر الله الْبَحْر بأن ينضَمَّ ماؤه عليهم، فسالت الجبال المائيَّةُ عليهم مُتَدَفِّقَةً بِشِدَّة وعُنْفٍ، فَعَذَّبَتْهُم وأَغْرَقَتْهُمْ أجمعين.

وجاء تكميل في الموجز الذي من سورة (طه) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

• ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: وأضلّ فرعون قومه إذْ قال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فاتْبَعُوهم، تغلِبُوهُمْ، وتَسْتَعْبِدُوهم. وأضَلَّهُمْ بقوله لِمَلَئِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ توكيداً بنفي النقيض، وهي من الإطناب ذي الفائدة التوكيديَّة، مَعَ الفائدة اللّفظيّة، لاستكمال نظم الآية بتعادُلٍ مع سَوابقها ولواحقها في سورة (طـه).

قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي من سورة (الشعراء):

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: إنّ في ذلك الذي أجراه الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام ولقومِه من بني إسرائيل من نجاةٍ بخارِقَةٍ عجيبة، ولِفِرْعَوْن وجَيْشِه من تعذيب وإغراقٍ بهذه الخارقة العجيبة، لآيَةً عظيمةً من آيات الله، دالَّةً على عظيم سلطانه في كونه، وعلى سامي حكْمته وعَدْله وفَضْلِه، في تصاريفه في عباده، وعلى سنَّته الثابتة.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّ هذه الآية تَطْبِيقٌ مِنْ تَطْبيقَات سُنَّتِهِ في عبادِه، وعلى الرُّغم من تذكير كُبَراء مشركي مَكَّةَ بها فإنَّ أكْثَرَهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ مَعَها من أن يؤمنُوا عن طريق إرادتهم الحرَّة.

لفظ «مُؤْمِنِينَ» قائم هُنَا مقامَ الفعل المضارع الدّالّ على الاستقبال.

وهذا المعنى الذي ذكرْتُهُ هو المعنى الذي تَرَجّح لدَيّ، نظراً إلى دلالَةِ الآية التالية:

• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

جاءت القضيّة في هذه الآية مؤكّدَةً بـ: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة ـ وضمير الفصل».

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: القويّ الغالبُ لكلّ القوىٰ، وهذا الاسم يُلائم الذين مَرَدُوا على الكُفْر، وصار إيمانُهُمْ ميئُوساً منه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: ذو الرَّحْمَة العظيمة، وهذا الاسم يلائم أحوال القِلَّة الذين يُرْجَىٰ مستقبلاً إيمانهم.

مما جاء عند الإسرائيلين بشأن العبور خروجاً من مصر:

جاء في الإصحاح (١٤) من سفر الخروج:

«٢١» ومَدَّ مُوسَى يَدَهُ علىٰ الْبَحْر. فَأَجْرَىٰ الرَّبُّ الْبَحْرَ بِرِيحِ شَرْقِيَّةٍ شَدِيدَةٍ كُلَّ اللَّيل، وجَعَلَ الْبَحْرَ يَابِسَةً. وانْشَقَّ الماء ٢٢ فَدَخَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطَ الْبَحْرِ عَلَىٰ الْيَابِسَةِ والماءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وعَنْ يَسَارهم ٢٣ وتَبِعَهُمُ المِصْرِيُّونَ ودَخلُوا وَرَاءَهم. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ ومَرْكَبَاتُهُ وَفُرْسَانُهُ إلى وسط البحر ٢٤ وَكَانَ في هَزِيع الصُّبْحِ أَنَّ الرَّبَّ أَشْرَفَ على عَسْكَرِ الْمِصْرِيِّينَ في عَمُودِ النَّار والسَّحَابِ، وأَزْعَجَ عَسْكَرَ الْمِصْرِيِّين ٢٥ وخَلَعَ بَكَرَ مَرْكَبَاتِهِمْ حَتَّىٰ سَاقُوهَا بِثَقْلَةٍ. فقال الْمِصْرِيُّون نَهْرُبُ مِنْ إسْرائِيلَ لِأَنَّ الرَّبَّ يُقَاتِلُ الْمِصْرِيِّينَ عَنْهُمْ.

٢٦ فقال الرَّبُّ لمُوسَىٰ: مُدَّ يَدَكَ عَلَىٰ الْبَحْرِ لِيَرْجِعَ الْمَاءُ على الْمِصْرِيِّينَ عَلَىٰ مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ. ٢٧ فمَدَّ مُوسَىٰ يَدَهُ عَلَىٰ الْبَحْرِ فَرَجَعَ الْبَحْرُ عِنْدَ إِقْبَالِ الصُّبْحِ إِلَىٰ حَالِهِ الدَّائِمَةِ والْمِصْرِيُّونَ، هَارِبُونَ إِلَىٰ لِقَائِهِ. ودفع الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ فِي وسَطِ الْبَحْرِ ٢٨ فَرَجَعَ الْمَاءُ وغَطَّىٰ مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَان جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعونَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ في الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِد ٢٩ وأَمَّا بَنُو إسرائيل فَمَشَوْا عَلَىٰ الْيَابِسَةِ فِي وَسَطَ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهم.

٣٠ فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْم إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. ونَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّين أَمْوَاتاً عَلَىٰ شَاطِىءِ الْبَحْر ٣١ وَرَأَىٰ إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بالْمِصْرِيّين. فَخَافَ الشَّعْبُ وَآمَنُوا بِالرَّبّ وبِعَبْدِهِ مُوسَىٰ».

سادساً
نصُّ سورة (يُونُس/١٠ مصحف/٥١ نزول)
الآيات من (٩٠ ـ ٩٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

القراءات:

(٩٠) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَف: [آمَنْتُ إِنَّهُ] بكسر همزة «إنَّ» على أنّ الجملة مُسْتَأْنفة، والجملة السابقة «آمَنْتُ» انْتَهتْ، إذ أعلن بها إيمانه.

وقرأها باقي القراء العشرة: [آمَنْتُ أَنَّه] أي: آمنت بأنه لا إلّه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

هاتان القراءتان دَلَّتا على أنَّ فِرْعَوْنَ قال أوّلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وبَعْدَ ذَلِكَ قالَ وهُوَ يُغَرْغِرُ مع طُلُوع رُوحِه: ﴿ءَامَنتُ﴾ ـ [إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل].

(٩٢) • قَرَأَ يَعْقُوبُ، [نُنْجِيكَ] مِنْ فِعْلِ: «أَنْجَىٰ، يُنْجِي». وقرأ باقي القراء العشرة: [نُنَجِّيكَ] مِنْ فِعْلِ: «نَجَّىٰ يُنَجي».

«أَنْجَىٰ» و«نَجَّىٰ» متكافئان، لأنّ الفعل المهموز أخو المضَعَّف بتكافُؤ في المعنى، وهما لغتان عربِيّتان.

تمهيد:

من الواضح في هذا النصّ أنَّهُ دَلَّ علَىٰ خَمْسِ قَضَايا لم تَدُلَّ عَلَيْها النُّصوص الأخرى، فالتكامل بَيْنَهَا جَلِيّ:

القضيَّة الأولى: أنَّ دُخول فِرْعَوْنَ وجُنُودِه المصريين طريق الإسرائيليِّنَ دَاخلَ الْبَحْر، قَدْ كانَ بَعْدَ مُجاوزة بَنِي إسْرَائيل الْبحر، وخُرُوجِهِم من مكان الْبَحْر خروجاً كُلِّيًّا مِنْ جِهَةِ الشاطىء الآخر.

وأنّ الْفَلْقَ في الْبَحْرِ اسْتَمَرَّ مُدَّة سَاعَاتٍ من اللّيل، بَعْدَ خروج آخر خارجٍ من بني إسرائيل مع مواشيهم وما معهم من أشياء.

وهذا هو الّذي أَغْرَىٰ فِرْعَونَ وَقَوْمَه بأنّ الْفَلْقَ قد كان حادثَةً طبيعيَّة جَرَتْ على سَبِيلِ المصادفة، فعَبَر على اليابسَةِ في أرْضِ الْبَحْر بَنُو إسرائيل، وأنَّ جُمودَ جَبَلَي الجليد على جانِبَي الطّريق الْبَحْريّ لاَ يَذُوبُ بِسُرْعَةٍ، وأنَّهُمْ سَيَعْبُرُونَ كما عَبَر بَنُو إسرائيل دُونَ أن يُصِيبَهُمْ أذىً.

وسُكُونُ الْبَحْرِ هَكَذَا مَفْلُوقاً عِدَّة سَاعاتٍ يُفَسِّر ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) بَيَاناً لما قاله لموسىٰ عليه السَّلام إبَّانَ الْحَدَث:

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: واتْرُك يا مُوسَىٰ الْبَحْرَ سَاكِناً مَفلُوقاً عِدَّة سَاعاتٍ، فلا تَضْرِبْهُ بِعَصَاكَ لِيَرْجِعَ إلىٰ ما كان عَلَيْهِ فِي حَالَتِهِ المسْتَمِرةِ قَبْلَ فَلْقِه، ليكُونَ بقَاؤهُ سَاكِناً مَفْلُوقاً مُغْرِياً لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ بِعُبُورِه، من الطّرِيق الّذي عَبَرْتَهُ أنْتَ وَقَوْمُك، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أنّ الْفَلْقَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّة. فإذا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ، وقارَبُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الشاطِىءِ الآخر، فاضْرِب الْبَحْرَ بِعَصَاكَ، وأمُرْهُ أَنْ يَنْضَمَّ مَاؤُه بَعْضُهُ إلىٰ بعض، لِيَكُونَ بِهِ إغراقهم جَمِيعاً.

﴿رَهْوًاۖ﴾: أيْ: سَاكِناً، مَفْلُوقاً، يُقَالُ لغة: «رَهَا، يَرْهُو، رَهْواً» أيْ: سَكَنَ. ويُقال: «رَهَا الرَّجُلُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ» أي: فَتَحهُما. ويُقَالُ: «رَهَا الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ» أي نَشَرَهُما.

ومن هٰذه المعاني اللُّغويَّة نَأْخُذُ مَعْنَى السُّكون، ومعنَىٰ الانفتاح،

ومعنى امتدادِ جَبَلَي الماء إلىٰ الأعلى مع مَيْلِ أعْلاَهُمَا ذَاتَ الْيَمين وَذَاتَ الشِّمَال كَجَناحَي الطائر، وكلٌّ هذا ظَاهِرٌ لِمَنْ يَشْهَدُ انفلاقَ الْبَحر.

القضية الثانية: أنّ فِرْعَونَ لمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقِ، أعْلَنَ بَيْنَهُ بَيْنَ رَبِّهِ إيمانه وإسْلامه، قائلاً: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

القضية الثالثة: أنّ اللهَ عزّ وجلّ قَال لفِرْعَون عن طَرِيق الملائكة الّذِين حضروا لانتزاعِ رُوحه، أو عنْدَ انْتِزَاعِ رُوحه:

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وإنَّ هذا الإيمانَ بَعْدَ أن نَزَلَتْ بِكَ مُصِيبةُ الموتِ غَرَقاً عُقُوبَةً لَكَ، لاَ يَنْفَعُكَ، لأنَّهُ إيمانٌ بَعْدَ شُهُودِكَ مَا شَهِدْتَ منْ عالم الآخرة، الّذي كان غَيْباً عَنْكَ وأنْتَ في ظروف الحياة الدنيا. فالإيمانُ النافع في حياة الابْتِلاء هُوَ مَا كانَ إيماناً بالغيب.

القضية الرابعة: هي قول الله عزّ وجلّ له عن طريق الملائكة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ... ﴿٩٢﴾﴾.

القضية الخامسة: بَيَانُ أَنَّ كثيراً من النَّاس عَنْ آيات الله الكثيرة في تصاريفه وتَدْبيراته لكونه لغَافِلُونَ.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ ... ﴿٩٠﴾﴾:

هذا البيان يتحدَّثُ عمَّا كان بَعْدَ أَنْ تَرَاءَى الْجَمْعان، وكان بَنُو إسرائيل على شاطِىء الْبَحر، وَكَانَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُه بَعِيدينَ عنهم مَسَافَةً صالِحَة لمشاهَدَةِ كُلّ جَمْعٍ لِتَحَرُّكَاتِ الْجَمْعِ الآخر، وَمُحَاصِرِينَ لِبَني

إسْرائيل محاصَرَةً تَامَّة، إذْ لاَ خَلاَصَ لهم من الوقوع في أيدي المصْريين إلّا عُبُورُ الْبَحر. وهذا مَا قَدَّرَهُ اللهُ عزّ وجلّ وقضاه.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾:

أي: وَجَعَلْنَا بَنِي إسْرَائِيلَ بقيادة مُوسَىٰ مُجَاوِزِين الْبَحَرْ، وخارجين إلى الْبَرّ مِنْ جِهَةِ الشَّطّ المقابل لشَطّ الْعُبُور.

يقال لغة: «جَاوَزَ المكان يُجَاوِزُه» أي: تخطَّاهُ، وخَلَّفَهُ وَرَاءَهُ.

والباء في: ﴿بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ للتَّعْدِية، أو للمصاحبة، أي: جعلناهم يجاوزون البحر بمصاحبتنا لهم بالعناية والرّعاية والحماية.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ... ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فسار في أَثَرِهِمْ وعلَىٰ طَرِيق عُبُورِهِم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُه.

يقال لُغَةً: «أَتْبَعَهُ، وتَبِعَهُ» أي: سارَ على أثره، فالمعنى فيهما واحد، كما سبَقَ بيانُه في نصٍّ آخر.

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾:

البغي: الظلم، وتجاوز حُدُود الحق والعدل، بإسْراف كريهٍ شنيع.

الْعَدْوُ: مصْدَر «عَدَا عليه، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وَعَدَاءً، وَعُدْواناً» أي: ظلَمهُ بإسراف، وتجاوز لحدود الظُّلْم الّذِي يَصْبِرُ علَيْه المضطّهَدُون، ولا يَصِلُونَ معه إلى الضَّجَر وَتفجُّرِ الْغضب.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

أي: واسْتَمرَّ فِرْعَوْنُ في كُفْرِه وَبَغْيِهِ وَظُلْمِهِ الفاحِشِ، حتّىٰ أَدْرَكه

الْغرَقُ، وَوَجَدَ نَفْسَه هالكاً لا محالة، حِينئذٍ أعلَنَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّه إيمانَه وإسلامه.

إلّا أنّ إيمانَهُ وإسلامَهُ وهو يُعَالج الموتَ وانْتِزَاعَ الرُّوح من جَسَدِه، لا يَنْفَعُهُ شيئاً، لانتهاء مُدَّةِ الامتحان، الّذي أُمْهِلَ فيه إمْهَالاً كثيراً، وقد رأىٰ خلال مُدَّةِ امتحانه من الآيات الرَّبَّانِية مَا جَعَلَهُ يَسْتَيْقِنُ بأنَّها من عند الله رَبّ الْعَالمِين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: أبْلَغَهُ المَلَكُ أو الملائكة المكلّفُون أنْ يَنْزِعوا رُوحه، أو يَحْضُرُوا نَزْعَ رُوحِه، مع تَعْذِيبه، عَنْ رَبِّه قوله له: ٱلْآنَ آمَنْتَ وَأَسْلَمْتَ، إذْ لا يَنْفَعُكَ إيمانُكَ وإسلامُكَ، والحالُ أنَّكَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ، على الرُّغْم من استيقانِكَ مِنْ آيَاتِ رَبّك، وكنْتَ مِنَ المفْسِدِينَ في الأرْضِ، بغْياً وعَدْواً.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾: أي: فالْيَوْم نجعَلُ أمْواجَ الْبَحْرِ تَحمِلُكَ، وَتَقْذِفُكَ، وتُلْقِيكَ عَلَىٰ نَجْوَةٍ من الأرْض، ليراكَ النَّاس هالكاً، بمياه الْبَحْر الذي غَرِقْتَ فيه، ولِيُصَدِّقُوا أنَّكَ قَدْ غَرِقْتَ مَعَ الغارقين، فلم يَنْفَعْكَ ادِّعَاءُ إلَهِيَّتِكَ، ثُمَّ رُبُوبِيَّتِك.

النَّجْوَة: المكانُ المرتفع من الأرض.

ببَدنِكَ: أي مَصْحُوباً بكاملِ بَدَنِك، لَمْ تأكُلِ الحيتانُ مِنْكَ يداً ولا رِجلاً، ولاَ شيئاً آخر من جَسَدِك.

ويُطْلَقُ الْبَدَنُ في اللُّغَةِ علىٰ الدِّرْع، والمعنى على هذا فالْيَوْمَ نُلْقِيكَ على نَجْوَةٍ من الأرض، مصحوباً بدِرْعِكَ الّذي لَبِسْتَهُ، لِحمايَةِ نَفْسِكَ مِنْ ضَرَبَاتِ مَنْ يأتي لمقاتَلَتِك.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾: أي: لتكونَ لمَنْ خلْفَكَ مِنَ الكَفَرَة الطغاة الجبابرَة الباغين العادين، ولسائر الكفَرَةِ المجرمين، عَلامَةً جَلِيَّةً تَدُلُّ عَلَى عَدْلِ رَبِّك في عباده، ولَتَدُلَّ عَلَىٰ عظيم نقمَتِه، مَتَىٰ اقتضَتْ حِكْمَتُه إنزال نِقْمَتِهِ بالطاغين منهم، بَعْدَ إمْهَالٍ طويلٍ، رَغْبَةً في أنْ يُؤْمِنوا، ويُسْلِموا، وقَطْعاً لأعذارِهم الّتي يُمْكِنُ أنْ يَعْتَذِرُوا بها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

في هذه العبارة بيان من الله عزّ وجلّ يكْشفُ فيه حَالَ كثير منَ النّاس، تجاه الآيَات الكثيرات الّتي يُجْرِيها الله في عباده، وفي تصاريفه لكونه.

فحَالُ كَثِيرٍ من النَّاسِ أنَّهُمْ يَكُونُونَ غافِلينَ عَنْها.

الغفلة: انْصِرَافُ الذّهْنِ عَنْ مُلاحظة الشَّيْء وَمُرَاقَبَتِهِ، عَلَىٰ الرُّغْم من وجُوده بذَاتِهِ، أوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ، وإمكان إدْراكه لَوْلاَ وجُودُ الصَّارف، أو السَّهْو، الّذي هو بمثابَة إطْبَاقِ الجفنَيْنِ.

يُقالُ لغة: «غَفَلَ عَنِ الشَّيْءِ، يَغْفُلُ، غُفُولاً، وغَفْلَةً».

أقول: والصّارفُ الْمُحدِثُ للغَفْلَةِ هو انْشِغَالُ النفْسِ وَكِلِّ حواسِّهَا بلذّات الحياة الدنيا، وزينَاتها، وأهواء النَّفْسِ منها، وَتَأَثُّرُ الْفِكْرِ بوسَاوسِ الشياطين، وَتَسْوِيلاتهم، وإطماعاتهم بالباطل.

❀ ❀ ❀

سابعاً

نصُّ سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)

الآية (١٣٦)

قال الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن فرعون ومَلَئه ويلحق بهم جنودهم:

• ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

فأوجز اللهُ عزّ وجلّ المرحلة الأخيرة لقصّة فِرْعَون ومَلَئِه وجنودهم، مع مُوسَىٰ عليه السَّلام وبَني إسرائيل، في سورة (الأعراف) بهذه الآية، ومع هذا الإيجاز البالغ فيها، فَقَدْ جاء فيها إضافة ما يلي:

(١) التعبير بالانتقام منهم. **الانتقام**: المعاقبة على الذنب.

(٢) بيان أنّ الانتقام منهم كان بسبب تكذيبهم بآيات ربّهم من الخوارق، وبآياته الكلامية البيانيَّة الّتي بلغهم إيّاها موسى عليه السَّلام، وبِسَبَبِ أنَّهم أَعْرَضوا عنها بإراداتهم الحرَّة، فكانوا عن دَلالاتها غافلين، فلم يستفيدوا منها، ولم يَعْمَلُوا بمقتضىٰ دَلالاتها.

وقد سبق بيان معنىٰ الغفلة في أواخر تَدَبّر النّص السابق.



ثامناً

نصُّ سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول)

الآيات من (١٥ ـ ٢٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

القراءات:

(١٦) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر، ويعقوب: (طُوىٰ) بغير تنوين، على أنّ اللّفظ ممنوع من الصرف بتقدير أنه معرفة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: (طُوىً) بالتنوين مع كسْرِه في حالَة الوصل، وإبْداله ألفاً في حالة الوقف، والتنوين على أنَّ اللَّفظ مصروف بتقدير أنّه نكرة.

(١٨) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ويعقوب: [إِلَىٰ أَن تَزَّكَّىٰ] . بتشديد الزّاي، أصل الكلمة: «تَتَزَكَّىٰ» أدغمت التاء بالزاي، فصارت «تزَّكَّىٰ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ] بدون تشديد الزاي، وبحذف التاء الثانية من «تَتَزَكّىٰ» الكلمة التي هي الأصل.

والقراءتان وجهان جائزان، وفي «تَزَكَّىٰ» تخفيف وإيجاز، ويظهر أن التعليم الرَّبّانيّ وجَّهَ مُوسى لتخفيف العبارة أوَّلاً، فإذا أحْجَمَ فِرْعَوْن كرّر موسى عليه العبارة مع شيءٍ من التشديد، دلَّ عليه التعبير بعبارة: «تَزَّكَّىٰ».

تمهيد:

هذا النّص قد اشتمل على موجَز مُخْتَزَلٍ جدًّا، لكلّ قِصَّةِ مُوسَىٰ مع فرعون، منذ وقت تكليف الله موسىٰ أنْ يَذْهَبَ إليه، حتَّىٰ التنكيل به، وتَعْذِيبه، وإغراقه.

وفي هذا الموجز الْتِقَاط النِّقَاطِ البارزة العنوانيّة من قصَّة موسى مع فرعون.

والغرض من هذا النصّ توجيهُ الرسول ﷺ، وكُلِّ داعٍ إلى الله من أمّته، للصَّبْر الطويل مع الثقة بالله، في المسيرة الدّعويّة إلىٰ الله، كما صَبَرَ أولُو الْعَزْم من الرُّسل في دعواتهم، ومنهم موسَىٰ عليه السَّلام، الذي جاء في هذا النصّ اختزالُ قِصَّتِه.

وقد سبقَ هذا النصّ في تَرتيب النُّزُولِ نصُوصٌ مُتَعَدِّداتٌ تَدَبَّرنا طائِفَةً

مِنْها فيما سبق مِنْ تَدبّر، وقد جاء في النصوص تفصيل قصَّة موسى بوجوه مختلفة ومتكامِلَةٍ فِيما بَيْنَها.

وجاء هذا النَّصُّ لِلَفْت النظر إليها، رغْبَةً في استخراجها من ذاكرات الموجَّه لهم الخطاب، لسَاحَات التَّصَوُّرِ الحاضر، لتكُونَ حافزاً على التأسِّي بالصَّبْر الذي صَبَرَهُ موسَىٰ على فِرْعَون وقومه، وعِنادِهم، وإفسادهم، واضطهادهم لبني إسرائيل، وبالمتابَعَةِ الدائِبَة الَّتي تابَعَ فيها تأديةَ رسالة رَبّه، إذْ كان ذلك طَوال سِنين في مصر، قد تَصِل إلى رُبْعِ قَرْنٍ أو أكثر، ورأىٰ بعضُهُمْ أنها بلغت أرْبَعين سنة.

وسيرَةُ محمّد ﷺ في مكّة إبَّانَ نزول سورة (النازعات) لَمْ يَمْض عليها إلّا أقلّ من عشر سنوات، فحال الرَّسُول والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، مع عُتَاةِ مُشْركي مَكَّة وجبابِرَتها، أخَفُّ وأهون مِنْ حال موسَىٰ وهارون ومن آمَنَ معهما مع جَبابرة مصر، فرعون وملَئِه وآله وجنودهم.

فالتوجيهُ للتأسِّي بموسَىٰ عليه السَّلام وصَبْرِه، وصَبْرِ مَنْ آمَنَ مَعَه، واضحٌ في النصّ وُضُوحاً تامّاً.

وظاهر أنّ الغرض التوجيهي في سورة (النازعات) بالنظر إلى السّباق والسّياق، لا يَسْتَدْعي أكثر من اختزال قصة موسَىٰ عليه السَّلام، مع فرعَوْن جبّارِ مصر في زمانه، في فِقَرات غَيْرِ طِوال.

التدبّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ لرسُوله، ويُلْحقُ به كلُّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾:

الاستفهام في هذه الآية ليْسَ المراد به طلَبَ الإفهام، إذْ منَ الْجَلِيّ أنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعْمَل فيما وُضِع له، لِسَبْق الإخبار بقصة موسى عليه السَّلام مع

فرعون، في نصوص متعدِّداتٍ مطوَّلاَتٍ، ومتوسطاتِ الطول، ومُوجَزاتٍ، بحَسَب ما اقْتضَتْهُ المناسبات التي جاءت في سُوَرِها، والأغراض الحكيمة من الإتيان بالمقدار الذي جاء فيها، وبالملْتَقَطاتِ من الْقِصَّةِ الّتِي اخْتِيرت للبيانِ فيها.

والمراد بهذا الاستفهام على ما يظهر هنا، الإشعارُ بما يلي:

لقَدْ سبَقَ أن أخبَرْنَاك بِحَدِيثِ موسَىٰ، في سُوَرٍ مُنَزَّلاَتٍ قبل هذه السُّورة، فَهَلْ أنْتَ ذَاكِرٌ ما أتَاكَ من حَدِيث عنه، وكيْفَ جاهَدَ جهاداً شَاقًا بِعَزِيمَةٍ ثَابِتَةٍ، وَصَبْرٍ جميلٍ، في زمَنٍ طويل.

أي: فلَكَ بِه أُسْوَةٌ، فاصْبِرْ كما صَبَر، ولا يَضِقْ صَدْرُكَ، وَتَضْجَرْ ولاَ تَشْكُ مِنْ إعراضِ عِلْيَةِ قَوْمِك عنْ دعْوَتِكَ، أو من إدْبارهم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾:

لَقَد عَلِمْنَا ممَّا سَبَقَ تَدبُّرهُ في السورة، أنَّ الله عزّ وجلّ نَاداهُ أوَّلاً، ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجِيًّا، فَسَارَّهُ، والاختزال هنا اقْتَصَرَ على ما كان أوّلاً، وما جاء بَعْدَهُ تابعٌ لَهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ بأسْلُوب النّداء.

وسبَقَ بيان الوادي المقَدّس «طُوىً» في النصّ الذي من سورة (طـه)، وسبَقَ فيه أيضاً أنَّ الله عزّ وجلّ قال لموسَىٰ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وقد جاء هناك التدبُّر التحليليُّ الكافي.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

ما جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ مُضَافٌ إلى ما جَاءَ في النُّصوص الأخرى إضافَةً تَكْمِيلِيّة، فيها تَعْلِيمٌ من الله كيْفَ يكون الْقَوْلُ اللَّيِّن في مخاطبَةِ مثل

فِرْعَونَ الْجَبَّار، الّذِي اعْتَادَ على تقديم مُقَدِّمَاتٍ رَفِيقَاتٍ طويلاتٍ قَبْلَ عَرْض المَطْلوب منه.

ويُدْرِكُ المتدبّر المتأنّي، أنَّ عبارة: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ التعليميّة الموجّهة من الله عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السَّلام، تُرْشِدُ إلى أنَّ من الحكمة بحَسَب معتاد ذلك الزمان، مخاطَبة فرعون بالأُسلُوب الذي كان يخاطِبُه به قومه، حِينَ طَلَبِ شَيْءٍ ما مِنْه، أَوْ عَرْضِ شَيْءٍ مَا عَلَيْه.

إِنَّه أسْلُوبُ إطالَةِ مُقَدّمات الْعَرْض التكريميّ التلطُّفِيّ قبْلَ بيان المطلوب.

ففي هذه العبارة ذكر خَمْس كَلِمَات تمهيديَّةٍ تلَطُّفِيَّةٍ، قَبْلَ ذِكْر الكَلِمَة التي تضمَّنَتْ عَرْض المطلوب، ولدى إبراز ما هو مطويٌّ مقدّرُ ذهْناً تصير سبع كلمات، وهيَ كما يلي:

«(١) ﴿هَل﴾ وتتضمّن عرضاً على طريقة الاستفهام بتلُّطف (٢) اللّام من: ﴿لَّكَ﴾. (٣) كاف الخطاب. (٤) و(٥) وهنا كلمتان مطويَّتَان هما: «رَغْبَةٌ فِي». (٦) ﴿إِلَىٰٓ﴾ (٧) ﴿أَن﴾...».

وبَعْدَها تأتي الكلمة الّتي تضمَّنَتْ عَرْض المطلوب، وهي ﴿تَزَكَّىٰ﴾ وما جاء بَعْدَهَا في الآية (١٩).

وكان من الممكن حذْف كلّ هذه المقدّمات المطوّلَة، والاكتفاء بعَرْضِ المطلوب بجفاءٍ وخُشُونَة، أو مع بعض المقدّمات دون إطالَةٍ فيها.

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تتَطهَّرُ من العقائد الكُفْرِيَّة، والأعمال السّيّئَةِ الْمُفْسِدَة. وتَنْمُو وتَسْمُو بالإيمان بالله رَبِّ العالَمِين، وبالإسلام له، وبالأعمال الصالحة الّتي تُرْضيه.

الزكاة: في اللّغة تدور حول معنيَيْن: الطهارة، والنماء.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: أي: وَأَدُلَّكَ ببيَاناتي، وبما أُبَلِّغكَ مِنْ كلماتٍ عن رَبِّي، وأُرْشِدُكَ إِلَىٰ صِرَاطِ هدَايتك، صراطِ الله العزيز الحميد، صراطِ الحقّ والخيرِ والرَّشاد، والأعمال الصالحة.

وأَهْدِيَكَ أيضاً إلى معرفةِ أنّ الحياة الدنْيَا دار امْتِحَانٍ، وأنَّ بَعْدَ هذه الحياة مَرْحَلَةً ثانيَةً يَكُونُ فيها البَعْثُ إلىٰ حياة أخرى، وفي تلك الحياة الأخرى دَارَانِ: دارٌ لِنَعِيم المؤمِنينَ المتّقِين، وهي الجنَّة، وفيها كلُّ ما يشتهي ويتمنَّىٰ أصْحابُها. ودارٌ لعذاب الكافِرين المجرمين، وهو عذابٌ شديد، وأشدُّهُ عذابُ الحريق بالنَّار، وهي أيضاً دار عذاب العصاة المسْرِفين على أنفسهم، دون كفر.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾: أي: فتَخْشَىٰ عَذَابَ الله وعقابه، وتَرجُو رحْمَتَهُ وثوابه العظيم في جنّاتِ النعيم، معظّماً ومُجلًّا لِرَبّك، وطامعاً بعظيم فضْلِه عليك.

فما صدّق فرعون موسَىٰ عليه السَّلام في دعوته، وطلَبَ مِنْهُ أنْ يأتيَ ببُرْهَانٍ على صِدْقِه في أنّه رسُولُ رَبّ العالمين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: وهي آيَةُ الْعَصَا الّتي تتحوَّلُ ثعباناً مُخِيفاً مُرْهِباً، وأَتْبَعَها بآيَةِ الْيَد.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: أي فكذَّبَ فِرْعَوْنُ بأَنَّ ما جاء به موسَىٰ من آيَةٍ مُعْجِزَةٍ، هِيَ آيَةٌ مِنْ عِنْدَ الله. وعصَىٰ أَوَامِرَ رَبّه الّتي بلَّغَهُ إِيَّاها في آياتٍ مُنزَّلَاتٍ من كلامه جلّ جلاله.

• ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وبَعْدَ أنْ أَلَحَّ موسى عليه السَّلام عَلَى

فرعون في دعْوَتِهِ إلى دين الله خلال مُدَّة طويلة من السنين، أمهله الله فيها إمْهَالاً قَطَعَ فيه كُلَّ أعذاره، أدْبَرَ عن الاستجابة لدعْوَة رسُولِ رَبّه، فأعْطَىٰ بإدْبارِه غايَةَ الرَّفض لها، ولم يكْتَفِ بالإعراض الذي هو وسَطٌ بَيْنَ الإقبالِ والإدْبار.

ثُمّ لم يكْتَفِ بمُجَرّدِ الإدْبار، بَلْ أَدْبَرَ حَالَةَ كونِه يَسْعَىٰ في تَدْبِير معارضَةِ آيَةِ مُوسَىٰ الكُبْرىٰ، بمفترياتٍ سِحْرِيَّةٍ يأتي بها سَحَرَة مصر.

وأعْلَنَ بوقاحَةٍ بالغة أنَّهُ هو إلَه شَعْبِ مِصْرَ، وإلَه الإسْرَائِيلين أيضاً.

ولمّا خابَ سَعْيُه في معارضة معجزة موسىٰ بسِحْرِ سَحَرَة مِصْر، صَارَ يَسْعَىٰ في اضّطهاد مَنْ آمَنَ بموسَىٰ، ولو كان من بني إسرائيل.

ثم عَرَض على مجْلِسِ وزرائه ومستشاريه في قَصْرِه أنْ يقْتُلَ مُوسى بسِرّيَّة ومفاجأة تَمْنَعُ مُوسَىٰ من أنْ يَدْعُوَ رَبَّه، إذْ كان فرْعَوْنُ مُسْتَيْقِناً في نفسه، من أنَّ مُوسَىٰ رَسُولُ رَبّ العالمين الذي يسْتَجيبُ دُعَاءَهُ إذا دَعَاه.

ثُمَّ نَفَخَ في رأسِهِ جُنُونُ العظمة وحُبّ العلُوّ في الأرض، فادّعَىٰ أنَّهُ هو الرَّبُّ الأعْلَىٰ في مصر، دَلَّ على هذا:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: فجَمع الجموعَ من المصريين والإسرائيليّين، وساقهم وأعَدَّ احْتِفَالاً عظيماً حَاشداً، جَرَت فيه المراسيم الملكيّة الفرعونيّة، وقامَ في الْجَمْع ملقياً خطابَ الْعَرْش، فنادَىٰ بأعلَىٰ صَوْتِه بَعْدَ المقدّمات الّتي أَبَانَ فيها إنعاماته على شَعْبِه قائلاً: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الَّذِي يُقَدِّمُ لَكُمُ الْأَرْزاق، ويُيَسِّرُ لَكُمْ مصالح حيواتِكُمْ، ويَفْعَلُ وَيَفلُ مُعَدِّداً مَآثره، ولا رَبَّ لكم غيري، فجَعَلَ نَفْسَهُ نِدّاً لله في رُبُوبيَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: فَدَبَّر الله له تدبيراً مُحْكماً، فأخَذَهُ بِه أخْذَ عِقَابٍ بَعَذَابٍ وإغراق له ولجنُودِهِ أجْمَعين.

النّكال: العقابُ الشديد الرَّادِع.

أصل معنى الأخذ: الْقَبْضُ على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعنى صار يُطْلَقُ علَىٰ ما يُؤْخَذُ له. فإذا كان الأخْذُ للعذاب والعقاب، كان المراد به العذابَ والعقاب، وإذا كانَ الأخذُ لِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ المرادُ به ما أُخِذَ لَه، فأخْذُ المأكول لِيُؤكَل، وأخْذُ المشروب لِيُشْرَبَ، وأخْذُ القادر على العمل لِيُسَخَّر، وأخْذُ القادرين على القتالِ من قِبَلِ قائد الجيش ليقاتِلُوا. وهكذا.

﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: أي: عاقَبَهُ الله بالتعذيب والإغراق في البحر، بَعْضَ عقاب كلمَتِهِ الآخِرَة الّتي ادَّعَىٰ فيها الرُّبوبية، وكَلِمَتِهِ الأولى التي ادَّعَىٰ فيها الإلَٰهيَّة.

تَرَجّح عِنْدي هذا الرأي من أقوال المفسّرين، بعْدَ النظرة الشاملة في قصَّةِ موسَىٰ مَعَ فِرْعَوْنَ وقومه، إلىٰ مختَلِفِ النصوص التي تحدَّثَتْ عنها، والتأمُّلِ فيها بتفكير عميق.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: إنَّ في ذلِكَ الّذي جرىٰ لِفِرْعَوْن ولِمَنْ شَدَّ أزْرَهُ من آلِه وقومه، لَعِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِها مَنْ يَخْشَىٰ على نَفْسِه من نكالٍ مماثلٍ لما عاقب الله به فِرْعَوْن وكلَّ من آزره، وجنَّدَ نَفْسَه لِدَعْمِ سلطانِه الظّالم الغاشم.

العِبْرَةُ: الاعْتِبَارُ والاتّعاظ بما مضىٰ، وأصْلُ معنى العِبْرَة من العبور،

وهو الانتقالُ من حادثةٍ جرَت إلى حادثةٍ لَمْ تَجْرِ، بقياسِهَا عليها، والحكْم عليها بأنَّها سَيَحْدُثُ فيها مِثْلَ مَا حَدَث في الماضِيَة، إذا تَمَاثَلَتِ الحادثتان في الصفاتِ وفي الأسباب.



تابع التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (طـه) المشتمل على لقطات من قصّة موسى عليه السّلام

الفقرة الخامسة
الآيات من (٨٠ ـ ٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾:

القراءات:

(٨٠ و٨١) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: [**أَنْجَيْتُكُمْ ـ وَوَاعَدْتُكم ـ رَزَقْتُكُمْ**] بضمير المتكلم المفرد، وبفعل «واعَدَ» المزيد.

وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَنْجَيْنَاكم ـ وَوَعَدْنَاكم ـ رَزَقْنَاكم**] بضمير المتكلّم العظيم، وبفِعْلِ «وَعَدَ» غير المزيد على وزن: «فَعَل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**أَنْجَيْنَاكم ـ وَوَاعَدْنَاكم ـ رَزَقْنَاكُمْ**] بضمير المتلكّم العظيم، وبفعل «وَاعَدَ» المزيد الدالّ على المشاركة، أو المبالغة بتأُكيد الوعد.

(٨١) • قرأ الكِسَائي: [فَيَحُلَّ ـ وَمَنْ يَحْلُلْ] مِنْ فعل: «حَلَّ، يَحُلُّ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَيَحِلَّ ـ وَمَنْ يَحْلِلْ] من فعل «حَلَّ، يَحِلُّ».

«حَلَّ يَحِلُّ، وحَلَّ يَحُلُّ» لُغَتان عَرَبيتان متكافئتان.

تمهيد:

جاء في هذه الفقرة خطابٌ لبني إسرائيل عُمُوماً المعاصرين لرسالة محمّد ﷺ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ، بِمنَّةِ الله على أجدادهم الّذين كانوا مع موسَىٰ عليه السَّلام في سيناء، وهذه المنَّة تنْسَحِبُ على ذراريهم إلى أن تقومَ السَّاعَة، لأنَّ نوياتهم الصغرىٰ كانَتْ في ظُهورِ أجدادهم، ولأنَّهم بَعْدَ خروجهم من بطون أمَّهَاتِهم إلَىٰ الحياة الدُّنْيَا حَافَظُوا على انتمائهم إلى أجدادهم واعتزازهم بهم، عَلَىٰ ما كانَ مِنْهُمْ من شُرُورٍ، وجرائم، ومعصيَةٍ لله عزّ وجلّ، وتَمَرُّدِهم على رُسُلِ رَبّهم.

وفي هذا النصّ يَمْتَنُّ اللهُ علىٰ بني إسرائيل بثلاث مِنَنٍ:

المنَّةُ الأُولى: أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ أنجاهُمْ مِنْ عَدُوِّهم فِرْعَوْنَ وجُنُودِه، بآيَةٍ خَارِقَةٍ، هِيَ فَلْقُ الْبَحْرِ لهم، حتَّىٰ عَبَرُوا إلى الشاطىء الْآخر، وخرجوا منْه سالِمِينَ، وأَغْرَقَ فرعونَ وجنودَه أجمعينَ في الْبَحْر وراءهم، وقَذَف بأجْسَادِ كثيرٍ منهم إلىٰ الشاطىء الآخر، لأَنَّهُمْ كانُوا عَلىٰ قُرْبِ الوصول إلَيْه.

المنّة الثانية: أَنَّهُ واعَدَ رَسُولَهُ موسىٰ عليه السَّلام، وواعَدَهُمْ معه، أَنْ يُكلِّمَهُ فِي جانب الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وأنْ يَشْهَدُوا الحدَثَ التكريميَّ العظيم، إلّا أَنَّهُمْ لَم يُتابِعُوا مُوسَىٰ إلى جانب الطور، بلْ تخلَّفُوا في محلتهم الّتي هم نازِلُونَ فيها.

ولما تأخَّرَ مُوسَى عن الثلاثين ليْلَةً الّتي كانت في الوعْدِ الأوّل، قَبْلَ زيادَتِه عشر ليالٍ أخرى، لامتحان إيمان بني إسرائيل، صنَعَ لهم السّامِرِيُّ عجْلاً ذهبيًّا مِنَ الْحُلِيِّ الّتي استعارها الإسْرَائِيليُّونَ من المصْرِيّين قُبَيْل خُرُوجهم من مصر، وقَذف في جوفه القبضَةَ الّتي أخذها من أثر الرّسُول جبريل عليه السَّلام، فصار العجل يخور مثْلَ خُوارِ الْعُجول، فَعَبَدُوه إلَهاً من دُون الله جلّ جلاله، في قصَّةٍ سبَقَ بيانُها في تدّبر سورة (الأعراف).

المنّة الثالثة: أنّ بني إسرائيل في سيناء، لمَّا تضجَّرُوا إذْ لم يَجِدُوا في صحرائها ما يَصْنَعُونَ مِنْهُ خُبْزاً يَأْكُلُونه، إذْ كان أكثر طعامهم ألْبَانَ البقر والغنم، وَبَعْضاً من لحومها، وخافوا علىٰ مواشيهم من الانقراض بذبْحها والأَكْل مِنْ لُحُومِها، دَعا موسَىٰ عليه السَّلام رَبَّه، فنَزَّلَ عليهم المَنَّ بَدَلَ الخُبْزِ، وأطْيَبَ منه، وأرْسَلَ إلى مَحَلَّتِهِمْ وَمَا حَوْلَهَا طُيورَ السَّلْوىٰ، ينالُونها بأيْدِيهم، فيذْبَحُونَها، ويأْكُلونَ مِنْ لُحُومِها.

ولاختبارهم كلّفَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ تكليفاً دِينيًّا شَرْعِيًّا تَعَبُّدِيًّا، أنْ يَجْمَعُوا من المنّ الذي يُنْزِلُهُ عَلَيْهِم حَاجَةَ يَوْمٍ كلّ واحدٍ منهم ليأكلَه، وحرَّمَ علَيْهم أنْ يدَّخِرُوا إلى اليوم الثاني منْهُ شيئاً باستثناء اليوم السَّادِس الذي هو قبل يوم السَّبْتِ، فيجْمَعُونَ من المنّ حاجَةَ يومَيْن، لأنّ السَّبْتَ يومُ انقطاعٍ عن كلّ عَمَلٍ دُنْيويّ، وقَدْ قَطَعَ اللهُ عزّ وجلّ إنزال المنّ عليهم يومَ السَّبْت(١).

وحذّر الله عزّ وجلّ بني إسرائيل من مخالفة هذا التكليف التعبُّدِيّ، ومن تجاوز حُدُود الله فيه، فمن خالف حلَّ علَيْه غَضَبُ الله.

لكنَّ فريقاً منهم قد عصَىٰ الله فيما أمَرَ به وفيما نهىٰ عنه، متجاوزاً بطغيانِ حُدُودَ الله، فَسَقَط في مَهْواةِ الآثمين الظالمين لأنفسهم.

---

(١) انظر الإصحاح (١٦) من سفر الخروج.

إلّا أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ فتح أبواب غُفْرانه، لِمَنْ تَابَ منْهم، وآمَنَ وعَمِلَ صَالحاً، ثمّ اهْتَدَىٰ إلى الاستقامة، والالتزام بطاعة الرّبّ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

التّدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ...﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[قَدْ أَنجَيْتُكُم]**:

والغرض من القراءتَيْن مُخَاطَبَتُهُمْ بايناسٍ مَرَّةً بأسلوب المتكلّم المفرد، ومخاطَبَتَهُمْ بَعْدَ ذلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وهُوَ يتجلّىٰ بعظَمَةِ الرُّبُوبيَّةِ، إذْ يَسْتَعْمِلُ ضمير المتكلّم العظيم.

بهذه العبارة ينادي الله عزّ وجلّ بني إسرائيل المعاصرين لرسالة محمّد ﷺ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، ممتّنًا علَيْهم بمَا فَعل مع أجدادِهم أيّامَ موسَىٰ عليه السَّلام من مِنَنٍ عظيمة، رَغبَةً في أنْ يحْفِزَهُم ذلِكَ إلى القيام بما يجب عليهم من الشُّكْرِ له، والإيمان برسوله محمّد ﷺ، وبما جاءهم به عَنْ رَبّه، فَرُسُلُ الله جَمِيعاً مَبْعُوثُون مِنْ مُرْسِلٍ واحِدٍ، هو رَبّ العالمين جَميعاً، فعلَىٰ عباد الله جَمِيعاً أنْ يُؤْمِنُوا بهم جميعاً أَنَّهم أنبياءُ الله ورُسله، أمّا السُّلُوكُ الدينيُّ فعَلَيْهِمْ أنْ يَتَّبِعُوا التالِيَ فَالتَّالِيَ من التّنزيل الرَّبّانيّ الذي يأْمرُهُمُ الله فيه باتّباعِه، سواءٌ أكان ذلِكَ في الرِّسَالَةِ الواحِدَة، أمْ في الرّسَالاَتِ المتتالِيَاتِ، حتّىٰ آخِرِها تَنْزِيلاً.

فأتباع الرُّسُل لا يَعْبُدونَ الرُّسُل، وإنّما يَعْبُدونَ من أرسلهم، وعَلَيْهم أنْ يَتّبِعُوا أوامِرَ ونواهِيَ الْمُرسِلِ لاَحقاً فلاحقاً، دون تشبث بالسَّابِقِ وتَعَصُّبٍ له.

وكلُّ مُؤمِنٍ بالله رَبِّ العالمين يَعْلَمُ أنَّ الله عزّ وجلّ عليم حكيم، فما يَنْسَخُ مِنْ حُكْمٍ تكْلِيفيّ إلّا بِحُكْمٍ تكْلِيفيّ مِثلِه، أو أحْسَنَ منه.

• ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾: أي: من فِرْعَوْنَ وجنُودِه، إذْ أخْرَجَكُمْ من العبودِيَّةِ والإذْلال، وشقّ لكم البحر، فخلَّصَكُمْ من متابَعَةِ فرعون وجنوده لكم.

• ﴿وَوَاعَدْنَكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ... ﴿٨٠﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَاكُمْ]﴾: أي: وَوَعَدْنَاكُمْ وعْداً مُؤَكّداً يصحُّ أن يُقَال فيه: ﴿وَوَاعَدْنَكُمْ﴾ إذْ صيغة «فَاعَلَ» تُحْمَلُ على المبالغة والتحقيق وشدّة الاهتمام والعناية، إذا لم تَدُلَّ على المشاركة.

أي: وعَدْناكم وعْداً مؤكّداً أنْ نُكلّم رَسُولنا موسَىٰ وأنتم حضورٌ في الجهة اليمنىٰ من الوادي الواقع بجانب جَبَلِ الطّور، وقدْ سبَقَ بيانٌ كافٍ عنه، لدىٰ الحديث عن مكالمة الرّبّ عزّ وجلّ موسَىٰ بجانب الطور، وهو راجِعٌ إلىٰ مِصْرَ مِنْ مَدْيَنَ معَ أَهْلِه.

• ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾: أي: وأعْطَيْناكم ووَهَبْنَا لكُم وأنْعَمْنَا ومَنَنَّا عليكم، وبمَا أنّ الله عزّ وجلّ هو العليُّ الأعلىٰ، كانت كلُّ عطاءاته وإنعاماته على عباده تنزيلاً، ولو كانت موادُّها وعناصرها موْجُودةً فِي الأرض، على وَجْهِها أو في باطِنَها، فالمعْطِي والواهب عليٌّ أعْلىٰ، وعطاءاتُه تنزيلٌ من لَدُنه، بأمره وقضائه وقَدَره.

الْمَنّ: طعامٌ أنْزَلَه اللهُ عزّ وجلّ على بَنِي إسرائيل أربعين سنةً مُدَّةَ إقامتهم في صحراء سيناء وامتداداً إلى بَرّيّة فَارَان، في اتّجاه الحجاز، وقد قام هذا الطَّعامُ الّذي كَانَ يَنْزِلُ كالنَّدَىٰ على وجه الأرض مقام الخبز.

جاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج، الإصحاح (١٦): أنَّهُ كان يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءَ كالندىٰ كلَّ صَباح، فيكُون علَىٰ الأرض مثْلَ قُشور،

كالْجَلِيد علَىٰ الأرض، وأنّ موسى عليه السَّلام قال لبني إسرائيل حينئذٍ: هو الخبزُ الّذي أعطاكم الرَّبُّ لتأكُلوا، الْتَقِطوا مِنْهُ، كلٌّ واحِدٍ منكُمْ على مقدار ما يكْفيه ليَوْمِهِ، ونهاهم بشِدَّةٍ عن أنْ يأخذوا زائداً عن كفايتهم اليوميّة، وعن أَنْ يَدَّخِرُوا منه شيئاً، وكان هذا تكليفاً تعبُّدِيًا.

وكان هذا الطعام يَنْزِلُ على مَحَلَّتِهم وعلَىٰ مَا حَوْلَها، ليجمعوه كلَّ يوم في الصباح إلّا يوم السبت، فهو يومٌ حرَّم الله عليهم العَمَل فيه لأمور دنياهم، وحاجَتُهم من المنّ في يوم السبت كانوا يجْمَعُونَها في اليوم الذي قبله، وهو اليوم السادس من أيّام الأسبوع، وكان الله يحفظه لهم، فلا يُنْتِن ولاَ يَظْهَرُ فيه الدُّود، بخلاف الأيام الأخرى.

لكن مَنْ أخَذ في سائر أيام الأسبوع أكثر من حاجته اليوميَّة، وأبقَىٰ مِنْهُ شيئاً لصَباح اليوم التالي، أنْتَنَ وظَهَرَ فيهِ الدود الكثير، وعصَىٰ رَبَّه، وخالَفَ شَرِيعَتَه.

وأبقىٰ بَعْضُ بني إسرائيل شيئاً من الْمَنِّ إلى صباح اليوم التالي، فأنْتَنَ وتَولَّدَ فيه الدُّود، وسَخِطَ عليهم موسى عليه السَّلام، لمخالفتهم أَمْرَ الرّب جلّ جلاله.

وقدَّر لهم موسىٰ عليه السَّلام حاجة الشخص اليوميّة من المنّ بمكْيالٍ مَعْرُوف عندهم، يتّسع لنحو لِتْرَيْنِ وثلاثَة أعشار اللّتر (كما ذكر كاتِبُو قاموس الكتاب المقدّس).

ودعا بيت إسرائيل هذا الطعام «مَنًّا».

ووصف الإسرائيليون المنّ بأنَّه كَبِزْر الكزْبرَة أبيض، وبأنّ طعْمَهُ كرِقاق بعسل.

وجاء في سفر «العدد» أنهم كانوا يطحنونَهُ أو يَدُقُّونه، ويخبزونه.

وذكروا أنّ ما يبقىٰ من المنّ على وجْهِ الأرض كان يَذُوب، ويختَلِطُ بتراب الأرض إذا اشتدّت حرارة الشمس.

وثبت في صحيح البخاري وصحيح مسلم من حديث أبي سَعِيد بن زيد، أنّ النبيَّ ﷺ قال:

«الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ الّذِي أَنْزَلَهُ الله عَلَىٰ مُوسَىٰ».

ونظيره عن أبي هريرة عند أحمد والترمذي، وكذلك عند النسائي عن جابر، وأبي سعيد، وابْنِ عبّاس.

وهذا يدُلُّ على أنّ المنَّ أنواع، منه ما ذكره الإسرائيليون، ومنْهُ الكمأة، والله أعْلَم.

السَّلْوىٰ: طيور ترْحَلُ في أسرابٍ كثيفة تُغَطّي كالسّحاب، وكانت تَسْقُط على الأرض من تَعبِها، فيَسْهُل إمْسَاكُها بالأيدي.

وفي حال تَعَبِها كانت تطير عند الحاجة على ارْتفاع نَحْوِ ذِرَاعَيْن فوق وجْه الأرض.

فكان الإسرائيليّون يجْمَعُونَ من طيور السَّلْوىٰ في المسَاءِ، ويَذْبَحونَها، ويَأْكُلونَ منْها لحماً شَهِيًّا طَيّباً، وكان هذا من فضل الله عليهم في سيناء.

(انظر سفر العدد/ ١١/ ٣١).

• ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

أي: قَالَ اللهُ لهم، وفْقَ بلاغ مُوسى عليه السَّلام لهم هذا القول.

والمعنى: أنّ المنَّ والسَّلْوىٰ قد كانَا مِن الطيِّبَات، وقد أباح الله لهم بهذا الأمْرِ أَنْ يأكُلُوا منها، ضِمْنَ تَشْرِيعٍ تعبُّدِيٍّ في المنّ سبَقَ بيانُه آنفاً.

• ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾: أي: ولا تتجاوزوا فيما رزَقْنَاكم حُدُودَنَا الّتي

بيَّنَّاها لَكُمْ، فلا تَدَّخِرُوا مِنَ المنِّ إلى صَبَاحِ اليوم التالي شيئاً، باسْتثناء اليوم السادس الذي يعْقُبُه السَّبت وهو يوم لا عمل فيه، فإنكم تجمَعُون فيه ما يكْفي حَاجَتَكُم ليومَيْنِ فقط، وسأحفظه لكم من الفساد. فقد جعلنا رزْقكم من المنّ على مقدار حاجَةِ كلّ فردٍ منكم، يوماً فيَوْماً، فَمن ادّخَرَ مِنْهُ شيئاً على خلاف أمْري فقد عصاني، وطغىٰ، أي: وتجاوز الحدّ الذي حَدَّدْتُه.

• ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِىۖ﴾: أي: ومَنْ طغىٰ بتجاوُز الْحَدِّ الذي حَدَدْتُه فادَّخَر من المنِّ ما لم آذَنْ بادّخاره حلَّ عليه غضَبَي، أيْ: نَزَل عَلَيْه حالًّا به غَضَبِي، لأنّه عصاني فيما أوليْتُه من نِعْمة.

والمرادُ بحُلُولِ الْغَضَب حُلُولُ آثاره من الانتقام العقابي، ومنه العقابُ النفسيّ الذي يُحْدثُ في النَّفْس القلَقَ والاكتِئَاب والكَدَر ونحو ذلك.

• ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾: أي: فقد سَقَطَ مَهْوَاةٍ سُقوطاً مُخِيفاً جِدًّا، كالسقوطِ إلى وادٍ سحيقٍ، أو في بئْرٍ شديدة العمق.

• ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾:

هٰذا بيانٌ خاطَبَ الله عزّ وجلّ به بني إسرائيل إبّانَ إنعامِه عليهم بتنزيل المنّ والسَّلْوىٰ لإطعامهم، وإبَّانَ تَكْليفِهم تكليفاً تعَبّدِيًّا أن لا يَدَخِرُوا من المنّ شيئاً على ما سبَق بيانه آنفاً.

ويظهر لي من هذا البيان، أنَّ الْغُفْرَانَ عن المعْصِيَةِ في الشريعة المنزلَة على بَني إسرائيل حينئذٍ، قد كان من شُروطه ما يلي:

(١) التوبة من الذّنْبِ الّذِي ارْتكَبَهُ الإسرائيليّ.

(٢) تجديد الإيمان بما يجبُ الإيمان به من عقائد وشرائع ثابِتَةٍ

التنزيل عن الله، فموسَىٰ قد كان معَهم يُبَلِّغهم ما يُنَزِّل اللهُ علَيْه من أحكامٍ وتَشْرِيعات آنا فآناً، فهي يقينيَّةٌ حتماً في عَصْرِه.

(٣) مُتَابَعةُ الإيمان بالْعَمَلِ الصالِحِ مُدَّةً من الزَّمَنِ يتحقَّقُ فيها أنَّه صار من أهل الاستقامة والطاعة.

(٤) ثُمّ اهْتَدَىٰ في مَسِيرته في حياته إلى السَّيْرِ في صراط الله المستقيم، طائعاً لِرَبّه باختياره الحرّ، دون انحرافٍ وخروجٍ عنه من ذَاتِ الْيَمين، أو من ذات الشمال.

هذه الشروط الثقيلَة على بَنِي إسرائيل، ليغْفِرَ الله عزّ وجلّ للعاصي منهم، المتجاوز حُدُودَ ربّه، هي من الإصْرِ الَّذِي كان على بني إسرائيل.

الإصْر: الْعَهْدُ الثقيل. والتكليف الشديد الثقيل.

أمّا في الإسلام الذي حمل رسالَتَه سيدُنا محمَّد بنُ عبد الله ﷺ، فإنّ المعاصي مع وجود الإيمان المستقر تكْفِي فيها للظفر بغفران الله، التوبَةُ والاستغفار، والإقْلاع عن الذنب، والعَزْمُ على عَدَمِ الْعَوْدَة للذَّنب. ولا يُشْتَرَطُ فيها مُرُورُ زمَنٍ مُمْتَدٍ يَعْمَلُ فيه التائبُ عملاً صالحاً، ولا الاستقامة على صراط الهداية، إلّا بالنِّسْبَةِ إلىٰ عباد الرحْمٰن المرشَّحِين لأنْ يكونوا أئمَّةً للمتقين، إذا ارتَكَبَ أَحَدُهم من كبائر الذنوب كبيرة الإشراك بالله، أو قَتْلِ النَّفْسِ الّتي حَرَّمَ الله إلَّا بالحق، أو الزنا، فَمِنْ شروط تَوْبَةِ أَحَدِهم من هذه الكبائر، أنْ يُجَدِّد إيمانَهُ ويَعْمَلَ صالحاً، كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

لقد وضع الله عزّ وجلّ في الرّسالة الخاتمة للرّسالات الرَّبّانيَّة عَنْ عِبَادِه، ذلِكَ التكليف الشَّدِيد الثقيل الذي كان على بَنِي إسرائيل، وكانت لَهُ ظروفُه الزَّمنيَّةُ المؤقَّتَة.

هذا ما فَهِمْتُهُ من ارْتِبَاطِ الآية (٨٢) بما جاء قَبْلَها، بدءاً مِنْ

خِطَابِ الله عزّ وجلّ لِبني إسرائيل، مَعَ مقارنَتِهِ بالنصوص الكثيرة في القرآنِ والسُّنَّة بِشَأْنِ مَغْفِرَةِ الذُّنوب.

ما جاء في القرآن من بيانٍ عن المنّ والسَّلْوىٰ غير الذي جاء في سورة (طـه):

(١) أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ أوّلاً بياناً خَبَرِيّاً عَنْ مِنَّتَي المنِّ السَّلْوىٰ اللَّتَيْن امْتَنَّ اللهُ بهما على بَني إسْرائيلَ، وهم في سيناء، بَعْدَ خروجهم من مصر، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في العهد المكيّ:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

(٢) ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ في الْعَهدْ المكِّيّ أيضاً، النَّصَّ الذي تَدَبَّرْنَاهُ آنفاً من سورة (طـه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) يخاطب الله فيه بني إسرائيل، قبل أنْ يَجْرِي بينهم وبين الرَّسُول وأصحابه، احتكاكٌ دَعوِيٌّ، أو صِرَاعٌ جَدَلِيٌّ أو عِدَائيّ.

(٣) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في أوائل الْعَهْدِ الْمَدَنيّ، إذْ بَدَأ الاحْتِكَاكُ الدَّعوِيُّ من الرَّسُولِ وأصْحَابه لَهُمْ، قوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوَّلِ سُورَةٍ من التنزيل المدنيّ خطاباً لبَنِي إسرائيل، إذْ كَانَ لَهُمْ ثلاثُ قبائل في المدينة:

﴿. . . وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وقُلْنَا لأجدادكُمْ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وقُلْنَا لَهُمْ أيضاً ما جاء بيانُه في سورة (طـه): ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

وأضاف البيانان اللّذان من سورة (الأعراف) والذي من سورة (البقرة) أنّ فَرِيقاً من بني إسرائيل لم يُطِيعُوا الله عزّ وجلّ، في الحكم التَّعَبُّدِيِّ الذي كلّفَهُمْ أن يَرْعَوْهُ بشأن عَدَم الادّخار من المنّ، فَطَغَوْا متجاوزِينَ حُدُودَ أَمْرِ الله ونَهْيه، فعرَّضوا أنفُسَهُمْ لِحُلول غَضَب الله عليهم، وأبان الله عزّ وجلّ أنّهم بمعصِيَتِهم لم يَظْلِمُوا الله شيئاً، وإنّما ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

❁ ❁ ❁

تابع التدبّر التحليليّ للدَّرس الثاني من دروس سورة (طه) المشتمل على لقطاتٍ من قصّة موسى عليه السَّلام

الفقرة السادسة
الآيات من (٨٣ ـ ٩٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾:

القراءات:

(٨٤) • قرأ رُويس: [**عَلَىٰ إِثْرِي**] بِكَسْرِ الهمزة وإسكان الثاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**عَلَىٰ أَثَرِي**] بفَتْحِ الهمزة والثاء.

«إِثْرِي» و«أَثَرِي» لُغتان عربيّتان متكافئتان. يقال لغة: «جاءَ في إِثْرِه» و«جَاءَ في أَثَرِه» أي: جاء عَقِبَه.

(٨٧) • قرأ نافع، وعاصِمٌ، وأبُو جَعْفر: [**بِمَلْكِنَا**] بفَتح الميم.

وقرأ حمزة، والكِسائي، وخَلَف: [**بِمُلْكِنَا**] بضَمّ الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**بِمِلْكِنَا**] بكسْرِ الميم.

فتح الميم، وضمُّها، وكَسْرُها، لُغَات. يقال لغة: «مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مَلكاً، ومُلْكاً، ومِلْكاً» أي: حازه وانفرد بالتَّصرُّف فيه.

(٨٧) • قرأ أبو عَمْرو، وشُعْبَةٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، ورَوْح، وخَلَف: [**حَمَلْنَا**] من فعل: «حَمَل» المبني للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [**حُمِّلْنَا**] مِنْ فعل: [**حُمِّلَ**] المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، مشدّدَ الميم للتعدية.

وبين القراءتَين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، لأنّ الظّاهر أنّ بعض

بني إسرائيل حَمَل من حُلِيّ المصريين بإرادَته واختياره، وأن بعضُهم الآخر حُمِّلَ وهو كارِهٌ لمَا حُمِّلَ، لما في حَمْلِ الْحُلِيّ من المصريين على سبيل الاستعارة، وهمْ خارجون من مصْرَ خروجاً كليًّا دون رغبةٍ في العودة، مِنْ خيانةٍ، وتغريرٍ وسلبٍ بغيْر حقّ.

(٨٩) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير. وهما لُغتان عربيتان.

(٩٣) • قرأ نافع، وأبو عمرو، [تَتَّبِعَنِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وكذلك قرأها ابْن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف، وكذلك قرأها أبو جعفر، ولكن بفتح ياء المتكلّم وصلاً وإسكانها وقفاً. وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً، مع تقديرها ذهْناً:

(٩٤) • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [يَبْنَؤُمِّ] بكسر الميم، وقرأها الباقون بفتح الميم، والقراءتان وجهان عربيان متكافئان.

(٩٤) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [بِرَأْسِيَ إِنِّي] بفتح ياء المتكلم، مع إبدال الهمزة لأبي جعفر، وللسُّوسي، وقرأها الباقون بإسكان هذه الياء.

(٩٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا بِهِ] بتاء المُخَاطَبِينَ. وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبين. وبين القراءتين تكامُلٌ بيانيّ.

(٩٧) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [لَنْ نُخْلِفَهُ] بكسر لام «نُخْلِفَهُ». وقرأ باقي القرّاء العشرة بفتح هذه اللام. والقراءتان متكامِلَتَان في أداء المعنى المراد بيانُه.

(٩٧) • قرأَ ابْنُ وردان: [لَنَحْرُقَنَّهُ] بفتح النُّون الأولى وكَسْر الراء. وقرأها ابْنِ جَمَّاز: [لَنُحْرِقَنَّهُ] بضمّ النُّون الأولى وكَسْرِ الرَّاءِ. وقرأها باقي

القرّاء العشرة: [لَنُحَرِّقَنَّهُ] بضمّ النُّون وفتح الحاء وكَسْرِ الرّاءِ المُشَدَّدَةِ.
وهي وجوه عربيّة صحيحة متكافئة، وفي قراءة تشديد الراء دلالةٌ على أن موسى عليه السّلام شدّدَ في بعض عباراته إشعاراً بأنَّهُ سَيُبَالِغُ في تَحْرِيقه بنار عظيمة.

تمهيد:

في هٰذه الآيات من (٨٣ ـ ٩٨) بيانُ بعض أحداث مكالَمةِ الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام في الوادي المقدَّس بجانب الطور، بَعْدَ الخروج من مصْرَ مع بَنِي إسْرائيل، وعبور البحر.

وكان هذا مَبْنِيًّا على وعْدٍ من الله له بأنْ يحْضُر إلى المكان الذي كلَّمَه فيه، وهو في طريقِ عَوْدَته بأَهْلِهِ منْ مَدْيَن إلَىٰ مصر.

وتضمَّن هذا الوعد أنْ يحضر مع قومه بني إسرائيل إلى الوادي المقدّس، وقد كانَتْ مُدَّة الميعاد ثلاثين ليلَةً، وبَعْدَ ذلِكَ أتَمَّهَا اللهُ بِعَشْرِ لَيَالٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّه أرْبَعِين ليْلَةً.

وتحرَّك قَلْبُ موسَىٰ عليه السَّلام بدافع الرَّغْبَةِ في الحضور بسُرْعَةٍ ابتغاء مَرْضَاة رَبّه، ورأىٰ أَنْ يَعْجَلَ ويأمُرَ قَوْمَهُ أَنْ يلْحَقُوا بِه متَّبِعِين أَثَرَهُ إلىٰ الوادي المقدّسِ بجانب الطور.

ووَلَّىٰ أخاه هارونَ على قيادة قومه، وقال لَهُ كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

لَكِنّ جُمْهور بَنِي إسرائيل لَمْ يُطِيعُوا هارونَ عليه السَّلام في اللّحَاق بموسى عليه السَّلام، ذاهباً لمناجاة ربّه، وكانَ يُقَدّرُ في ذهْنِه أنَّ جميع بني إسرائيل سائرون على أثَرِه بقيادة أخيه هارون، كَما وَجَّهَ لَهُم الأمر بذلك.

وخشِي هارون عليه السَّلام أنْ يتْبَعَ أخاهُ مضْطَجِباً الَّذينَ أطَاعُوا دون سائر بني إسرائيل، أن يُحاسِبَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام ويقول له: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل، إذْ جِئْتَ بِبَعْضِهم، وتَرَكْتَ سَائِرَهم لا راعِي يرعاهم، ولا قائد يَسُوسُ أمْرهم.

فاجْتَهَد، فرَجّح البقاء في بَني إسرائيل، لئلا يُحْدِث الْفُرْقَة بينهم.

وزاد الله عزّ وجلّ بحكْمَتِه ميعادَ مُوسَىٰ عشْرَ ليالٍ، ليَمْتحِن بَني إسرائيل، فصارت اللَّيالي أرْبعين ليلةً.

أي: ليَمْتَحِن إيمانَ بني إسرائيل، هل فَهِمُوا معنى الإيمان الصحيح، أمْ ما زالَتْ أفكارهُمْ مُتَشَبّثَةً بإلَه وثَنِيٍّ مَشْهُودٍ يَعْبُدُونه، كحال المصريّين، وكحال الذين مَرُّوا عليهم بَعْدَ عُبُور الْبَحْر، فوجَدُوهم يعكُفونَ عَلَىٰ أصْنامٍ لَهُمْ، فقالُوا لموسَىٰ عليه السَّلام: اجْعَلْ لَنَا إلَهاً كَما لَهُمْ آلِهَة، فقال لهم كما جاء في سورة (الأعْراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ولَمْ يَعْلَمْ بنو إسرائيل بزيادة اللّيالي الْعَشْر لموسَىٰ في ميعاده، فلَعِبَتْ بِهم وساوس الشيطان، وتَوَهَّمُوا أنَّ موسَىٰ عليه السَّلامُ لَمْ يَهْتَدِ لإلَهِهِ الّذِي ذهَبَ لمناجاته.

وظهر أنَّ أذهَانَهُمْ ونُفوسَهُم ما زالَتْ متَشبّثَةً بإلَه وثَنِيّ، ولَمْ تَصِلْ إلى مَرْحَلَةِ تجريد الرَّبّ جلّ جلاله من الْجَسَدِيَّاتِ الوثنيَّة.

ولَعِبَتْ بهم وساوس الشيطان مُزَيّنَةً لهم فِكْرَة التخلُّص مِنَ الحلُيّ الذَّهَبِيّ الّذي اسْتَعارُوه من المصْرِيّين، قُبَيْلَ الخروج من مصر، إذْ لا حقّ

لهم فيه، وربّما كان لهَارونَ عليه السَّلام دورٌ في بَيَانِ أنَّهُمْ عُصَاةٌ لله في مخادَعَةِ المصريّين، وأخذ حُلِيَهِمْ على سَبيل الاستعارة، والخروج بها مَعَهُمْ ظُلْماً وسَلْباً بغَيْرِ حقّ.

وكان بينهم رجلٌ يقال له: السّامِريّ من قوم يقال لهم: السّامِريُّون، وثنيّون يعبدون العجل، دخل في دين موسى منافقاً، وفي قَلْبِه عبادة العجل، وقد بَصُر هذا السَّامِريّ بأنّ الرَّسُولَ جبريل عليه السَّلام، كان إذا وقَع حافر فَرَسِه على ترابٍ ظهرت فيه آثارٌ عجيبَةٌ من ظواهِرِ الحياة، على ما جاء عند المفسّرين روايةً عن الحسَن، فقَبَضَ قبْضَةً من ترابِ الأمْكِنَةِ الّتي وقع عليها حافِرُ فَرَسِ الرَّسُول، أو الّتي وقَعَتْ عليها قَدَمَ الرَّسُول، فاحتفظ بها عنْدَه.

وأشارَ علَىٰ جُمْهُورِ بَنِي إسرائيل أنْ يأتُوا بالحليّ الّذي استعاروه من المصرّيين، وكان فيهم أصحاب مهنة صياغةِ الذَّهَب، فَطَلَبَ مِنْهم أنْ يصْنَعُوا مِنْ هذه الْحُلِيّ عجلاً جسداً، نظير العجول الّتي يصْنَعُها المصْرِيُّون آلِهَةً لهم.

وكانت صورة العجْلِ من البقر صورة شائِعَةً في أصنام الوثنّيين، ومنهم المصريُّون، والشامِيُّونَ الوثنِيُّون، وعِجْلُ المصريّين الّذي كانوا يَعْبُدونَه أيامَ الفراعِنَة، يُدْعَىٰ: «إيبيس».

فلمَّا صَنَعُوهُ أدْخَلَهُ في خباء، وقَذَفَ في جَوْفِه الْقَبْضَةَ الَّتِي كان قَد احتفظ بها، فصار هذا العجْلُ الذَّهَبيُّ يَصْدُرُ عنْهُ بقَدَرِ الله وقضائِه وخَلْقِهِ خُوارٌ كخُوارِ الْعُجُول، وأخْرَجَهُ من الخِبَاء ولَهُ خوارٌ.

وعَجِبَ جُمْهورُ بَنِي إسْرَائيل من هذه الظاهرة، وأوحىٰ إليهم السّامريُّ أنَّ هذا هو إلَهكُمْ وإلَهُ موسَىٰ، حلَّ في العجل، وأنَّ موسَىٰ لمَّا ذهبَ لمناجاته نَسِيَ مكانه، فهو تائِهٌ عنه.

وانطلقت بين جمهور الغوغائيّين من بني إسرائيل شائِعَة راجت عند معظمهم قائلين: هذا هو إلَهُكُمْ وإلَهُ مُوسَىٰ حلَّ في الْعِجل، وَإِنَّ موسَىٰ لمّا ذهب لمناجاته نَسِيَ مكانه.

لقد سوّلَت للسامِريّ نَفْسُه وأطمَعَتْه بأن يَسْتِفيد رِياسةً دينيَّةً ومالاً، من كونه سادِنَ هذا الإلَهِ العجْل، بدليل قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿...وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾: أي: أغراهم، فأغواهم، فأوقعهم في الضلال، ضائعين عن الحق.

وجرىٰ في هذا اللّقاء ما جاء بيانه في الآيات من (١٤٣ ـ ١٤٧).

وفي هذه الآيات بيانُ أنّ مُوسَىٰ سأل ربَّهُ أنْ يَنْظُرَ إليه، فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي... ﴿١٤٣﴾﴾ الآية.

وفيها أنَّ الله عزّ وجلّ كتب له في الألواح وصايا الدّين وتعليماته، وأَمَرَهُ بأنْ يأخُذَها بقوّة، إلى آخر ما جاء في الآيات حتى الآية (١٤٧).

واجتمع جُمُهورُ بني إسرائيل يَعْكُفُونَ على الْعِجل، ويَعْبدُونه ويَذْبحُونَ له ويَسْجُدونَ، ويَرْقُصُونَ حَوْلَه رقْصَ عبادةٍ وفَرَحٍ بإلَه يَرْونَهُ وَيَشْهَدُونَ جسداً له.

فنهاهم هارونُ عليه السَّلام، وقال لهم: يَا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ به، أي: إنَّما امْتُحِنْتُمْ بخواره، لكشْفِ صِدْق إيمانِكُمْ بالله رَبِّكم، وهَلْ توصَّلْتُمْ إلَىٰ فَهْمِ معنىٰ رَبُوبيَّتِهِ للعالَمِين، أم ما زلْتُمْ جاهلين.

وقال لهم: يَا قَوْمِ، إنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمٰنُ الذي يُوليكم برحمته النِّعَمَ الوافرة، الظَّاهرة والْبَاطِنَة. فاتَّبِعُوني، وأطِيعُوا أمْرِي.

فقالُوا له: لَنْ نَبْرَحَ عليه عاكِفِينَ حتَّىٰ يَرْجِع إلينا مُوسى.

فشَدَّد هارونُ عليهم، فلَمْ يَسْتَجِيبُوا له، ودَفَعُوهُ عنهم بالْقُوَّة، فأراد

أن يمنعهم من عبادة العجل بالْقُوَّة، فكادُوا يقْتُلونه، إذْ كَانَ هارون عليه السَّلام في نظَرِهم ليِّناً ضَعيفاً، بخلاف موسى عليه السَّلام، فقد كانوا يَرْهَبُونَ سطْوَتَه رهْبَةً شَدِيدةً، إذْ رأوا من العجائب التي أجراها الله له فَلْقَ البحر، ونجاتَهم، وإغْرَاقَ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ معه.

وكذَبَ الإسرائيليُّون في اتّهامهم هارون بأنَّهُ هو الذي صَنَعَ لَهُمْ الْعِجْل الذّهبي، وهو ما جاء في الإصحاح (٣٢) من سفر الخروج.

وأخْبَرَ الله عزّ وجلّ نبيَّهُ ورسولَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، بما صَنَعَ قومُهُ من بَعْدِهِ مِن اتخاذ العِجْل وعبادته.

فرَجَعَ إليهم بعْدَ نهايَةِ الأرْبعين لَيْلَةً غضْبَانَ أسِفاً، وحينَ رأىٰ بعينيه العِجْلَ الذَّهَبِيَّ وعبادة جمهور قومه له، اسْتَشَاط غَضَباً وحُزْناً، وألْقَىٰ الألواح من يَدَيْه. وقال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْۢ بَعْدِيٓ﴾ أمِنْ أجْلِ عشْرِ ليَالٍ زادَتْ في ميقاتِ رَبّي، لَعِبَتْ بِكُمُ الأوهام، وانْقَلَبْتُمْ على أعقابكم خاسِرِين، واتَّخذْتُمْ وَثَنا إلَهاً؟!.

وأخذ مُوسَىٰ عليه السَّلام يحاسبُ أخاه هارونَ عليه السَّلام بعُنْفٍ، إذْ لَمْ يكُنْ قَوِيًّا حازماً معهم، فاعْتَذَرَ هارون عليه السَّلام بأعذار صحيحَةٍ أبانَ فيها أنَّه لم يسْتَطِعْ أنْ يَرُدَّهُمْ عمَّا فَعلُوا وَأَنَّهُمْ كادُوا يقْتُلُونه.

فقَبِلَ مُوسَىٰ عُذْرَ أخيه ، دون أن يكون على قناعَةٍ تامة، ودعَا رَبَّه أن يغفر له ولأخيه، وأن يدخلهما في رحمته وأثنى على ربه بأنَّه أَرْحَمُ الرَّاحمين: انظر الآيتين «١٥٠» و«١٥١» من سورة (الأعراف).

ولـمَّا هدَأَ غَضَبُ مُوسَىٰ عليه السَّلام أخذ الألْواح بَعْدِ أن كان ألْقَاهُمَا علىٰ الأرض من شدّة غَضَبِه، وقام بتَحْريق الْعِجْل الذهَبِيّ، وأمَرَ بِبَرْدِهِ بالمبارد كا جاء عند الإسرائيليين، حتَّىٰ تَصِيرَ أجزاؤُه ناعِمَةً كالدَّقيق، ثُمَّ أمَرَ بنسْفِ دقيقهِ في اليمّ.

وطَرَدَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، السَّامِريَّ مِنْ بَيْنِ قَوْمه، ودعَا عليه بمرَضٍ جلْدِيٍّ لا يستَطِيعُ معَهُ أنْ يمسَّهُ أَحَدٌ، وأنْ يقول مَعَهُ لِمَنْ يُصادِفُهُ من النَّاس مَا بَقِيَ من حياته: لاَ مِسَاس. لا مِسَاس.

وبدأ مُوسَىٰ بعْدَ ذَلِكَ يُدَبّر رِحْلَةَ الاعتذار والتوبة، مع سَبْعِين رَجلاً اخْتَارَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وأنْ يَذْهَبُوا معه إلَىٰ المكان الذي ناجَىٰ فيه رَبَّهُ في اللّقاءَيْنِ السَّابِقَيْن.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

هذا البيان معطوف على كلام مطويٍّ بعْدَ البيان السابقِ بدْءاً من قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي. . . ﴿٧٧﴾﴾:

وجاء بأسْلوب الاقتطاع من الحدَث الماضي الذي قال الله فيه لموسىٰ: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟.

ودَلَّ هٰذا البيان علىٰ أنَّ هٰذا الميعادَ قَدْ كانَ مِيعاداً لموسَىٰ ولقَوْمه أن يحْضُروا جميعاً إلى جانب الطُّور.

وَدَلَّ على أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام قَدْ أمَرَ قَوْمَه أنْ يَسِيروا علَىٰ أثَرِه بقيادة أخيه هارون.

ودَلَّ عدم حضور بني إسرائيل متّبِعين أثر مُوسَى عليه السَّلام، علَىٰ أنَّ جمهورهم رفَضُوا أنْ يَلْحَقُوا به، وعَصَوْا هارون فَلَمْ يَسْتجيبوا له في السَّيْر على أثر مُوسَىٰ إلى الوادي المقدّسِ بجانب الطّور، وآثَرُوا البقاء في محلّتهم، وانْتِظَارَ مُوسَىٰ حتَّىٰ يَعُودَ مِنْ مُنَاجاة رَبّه، ويُؤَكِّدُ هٰذا قَوْلُ هارونَ لأخيه موسىٰ في النصّ: ﴿. . . إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾.

وبالتأمُّل نُدْرِكُ أنَّ مَوْقِعَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ في تَرْتِيب الأحداث، يأتِي بَعْدَ قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

وكذلك الآيات (١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ و١٤٧).

وقد سبَقَ تدبّر هٰذه الآيَاتِ خلال تدبّر سورة (الأعراف).

وهذا الأسلوب هو منهج القرآن في توزيع أفكار الموضوع الواحد، على نصوص متعدّدات موزَّعَاتٍ في عَدَدٍ من السُّوَر، مع تكامُلِها فيما بينها، دُونَ اختلافٍ، وهذا من عناصر إعجاز القرآن المجيد، ولو كان من عند غير الله لوجَدُوا فيه اختلافاً كثيراً.

وبعد هٰذه الآيات يأتي في تَسَلْسُلِ الأحداثِ قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾؟:

أي: مَا هُو السَّبَبُ الَّذِي جَعَلك تَعْجَلُ لحضُورِكَ إلَىٰ ميقاتِنَا، منْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ؟.

يقالُ لغة: «أَعْجَلَهُ فَعَجِلَ». **الْعَجَلَة، والْعَجَل**: السُّرْعَةُ الّتي هيَ ضِدُّ الْبُطْءِ.

ضُمِّنَ الفعل في: ﴿أَعْجَلَكَ﴾ معنىٰ الفعل في «فَصَلَكَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فجاءت العبارة: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾: أي: وَمَا الّذِي جعَلَكَ تَعْجَلُ مُنْفَصِلاً عنْ قَوْمِكَ، وسَابقاً لهم.

• ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾: أي: إنّي أمَرْتُهُمْ بِأَنْ يَلْحَقُوا بي، لشُهُودِ مَا يجري في هذا الميعاد، ولم أقَصِّرْ في واجبِ تبليغهم، وقَدْ وَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ أخي هارون، فَهُمْ في تَقْدِيري سائرون عَلَىٰ أثَري.

يقال لغة: «سارَ عَلَىٰ أثَرِه» أي: سارَ متّبعاً لَهُ يَسِيرُ على مواطئه. ويقال لغة: «سارَ في أثَرِه» أي: سار في الطريق الذي تظْهَرُ فيه آثار سَيْرِه.

• ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾: أي: وأسْرَعْتُ مُقْبِلاً إلى مكان مُنَاجاتِكَ رَبّ لأظْفَرَ برِضَاك، اجتهاداً مِنّي بأنَّ هٰذا الاستعجالَ يُرْضِيكَ عنّي، ولم تكُنْ لي رغْبةٌ فِي الانفراد بمناجاتِكَ، دُونَ حضور قومي هٰذا التكريم العظيم الّذي كرَّمْتَنِي به، ورَغِبْتُ أنْ يكُونَ لقومي مشاركةٌ فِي هٰذَا الحدث التكريميّ، تفضُّلاً مِنْكَ عليهم.

• ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام، فإنَّا قد امْتَحَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مفارقَتِكَ لَهُمْ، وغيابِكَ عَنْهم، ويظهر أنَّ هذا القولَ قد كان أثناء المدّة المضافة إلى اللّيالي الثلاثين، والتي دَخَلَتْ فيها الظُّنون التشكُّلِيَّة على جمهور بني إسرائيل الغوغائيّين، والّتي صَنَعُوا فيها العجل الذَّهَبِيَّ وصَارُوا يَعْبُدُونه، والّتي أضَلَّهُمْ فيها السَّامِرِيُّ.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾: أي: وأغراهم، فأغواهم، فأوقَعَهُمْ السَّامِرِيّ في الضَّلال.

الإضلال: يأتي في اللُّغَة للدّلالة على عدّة معانٍ، منها الإغواء بمختلف وسائل الإغواء القوليّة الزُّخرفيّة، والعمليّة التي تُسْتَرْضَىٰ بها الأهواءُ والشهوات، ونوازع النفوس ونوازغُها ودوافِعُها، لمجافاة الحقّ، والتزام الباطل، ومجافاة الصراط المستقيم، والانطلاق في متاهات الظُّلْم والبغي والعدوان، والفجور في الأرض، للاستمتاع بزينات الحياة الدنيا.

وبعضُ هذه المعاني ينْطَبق على إضلال السامِري لجمهور بني إسرائيل الغوغائيّين في التِّيه.

السَّامِرِيّ: قالُوا: كانَ السَّامِرِيُّ من قَوْمٍ يَعْبُدونَ الْبَقر، فَدَخلَ في دين بني إسرائيل نفاقاً، وفي قَلْبِه ما فيه من عباده البقر، وكان من قبيلة تُعْرَف بالسَّامِرَة.

وقيل: غَيْرُ ذلك، والله أعلم.

وهُنَا يأتي بحَسَب تسَلْسُل الأحداث قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

يُرادُ بقومِ مُوسَىٰ جُمْهُورُهُمْ لاَ كُلُّهُمْ، إذْ بقي فيهم مؤمنون مُسْلِمُون لم يُشْرِكُوا.

وقد سبَقَ تدبُّر هذه الآيَة لدَىٰ تَدَبُّر سورة (الأعراف).

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾:

• ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾: أي: فلمَّا انتهتْ مُدَّة الميعاد، وهي أربعون ليلة، رجَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام إلى قومه حالة كونِه غَضْبانَ ممّا فَعلَ جمهور قومِهِ في غَيْبَتِه، وأسِفاً حَزِيناً.

﴿غَضْبَٰنَ﴾: صِفَةٌ مشبهة باسم الفاعل، مؤنَّثُهُ غَضْبَى.

الغضب: انفعال نَفْسِيٌّ مِنَ الكراهية والسّخط، مصْحُوبٌ بإرادة الانتقام.

يقال لغة: «غَضِبَ علَيْهِ يغْضَبُ غَضَباً فَهُو غَضِبٌ، وغَضْبان» أي: سَخِطَ عليه، وأرادَ الانتقام منه.

﴿أَسِفًا﴾: صفة مشبهةٌ باسم الفاعل، أي: حزيناً. يُقَالُ لغة: «أسف عَلَيْه، يَأْسَفُ، أسَفاً، فهو آسِفٌ، وأسِفٌ، وأسِيف» أي: حَزِن، يحْزَنَ فهو حزين.

وهنا يأتي بحسَب تَسَلْسُل الأحداث، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

أي: ولمّا رأىٰ جمهور بني إسرائيل الّذين اتخذوا العجل الذهبيّ وعَبَدُوه مُوسَىٰ عليه السَّلام قادماً إلَيْهم سُقِطَ في أيْدِيهم من الخوف، وقالوا فيما بينهم: . . ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ولَمْ يَكُنْ حِينَ سُقِطَ في أيْدِيهم من الخوف قَدْ وصَلَ مُوسَىٰ إلى محلَّتِهم، بل رأوْهُ مِنْ بَعِيدٍ يَحْمِلُ اللَّوْحَيْنِ الحجريَّيْنِ. وكان من أمْرِ مُوسى عليه السَّلام مَا جاء بيانه في الآيَتَيْن: «١٥٠ و١٥١».

وقد سبَقَ تدبُّر هذه الآيَاتِ باستفاضة، خلال تدبُّر سورة (الأعراف).

قول الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

• ﴿... قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ... ﴿٨٦﴾﴾؟! استفهامٌ فيه معنىٰ الْإنكار عليهم، إذْ لم يَسْتَجِيبُوا لما أَمَرَهُمْ بِهِ مِن اتّباعِهِ سائرين على أَثَرِه بقيادة أخيه هارون.

أي: أَلَمْ يَعِدْكُم رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً لَكُمْ بأَنْ تَشْهَدُوا مَعِي مكالَمَتَهُ لي بجانب الطُّور؟!. فلَمْ تَحْضُرُوا، وعَصَيتُم أَمْرِي لكم، بأَنْ تَسِيرُوا على أثري، وعصَيْتُم أمْرَ أخي هارون، وتمرَّدْتُمْ علَيْه.

• ﴿... أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾؟!. أي: أَنْتَظَرْتُمْ زَمناً طويلاً عَوْدَتي، فطالَ علَيكُمُ الزَّمن؟!. إنَّهَا عشْرُ ليَالٍ فقط، مَدَّها رَبِّي لامْتِحان صِدْقِ إيمانكم، ووضُوحِ معرفتكم لربّكم، الّذي هو الإلَٰهُ الذي يجب أنْ تَعْبُدُوه وَحْدَه، ولاَ تُشْركوا بعبادته شيئاً.

إنّ زيادة عشْرِ ليالٍ في الميعاد ليْسَ منْ شأنها أن تُفْسِدَ عقيدة صحيحةً راسخةً، لو كانت موجودة فعلاً في قُلُوبكم، وواضِحَةً في أذْهانكم.

العَهْد: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الزمن، وهذا المعنى هو المناسِبُ هنا بحسب السِّبَاق والسِّيَاق، والله أعلم.

• ﴿... أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾؟!. أي: بَلْ أأرَدْتُم أَنْ تَعْصُوارَبَّكم، بدافع من أهوائكم ورغَبَاتِكُمْ، وهُوَ الأمْرُ الذي يكون سبَباً في أنْ يَحِلَّ علَيْكُمُ انتقامُ الله منْكُمْ بِسَبَبِ غَضَبِهِ عليكم.

• ﴿... فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾﴾: أي: فلَمْ تلْحقُوا بي، ولَمْ تَسِيروا علَىٰ أَثَرِي إلى الوادي المقدَّسِ بجانِب الطُّور، بقيادة أخي هارون، وتَمَرَّدْتُم علَيْه، ولم تُطِيعُوا أَمْرَهُ لَكُمْ باتّباعي.

• ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا...﴾ وفي القراءتَيْن الأخريَيْن بضم الميم وبكسرها، وهي لغات والمعنى فيها واحد.

إخلاف الموعد: عدمُ الوفاء به.

﴿مَوْعِدَكَ﴾ : مِنْ إضافَةِ المصْدَرِ إلى المفعول به، أي: موعدَنا إيَّاك.

أي: ما أَخْلَفْنَا مَوْعِدَنا إيَّاكَ الّذِي وَعدنَاكَ فيه أَنْ نَسِيرَ في أَثَرِك إلى جانب الطور، بقيادة أخيك هارون، ونَحْنُ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفسِنَا الجرْأَةَ علَىٰ تَنْفيذ الوعْدِ الّذي كانَ مِنَّا، وهو أنْ نَسِيرَ على أَثَرِكَ.

• ﴿... وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ...﴾ وفي القراءة الأخْرَىٰ: ﴿حَمَلْنَا﴾. أي: مَا كنَّا نملِكُ جُرْأَةً للحضُور مَعَك وربُّك يُكلّمك، إذْ كُنَّا خائفين من أن ينْتَقِمَ منَّا رَبُّنا، لأنَّنا كُنَّا مُرْتَكِبين لذَنْبٍ كَبيرٍ، حَمَلْنَا وَحُمِّلْنَا بِه أوزاراً من الإثم، إذْ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا من المصْريين حُلِيًّا على سَبيل الاستعارة، ونَحْنُ نَقْصِدُ سَلْبَهُمْ إيَّاهَا، لأنَّنا خارِجُونَ من مصر خُروجاً نِهائيًّا، والمصريّون لا يَعْلَمون ذلك، فإذا كانت هٰذه الحلِيُّ معنا كانت شاهدة علَيْنا بإثمنا الكبير، فاجتمع رأْيُنا علَىٰ أنْ نتخلَّصَ منها، وحَرَّضَنا السَّامِرِيُّ على وجوب التخلُّصِ منْها، وتقديمها للإلٰه فجمَعْنَاها لهذا الأمر.

أقول: هذا من مزالق إبليس وشياطينه من الجنّ، والإنْس، كالذي يوسوس له الشيطان أن لا يُصلّي، ولا يَحْضُرَ مجالس الذكر والعلم الديني، لأنَّهُ مُرْتكِبٌ لبعض كبائر الإثم، فهو يخجلُ مِنْ رَبّه فَيَبْتَعِد.

• ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾: أي: فتَخلَّصْنَا منها بأسْلُوب القَذْف، وهو الرَّمْيُ بقُوة.

• ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ...﴾: هذا بيان من الله عزّ وجلّ، أيْ: وَزَيَّنَ لهم السَّامِريُّ أنْ يَصْنَعُوا منها عِجْلاً، شبيهاً بِعِجْلِ المصريّين الذي يَعْبُدُونَهُ: «إبيس» إذْ رأىٰ في نفوسهم

الرَّغْبَةَ الشديدة في أنْ يكون لهم إلَه وَثَنٌ، يتوجَّهُون له في العبادة، ويُقَرِّبون له القرابين، ويعكُفونَ عليه، واستعانَ بِصُنَّاعِ الْحُلِيِّ منهم، فصَنَعُوا العجل، وفق الصورة الّتي كانوا يألَفُونها في مصر لمعبود المصريين «إبيس» فأخذه السامريُّ إلىٰ خباء، فقَذَف فيه القبضة الّتي كانت معه من أثر الرسول، فجعل الله من أثرها أنّ هذا العجل صار له خوارٌ كخوار العجول، لكنَّهُ جَسَدٌ لاَ حياةَ له، لامتحان جمهور بني إسرائيل، هلْ تخلّصوا من الوثنيَّة، أم ما زالَتْ أفكارُهُم ونفوسُهم مُتَشبِّثَةً بها، فخرج السامريُّ من الخباء فَأَخْرَجَ لهم عجلاً جسداً لَهُ خُوار، وأوحَىٰ إلَيْهم أنَّ هذا هو إلَهُهم، وانْطَلَتْ حيلَتُه الخبيثَةُ علىٰ الرَّعاع من بني إسرائيل.

• ﴿...فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾: أي: فعجِبَ جُمْهورُ بني إسرائيل من خُواره، وانْطَلَقَتْ مقولة السامريّ فيهم، فقالُوا: هٰذا إلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسى حلَّ في جَسَدِ العجل، ذهب مُوسَىٰ للقائه ومكالمته فنَسِيَ المكان الّذي كان قَدْ لقيه فيهِ وهو راجع من مدْيَنَ إلىٰ مِصْر، لِبُعْدِ الْعَهْد. وسجدوا له، وقَرَّبوا له القرابين، وصاروا يَعْكفُونَ عليه.

• ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

هذا بيان من الله عزّ وجلّ، بشأن الَّذين عَبَدُوا هذا العِجْلَ الذهبيَّ الْجَسَدَ، من بني إسرائيل.

أي: أفَقَدُوا عُقُولَهُمْ، وفَقَدُوا حواسَّهم، فهم لا يَرَوْنَ أنَّهُ جماد، لا يَرُدُّ جواباً على خطاب، ولا يسْتطيعُ أنْ يَدْفَعَ عَنْهم ضَرّاً أو يجلُبَ لهم نفعاً.

أَدهِشُوا مِنْ خُوَاره على خلاف معتاد الأجْساد الّتي لا حياة لها، فصَدَّقوا السامريَّ في دعوىٰ إلهيَّتِهِ، أفلا يَرَوْنَ بعد انْدِهاشِهِمْ من خُوارِه، وهو مُجرَّدُ صَوْتٍ قد يحْدُث نَظيرُه بسَبَ ماديّ، كَبُوقٍ مصنوع بطريقةٍ

خاصَّةٍ، إذا دخَلَتْ فيه ريحٌ بشيء من القوّة أعطى صَوْتاً. أَلَمْ يَرَوْا مُتَفَكّرين أنَّ الشَّأْنَ الأعظم الدّالَّ على أنَّه جامِدٌ كسائر الجمادات، أَنَّهُمْ إِذَا كَلموهُ لَمْ يُجِبْهُمْ بشيء، فَهُو لاَ يَرْجِع إليهم قولاً، جواباً لهم على ما يُخَاطِبُونَه به، وأنَّهُ لاَ يَمْلكُ لهم أنْ يَدْفَعَ عنهم ضرًّا، أو يَجْلِبَ لَهُمْ نفعاً.

والمعنى: هل انطمَسَتْ بصائِرُهم، فهم لا يَرَوْنَ هذه الحقائقَ عَنْ عِجْلِهِم الذَّهَبِيّ، فالمراد الرُّؤيَةُ العلميّة الفكريّة، ذات الأدلَّةِ من الحسِّيَّات.

﴿أَلَّا﴾: أصْلُها: «أَنْ» و«لاَ» أدْغِمَا فصارت العبارة: ﴿أَلَّا﴾ «أَنْ» هذه هِيَ المخفَّفةُ من الثقيلَة، وهي عاملة، واسْمُها ضَمِيرُ الشأن واجب الحذف عند النحاة. وجُمْلَةُ: [**لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً**] هي الخبر. أيْ: لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْعِجْلُ قولاً ما، جواباً على ما يسألُونه، أو يخاطبونه أو يخاطبونه به.

يقال لغة: «رَجَعَهُ» مُتَعَدّياً، مثل: «أرجَعَهُ» ولفظ «أرْجَعه» لغة هُذَيل.

• ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾: هذه الجملة معطوفةٌ على الجملَةِ السابقة لها، الّتي هي خَبَرُ «أَنْ» المخففة من الثقيلة.

• ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾:

جاء تأكِيدُ الكلام وتَحْقِيقُهُ بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ للدّلاَلَة علىٰ أنَّ ما قالَهُ الإسرائيليُّون في سفر الخروج، من أنَّ هارُون عليه السَّلام، هُو الّذي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ بالإزميل، كَذِبٌ وافتراءٌ عليه.

وذلك لأنّ هارون لمّا رآهم قَدْ صَنَعُوا الْعِجلَ، وصَارَ لَهُ خُوارٌ كَخُوارِ الْعُجُولِ، قال لهم: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: أأكِّدُ لَكُمْ بأنَّهُ لَيْسَ في خُوار العِجل إلّا امْتِحَانُكُمْ، لكَشْفِ صِحَّةِ إيمانكُمْ بِرَبِّكُمْ، وسَلامَةِ فَهْمِكُمْ لمعنَىٰ رُبُوبيَّة الرَّب جلّ جلالُهُ، وأنَّ الرّبوبيَّة لا تكونُ فِي شيءٍ، لِمُجَرَّدِ

ظُهُورِ شيءٍ غريب أو عجيب فيه، ولَوْ كان الأمْرُ كذلك لكانت عصَا موسَىٰ أحرىٰ بهذا الوصف.

«إنّما» أداة حَصْرٍ وقَصْرٍ، والمراد قَصْرُ الْعِجل على صفة أنه للفِتْنَة وهي الامتحان، وهٰذا مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ علَىٰ صِفة، وهو من قبيل الْقَصْرِ الإضافي، أي: بالإضافة إلى زَعْمِ إلٰهيَّتِه فلَيْسَ هُو إلّا فِتْنَة.

﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾: أي: فاتَّبِعُوني فِي عبادتي لله وحْدَه، الّذي لا يَكُونُ لَهُ مِثَالٌ مِنْ شيءٍ في السَّمَاوات ولا في الأرض، واتَّبِعُوني مُتَأسِّينَ بي فأنَا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُم، فَلا يَخْدَعَنَّكُمْ في دِينِكُمْ أحَدٌ، ولا يَصْرِفَنَّكُمْ عَنْ رَسُولِ رَبِّكُمْ أَحَد.

وإنّي آمُرُكُمْ بأنْ لا تَعْبُدُوا الْعِجْلَ الذي صنَعْتُم، فإنَّ عبادتَهُ شركٌ بالله الرَّحْمٰن رَبّ العالمين، وإنّي أُلْزِمُكُمْ. بما أنّي وليٌّ أمْرِكُمْ بأَمْرٍ صَادِرٍ عَنْ أخي موسَىٰ بأنْ تُطِيعُوا أَمْري.

• ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾: أي: لَنْ نَزُول، ولَنْ نَنْصَرِفَ عَنِ العْجلِ، حالَةَ كوْننا عليه لا على غيره عَاكِفِينَ، حتَّىٰ يَرْجِعَ إلَيْنَا مُوسَىٰ.

﴿عَلَيۡهِ﴾ معمول لـ ﴿عَٰكِفِينَ﴾ لإفادة التَّخْصِيص. وعبارة ﴿عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ حال.

يقال لغة: «عَكَفَ عَلَىٰ الشيء، يَعْكُفُ عَكْفاً وَعُكُوفاً» أي: أقْبَلَ عليه ملازماً له، لا يَصْرِفُ وجْهَهُ عنه، كأنَّه حابِسٌ نَفْسَهُ عليه.

وهَـٰذا العكوف بسكُونٍ وملازمة وصَمْت، وتَوَجُّهٍ قَلْبِيّ ونَفْسِيّ وحِسّي، هُوَ لَوْنٌ من ألوان عبادةِ الْعَاكِفِ لِلْمعكُوفِ عليه.

فالمعنى: لَنْ نَسْتَجِيبَ لكَ يا هارون، ولَنْ نُطِيع أمْرَك في تَرْكِ

العكوف على الْعِجل، حتَّىٰ يَرْجع إلينا موسى، الّذي تَاهَ عن إلَهِهِ، ولا نَدْرِي ماذا حَدَث لَهُ، ولا ماذا أصابه.

وهنا يأتي موقع قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدبُّر هذه الآيات في مَوْضِعها من سورة (الأعراف).

قال الله عزّ وجلّ في سورة (طـه):

﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾:

لقد ذَهَبَت انْدِفَاعَةُ الْغَضَب الأولَىٰ الَّتي جعَلَتْ موسَىٰ عليه السَّلام، يأخُذُ برأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إلَيْه، وبدأ دَوْرُ المحاسبة الّتي فيها هُدوءٌ ما.

ولعل هذا قد كان وهُمْ جُلُوسٌ، وهارونُ عليه السَّلام عن يمين موسَىٰ، وموسَىٰ يقْبضُ علىٰ لحيَةِ أخيه يُسَائله، وقَدْ يَأْخُذُ برأسه يَهُزُّهُ أحياناً.

• ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾:

أي: مَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتركَهُم وتَتَّبِعَنِي، إذْ رَأَيْتَ جَمَاهِيرَهُمْ ضَلُّوا ومَعَكَ أَهْلُ الثَّباتِ على الحقّ؟!. ومَا حَمَلَكَ علَىٰ أَنْ لاَ تَتَّبِعَنِي في هذه الحالة؟!.

لقَدَ سَأَلَ مُوسَىٰ أخاه هارونَ، عن المانِعِ لَهُ من اتّبَاعِهِ إِلَىٰ جَانب الطّور، إذا كانَ في الواقع أمْرٌ مانع. وسألَهُ أيضاً عن الحامل له علىٰ عَدَمِ اتّباعِهِ، إذا كان يوجَدُ في الواقع أمْرٌ حامل.

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ: «منَعَ» معنى فعل: «حَمَل» فَعُدّيَ تَعْدِيته، فَأغْنَتِ الجملة الواحدةُ عن جملتين، والتقدير: مَا مَنَعَك عن اتّباعِي، ومَا حَمَلَكَ على عَدَم اتّباعي.

﴿تَتَّبِعَنِّ﴾: أصلها: «تَتَّبَعَنِي» حُذِفَتْ يَاءُ المتكلّم إيجازاً في اللّفظ، وهي ملاحظة ذهناً، ونظير هٰذا الحذف كثيرٌ في اللّسان العربي، وفي القرآن منه كثير.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟: أي: أاسْتَهَنْتَ بِي فعصَيْتَ أمري الّذي أمَرْتُكَ بِهِ إذِ اسْتَخْلَفْتُكَ على بَنِي إسرائيل.

الفاء عطَفتْ على محذوف، والمناسبُ هذا: «استَهنْتَ بي» أو نحو هذه العبارة.

• ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾:

﴿يَبْنَؤُمَّ﴾: أي: يا ابْنَ أُمّي، وهٰذا أَحَدُ وُجوه جائزة في نِداءِ «ٱبْنَ أُمّ» إذ يجوز إثبات ياء المتكلّم، ويجوز حَذْفُها والاجتزاء بالكسْرة، ويجوز فَتْحُ الميم على أن لفظ «أمّ» مركّبُ مع «ٱبن» تَرْكيباً مَزْجيًا. ولا يكادون يثبتون ياء المتكلم في هذه العبارة، ولا الألف بعد الميم عوضاً عن الياء، إلّا في الشعر.

أضافَ هارونُ عليه السَّلام أداة النداء «يَا» في هذه الإجابَة عَلَىٰ الإجابَة الأولى، التي جاء بيانُها في نَصّ سورة (الأعراف) للتَّشْدِيدِ علىٰ اسْتِعْطاف أخيه، وتَنبيهه على أنّهما ٱبْنَا أُمٍّ واحِدَة.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ دَلَّتْ هذه العبارة، علىٰ أنَّ موسَى عليه السَّلام فِي مَجْلِسِ الْمُسَاءَلَةِ اللّاحق، كان يَقْبِضُ علَىٰ لِحْيَةِ أخِيه هارون، وقَدْ يأخُذُ برأسِه فَيَهُزُّه، وهٰذا من حِدَّةِ موسَىٰ في مُسَاءَلَتِه.

• ﴿ . . . إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ :

اقْتَصَرَ هارونُ عليه السَّلام في هذه الإجابَةِ على القضيَّةِ الّتي سَأَلَهُ عنها في هذه المساءلَة الثانية، ولم يُشِرْ إلى ما سَبَقَ أن اعْتَذَر به في مُسَاءَلته الأولى.

أي: إنّي خَشيتُ إذَا اتَّبَعْتُكَ معَ الّذين استجابُوا لي من بني إسرائيل، أنْ تقول لي: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وخشيتُ أنْ تُحاسِبَني وتُؤاخذِني على هذا التفريق، فتعارض لديّ أمران، وقد اجتهدْتُ فترَجّح لَدَيَّ أن أبْقَىٰ فيهم، منْتَظراً عَوْدَتَك، ولا أتْرك الظالمين وحْدَهم. وكُنْتُ لاَ أرى أنّ غَيبَتَكَ ستطولُ، وخشيتُ أيضاً أن تَقُولَ لي: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: لم تَجْعَل قولي تَحْتَ مُرَاقَبَتِكَ الدائمة، لتحافظ على طاعته، ولتراعِيَ الالتزام به.

وهو قولَهُ لَهُ حينَ استَخْلَفَه، وهُو ما جاء بيانُه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿ . . . وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

فقد اجتَهَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ بِقَدْرِ استطاعَتي، ولم أَتَّبِعْ سَبِيل المفسدين.

فقدم هارُون عليه السَّلام بما أبانَهُ عُذْرَهُ كاملاً، وأوضَحَ لأخيه أنّه لم يأْلُ جهداً واجتهاداً في رعايَةِ الأَصْلَح الّذي رآه.

مُحَاسَبَةُ مُوسَىٰ عليه السَّلام للسَّامِري.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

تمهيد:

تضمّنتْ هٰذه الآيَاتُ بيَانَ مُحاكَمَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام للسَّامِرِيّ، صاحِب فِتْنَةِ العِجْلِ الذَّهَبِيّ الَّذِي لَهُ خوار، والحُكْمَ عليْه بالطَّرْدِ مِنْ جمهور أَتْبَاعِه بني إسرائيل، والدُّعَاءَ علَيْه بداءٍ لا يَسْتَطيعُ معه أن يمَسَّه أحَدٌ، وقد استجاب الله دُعاءه، فصار السّامِريُّ من بَعْدُ كذلِكَ، وتضَمَّنَتْ إعْلامَهُ بما سَيلْقَاهُ مِنْ جزاءِ يوْمَ الدِّين، وهو الموعد الحقُّ الّذِي لَنْ يُخْلَفَهُ، وإخباره بما سَيفْعَلُ بالْعِجل مِنْ تَحْرِيق، وتَجْزِئَةٍ بالْمَبارِدِ حَتَّى يكُونَ ذَرَّاتٍ صُغْرى كالدّقيق، ونَسْفِ لَهُ ناعماً في الْيَمِّ، حَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ لَه أثرٌ في مُتَنَاوَلِ أحَدٍ.

وأَتْبَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام قَرَارَتِه الّتي أصدرها، بِبَيانٍ إيمانِيّ حوْلَ أَنَّهُ لاَ إلَه إلَّا الله الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، وليس مجرَّدَ كائنٍ ذي ظاهرة عَجِيبَةٍ من الظواهر في الكون.

التدبّر التحليلي:

• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾؟: أي: قال موسىٰ عليه السَّلام للسّامِرِيّ: مَا شأْنكَ وما حَالُكَ يَا سَامِرِيُّ؟.

والمعنى: ما الّذِي حَمَلَكَ علَىٰ أنْ تَقُومَ بهٰذِه الفِتْنَةِ الَّتي أَفْسَدْتَ بِها جُمْهُور بني إسرائيل، حتَّىٰ جعلْتَهُمْ يَعْبُدونَ وَثَناً ذهبيًّا، علىٰ صورة عِجْلٍ مشابه للْعُجُولِ الّتِي يَعْبُدُهَا الوثَنِيُّونَ؟.

وما الّذي جعَلَكَ تَفْتَرِي هٰذِه الفِرْيَةَ العظيمة علىٰ الله؟

الخَطْبُ: هو في اللّغة الأمْر، والشَّأْنُ، والحال، الذي تقع فيه المخاطبة.

وجاء العطف بالفاء لبيان ترتيب محاكمة السامِرِيّ، عقب محاكمة موسى لهارون عليه السَّلام.

• ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ... ﴿٩٦﴾﴾ وفي قراءة أخرىٰ لحمزة، والكسائي، وخلف: **[بِمَا لم تَبْصُرُوا به]** بتاء المخاطبين.

والمعنى: أَدْرَكْتُ أمْراً عَجَباً إدْراكاً جَلِيًّا صار عندي علماً ثابتاً، وهٰذَا الأمْرُ الَّذي علمتُه لم تَعْلَمُوا به، ولم يَعْلَمْ به سَائر بني إسرائيل.

يقال لغة: بصُرَ بالشيء، أي: صار ذا بَصِيرَةٍ فيه. **البصيرة**: قوَّةُ الإدراك والفطنة، والعلم والخِبْرَة.

ذكر المفسّرونَ أنّه رأىٰ جبريلُ عليه السَّلام على فرس الحياة، فوقَعَ في نَفْسه أن الأثَرَ الّذِي يَبْقَىٰ في الأرض من حافِرِ فرسِ جبريل، لاَ يُلْقَىٰ على شيء غَيْرِ ذِي حَيَاة إلّا صار حيًّا.

أقول: ولعلّ السَّامِرِيَّ أجْرَىٰ تَجْرِبَةً مُصَغَّرةً بيْنَهُ وبَيْن نفسه، قبْلَ أَنْ يَدْعُو بني إسرائيل لصُنْع العجل من الذهب.

• ﴿... فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ... ﴿٩٦﴾﴾: ظاهر هذه العبارة يَدُلُّ على أنَّه قبضَ قبضَةَ ترابٍ مِنْ مَوْطِىء قَدَم جِبْرِيلَ رَسُول الوحي إلى موسَىٰ ، لكن المفسّرين ذكرُوا أنَّها قبضة من أثر حافر فرسه.

القَبْضَة: ما أَخَذْتَ بِجُمْعِ كفِّكَ كُلِّه.

وعلى ما ذكر المفسّرون تحتاج العبارة إلى تقدير مُضافٍ محذوف، أي: منْ أثر فرسِ الرسول، أو من أثر حافِرِ فَرَسِ الرَّسُول. والله أعلم.

• ﴿... فَنَبَذْتُهَا...﴾: أي: فَطَرَحْتُ هٰذِهِ القبضة كَما تُنْبَذُ النواة، بسُرْعَةٍ وخِفَّة، في جوف الذّهب المسبوك على صورة عجل، فصَارَ لَهُ خوار كخُوَار الْعُجُول من البقر.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾: أي: وكذلك الذي فَعَلْتُه كانت نَفْسِي قَدْ زَيَّنَتْ لِي، وحَسَّنَتْ لي صُنْعَه.

التَّسْويل: هو في اللُّغَةِ التَّحْسِينُ، والتزيين، والتحبيبُ بالشيء.

يقال لغة: «سَوَّلَ لَهُ، يُسَوِّلُ، تَسْوِيلاً» أي: حسَّنَ لَهُ وزَيَّنَ، وحبَّبَ إلَيْهِ الْأَمْرَ الّذِي دعَاهُ إليه، وأغراهُ به، وسَهَّلَهُ له.

فالمعنى: وكان ذلك الذي فعَلْتُه في جَسَدِ الْعِجْل، مماثلاً للّذِي سَوَّلَتْهُ لي نفس.

فاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ على نَفْسِه بِجَرِيمَتِهِ، ورُبَّما سوّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أنْ يكُونَ مُقَدَّماً في بني إسرائيل، ذا مكانةٍ ورياسة دِينِّية، باعتباره صاحب فكرة الْعِجْل، والّذي عمل عملاً جَعَلَهُ يخُور خُوار العجول، فَهُوَ سيكونُ سَادِنَهُ، والمنتفع من عبادة القوم له.

• ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ... ﴿٩٧﴾﴾:

تضمَّنت هذه العبارة حُكْمَ مُوسَىٰ عليه السَّلام، على السَّامِرِيّ بالطَّرْدِ من مجتمع بني إسرائيل، وإعْلامَهُ بنَوْعِ عَذَابٍ يُعَذِّبُه الله به، لاَ يَسْتَطِيعُ معَه أن يمسَّ أحداً أو يمسَّه أحد، وهو عقابٌ بعُزْلَةٍ جَبْرِيَّةٍ عَنْ كلّ الناس، فإذا اقْتَرَبَ منْهُ أحَدٌ من النّاس اشتدَّت به أوجاع وآلام لاَ يُطِيقها.

• ﴿... وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ... ﴿٩٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**تُخْلِفَه**]: إنَّه موعِدُ يَوْمِ الدّين «أي: الحَدَث، وزَمَانَهُ، ومكانَه» للحساب،

وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لفظ مَوْعِد يدلُّ على المصدر، وعلى زمانه، وعلى مكانه.

وبعد إصدار موسىٰ عليه السَّلام، حُكْمَهُ علىٰ السّامِري، وبيانَ عقوبتهِ في الدنيا، أراد أن يُرِيَ السَّامِريَّ، ويُرِيَ الَّذِين عَبَدُوا العجل من قومه بني إسرائيل، وسائِرَ قومه، مَهَانَةَ إلَهِهِمُ العِجْلِ، وضَعْفَهُ، وأنَّهُ جماد مثل سائر الجمادات فقال للسَّامِريّ:

• ﴿... وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾:

أي: وانْظُرْ إلَىٰ عِجْلِكَ الذهَبِيَّ الّذي اتَّخَذْتَهُ إلَهاً، وأقَمْتَ عِنْدَهُ ملازماً عِبادته، ودعَوت بني إسرائيل إلى عبادته، ٱنْظُر بعينَيْكَ ماذا سَنَفْعَلُ به.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيتَ ملازماً لعبادتِه كلَّ نَهارٍ مضىٰ علَيْكَ من يَوْمِ صُنْعِه، أنْتَ ومَنْ عَبَدَهُ مَعَك من بَنِي إسرائيل.

وجاء التعبير بعبارة: ﴿ظَلْتَ﴾ لأنَّهم كانُوا يفارقونه ليلاً إلى خيامِهم.

يقال لغة: «ظَلَّ نَهَارَهُ يَفْعَلُ كذا، وظَلِلْتُ، وظَلْتُ، وظِلْتُ» لا يقال ذلك إلّا في حال الملازمة في النهار.

﴿عَاكِفًا﴾: أي: مُقِيماً مُلازماً مُلازمَةَ عبادَةٍ له.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: أي: لَنُوقِدَنّ عليه النارَ حتَّىٰ ينْصَهِر، ويَرَىٰ بَنُو إسرائيل أنّ هذا الإلَه الّذي عَبَدَه مَنْ عَبَدَهُ منهم، لم يَسْتَطِعْ أن يَدْفع عن نَفْسه التَّحْرِيق والصَّهر، وأنّه جماد كَأيّ جمادٍ آخر.

• ﴿... ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْد أَنْ نُجَزِّئَهُ

إِلَىٰ أجزاء صُغْرَىٰ كَذَراتِ الرَّمل، لِنَنْسِفَنَّهُ مُتَفرِّق الذَّراتِ في البحر.

يقال لغة: «نَسَفَ فُلاَنٌ الشَّيْء» أيْ: فَرَّقَهُ وأَذْرَاه. ويُقالُ: «نَسَفَتِ الرِّيحُ التُّرابَ» أي: حَمَلَتْ أجزاءه الصُّغرى، وفرَّقَتْهُ حيْث اتَّجَهَتْ.

ويظْهَر أنّ موسَىٰ عليه السَّلام، أَمَرَ بإيقَادِ نارٍ شديدة، أَمَام السَّامِرِيّ، وأمَام جماهِيرِ بَنِي إسرائيل، حَوْلَ هٰذا الإلَهِ المصنوع المفْتَرى به على الله، فلَمَّا حَرَّقَهُ وانْطَفَأَتِ النَّارُ حوله، وبَرَدَ ما انْصَهَرَ مِنْه، أَمَرَ بِتَفْتيتِهِ إِلَىٰ أجزاءٍ صُغْرَىٰ دقيقة، كحبّاتِ الرَّمْلِ الصُّغرى، ليقيم برهاناً عمليًّا على أنَّ زعْمَ إلَهِيّتِهِ قضيَّةٌ مَكْذُوبَةٌ مُفْتَراةٌ على الله الرَّبّ، الذي له وحْدَهُ الإلَهيَّةُ التي لا يُشَارِكُه فيها شيءٌ في الوجود، بالغاً ما بلغ، إذْ كلُّ ما عداه في الوجود كُلِّه خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وإبداعٌ من إبداعه.

جاء في الإصحاح (٣٢) من سفر الخروج ما يلي:

«٢٠ ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الّذِي صَنَعُوهُ وأَحْرَقَهُ بالنّار وطَحَنَهُ حتَّى صَارَ نَاعِماً وذَرَّاهُ على وجْهِ الماء وسَقَىٰ بَنِي إسْرَائيل».

لكنَّ القرآن أبان أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام تَوَعَّدَ عُبَّاد الْعِجْلِ بِأَنْ يَنْسِفَهُ في الْيَمِّ نَسْفاً، أي: في الْبَحْرِ، وذِكْرُ الْيَمّ يُبْعِدُ أنْ يَكُونَ ذَرَّاه على وجْهِ الماء، وسَقَاهُ مَعَ الماء بني إسْرَائيل.

ولعلَّ كتَّابَ سِفْر الخروج وجَدُوا في الأَصْل، أنّ بَنِي إسْرائيل قَدْ أُشْرِبُوا في قلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْل، كما جاء في القرآن المجيد، فَفَسَّرُوا ذلِكَ مِنْ عِنْدِهم أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام سَقَىٰ بني إسْرَائِيل ذَرَّاتِ الْعِجْلِ مع الماء.

• ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ أبان مُوسَىٰ عليه السَّلام بالتطبيق العمليّ، أنّ العِجلَ الَّذِي

أَحَبُّوهُ وعَبَدُوه، لَيْسَ لَهُ من الإلَهِيَّةِ شيء، وأَنَّهُ صُورَة مصنوعَةٌ من مادّةٍ مِنْ مَوادّ الأرضِ خَلَقَها الله، وأنَّ خُوارَهُ لَمْ يَكُنْ أكْثَر مِن ظاهرة من ظواهر تَأْثِيراتِ الْأَشياء في الأشياء، كتَأْثير مُرُور الرِّيح في بُوقٍ، إذْ يُحْدِثُ صَوْتاً مَا، نَاعِماً رَقيقاً، أو غَلِيظاً خَشِناً.

بَعْدَ ذَلِك أبانَ لَهُمْ أنَّه لا إلَه بحقٍّ في الوجود إلّا الله الرَّبُّ، الّذِي وَسِعَ كلَّ شيْءٍ عِلْماً، وهٰذِهِ إحدىٰ صفاتِه الجليلة، الّتي لاَ وجُودَ لنظيرِها عند كائنٍ مَا في الوجود كُلّه، واللّوحُ المحفوظ هو ما كتَبَ الله فيه عِلْمَهُ، وهو بذاته لَيْسَ بِعَليم، وإنّما هو آلَةُ تَسْجِيلٍ عُظْمَىٰ خلقَها الله.

- ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، تَدُلُّ على ما يَدُلُّ عليه النَّفْيُ والاستثناء.

- ﴿... إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ مَنْ يُعْبَدُ بِحَقٍّ في الوجود كلّه، إلّا الله الّذِي لاَ يُوجَدُ معبودٌ بِحَقٍّ إلَّا هو.

- ﴿... وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾: أي: لا بُدَّ أنْ يَكُونَ مِنْ صفاتِ الْإله المعبود أنْ يكُونَ رَبًّا، ومن صفاتِ الرَّبّ المتصرِّف في الكونِ كلّه، أنَّهُ قَدْ وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْماً.

وفي هذا البيان عن علم الله عزّ وجلّ إلْماحٌ لَهُمْ إلَىٰ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ على ما في قلوبهم من إيمان أو شرْك، ومعرفةِ بالرَّبِّ مستحقِّ الإلهيَّةِ وحْدَهُ، أو جهلهم بهذه القاعدة من قواعد الإيمان، وإذْ هو جلّ جلالُهُ عَلِيمٌ بأعمالهم مَا ظَهَرَ منها وما بطن، وعليم بِنِيّاتِهم وخواطِر نفوسهم، فهو الذي سوف يجازيهم بِحِكْمتِه وعَدْلِه وفضله.

وبهذا قَطَعَ مُوسَىٰ عليه السَّلام دابِرَ التَّطَلُّعِ لاتِّخَاذِ إله وَثَنٍ من نفوسِ بني إسْرَائيل في تلك المرحلة من تاريخهم.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ:

• ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ... ﴿٩٩﴾﴾:

أي: مثلَ ذَلِكَ الْقَصَص الَّذي قَصَصْنَاهُ بِشأْن موسَىٰ وهارون وفِرْعَونَ وقَوْمِهِ، وبني إسرائيلَ، نَقُصُّ عَلَيْك بعْضَ أنباءِ ما قَدْ سَبَقَ من أحْدَاثٍ في التَّاريخ الإنساني.

الخطابُ مُوجَّهٌ للرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ أوّلاً، فَلِكُلّ مُتَلَقٍّ للخطاب، على سَبِيلِ الْخِطَاب الإفرادي.

ومعلوم أنّ الْهَدَفَ من ذِكْر قِصَصِ الأوّلين الاتعاظُ والاعتبارُ، وقياسُ الأشْبَاهِ والنَّظَائِرِ بعْضِها علَىٰ بَعْضٍ، نظراً إلىٰ أنَّ سُنَّة الله في عِبادِهِ واحِدَةٌ لا تَبْدِيلَ لها.

وبهذا انْتَهَىٰ بعون الله وتوفيقه ومدده تدبُّر الدرس الثاني من دروس سورة (طـه) والحمد لله علىٰ ما فتح به وأولى.

❋ ❋ ❋

(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (طـه) وهو الآيات من (بعض الآية ٩٩ ـ ١٠٤)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿...وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾:

القراءات:

(١٠٢) • قَرأ أبو عَمْرو: [يَوْمَ نَنْفُخُ] بضمير المتكلّم العظيم، أي: نَأْمُرُ به وقرأ باقي القراء العشرة [يَوْمَ يُنْفَخُ] بالفعل الذي لم يُسَمَّ فاعله،

أي: يحْصُل نفخ من قِبَل الملَكِ المأمُور بنفخ الصور، وهو إسرافيل عليه السَّلام.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السّورة موصولٌ بالدَّرْس الأوّل، ففي الدرس الأول بيانٌ عَنِ القرآن المجيد، ووظيفته التعليميَّةِ والتَّذْكِيرية، وبيانٌ عن وظيفة الرسول محمّد ﷺ الْمُتَعَلّقَةِ بالقرآن، ويُلْحَقُ بِه كُلُّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه، وكُلُّ ناصِحٍ ومُرْشدٍ وآمر بالمعروف نَاهٍ عن المنكر.

وجاء في هذا الدرس تحذيرٌ شَدِيدٌ من سُوء المصير يَوْم الدِّين، لِمَنْ يُعْرِضُ عَنْ آياتِ القرآن الحكيم، الّذي أنزلَهُ الله علىٰ رسُوله مُحمّد ﷺ ليكون ذِكْراً للعالَمين جميعاً، فمن أعرض عنه كان من المجرمين.

وجاء فيه عَرْضُ لقْطَةٍ من لَقَطاتِ أحوال المجرمين يوْمَ الدّين، وهُمُ الكافِرُونَ أهْلُ العذابِ الأبَدِيّ الخالد في الحريق بنار جهنّم.

ومعلومٌ أنّ الإعراض عن كتاب الله المجيد، وما فيه بيانات للناس، وموعظة حسَنَة بالترغيب والترهيب، من جَزاءَاتِ الله العاجلات والآجلات، استهانَة بِهِ وعدَمَ مُبالاَةِ بما جاء فيه، يكونُ سَبَباً في استِدْراج الشياطين لِلْمُعْرِض عنه إلىٰ مزالقِ الكُفْرِ، الموصِلَةِ إلى دركاتِ المجرمين، مسْتَحِقّي الخلود في عذاب الجحيم.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿... وَقَدْ ءَاتَيْنَكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾: هذا الخطاب موجّه للرسول ﷺ، مع غرض إسْماعِ كلّ مؤهّل لاسْتِمَاعِ هذا البيان، مضمونَ ما جاء فيه، ومضمُونَ ما جاء في الآيات بَعْدَه، لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل

القرآن الكريم ذكْراً للعالَمِين جميعاً، فهو تَذْكِرَةٌ نَافعة لِمَنْ يَخْشَىٰ عقاب الله وعذابه، كما جاء في الآية (٣) من صَدْرِ السورة.

﴿وَقَدْ﴾: جاء التحقيق بحرْف «قَدْ» مراعَاةً لِأَحْوَال الشاكّين من الناس بأنَّه ذِكْرٌ للعالمين، والمعرضين عن بياناته ووصاياه وتعليماته وترغيباته وتَرْهيباته.

إنَّه ذِكْرٌ للعالمين جَمِيعاً، لكِنَّ الْمُنتَفِعِين به هم الذين يخْشَوْن عذابَ ربّهم وعقابه.

﴿ءَاتَيْنَاكَ﴾: أي: أعْطَيْنَاك يا مُحَمَّد، وفي التعبير بالإيتاء لما أَنْزَلَ الله علَيْه في هذا القرآن المجيد، دلالةٌ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ مَنَحَهُ شرفاً عظيماً، وتكريماً جسيماً، إذِ اصطفاه بأنْ أنزلَ عليه الكتابَ الخاتِم لكُتبِهِ لعباده، والمعجز الجامِعَ لميزاتِ كلّ كُتُبِه وصُحُفِه السابقة له، والمنزّلَةِ على رُسُلِه السَّابقين، في التاريخ البشريّ.

﴿مِن لَّدُنَّا﴾: لَدُنْ: ظَرْفٌ زَمَانِيٌّ ومكانِيٌّ، بمنْزِلة «عنْد» إلَّا أَنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه. وكَلِمةُ «لَدُنْ» ملازمةٌ للإضافة، فهي تجرُّ ما بَعْدَهَا بالإضافة، والمضاف إليه هنا ضمير المتكلّم العظيم: «نَا» وظاهرٌ أنَّ نُونَ: «لَدُنْ» مُدْغَمَةٌ بنون الضمير «نا» فصارتا نوناً مُشَدَّدة.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: كتاباً رَبَّانِيًّا، يَطْلُبُ عزّ وجلّ مِن المكلّفِين مِنْ عِباده جَميعاً، أن يتَبَلَّغُوه بوعي، وأنْ يتَفَهَّمُوا معانيَه ودَلاَلاَت كلماته وجُمَلَه وآياته، وأنْ يَضَعُوهَا في مُسْتَوْدعَاتِ جِهاز العِلْمِ والمعْرِفةِ فيهم، وأنْ يَتَذَكّرُوا منها ما تَتَطلَّبُه المناسباتُ الداعيات، باستخراجه مِنْ مستودعاتِ الحفظ، إلى ساحَةِ التصَوُّرِ الحاضر، ليكون ما تذكّروه دافعاً للعمل بمقتضاه، أو الانتفاع بهديه، وبما فيه من عِلْمٍ رَبَّانِيٍّ حقّ.

وقَدْ أُطْلِقَ على القرآن الكريم أنّه «ذِكْر» نظراً إلى المطلوب الختامِيّ

بشأنه، في آخِرِ حَلْقَةٍ من حلقات سِلْسِلَةِ التَّبَلُّغِ، فالتَّفَهُّم بوعْيٍ، فالحفظ في خزائنِ المعرفة داخل النفس، فتَرْديدِهِ في الذاكِرَة آناً فآناً، لتثبيت حفظه، ثُمَّ اسْتِدْعَاءِ مَا يتَعَلَّقُ مِنْهُ بالحَدَثِ الدَّاعِي، أو المناسَبَةِ الداعية، إلَىٰ سَاحَةِ الذّكْرِ، والتَّصَوُّر الحاضر، ليكُونَ حافزاً إلى الانتفاع به في عِلْمٍ أوْ عَمَلٍ.

هذا الْفَهْمُ لكلمة «ذِكْر» هو من تَدَبُّر كلماتِ القرآن، الدَّاعِي إلىٰ النظَرِ في لوازم الكلمة ومقتضياتها، من أوائل السِّلْسِلَة الفكريّةِ فيها، حتَّىٰ دُبُرِها وآخِرِها، وهذا عَمَلٌ فكريٌّ يقتضيه قول الله عزّ وجلّ في سورة (محمّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: مَنْ أعْرَضَ عَنْ هذا الكتاب الّذِي هو ذكْرٌ للعالمين، فلَمْ يُوجِّهْ سمعه لِتَبَلُّغِه، أو لم يوجِّهْ ذهْنَه لتفهُّمِه، غيْرَ عابىءٍ بأنّه كتَابُ رَبّ العالمين، لِيكُونَ هدْياً لهم، فإنَّهُ يأتي يوْمَ القيامة حاملاً وزراً ثقيلاً على ظَهْرِه.

الإعراض: هو وسَطٌ بين الإقبالِ والإدبار، وجاء الاكتفاء بذِكْرِ الإعراضِ عن ذكْر الإدْبار والتولّي، لأنَّ الأخَفَّ يَدُلُّ على الْأَشَدِّ مِنْ بَابِ «أولَىٰ».

الْوِزْر: هُو في اللُّغَةِ الْحِمْلُ الثَّقِيل، ولمَّا كان ارتكابُ الذَّنْب وفِعْلُ الإثم ممَّا يتحمَّلُ به الإنْسَانُ ما يُشْبِهُ الحِمْلَ الثقيلَ، أُطْلِقَ لفْظُ «الْوِزْرِ» على الذَّنْبِ الكبير الذي يرتَكِبُهُ المكلَّفُ المختارُ المسؤولُ عن أعْمَاله الإراديّة.

«وِزْر» جَمعُهُ «أَوْزَار» مثل «حِمْلٍ وأَحْمال». يقالُ لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وَوَزْراً، وزِرَةً» أي: حمَلَ حِمْلاً ثقيلاً، أو ارتَكَبَ ذنْباً كبيراً، فَهُو «وازِرٌ» وهي «وَازِرَة».

وحَمْلُ الوِزر يَوْمَ الدّين، يقْتَضي المحاسَبَةَ علَيْه، فَفَصْلَ القضاء، فتَحْقِيقَ الجزاء، بالْعَدْل، أَوْ بالْفَضْل.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾: أي: حالَةَ كوْنهم خالِدِينَ في الْوِزرِ، الذي هو جريمَةُ الكُفْر.

والْخُلودُ في الوِزْر كِنايَةٌ عَنِ الخلُودِ في العذابِ الذي قضىٰ الله به على الكافِرين المجرمين، ينْزِلُ بهم يوم الدين، في جهَنَّمَ وساءَتْ مصيراً.

﴿...وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾: أي: وساءَ الوِزْرُ الّذِي يَحْمِلُهُ من يُعْرِضُ عن كتاب الله القرآنِ غَيْرَ عابىءٍ به، حِمْلاً يَوْم القيامَة، إذْ هو حِمْلٌ يَنْتَهِي بِهِ إلى عذاب جهَنَّم.

«سَاءَ» فعْلٌ يقالُ في إنْشَاءِ الذّمّ على سبيلِ المبالغة، مثل: «بِئْسَ» وفاعله هنا ضمِيرٌ مُسْتَتِرٌ وجوباً، مُمَيَّزٌ بكَلِمَةِ: «حِمْلاً».

والمخصوص بالذّمّ محذوف إذْ دَلَّ عَلَيْهِ الكلامُ السابق عن المعْرِض عن القرآن الكريم.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: «**يَوْمَ**» ظرف زمانٍ منْصُوبٌ على الظرفية، والعامل فيه فِعْل: «سَاءَ». «**القيامَة**» مضاف إليه مجرور بالحركة الظاهرة على التاء.

يَوْمُ القيامَة: هُوَ يَوْمُ قِيامِ الأَمْوَاتِ من الأجداث إلى ربّهم ينْسِلُونَ، للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، فِي الجنَّة، أو في النار، بحسب حَالِ الشخْصِ والحكْمِ علَيْه مِنْ قِبَلِ رَبّ العالمين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾:

«**الصُّورُ**» مخْلُوقٌ عظيم مِنْ مخْلُوقات الله، وهو على هيئَةِ الْقَرْن، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، تُقَابِلُها فُتْحَةٌ واسِعَة، وباطِنُهُ فراغ، يُنْفَخُ فيه فَيُصْدِرُ صَوْتاً بحَسَبِ قُوَّةِ النَّفْخ.

والنفخ في الصُّور يكُونُ أوّلاً لإماتَةِ الأحْيَاءِ، ويَكُونُ يَوْمَ القيامة لِبَعْثِ الأحْيَاءِ الّتي قضَىٰ الله أَنْ يَبْعَثَهَا إلَىٰ يَوْمِ الدّينِ، يَوْمِ الْحِسَابِ، وفَصْل القضاء، وتحقيقِ الجزاء، بالْعَدْلِ أو بالْفَضْلِ الرَّبَّانيَّيْن.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: **الحشْرُ**: في اللّغة هو الْجَمْعُ والسَّوْق، يقال لغةً: «حَشَرَ يَحْشُرُ، وَيَحْشِرُ، حَشْراً» أي: جَمَعَ مَنْ حَشَرَهُمْ وسَاقَهُمْ.

الْمَحْشَرُ، والمَحْشِرُ: المجْمَعُ الّذي يُحْشَرُ فيه القوم.

المُجْرِمُونَ: هُمُ المستحقّون للْخُلُودِ في دار العذاب يوم الدين.

جاء لفظ «المجْرمين» في القرآن عُنْواناً مُقَابلاً للمسْلِمين، وجاء وصْفاً للكافرينَ الذين أهْلَكُهم الله في الدُّنْيا إهْلاَكاً جماعِيًّا، كعادٍ وثمودَ وفرعون وجنوده. وَجاء وصْفاً للمعذّبين في نار جهنم، ولم يأْتِ وَصْفاً للمسْرِفين على نفوسِهِمْ في المعاصي والآثام من أهْلِ الإيمان. فدَلَّ هذا على أنَّ المجرمين في المصطلح القرآني هُمْ مرتَكِبُو الآثام من دَرَكَةِ الكفر، فهم من أهل الخلود في عذاب النار.

﴿زُرْقًا﴾: أي: حالَةَ كَوْنِهِمْ زُرْقاً، يتَمَيَّزُون عن المؤمنين باللَّوْنِ الأزْرق.

إنّ اللَّوْنَ الأزْرَق في أجساد الناس، يكونُ في العادَة من الضربات الَّتي تَقَعُ عليها، فيَحْتَقِنُ الدَّمُ تَحْتَ الجِلْدِ، فيَتَحَوَّلُ لَوْنُ الْجِلْدِ إلى الزُّرْقة.

فإذا كان هذا هو المراد، فالعبارة كِنَايَةٌ عمَّا أصابَهُمْ مِنْ قِبَلِ الملائكة، من ضَرْبٍ علَىٰ وُجُوههِمْ وَأدْبارِهِم، فازْرَقَّتْ به مواضِعُ الضَّرْبِ، فكانَ علامةً على أنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.

وقد جاء بيان ضَرْب الملائكة لهم في نَصَّيْن:

(١) في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٩ نزول) بِشأْنِ الكافرين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

(٢) وفي قول الله عزّ وجلّ في سورة (مُحمّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول) بشَأْن المنافقين المرتَدّين عن الإسلام بَعْدَ دُخولهم فيه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

وجاء عند المفسّرين أنّ المجرمينَ يُحْشَرُونَ زُرْقَ الْعُيُون، والْعَرَبُ تتشاءَمُ بزُرْقَةِ العين، وقيل: غيْرُ ذلك، ولم أجِدْ لأقوال المفسّرين هٰذه مُسْتَنداً منَ الكتاب أو من السُّنة، فهي من قَبِيلِ الآراء المطروحة.

وما ظهر لي أخْذاً مِنْ نَصّي سورتي (الأنفال) و(مُحمّد) هو الأحَقُّ بالتدبّر، والله أعلم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾:

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يتَسارُّون بيْنَهُمْ، ويتَكَلَّفُونَ خَفضَ أصْوَاتِهِم وإخْفَاءَها.

يُقالُ لغة: «خَفَتَ صَوْتُهُ، يَخْفُتُ، ويَخْفِتُ، خَفْتاً، وخُفُوتاً، وخُفَاةً». أي: انخفض.

ويقال لغة: «خَفت بِصَوْتِه» و«خَافَتَ بِصَوْتِه» أي: خَفَّضَهُ، وأسَرَّه، وأخفاه. ويقال: «تَخَافَتَا» أي: تَسَارًّا.

﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾: أي: مَا لبثْتُمْ فِي رَقْدَتِكُمْ الَّتِي رَقَدْتُموها إلَّا عشْراً مِنَ اللّيالي.

ذكَرْتُ الرُّقادَ هُنَا، لأنَّهُ جاء في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) أَنَّهُمْ يقولُونَ عِنْدَ البعث، ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ ... ﴿٥٢﴾﴾.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾: أي: مَا أَقَمْتُمْ فِي قُبُورِكُمْ، يُقالُ لُغَة: «لَبِثَ بالْمَكَان، يَلْبَثُ، لَبْثاً، وَلُبْثاً، فَهُو لابِثٌ، ولَبِثٌ» أي: أقام فيه.

«إنْ» حَرْف نفي بمعنى «ما».

دلّت النصوص القرآنية على أنّ الميّتَ يُلْغَىٰ مِنْ نَفْسِه الحِسُّ بمرور الزمن، فالسَّاعة ومِلْيَارَاتُ السِّنينَ بالنسْبَةِ إلى إحساسه سواء، وحين البعْثِ لا يكونُ لدَىٰ الموتَىٰ إدْراكٌ ما لمقدار الزَّمَنِ الّذي مَرَّ عليهم، وهُمْ في قبورهم، وعنْدَ البَعْثَ يشْعُرُون أنَّهُمْ كانُوا في حالَةٍ تُشْبِه النَّوْم، فهم فيها في رُقاد.

وعندئذٍ ليْسَ لديهم وسِيلَةٌ لِمَعْرِفة الزَّمَنِ الَّذِي لبِثُوهُ في مدّة البرْزَخ الفاصل بَيْنَ الحياتَيْن، إلَّا الرَّجْمُ بالظَّنِّ التوهمِّيْ، إذْ إحْسَاسُ نفوسهم بمُرُور الزَّمَنِ قد كان مُنْعَدِماً.

فيقول بعْضُهُمْ لبَعْضٍ سِرًّا، مَا لَبِثْتُمْ إلَّا عَشْرَ لَيَالٍ رجماً بالغيب، وقد يقولُونَ أقوالاً أخرىٰ غير ذلك، دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ... ﴿١٠٤﴾﴾: هذا كلام صادرٌ عن الله عزّ وجلّ، جاء باستخدام ضمير المتكلّم العظيم. أي: نحن أعْلَم بما سَوْفَ يتداولُونَه من أقوالٍ فيما بينهم، بشَأْنِ المدّة الزَّمَنِيَّة الّتي لبِثُوها في قبورهم، لأنَّنا أعْلَمُ بمافي نفوسهم وتَنْطِقُ بِه ألسنتُهمْ منهم.

عنْدَئذٍ يظْهَرُ فيهم مَنْ يعتَبِرُونَهُ ذَكِيًّا في تقدير الأزمان بفكْرِه على سبيل الحدْسِ والتخْمِين، لاَ بأدواتِ الحسِّ لَدَيْه، وهو في تصوُّرهم أمْثَلُهُمْ طَرِيقة في فهم مثل هذه الأمور الغامضة، كما كانوا يَعْلَمُون ذَلِكَ من تصرُّفَاتِه في الحيَاةِ الدنيا، فيقول لهم ما جاء بيانه في قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾: أي: هُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ شُعورِهِ الذَّاتي، فيَرَىٰ أَنَّ شُعُورَهُ لاَ يَزِيدُ في تقديرِ الزَّمَنِ، علىٰ أَنَّهُ لَبِثَ نَوْمَةً فِي العشيّ، أَوْ نَوْمَةً في الضحىٰ، كما قَالَ الله عزّ وجلّ في سُورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

فهو يزيدُ بإعْمَال فِكْرِه حَدْساً وتَخْمِيناً وخَرْصاً، فيقول: ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

وهكذا يكُونُ حال الذينَ ماتُوا في أوّلِ التاريخ البشريّ على الأرض، أو في قُرُون عادٍ، وثمودَ، وقَوْم لُوط، وقوم شعيب، ومن بَعْدَهم، حتَّىٰ آخِرِ هالِكٍ على وجْهِ الأرض، فالإحساس بمُرور الزمَنِ بالنسبة إليهم جَمِيعاً سواء، ولو كانُوا في مُدَّةِ البرزَخ من أهل النعيم، أو من أهل العذاب، إذا النَّائمُ قد يَرىٰ أحْلاَماً لا تتحقّقُ في واقع الحياة إلَّا بزَمَنٍ طويل، بينما يكون قد رآها في حُلْمِه بثانِيَةٍ أَوْ بأقَلَّ أو بأكثر قليلاً.

فلا سبيل أمام الذي كان أمْثَلَهُمْ طَرِيقَةً في الحياة إلَّا أن يَحْكُم بالاسْتِنَاد إلى الحدْسِ، والتخمِين، والخرْصِ.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي: أَفْضَلُهُمْ طَرِيقَةَ فَهْمٍ واسْتِنْبَاطٍ وحَدْسٍ، علَىٰ مَا عَرَفُوا منْ أمْرِه في الحياة الدنيا.

إنّ الأمثل طريقةً وغَيْرَهُ بالنّسْبَةِ إلَىٰ تقديرِ مُدَّةِ البرزخ بين الحياتين سواء، كلٌّ منهم لا يَعْتَمِدُ في تقدير الزّمن إلّا على الرَّجْمِ بالغيب دون دليلٍ ما، أَوْ أَمَارَةٍ ما، أَوْ غير ذلك.

بخلاف أهل الإيمان بالله عزّ وجلّ، فإنَّهم يقولون: إنَّ عِلْمَ لُبْثِنَا مَوْتَىٰ في مُدَّةِ البرزَخِ عنْدَ رَبِّنَا جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ ولا أَحَدَ يَعْلَمُ ذَلِكَ غَيْرُه، حتَّىٰ الملائِكَةُ المقرَّبُونَ، لأنَّهُمْ يموتُونَ أيضاً فلا يَعْلَمُونَ المدَّة بَيْنَ مَوْتِهِمْ وبَيْنَ حَيَاتِهِمْ الثانية.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس الثالث من دروس سورة (طـه)
والحمد لله على فتحه ومَدَدِه ومعونته وتوفيقه



(٨)
التدبّر التحليليّ للدرس الرابع من دروس سورة (طـه) وهو الآيات من (١٠٥ ـ ١١٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

القراءات:

(١١٠) ● قرأ يعقُوب: **[أَيْدِيهُمْ]** بضم هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَيْدِيهِمْ]** بكسر هاء الضمير. وهُمَا وَجْهَان عَرَبيان، جاءت بهما القراءتان.

(١١٢) ● قرأ ابْن كثير: **[فَلاَ يَخَفْ]** على أنّ «لا» ناهية، والفعل بعدها مجزومٌ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فَلاَ يَخَافُ]** على أنّ «لا» نافية، فالفعل بَعْدَها مرفوع.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أَدَاء المعنىٰ المراد بيانُه، أي: فَلاَ يَخَفْ، وهو في الواقع يوم الدين لاَ يَخَافُ.

تمهيد:

آيات هذا الدرس موصولَةٌ في مضمونها البياني بما جاء في الدّرس الثالث السابق، فموضوع الدَّرْسين يَدُور حَوْلَ يوم القيامةِ ويَكَادَانِ يكونان درساً واحداً، إلَّا أنّي آثَرْتُ أَنْ أفْصِلَهُمَا لأنَّ هذا الدرس الرابع قَدْ جاء مَبْنِيًّا على سُؤال كُبَرَاءِ كفَّارِ مَكَّةَ عن الجبال، وكيف يكونُ حَالُها يَوْمَ القيامة، وهي عظيمات ثابتَاتٌ رَاسِخَات؟.

وفي هذه الآيَاتِ بيانُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ قِيام السَّاعة، مَبْنِيٌّ علىٰ سؤالٍ مُوجَّهٍ مِنْ كُبَراء مُشْرِكي قُرَيشٍ، للرَّسُول ﷺ: مَاذا يَفْعَلُ الله عزّ وجلّ بالجِبَالِ يَوْمَ القيامة

وقد جاء في الآيتين: (١٠٥ و١٠٦) منْها بَيَانُ أنَّ الله عزّ وجلّ يُفَتِّتُها إلى ذَرّاتِ رمْل، ويَنْسِفُهَا مِنْ مَواقِعِها، ويَجْعَلُ الأرض بَعْدَ نَسْفِ الجبال المرتَفِعَةِ علىٰ ظَهْرِها، أرضاً مَلْسَاءَ مُسْتَوِيَةَ السَّطْحِ، لا يَحْتَاجُ مَنْ

يَسِيرُ علَىٰ سَطْحِهَا إلى تَصَوُّر احتمالاَتِ عِوَجٍ إلى وادٍ، أو ارْتِفاعٍ إلىٰ هضبات، أو انخفاضٍ منها إلى منخَفِضات.

وفي هذا المشْهَدِ بيانُ أنَّ المبْعُوثين يَجدُونَ أنْفُسَهُمْ مُلْجَئِين إلَىٰ اتّباعِ الداعي لهم مِنَ الملائكة، والسَّيْرِ إلى جِهَتِه، ليَحْشُرَهم سَوْقاً وجمعاً إلىٰ موقفِ حسابِ رَبّهم لَهُم.

وجاء في بيانٍ آخَرَ من القرآنِ المجيد، أنَّ الكافِرِينَ يُحْشَرُونَ إلَىٰ الجهة الَّتي تُقَرَّبُ النَّارُ إليها، وأنّ المؤمنينَ يُحْشَرُونَ إلى الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ الْجَنَّةُ إليها. وأنّ كلَّ فريقٍ منهما يُعْرَفُ بَعَلاَمَاتٍ فَارِقات، فالكافِرُونَ يَكُونُون سُودَ الوجُوه، إذْ تَشْتَدُّ الزُّرْقَةُ فيها، حتى تكونَ سواداً. والمؤمِنون يكونُونَ بِيضَ الوجوه، ولو كانوا فِي الحياة الدنيا من ذوي الجلُودِ السَّوْداء.

وجاء في هَـٰذَا المشهد، بيانُ أنَّ الداعِيَ من الملائكة يَسُوقُ مَنْ يَحْشُرُهم سَوْقاً مُسْتَقِيماً، لا عِوَج لَهُ في سَوْقِهِ، لأنَّه يَسُوقُ بالحقّ والعدْل، ويَسِيرُ على أرضٍ مستوية مَلْسَاءَ في كلّ جهاتها.

ومِنْ لقطاتِ هذا المشْهَدِ الرَّهِيب، أنَّ كُلَّ الأصْواتِ تكونُ سَاكِنَةً سُكُوناً تامًّا، إلَّا ما يَهْمِسُ به الْمَسُوقونَ إلى مَحْشَرِهم في أحاديث سِرّيَّةٍ يخفضون فيها أصواتَهُمْ إلى دَرَكَةِ الهمْسِ الّذي يكاد لا يُفْهَمُ مِنْهُ كلاَم.

ومن لقطات هذا المشْهَدِ يومَئذٍ، بيانُ أنَّ الشَّفاعَةَ مِنْ أحَدٍ مهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ عنْدَ رَبّه، لأحَدٍ من الْعَاصِين، لا تَنْفَعُ المشْفُوعَ له، إلَّا شفاعَةَ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ بأنْ يكونَ مِنَ الشُّفَعَاء، ورَضِيَ لَهُ في شفاعَتِه قَوْلا يَقُولُهُ بشَأْنِها، والقول في الشفاعَةِ يَتَنَاوَل المشفوعَ لَهُ، والمشْفُوعَ فيه، فَمَنْ يأذَنُ اللهُ له بأن يكُونَ من الشُّفعاء، لا يَقْبَلُ منه قولاً بأن يَغْفِرَ لمَنْ مَاتَ كافراً.

وجاء في آيات هذا الدرس بيانُ أنَّ الله يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي كُلِّ أَهْلِ المحشر، وهو ما سبَقَ أَنْ قَدَّمُوه من اعتقادات ونياتٍ وأعمالٍ في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ويَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ خَلْفَهُمْ، وهو ما سَيَصِيرُ إليه كلُّ واحدٍ منهم، قبْلَ أَنْ يُحَاسِبَهُ، ويَفْصِل القضاءَ بشأنه، ويأْمُرَ بتَنْفِيذِ جزائِه.

أمّا العباد فَلا يُحِيطُونَ بذاتِ الله وَلاَ بصِفَاتِهِ عِلْماً، ولو رآه مَنْ يَرَاهُ مِنْ أَهْلِ الإيمان والعمل الصالح، إذْ رُؤْيَتُهُمْ لَهُ يَوْمَئِذٍ تكونُ مِثْلَ مُشَاهَدَتِنا في الحياة الدُّنْيَا لِلْقَمَر، لا تَقْتَرِنُ بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذَاتِه، ولا بِمَعْرِفَةِ عَظِيمِ صِفَاته.

ومن لقَطَاتِ هَٰذَا المشْهَدِ يَوْمَئِذٍ، أنَّ وُجُوهَ الْعِبَادِ تكونُ خاضِعَةً ذَلِيلَةً مُنْخَفِضَة، لِلْحَيِّ القيُّومِ، القائم بأمُور كُلِّ شيءٍ في كوْنِه قِيَاماً عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ، وأَتْقَنِهِ، وأَحْكَمِه.

ومن لقطات هذا المشهد يومئذٍ، ظُهور خَيْبَةِ مَنْ حَمَلَ مِنَ الأوزارِ ظُلْماً هو من دَرَكة الكُفْر، إذْ يَخْسَرُ نَفْسه فلا يَغْفِرُ الله له، بَلْ يَجْعَلُهُ الله خالداً في العذاب.

وأيَّةُ خَيْبَةٍ أخسُّ من هَٰذِهِ الخيبَة.

ومن لقطات هذا المشهد يومئذٍ، ظُهُورُ فَلاَحِ مَنْ آمَنَ إيماناً صحيحاً صادقاً، وعَمِلَ شيئاً ما من الصالحاتِ، بدافع إيمانيّ، إذْ يَجِدُ أنَّ الله عزّ وجلّ قد حقَّقَ لَهُ بإيمانه وعَمَلِه فَوْقَ مَا كان يَرْجُوهُ ويَطْمَعُ فيه، وهو يَوْمئذٍ لاَ يَخَافُ ظُلْماً بعِقَابٍ على عمَلٍ سَيِّىءٍ لم يَعْمَلْه، ولاَ هضْماً بنَقْصٍ من ثوابٍ مضاعَفٍ على عَمَلٍ صالحٍ عَمِلَهُ، كما وعَدَ الله عزّ وجلّ في الحياة الدنيا في كتابه، أو في بلاغاتِ نَبِيِّه محمّد ﷺ.

التّدبّر التحليلي:

بناءً على سؤال كُبَرَاء مُشْرِكي قُرَيش رسُولَ الله ﷺ عَنِ الجبال، كَيْفَ يكُونُ حَالُهَا يَوْمَ القيامة، جاء في هذا الدَّرْس بَيَانُ المسؤول عنْهُ في قَضِيَّة، وأُتْبِعَتْ هذه الْقَضِيَّة، بِبَيَانِ ثماني قضايا تَتَعَلَّقُ بِيَوْمِ القيامَةِ، ومَا يَجْرِي فِيه مِنْ حَشْرِ النّاسِ جَمْعاً وسَوْقاً، ومَا يكونُ فيه مِنْ حَقَائِقَ ومَشَاهِدَ.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ... ﴿١٠٥﴾﴾: الواو في مَطْلَع هَـٰذا الدَّرْسِ تَعْطِفُ مَا جاء فِيه على مَا جَاءَ في الدرس السابق، إذْ مَوْضوعُ الدَّرْسَيْن يَدُور حَوْلَ يَوْم القيامة، ويَكادَانِ يَكُونَانِ دَرْساً واحداً.

وقَدْ اسْتَدْعَىٰ الجوابُ عَن هذا السؤال بَيَان تِسْعِ قضايا، أُولاَها قَضِيَّةٌ تتعلَّقُ بما سَوْف يَكونُ علَيْه حَالُ الجبال، وما بَعْدَهَا من قضَايا يتعلَّقُ بِيَوْم القيامَة نَفْسِه، وكانَ سُؤَالُهُمْ مناسَبَةً ملائمةً لبيانها، وهـٰذا مِنَ الأمُور الحكيمة في الاستفادة مِنَ المناسَبَاتِ لِعَرْضِ القضايا الّتي لها علاقَةٌ ما بها.

وفيما يلي بيان القضايا التّسْع الّتي اشتمل عليها هذا الدرس.

القضيَّةُ الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس:

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾: أي: يقْتَلِعُها مِنْ أُصُولِها، ويَسْحقُها، ويُذْرِيها.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾: أي: فَيَتْرُكُ مواقِعَها بَعْدَ نَسْفِهَا: ﴿قَاعًا﴾: أي أَرْضاً مُسْتَوِيَةً. **القاع**: في اللّغة: الأرض المستوية. ﴿صَفْصَفًا﴾: أي: أَرْضاً مُسْتَوِيَةً لاَ نَبَاتَ فيها.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾: **العِوَج**: هو في اللُّغة الانحناء والالْتِواءُ وعَدَم الاسْتِواء في المعنويَّات، كَسُوءِ الْخُلُق، والانحراف عن الدّينِ الحقّ. ويقال: «قَوْلٌ بِهِ عِوَجٌ» أي: مُنْحَرِفٌ عَنِ الْقَصْد.

والعَوَجُ: بفَتْحِ العين، يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَىٰ الميْلِ والانحراف في المادّيَات، كالطريق الأعْوج، والرُّمْحِ الأعوج.

وَظاهر الْعِبارَةِ الْقُرآنيَّةِ هُنَا اسْتِعْمالُ ﴿عِوَجًا﴾ بِكَسْرِ العين للدَّلاَلَةِ على عَدَمِ وُجودِ مَيْلٍ أو انحرافٍ في الأرض، وهِيَ من المادّيَّات، علَىٰ خلاف أصل الاستعمال اللُّغَوِيّ، فالْعَوَجُ في المادّيّات، والْعِوَجُ في المعنويات.

أقول: الذي أَرَاهُ أَنَّ اسْتِخْدام ﴿عِوَجًا﴾ هُنَا بِكَسْرِ الْعَيْنِ، بَدَلَ «عَوَجاً» بفتح الْعَيْن، يُرَادُ بِهِ الدّلاَلَةُ عَلىٰ أَنَّ أَرْضَ المحشَر، كما تَكُونُ مُسْتَوِيَةً بِمُقْتَضىٰ صَيْرُورَتِها قَاعاً صَفْصَفاً، في كُلِّ جِهاتها، فإنَّك يَا أَيُّها المتَلَقِّي لِهَذا البيان إذا كُنْتَ في أَرْضِ المحشَر، فإنَّكَ لاَ تَرَىٰ فيها أيضاً من سُلُوك الْمَلاَئِكة أَوْ مِنْ أَحْدَاثِ ذَلِكَ الْيَوْم ما فِيهِ عِوَجٌ مَعْنِويّ، ولا مُرْتَفِعَاتٌ وَمُنْخَفِضَاتٌ مَعْنَوِيَّة، مُخَالِفَاتٌ للاسْتِوَاءِ الْمَطْلُوب بمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ الله وعَدْلِه.

﴿وَلَآ أَمْتًا﴾: أي: ولا تَرَىٰ فيها انخفاضَاتٍ ولا ارْتفاعاتٍ معنويّةً أيضاً. **الأمْتُ**: هو في اللّغة: الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً، وَرِقَّةً وصَلابَة.

إنّ نَسْفَ الجبال وتَذْرِيَتَها مُتَنَاثِرَةَ الأجزاء كالرّمال، ودقيق التراب، حَدَثٌ من أحَدَ عَشَر حَدَثاً يَجْرِي في الجبال، قُبَيْلَ الساعة وعنْدَ قيامها.

وقد جاء تفصيل هذه الأحداث مع ما يَدُلُّ عليها من القرآن لدَىٰ تَدَبُّر الآية (٣) مِنْ سُورَة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول)[1].

(١) انظر الصفحة (٤٠٤) وما بعدها من المجلّد الأوّل.

وهذه الأحداث تأتي على مراحل، وهي بإيجاز.

(١) مرحلة الدَّك، للتكسير.

(٢) مرحلة جَعْلِ الجبال ليّنَةً كالْعِهْنِ، أي: كالصوف المصبوغ ألواناً.

(٣) مرحلة جَعْلِ الجبال كالْعِهْنِ المنفوش، أي كالصُّوفِ المنْدُوفِ الّذي انتفخ بالفراغات الكثيرات الّتي تخلَّلَتْهُ.

(٤) مَرْحَلَةُ بَسِّ الْجِبَال، وهو ما يكونُ بِهِ تَفْتِيتُهَا إلى أجزاء صغيرة، كناعم التراب، أو ناعم الرَّمل.

(٥) مَرْحَلَةُ جَعْلِ الجبال بالْبَسِّ كالكَثِيب الْمَهِيلِ، أي: كالرَّمْلِ الّذي يَتَسَاقَطُ بِتَدَافُعٍ من الأعلَىٰ إلى الأَسْفَلِ بأدْنَىٰ حَرَكَة.

(٦) مرحلَةُ سَيْرِ الجبال سَيْراً غَيْرَ شدِيد.

(٧) مَرْحَلَةُ مُرور الجبال كَمَرِّ السَّحاب.

(٨) مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبالِ بِقُوَّةٍ وشِدَّة.

(٩) مَرْحَلَةُ نَسْفِ الْجِبَالِ وَتَذْرِيتها مُتَنَاثِرَة.

(١٠) مَرْحَلَةُ تَسْيِيرِ الجبالِ تَسْيِيراً كُلِّيًّا، حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ من آثارها إلَّا مثْلُ السَّرَاب، أي: كبَقَايا غُبَارٍ.

(١١) المرحَلَةُ الأخيرة مَرْحَلَةٌ لاَ يَبْقَىٰ فيها مِنَ الجبالِ أثَرٌ ما، ولاَ مثل السّراب.

هذه المراحل قد جاءت بِبَيَانِها نُصوصٌ قُرْآنِيَّة، إلَّا أَنَّ تَرْتِيبَها كما ذَكَرْتُ اجتهادٌ منّي، قد يوافق الواقع الذي سوف يكون، وقَدْ يكُونُ الواقع مخالفاً لها مُخَالَفَةً ما. والعِلْم الحقُّ عند الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وأحاط عِلْمُهُ بكُلِّ شَيءٍ، ما كانَ وما هو كائن، وما سَيكُون.

القضيّة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدّرس: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ... ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: يكُونُ بَعْدَ البَعْثِ وانْطِلاَق النّاسِ يَنْسِلُونَ مُسْرِعِينَ في اتّجاهاتٍ مختلفاتٍ، أَنْ يَدْعُوَهُمُ الدَّاعِي مِنَ الملائكة، إذْ يَصِيحُ فيهِمْ لاتّباعِه، بُغْيَةَ المثُولِ في محكمة الْعَدْل الرَّبَّانِيَّةِ يومَئِذٍ.

فالمؤمِنُونَ يَتّبِعُونَ الداعِيَ إلى مَوْقِفِ محاكَمَتِهِمْ قريباً من الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ إلَيْهَا الجنَّة.

والكافرون يَتّبِعُونَ الداعِيَ إلى مَوْقف محاكَمَتِهِمْ قَرِيباً من الْجِهَةِ الّتي تُقَرَّبُ إلَيْها النار.

الدَّاعي: اسْمُ «فاعل» و«أَلْ» للجنس، فهو يَصْلُحُ لأَنْ يُرَادَ بِهِ واحِدٌ شَائع، أو أكثر على التوزيع.

ونُصُوصُ جَمْعِ الكافرين وسَوْقِهم زُمَراً إلى الْجِهَة الَّتِي تُقَرَّبُ إليها النار، وجمع المؤمنين وسَوْقِهم زُمراً إلى الْجِهَةِ الّتي تُزْلَفُ إلَيْها الجنة، تَدُلُّ على أنَّ الدّاعِين مُتَعَدِّدُونَ، وأنَّ لكلّ فريق أو زُمْرَةٍ داعياً من الملائكة.

وقد سبَقَ في نُجُوم التنزيل قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿نُّكُرٍ﴾: أي: شَدِيدٍ صَعْبٍ.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾: أي: يَرْمُونَ بأَبْصارهم نحو الأرض مُنْكَسِرَة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: أي: إذا سَمِعُوا صَوْتَ الدَّاعِي تَوجَّهُوا لَهُ

مُسْرِعِينَ إلى جِهَتِه، بِذُلٍّ وخضوع، يَمُدُّونَ أَعْنَاقَهُمْ ويَخْفِضُونَ رُؤوسهم، ويَنْظُرُونَ بِذُلٍّ وانْكِسَارٍ نَحْو الأرض، ويَغُضُّون من أجفانهم.

ودَلَّ قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (طـه): ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ... ﴿١٠٨﴾﴾ على أَنَّ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ في تَصَرُّفاتِه، وعلى أنّ اتِّبَاعَهُمْ لَهُ لاَ عِوَجَ له، أي: فهم لاَ يَزِيغُونَ عن خطّ اتّباعِهِم للدَّاعي كما يأمُرُهم، فتكامَلَ النَّصَّانِ في بيان الصُّورَةِ المرادِ بيَانها، والمعاني المراد الدلالة عليها.

القَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس: ﴿... وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾:

الْخُشُوع: يأتي في اللّغَة بمعنى: «الْخُضُوعِ» وبمعنى: «الخوف» وبمعنى: «السُّكُون».

وعدم ظُهُورِ أصْواتِ النّاسِ لاَزِمٌ من لَوَازِم خُشُوعِ قُلوبِ أصحابها، فالخاضِع، الخائف، السّاكن، يَكون صامِتاً بطَبْعِه، وإذا أراد أنْ يتكلّم مع جارٍ له في موقفِه، فإنّه يُكَلِّمُهُ هَمْساً، أي: بكلامٍ خَفِيٍّ وصَوْتٍ خافِتٍ لاَ يَكادُ يُسْمَعُ، أوْ لاَ يكادُ يُفْهم المرادُ به.

الْهَمْسُ في الكلام: النُّطْقُ به بصَوْتٍ خَفِيّ لاَ يَكَادُ يُفْهم. ويُقَال: هَمَسَ الشيْطان، أي: وسْوَس.

فالهمْسُ يَكُونُ بأخفى صَوْتٍ يُمْكن أنْ يُدْرِكَ به المهْمُوسُ إلَيْهِ السّميع مُرادَ المتحدّث بكلامه.

فدَلّ هذا البيانُ على أنّ النَّاسَ إذا دعَاهُمُ الداعِي إلى مَوْقف حسابِهِم، يَسِيرونَ صَامِتِين، وإذا اشْتَدَ عند أحَدِهم الدافع إلى مُحَادَثَةِ جارِهِ، فإنَّهُ يُكلِّمه هَمْساً في أذنه.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: إنّ شفاعَة الشُّفَعاءِ الّذِين جعَلَ الله لَهُمْ شفاعَةً عِنْدَهُ بوَجْهٍ عامّ، لاَ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُم لَهُ إلّا بشرطَيْن:

الشرط الأول: أنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم بأنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ أَرادُوا أَنْ يَشْفَعُوا له، فرداً أو جماعةً، وهذا يَسْتَلْزِمُ الاستئذانَ بالشَّفَاعَةِ للمشفُوعِ له، والمشفُوع به.

الشَّرْطُ الثاني: أن يَرْضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ قولَ الشَّافع، صيغَةً وأسْلُوباً، ومَا تَضَمَّنَتْهُ شفاعَتُه.

فَصِيغَةُ طَلَبِ الشَّفَاعَةِ يجب أن تكون دُعَاءً مصحوباً بتعظيم الله وإجلاله، واستعطاف رَحْمَته، وأسْلُوبُها يُطْلَبُ فيه أن يكون بذلٍّ وخُضوعٍ وتَضَرُّع. ومَضْمُونُها يَجِبُ أنْ يكونَ ممَّا لَمْ يَمْنَعِ اللَّهُ الشفاعَةَ فيه، كالشفاعَةِ في أنْ يَغْفِرَ الله لمشركٍ فَمَنْ هُو أشَدُّ مِنْهُ كُفْراً، كجَاحِدِ وجود الله عزّ وجلّ، وكمنافِقٍ مَعْلُوم النفاق، يُظْهِرُ الإيمانَ ويُبْطِنُ الكُفر.

وهٰذَانِ الشرطان يَدُلاَّن على أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّها في الحقيقَةِ هِيَ لِلَّهِ عزّ وجلّ وحْدَه، كما قال جلّ جلالُهُ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

القضية الخامسة: دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... ﴿١١٠﴾﴾: أي: يَعْلَمُ كُلَّ ما قَدَّم عِبَادُه في حياة امْتحانِهِمْ من اعتقاداتٍ، ونيّاتٍ، وأَعْمَالٍ ظاهرة أو باطنة، فهذا هو الذي يقع أمام إحْسَاساتهم، إذْ عَاشُوهُ، واخْتَزَنَ في ذاكرتهم.

ويعْلَمُ أيضاً سُبْحَانَهُ كلَّ مَا سَيَأتي في مسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ يَوْم الدّين، فَهُو الذي يكونُ خَلْفَهُمْ، لأنَّهُمْ يَجْهَلُونه، ولا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إلّا ما يُخْبِرُهُمْ رَبُّهُمْ به.

القضيَّة السَّادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرس: ﴿...وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾: أي: ولا يُحِيطُونَ عِلْماً بذاتِهِ وَلاَ بِكَمَالِ صفاته، ولو كانُوا مِنَ المؤمنين الّذِين يَرَوْن رَبَّهُمْ يَوْمَ الدّين.

لأنّ رُؤيَتَهُمْ لربِّهم لا تُعْطِيهم أكْثَرَ مِنْ رُؤيَتِنَا للقَمَرِ ونَحْنُ في الأرض، فلا نُحِيطُ عِلْماً بذاتِ الْقَمَر وجَوْهَرِه، ولا بكثيرٍ من صفاته، إذِ الرُّؤيَةُ من بُعْدٍ لاَ تَسْمَحُ بأكْثَرَ مِنْ إدْراكِ بعْضِ الظواهِرِ الّتي تَشْهَدُها الأبْصار، وما تَدُلُّ علَيْه هذه الظواهرُ مِنْ صفات.

القضيَّة السابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ... ﴿١١١﴾﴾:

أي: وخضَعَتِ الْوُجوهُ وذَلَّت لِلَّهِ عزّ وجلّ الحيِّ القيُّوم.

«**الْحَيّ**»: اسْمٌ من أسْماء الله الحسْنَىٰ الأزليّةِ الأبَدِيّة، أي: الَّذِي لَهُ الحياةُ بلا أوّل، وبلا آخر، إذْ حياتُهُ جلّ جلالُهُ منفصلةٌ عن الزَّمان والمكان.

«**الْقَيُّوم**»: اسْمُ من أسماء الله الْحُسْنَىٰ، وهو القائم بكلّ شيء، والحافظ لكلّ شيءٍ، والمدَبِّر لكُلّ شيءٍ، والمتَصَرِّفُ بكلّ شيء.

وأرىٰ أنّ لفظ «القيُّوم» من صِيَغِ المبالغَةِ السماعيّة لاسم الفاعلِ «قائم» أي: البالِغُ بقيامِهِ بتدبير كونه، وتصريف أحداثِه بحكمتِه الْغَايَةَ الْقُصْوىٰ.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس:

﴿...وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾: أي: وقد خَسِرَ كُلّ شيء مَنْ جاء يوم الدّين حاملاً أوزار ظُلْمٍ من دَرَكَةِ الكُفْر. إذْ يكُونُ قَدْ خَسِرَ نَفْسَه، وتَسَبَّبَ لها بالعذاب الأبَدِيّ بسبَبِ كُفْرِه.

وأيُّ خُسْرانٍ أشَدُّ من أنْ يخْسَرَ الإنسانُ نفسه؟!.

الخيبة: هي في اللُّغَة الْخُسْران، وعَدَمَ تَحْقِيقِ السَّاعي مطْلُوبَ نَفْسِه مِنْ سَعْيه.

أمَّا ظُلْمُ الإنسان نَفْسَهُ من دُون الكُفْر، فَلا يَنْطَبِقُ علَيْه أنَّه قد خابَ خيبَةً كامِلَةً أبَدِيَّة، بلْ يكُونُ قَدْ عَرَّضَ نَفْسَه لعَذابٍ على مِقْدارِ مَعاصِيه، ولِخَسارَةٍ مِنْ دَرَجاتِ الجنَّةِ الَّتِي استَحقَّها مَنْ هُمْ أكْثَرُ مِنْهُ ارْتِقاءً فِي دَرَجاتِ مرتبَةِ التَّقْوَىٰ، أو دَرَجاتِ مَرْتَبةِ الْبِرّ، أو دَرجاتِ مَرْتَبَةِ الإحسان.

القضية التاسعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾:

أي: ومَنْ يَكُنْ مُؤْمِنا صَحِيحَ الإيمانِ وصَادِقَهُ، ويَعْمَلْ بعضَ الصَّالِحَاتِ، والحالُ أنَّهُ مُؤْمِنٌ فإنَّهُ يَوْمَ الدِّين لاَ يَخاف ظُلْماً ولاَ هضماً.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾: أي: لاَ يَخَافُ أنْ يُحْكَمَ عَلَيْهِ بذَنْبٍ لم يَرْتَكِبْهُ، ولاَ يخافُ أنْ يُعَذَّبَ علَىٰ ذَنْبٍ لَمْ يَرْتَكِبْه، لأنَّ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلْطانه ـ لاَ يظْلِمُ أحداً مثقال ذرَّةٍ ولا أصْغَرَ منها.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾: أي: ولا يَخافُ أنْ يُقَلّلَ الله عزّ وجلّ من ثوابه الَّذِي وعَدَ بِه السَّاعين الّذين يَعْمَلُونَ الصالحات ابتغاء مرضاته، والقاضي بأنْ تكونَ الحسنة بعشر أمثالها، وقَدْ يَصِلُ الثواب إلى سبعين ضعْفاً، وإلى سبعمائة ضعف، فإلىٰ أضعافٍ كثيرة.

يقال لغة: «هضَمَ فلانٌ حَقّ فَلاَنٍ» أي: نقصه حقَّهُ.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الرابع من دُروس السورة، والحمد لله على منحه ومعونته وتوفيقه، سائلاً من فضله المزيد من فيض عطائه.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (طـه) وهو الآيتان (١١٣ و١١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾:

القراءات:

(١١٤) • قرأ يَعْقُوب: [مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ] بضمير المتكلّم العظيم. باعتبار أنّهُ هو الآمِرُ جلّ جلالُهُ بالْوَحْي إلَيْه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ] بالفعل الذي لم يُسَمَّ فَاعله. أي: على لسان جبريل عليه السَّلام المأمُور بأنْ يُوحِيَ إِلَيْكَ بالقرآن.

تمهيد:

لدى التفكر في ارْتباط هذا الدرس بموضوع السورة نلاحظ ما يلي:

(١) بدأت السورة في الدرس الأول منها بالحديث عن القرآن في قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

(٢) واشْتَمَل الدَّرْسُ الثاني علىٰ مختاراتٍ من قصَّةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، وفيها أحاديثُ عن الآيَات الكلاميّة البيانيَّة الَّتِي أنزلَها الله عليه، ممّا اشتمَلَ علَيْهِ كِتَابُ الله التوراة.

(٣) وجاء في بداية الدرس الثالث من دُرُوس السُّورة الحديث عن القرآن بوصفه ذِكْراً، أي: لكلّ العالمين، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾.

وسبَق أن عرفنا أنّ الدّرْسَ الرابع يكاد يكون مع الدرس الثالث دَرْساً واحداً.

(٤) وجاء في هذا الدرس الخامس الحديث عن القرآن بوصفه عَرَبيًّا، مشتملاً على أنواعٍ مِنْ بيانات الوعيد، رغْبةً في أنْ يتَّقِيَ الْعَربُ عذابَ رَبّهم العادل، العاجِلَ منْهُ والآجل، أو يُحْدِثَ لهُمْ ذكراً ما، ولو لم يَصِلُوا فِيه إلى درجات التقوىٰ المطلوبَةِ منهم.

وجاء فيه تعليم الرّسُول محمّد ﷺ بأنْ لاَ يَعْجَلَ بتَرْدِيدِ ما يَنْزِلُ علَيْه مِنَ القرآن أثناء الوحْي، قبْلَ أنْ ينْتَهِيَ جبريل عليه السَّلام من تلاوة كامل النَّجْم القرآنِيّ الَّذِي يوحِي بِهِ إليه.

(٥) وجاء في الدرس السَّادِسِ الآتي بعْدَ هـٰذا الدَّرْس بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ حذَّرَ ذُرّيَّة آدم مُنْذُ بدْء التاريخ الأوّل للنَّاسِ في الأرض، من الإعْرَاضِ عن ذكره، أي: عمَّا يُنْزِلُ من آياتٍ بيّناتٍ ليَهْتَدُوا بها، ويَعْمَلُوا بما جاء فيها من أوامِرِه ونواهيه.

(٦) وجاء في الدرس الأخير من دروس السورة الحديثُ عن آيَات الله البيَانِيّة المنزلة، في مَعْرِض معالجة المشركين، بشَأْن ما طرحوه من مطالب.

فخطُّ الحديث عن القرآن كتابِ الله الخاتم، وما أنزله الله من آياتٍ بيانيَّة عَلَىٰ رُسُلِهِ قَبْلَ القرآن، لتكون ذكراً للنّاسِ مُنْذُ عَهْدِ آدم، خطٌّ مُتَّصِلٌ من ابْتداء السورة، فمُروراً بِدُرُوسها، وحتَّىٰ الدرس الأخير منها.

وهذا يكْشِفُ للمتدبّر عُنْصُراً مِن عناصِرِ وحْدَةِ مَوْضُوع السّورة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾:

في هذه الآية بيان ثلاث قضايا:

القضيَّةُ الأولى: دلّ عَليْها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذه الجملة معطوفة على قول الله عزّ وجلّ في الآية (٩٩): ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ... ﴿٩٩﴾﴾.

أي: ومِثْل ذَلِكَ الّذي قَصَصْناهُ عَلَيْكَ في القرآنِ من أنباء ما قَدْ سَبَقَ فِي التاريخ الإنساني، وهيَ قصَّةُ مُوسَىٰ التي جاءت في السورة، أنْزَلْنَا القرآنَ علَيْكَ يَا مُحَمَّد قُرْآناً عَرَبيًّا معجزاً، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين، ولَمْ نُنْزِلْهُ بِلِسَانٍ أعجميّ.

ولما في القرآن من حقٍّ وهدايةٍ وإعجاز، جاء التعبيرُ في الْجُمْلَةِ بضَمِير المتكلّم العظيم، ذي البيان العظيم.

القضيَّة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾:

التصريف: يأتي في اللّغَةِ بمعنَىٰ التَّنْويع والتَّغيير، واتّخاذِ مُخْتَلِفِ الوجوه المتاحَة، للوصُول إلى الغاية.

﴿فِيهِ﴾: أي: في آيات القرآن المجيد وبياناته.

﴿مِن﴾ بيانيّة، أي: وصَرَّفنا في القرآن تَصْرِيفاً مِنْ نَوْعِ الوعيد.

﴿ٱلْوَعِيدِ﴾: هو الإنْذار بالعاقبة السيّئةِ المؤلمة، جزاءً علَىٰ فعل الْعَمَلِ السَّيء الذي نهى الله عنه، أو علىٰ تَرْكِ العمل الصالح الذي أمَرَ الله عزّ وجلّ به أمْرَ إيجاب.

وجاءت العبارة بضمير المتكلّم العظيم لتربية المهابَة من وعيدِه جلّ جلالُهُ.

أي: ونوَّعْنَا في القرآن عباراتِ الوعيد، وأسَاليبَ الإنْذَارِ بالعذاب الأليم، العاجل والآجل، على الكُفْر بالله وبما جاء مِنْ عند الله، وعلىٰ معْصِيَةِ الله فيما أمَرَ به، أو نهىٰ عنه.

هذا التصريف في الوعيد الموجود في القرآن الكريم، يُدْرِكُهُ من يتْلُو أو يقرأ آياته وسُورَه، مع قليلٍ من التدبّر، إذْ معظم سُوَر القرآن مشتملة على صُورَةٍ أو أكْثَرَ مِنْ صُوَر الوعيدِ المخيف بعذابٍ أليم.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: أي: لعَلَّ العَرَبَ يَتَّقُونَ عذاب الله الذي جاء به الوعيد، بالْإيمان والْعَمَل الصالح، إذْ أَنْزَلَ الله القرآن بلِسَانهم، فهو واضِحُ الدَّلاَلَةِ بالنّسَبَةِ إليهم، وواضِحُ الإعجاز لإقناعهم بأنَّهُ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ الله رَبّ العالمين، مَعَ ما فيه من تَشْرِيفٍ وَذِكْرٍ حَسَنٍ لهم إذْ أنْزَلَهُ بلسانهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾: كلمة «لَعَلَّ» حَرْفٌ يَعْمَلُ عمَل: «إنَّ» وَمعناها التَّوَقُّعُ بوجه عامّ.

فإذا كان المتوقَّعُ أَمْراً مَرْغوباً فيه، أو مَرْضِيًّا عنه، كانت للتَّرَجّي.

وإذا كان المتوقَّعُ أمراً غير مَرْغوبٍ فيه، أو غَيْر مَرْضيّ عنْهُ، كانت للإشفاق.

وقد تأتي كلمة «لَعَلَّ» للتعليل كما يقولُ النحاة، فتكونُ مثل «لاَمِ» التعليل، نَحْو: آتنا غداءنا لعلّنا نُسْكتُ به جُوعَنَا ونُقَوّي بِهِ قُدْرَتَنا علىٰ السَّفر.

أقول: وحينَما تكون «لَعَلَّ» للتَّوقُّع، وَجاءَ هذا التوقُّع مَنْسوباً إلى الله عزّ وجلّ في النّصّ، فإنّ المرادَ به لازِمِهُ، أي:

- فإذا كان المتوقَّع مَرْغوباً فيه أو مَرْضِيًّا عنه، فإنّ المراد الدَّلاَلَةُ على أنّ الله عزّ وجلّ يَرْغَبُ في تحقُّق الأمْر، أو يرضى عنه، لكنَّهُ سبْحَانَه لاَ يُجْبِر، بمعنى أنَّه لاَ يَسْلُبُ المخيّرين لامتحانهم اختيارَهُمُ الحرّ، الّذي هو شرطٌ عقليٌّ لوضعهم في الحياة الدنيا مُمْتَحَنِين مُبْتَلَيْن.
- وإذا كان المتوقَّعُ أمْراً غَيْرَ مَرْغوبٍ فيه، أو غير مَرْضيّ عَنْهُ، فإنّ المرادَ أنَّ الله عزّ وجلّ يُشْفِقُ على من اكْتَسَبَه، لكنَّهُ سبحانه لاَ يُجْبِرُ أيضاً.

وهذا من إطلاق الملزوم وإرادة لازِمِه، وهو كثير في الاستعمالات العربيّة، والاستعمالات القرآنيّة، وهو من المجاز المرسل.

وبهذا ينْحَلُّ الإشكال الّذي شَغَلَ المفسِّرين في تأويل معنى «لَعَلَّ» الّتي هي للتوقّع، أو للتَّرَجي كما يقولون، إذ لَيْسَ من شأن الله سبحانَهُ أنْ يتَوَقَّعَ أو يتَرَجَّىٰ، وهو العليم بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون في المستقبل القريب، أو المستقبل البعيد.

فالمعنى الذي تَدُلُّ عليه العبارة القرآنية ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مع سابقتها: وصَرَّفنا في القرآن من الوعيد، راغِبينَ أو راضِين لهم أَنْ يتَّقُوا ليَحْمُوا أَنْفُسَهُمْ مِن عذابنا الذي تقتضيه صفة الْعَدْل.

ومعلومٌ من النُّصوص القرآنيَّة أنّ الله عزّ وجلّ يَرْضَىٰ لعبادِه أنْ يُؤْمِنُوا وَيَعْمَلُوا صالحاً، ولا يَرْضَىٰ لهم أَنْ يَكْفُرُوا وَيَعْمَلُوا أعْمالاً تُسْخِطُه، فيُجَازِيَهُمْ بِعَدْله.

﴿...أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾: أي: فإذَا لَمْ يَتَّقُوا مُبَاشَرَةً تَأَثُّراً بما صَرَّفنا في القرآن من الوعيد، فإنَّهُ يُرْضِينَا أَنْ يُحْدِث لَهُمْ ذِكْراً، بتلاوتِهِ عليهم، أو بإسْمَاعِهِم آيَاته.

والمعنى: أَوْ يُحْدِثُ لهم معْرِفَةً تَتَسَرَّبُ إلى أجْهِزَةِ تَخْزِين المعارف داخل نفوسهم، ثم قَدْ تُسْتَدْعىٰ هـٰذه المعرفَةُ عند مناسَبَةٍ داعِيَةٍ، أو مُثيرٍ ما، من خِزانَتِها إلى سَاحَةِ الذِّكْرِ لَهَا، في جهاز التَّذَكُّر الحاضر، فيكُونُ لهذا الذِّكْرِ أثرٌ حَسنٌ في نفوسِهِمْ، إِذَا خَلَتْ نفوسُهُمْ من الرَّفض الّذي كان عند أوّل تَلَقّي المعرفة، ومن مُعَارِضٍ قويّ يمنع من العمل بمقتضاها، كَهَوىً غالب، وكِبْرٍ حاجب، وشَهوةٍ عارمة، وتقْلِيدٍ أَعْمَىٰ، وعَصَبِيَّةٍ ضارِبَةٍ جذُورَها في أعماقِ النفس.

فذكْر هُدَى الدَّيان، عند خُلوِّ النفس من الْمُعَارض أو ضَعْفِه، يَدْفَعُ الإرادة إِلَىٰ الإيمان، ثم إلى الْعَمَلَ بما يُرْضي الرَّحْمٰن.

هذا أثر البيان الذي قَدْ يُحْدِثُ ذِكراً في نَفْسِ المتلقّي، فلْيَنتَفِعْ مِنْ هـٰذِه الوسيلَةِ عُلَماءُ النفس.

أطْلِقَ في العبارة لفظ «ذِكْراً» وطُوِي في داخله حلَقَاتُ السِّلْسِلَة السببيَّة التي تكونُ قبْلَه، وقَدْ تُؤَدِّي إلَيْه، ما لم يُوجَدْ لَها صَارفٌ أو مُعَارض.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ... ﴿١١٤﴾﴾:

الداعي لهذا البيان عن الله عزّ وجلّ مَا في سوابقه من بيانات عَنْ عظيم قُدْرَته وسُلْطانه في كونه، وجَليل حكمته في تراتيب جزَاءاته، ولهَذا جاء في صَدْر هذا البيان العطف بالفاء الدالة على الترتيبَ التفريعيّ.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾: أي: فَتَسَامَىٰ الله في اتجاه الْعلوّ عَنْ كلّ الأكوان، تسامياً لاَ حُدود له، ولا نهايَة له، فَهُو مُتَرَفِّعٌ عَنْ كلّ الصفاتِ الّتي لا تَلِيقُ بِجَلاَلِهِ وَعظيم سُلْطانه، ومُنَزَّهٌ عن الحاجة إلى شيءٍ ما، لذاته أو لصِفَاته.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: اسْمٌ من أسْمَاءِ الله الحسْنَىٰ، معْنَاهُ المالِكُ لكلِّ شيءٍ في الوجود، والمتَصَرِّفُ في عباده بالأمْرِ والنهي، والْخَلْق، والابتلاء والجزاء، وكُلِّ شَيْء.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: اسْمٌ من أسماء الله الْحُسْنَىٰ، أي: ذُو الْوُجُودِ الثابت الحْقّ، أزلاً بلا بدايَة، وأبداً بلا نهايَة.

الْحَقُّ في اللّغة: هو الأمْرُ الثابت الواجِبُ الَّذِي لا شكَّ فيه، وهو ضدُّ الباطل.

ومعنى كَوْنِ الله عزّ وجلّ هو الحقّ، أَنَّه هو المتحقِّق الثابتُ وجُودُهُ أزلاً بلا بدايَة، وأبداً بلا نهايَة، الذي لا يَتغيّر، ولا يَتَناقص، ولاَ يَعْرِضُ لذاتِه شيء، وكلُّ مَا عَدَاه مِنْ مَوْجوداتٍ فهي قَدْ وُجدَتْ بإيجادِهِ لها، وهي في الأصل عدمٌ وباطل، لَيْسَ لها في الواقع وجُودٌ، لولا أنْ قَدَّرَ الله وقضَىٰ إيجادَها، وأوْجَدَها خَلْقاً بأوامرِ التكوين.

وذكْرُ أسماء الله وصفاته في الْمَواقع الّتي ذُكِرَتْ فيها، هو مِنْ رَبْطِ الفروع بالْأُصُول، والجزئيَّاتِ الكونيّة بعناصِرِ القاعدة الإيمانيّة، إذْ هي أثَرٌ من آثارها، ومظاهر كونيَّةٌ لصفات الله المؤثّرَةِ في إيجادها، وفي التصاريف التي تجري فيها.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾:

هذه الآية مُلْحَقَةٌ بهذا الدّرْس، وقد استدعىٰ إلحاقَها به أمْران:

الأمْرُ الأول: الحديث عن القرآن في الآية السابقة (١١٣).

الأمْرُ الثاني: أنَّ الرَّسُول ﷺ عند تنزيل النجم الذي كانَ يُوحي به إلَيْه جبريلُ عليه السَّلام، وهو سوابق هذه الآيَة، صَارَ يَعْجَلُ بتِلاَوَةِ مَا تَلَقَّاهُ مِنَ الآيات ليَحْفَظَها، قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ جِبْرِيلُ النجْمَ الذي كانَ يُوحي به إليه. فاقتضىٰ الحال أن يُعَلّم الله رَسُولَه أدَبَ التَّلَقِّي والاسْتِماعِ من الْوَحْي، وهُو أن يَنْتَظِرَ فراغَ جبرِيلَ من إملاء ما جاء به من عند رَبّه لِيُمْلِيَهُ عليه، فإذا انْتهىٰ مِنْ إمْلاء النَّجْم كانَ للرسُول أنْ يَشْرَعَ بتلاوة ما تلَقَّاه من الوحي.

وقد سبَق أنْ نَزَل عَلَيْهِ التعليمَ بأنْ لاَ يُحَرِّكَ بالقرآنِ لسانَهُ ليَعْجَلَ به، في الآيات من (١٦ ـ ١٩) من سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ لَهُ فيها:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

فالتزم الرسول ﷺ بهذا التعليم امتثالاً لما جاء فيه، إلّا أنَّه لمَّا صارَتْ نجومُ التنزيل القرآنيّ تَنْزِلُ عَلَيْهِ أطْولَ ممَّا كانت تَنْزِلُ على ما يظهر، انْدَفَعَتْ نَفْسُه بحَرَكَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ دُونَ ملاحظةٍ للتعليم السّابق، فصار يتَعجَّلُ بتِلاَوَة مَا يُوحي إليه به جبريل عليه السَّلام، وربَّما ظنَّ أَنَّ النجم قَدْ تَمَّ إملاؤُه عليه، فأنْزَلَ الله عزّ وجلّ عليه عَقِبَ التَّعَجُّل قوله:

﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فعلَّم الله رسُولَه في هذا البيان أنْ يَنْتظِرَ حتَّىٰ يَعْلَم أَنَّ جبريلَ قد أنْهىٰ كامِلَ النَّجم الَّذِي يُوحِي به إلَيْه، وأنَّهُ فَرَغ من تَلْقِينهِ إيَّاه تماماً.

وفي إثبات هذا في القرآن دَلِيلٌ على أنَّ القرآنَ ليْسَ من كلام محمّد، بل هو تنزيل من عند الله، فلو كان من عنْدِه لمَا وجَّهَ لنفسه النَّهْيَ عَنِ التعجُّلِ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْهِ وحْيُه.

﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾: أي: ولاَ تُسْرِعْ بتلاوة الآيات الَّتي تَتَلَقَّاهَا مِنْ جِبْرِيل، وهو يوحِي إِلَيْك بالنَّجْم القرآني الَّذِي أمَرْنَاهُ بِأَنْ يُبَلّغَكَ إيَّاه.

يقال لغةً: «عَجِلَ، يَعْجَلُ، عَجَلاً، وعَجَلَةً» أي: أَسْرَع، وفَعَلَ الشيء قَبْلَ الوقْتِ الملائم لفِعْلِه.

﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أي: بتلاوة آيات الْقُرْآن الّتِي يُوحِي بها إلَيْكَ رسُولُ ربّك جبريل.

لفظ «القرآن» هو في الأصل مصْدَرٌ لِفِعْل «قَرَأ». يقالُ لغة: «قَرَأ الكتابَ، يَقْرَؤُه، قِراءةً، وقُرْآناً» أي: تتبَّعَ كلماته نظراً، ونَطَقَ بها.

وأطْلِقَ في الاصطلاح الدينيّ على الكلام المنزَّلِ من عند الله عزّ وجلّ، على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

وبعد الانتهاء من تنزيله، وجَمْعِه في عهد أبي بكر ، وكتابته في المصاحف في عَهْد عثمان ، وتوزيعها على الأقاليم الإسلاميّة الكبرىٰ حينئذٍ، صار يُطْلَقُ لفظ القرآن على الآيات والسُّور المكتوبة في هذه المصاحف، وعلى ما كان مطابقاً لها مَكْتُوباً أو مَتْلُوّاً، بالإضافةِ إلى التواتر في النَّقْل عن الْحُفَّاظ.

﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْهَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُ النجم على لِسَان أمينِ الوحي جبريلَ عليه السَّلام.

يقال لغة: «قَضَىٰ إلَيْهِ أمْرَهُ» أي: أَنْهَاه إليه.

الْوَحْي: يَدُلُّ في اللّغة على «الإشارة السّريعة - والإلهام - والكلام السَّرِيع الخفيّ - وإلْقَاءِ المعنىٰ في القلْب - والكتاب».

والوحيُ للأنبياء والرّسل: ظاهرةٌ مَعْرُوفةٌ في تاريخ النُّبُوَّاتِ والرِّسَالاَت، وهو الإعلام السَّريعُ الخفيُّ، الّذي يقومُ به رسُولُ الوحْيِ من الملائكة بلاغاً عن ربِّ العالمين.

وقد سبَقَ أنْ طَمْأَنَ الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ بأنَّهُ سَيُقْرِئه، ويَجْعَلُهُ بقضائه وقَدَرِه لاَ يَنْسَىٰ، فقال لَهُ في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

ومن شأن هذا البيان أن يَسْتَسْلِمَ الرَّسُولُ ﷺ لرَبِّهِ اسْتِسْلاماً كاملاً، إلّا أنَّ بَشَرِيَّتَهُ قَدْ تَنْزِعُ في داخِلِه أَنْ يكُونَ حَرِيصاً عَلَىٰ تَلَقِّي الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، فيَعْجَل بتلاوة مَا يُوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ، حِرْصاً على اكْتِسَاب الْعِلْم.

فَنَهَاهُ الله عن التعجُّل، وأمَرَهُ بأنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّه أَنْ يَزِيدَهُ عِلماً، لئلّا يَتَوَهَّمَ مِنْ نَهْيِهِ عَنِ التعجُّلِ، أنَّ المرادَ كَفُّهُ عن الانْدِفاعِ بحِرْصٍ للاسْتِزَادة من الْعِلْم، ولمَّا كانت الاستزادة من الْعِلم فضيلَةً عظمىٰ، كان من الواجب عليه أنْ يسْأل رَبَّهُ دواماً، أن يَزِيدَه علماً فجاء في ختام الآية قولُ الله عزّ وجلّ لَهُ:

﴿... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الخامس على ما فتح الله به، والحمد لله على منّتِهِ، ومعونته، وفضله.

❁ ❁ ❁

(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (طـه) وهو الآيات من (١١٥ ـ ١٢٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ

لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

القراءات:

(١١٦) ● قرأ أبو جَعْفَر: [**لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا**] بضمّ التّاء مراعاة لضمّ جيم «اسْجُدُوا».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُوا**] بكَسْرِ التاء على الأصل.

(١١٩) ● قرأ نافع، وشعبة: [**وَإِنَّكَ لاَ تَظْمأ**] بِكَسْر همزة «إنّ» عطفاً على: [**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ**] عطفاً على «أنْ» من [**أَلاَّ تَجُوعَ**] **أَلاَّ**: هي «أنْ لاَ» أُدْغِمَتِ النون بالّام فصارَتْ لاَماً مُشَدَّدَة، ورُسِمَتْ في الكتابة «ألّا» مراعاةً للنطق.

(١٢٥) ● قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأبو جَعْفر: [**حَشَرْتَنِيَ أَعْمَىٰ**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حَشَرْتَنِي أعْمَىٰ**] بإسْكان الياء مع مَدّ الياء مدّاً منْفصلاً في الوصل.

تمهيد:

سبَق في الملْحق الرابع لتَدَبُّر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تدبُّر النّصوص القرآنيّة الّتي جاء فيها لقطاتٌ مُتَفَرّقَاتٌ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ آدم وما رافقه من أحداث، ضِمْن تَدَبُّرٍ تكامليّ. وظهرَ لَنَا أنَّ النصوص المتفرّقة تتداخَلُ فيما بَيْنَها تَدَاخُلاً تَكامليًّا، كتشبيك أصابع عَدَدٍ من الأيْدِي بمقدار عَدَدِ النُّصوص، تَشابكاً تكامُلِيًّا، وبتَشَابُكِهَا جَمِيعاً تَكْتَمِلُ الْقِصَّةُ المرادُ بيانُها في القرآن المجيد.

وهذا النصّ الوارد في هذا الدرس من دُروس سورة (طه) واحدٌ من هذه النصوص، ولهذا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّر فقراتِ هذا الدرس، دُونَ بَسْطِ النظرة التكامُلِيَّةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ النُّصوصِ الأخرىٰ الواردة حَوْل ما جاء فيه، وأَقْتَصِرُ على ما تَدْعو الحَاجَةُ إلى ذِكْره.

وصِلَةُ هذا الدرس بما سبَقَهُ من دُروس السورة، مَا جاء فيها مِنْ بيان وجوب طاعَةِ الله عزّ وجلّ فيما يُنْزِلُ على عباده من ذكْر، ليَعْمَلُوا بأوامره ونواهيه، كما سبَقَ بيانُه، والتحذير من الإعراضِ عنه إذْ يَحْمِلُ بسَبَب إعراضِه عنه يوم القيامة وزراً، مع بيان أمْثِلَةٍ تاريخيَّة تتضمَّن أن الذين أعْرَضوا عن ذكْرِ الله لهم، عوقبوا عقاباً شديداً في الدُّنيا، ولعذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقَىٰ.

ومن الأمثلة التي سبَقَ بيانُها في السورة، ما نزَلَ بفِرْعَوْن وملئِهِ وجنودهم، بسَبَب إعراضِهم عن الذّكْر الّذي بلَّغَهُمْ إيَّاه موسىٰ وهارُونُ عليهما السَّلام، ومَا نزل بجمهور بني إسرائيل في التيه، إذْ أعْرَضُوا عن ذكر الله لهم، باتّخَاذِهم العجل، وما نزل بالسّامِرِيّ، من عقابٍ رَبَّانيّ.

وفي هذا الدّرس السادس إلماحٌ إلى عقاب الله عزّ وجلّ لإبليس إذْ أدْبَر وتولّىٰ عن ذكْرِ الله المتضمّن أَمْرَهُ لَهُ بأن يسْجُد لآدم، وإلْمَاحٌ إلى

إخراج الله آدم وزوجه من الجنَّة وإهباطهما إلى الأرض، إذْ أعْرَضَا عن ذكْرِ الله لَهُمَا، المتضمّنِ نهْيَهُما عن أنْ يأكُلاَ من الشجرة المعيَّنَةِ لامتحانهما في الجنة. وتَصْرِيحٌ بِشِدَّةٍ سَبَقَ أَنْ وُجِّهَ لِذُرِّيَّةِ آدَمَ، وفيه تحذيرٌ شَدِيدٌ لهم من الإعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ الله.

فَخطٌّ وُجُوب المحافَظَةِ على ما يُنْزِلُ اللَّهُ لعبادِه من ذِكْرٍ، ولَوْ كَانَ آيَةً واحِدَةً قَصِيرَةً، وعَدَمِ الإعْرَاضِ عنْهُ، خَطٌّ مُمْتَدٌّ مِنْ أوَّلِ السُّورَةِ، ومَارٌّ عَبْر دُرُوسِها حتَّىٰ الدَّرْسِ الأخير منها.

التدبُّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

هذه الآية من قصّة آدم عليه السَّلام في هذا الدرس معطوفةٌ علَىٰ اللَّقَطات المختاراتِ في الدَّرْسِ الثاني من دُرُوسِ السُّورة، من قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلام ومَنْ أُرْسِلَ إليهم.

وفي هذا العطف أيضاً معنى اشتراك بعْضِ ما تضمَّنَتْهُ قِصَّةُ آدم هنا، وبعْضِ ما تضمّنَتْهُ الدُّرُوس السابقة في السورة، من النَّهْيِ عن الإعراض عن ذكْر الله والتَّحْذِير منه.

وجاء في آخر هذه اللّقطات المختاراتِ من قصّة آدم بيان جزاء مَنْ أعْرَضَ عَنْ ذكْر الله الَّذِي أنزل لذُرِّيَّة آدم الأوّلين.

فاكْتَمَلَتْ وَشائِجُ الرَّبْطِ بيْنَ دُرُوسِ السورة.

وجاء التوكيد هنا بحرْف التحقيق «قَدْ» وباللّام الّتي يُعْرِبُها بَعْضُ المعْرِبين بأنَّها مُوطِّئَةٌ للقَسَم، كاللّام في «لَئِنْ» والغرض من هذا التوكيد مراعاة أحْوَالِ المرادِ تَحْذِيرُهم من الإعراض عن ذِكْرِ الله لعباده، إذْ أحوال

معظم هؤلاء تحتاجُ إلى مؤكّدات، فَهُمْ مُعْرِضونَ فِعْلاً، وغَير مُسَلِّمين بأنّ عقاب الله سينزل بهم إذا اسْتَمَرُّوا على إعراضهم، فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إلىٰ أَمْثِلَةٍ تاريخيَّةٍ مُؤكَّدَة، تَتَضَمَّنُ عِقَابَ الله الشَّدِيدَ للمعرضين عن ذكر ربّهم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾:

العَهْدُ: «الوصِيَّة، ورِعايَةُ الْحُرْمَة، وكلُّ ما أمر الله به أو نهىٰ عَنْه».

والْعَهْدُ بَيْنَ الله عزّ وجلّ وبَيْنَ عباده المكلّفين الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، هو أن يَعْبُدُوهُ ولاَ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شيئاً، وأَنْ يجازيَهُمْ بالفضل إذا آمنوا وعَمِلُوا الصالحات خالدين في جنَّات النعيم، وأنْ يجازيهم بالْعَدْل إذا أعْرَضوا عن الذكرِ الَّذِي جاءهم من ربّهم، فالكافرونَ يُعَذَّبُونَ في النار يوم الدِّين خالِدِين فيها أبَداً، والعُصَاةُ مَعَ إيمانٍ صَحيحٍ يَسْتَحِقُّونَ مِنَ العذاب على مقادير مَعَاصِيهم، ثمّ يكون مَصِيرُهُمْ إلَىٰ الجنَّة بإيمانِهِم خالِدِينَ فيها أبداً.

﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ كُلِّ مَنْ عَهِدَ الله إلَيْهِ مِنَ الْبَشر.

ولدَى التفكُّر في الْعَهْدِ الّذِي أبْلَغَهُ الله إلَىٰ آدمَ عَقِبَ خَلْقِهِ لا نَجِدُ غير مجَالَيْن:

المجال الأوّل: مجال الْعِلْم، والْعَهْدُ في هذا المجال يكونُ بتكْلِيفِهِ أنْ يُحافظَ علىٰ ما عَلَّمَهُ الله إيّاه، إذْ عَلَّمَهُ أسْمَاءَ مَا عَرَضَهُمْ عَلَىٰ الملائكة، أي: عَلَّمَهُ صفاتهم والألْفَاظ الكلاميّة التي تدلُّ على كلٍّ منهم.

ولمَّا ظَهَرَ فَضْلُه عليهم في مباراة المعْرِفَة، أمَرَهم بالسُّجود لَهُ سُجُودَ احترام وتَكْرِيم، تنفيذاً لِمَا كان قَدْ أمرهم به بقوله لهم، كما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ومحافظتُه على ما عَلَّمه رَبُّه تكُونُ باستذكارِه آناً فآناً حتَّىٰ لا يُمْسَحَ مِنْ ذاكِرَتِه، لَكِنَّ آدَمَ تَرَكَ استِذْكارَ مَا علَّمَهُ الله إيَّاه، فكانَ مِنْ نتائِج هذا التَّرْكِ بُمْقَتَضىٰ سُنَّةِ الله في النَّاسِ أَنْ يُمْسحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ كثيرٌ منه.

أصل معنى «النِّسْيَان» التَّرْك، ويتولَّدُ عَنْه في سُنَّةِ الله «النِّسْيَانُ» بمعنَىٰ الْمَسح مِنَ الذَّاكِرَة.

هذا الأمْرُ قَدْ دَلَّ علَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في الآيَةِ ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فترَكَ المحافَظَةَ علَىٰ مَا عَلَّمَهُ الله إيَّاهُ، فَمُسِحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِ قِسْمٌ كبيرٌ منه، وبهذا نُدْرِكُ أنّ عَبارَة «فَنَسِيَ» اسْتُعْمِلَتْ بمعنى التَّرْكِ وبمعنى الْمَسْحِ مِنَ الذَّاكِرَة، للْعِلْم الذي علَّمه الله إيَّاه.

المجالُ الثاني: مجالُ السُّلُوك، وعَهْدُ الله لآدم في هذا المجال قَدْ كَانَ بتَكْلِيفِه أنْ لاَ يأكُلَ من الشَّجَرَةِ الّتي ابتَلاَهُ الله بالنَّهْي عن الأكْلِ مِنْها، إذْ أدْخَلَهُ الله الجنَّةَ وأدْخَلَ زَوْجَهُ إدْخَالَ امتحانٍ لا إدْخَال جزاء.

لكنَّ آدَمَ سقط في الامتحان، إذِ استجابَ لوساوس إبليس الشيطان، وانْخَدَعَ بإغراءاتِه وتَسْويلاتِه.

ودَلَّت النصوص القرآنيّة علىٰ أنّ إبلِيسَ لَعَنَه الله، قد اتَّخذَ مخْتَلِفَ الوسائل الإغرائيَّة، حتَّىٰ دَلَّاهُ وزَوْجَهُ في بئر المعْصِيَةِ شيئاً فشيئاً، إلىٰ أن أوْصَلَهُما إلى التَّجَرُّؤِ علىٰ الأكْلِ من الشجرة الّتي حَرَّمَ الله عَلَيْهِمَا في امتحانِهما أن يَأْكُلاَ منها، فلمَّا ذَاقَاهَا بَدَتْ لَهُما سَوْءَاتُهُما الْجَسَدِيَّة، وانْكَشَفَتْ سَوْءاتُهُما النَّفْسِيَّة، فَغوى آدم وغَوَتْ زَوْجُه، بالمعْصِيَةِ لله عزّ وجلّ كما قال الله عزّ وجلّ في الآية (١٢١) من هذا النصّ، الذي نتدَبَّرُه: ﴿... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

ودَلَّت مَعْصِيَةُ آدم بالأَكْلِ من الشجرة المحرَّمَةِ تأثُّراً بوساوس إبليسَ الشيطانِ وتَسْويلاته، علَىٰ أنَّهُ لم يَكُنْ ذا عَزْم.

العزم: الإرادةُ الْقَوِيَّةُ الّتِي لاَ تَسْتَجِيبُ لمؤثّراتِ أشَدِّ المغريات، ولاَ تَضْعُفُ مع المصائب الكُبْرَىٰ، الّتي تحتاجُ إلى صَبْرٍ عظيم.

ولم يكن آدم حين معصيَتِه نبيًّا معْصُوماً، لكنَّهُ هو وزوجُهُ اعْتَرفا بِمَعْصِيتهما، واستغفرا من ذَنْبِهِمَا، وتَابَا إلى بارئهما.

وبَعْدَ حينٍ اجتبَىٰ اللهُ آدم فجعَلَهُ نبيًّا ورسُولاً إلى ذُرِّيَّتِهِ.

والتكليف في هذا المجال هو ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآيةِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نَجِدْ له إرادة قويَّة لا تَستجيبُ للمغْريَات، ولا تَضْعُفُ أمام المصائب الشديدة.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي لِبيانِنَا هٰذا الحدَثَ الذي جرىٰ في وقت قَوْلِنَا للملائكة اسْجُدُوا لآدم.

وقد عَلِمْنَا من جَمْعِ النصوص، ومن النظر إلىٰ التكامُلِ فيما بَيْنَها أنّ هذا الحدث جرَىٰ بَعْدَ المبَارَاة بالعلم، الّتي أجراها الله عزّ وجلّ بيْنَ الملائكة وبَيْنَ آدم، وتفوَّقَ فيها آدمُ إذْ سَبَقَ أن علَّمَهُ الله الأسماء كلَّها، أي: الصفات، والألفاظَ الدالَّة على المعروضات علىٰ الملائكة.

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: **السُّجُود**: هو في اللُّغَةِ إحْناءُ الظَّهْر، والتَّطامُن، وغايَتُه تكونُ بوضْعِ الْجَبْهَةِ علىٰ الأرض. وهو في الاصطلاح الشرعي، يكونُ بوضع الجبْهَةِ على الأرض مع الكَفَّيْن والرُّكبَتَيْن والقدَمَيْن.

وهذا السُّجُودُ الذي أمِرَتْ به الملائكة، وأُمِرَ به إبْلِيسُ المنْدَسُّ فيهم نفاقاً، هُوَ سُجُودُ احترامٍ وتكْرِيمٍ، لا سُجُودُ عبادة.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾: أي: فَسَجَدَ الملائكَةُ كلُّهم أجْمَعُون ما

جاء في نصّ سورة (ص). أمّا إبْلِيسُ فلم يكُنْ من الملائكة، لَكِنَّ الأمْرَ بالسُّجُودِ لآدم قد كانَ مُوجّهاً له أيضاً، إذْ كان مُنْدَسًّا فِيهم كواحِدٍ منْهم، وشاءَتْ حِكْمَةُ الله أَنْ يَكْشِفَ نفاقَهُ، فلَمْ يَسْجُدْ مع الملائِكَةِ كما سَجدوا، بل أبَىٰ أنْ يَسْجُدَ بعنادٍ وإصْرَارٍ واسْتكبار.

«أَبَىٰ»: أي: «رَفَض، وكَرِهَ، ولَمْ يَرْضَ، واستَعْصَىٰ». يقال لغة: «أَبَىٰ عَلَيَّ، يأبَىٰ، إبَاءً، وإبَاءَةً». وكلُّ معاني «أَبَىٰ» مُنْطَبِقَةٌ علىٰ إبْلِيسَ، ودَلَّتْ محاكَمَةُ اللهِ له على إصراره، وعناده، وشِدَّةِ رَفْضِه، وكُفْرِهِ بإلَهِيَّةِ الله مع إيمانِه بِرُبُوبيَّته.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

دَلَّت الفاء الّتي هي في اللُّغة للتَّرْتيبِ مع التعقيب، عَلىٰ أن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ قد كان عَقِبَ إبَاءِ إبليسَ وإصْرَارِه بعنادٍ شديد، أَنْ يُطِيعَ الله في السُّجود لآدم، أو يَسْتَغْفِرَ مِنْ مَعْصِيَتِه.

ولا بُدَّ أنْ نَفْهَمَ أنَّ هذا الإباءَ يُرَادُ بِهِ الإباءُ الذي استَقَرَّ عَلَيْه إبْلِيسُ، بَعْدَ آخِرِ جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسات مُحَاكَمَةِ الله له، والذي اسْتَقَرَّ بناءً عَلَيْه حُكْمُ الله عليه بالإخْرَاج والإهْبَاطِ والطّردِ، والحكْمُ علَيْه باللَّعْنَةِ الدائمة، والحكمُ عليه وعلَىٰ مَنِ اتَّبَعَهُ بأنَّ جَهَنَّمَ جزاؤهم جزاءً موفوراً، على مقْدَارِ وَفْرَةِ كُفْرِهِمْ وجَرَائِمِهم وأنواع طغيانهم.

لَقَدْ حذَّر الله عزّ وجلّ آدم وزوجَهُ الّتي اشتَقَّها من ضِلَعٍ مِنْ أضْلاَعِه، من مكايد إبليس، وأبان لآدَمَ أنَّهُ عَدُوٌّ له ولزوجِهِ، لأنّها في تكوينها جزءٌ مستخرجٌ منه، فَعَداوة إبليس له تَسْرِي إلَىٰ زَوْجِه، وفي بعض النصوص الأُخرَىٰ، أَبَانَ الله عزّ وجلّ عداوة إبْلِيسَ لآدم ولكلّ ذُرِّيّته.

وظاهِرٌ أنَّ الْعَدُوَّ الَّذِي كانَتْ عداوتُه بِسَبَبِ أُمُورٍ أَفْضَتْ بِهِ إلى

الْعَذَاب الخالِدِ في الجحيم، لا يُرِيدُ بِعَدُوِّه إلَّا السُّوءَ والشَّرَّ، والمصير الأبَدِيَّ في العذاب، لينَالَ مثْلَ عذابِهِ، أَوْ أشدَّ مِنْ عذابه.

﴿... فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾:

يَدُلُّ هذا البيان على وجود مطويٍّ مَحْذُوف، وهو أنَّ الله عزّ وجلّ وعَدَ آدم أنْ يُدْخِلَهُ وزَوْجَهُ الجنَّةَ دُخُولَ ابْتِلاَءٍ، لا دخول جزاءٍ وبقاء، ويُمكِنُ تَقْدِير المحذوف بنَحْو ما يلي:

وقُلْنَا: يا آدَمُ سَنُدْخِلُك وزوجَكَ الجنّةَ دُخول امتحانٍ وابتلاء، فإذا دَخلْتُمَا فيها فَلاَ تُمَكّنَا إبْليسَ مِنْ إغوائِكُما، وإيقاعِكُما في معصية ربّكُما، فَيَتَسَبَّبَ فِي إخراجِكُما من الجنَّةِ عُقُوبةً لكما، وعندَئذٍ تتعَرَّضُ يا آدم لتَحَمُّلِ الشقاء ومَتَاعِبِهِ في الحياة عَلَىٰ الأرض، أي: وتَتَحَمَّلُ زَوْجُكَ وذُرِّيَّاتُكُمَا فيه مِثْلَ ذَلِك.

وفي هذا إعلامٌ ضِمْنِيٌّ: بأنّ معصيَتَهُما لأوامر الله ونواهِيه وهما في الجنة مُمْتَحنان، عقابُهُ الإخراجُ مِنْها إلى الأرض.

الشقاء: يُطْلَقُ عَلَىٰ كلّ مَا لاَ يَسُرُّ الإنسانَ من أمور، وعلىٰ ما يُخَالِفُ رغْبَته ومطلوبهُ، من أدنَىٰ المكارِه إلىٰ أشدّ المؤلمَات.

والمرادُ بالشقاء في الحياة الدنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعِبِ الكَدِّ والكَدْحِ في العمَل لاكتِسَاب الرزْق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسْقَامِ، وتحَمُّلِ مكاره القلَق والخوفِ والهمّ والحزْن ونحو ذلك.

ولمَّا كانَ الرَّجُلُ هو المسؤول الأوّل عَنْ كَسْبِ رزْقِهِ ورزْق أسْرَتِه على ظهر الأرض، قال الله عزّ وجلّ خطاباً لآدم: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يَقُلْ لَهُ فتَشقَيَا، أي: فسَتُضطر لأنْ تكونَ الأكْثَرَ تحمُّلاً لعناءِ الكَدّ والكَدْحِ في الْعَمَل، لاكْتِسَابِ رِزْقِكَ، وَرِزْقِ أُسْرَتِكَ.

وأبان الله عزّ وجلّ لآدم ميزة بقائِه في الجنَّةِ إذا حافَظ على طاعة الله فيها، وتُلْحَقُ بِهِ زَوْجَتُهُ، فَلَمْ يَعْصِيا رَبَّهما بالأكْلِ من الشجرة المحرَّمة، فقال له ما جاء بيانه في الآيتَيْنِ التاليَيْن:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾:

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي: وَلاَ يمَسُّكَ فيها حرُّ الشّمس. يقال لغة: «ضَحِيَ، يَضْحَىٰ، ضَحْواً، وضُحُوًّا، وضُحِيًّا، وَضَحاً» أي: أصابَهُ حَرُّ الشمس.

إنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَسْكُنَ الجنَّةَ الخالِيَةَ مِنْ عوامِلِ الأوْجاعِ والأسْقام، مع زوجَتِه الّتي يَسْكُنُ إليها، ويَأْنَسُ بها وتأنَسُ به، لا يكونُ لَهُ من مطالِبِ العيشِ السَّعيد الرغيد، إلّا المطالبُ الأساسيّة الأربعة، الّتي ذكرها الله له:

المطلب الأول: أنْ لاَ يجوع، وهذا متحقّق في الجنَّة، فالطعامُ فيها وفيرٌ لاَ يَنْفد، مع ما فيها من فاكهةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة.

المطلب الثاني: لا يَعْرَىٰ، ولاَ يَتَعَرَّض لمكْرُوه الْعُرْي وأذاه، وهذا متحقّقٌ في الجنَّة، فاللّباسُ الفاخِرُ الفارِهُ في الجنَّة كثير، من سُنْدُسٍ وإستَبْرَق.

المطلب الثالث: أنْ لاَ يظمأ، وهذا المطلب متحقّقٌ في الجنّة، فالماء وأنواع الشراب اللّذِيذ الأخرىٰ أنْهُرُ عظيمة جاريَةٌ لا تَنْقَطع، ولاَ تَنْفد.

المطلَبُ الرابع: أنْ لا يضَحىٰ، فَلا تَمَسَّهُ فيها حرارة أشِعَّةِ الشمس، إذ الجنَّةُ ظِلٌّ ظَلِيلٌ دائم.

ونَفْيُ التأذِّي بحرارة الشَّمْس يَدُلُّ على نَفْي التأذِّي بالْبَرْدِ عَنْ طريق

اللُّزوم الذهْنِي، وقَدْ جاء في القرآن التَّصْريح بأنه ليْسَ في الجنَّة زمْهَرِير، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأْن أصْحَاب الجنَّةِ:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: لا يَرَوْنَ فيها شمْساً ولا يَجِدُونَ فيها زمْهَرِيراً.

الأرائِك: المقاعدُ المنجَّدَةُ الوثيرة، مفردها: «أَرِيكَة».

هذه المطالب الأربعة هي قُصْوىٰ مطالب الجسَدِ الأساسيَّةِ مع الزوجة في حياة الامتحان، وقَدْ سبَق أن عَلِمْنَا أنّ دُخول آدم وحوّاء الجنَّةَ، قَدْ كان دخول ابْتِلاَء لاَ دُخُولَ جزاء وبقاء.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: **الوسْوَسة**: هي في اللُّغَة الصَّوْت الخفيُّ. **والوسْوَسَة والوِسْوَاسُ**: حديث النّفْس.

ووساوسُ الشيطان الذي يجري من ابن آدم مَجْرَىٰ الدَّم، تأتي على صورة خواطر تُزَيّنُ فِعْلَ الشَّرِّ والإثم، لحَمْلِ الإرادة علىٰ التَّنْفِيذ.

ولا نَدْرِي كيْفَ وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إلىٰ آدم، وقد يكون قَدْ ظَهَرَ لَهُ بِصُورَةِ مَلَكٍ من الملائكة، أو بصُورَةِ جِنِّيٍّ من الصالحين، أوْ غَيَّرَ مِنْ شكله تَنَكُّراً.

ويظهر أنَّ مَا تضمَّنَهُ هذا النصّ هو بدايَةُ الْحَرَكَةِ الكيْدِيَّةِ الإغرائيَّة، من إبْلِيسَ الشَّيْطَانِ بالوسْوسَة، الّتي اتَّخذَتْ أسْلُوباً غيْرَ مُباشِرٍ، حتَّىٰ تَصِلَ

إلى مراكز التأثير في نَفْسِ آدم، بدليل استخدام حرف الجرّ: «إلَىٰ» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. حرْف الجر: «إلَىٰ» يَدُلُّ علَى بُعْدِ مَا بَيْنَ بَدْءِ الحركَةِ والْوُصُول.

لكنَّ إبليسَ لمّا رَأى أنَّه اقترب من نفس آدم وزَوْجه، بَدَأَ يُوسْوس لهما، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

فدَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ إبليس لَعَنَهُ الله صار يوسوس لآدم وزوجه بأسْلُوبِ مباشر، إذ جاء فيها استعمال حرف اللّام في: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ وجاء فيها أنَّهُ صَار يُوَسْوِسُ لَهُ وَلِزَوْجِهِ معاً.

وأطْلَقَ الله عزّ وجلّ على إبْلِيس وَصْفَهُ الجديد «الشيطان» المأخوذَ مِنْ فِعْلِ «شَطَنَ» بمعنى: «بَعُد» والمأخوذ مِنَ الشدّ بالشَّطَن، وهُوَ الحبْلُ الّذي يُدَلَّىٰ بِهِ الدَّلْوُ إلى أسْفَلِ البئر. وقد استحقَّ إبْليس هذا الاسْمَ الوصْفِيَّ الجديد، إذْ قَدْ هيَّأَ نَفْسَه للإغراء والإغواء، والإضْلاَلِ عن صراط الله المستقيم، وممَّا لاَ شَكَّ فيه أنّ إبْلِيسَ قد صار بذلِكَ بَعِيداً بُعْداً سحيقاً عن الحقّ والخير والهُدَىٰ، مطْرُوداً من دائرة رحْمَةِ الرَّحْمٰنِ الواسعة، وصَارَ مُبعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم، بوساوسه وتسويلاته، وهو يتَّخِذُ حبائل كثيرةً يُدَلِّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتَّىٰ حَضِيضِ الكُفْرِ بالله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانه.

وحين تكونُ الدَّعْوَة إلى الإثم والعصيان وسْوَسَةً في الصَّدْرِ من مُحَدِّثٍ غَيْرَ مَرْئيّ، فإنَّ الإنْسَانَ يَشْعُرُ بأنَّها مِنْ قبيل حديث نَفْسِه لذاته، وهذا أَدْعَىٰ إلى الاستجابَةِ والانْدِفاع إلى ما تَدْعو إليه الوسْوَسة.

• ﴿... قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

دلّت هذه الآية على أنّ إبليسَ الشيطان بدأ يتّخِذ أسْلُوب الاستدراج بخُبْث، فتجاهَل أنَّه يعْلَمُ أنّ الله عزّ وجلّ نَهَىٰ آدم وزوجَهُ عن أن يأكُلاَ مِنَ شجرة خاصَّةٍ عَرَفَها إبليس لامتحان طاعتهما، فقدَّمَ إغراءه لآدم بأسلوب العرض عن طريق الاستفهام: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾؟ وأوْهَمَهُ أنّه لاَ يَعْلَمُ شيئاً عن قضيّة الشجرة المحرَّمة عليه وعلى زوجه، وأنَّه خالي الذّهْنِ تماماً، وأنَّه حريصٌ على نُصْحِه، فَهُوَ أسْبَقُ مِنْه وجوداً، وأعْلَمُ بحقائِق كثير من الأمور، وبصِفَاتِ بعض الأشياء وخصائصها، وأغراه بالْخُلْدِ في الجنَّة، بحياةٍ أبَدِيَّةٍ دائمة لا تنقطع، مع نعيم عظيم ومُلْكٍ لاَ يبْلَىٰ وَلاَ يفنىٰ.

أمّا الخلْدُ فبتأثير عُنْصُر أو مجموعَةِ عناصر تشتمل عليها شجرة الْخُلْد، وسَمَّاها إبليسُ شَجَرَةَ الْخُلْدِ قَبْلَ أنْ يَدُلَّ آدمَ عليها، لإشعاره بأنَّ هذا الاسم الوصفيَّ هو اسْمُها المعروفُ عِنْدَ أَهْلِ الملأ الأعْلَىٰ، وهي شجرةٌ من أشجار الجنّة.

ومعلومٌ أنَّ النَّفْس الإنسانيَّةَ متَىٰ تعلَّقَتْ بمجْهُولٍ فيه مطْلَبٌ عظيمٌ من مطالب النفس، أخَذَتْ تَغْلِي مراجِلُها للتعرُّف عليه، والوصول إليه، واستعمالِه لتحقيق مطْلُوبها العظيم.

وهذا هو أسْلُوبُ التشويقِ للرَّبْطِ والإزلاَق.

وأمَّا الْمُلْكُ الّذِي لا يَبْلَىٰ، أي: لا يَفْنَىٰ ولاَ يَهْتَرِىءُ كَمَا تَبْلَىٰ الثيابُ، فهو فيما يظْهَرُ إغراؤُه بِسُلْطَانٍ دائِم على ذُرّيَّاته الّذين يَتَنَاسَلُونَ منْهُ فيها، بَعْدَ أنْ يأكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْخُلْدِ فيكُونَ مِنَ الخالدين، وإغراؤه بسُلْطانٍ دائمٍ علَىٰ أهل الجنَّة وسُكّانها من غيْرِ ذُرّيَّاته.

بعْدَ هذا التشويقِ والتعليقِ للرَّبْط والإزلاَقِ، لا بُدَّ أنْ يكون آدمُ قد

قال لإبليس: نَعَمْ، دُلَّنِي عَلَيْها. ولٰكنَّ النصّ سكَتَ عن هذا إيجازاً.

وهنا جاء دَوْرُ إبْليسَ في إلْهَاب أشْوَاقِ آدَم للتعرُّفِ علىٰ شَجَرَةِ الخلْد، ومع لهيب الشَّوْق يحْصُلُ في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطان هوىٰ، لَكِنَّ هٰذِه الأطوار قَدْ طواها القرآن، لإمكان التَّوَصُّلِ إليها بالتَّدَبُّرِ والتفكير العميق.

ونُدْرِكُ أنَّ إبليس اللّعين، لمَّا وجَدَ الحالة النفْسِيَّةَ لَدَىٰ آدَمَ مُلائِمَةً لتَعْرِيفِه بالشجرة الّتي سَمَّاها لَهُ «شجَرَةَ الْخُلْد» مع أنَّها في الحقيقة شَجَرَةُ الطَّرْدِ والإخراجِ من الجنَّة.

ولمَّا عَرَّفَهُ بِهَا وَهِيَ قَرِيبةٌ مِنْه، قالَ آدم لإبليسَ: لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا عَنْ أنْ نَأكُلُ مِنْها، فإذا أكَلْنَا مِنْها كُنَّا مِنَ الظَّالِمِين لأنْفسِهِمْ بمعصيتِهِ، وتعرَّضْنَا للإخراج من الجنَّة.

عندئذٍ اسْتَغَلَّ إبْلِيسُ حَالَةَ التوتُّر النَّفْسِيِّ لدَى آدم وزوْجِهِ، وحالَةَ الْقَلَقِ النَّاتج عَنْ حِرْصِهِما على الخلود، وعلىٰ المُلْكِ الّذي لا يَبْلَىٰ، وخَوْفِهما من المعْصِيَةِ والإخراج من الجنَّة، على احْتِمال أنْ يكُونَ هٰذا الناصِحُ الْمُوسْوِسُ لهما كاذِباً علَيْهما، في ادّعائه أنَّها شجرَةُ الْخُلْد، فاسْتَطاعَ إبْلِيسُ أنْ يخْتَصِرَ الطّريق على نَفْسِه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً وبصُورَةٍ مباشرة، حتَّىٰ أزْلَقَهُما، وجَعَلَهُما يأكُلانِ من الشجرة.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾: أي: فما زالَ إبْلِيسُ الشَّيْطانُ يَسْتَدْرِجُهما ويَسْتَنْزِلُهُمَا في بئرِ الرَّغْبَةِ في الأكْلِ مِنَ الشجرة، حتَّىٰ أوقعَهُما بإرادتَيْهما في الْمَعْصِيَةِ، فأكَلاَ من الشجرة المحرَّم عَلَيْهما أنْ يأكُلا منها.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾: أيْ: فَانْكَشَفَتْ لَهُمَا سَوْآتُهما اللّاتي كانت مَسْتُورَة عَنْهُمَا بِشَعَرٍ أو نَحْوِه، عَقِبَ أنْ ذَاقا من الشجَرَة مباشرةً، كَما جاء في النصّ الّذي في سورة (الأعراف) في الآية (٢٢).

السَّوْأَة: هيَ الْعَوْرَة: «الْقُبَلُ والدُّبر». **والسّوْأة**: كلُّ عَمَلٍ وأمْرٍ قَبِيحٍ شَائن، والْخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفِقَا﴾: وشَرَعَا عِنْدَ بُدُوّ سوآتِهما يحاولانِ أنْ يجدا وسِيلَةً لسَتْرِها بشيءٍ ما حَوْلَهُما، فَلَمْ يَجِدا غَيْرَ وَرقِ أشجار الجنَّة.

• ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: أي: يُلْصِقَانِ على سَوْآتِهما لِسَتْرِها، من ورق أشجار الجنَّة، وقد كانت قَبْلَ أنْ يَذُوقَا الشجَرَةَ مكْسُوَّة بِخَلْقِ الله بما يَسْتُرُها.

ودَلَّ ما جاء في سُورَة (الأعراف) في الآية (٢٢) أنَّهما ابْتَعَدَا عَنْ مَسْرَحِ المعصِيَة فارَّيْنِ إلَىٰ أَمَاكِنَ أُخرَىٰ في الجنَّة، لَيْسَ فيها صنف الشجرة المحرَّمة، إذْ جَاءَ فيها حكاية قَوْلِ الله لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ بَعْدَ أنْ كَانَ الحديث عن الشجرة باسْمِ الإشارة الذي يُشَارُ بِهِ إلى المشار إليه القريب في الآية (١٩) من سورة (الأعراف) أيضاً: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾.

• ﴿... وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾: أي: وخالفَ آدم نَهْيَ رَبِّهِ لَهُ عَن الأكْل من الشجرة، يقال لغة: «عَصَاهُ، يَعْصِيهِ، مَعْصِيةً، وعِصْيَاناً» أي: خرَجَ مِنْ طاعَتِهِ، وَخَالَفَ أمْرَهُ أو نَهْيَه، فَهُو «عَاصٍ، وعَصَّاءٌ، وَعَصِيّ».

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: ضلَّ، وخابَ، وتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ، اتّباعاً لما تعلَّقَتْ بِهِ نَفْسُه ممَّا ظَنَّهُ خيراً له.

الغيّ: الضّلال، والخيبة، والفساد، يقال لغة: «غَوَىٰ، يَغْوِي، غَيًّا» ويقالُ أيضاً: «غَوِيَ، يَغْوَىٰ، غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفَسَد، وتَرَكَ سَبِيلَ الرَّشَدِ عامداً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ من الزمن تَلَقَّىٰ فيها آدم كلماتٍ من ربّه كما جاء في الآية (٣٧) من سورة (البقرة) فأتَّمها، فتاب عَلَيْه، واصطفاه للنبوّة والرِّسالةِ وهَدَاه.

﴿اجْتَبَاهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره، جاء فِعْل «اجْتَبَىٰ» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوَّة والرسالة، إذا كان اجْتِبَاءً للأفراد.

وجاء مرَّةً واحدة، بمعنى اصطفاء أُمَّةِ محمّد بمجموعها لحمْل رسالته من بَعْده، والمراد أنَّهم مسؤولون عنْد الله عَنْ تبليغ رسالتِه للناس، وأنّهم بهذا الاجتباء معْصُومون عن أنْ يَجْتَمِعُو على ضلالَة.

ونَسْتَدِلُّ من مَعْنَىٰ الاجتباء الوارد في القرآن، على أنّ آدم علَيْهِ السلام قد اجْتَباه الله نبيًّا ورسولاً، لأوّلِ مجتَمَعٍ بَشَرِيٍّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: أي: قال الله عزّ وجلّ لآدم وزوْجِه: اهْبِطَا من الجنَّةِ إلَىٰ الأرض.

﴿اهْبِطَا﴾: أي: انْزِلاَ من مكان الجنَّة العالي، إلى الأرض. **الْهُبُوط**: ضِدُّ الصُّعود، يقال لغة: «هَبَطَ، يَهْبِطُ، هُبُوطاً» أي: نزل من مكان مرتفِعٍ إلى مكانٍ منْخَفِض. يُسْتَعْمَلُ الْهُبُوط في المادّيات وفي المعنويَّات.

ولُوحظ في آدم وزوجه ذُرّيَّاتُهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ويَزيدُ هذا المعنى وضوحاً ما جاء في الآية (٣٨) من سورة (البقرة) وهو قول الله

عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ بضمير المتكلّم العظيم، والفاعل في ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ ضَمِيرُ جَماعَةِ المخاطَبين، وهم آدم وزوجه، وذُرِّيَّاتُهما في ظهر آدم.

أمّا عداوةُ ذُرِّيَّاتِ آدم بَعْضِهِم لبَعْضٍ فالواقع التاريخي للأجيال البشريَّةِ يَشْهَدُ بذلك، علَىٰ مستوىٰ الأفراد، والأُسَرِ، والقبائِلِ، والشعوب، وأشدّ مظاهر العداوة بيْن ذُرِّيَّاتِ آدم وزَوْجِه الحرُوبُ العظمى.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: أي: فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي تَعْلِيمَاتٌ مُنَزَّلاَتٌ تُبَيِّنُ لَكُمْ دِينِي الّذي اصْطَفَيْتُهُ لكم، وفيها هدايتُكم فاتَّبِعُوها، واعْمَلُوا بما تَشْتَمِلُ عليه من أوامِرَ ونواهِيَ وإرشاداتٍ ونصائح.

﴿... فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾:

فِعْلُ «اتَّبَعَ» بِوَزْن «افْتَعل»، يَدلُّ على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدُلُّ علَىٰ التكلُّفِ وبَذْلِ قوّةٍ زائدَةٍ على المعتاد، للارتقاء في درجات البِرّ والإحسان.

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾: أي: فلا يَضِيعُ في شَتَّىٰ المَسَالِكِ والمتاهات، بعيداً عَمَّا هُو سَبَبُ سعادته.

﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾: أي: ولا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ للمتاعِب والمشَقَّاتِ المشقيات، لأنّ الله جلَّتْ قُدْرتُه وعظُمت حكمَتُه يُهَوِّنُ عليه، ويُدَافع عنه، ويمنَحُ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ الطُّمَأْنِينة والسعادة في حياته، ولو تعرَّض للمكاره.

ويلزم من عدم ضلاله أن يكون من الفائزين الناجين يوْمَ الدِّين، من عذاب جهنَّم وما فيها من شقاء أبديٍّ أوْ مؤقت، ومِنْ أهل السَّعادة الخالدة في جنَّات النعيم.

والمعنى: فَمَن كلَّفَ نَفْسَه أنْ يَتَّبِعَ هُداي، فإنَّهُ يَحْمِي نَفْسَهُ من

الضلال في الحياة الدنيا، ومِنَ الضَّيَاع في متاهات العقائد والأعمال الفاسِدَة الباطلة، ومِنَ الشقاء في الحياة الدنيا والآخرة.

وجاء في الآية (٣٨) من سُورَة (البقرة) قولُ الله تعالى حول الموضوع نفسه:

﴿... فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: فَمَن تبعَ هُدَايَ بُدونِ تكلُّفٍ وزيادَةِ جَهْدٍ واجْتِهاد، للارتقاء في درجات البرّ والإحسان، فهؤلاء لا خوفٌ عليهم من عذاب يَوْم الدين، ولا يحْزَنُونَ على شيءٍ فاتَهُمْ أو يَفُوتُهم في الدنيا والآخرة، لأنَّ الجزاء بالثواب العظيم الذي يمْنَحُهُمُ الله إيَّاهُ، والحمايَةَ مِنْ دُخولِ النار، سوف يجدُونَ فيهما تعويضاً كريماً عَنْ كلِّ ما فاتهم في الحياة الدنيا، ممّا كانوا يتمَنَّونَ الحصولَ عليه.

فتكامل النصَّان في تَأْدية المعنىٰ المراد بيانُه[1]:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾:

هذا البيان من توابع مَا أَبَانَه الله عزّ وجلّ لآدَمَ، بَعْد إهباطه مع زوجته مِنَ الجنَّةِ إلى الأرض.

وهو يتعلَّقُ بمؤمنٍ أعْرَضَ عن الذِّكْرِ الرَّبَّانيّ المنزّل، وتَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا جاء في هُداهُ، فكانَ سُلُوكُهُ مُشَابهاً سُلُوكَ الكافِرينَ، وقَدْ جَعَلَ الله لَهُ

---

(١) وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبّر سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تتِمَّاتٌ تَدَبُّرية يمكن الرجوع إليها.

عِقَابَيْن مُرَتَّبَيْنِ على إعراضِهِ عن الذكر بَعْدَ أن آمَنَ به عالماً بما جاء فيه من هُدًى.

العقاب الأول: أنْ يَجعَلَ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً في الحياة الدنيا.

الضَّنْكُ: الضيقُ فِي كلِّ شَيْء (يَسْتَوي فيه المذكّر والمؤنّث) تقول لغة: «عَيْشٌ ضَنْكٌ، ومَعِشَةٌ ضَنْكٌ» أي: ضَيِّقَةٌ لاَسَعَةَ فيها، وقَدْ يَكُونُ ضِيقاً نَفْسِيًّا، ولَوْ كَانَ المضَيَّقُ عَلَيْه ذا سعة من المال.

وقَدْ يأْتِي هـٰذا الضَّنْكُ من أَهْلِه وأُسْرَتِه وأولاَده، أو مِنْ وسائِل كَسْبِ رِزْقِه، أو من أمراضٍ وأوْجَاعٍ تتراكبُ عليه، أو من غير ذلك.

العقاب الثاني: أنْ يحشُرَهُ الله يَوْمَ القيامة بَعْدَ البعث أعْمَىٰ، نظير حشْرِ الكافِرينَ عُمْياً، لمشابَهَتِهِ لهم في أعمالهم، دلّ على هـٰذا قول الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ مع أنَّه لم يَكُنْ في الدُّنيا أعْمَىٰ، أيْ: كافراً.

وهُنَا في مَوْقِفِ الحشْرِ، يسأَلُ رَبَّه:

- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟.

جاء في هذه العبارة اسْتِعْمَالُ الفِعْل الماضي ﴿قَالَ﴾ للدَّلاَلَةِ علىٰ تَحقُّقِ الوقُوعِ يَوْمَ الدِّين.

أي: يَقُولُ: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ كَالكافِرين، وقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، أيْ: مُؤْمِناً غَيْرَ كافِرٍ.

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾:

أي: فَعَلْنَا بِكَ مِثْلَ ذَلِكَ الّذِي كانَ مِنْكَ في الحياة الدنيا، إذْ إنَّكَ مَعَ كَوْنِكَ مُؤْمِناً بي، ومُؤْمِناً بالْهُدَىٰ الّذِي أنْزَلْتُه، لَمْ تَتْبَعْ هُدَايَ الَّذي أَمَرْتُكَ بِأَنْ تَتْبَعَهُ، ولَمْ تَعْملْ بما أمَرْتُكَ أنْ تَعْمَلَه، ولم تَنْتَهِ عَمَّا نَهَيْتُكَ عَنْ

عَمَلِه، وتَرَكْتَ الْعَمَلَ بآياتي المُنزَّلاَت، فَصِرْتَ فِي حَياتِكَ مِثْلَ الكافِرِينَ في السُّلُوك.

﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي: فتَرَكْتَها، وتَرَكْتَ الْعَمَلَ بها، أَصْل معنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَة: التَّرْكُ، ومعلُومٌ أنَّ تَرْكَ الشيءِ زمَناً طويلاً، يَجْعَلُه مَمْحُوّاً مِنَ الذَّاكِرَة، فَلاَ يَخْطُرُ عَلَىٰ البال.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾: أي: ومِثْلَ تَرْكِكَ في الدُّنْيا الْعَمَلَ بآياتِنَا المنزَّلاَتِ المشْتَمِلاَتِ عَلَىٰ هُدَانَا، تُتْرَكُ الْيَوْمَ فِي مَوْقِفِ الحشْرِ فَلا يُعْتَنَىٰ بِكَ، وتُعَامَلُ معاملَةَ الكافِرِينَ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عُمْياً.

لَقَدْ أغْمَضْتَ عَيْنَيْكَ عَمَّا قَدَّمْنَا من بياناتِ هِدايَةٍ لعبادنا، فجزاؤكَ الْيَوْم يَكُونُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِك.

ولاَ يُفيدُ تَرْكَ العناية بِهِ في موقف الحشر، أَنَّه يكُونُ من الخالِدِينَ في النار كالكافِرِين، بَلْ سَيُخْرَجُ من النار ويُدْخَلُ الجنَّة بَعْدَ تطهيرِه من معاصِيهِ، بسَبَبِ صِحَّةِ إيمانه.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: ومثل ذلك الجزاء الذي نُعاقِب به مَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِنَا، من أنَّنا نَجْعَلُ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، ونَحْشُرهُ يَوْم القيامَةِ أعْمَىٰ، نَجْزِي أيضا الَّذي أسْرَفَ إسرافاً بالغاً، فَلَمْ يُؤْمِنْ بآيَاتِنَا.

ولَكِنَّ هذا الذي أسْرف ولم يُؤمِنْ بآياتِنَا، نُعَذِّبُهُ في الآخِرَةِ عَلَىٰ كُفْرِه في نار جَهَنَّم، عذاباً أشَدَّ وأبقَىٰ منْ عَذَابِ الضَّنْكِ في الحياة الدُّنيا، ومِنْ عَذَاب الْعَمَىٰ في المحْشَر، إنَّهُ عَذَابٌ بالحريق في نارِ جهنَّم خالداً فيها مُخلَّداً، وقَدْ دَلَّتْ على هٰذا نُصوصٌ قُرآنِيَّةٌ كَثِيرَة.

وبِهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدرس السادس من دروس سورة (طـه) والحمدُ لله على مَدَدِه وفيوض عطاءاته، وفَتْحِه وتوفيقه.



(١١)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (طـه) وهو الآيتان (١٢٨ و١٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾:

تمهيد:

هاتان الآيتانِ يتعَلَّقُ الْبيانُ فيهما بالكافِرين بِبِعْثَةِ محمَّدٍ وبالْقرآن المجيد، إبَّان التَّنْزيل، وهو يَنْسَحِبُ على كلِّ الكافِرينَ من بَعْدِهم إلَىٰ آخِرِ كافرٍ مُكَذِّبٍ للرسول، ومكَذِّبٍ بالقرآن، في الأَحْقاب الآتية من تاريخ الناس، والسّياقُ في الآيَتيْنِ يَدُلُّ على أن ضمائر الغائبين يرادُ بها هؤلاء، ولو لم يَسْبِق لهم ذكْرٌ قريب في دروس السُّورة، لكنَّ أوائلَ السُّورة تدُلُّ على أنهم هم المعْنِيُّون.

التدبُّر التحليلي:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: استفهامٌ تَعْجِيبِيٌّ من أمْرِ المشركين وسائر الكافِرين إبانَ التنزيل، وفيه معنى الإنكار عليهم والتوبيخ لهم بالحديث عن الغائبين.

والمعنى: أمَا زَالُوا على جَهْلِهِمْ، وبُعْدِهِمْ عَنِ الْعِلْم بأحْوالِ الأُمَمِ السابقة، وما جَرَىٰ لكُفَّارِهِمْ مِنْ إهْلاَكٍ جماعِيّ بسَبَبِ كُفْرِهم وتَكْذِيبهم

رُسُلَ الله رَبّهم، وتَكْذِيبهمْ بالذِّكرِ الّذي أنزلَهُ عَلى رسُلِهِ لهدايتهم، فَلَمْ يَهْدِ لهم تاريخ الأُمَمِ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القرون الّتي كذَّبَتْ وكفَرَت.

ضُمِّنَ فِعْل «يَهْدِي» معنَىٰ فعْل «يُبيِّن» فَعُدِي تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتِ الجملَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. والتقْدِيرُ: أوَ مَا هَدَىٰ تاريخُ الأُمَمِ السالفة مبيّناً لهم سُنَّة الله في الانتقام من الكفرة المكَذِّبين بالإهلاك العامّ الشامل، إذَا وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ منها، واقتضت الْحِكْمَةُ إهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً. أو أوَ مَا هدى الله مبيّناً لهم سنَّته في الانتقام، والفاعل الله دلّتْ عليه القرائن.

إنّ تكرار إجراء هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ في الأمَم السّالفة، مع التذكير بها فيما جاء به المرسَلُون، ثُمَّ فيما نزل في القرآنِ المجيد، ومَعَ التَّنْبِيهِ عَلَيْها بصَرِيح العبارةِ في مناسباتٍ كثيرات، من شأنِه أنْ تَحْصُلَ بِه قناعَةٌ تامَّةٌ بثَبَاتِ هٰذِهِ السُّنَّةِ لَدىٰ الأُمَمِ الْحَاضِرَةِ إِبَّانَ تَنْزِيل القرآن، والأُمَم الّتي ستأتي بَعْدَها، قياساً علَيْهِمْ.

• ﴿... كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ... ﴿١٢٨﴾﴾.

«كَمْ» اسْمٌ يقَعُ عَلَىٰ الْعَدَدِ بمعنىٰ «كثير» وتسمَّىٰ: «كم الخبرية». ولإبهامها ودَلاَلَتِهَا على مجهول الجنْسِ والمقدار، كانت مفتقرةً إلى التمييز، والمميّزُ هُنَا: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾. و«كَمْ» في موضِعِ نَصْبٍ بفعِل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: أهْلَكْنا كثيراً من القرون.

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمع «الْقَرْن» والْقَرْنُ من النَّاسِ أهْلُ زمانٍ واحد.

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾: أي: يَمْشِي هؤلاء الْمعَنِيُّونِ بالْبَيَانِ في مَساكِنِ المهْلَكِينَ السَّابقين، والجملَةُ حاليَّة.

• ﴿... إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ الإهلاك الشامل لمكذّبي الْقُرون السَّابِقَةِ، لَعَلاَمَاتٍ ذَوَاتِ دَلاَلاَتٍ واعِظَاتٍ لأصحاب العقول الواعية المستنير الدَّرَّاكة لدَلاَلاتِ آيات الله.

﴿ٱلنُّهَىٰ﴾: أي: العقول الواعيَةِ الدَّرَّاكَة للآياتِ ذوات الدّلالاَت، مفردها «نُهْيَة».

• ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾:

أي: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ (يُرَادُ بها كلامٌ تَمَّ بِهِ قضاءٌ وقَدَرٌ) سَبَقَتْ في خُطَّة التكوين، وجَعْلِ الناس في الحياة مخَيَّرِينَ مُمْتَحنِين، وجَعْلِ الجزاء الأوفَىٰ مؤجّلاً إلى يَوْم الدّين، بَعْدَ الموت والْبَعْثِ، ولَوْلاَ أجلٌ مُسَمًّىٰ مُعَيَّنٌ عند الله لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم الدّين، لكان تَعْجِيلُ تَنْفِيذِ مجازاتِهِم الجزاءَ الأوفى أمراً ملازماً لهم، لأنَّهُمْ قد استَحقُّوهُ بتكذيبهم بالحقّ من ربّهم، وبكُفْرِهم، وظُلْمِهِم الشنيع، وجرائمهم الكثيرة.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: أي: لكانَ إنْزَالُ الْجَزاءِ الْأَوْفَىٰ بِهِمْ أمْراً ملازماً لهم، لأنّهم قَدْ صَارُوا مسْتَحِقِّين لَهُ حَتْماً، ولا مُقْتَضِي للتأجيل إلَّا الكلمة الّتي سبقت من ربك. في خطة التكوين، وقد استُعْمِلَ المصدَرُ في موقع اسم الفاعل، وهو كثيرٌ، والمصدر هنا مؤوّل باسم الفاعل.

اللِّزَام: مصْدَرٌ كالملازمة، تقول لغة: «لازمَهُ، يُلازِمُه، مُلاَزَمَةً، وَلِزَاماً» أي: تعلَّقَ بِه، وصار مُحِيطاً بِعُنُقِه، كما يَتَعَلَّقُ الْغَرِيمُ بغَرِيمه، وكما يُعَانِقُ العاشِقُ حَبِيبَه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: ولَوْلاَ أَجَلٌ مُسمًّىٰ مُعَيَّن عند رَب العالمين، سابِقٌ في خُطَّة التكوين، قَبْلَ خلْق الناس، ووضْعِهم موضِعَ الامتحان.

لفظ «أجَل» معطوفٌ بالواو على لفظ «كَلِمَة» والأصل في العبارة: ولَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبّكَ وَأجلٌ مُسَمًّىٰ لكان لِزَاماً، إلَّا أنَّ التناظُرَ في رؤوسِ الآياتِ يَخْتَلُّ، فاقْتَضَتْ مُراعاةُ الجمال اللَّفْظِيّ في النظم تأخِيرَ عبارة: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

وجعل الكلمة في عبارة: [**ولا كلمة سبقت من ربك**] خاصّةً

ومُنْحَصرةً بأمَّةِ مُحَمّد ﷺ غيْرُ صحيح، إذْ جاء في القرآن نظيرها بالنِّسْبَةِ إلى كُفَّارِ القرون السَّابقة، في أربَعَةِ نصوصٍ غير هذا النصّ الذي جاء في سورة (طـه).

(١) فجاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وما كان الناس إلَّا أمَّةً واحِدَةً على الإسلام في القرون مِنْ عَهْدِ آدم عليه السَّلام، حتَّىٰ دَخل فيهم الشرْكُ، فاختلَفُوا، ولَوْلاَ كلمة الله بتأجيل الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، إلى يوم الدين، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عَقِبَ التحقُّقِ من إيمان فريقٍ منهم، وكُفْرِ الفرِيق الآخر.

(٢) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾:

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ﴾: أي: فآمَنَ فَرِيقٌ بالكِتاب الَّذِي آتاه الله عزّ وجلّ موسَىٰ، وكَفَر به فريقٌ آخر، ولَوْلاَ كلمة الله عزّ وجلّ بتأجيل الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، إلى يوم الدّين لَقُضِيَ بيْنَهُمْ عَقِبَ التحقُّقِ مِنْ إيمان مَنْ آمن، وكُفْر مَنْ كفر.

(٣) ولفظ هذه الآية جاء في سورة (فُصِّلَتْ) في الآية (٤٥) منها، بمُنَاسَبَةٍ أخرىٰ، غير المناسبَةِ الّتي جاءت في معرضها في سورة (هود).

(٤) وجاء في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾:

فجاء في هذا النَّصّ بيانٌ عَامٌّ يَشْمَلُ الاختلاف فيما وصَّىٰ الله به نوحاً وإبراهيم ومُوسَىٰ وعيسَىٰ، وأنّه لولا كلمة سبَقَتْ من الله بِتَأْجيل الحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذ الجزاء، إلَىٰ يَوْمِ الدِّين، لَقُضِيَ بَيْنَ كُلِّ المختَلِفِينَ السَّابِقِين، عَقِبَ التحقُّقِ من إيمان من آمَنَ مِنْهم، وكُفْرِ مَنْ كَفَر.

والّذِين أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهم هُمْ أُمَّة دَعْوَةِ محمَّد ﷺ.

فتخصيص العبارة الّتِي جاءتْ في سورة (طـه) بأمَّةِ محمَّدٍ، مُعَارَضٌ بهٰذِه النُّصُوص القرآنِيَّةِ الأربعة.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السابع من دُروس سورة (طـه) والحمد لله على فَتْحِه ومَدَدِه وَتَوْفِيقه.

(١٢)
التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (طـه) الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا

مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

القراءات:

(١٣٠) • قرأ شُعْبَةُ، والكِسَائي: **[لَعَلَّكَ تُرْضَىٰ]** ببناء فعل «تُرْضَىٰ» لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه، أي: لِيُرْضِيَكَ رَبُّكَ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ]** ببناء فعل «تَرْضَىٰ» للمعلوم.

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُرْضِيكَ رَبُّكَ بِفُيُوض عطاءاته وإنعاماته، فأنت تَرْضَىٰ.

(١٣١) • قَرَأ يَعقُوبُ: **[زَهَرَةَ]** بفتح الهاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[زَهْرَةَ]** بإسْكان الهاء.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيّانِ لنُطْقِ الكَلِمة.

(١٣٢) • قرأ وَرْش، والسُّوسي: **[وَامُرْ]** بقَلْبِ الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في حالة الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأْمُرْ]** بتحقيق الهمزة ساكنة. والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيّان لنُطْقِ الكلمة.

(١٣٣) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وحفص، وابْنُ جَمّاز، وروح: **[أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ]** بِكَسْرِ هاء الضمير، وبتاءِ المضارعة.

وقرأ رُوَيْس: [أَوَ لَمْ تَأْتِهُمْ] بضم هاء الضمير، وبتاء المضارعة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَو لَمْ يَأْتِهِمْ] بكَسْرِ هاء الضمير، وبياء المضارعة. والقراءات هذه وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ جائزة متكافئة.

(١٣٥) • قرأ قُنْبُل، ورُويس: [السِّرَاطِ] بالسّين.

وقرأها خَلَفٌ عن حمزة، بإشْمَام الصّاد زاياً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الصِّرَاطِ] بالصاد.

وهذه القراءات وجوه عربية في نطق الكلمة.

تمهيد:

جاء هذا الدرس الثامِنُ وهو الأخير من دروس السّورة، مُرْتَبطاً بالدَّرْس الأوّلِ من دُروسها، وهو بمَثَابَةِ آخر العقد المناظر لأوّلِه، وطَرَفَاهُما يُشْبَكَانِ بقُفْلِهِمَا، ليَسْتَكْمِلَ عِقْدُ السُّوَرَةِ دائرتَهُ الجميلة المنضَّدَة.

فصَدْرُ السّورَةِ في درسها الأوّل جاء فيه الحديث عن الرَّسُول، وعَنِ القرآن، وعن المدْعُوّين المكذّين.

وآخر السّورة في درسها الثامن جاء فيه الحديث عن الرَّسُول، وعَنِ القرآن، وعَنِ المدْعُوّين المكذبين.

• وفي أثناء هذا الدرس الأخير جاء بيان أمر الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، ويُلْحَقُ به حمَلَةُ رِسَالَتِه من أمَّتِه، بما يلي:

(١) أنْ يَصْبرَ عَلىٰ ما يقول أعداءُ دعوته من قومه، بشأنه، أو بشأن الرسالَة الرَّبَّانِية التي جاء بها.

(٢) أن يُسَبِّح رَبَّهُ تَسْبِيحاً ملْتَبِساً ومُقْتَرِناً بحَمْدِه، كعبارة: «سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِه» في الأوقات التاليات:

(أ) قَبْلَ طُلُوعِ الشمس.

(ب) قبْلَ غُروب الشمس.

(ج) آناء اللّيل، أي: في ساعاتٍ وأوقات من اللّيل.

(د) أطراف النهار، وهي فيما أرى: عند طُلوع الْفَجْر طَرَف، وقُبَيلَ الغروب طرف، وحين تكون الشمس في كَبِد السماء قُبَيْل الزَّوالِ طَرَف.

(٣) أن لاَ يَمُدَّ عيْنَيْهِ إِلَىٰ زَهْرَةِ الحيَاةِ الدُّنيا، الّتي مَتَّعَ اللهُ بِهَا أصْنَافاً من الكافرين، وهم الأثرياء المترفون الممتَّعُونَ بزيناتِ الحياة الدُّنيا منهم، وأنْ يقنَع بما آتاهُ الله من الدنيا، إيثاراً لمَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الله وأبقَىٰ.

(٤) أنْ يَأْمُرَ أَهْلَهُ بالصّلاة (الأهل: الأقارب، والعشيرة، والزوجة، والأصحاب، وأهل الدّار وسُكّانُها) أي: بالصلاة الواجِبَةِ، وبالاستِكثار من النوافل، ومن أشْرَفها الصَّلاة في جوف اللّيل.

(٥) أن يَصْطَبِرَ على الاستكْثار من الصلاة كمًّا وكيْفاً، وقد كَانَ يَجْتَهِد الرَّسُول ﷺ اجتهاداً مُتْعِباً، فقد كان يقومُ من اللَّيْلِ يُصَلِّي حتَّىٰ تتورَّم قَدَماه.

• وجاءَ في هذا الدّرْسِ إعفاء الرَّسُول ﷺ من المشي في مناكب الأرض لكسْبِ رِزْقه، ليُؤَدّي رِسَالَةَ رَبِّهِ بكُلِّ ما لَدَيْهِ من قُوَّةٍ وهِمَّةٍ ونَشَاط، مستثمراً ما يُمْكن أنْ يَسْتَثْمِرَهُ من وقته، ووَعَدَه الله عزّ وجلّ بأن يَرْزُقَهُ من حيْثُ لا يَحْتَسِب.

وأبان له أَنَّ العاقبةَ الحسَنَة ذَاتَ المجْدِ والرفعة في الحياة الدنيا، هي للتقوى، أي: للمتقين، مع ما ادَّخر الله لَهُمْ من أجْرٍ عظيم، ونعيمٍ باذخٍ، ومُلْكٍ فوْقَ مَا يتمَنَّوْن يوْم الدين.

• وجاء في هذا الدَّرْس معالَجَةٌ لبَعْضِ أقوال المشركين، الّذِين

طَلَبُوا من الرسول محمّد ﷺ آياتٍ ذوات مظاهِرَ ماديَّةٍ مشهودة بالأبْصار مثل عَصَا مُوسَىٰ، وناقةِ صالح، وإحياءِ الموتى لعيسَىٰ، عليهم السلام.

ورَدّ الله عزّ وجلّ علَيْهم بأنَّ آيَة الْقُرْآنِ المعجزَة أعْظَمُ من الآيات اللّواتي طلَبُوا أمثَالها، باعتباره معجزةً باقيَةً مع كلّ العصور، غَيْرَ زمَنِيَّةٍ تَنْتَهِي في أوْقاتِ إجْرائِها، وباعتباره معجزةً عقليَّةً وعلميَّة، وفيها مضْمُونُ الرِّسالة الّتي جاء بها محمَّدٌ ﷺ بلاغاً عن رَبّه، وإعجازُها الْعِلْمِيُّ يظْهَرُ بتَجَدُّدٍ في تتابع العصور حتَّىٰ قيام الساعَةِ، إذِ اشْتَمَلَ علَىٰ أنباء مسْتَقبليَّةٍ، لا يمكنُ أن يَعْلَمَها إلّا اللهُ عزّ وجلّ، واضع خُطَّةِ التكوني لأحداث كَوْنِه قَبْلَ أنْ يخْلُقه.

ولوَّح الله عزّ وجلّ لَهُمْ بعصَا الإهلاكِ الّتي أهْلَكَ بها الكافرين مكذّبي الرُّسُل السَّابقين، مشيراً إلى أنَّهُ يُمْهِلُهُمْ حتَّىٰ يَسْتَقِرَّ فِي قلوبهم الاستيقانُ بأنّ محمّداً رَسُولٌ من رَبّهم حَقًّا وصِدْقاً، وحَتَّىٰ يَصِلُوا في غالبيَّتِهِم العظمىٰ إلى حالة ميؤوسٍ من إصلاحهم معها على طريقِ إراداتهم الحرَّة، وذلِكَ ليَقْطَعَ أعذارَهم، ولئَلّا يقولُوا إذا نَزَلَ بهِمُ الإهلاك الجماعيُّ الشَّامل، وأَدْرَكُوا أنَّهُمْ هالِكُونَ لا محالة: يا رَبَّنا هلّا أرسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً فنتَّبع آيَاتِك.

• وَجاءت في هذا الدّرسِ إجابَةٌ علَىٰ قَوْلٍ مطويٍّ قالُوهُ إبَّانَ نزول سورة (طـه) هَمْساً وَلم يُشَيِّعُوه، كَنَحْوِ قولهم الذي جاء التصريح به في سورة (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿نَتَرَبَّصُ﴾: أي: ننتظر، يقال لغة: «تَرَبَّصَ فُلاَنٌ بفُلاَنٍ تَرَبُّصاً» أي: انتظر خيراً أو شراً. ويُقَال أيْضاً: «رَبَصَ بفُلاَنٍ، يَرْبُصُ، رَبْصاً» بمعنى: انتظره.

﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾: يرادُ بهذه العبارة حوادثُ الدَّهر الْمُمِيتَة.

فالمعنى: ننتظر أن تأتِيَهُ حادثَةٌ من حوادث الدَّهْر، يموتُ بها، فنتخلَّصُ مِنْهُ ومن دَعْوَته.

﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾: أي: قل لَهُمْ يا مُحَمَّدُ انْتَظِرُوا مَوْتي، فإنّي معَكُمْ في الانتظار، إلّا أني أنْتَظِرُ نَصْرَ الله لي، وخذلَكُمْ، وإذْلاَلَكُمْ. وخَيْبَتَكُمْ فِي مَسَاعِيكُمْ.

في هذا التعليم الرَّبانيّ لرسُوله تلويحٌ بالْوَعِيد، وبالْعَاقِبة السّيئَةِ الّتي سَتَأْتيهم، وبالعاقبة الحسنة الّتي ستكُون في الدنيا للرسُول ﷺ، وللذِين آمنوا به واتَّبَعُوه، وقَدْ تحَقَّقَ الأمران بَعْدَ نَحْو سَنَةٍ أو سَنَتَيْن من نزول سورة (الطور) فترتيب نزول هذه السُّورة يُشْعِر بأنَّها نَزَلَتْ في أواخِر العهد المكيّ، قُبَيْلَ هِجْرَة الرسول ﷺ إلى المدينة.

أما ترتيب نزول سورة (طـه) فَيُشْعِرُ بأنَّها نَزَلَتْ في أواسِطِ الْعَهْدِ المكي، وقَدْ جَاءَ فيها قَوْلُ الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾:

أي: فَسَتَعْلَمُونَ في بِضْعِ سِنِينَ أنَّنا أصحابُ الصّراط السّوي المستقيم، وأنَّنا نَحْنُ المهتَدِين، وفي المقابل ستَعْلَمُون أنّكُمْ بَعِيدُونَ جدّاً عن الصراط السّوِيّ، وأنّكُمْ كُنْتُمْ في ضَلاَلٍ بَعِيد.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ:

• ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: دلّت هـٰذه العبارة خطاباً للرّسول ﷺ، أنّ كُبَراء مُشْرِكي مكّة صاروا يَقْذِفُونَ أقوالاً دعائية إعلاميّة، ضِدَّ الرّسول ﷺ، وضِدَّ رِسَالته، وضدَّ القرآن الذي يُبَلّغُهُ عن ربّه، وضِدَّ الّذين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه، وأنَّ هـٰذِه الأقْوالَ كانت تُحْزِنُ الرسول، ويَضِيقُ بها صَدْرُه، وتتحرَّكُ نَفْسُه بِرَغَبات التَّشَفّي من مطلقي هذه الأقوال المؤذية، فأمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يَصْبِرَ علَيْها، ولاَ يَشْغَلَ نَفْسَه وقَلْبَهُ وفِكْرَه باتّخاذ وسائلَ مضادَّةٍ لهَا، وما عَلَيْهِ إلّا أن يُتَابعَ مَسِيرَتَهُ في تَأْدِيَةِ رِسالَةِ رَبِّه، غَيْرَ مُبالٍ ولا مُكترِثٍ ولاَ عابِىءٍ بها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾:

تَسْبِيحُ الله عزّ وجلّ، يتضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عمَّا لاَ يَليقُ بِذَاتِه وصِفَاتِه وجلالِهِ وعظيم سلطانه.

وحَمْدُ الله عزّ وجلّ، يَتَضَمَّنُ الثناء عَلَيْه بكُلِّ ما هُوَ لَهُ مِنْ صِفَاتٍ جليلاتٍ عظيماتٍ، ليْسَ لكمالِها نِهَايَات ولا غايات.

والمطْلُوبُ أَنْ يكونَ التسبيح مقترناً ومُلْتصِقاً ومُشْتبكاً بالحمْدِ، لأنَّ من التنزيه أنْ لا تَنْقُصَ مَحامِدُه عمّا هي لَهُ شيئاً، ومِنَ الْحَمْدِ نَفْيُ كُلِّ ما هو مُنَزَّهٌ عنه، ممّا لاَ يَلِيقُ به، فجاء التعْبير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وسَبِّحْ رَبَّكَ تَسْبيحاً مقترناً ومُلْتَبِساً ومُشْتَبكاً بِحَمْده، والعبارة المختارة في البياناتِ النَّبَوِيَةِ للتسبيح بحَمْدِ الله: «سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ» و«سُبْحَانَ الله العظيم وبِحَمْدِه» و«سُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله».

والأوْقَاتُ المبيَّنَةُ في هـٰذِهِ الآيَةِ للتَّسْبِيح بحَمْدِ الله ستَّةُ أوقات، وهي:

الأول: قبل طُلُوع الشمس، وهو ما بين طلوع الفجر حتَّىٰ طُلوع الشمس.

الثاني: قَبْلَ غروب الشمس، وهو ما بين دخول وقت صلاة العصر حتى غروب الشمس.

الثالث: من آناء اللّيل، أي: من ساعات اللَّيل وأوقاته، من أوله، أو وسَطِه، أو آخره.

الرابع: عنْدَ طُلُوعِ الفجر فهذا طَرَفٌ أوَّلُ للَّنهار، ولتخصيص هذا الوقتِ مزيَّة.

الخامس: قُبَيْلَ غروب الشمس، فهذا طَرَفٌ أخِيرٌ للنَّهار، ولتخصيص هذا الوقت مزَّية.

السادس: قُبَيْلَ زَوالِ الشَّمس، أي: حينما تكونُ الشمس في كَبِدِ السَّمَاءِ تماماً، فهذا طرف وسَطٌ للنهار، ولتخصيص هذا الوقت مزية، فالغرض أنْ لاَ يخْلوا هذا الوقت من ذكر الله، إذْ تَحْرُم فيه الصلاة، كَحُرْمَةِ الصلاة عند غروب الشمس، وقُبَيلَه.

ودرج أكْثَر المفسرين علىٰ أنّ هذه الأوقات المبيَّنَة في هذه الآية تشِيرُ إلى أوقات الصَّلَواتِ الْخَمْسِ، مع أنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الّتي فُرِضَتْ لَيْلَةَ إسْراءِ الرَّسُولِ ومِعْراجِه، لم تكُنْ قَدْ فُرِضَتْ إبَّانَ نزول سورة (طَه).

ودليلُهم ما جاء في الصَّحِيَحيْنِ عنْ جرير بْنِ عبد الله البَجَلِي قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فنَظَرَ إلَىٰ الْقَمَرِ ليْلَة الْبَدْرِ فقال:

«إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَـٰذَا الْقَمَرَ لاَ تُضامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُرُوبِهَا فافْعَلُوا» ثم قرأ هـٰذِه الآيَة: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

لكنّ هذا الحديث لا يَدُلُّ على أكْثَرَ مِنْ فَضْلِ هـٰذَينِ الوقْتَيْن، اللَّذَيْنِ تكُونُ فيهما صَلاة الفجر، وصلاة العصر.

والآيَة وارِدَةٌ لمعالجة حالة الرَّسُول النفسيَّة، بدواءٍ من ذكْرِ الله في الأوقات السّتَة التي سَبَقَ بيانُها، لتفريغ شِحْنَاتِ انزعاجِهِ من أقوال كُبَرَاءَ مشركي قومه المؤذيَةِ له، والّتي كانوا يقولُونها بأساليب دِعائية إعلاميَّة، قُبَيلَ نزول سورة (طـه) ضدَّه، وضدّ رسالته وضدَّ القرآن المجيد، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه، والتَّسْبِيحُ المتكرِّرُ في الأوقات المبيَّنَةِ في الآية، دواءٌ ناجِعٌ لصَرْف كلِّ ما في النفس من مُؤْلِمَاتٍ، ومُزْعِجاتٍ، ومُقْلِقاتٍ، ومُحْزِنات، تضيق بها الصُّدُور، وتتكَدَّرُ بها المشاعر.

والتَّسْبِيح بحَمْدِ الله يُذَكِّر المسبِّحَ الحامدَ لله، بأنّ الله عزّ وجلّ الْقَدِيرَ على أن يفْعَلَ مَا يُرِيدُ في عباده، وفي الكَوْن كُلِّه، يَصْبِرُ بِحِلْمِهِ العظيم علىٰ عِبَادِه الجاحِدينَ إلَهيّته، والجاحِدِينَ رُبُوبيَّتَهُ، والجاحِدِينَ آيَاتِه، والمكذّبين بكتابِه المعجز، فيُمْهِلُهُمْ، ولا يَعْجَل بمُعَاقَبَتِهِمْ والانتقام مِنْهِم، ليَتْرَكَ لَهُمْ زمَناً واسعاً يُراجِعُونَ فِيه أنْفُسَهُمْ، رِضاً مِنْهُ في أَنْ يَتُوبوا إليه، ويَسْتَغْفِرُوهُ، ويكونوا من الناجين من عذابه، والفائزين بجنَّتِهِ.

فعلىٰ الرَّسُولِ، وعلى حَمَلَةِ رِسالَتِهِ مِنْ أمته، أنْ يتخلَّقُوا بأخْلاقِ الله، ويُعامِلُوا عِبَادَهُ بما يُعَامِلُهُمْ هُوَ به، فيَصْبِرُوا عَلَيْهِم، ويُعامِلُوهم بالإغضاءِ والصَّفْحِ الجميلِ، عَسَى أنْ يكون هـٰذا الْخُلُقِ سَبَباً في إيمانهم، وإسْلامِهم، لإنقاذِهم مِنْ عذاب الله ونِقْمَتِهِ، وسبباً لإدْخالهم يَوْمَ الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾: أي: لِتَرْضَىٰ، على أنَّ «لَعَلَّ» تَعْلِيلِيَّة، أَوْ رَاجِياً ومُتَرَقِّباً أنْ يأتِيَ زَمَنٌ قَرِيبٌ تكُونُ فِيهِ رَاضِياً عَنْ صَبْرِك الّذِي صَبَرتَهُ علىٰ أقوالِ كُبَراء كُفَّارِ قَوْمِك، وراضياً باسْتِعْمَالِكَ دواء التَّسبيح بحَمْدِ ربّك، إذْ تَنْزَاحُ عَنْ نَفْسِكَ مشاعر الكدْرِ والضّيق والألم والقلَق والانزعاج الّتي سبَّبَتْهَا أقوال كبراءِ كفارِ قومِكَ الَّتي أشاعوها وآذَوْكَ بها ظُلْماً وعُدْواناً وبغياً مِنْ عند أنفسهم.

الرِّضا: الشُّعُور بالارتياح، والاكتفاء، والقَبُول، وتحقيقِ المطلوب. يقال لغة: «رَضِي به، ورَضِيَه، ورَضِيَ عَنْهُ، ورَضِيَ عليه، يَرْضَىٰ، رِضاً، ورِضاءً، ورِضْوَاناً، ومَرْضَاةً» أي: قَبِلَهُ، واختاره، وارتاحَتْ إلَيْه نَفْسُه، واكْتَفَىٰ به.

قول الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، ويُلْحَقُ به حَمَلَةُ رِسالتِه مِنْ أمته:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾:

لقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أنْ يَجْعَل النَّاسَ كفَّارَهم ومؤمِنِيهم، على مُدَرَّجٍ ذي مستوياتٍ مُرْتقِياتٍ ومُتَنازِلاَتٍ في وسائل استمتاعاتِهم في الحياة الدنيا، فمنهم الأغنياء على مستوياتٍ متفاضِلاَتٍ ارتقاءً، ومنهم الفقراء على مُسْتَوياتٍ مُتَنازِلاَتٍ انحطاطاً، ومنْهم الأقوياء وذوو السُّلْطانِ على مستويات متفاضلاتٍ ارْتقاءً، ومنهم دون ذلِكَ على مستوياتٍ لِيَبْلُوهم فيما آتاهُمْ، وليَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بعضاً سُخْرِيًا.

وقد تَخفَىٰ على بَعْضِ الناسِ ومنْهُمُ المؤمِنُونَ، حِكْمَةُ الله عزّ وجلّ في هذا التفاضُلِ والتنازُلِ في متاعات الحياة الدنيا وزيناتها.

ورُبَّمَا تتطَلَّعُ نفوسُ بعْضِ المؤمنين باسْتِغْرابٍ أو بِتَشَهٍّ، إلى ما مَتَّعَ الله عزّ وجلّ به أصنافاً مِنَ الناس، ولا سيَّما الكافِرُون والْعُصَاة، من زيناتِ الحياة الدنيا وزُخْرُفِها، أموالاً، وقُصوراً فخْمَةً، ومزارِعَ، ومطاعِمَ، ومشارِبَ، ومناكِحَ نفيسَة، بينما يكُونُ المؤمنونَ مَحْرُومين منها، وقَدْ تتحَدَّثُ نفوسُ بعْضِهم قائلَةً: لماذا لا يكونُ لنا مِثْلُ هذا الذي متَّعَ الله به الكافِرين، أو العصَاة الظالِمين لأنفسهم، ونَحْنُ مؤمِنُونَ، ولَهُ عابِدُونَ ومُطِيعُون.

وقد جاء في القرآن والسُّنَّة علاج هذا الّذي يمكن أن تتحدَّث به

نفوسُ بَعْضِ المؤمنين، بأنواعٍ من البيانات العلاجيّة الكاشفات لجوانب من حكمة الله عزّ وجلّ في تدبيراته لابتلاء عباده.

منها أنّ ظروف الحياة الدنيا ظُرُوف امتحان، والامتحان الأمثل للناسِ على اختلاف خصائص نفوسهم لا بُدَّ أن يكون فيه هذا التفاضل.

ومنْها أنّ المستمتِعِينَ مِنَ الكافِرِين بمستويات رَفِيعاتٍ من متاعات الحياة الدُّنيا، قَدْ عَجَّلَ الله لهم فيها طيّبَاتِهِمْ ومَا تَهْوَىٰ نفوسُهم، وابتلاهُمْ بما آتاهم، ولَمْ يُسْعِدْهُمْ سَعَادَةً حَقِيقِيَّةً بالْوَفْرَة الّتِي أغْدَقَ بها عليهم.

ومنها أنّ زمن الحياة الدنيا زمَنٌ قليلٌ ضئيلٌ معْدُودٌ محْدُودٌ بسنينَ، يعقُبُه عذابٌ أليم خالدٌ في الجحيم على كفْرِهِمْ وجحودهم آياتِ رَبّهم، بجانب زمَنٍ لا حُدودله، ولا نهاية لَه، ينالُ فيه المؤمنون خلوداً أبديًّا في جنَّاتِ النعيم يوم الدين.

واقتضَىٰ علاج المؤمنين، ولا سيما حَمَلَةُ رسالَةِ الرَّسُول من أمَّتِه، أن يوصِيَهُمُ الله بأسْلُوب خطاب رسوله، أن لا يَتطَلَّعُوا إلَىٰ ما مَتَّعَ الله عزّ وجلّ به أصنافاً من النَّاسِ مِنْ زينَاتِ الحياة الدُّنيا، وأن يَقْنَعُوا بما آتاهم من فَضْله.

أمّا الرَّسول محمَّدٌ ﷺ فلا يُظَنُّ فيه أنْ تَتَطَلَّعَ نَفْسُهُ إلى شيءٍ مِنْ ذلك، وقَدْ عُرِضَتْ عليه من قِبَلِ رَبِّه جبالُ الذهَبِ، على أنْ يَتَعَرَّض لابتلاءِ شبيهٍ بما تَعَرَّضَ له دَاوُدُ وسلَيْمانُ وأيُّوبُ عليهم السَّلاَم، فأَبَاها، وارتضَىٰ لنفسه من الدُّنْيا أنْ يَكُونَ عبْداً مِسْكِيناً من عباد الله المساكين، دُونَ فَقْرٍ يُحْوِجُه إلى ضَرُورِيَّاتِ حيَاتِه وحَاجَاتِها الملحَّاتِ.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ...﴾:

أي: وَلاَ تَنْظُرَنَّ نَظَرَ تَشَهٍّ إلىٰ مَا أمْدَدْنا به مِنْ مَتَاعِ الحياة الدنْيا،

أصْنَافاً من المشْرِكينَ وسَائِرِ الكافِرِين، وأصْنافاً من عُصَاة المؤمنين، لامتحانهم واختبارهم بما أمْدَدْناهم به.

جاء التعبير بمدّ الْعَيْن بَدَلَ النَّظر، للدّلالَةِ علَىٰ أنَّ نَظَرَ التَّشَهِّي والطَّلَبِ يخْتَلِفُ عن النَّظَرِ الْعَادِيِّ العابر. فنَظَرُ التَّشَهِّي يقْتَرِن بدوَافع تَمْتَدُّ آثَارُها من داخِلِ النفس، سائرةً على خُطُوط أشِعَّةِ النظر، لتَتَناوَلَ المشْتَهَىٰ وتَمْتَلِكَهُ، حتَّىٰ كأنَّ الْعَيْنَيْن يدَانِ مُمْتَدَّتانِ تَبْغِيَان ما اشْتَهَتْهُ النَّفْسُ، لِتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ وتَمْتَلِكه.

وفي هذا معْنَىٰ الاعْتِراض عَلَىٰ حِكْمَةِ الله في عطائِه ومَنْعِهِ، وفي التوسِعَةِ علَىٰ بَعْضِ عباده، والتَّضْيِيق على آخرين منهم، لِيَبْلُوَ كُلّاً منْهُمْ بما يُلائِمُ فِطْرَة نَفْسه الّتي فَطرَهُ عَلَيْها.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾: أي: إلىٰ ما ملّكْنَاهم مِنْ متَاعٍ لِيَسْتَمِتعُوا به في الحياة الدّنيا. **المتاع**: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، ويُتَبَلَّغُ به، والفناء يأتي علَيْهِ في الدُّنيا.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أي: أصْنَافاً من النَّاسِ ولَوْ كَانُوا كافِرِين، يُطْلَقُ لفْظُ: «الزَّوْج» في اللُّغَةِ عَلَىٰ الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شيْء.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: شَبَّهَ الله عزّ وجلّ كُلَّ ما في الحياة الدنيا مِمَّا تَتَعلَّقُ بِهِ نفوسُ النّاس، منْ مَتَاعِها وَزِيناتها، وما تَهْوَىٰ النفوسُ منها، بالزَّهْرَةِ، ذَاتِ المنظر الجميل الأخّاذ بألوانها، وقَدْ تكُونُ ذَاتَ رائِحَةٍ عِطْرِيَّةٍ زَكِيَّة، وعَبِيرٍ جَمِيلٍ تَسْتَمْتِعُ به حَاسَّةُ الشّم، وَقَدْ تَكُونُ ذات طَعْم لَذِيذٍ طيّبٍ، تَسْتَمْتِعُ بِهِ حَاسَّةُ الذَّوْق، إلَّا أنَّها سَرِيعَةُ الذُّبول، سَرِيعَةُ الْمَوْت، سَرِيعَةُ الْمَصِيرِ إلىٰ الفناء.

وقد اسْتُعِير في الآية لفظ «زهرة» للدَّلاَلَةِ على لَذَّاتِ الحياة الدُّنيا، وزيناتِها، ومَا تَهْوَىٰ النفوسُ منها، للتَّشَابُهِ بَيْنَهُما في سُرْعَةِ الزّوال والفناء،

مع ما فيهما مِنْ مَتَاعٍ مَرْغُوب فيه، وأضيف لفظ «زَهْرَة» إلى الحياة الدُّنيا، لتكونَ هٰذه الإضافة قرينَةً صارفةً عن إرادة الزهْرَة الّتي تَنْبُتُ في الْأَشْجار، أو في غيرها من نباتَات الأرض، ويَسْتَمْتِعُ بها الناسُ استمتاعاً مُؤَقَّتاً بزَمَنٍ قَصِير، إذْ عُمْرُ الزَّهر قصير بالنسبَةِ إلى سائر ما يَنْبُتُ في الأرض.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي: لنَبْتَلِيَهُمْ، ونَمْتَحِنَهُمْ، ونختَبِرَ إرادَاتِهِمْ وسلوكهم فيه، خلال ظروف الحياة الدنيا.

أصْل الفتنة، الصهر بالنار للمعدن، كالذهب والفضّة، لتمييز الرَّدِيء من الجيّد، ولاختباره، ثمَّ أطْلِقَ بالتَّوَسُّعِ اللّغَوِيّ على كُلٍّ ابتلاء وامتحانٍ واختبار.

﴿... وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾: أي: ورِزْقُ رَبِّكَ الّذِي يَهَبُهُ لَكَ في الحياة الدُّنْيَا، وسَوْف يُفيضُهُ عَلَيْكَ يَوْمَ الدِّين في جَنَّات النعيم، أعْظَمُ خَيْرِيَّة، وأكْثَرُ بَقاءً.

أمّا في الحياة الدّنيا فالرِّزْقُ القليل الكافي، الْمَقْرُونُ بِطُمْأْنِينَةِ نفس المؤمن، واستمتاعِهِ، بما آتاهُ الله إيَّاهُ، خالياً من الأكدار والمنغصّات، أَوْ راضياً طامِعاً بما ادَّخَرَ الله له، وجَعَلَهُ مؤجَّلاً إلى يوم الدِّين، أكْثَرُ وأفْضَلُ هَنَاءَةً ولَذَّةً واسْتطابَةً من الرِّزْقِ الوفير الفائضِ عن الحاجات، المقرونِ بالقلَقِ، والأكْدَارِ، والمنَغِّصَاتِ، والمزعجات، والآلام، والمتاعِب المضنيات للنفس.

وأمّا في الدّار الآخرة يَوْمَ الدّين، فلا وَجْهَ للمقارنَةِ بِوَجْهٍ من الوجوه، فالسعادة كُلُّها للمؤمنين في جنَّاتِ النعيم، والشقَاء والعذابُ وكلُّ ما يُؤلِم ويَسُوءُ للكَفَرَةِ والمجرمين، وعذابٌ دُونَ ذلك للمؤمنين الَّذِي أسرَفُوا على أنْفُسِهم بالمعاصِي والمخالفات لرَبِّ العالمين.

وقد كان رسول الله ﷺ أزهَدَ النَاسِ في الدُّنيا، مع قُدْرَتِهِ على أنْ

يكون ذا مالٍ وفير، وذا رفاهيّة عظيمة، وقد عُرِضَتْ عليه جبال الذهب فأباها.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾:

في هذه الآية بيانُ أرْبَعِ قَضَايَا مُوَجَّهَةٍ للرَّسُولِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسالَتِهِ من أُمَّتِه، بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

القضيَّةُ الأولىٰ: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾:

الأهل: «الأقارب، والعشيرة، والزَّوْجَةُ، والأصحاب، وأَهْلُ الدّار وسُكَّانها».

الواجب على حامل رسالَةِ رَبِّهِ، أَنْ يَبْدَأ بأَهْلِهِ وعَشِيرَتِه الأقربين، فيَدْعُوهم إلى دين الله الحق، ويُبَشِّرَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ، فإذا آمَنُوا وأسْلَمُوا، فالواجب علَيْه أنْ يأمُرَهُمْ بالصَّلاة، لأنَّها ثاني أرْكان الإسلام، إذ الرُّكْنُ الأولُ من الإسلام، يكون بإعْلاَنِ الشهادتَيْن، وبَعْدَهُ رُكْنُ الصلاة، وهي عبادَةٌ واجب تكريرها يَوْميًّا طَوالَ عُمْرِ المسلم، وعلَىٰ حامِلِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بَدْأً مِن الرَّسُولِ، فكُلِّ حامل رِسالَتِه من أمَّتِه، أنْ يأمُرَ أَهْلَهُ وَهُمُ الأقربونَ مِنْ عَشِيرَتِهِ بالمحافَظَةِ عَلَيْها، فهِيَ الْعَمَلُ اليوميُّ للظاهر من أعْمَال الْمُسْلِم الدَّالَّةِ علَىٰ التزامِهِ بإسلامه، وأمْرُهُ أهلَهُ أوّلاً يَدُلُ على صدْقِهِ في تأدية الرِّسَالة.

ويَشْمَلُ الأمْرُ بالصلاة الأمْرَ بالصلاة الواجبة، والأمْرَ بالنوافل غير الواجبة، وأهمُّها الصلاة في جوف الليل، ولكِنْ يأمُرُ بالنوافل على سَبِيلِ النَّدْبِ والحثّ، لا علىٰ سبيل الإيجاب والإلزام.

ولا يخفىٰ ما في الاهتمام بالصَّلاة مِنْ مكانةٍ عظيمة للصلاة في الدين، إذْ هِيَ الصِّلَةُ المتكرِّرَةُ بالله في أعْمَالِ الْيَوْم واللَّيلَةِ من الأعمال الإسلامية.

القضيَّة الثانية: دلّ عليها قَوْل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: واصْبِرْ صَبْراً كثيراً على الاستكثارِ من الصلوات النوافل، ولا سيما الصلاة في جَوف اللَّيْلِ، وهي المعروفة بقيام اللّيل، فهي الّتي تحتاج إلى اصطبار.

[اصطبر] أمْرٌ مِنْ فعل «اصْطَبَر» أصْلُه: «اصْتَبَر» قُلِبَتْ التاء طاء على وفق القاعدة العربية، وصِيغَةُ «افْتَعَلَ» تَدُلُّ عَلَىٰ التكلُّفِ وبذْلِ طاقَةٍ إضافيّةٍ، وتحمُّل مشقَّةٍ زائدةٍ على المعتاد. وهذا إنَّما يكون بالإكثار من النوافل، ولا سيما في جوْفِ اللَّيل.

هٰذه الصَّلاةُ تُساعِدُ حامِلَ الرّسالَةِ علىٰ المجاهدة في تبليغ رِسالَةِ رَبّه، إذ هي تُشْعِرُهُ بأنَّهُ موصولٌ بِسِلْكِ طاقةٍ يُمِدُّهُ الله عن طريقِه بالْعَوْن والقوّة والْقُدْرَة على تحمُّلِ المشقَّاتِ، والصَّبْرِ على الأذيّان اللّاتي يلْقَاها من الذين يَدْعُوهم، إذا كانوا من المعرضين عن دعوته، أو من المدبرين والمتولّين، أو من المجاهرين بعداوتهم، ومقَاوَمَتِهم بوَسَائل القوّةِ الماديّة المختلفة.

القضية الثالثة: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: لا نَطْلُبُ مِنْكَ أنْ تَمْشِي في اكْتِسَابِ رزْقِكَ وَرِزْقِ مَنْ تَعولُهُمْ، فَنَحْنُ نُهَيّىء لَكَ رِزْقَكَ الّذي يَكْفِيك ويكْفِي أسْرَتَك، لتَتَفَرَّغَ للقيام بوظائف رِسالةِ ربّك.

هذا خطابٌ للرَّسُول ﷺ، وهو يَدُلُّ على أَنَّ الْأُمَّة الإسلاميَّة مَسْؤُولَةٌ عَنْ أرْزاقِ من يَحْمِلُونَ رِسالَةَ الرسُولِ من أُمَّتِه، لِيَتَفرَّغُوا لأدَاءِ وظائِفِ

رِسالَتِهِمْ بعِفَّةٍ ومجاهدَةٍ صَادِقَةٍ، وإخْلاَصٍ لله عزّ وجلّ، ولهؤلاء حظٌّ في صنف «في سبيل الله» من أصناف مُسْتَحِقّي الزَّكاة، إذِ المطلوبُ إعفاؤهُمْ من الْعَمَل لاكتساب أرْزاقهم، ليُجَاهِدوا في تأديَةِ وظائِفِ الرّسالة التي اضطلعوا بأعبائها، دَعْوَةً إلى الله، أو نُصْحاً وَإرْشاداً، أو أمراً بالمعروف ونَهْياً عن المنكَر، أو تَعْليماً وتَفْقيهاً بدِينِ الله.

القضية الرَّابعة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي: والعاقبَةُ الحسنَةُ تأييداً من الله ونصراً، وتَوْفيقاً، وثواباً عَظِيماً، للمتَّصِفين بالتَّقْوىٰ، من أجْلِ تَقْواهم لرَبّهم.

أطْلِقَ لفظ التقوىٰ وأُرِيدُ المتَّصِفُونَ بها، لأنَّها هي السَّبَبُ في إكرام الله لهم بأنْ يَجْعَلَ العاقبَةَ الحسَنَةَ مِنْ نَصِيبهم، ثواباً لَهُمْ على تَقْواهم، وهذا من إطلاق السَّببِ وإرَادةِ المسَبَّبِ إيجازاً في العبارة، وأصْلُ العبارة: والعاقبة الحسنة للمتقين بسَبَب تَقْواهم.

ويُفْهَمُ بالمقابل أنَّ العاقبة السيّئَةَ للعُصَاة وللمجرمين.

التَّقْوَىٰ: اسْمٌ للاتقاء، وهو أنْ يجعل الإنسان بيْنَه وبَيْنَ مَا فِيه ضُرٌّ أو أذىً له ما يَحْفَظُهُ ويَقِيه.

وتقوىٰ الله، تتحقَّقُ بفِعْلِ مَا أَمَرَ الله بِه أمْرَ إيجاب، وتَرْكِ ما نَهَىٰ الله عنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

وفوق مَرْتَبَةِ التقوى مَرْتَبَةُ البرّ، وفوقهما مَرْتَبَةُ الإحسان.

والعاقبة الحسنة للمتقين في الدُّنيا تكون بالنصر والتأييد من الله، أو باكتساب الشهادة، أو بالثواب العظيم. وفي الآخرة تكون بالمنازِل الرَّفِيعة في جناتِ النعِيم، التي ينالون فيها ما لا عيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بشَر.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾:

﴿لَوْلَا﴾: هنا حَرْف تحضيض مثل: «هَلَّا».

﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: أي: هلَّا يأتينا محمّد بآيةٍ خارقةٍ مَشْهُودَةِ الآثَارِ مِنْ رَبِّهِ القدير، كعَصَا مُوسى، وكناقة صالح، وكإحياء عيسىٰ الموتى بإذن الله.

والمعنَىٰ: فإذَا جَاءَ محمَّد بمِثْلِ هٰذِه الآيَاتِ آمَنَّا به.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: جاء تفسير البيّنة في سورة (البيّنةِ/٩٨ مصحف/١٠٠ نزول) بأنَّها: رَسُولٌ مِنَ الله يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فيها كُتُبٌ قَيِّمَة. **والبيّنَةُ** في اللُّغَة: هي الواضحة الظاهرة الّتي لا شَكَّ فيها، ولا غَبَشَ عليها: يقال لغة: «بَأنَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً، فَهُو بَيِّنٌ وَهي بَيِّنَة» أي: اتَّضَحَ وظهر بجلاء. وتُطْلق البَيّنَةُ على الحجَّةِ الواضحة.

ولفظ «بَيِّنَة» أو «الْبَيِّنَة» كثيراً ما يأتي صفة لموصوف محذوف، ويُقَدَّرُ في كلِّ نَصٍّ بما يُنَاسبه.

وقد نظرْتُ في لفظ «البيّنَةِ» في القرآن فوجَدْتُ أنَّها أطْلقَتْ على الرسالةِ الرَّبّانيّة الواضحة، وعلىٰ الرسول، وعلى الصحف والكتب المنزَّلَة من عند الله. وعلى الآيات الخوارق المعجزات الواضحات الجليّات، وعلى البراهين الواضِحَةِ القاطعة.

والقرائن في هذا النّص الذي نَتدبَّره من سورة (طه) تُشِيرُ إلَىٰ معجزة القرآن المجيد، وتُشِير أيْضاً إلى الرَّسُول محمّد الّذِي جاءت البشارات بِهِ في الصحف الأولى.

فالقرآنُ اشْتَمَلَ عَلَىٰ زُبْدَةِ مَا فِي الصُّحُفِ الأولَىٰ، وزِيَاداتٍ عظيماتٍ لم تأتِ فيها، وهو آيَةٌ عقْلِيَّةٌ مُعْجِزَةٌ، وعناصِرُ إعجازه: بيانيَّةٌ بَلاَغِيّة، ومُطَابَقَةُ ما جاء فيه للحقائِق العقليَّة الّتي تَشْهَدُ بها العقول السَّلِيمَةُ، وتُثبِتُها التجْرِبَاتُ المتكرِّرَات، وللحقائق الكونيّة الّتي شَهِدَتِ الْعُلومُ الصَّحِيحةُ بعْدَ دِراسَاتٍ مستفيضات مُضْنِيَاتٍ من قِبَلِ عُلَمَاء الكونيات بأنّها حقٌّ وصِدْق، ومطابقَةُ أنبائِه المستقبليَّة لما تحقَّقَ مِنْها في الواقع، وظاهرٌ أنَّ تَحقُّقَ الْبَعْضِ يَدُلُّ علىٰ أنَّ مَا لَمْ يأتِ وقْتُ تَحقُّقِه، سيَتَحقَّقُ في ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنيا، أو سَوْف يَتَحقَّقُ في يَوْمِ الحياة الأخرى.

ومحمَّدٌ ﷺ بمَثَابَةِ بَيِّنَةٍ جَلِيَّةٍ، في صفاتِهِ الممتازة، وخُلُقِهِ العظيم، وبما جاءَ بشَأْنِهِ مِنْ بَشَائِرَ في الصُّحُفِ الأولى.

فلَوْ أنْصفَ كُبَراء مُشْرِكي قُرَيشٍ، إبَّانَ التنزيل، ولَمْ يَسْتَكْبِرُوا، ولم يَتَبِعُوا أهواءهم، وتَقْلِيدَهُمُ الأعْمَىٰ لِمَا كَانَ عَلَيْه آبَاؤُهم، لَعَلِمُوا أنَّ القرآنَ وَحْدَهُ بَيّنَةٌ كافِيَةٌ لِمَنْ يُرِيدُ الاقتناعَ بالحقّ، ولَعَلِموا أنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ يَكْفِي أنْ يَكُونَ هو وحْدَهُ بَيّنَةً واضحةً، بصِفَاتِه الممتازة، وخُلُقِه العظيم، وبمَا جاء في صُحُف الأوّلِينَ بشأْنِهِ من بَشَائِر، وَبِتلاَوَتِهِ آيَاتِ الله البيّناتِ المعجزاتِ، ببَلاَغَتِها، وبما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ حقٍّ وصِدْقٍ وهِدَايَةٍ إلى كلّ ما هو خير وفضيلَةٌ ورُشْدٌ.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أرْسَلْنَا إلَيْهم البيّنَةَ، الَّتي هِيَ رَسُولُ مِنَ الله يَتْلُو صحفاً مُطَهَّرَةً، فِيها كُتُبٌ قَيّمَةٌ، هِيَ زُبْدَةُ مَا فِي صُحُفِ الرُّسُلِ السَّابقين وكتُبِهِمْ، وبِهـٰذا الإرْسَال قَطَعْنَا أعذارَهم الّتي كانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أنْ يَعْتَذِرُوا بها.

ولَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بسَبَبِ كُفْرِهم وجَرَائِمِهم بعذابٍ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَهُمْ

بالْبَيّنَةِ، لقالوا: يا رَبَّنا هَلَّا أرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً، يَتْلُو عَلَيْنا آياتِكَ فَنَتَّبِعَها مِنْ قَبْلِ أنْ نَذِلَّ بإنْزَالِكَ العذابَ علَيْنا، ومِنْ قَبْلِ أنْ نَخزَىٰ به.

أي: لقالوا هذا القول عند مشاهدتهم وسائل التعذيب الّتي تَنْزل عليهم، أو يَوْم الدِّين حِينَ إحضارِهِمْ لمحكَمَة الحساب وفَصْلِ القضاء، إلّا أن إرسال الرسول الذي تَلا عليهم كِتَابَ رَبِّهم قَطَعَ أعْذَارهم، فجَعَلَهم لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَقُولوا هذا القَوْلَ أو نظيرَه.

﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾: أي: من قبلِ أنْ نَضْعُفَ ويَنْزِلَ بِنَا الْهَوَان، يقال لغة: «ذَلَّ، يَذِلُّ، ذُلًّا، وذِلَّةً، ومَذَلَّةً» أي: ضَعُفَ وهَانَ، والمرادُ هنا الهوان، لأنَّ ضعف الإنسان ملازمٌ له.

﴿وَنَخۡزَىٰ﴾: أي: وأنْ نَقَعَ في الشَّرِّ والعذاب الأليم، وأنْ نَفْتَضِحَ بالقَبائِحِ والسَّيئَاتِ المورثَاتِ للخَجَلِ الشَّدِيد منها، وأنْ نَسْتَحْيِيَ ممَّا نَزَلَ بنا من ذُلٍّ وهوانٍ. **الخزيُ**: يَدُلُّ عَلَىٰ كُلّ هٰذِهِ المعاني.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾:

﴿كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾: أي: كُلٌّ مِنَّا ومِنْكُمْ مُنْتَظِرٌ، فانْتَظِرُوا فَنَحْنُ مُنْتَظِرُونَ.

﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: أي: الطريق الواسِعُ المعتَدِلُ، الذي لا اعْوِجاجَ فيه ولا انْحِراف، ولا ارْتِفَاعَ فيه ولا انخفاضَ.

﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾: أي: ومَنِ اهْتَدَىٰ في مَسِيرَتِهِ في حياتِهِ لسُلُوك الصراط السَّوِيّ.

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ، قَدْ بَدَؤوا يتهامَسُونَ فيما

بينَهُمْ، دون إعْلاَنٍ بمجهور القول، ودُون إشاعَةٍ إعلاميَّةٍ فِي جماهيرهم، إِبَّانَ نزول سورة (طـه) قَائِلين: نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنُونِ وحوادث الدَّهْر الّتي يموت فيها، وعندئذٍ نتخلَّصُ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ، ونضطهِدُ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، ونُمَزِّقُهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

ففضَحَ الله عزّ وجلّ بهذهِ الآيَةِ مَا كانَ فيما بينهم من تَهامُس، وعلَّمَ رَسُوله أن يَقُولَ لهم بعبارَةٍ مُجْمَلَةٍ عامَّة، يفهم دلالالتها أذْكِيَاؤُهُمْ وفُطَنَاؤهم: كُلٌّ مِنَّا ومِنْكُمْ مُتَرَبِّصٌ، أنْتُمْ مُتَرَبِّصُون، ونَحْنُ مُتَرَبِّصُون. والذكِيُّ الفِطِنُ يُدْرِكُ الغرضَ مِنْ هـٰذا الْقَوْلِ المجْمَلِ الّذي يوجِّهُهُ الرَّسُول ﷺ لهم.

والمعنى: أنتم تنتظرُونَ مَوْتي بحادثٍ من حوادث الدَّهر، ونَحْنُ نَنْتَظِرُ أنْ يُعِزَّنَا رَبُّنَا ويُؤَيِّدَنَا ويَنْصُرَنَا عليكم، وأَنْ يُذِلَّكُمْ وَيُخْزِيكم.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: فسَتَعْلَمُونَ بَعْدَ زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ، مَنْ هُمْ أصحابُ الصّراطِ السَّوِي، الَّذِينَ اهْتَدَوْا في مَسِيرَتِهِمْ فِي حيَاتِهم لِسُلُوكه، والظفرِ بالنجاح والنتائج الحسنَةِ الّتي يَرْضَوْنها.

وستَعْلَمُونَ حيئنذٍ من هُمُ الَّذِينَ تَنَكَّبُوا الصّراط السَّوِيّ، وسارُوا في سُبُلِ الضَّلاَلَةِ ومَتَاهَاتها، ولم يَهْتَدُوا إلى ما يُسْعِدُهُمْ أو يُرْضِيهم، بل تخبَّطُوا في الظُّلُمَاتِ والضلالات على غير هُدَىٰ، فخابُوا وخَسِرُوا.

والمعنى: فسَتَعْلَمُونَ أَنَّنَا نَحْنُ النَّاجِحُونَ، وأَنْتُمُ الْخَائِبُونَ.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر سُورة (طـه) على ما فتح الله به عليّ

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفضْلِه العظيم

ملاحق تدبّر سورة (طـه)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة وفنيَّة من السورة.

الملحق الثاني: حَوْلَ الشَّفَاعَة يوم الدين وأنواعها.

(١٣)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغية وفَنّيّة من سورة (طـه)

في سورة (طـه) بلاغيَّاتٌ وفنّيَّاتٌ كثيرات، استخرجْتُ منها بتوفيق الله ما يلي:

أوّلاً: الإيجاز

في هذه السُّورة أمثلةٌ كثيرةٌ من الإيجاز، منها ما يلي:

- الإيجاز بالحذف اكتفاءً بدلالَةِ القرائِنِ الفكرية، ونجد هذا في:

(١) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾:

أي: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآنَ وحمَّلْنَاكَ مسؤولِيَّةَ تَبْليغِهِ لِتَشقَىٰ، بأنْ تُضْنِيَ نَفْسَك حُزْناً على الّذِين لم يَسْتَجِيبُوا لَكَ مِن كُبَرَاءِ قَوْمِكَ، الّذِين تَحْرِصُ علىٰ إيمانهم ونجاتهم من عذاب الحريق يوم الدين.

وما أنْزَلْنَاهُ عَلَيْك لتشقَىٰ بتحمُّلِ آلاَم أَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعْ أن تُحَوِّلَهُمْ من الكُفْر إلى الإيمان، كأنَّكَ مَسْؤُولٌ عن تحويلهم، مع أنَّكَ لَسْتَ مسؤولاً إلّا عَنْ تَبْلِيغِهم رِسَالَةَ رَبِّك، وتَذْكِيرِهم بها، إذا وجَدْت أنَّ تَذْكِيرَكَ قَدْ يَنْفَعُهُمْ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في بيان خطابه لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿... فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: لاَ تخاف دَرَكاً من فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ، ولا تَخْشَىٰ غَرَقاً بمِيَاهِ الْبَحْر.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لِقَوْل فِرْعَوْن للسَّحَرَةِ بَعْد أنْ أعلنوا إيمانَهم وإسلامهم:

﴿... وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ... ﴿٧١﴾﴾:

أي: وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ مُثَبِّتاً إيَّاكُمْ فِي جُذُوع النخل. والإيجاز هُنا يَدْخُلُ فيما يُسَمَّىٰ بالتضمين.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في حكايَةِ خطابِهِ لِمُوسَىٰ بجانب الطور:

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾.

أي ومَا أعْجَلَك مُنْفَصِلاً عَنْ قَوْمِكَ. ضُمِّنَ فعل «أَعْجَلَ» معنى فِعْل «فَصَل» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَه، فأغْنَتِ الجملَةُ عَنْ جملَتَيْن إيجازاً.

ثانياً: تأخير ما حَقُّهُ التقديم مراعاة لداعٍ فَنِّيّ

قُدِّمَت الأرضَ على السَّمَاوات الْعُلَا في قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾.

والدّاعي الفنّي هنا هو الجمالُ التناظريّ بيْنَ رُؤوس الآيات، مَعَ مُسَايَرَةِ سَلاَسَةِ نَظْمِ كَلِمَاتِ الآيَة.

ثالثاً: الاختيارُ الحكيم بين البدائل البيانيّة

ومن الاختيار الحكيم بيْنَ البدائل البيانيّة في السّورة ما يلي:

(١) اختيار مكالمة الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السَّلام بضمير المتكلّم المفرد، إذْ كانت المكالمة تقتضي الإيناس، ومنه ما يلي:

• ﴿... يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

• ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

• ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

• ﴿... فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

(٢) اختيار الحديث بضمير المتكلّم العظيم في البيان المتعلّق بعظَمَةِ رُبُوبيَّة الرَّب جلّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، أو حينَ تقتضي الحكمةُ تَرْبيَةَ المهابَةِ، وهذا كثيرٌ في السورة. ومنه ما يلي:

• ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾﴾.

• ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

• ﴿... فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ... ﴿٤٠﴾﴾.

• ﴿... فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

• ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ... ﴿١٠٤﴾﴾.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ... ﴿١١٣﴾﴾.

• ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾﴾.

• ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ... ﴿١١٦﴾﴾ وحتى الآية ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

• ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ... ﴿١٢٧﴾﴾.

• وانظر الآيات: «١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٤».

رابعاً: فنِّيَّة مُراعاةُ رؤوسِ الآيات وطريقةُ بنائها

من فنّيَّةِ مُراعاة رؤُوس آيات السورة، اختيار كلمات لها ذاتِ وقْعٍ على السّمع خفيف متناظر، لا ثِقَلَ فيه، ولا نَشَاز ولاَ خُشُونَة، وأكثر هذه الكلمات تنتَهِي بألف مقصورة، أو بياءٍ مَدِّيَّة، أو بألِفِ تَنْوينِ حَرْفٍ منصوبٍ يوقف عليه بالمدّ، أو نحو ذلك.

ومنه ما سبَق في: ثَانياً: تأخير ما حَقُّهُ التقديم».

واختير لمعظم آيَاتِ السُّورة أن تكُون قصاراً سَهْلَةً في النُّطْق، تَجْرِي على السَّمْع جرَيَانَ النَّسَمَاتِ الحانياتِ على ناعِمِ الشَّجَر.

خامساً: الاستفادة من المناسبة لبيان ما يُشَابِهُها

ومن أمْثِلَة هذا الفنّ من فنون الدُّخول في كلام ما، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ وهو يكَلّمُ مُوسَى عليه السَّلام:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ . . . ﴿٣٩﴾﴾.

لقَدْ كانَ إِتيانُ مُوسَىٰ سؤْلَهُ مِنَّةً مِنْ رَبِّهِ ٱمْتَنَّ بها عليه، وكانَ بيَانُ هٰذا مُنَاسَبَةً لبيَانِ مَا امْتَنَّ الله به عليه، إذْ كانَ طِفْلاً مَحْكُوماً علَيْهِ وعَلَىٰ كُلِّ مواليد بَنِي إسْرائيل الذكور حينَئِذٍ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ بالقتل، لَكِنَّ الله أَنْجاهُ بِأَلْطَافِه الخفيَّة.

وتَبِعَ هـٰذَا امتنانُهُ عليه بالرِّسالَةِ. وظَاهِرٌ أَنَّ بَدْءَ الْحَدَثِ قَدْ كَانَ امتِنَاناً من الله عزّ وجلّ عليه بالمكالَمة.

سادساً: الإطنابُ المفيد النافع

جاء الإطناب المفيد النافع، في إجابَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلام رَبَّهُ عن عَصاه، وكانَ يَكفِيهِ أن يَقُول: هِيَ عصايَ.

لكِنَّهُ أطالَ في الإجابَةِ، ليُطِيلَ أُنْسَهُ بمكالمة رَبّه، وليُظْهِرَ شَجَاعَتَهُ في محادثَتِه، فَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ أغْرَاضِهِ من اتّخاذِه العصا. فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

إنّ الزيادة على: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ في مَقَام مكالَمةِ الرَّبِّ من الإطنَابِ الجميل النافع المفيد، بشرط أن تكونَ لها صلة بالموضوع.

سابعاً: إلحاق الكلام الصادر عن الله بالكلام المحكيّ عن غيره لتصديقه

من الإبداعات القرآنية إلْحَاقُ الكلام الصادر عن الله عزّ وجلّ، بالكلام المحْكيّ عَنْ غَيْرِه، وعَطْفُهُ عَلَيْهِ لِلْإشْعَارِ بأنّ الكَلام المحكِيَّ عَنْ غَيْرِه حَقٌّ وصِدْقٌ، وهُوَ بَمَثَابَةِ كلامٍ صَادِرٍ عَنِ الله عزّ وجلّ.

ومن أمْثِلَتِه في السُّورَةِ مَا جَاءَ فيها من بيان حوار بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ وهكذا حتى آخر الآية (٥٥).

لَقَدْ أُلْحِقَ الْكَلَامُ الصَّادِرُ عَنِ الله عزّ وجلّ، بدءاً من قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ وحتى آخر الآية (٥٥) بالكلام الّذي كان يجيب به موسَىٰ عليه السَّلام عَدُوَّ الله فرعون، وعُطِف عليه للدّلالة على أنّ مَا أجاب به موسَىٰ حقٌّ وصِدْقٌ، ويُضَافُ إلَيْهِ الكلامُ الصادر عن الله عزّ وجلّ.

ثامناً: استخدام اسم الإشارة في غَيْرِ مَا وُضِعَ له لداعٍ بَلاغي

ومن هٰذا الفنّ استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ الْبَعِيدِ، للدَّلاَلَةِ على بُعْدِ مَكَانَتِهِ ارْتِقَاءً، أو انْحِطَاطِهَا البعيد تَسَفُّلاً. ومنه:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾.

تاسعاً: الاستعارة البديعة

ونجد هذه الاستعارة البديعة في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾.

اسْتُعِيرَ في هذه الآيَةِ المدُّ الّذِي يَكُونُ للأيْدِي عادةً، لِتَعَلُّق هَوَىٰ النَّفْسِ بالمحبُوبِ من الدُّنيا، الذي تُشَاهِدُهُ العيون، وأُطْلِقَ عَلَىٰ نَظَرِ العينَيْنِ لَهُ بِتَشَهٍّ وطَلَبٍ من النفس.

وشُبِّهَتْ لذَّاتُ الحيَاة الدُّنيا وزيناتُها بالزَّهْرَةِ الجميلة المنظر والحسنة الرائحة، السَّريعَة الزّوال والْفَنَاء، بجامع كَوْنِ كلٍّ منهما متاعاً قَليلاً، وحُذِفَ المشبَّهُ، واسْتُعِيرَ لفظ المشبَّهِ به وهو لفظ «زَهْرَة» للدّلالة بِهِ عَلَىٰ المشبَّهِ، حتَّىٰ كأنَّ الحياة الدُّنيا كُلَّها زَهْرَةٌ سَرِيعةُ الزّوال والفناء بجانب الآخرة الخالدة.

عاشراً: الحصْرُ والْقَصْر لداعٍ فكريٍّ تقتضيه البلاغة

ونجد هذا الحصْرَ والقصر في نصوص من السورة، منها ما يلي:

(!) قول الله عزّ وجلّ في الآيَة (٦٩) خطاباً لموسى عليه السَّلام:

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾.

أي: مَا صَنعُوا بأعْمَالهم الّتِي رَأَيْتَ آثارَهَا، إلّا كيْدَ سَاحِرٍ يُخَيِّلُ لِلْعُيُونِ مَا لَيْسَ لَهُ حقيقة، إذْ لَمْ يغَيّر من واقع أدواتِهِمْ شيئاً.

أداة القصر هُنا «إنّما». وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ إذا أُضِيفَتِ الْقُيودُ المطْلُوبَة الَّتِي أوضَحْتُها.

(٢) قولُ الله عزّ وجلّ حكايَةً لقول هارون عليه السَّلام لِلَّذِين اتَّخذوا العجلَ من بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾.

أداة القصر هنا «إنّما» أي ما حَالُكُمْ مَعَ الْعِجْلِ إلّا حَالُ مَنْ فُتِنَ بِشَيْءٍ افْتِتَاناً خِدَاعِيًّا مُزَيّفاً فتعلّقَ به، وهذا أَحَدُ معاني الفتنة، إذْ لَيْسَ لِلْعِجْلِ الذي لَهُ خوارٌ مِنَ الإلَٰهِيَّةِ شيء.

والمعنى: أأكّدُ لَكُمْ أنكُمْ مَفْتُونُونَ به ومَخْدُوعُونَ بِه، وهو زَيْفٌ، فما في الْعِجْلِ إلّا الزَّيفُ والْبَاطِلُ بالإضافَة إلى صفة الإلَٰهِيَّة.

والقصر هنا قصر إضافي، وهو من قصر الموصوف على صفة.

حادي عشر: خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى أغراض أخرى

من خروج الاستفهام عن أصل دلالَتِه إلى أغراض أخرىٰ قد تكونُ من لوازم الاستفهام، ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾﴾؟.

الغرض من الاستفهام هُنَا استثارةُ المتَلَقِّي لمعْرِفَةِ المسْتَفْهَمِ عنه، كي يُوجِّه عنايتَهُ وَكامِلَ انْتِبَاهِهِ للتَّلَقِّي.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾؟.

والغرض من الاستفهام هنا إيناسُ موسَى عليه السَّلام، ومنْحُهُ الجُرْأَةَ على أَنْ يُحَادِثَ رَبَّهُ.

واختار الله عزّ وجلّ سُؤالَ مُوسَىٰ عَنْ عَصَاهُ لأنَّ في سؤالِهِ عنْهَا تَوْطِئَةً لِجعَلِهَا آيَةً مِنْ آيَاتِ رَبِّه له.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لقَوْلِ مُوسَىٰ لجُمْهور بني إسرائيل الذين اتَّخَذُوا العِجْل:

﴿... قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾؟.

الغرضُ من الاستفهامَاتِ الوارداتِ في هـٰذا البيان، توبيخ مُوسَىٰ عليه السَّلام لقَوْمِهِ بني إسْرائيل.

فالاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهامٌ توبيخيٌّ.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن الْعِجْل الذي اتَّخذَهُ جُمْهُورُ بني إسرائيل:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾؟.

الغرض من الاستفهام الوارد في هـٰذه الآيَةِ توبيخ مُتَخِذِي الْعِجْلِ من بني إسرائيل، وبيَانُ سَفَاهَةِ عُقُولهم، وضعْفِ مدارِكِهِمُ الفِكْرِيّة، إذْ افْتَتَنُوا وانْخَدَعُوا بظاهِرَةٍ لاَ قيمة لَهَا عِنْدَ ذوي العقل السّديد، والرأْي الرَّشيد.

(٥) قول الله عزّ وجلّ بشأنِ المشْرِكين إبّان تنزيل سورة (طـه) فَمَنْ بَعْدَهم من الكافرين:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ... (١٢٨)﴾؟.

الغرض من الاستفهام هُنَا التوبيخ، إذْ لَمْ يَنْتفع الكافرون من هدايَةٍ وبيان.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿... أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٣٣)﴾.

الغرض من الاستفهام هُنَا التوبيخ أيضاً، إذْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لمَا تحقَّقَ فِي الرَّسُولِ وفي القرآنِ مِنْ بَيِّنَةٍ كافِيَةٍ لمن أرادَ أَنْ يَقْتَنِعَ بالحقّ.

ثاني عشر: التوكيد لوجود دواعٍ بلاغيّةٍ تَسْتَدْعِيه

ونجد هذا التوكيد في نُصوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ السُّورَةِ، واقْتَصِر في هذا المَلْحَقِ على ذِكْر طائفَةٍ مِنها مع الإشارَة إلى مواطن التوكيد بخطٍّ تحت الجملة المؤكدة، راجياً أن يسْتَفِيد القارىء ممّا شَرَحْتُهُ في المستخرجات البلاغيَّة من السُّوَرِ السَّابقَة.

(١) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾.

(٢) ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾.

(٣) ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ... (٤٧)﴾.

(٤) ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾.

(٥) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾.

(٦) ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا... (٧٣)﴾.

(٧) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾.

(٨) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى... (٧٧)﴾.

(٩) ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم... (٨٠)﴾.

(١٠) ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢)﴾.

(١١) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ... (٨٥)﴾.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥)﴾.

(١٣) ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾.

(١٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧)﴾.

(١٥) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (١٢٨)﴾.

وأقتصر على هذه المستخرجات مع يقيني بأنّ في السورة بلاغياتٍ وفنّيّات أخرى، أتْرُكُ استخراجها لأهْلِ التدبّر من بعدي، والحمد لله على فتحه ومعونتِه ومَدَدِه.



(١٤)

الملحق الثاني
حول الشفاعَةِ يَوم الدِّين وأنواعِهَا

أوّلاً: الشفاعَةُ أثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ الله بعباده المؤمنين المذنِبين

بالتفكير السَّليم المتأنّي يُدرِكُ المتَدَبّر، أنّ شفاعَةَ الشّافعين، عند الله رَبّ العالمين، الرَّحمٰنِ الرحيم، لعباده المؤمنين العاصين المذنبين، هي أَثَر مِنْ آثارِ رَحْمَةِ الله العظْمَىٰ، الّتِي وَسِعَتْ كُلَّ داخل تَحْتَ سمائها، ومستظلٍّ بظلِّها، ومُتَعَرِّضٍ لمَا تُفِيضُ من غَيْثٍ عميم.

فهو - جلّ جلالُهُ، وعَظُم سُلْطانه، وَشَمَلَتْ رَحْمَتُه - الَّذِي يمنَحُ بَعْضَ عباده من الملائكة والْمُرْسَلِينَ، والأنبياء والصالحين، تَكْرِيماً يُمَيِّزُهُمْ به، في أَنْ يَشْفَعُوا لبَعْضِ عباده المؤمنين العاصين، المسْرِفين على أنْفُسِهِم بِكَثْرَةِ الذُّنُوب، وهو الّذي يأْذَنُ لَهُمْ بِأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنْ رَغِبُوا في استخدام شفاعَتِهم الّتي مَنَحَهُمُ الله إيّاها، فرداً كَانَ أَوْ أكثر، وهو الذي يَشْمَلُ بِرَحْمَتِهِ المؤمنين العاصين، فيأْذَنُ للشَّافِعِين مِنْ عباده المكْرَمِين والصَّالِحِين، بأنْ يَشْفَعُوا لَهُم، وهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ شَفَاعَتَهُمْ إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَرْحَمَهُمْ بواسِعِ رَحْمَتِه، فيُخَفِّفَ عنهُمْ ممَّا استحقُّوا مِنْ عَذَابٍ بالعْدل، أَوْ يَغْفِرُ لَهُم، أو يَعْفُو عنْهُمْ، أوْ يَرْفَعُ مِنْ دَرَجَاتِهِم في جنّاتِ النعيم.

إذَنْ: فالشَّفَاعَةُ كلُّهَا لَهُ، جلّ جلالُهُ، وعظُمَتْ حِكْمَتُه، وشَمَلَتْ رَحْمَتُه.

وقَدْ دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بشَأْنِ المشركين واتخاذِهم مِنْ دُون الله آلِهَةً شُفَعاء:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: بَلْ اتَّخذَ المشْرِكُونَ مِنْ دُون الله آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ ليكُونُوا لَهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَ الله؟!.

قل لهم يا محمَّدُ، ويا كُلَّ داعٍ إلىٰ الله مِن أُمَّتِهِ: أتَعْبُدونَ شركاءَكُمْ، وتطْمَعُونَ في أنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ عنْدَ رَبّكم، ولَوْ كانُوا لاَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْرِ الكَوْنِ وَلاَ مِنْ أمْرِ أنْفُسِهِمْ شيئاً؟!.

أَتَعْبُدونَهُمْ وَتَطْمَعُونَ في أن يشْفَعُوا لكُمْ عِنْدَ ربكُمْ، ولَوْ كانوا لاَ يَمْلِكُونَ عقُولاً يَفْهَمُونَ بِها شيئاً؟!.

وقُلْ لهم: لِلَّهِ الشفاعَةُ جَمِيعاً، إذْ هو الذي يمْنَحُ الشُّفَعَاءَ التكْرِيمَ بأنْ يشْفَعُوا ضِمْنَ حُدُودٍ لاَ يَتَعَدَّوْنها، فلَيْسَ لَهُمْ أنْ يَشْفَعُوا للمشركين، فَمَن هُمْ أَخَسُّ من المشركين كُفْراً وَجرائم، وهُمْ لاَ يَشْفَعُون ضِمْن الحدُود الّتِي أبانَها الله لهم، ما لَمْ يأذَنْ لهم بأن يشْفَعُوا لمَنْ رَغِبُوا في أَنْ يَشْفَعُوا له، وبشَرْط أَنْ يَرْضَىٰ القول الذي يُقَدِّمُونَهُ في الشفاعة.

ثانياً: المعالجة المباشرة من الله عزّ وجلّ للمشركين بشَأْن معتقدهم الباطل في الشفاعة

وقَدْ جاءت معالَجَةُ الله عزّ وجلّ المباشرة للمشركين بشأنِ معتَقَدِهِم الباطل، في أنّ آلِهَتَهُمُ الّذِين يَعْبُدونَهُمْ من دُونِ الله يشفَعُونَ لهم عنْدَ رَبّهم في البيانات التاليات:

(١) لقَدْ أَبَانَ الله عزّ وجلّ أنّ الشّرْكَ فَمَا هُو أَشَدُّ مِنْهُ وأخسُّ في الدركات، لاَ يَقْبَلُ الله فيه شَفَاعَةَ أحد، مهْمَا كانَ ذا قُرْبٍ من الله جلّ جلالُه، كملَك مقرَّب، أو نَبِيٍّ أو رسُول، أو أحَدٍ من عباد الله الصالحين، مهْمَا كَانَ رَبُّه بِه حَفِيًّا.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (المدَّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشَأْنِ المكذّبين بيَوْمِ الدّين، الّذين ماتُوا وهم كافِرُونَ مُكَذِّبُونَ:

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شفاعَةُ الشَّافِعِينَ لَوْ وُجِدَ لهم شافعونَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ، لكِنْ لاَ يُوجَدُ أَحَدٌ يَشْفَعُ لهم يَوْمَ الدّينِ، وأمّا الّذِين يَدْعُونَ لهم مِنْ مُحِبّيهِمْ في الدنيا، فإنَّ الله لاَ يَقْبَلُ وَلاَ يَسْتَجِيبُ دُعاءَهم، إذْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ الله بأنَّهُ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاء.

(٢) وَأَبَانَ الله عزّ وجلّ للمشركين أنَّهُ يُوَبِّخُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ،

وَيُحَسِّرُهُمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أنَّ شُركاءَهم الَّذِين كانوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لله، وَأَنَّهُمْ شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَه، لا وُجُودَ لَهُمْ مناصِرين لهم، ولا مُدَافِعين عنهم، ولاَ شَافِعِينَ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم، فقال تبارك وَتَعَالَىٰ في سُورَةِ (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مبّيناً لهم ما سَوْفَ يُخَاطِبُهُم بِه يَوْمَ القيامة:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾: أي: مَا أعْطيناكُمْ مُتَفَضّلِين بِهِ عليكم مِنْ مَتاع الحياة الدنيا. يقال لغة: «خَوَّلَهُ الشّيْءَ» أي: أعطاه إيَّاهُ متفضِّلاً بِه علَيْه.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: أي: تَقَطَّعَ مَا كَانَ يَصِلُ بينَكُمْ وبَيْنَ شُرَكَائِكُم ومُضَلِّلِيكُمْ، من عَلاقات مُزَيَّفَاتٍ خَادِعَاتٍ كانَتِ السَّبَب في إضلالكم وغَوَايَتِكُمْ.

والعبارة هنا مِنْ أمْثِلَةِ حَذْف الفاعل للعلْم به من القرائن.

وهذه قراءة نافع، وحفص، والكسائي، وأبي جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَقَدْ تَقطَّعَ بينُكُمْ]** برَفع **[بَيْنُكُمْ]** على أنَّه هو الفاعل، **والْبَيْنُ** على هذه القراءة هو بمعنى: الصِّلَةِ والمودَّة.

كلمة «بَيْن» تأتي ظرفاً مبهماً، لا يتبيَّنُ معناه إلّا بإضافَتِهِ إلى اثنين فصاعداً، كقول الرسول ﷺ: «ما بَيْنَ بَيْتِي ومنبري روضة من رِياض الجنة».

وتأتي بمعنى: ما بين الفريقين أو القوم من صِلَةٍ ومودَّة، أَوْ قرابَة، وبمعنى: ما بَيْنَهُمْ من عداوةٍ وبغضاء.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: أي: وضاعَ عَنْكُم ففقَدْتُم مَا كنْتُمْ

تَزعُمونَ من مزاعم بشأن آلِهَتكم، إذْ لم يكن لَكُمْ بُرْهَانٌ على أنَّها حقٌّ، ولا حُجَّةٌ ذَاتُ إقناع، بل كانَتْ أوهاماً في أدمغتكم، وأكاذيبَ مِنْ سَدَنَتِها مع وساوس الشياطين، لا حقيقة لها. وقَدْ زيَّنَهَا في نفوسِكم تحقيقُها لأهوائِكُمْ وَشهواتِكُمْ، ومسايَرَتها لتقالِيدُكم العمياء.

والْعِلاَجُ هنا يَعْتَمِدُ على تقديم مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهد يوم الدِّين، وهو يدُلُّ عن طريق اللّزوم الذّهْنِيّ على مخاطبتهم في الحياة الدنيا بمضمونه، أي: إنّ الآلهة الشركاء، الّذين تَزْعُمونَ أنَّهُمْ شفعاء لكم عند ربّكُمْ، سوْفَ لا تَجِدُونَ لهم أثراً عند حاجَتِكُمْ إلى شفاعتهم، والسّبب في ذلك أنّكُم اعتقدتم فيهم عقائِد باطلة، لا دليل عليها من عقْلٍ سليم، أو خبر صحيح صادق عن الله ربّكُمْ.

(٣) وَخاطب الله عزّ وجلّ المشركين وسائر الكافرين، مُبَيّناً لهم أنَّه لَيْسَ لهم مِنْ دُون الله وليٌّ يَنْصُرُهُمْ، ولاَ شفيعٌ يَشْفَعُ لهم عِنْدَه، فقال تَبَارَكَ وَتَعالىٰ في سورة (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُون الله الّذي خَلَقَ السَّمَاوَات والأرْض ومَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أحْقَاب زَمَنِيَّة، سمَّىٰ الله كُلَّ حقْبَةٍ منها يوماً، وهو العليم بمقدار كلّ حقبة منها.

﴿مِن وَلِىٍّ﴾: أيْ: ما لكُمْ مِنْ دُونه مِنْ نَصِير، ينْصُرُكُمْ ويَحْمِيكُمْ مِنَ العذاب الذي تسْتَحِقُّونَهُ بالْعَدْلِ على كُفْرِكُم، واتخاذكم شركاء مِنْ دونه تَعْبُدونهم. من: حرف جرٍّ زيدَ لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: أي: ومَا لَكُمْ مِنْ دُونه مِنْ شَفِيعٍ يشْفَعُ لكُم عِنْدَهُ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: ألاَ تَعْلَمُونَ هـٰذِهِ الحقيقة، فَتَضَعُونها في خَزائن

المعرفَةِ عندكم، وَتتذكَّرُونها عند المناسبات الدّاعِيَات، لتصحيح مَسِيرَتِكُمْ في الحياة عَلَىٰ مقتضاها.

(٤) وخاطب الله عزّ وجلّ بني إسرائيل المعاندين، المصرّين على الكفر برسالة محمّد ﷺ، وبما أنزل عليه من رَبّهِ، بقوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أي: واذْكُرُوا أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ في عُصُور أنبيائكُمْ ورُسُلِكم الصالحين على الناسِ حينئذٍ، قَبْلَ أَنْ تَفْسُدوا في أنفُسِكُمْ، وقَبْلَ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأرض.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾: أي: واتَّقُوا عذابَ الله في يوم عظيم شديد الهَوْل، وهو يوم القيامة، يَوْمُ الدّين.

﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾: أي: لاَ تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شيئاً مِنَ الْجَزاء الْعِقَابِيِّ الّذِي استحقَّتْهُ.

والمعنى: فلا تطْمَعُوا بأنْ يَقْضِيَ عنكُمْ أُصُولُكُم الصَّالحون من الحقّ الرَّبَّانيّ الَّذِي يَثْبُتُ عليكم شيئاً، بمَنْحِكُمْ بَعْضَ أعْمالهم الصالحات.

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾: أي: وَلاَ يُقْبَلُ مِنْها فِدْيَةٌ، لَوْ كانَتْ تَمْلِكُ مَا تَفْتَدِي به مِنْ عَذَاب الله، لكنَّها في الواقع لا تَمْلِكُ شيئاً حتَّىٰ تَفْتَدِيَ به.

الْعَدْل: بفتح الْعَيْن مِنْ معانِيهِ الفِدَاء، وهو المراد هنا.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾: أي: وَلاَ يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَنْصُرُ أصْحابَ النفوس الكافِرَة، فيَدْفَع عنها عذاب الله الّذِي يقضي به بِعَدْلِه.

(٥) وَأكَّدَ الله عزّ وجلّ خطابَهُ لكُفَّارِ بني إسرائيل برسالة محمّد، لأنّهم أهْلُ كتاب رَبّانِيّ فِيهِ تَفْصِيلُ كلّ شيءٍ من أُصُول الدين، ولأنَّهُمْ أجْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ بمَعْرِفَةِ هٰذه الحقائق، والخوفِ من عذاب الله يوم الدين، والإيمانِ برسول الله الخاتم وبما جاء به عَنْ رَبّه.

فقال الله عزّ وجلّ لهم في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝١٢٣﴾:

تَحْليلُ هٰذه الآيَة مُنَاظِرٌ لِسَابِقَتِهَا، فلا حاجَة إلى الإعادة.

(٦) وخاطَبَ الله عزّ وجلّ الذين آمنوا برسالة محمّد ﷺ، حَاثّاً لَهُمْ على الإنفاق في سبيله، ومبيّناً لهم أنَّ تَقْصِيراتهم ومعاصِيَهُمْ مَحْسُوبَةٌ عليهم يوم القيامة، إذْ لا يكونُ لَهُمْ يَوْمئِذٍ أموالٌ يُنْفِقُونَ مِنْها، وَلاَ تَنْفَعُهُمْ خُلَّةٌ ولا شفاعَةٌ في أَنْ يُكْتَبَ لَهُمْ أجْرُ إنفاقٍ بَخِلُوا به في الحياة الدُّنيا، في رحلة امتحانهم، وقَدْ تَنْفَعُهُمْ شفاعَةٌ فِي غَيْرِ ذلِكَ.

فقال لهم في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾: أي: من قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يوم القيامة، الّذي لاَ تَسْتَطِيعُونَ أن تكسبوا فيه مالا تُنْفِقُونَ مِنْهُ في سبيل الله، ولا أن تجدوا فيهِ مجالاً للإنفاق يومئذٍ، فتظلُّونَ فيه مَحْرُومين من أجْرِ الإنفاق المندوب إلَيْه، ومستحقين لعقوبَةِ إمْسَاك الإنفاقِ الواجب عليكم.

﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾: أي: وَلاَ يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ خُلَّةٌ تَنْفَعُ عِنْدَ الله، وَلَوْ كان أَحَدُ الْخَلِيلَيْنِ صِدِّيقاً.

الْخُلَّة: خالِصُ المودَّةِ التي تَخَلَّلَتِ الْقَلْبَ. وتُطْلَقُ على الصَّدِيق، يُقَالُ: خُلَّةُ الإنْسَانِ، أي: أهْلُ مَوَدَّتِه. ويطْلَقُ لفظ «الْخُلَّة» على الزَّوْجَة في اللّغة.

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: والكافرون بالله وبيَوْمِ الدِّينِ هُمُ الظالِمُونَ البالِغُونَ في ظُلْمِهم دَرَكَاتِ الظُّلْمِ العظيم الشنيع.

وَكأني بهذه العبارة تَعْطِفُ على محذوف، تقْديرُه: والْمُمْسِكُونَ مَحْرُومُونَ من الأجر العظيم والثواب الجزيل، والكافرونَ هُمُ الظالمون من دَركاتِ شدِيدات الانحطاط والتسفُّل.

ثالثاً: المعالجة بتقديم مشاهد من أحوال المشركين يوم القيامة

إنّ المعالجة بتقديم مشاهد بيانيّة عمّا سيَحْدث مستقبلاً من قِبَلِ عَلِيم خَبِيرٍ، هو واضع خُطَّة الْوُجُود الحادث كُلِّه، ما كان وما هو كائن وما سَيَكُونُ أو سَوْف يكون، تُشْبِهُ المعالَجَةَ بِتَقْدِيم مشاهِدَ بيَانِيّة عما سبَقَ أنْ حَدَثَ في الماضِي، فَفِي كلَيْهما تأثِيرٌ بالِغٌ في نَفْسِ الإنْسَانِ الّذي يتلَقَّىٰ النَّبَأ، رَغَباً أو رَهَباً، إذَا حَصَل لدَيْهِ يَقِينٌ أو ظَنٌّ قَوِيٌّ بِصِدْقِ النَّبأ.

ولهذا كَثُر العِلاَجُ بهٰذَين الأمْرَيْن في القرآن المجيد.

وفي المعالَجَة بِتَقْدِيم المشاهِدِ المسْتَقبَلِيَّةِ يوْمَ الدّين، الَّتي تكْشِفُ أن المشركين وسائرَ الكافِرين، لا شفيع لهم يومئذٍ، نَجِدُ عدّة نصوص قرآنيَّة، أستعرضها بشيءٍ من التدبّر فيما يلي:

(١) جاء في وَصْفِ حَالِ المشركين بَعْدَ أنْ يُكَبْكَبُوا فِي الجحيم، قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٦ نزول):

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ

أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وأُظْهِرَتْ دارُ الْعَذَابِ للضَّالين الفاسِدِين الخائِبينَ، بَعْدَ خَفاءٍ.

يقالُ لغة: «بَرَزَ يَبْرُزُ بُرُوزاً» أي: ظهر بعد خفاء.

الجحيم: اسْمٌ من أسماء النار دار العذاب يوم الدين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ فهي جحيم.

الْغَاوُون: أي: الضَّالُونَ، الفاسِدُون، الخائبون، التاركون سَبِيلَ الرُّشد.

﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾؟: أي: هَلْ يَدْفعُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ رَبِّكُمْ، أو يَدْفَعُونَ عَنْ أنفسهم عذابَه، إذا كانوا ذوي اختيارٍ ورَاضِين بِتَأْلِيهِكُمْ لَهم.

﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾: أي: فَأُلْقُوا فِي الجحيم على وُجُوهِهِمْ ورُؤوسِهِمْ مُنْقَلِبِينَ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَة.

يقال لغة: «كَبْكَبَ الشَّيْءَ» أي: قَلَبَ بَعْضَهُ على بعضٍ وَرَمَاهُ فِي مَهْوَاةٍ.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾: أي: بَحَثْنَا فَمَا وَجَدْنَا مِنْ شَافِعِينَ يَشْفَعُونَ لَنا عِنْدَ رَبّنا. «مِن» حرف جرّ زيد لتأكيد العموم والتنصيص عليه.

﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: «لَوْ» هنا للتمني. أي: فنتَمَنَّىٰ أنْ تكُونَ لَنا رَجْعَةٌ إِلَىٰ حياة الامتحان، فنَكُونَ مِن المؤمنين بالله وبما جاء من عنده، ومؤمنين بيوم الدّين.

(٢) وفي وصف حال الكافرين، الّذِينَ اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً،

وَغرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا، وهُمْ يُعَذَّبُونَ في دار العذاب يَوْم الدين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾:

المعنىٰ: ولقَدْ جِئْنا الكافِرِين بِكتابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِنَا، فصَّلْنَا فيه الحقائقَ الدّينيَّة، علىٰ علم منّا بالواقع والحقيقة، هُدىً ورَحْمةً لِقَوْمٍ لديهم الاستِعْداد لأنْ يُؤْمِنُوا.

هَلْ يَنْتَظِرُونَ إلّا المصِيرَ الّذي تَؤُولُ إلَيْهِ نُذُرُ العذاب الخبريَّة، وحينئذٍ لاَ يَنْفَعُهُمْ إيمانٌ وَلاَ عمل؟!.

يَوْمَ يأتِي تحقُّقُ نُذُرِ العذابِ يوْمَ الدِّين في الواقع المستْقَبليّ، وَيَحلُّ بِهم ما كانُوا قَدْ كذَّبوا بِهِ من قبْلُ، يَقُولُ الكافرونَ الذين تَرَكُوا الإيمان بِمَا جاءَ في كتاب رَبّهم لهم، وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بأحكامه ووصاياه، ولم يَتَّبِعُوا مَا أنْزِلَ إلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ جحوداً أو إهمالاً: قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق.

ويقولون أيضاً متمنِّينَ: هل يوجَدُ لنَا شُفَعَاء يشفَعُونَ لَنَا عند رَبّنا، فَيُخْرِجَنَا من النار، أو يخفّفَ عنَّا شيئاً من عذابها؟. أو هَلْ نُرَدُّ إلى حَياةِ الابتلاء مَرَّةً أُخرَىٰ، فَنَعْمَلَ عَملاً صَالحاً نُرْضِي به رَبَّنَا، غيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّء الذي كُنَّا عَمِلْنَاهُ في رِحْلَةِ الامتحان الأولى؟؟.

لكنَّها أمانيٌّ ضائِعاتٌ لاَ يُسْتَجابُ لها.

(٣) وَأبانَ الله عزّ وجلّ أنَّ المجْرِمينَ يكونُونَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ساكِتين، يَائِسِينَ، نَادِمين، وأنَّهُمْ يومئذٍ لا يَكُون شُرَكاؤُهم شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لهم عند رَبهم، وأنّهم يومئذٍ يكونونَ كافِرين بشُرَكَائهم، إذْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، ولم يَجدُوا لَدَيْهم ولا مِنْهُم دفْعَ ضرّ ولا جلْبَ نفع.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: يكُونُون ساكِتِينَ يائِسِينَ، نادمين. يُقالُ لغة: «أبْلَسَ يُبْلِسُ» أي: قُطِعَ بِه وَسَكَتَ. ويقال: «أَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ الله» أي: يَئِس. ويقال: «أَبْلَسَ» أي: نَدِم.

رابعاً: أدرك هذه الحقيقة مؤمن أصحاب القرية الذين جاءهم المرسَلُون الثلاثة

لقد أدْرك مؤمن أصحاب القرية الَّتي جاءَها المرسَلُون الثلاثةَ أنَّ الآلِهَةَ التي يتَّخِذُها المشركُونَ من دون الله، لا تُغْنِي شفاعَتُهم عن عابديها شيئاً.

إنَّ أَصْحَابَ القرية كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم الثلاثة، وهَدَّدُوهُمْ بالرَّجْم أو بعذاب أليم، فجاء هذا المؤمن من أقْصَىٰ المدِينَةِ يَسْعَىٰ، وانْتَصَرَ للرسُل الثلاثة مواجِهاً مَلأَ قَوْمِهِ وجُمْهورَهم الأعظم، وقال لَهُمْ دفاعاً عن إيمانه، ما أبَانَ الله عزّ وجلّ مَعْناهُ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بقوله جلّ جلالُهُ حكايةً عنْهُ:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

خامساً: البيانات التعليميّة للرَّسُول ﷺ كيف يُعالج المشركين بشأن عقيدتهم في شفاعَةِ آلِهَتِهِمْ لَهُمْ عند رَبهم

جاء في القرآن عدّة نصوص تَعْليميَّة، يُعَلّم الله عزّ وجلّ بها رسُوله وكُلَّ داعٍ إلىٰ الله من أمّته، كيف يُعالج الّذين يَزْعُمونَ أنَّ شركاءَهُمْ

يَشْفَعُون لهم عند رَبّهم، فيكفِّرُ الله عنهم بشفاعتهم خطاياهم، وفيما يلي استعراضها مع بعْضِ تَدَبُّرٍ لها:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: يا أيها المشْرِكون، أخْبِرُونا كيْفَ دَخَلَتْ إلى قلوبكُم عَقِيدَةُ أنَّ آلِهَتَكُمْ الّتي تَعْبُدُونها من دُونِ الله تَشْفَعُ لَكُمْ عنْدَ الله، وَهُوَ أمْرٌ لا يُمْكِنُ أنْ يُعْلَمَ إلّا بإعْلاَمٍ من الله عزّ وجلّ.

لكِنَّ الله عزّ وجلّ قد أبَانَ لَكُمْ فيما أنْزَلَ على رسُولِه أنّ هؤلاَء الشُّرَكاء لاَ يَضُرُّونكُمْ ولا يَنْفَعُونكُمْ بشيء.

أفَتُنبّئُونَ الله بنَبَإٍ لاَ يُمْكِنُ أنْ يُعْلَمَ إلّا بإعْلاَمٍ منْه، وهذا أمْرٌ لاَ يَعْلَمُ اللهُ لَهُ وُجوداً في السَّماوات، ولا يَعْلَمُ لَهُ وُجُوداً فِي الأرْض.

أي: لا وُجودَ لَهُ قَطْعاً، إذْ لو كان لَهُ وجُودٌ لَعَلِمَهُ تَبارَك وتَعالى، لأنَّه محيط بكلِّ شيءٍ علماً، فَنَفْيُ عِلْمِ الله بوُجُودِ شيء ما، هو نَفْيٌ لوُجُودِهِ بصُورَة قطعيَّةٍ لاَ شَكَّ فيها.

وقد أكْمَلَ الله عزّ وجلّ الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تَنَزَّهَ الله وتَعَالىٰ عُلُوّاً كبيراً عَنْ أن يكونَ لَهُ شُرَكاء فِي إلَهِيَّتِهِ، ولو كانَ ذَلِكَ فِي حُدُود أنْ يَشْفَعُوا لعَابِدِيهم عند رَبّهم.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، فلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمّتِه بخطابٍ إفرادي:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وأنْذِرْ بِمَا أُوحِيَ إلَيْكَ منْ آيَاتِ القرآن، الذين تَظُنُّ بأنَّ لديهم اسْتِعْدَاداً لأنْ يَخافُوا أَنْ يُحْشَرُوا إلى رّبهم، وأنْ يُحَاسِبَهم، ويَفْصِلَ القضاء بِشَأْنِهم، ويجازِيَهم على مَا يكْسِبُون في رِحْلَةِ امتحانهم بِعَدْله، حالَةَ كَوْنهم ليْس لَهُمْ من دُونه وَلِيٌّ يَنْصُرُهم، ويَدْفَعُ عَنْهُمْ عذابَه، ولا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْده، لِأَنَّهُمْ كَفَرَةٌ لاَ تُقْبَلُ شَفَاعَةُ أَحَد فيهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أي: ونَحْنُ نَرْضَىٰ لهم أَنْ يَتَّقُوا فَيُؤْمِنُوا وَيَنْبِذُوا الشرك، وكُنْ أنت أيُّها الدَّاعي رَاجِياً أن يَتَّقُوا لتُضاعف وسائِلك الحكيمةَ في دعَوتهم، متى وجَدْتَ لدَىٰ من تَدْعُوهم من المشركين الاستعداد لأنْ يَخْشَوْا أنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِم، ولَوْ على سبيلِ الظنّ.

(٣) قول الله عزّ وجلّ أيضاً في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكُلّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾:

أي: وَدَعْ هؤلاء فَلا تُتَابِعْ مُجاهَدَتَك لَهُمْ، فَقَدْ دَلَّتْ أحوالُهُمْ وأَوْضَاعُهم على أَنَّهُمْ ميؤوسٌ مِنْ إصْلاحِهِمْ عن طَرِيق إراداتِهم الحرَّة، إذ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لعِباً ولَهْواً، فلَمْ تكُنْ نظرتُهُمْ إلَىٰ الدِّينِ إلّا كما يَنْظُرُونَ إلى أَلْعَاب يَلْعَبُونَها، وأشْيَاءَ يَتَلَهَّوْنَ بِها لاَ جِدَّ فيها، وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا بما فيها من شهواتٍ ومُرْضِيَاتِ أهواء ومُسْكِتَاتِ غرائز.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالقرآن مَنْ كُنْتَ أبلَغْتَهُمْ إيَّاه، إنْ شَعَرْت بأنّ الذكْرىٰ تَنْفَعُهُم، ولم يَصِلُوا إلىٰ حالَةٍ ميؤوسٍ منها.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مُحَذّراً أَنْ تُرْتَهَنَ نَفْسٌ وتُحْتَبَس تَوطِئَةً لِتَنْفِيذِ مُعاقَبَتِهَا بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ مِنْ كُفْرٍ وإثْمٍ عظيم، في رحْلَةِ امتحانها في الحياة الدنيا.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حالَةَ كوْنِها لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ نَصِيرٌ يَنْصُرُهَا أَوْ يَدْفَعُ عَنْها عَذَابَ رَبّها، ولَيْسَ لها شفيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَهُ، لِيَرْفَعَ العذابَ عَنْها.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: أي: وإنْ تَبْذُل النَّفْسُ المرْتَهَنَةُ للعَذْابِ كُلَّ فِدْيَةٍ لاَ يُؤْخَذْ منها.

علىٰ أنَّ أيّ نَفْسٍ كافِرَةٍ لاَ تَمْلِكُ يَوْم الدّينِ شَيْئاً تَبْذُلُه فِدْيَةً تُسْقِطُ عنهَا عَذَابَ الله الّذي تَسْتَحِقُّهُ بالْعَدْل.

ويظهر أنّ طرْحَ هٰذا الاحْتمالِ هو من قَبيلِ استِقْصَاءِ الاحتمالاتِ لإسْقَاطها، وَلاَ يَدُلُّ على أنَّ أحَداً من الكافرين يَمْلِكُ شيْئاً في موقف الحساب يَفْتَدِي به.

أمّا المؤمِنُون فيُقْتَصُّ ما عليهم من حُقُوقٍ للنَّاسِ من حسناتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: أولئِك البعداءُ الّذينَ انْحَطُّوا في اتّجاهِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ، هُمُ الّذِينَ ارْتُهِنُوا وحُبِسُوا بما كَسَبُوا مِنْ كُفر.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي: أُعِدَّ لَهُمْ شَرَابٌ في الجحيم يضطرُّونَ أنْ يَشْرَبُوه، هو من ماءٍ حارٍّ شَدِيدِ الحرارة، فيه تَعْذِيبٌ لهم.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾: أي: وأُعِدَّ لَهُمْ في الجحيم أيضاً عَذَابٌ شديدُ الإيلام.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾: أي: بسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بالله ورسُوله وبما جاء عن الله من الحقّ.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ، فلكُلِّ داعٍ إلى الله مِنْ أُمّتِه:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾:

أي: وأنْذِرْهم عذابَ الله يَوْم القيامة، مخبراً ومحذّراً لهم منه.

سمَّىٰ الله عزّ وجلّ يَوْمَ القيامَة: «يَوْمَ الآزِفَة» إشعاراً بِقُرْبها بالنِّسْبَة إلىٰ عُمْرِ النَّاسِ في الأرض.

﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: أي: القريبة، يقالُ لغة: «أَزِفَ الْوَقْت، يأْزَفُ، أَزَفاً، وأُزُوفاً» أي: دَنَا وَقَرُب. ومنه قولهم: أزِفَ التَّرَحُّلُ، أي: دَنا وقْتُهُ وقَرُب.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: إذِ الْقُلُوبُ خائفَةٌ مُنْشَمِرَةٌ، يَشْعُرُ أصْحَابُها مِنْ شدَّةِ الخوف بأنَّها وصَلَتْ إلىٰ حناجِرِهم من انْشِمَارِها، خوفاً وَهلعاً، ويَدْخُلُ مِثْلُ هذا التّعبير المبالَغ فيه فيما يُسَمَّى عند الأدباء المعاصرين: «الصدق الفنيّ».

﴿كَـٰظِمِينَ﴾: أي: حالَةَ كونِهِمْ ضَاغطِينَ علَىٰ نُفُوسهم الَّتي امتلأَتْ خَوْفاً.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾: أي: مَا للظالمين ظلماً هو من دَرَكَةِ الكُفْر، من صَدِيق حَمِيمٍ يَرْحَمُهُمْ وَيَشْفَقُ عَلَيْهم، وَلاَ شَفِيعٍ يُطاعُ، على احْتِمَال أَنْ يَشْفَعَ لهم.

سَادساً: الشفاعة لعُصَاةِ المؤمنين

لقَدْ أَغْلَقَ الله عزّ وجلّ أبواب الشفاعَةِ إغْلاَقاً تامًّا في وجْهِ الكافِرين المشركين، فَمَنْ هم أخَسُّ منهم في الكُفْر وارْتكاب الجرائم العظمى.

وأحَطُّ منهم في الدَّركاتِ، في أنْ يشفع لهم شافعٌ مَا لنجاتهم، وقد تنفع الشفاعة بالتخفيف من عذابهم.

لكنَّهُ جلَّتْ حكمَتُه وَعَظُمَتْ رَحْمَتُه، قَدْ فتحَ بعضَها بالنسبَةِ إلى عصاة المؤمنين، مُرْتكبِي كبَائر الذُّنوب، فمَنْ دُونَهُم في الْإِثم.

وَجعل جلّ جلالُهُ لهذه الشفاعة شَرْطين:

الشرط الأوّل: أنْ يأذَنَ الله عزّ وجلّ للشَافِع بأنْ يَشْفَعَ للمشفوع له.

الشرط الثاني: أنْ يَرْضَى الله عزّ وجلّ قَوْلَ الشَّافِعِ في المشفوع له.

وفيما يلي استعراض النصوص مع بعض التدبّر لها:

(١) قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: لا تَنْفَعُ الشفاعَةُ إلَّا شفاعَةَ شَافِعٍ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰن بأنْ يَشفع، ورَضِيَ قَوْلَهُ فِي شفاعَتِهِ لِمَنْ يشْفَعُ لَهُ فَرْداً أمْ أكثر.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

﴿وِرْدًا﴾: أي: مُشَاةً عِطَاشاً، **الوِرْدُ**: الْوُرّاد، وهُمُ الَّذِين يَرِدُونَ الماء. **المجْرمُونَ**: هُمُ المحكوم عليهم بالخلود في دار العذاب.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: أي: لَمْ يمْنَحْهم الله عزّ وجلّ ولَمْ يُمَلِّكْهُمْ أن يَشْفَعَ لهم أحد، ملَكٌ أو نبيٌّ أوْ رَسُولٌ أوْ شَافِعٌ مِن الصالحين.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أي: لكِنْ من اتَّخذَ عنْدَ الرَّحْمٰن عَهْداً بإعلانه إيمانَه وإسلامَه ومُبَايَعَتِه علىٰ ذلِكَ، فإنّ الله جلّ جلالُهُ يمْنَحُهُ

أنْ يَشْفَعَ له شافِعُون، لتخفيف العذاب عنه، أو إنقاذه منه، أو تَرْقِيَةِ دَرَجاتِه في جنَّاتِ النّعيم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) خطاباً للكافرين منكري رسالة محمّد ﷺ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾:

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في ستِّ أحقابٍ زمَنيَّةٍ لاَ نعْلَمُ مقدار كلٍّ منها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: الاستواءُ في اللُّغَةِ: الاعتدال والاستقامة، واسْتَوىٰ علَىٰ كذا: أي: اعتدلَ واستقامَ عليه.

واستواءُ الله على العرش، نقول فيه ما قال الإمام مَالكٌ: الاستواء غير مَجْهول، والكيْفُ غَيْرُ معقول، والإيمانُ بِه واجب، والسؤالُ عنه بدعة.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: يتصرَّف بكُلِّ شيْءٍ في الكَوْنِ مِن بدايَتِهِ حتى آخِره ونهايَتِهِ، بحكْمَتِه البالِغَةِ أسْمَىٰ مُسْتَوَيَاتِها.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾: أي: مَا يُوجَدُ شفِيعٌ مَا في السَّمَاوَاتِ أو في الأَرْضِ إلَّا مِنْ بَعْدِ أنْ يأذَنَ الله له بأنْ يشْفَع.

وقد عَلِمْنَا مِنَ النُّصُوصِ الّتِي سبَقَ تَدَبُّرُها في الشفاعة أنَّ الله عزّ وجلّ لاَ يَأْذَنُ لشافِعٍ مَا، بأنْ يشفَعَ لمشرِكٍ فَمَنْ هو أخَسَّ مِنْهُ في دركات الكُفر، فالإذْنُ بالشفاعة خاصٌّ في أنْ يكون المشفوعُ له من المؤمنين العصاة، أو المقصرّين في نوافل العبادات.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: أي: ذلِكُم الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ هُو رَبُّكُمْ وحْدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ، فَلاَ شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: أي: فَاعْبُدوهُ وَحْدَهُ، ولا تَعْبُدُوا مِنْ دُونِه أحداً.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟: اسْتِفْهامٌ يرادُ به الحضُّ والحَثُّ علىٰ الْعِلْم بهٰذه الحقائق الّتي جاءت في هذا النص، ووَضْعِها في خزائِنِ المعْرِفَة، وتَذَكُّرِها عِنْدَ المناسبات الدّاعيات، لتصحيح الْمَسِيرة في الحياة علَىٰ وفْقِها.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أي: إلّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ بأَنْ يَشْفَع، ولِمَنْ أذِنَ بأنْ يُشْفَعَ لَهُ، وقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ المشفُوعَ له لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مِنْ أَهْلِ الإيمان الصحيح.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي: حَتَّى إذا أُزِيلَ الفزعُ عَنْ قُلُوبِ بعضِ عُصَاةِ المؤمنين، الَّذِينَ تَسْتَدْعِي معَاصِيهم أَنْ يُجازَوا بالْعَدْلِ، لَكِنْ شمِلَتْهُمْ رَحْمَةُ الله، فأذِنَ للشُّفَعاءِ بأَنْ يَشْفَعُوا لهم.

﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾: أي: قال الْعُصَاةُ الذين يَرْجُونَ أنْ يشْفَعَ لَهُمُ الشَّافِعُونَ للملائِكَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكم؟ هَلْ أَذِنَ لَكُمْ بِأَنْ تَشْفَعُوا لنا؟

﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: أي: قَالَ الملائكةُ المطْلُوبُ مِنْهم أنْ يشْفَعُوا: قَالَ رَبُّنَا الْحَقَّ الثابت الّذِي قَضَىٰ بِه أن يأْذَنَ لَنا بأَنْ نَشْفَعَ لَكُمْ، لِعِلْمِه بما في قُلُوبكُمْ مِنْ خَيْر.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: وَأَثْنَوْا على الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ بِصِفَتَيْن من صفاتِه.

الْعَلِيّ: اسْمُ من أسماء الله الحسنَىٰ، أي: الْعَالِي فَوْقَ كُلِّ شيءٍ، فلا يُدَانيه وَلاَ يَعْلُو عَلَيْه شيء، فَهُوَ مِنْ مَقَام عُلُوّه يمْنَحُ مَنْ يشاء، ويحجُبُ عمَّنْ يشاء ما يشاء، وكلُّ مقاديره حكيمة.

الكبير: اسم من أسماء الله الحسْنَىٰ، أي: الكامِلُ في كِبَرِه، الذي لا شيء في الوجود له مثلُ وصفه بالكِبَر.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

أي: وَلاَ يَمْلِكُ المشركون الَّذِين يَدْعُونَ مِنْ دُون الله آلِهَةً، أنْ يَشْفَعَ لَهُمْ شَافِعٌ ما في الوجود كُلِّه، ولَوْ كانَ مأذوناً له بأَنْ يَشْفَعَ.

لكِنْ مَنْ اسْتَدْرَكَ أَمْرَهُ قَبْلَ مَوْته، فَشَهِدَ بالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِه المرْسَلُونَ بلاَغاً عن الله رَبّ العالمين، وكانَتْ شَهادتُهُ صادرةً عَنْ عِلْم وَإيمانٍ بما شَهِدَ به، ولَمْ تكُنْ قولاً قلّدَ به غَيْرَهُ تَقْليداً، وهُوَ غَيْرُ مُدْرِكٍ لدَلاَلاَتِه ولا مُؤْمِنٍ بها، ولم يَكُنْ قولاً صادراً عَنْ خَوْفٍ أو نفاق، فإنَّ الله يمْنَحُهُ مِنْ فَضْلِه الإذْنَ بأنْ يَشْفَعَ له الشافِعُونَ المأذُونُ لهم بأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ عِنْدَ رَبّهم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) في فِقْرَة من فِقَرَاتِ آيَةِ الكُرْسِي:

﴿... مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ... ﴿٢٥٥﴾﴾؟:

استفهام يُرادُ به النفي، أي: لا أَحَدَ يَوْم الدِّين يَشْفَعُ لِأَحَدٍ إلّا بإِذْنِ الله جلّ جلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُه ـ ولو كان نبيًّا رسولاً، أو مَلَكاً مُقَرَّباً.

سابعاً: شفاعَةُ الملائكة لعُصاةِ المؤمنين

جاء في القرآن المجيد بشأن شفاعَةِ الملائكة لعصاة المؤمنين نَصّان:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وملائكةٌ كثيرُونَ جدّاً في السَّمَاوات، لاَ تكْفِي شفاعَتُهُمْ أحداً شيئاً من أُمُورِهِ التي يرجُوها من شفاعتهم، إلَّا ضِمْنَ شَرْطين:

الشرط الأول: أنْ يَأْذَنَ الله عزّ وجلّ للشافِعِ بأَنْ يَشْفَعَ لمن يشفع له، فرْداً أمْ أكثر.

وسبَقَ أن عِلْمَنَا أنّ الله لاَ يأْذَنُ للشَّافِعِين بأن يَشْفَعُوا للمشركين فمن هم أخَسُّ منهم كُفْراً، وأحطُّ منهم في الدرَكات، فقد سبَق أنْ قضى الله عزّ وجلّ قضاءً مُبْرَماً بأنْ لاَ يَغْفِرَ لِمَنْ يُشْرِك به، ولا لمن كان أكْفَرَ مِنْهُ وأكثر جُرْماً من باب أولَىٰ.

الشرط الثاني: أنْ يَرْضَىٰ الله عزّ وجلّ القولَ الذي يقولُه الشَافِعُ فِي شفاعَتِه للمشْفُوعِ له، ولو كان الشافِعُ مَلَكاً مُقَرَّباً، أو نبيًّا رسُولاً.

وقولُ الشافع يَشْمَل مضمونَ مَا يشْفَعُ فيه، وأسلوب تعبيرهِ في الشفاعة.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشَأْن الملائكة المكْرَمين، واعتقاد بعض المشركين أنَّهم بنات الله:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾: أي: بل الملائكةُ عبادٌ مِنْ عباد الله مُنَزَّهُونَ بما فَطَرَهُمُ الله عليه عَنِ المعاصي وعَنْ مخالفة أوامر الله ونواهيه في شيء. ولَهُمْ مَرَاتب ومنازِلُ رَفيعةٌ عنْد الله فهم بها معظمون.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أي: لاَ يَقولُونَ قَوْلاً ما في تَبْلِيغَاتِهِم عن الله، أو في عباداتهم إلَّا بأمْرٍ من الله أن يقولوه، وهذا يَدُلُّ على أنهم لا يملكون صفة الاجتهاد الجزئيّ ضِمْنَ الكليَّاتِ العامَّةِ الّتي لهم علم بها.

﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾: أي: وهم لا يَعْمَلُونَ عملاً ما إلّا بأمْرِه.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: أي: يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَبَقَ أن عَمِلُوه، وهو الذي بين أيديهم، ويَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ سَيَعْمَلُونَهُ، وهو الذي خلْفَهُمْ لاَ يَعْلَمُونه، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كالإنْسِ لا يَعْلَمُونَ المستقبل إذْ هو غيبٌ عنهم ما لم يُخْبِرْهُمُ الله بشَيْءٍ منه.

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾: أي: ولاَ يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ ارْتَضىٰ الله أنْ يَشْفَعُوا له، فشفاعتهم له مُرْتبطَةٌ بإذنه.

﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾: أي: وهم مِنْ شِدَّةِ شُعُورِهِمْ بعظمَتِهِ، وجَلالَتِه، وقُدْرَتِهِ، وقُوَّتِهِ، وشُمُولِ سُلْطَانِهِ كُلَّ شَيْءٍ، يَخْشَونَهُ خَشْيَةَ الْمُجِلّ المعظّم الْمحِبِّ الخاضِعِ الذّليلِ، وهم مُشْفِقُونَ من سَطْوَتِهِ وبَطْشِه، فَلاَ يَحِيدُون عَنْ طَاعَتِهِ مقدارَ شَعْرَة.

هذا ما جاء في القرآن المجيد بشأن الشفاعَةِ يوم الدِّين، وتأتي بَعْدَهُ خُلاَصَةُ مَا جَاءَ في السُّنَّةِ بشأن هذه الشفاعة، وبالله الاستعانة وعليه وحده أتوكَّل، فهو الله العزيز الرحيم، الحيُّ الذي لا يموت، وسُبْحَانَ الله وبحَمْدِه، هو حسْبِي ونِعْمَ الوكيل.

❁ ❁ ❁

خلاصة ما جَاء في السُّنَّةِ المطهرة بشأن الشفاعة يوم الدّين:

قسَّم علماء أهل السُّنَّة والجماعة أخذاً من الأحاديث الصحيحة، وما يُقْبَلُ للاستشهاد به مِنْها، الشفاعة يوم الدّين الّتي يَشْفَعُ بها الشافعون من الملائكة، والنبيين، والمؤمنين، الَّذِين يأذَنُ الله لهم بأنْ يَشْفَعُوا إلى تِسْعَةِ أنواع:

النوع الأول:

الشفاعة في أنْ يقْضِيَ الله عزّ وجلّ بيْنَ الخلائق، بَعْدَ انْتِظَارٍ طويل جدّاً، تنْقَطِعُ فيه دُمُوعُهُمْ من كَثْرَةِ البكاء.

هذا النوع من الشفاعة جاء في حديثٍ طويل أورَدَهُ الطبراني في المطوَّلاَتِ عَنْ أبي هريرة، وهو يَقَعُ في نَحْو عشر صفحات من صفحاتِ كتابي هذا، وذكروا أنَّهُ حَدِيثٌ غرِيبٌ ضعيف، تفرَّد به إسماعيلَ بْنُ رَافع، قَاصُّ أَهْل المدينة، إلَّا أنَّ الفِقْرَةَ المتعلّقة بالشفاعة في أن يقضي الله عزّ وجلّ بَيْنَ الخلائق، تقتضيها عقلاً أحاديث صحيحة.

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بطوله عند تفسير الآية (٧٣) من سورة (الأنعام) وجاء فيه خطاباً لمن سمعه من الرسول ﷺ من أصحابه، والمراد جميع المؤمنين:

«وتَقُولُون: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا فَيَقْضِيَ بَيْنَنَا، فَتَقُولُونَ: مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ أبيكُمْ آدم، خَلَقَهُ الله بِيَدِه، ونَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحه، وكلَّمَهُ قُبُلاً، فيأتُونَ آدَمَ، فيَطْلُبُونَ ذلِكَ إليه، فَيَأْبَىٰ، وَيَقُول: ما أَنَا بصاحِبِ ذلِكَ، فَيَسْتَقْرِئُونَ الأنْبيَاء نَبِيًّا نَبِيًّا، كلَّما جاءُوا نَبِيًّا أَبَىٰ عَلَيْهِمْ».

قال رسول الله ﷺ: «حَتَّىٰ يَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ إِلَىٰ الْفَحْصِ، فَأَخِرُّ سَاجداً».

قَال أبو هريرة: يا رَسُول الله، مَا الْفَحْصُ؟.

قال: «قُدَّامَ الْعَرْش، حتَّىٰ يَبْعَثَ الله إلَيَّ مَلَكاً، فَيأُخُذُ بِعَضدي، وَيَرْفَعُنِي، فيقولُ لي: يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: نعم، يَا رَبّ، فيقولُ الله عزّ وجلّ: مَا شَأْنُكَ ـ وهُوَ أَعْلمُ ـ فَأَقُولُ: وَعْدَتِنِي الشَّفَاعَة، فَشَفِّعْنِي في خَلْقِكَ فَاقْضِ بَيْنَهُمْ، قَالَ الله: قَدْ شَفَّعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَكُمْ».

قال رسولُ الله ﷺ: «فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ النّاس».

وجاء بَعْدَ هذا في الحديث وصْفُ نُزُولِ ملائكة السَّماوات، فَوْجاً بَعْدَ فوج، ثُمَّ يَنْزِلُ الله عزّ وجلّ، ثُمَّ يَهْتِفُ الله بصوته فيقول:

«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإنْسِ، إِنِّي قَدْ أَنْصتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِكُمْ هٰذا، أسْمَعُ قوْلكم، وأُبْصِرُ أَعْمَالَكُمْ، فَأَنْصِتُوا إليَّ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خيراً فَلْيَحْمِدَ الله، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه» اقرأ الحديث عند ابن كثير.

النوع الثاني:

شفاعَة الرَّسُول محمّد ﷺ لأمَّتِه بأَنْ يُدْخِلَهُمُ الله الجنّة، وقد طالَ عليهم الانتظار.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قَال: أُتِيَ رسُولُ الله ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إلَيْهِ الذِّراعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَس مَنْهَا نَهْسَة[١] ثمّ قال:

«أَنَا سَيّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِك؟ يَجْمَعُ الله الناسَ الأوّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحد، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، ويَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وتَدْنُو الشَّمس، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ والْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ الناسُ:

أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبّكُمْ؟.

---

(١) **فَنَهَس مِنْها نَهْسَةً**: أي: أخذ منها قطعةً بأطراف أسنانه.

فيَقُولُ بعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بآدَمَ، فَيأْتُونَ آدَمَ عليه السَّلام، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، ونفخ فِيكَ من رُوحه، وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا قَدْ بَلَغْنَا؟. فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُه، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ نُوح.

فَيأْتُونَ نُوحاً، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ[1]، وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْداً شَكُوراً، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عزّ وجلّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَيأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبيُّ الله وخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْض، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يغضبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ.

فَيأْتُونَ مُوسَىٰ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ الله، فَضَّلَكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَىٰ النَّاسِ، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ.

فَيأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُون: يَا عِيسَىٰ، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا

---

(١) أي: أوّل الرُّسُلِ مِنْ أَهْلِ الْعَزم، جمعاً بَيْنَ هذا البيانِ وبَيْنَ مَا جاء في القرآن مِنْ قول الله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: رسُولٌ بلّغها وبَشّرها وأنذَرها، والقرونُ التي كانت قبلَ نوح أُمَمٌ، ولها رُسُلٌ، لم يَبْلُغُو أن يكونوا من أولي العزم.

إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، ٱشْفَعْ لَنَا، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَىٰ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَه مِثْلَهُ ـ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً ـ نَفْسِي نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّد، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر، ٱشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ ما نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي عزّ وجلّ، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَٱشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الأَبْوابِ. ثُمَّ قَالَ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ[١] الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وحِمْيَرَ، أَو كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَىٰ».

والذي عنْدَ مُسْلِمٍ: «كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ».

النَّوْعُ الثالث:

شفاعَةُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَقْوَامٍ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُم في أَنْ يَدْخُلُوا الجنَّة.

واسْتَشْهَدَ ٱبْنُ كثير في النهاية لهذا النوع بما أخرجه الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا، في كتاب الأهوال عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَب، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْها، ويَبْقَىٰ مِنْبَرِي لاَ أَجلِسُ عَلَيْهِ قَائِماً بَيْنَ يَدَي الله عزّ وجلّ مُنْتَصِباً لِأُمَّتِي، مَخَافَةَ أَنْ يُبْعَثَ بِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَتَبْقَىٰ أُمَّتِي بَعْدِي.

---

(١) المصراع: أَحَدُ جُزْأَي الباب، وهما مِصْرَاعان أحدُهما إلى اليمين، والآخر إلى الْيَسَار.

فَأَقُولُ: يَا رَبّ أُمَّتِي، فَيُدْعَىٰ بِهِمْ فَيُحَاسَبُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ بِرَحْمَةِ الله، ومِنْهُمْ مَنْ يَدْخَلُ الْجَنَّةَ بشفاعَتِي، وَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّىٰ أُعْطَىٰ صِكَاكاً بِرجالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّار، حَتَّىٰ إِنَّ مَالِكاً خَازِنَ جَهَنَّمَ لَيَقُولُ: يَا مُحَمَّد مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ لِأُمَّتِكَ من نِقْمَةٍ.

النوع الرابع:

شفاعة الرَّسُول ﷺ لِأَقْوَامٍ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إلى النار في أن لا يَدْخُلُوها.

واستشهد ابن كثير في النهاية لهذا النوع من الشَّفَاعة بِحَدِيثٍ رواه بِسَنَدِه عَنْ المِنْهَالِ، قالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ الحارثِ، أَنَّ النبيّ ﷺ قال:

«أَمُرُّ بِقَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَىٰ النار، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، نَنْشُدُكَ الشفاعة، قَالَ: فَآمُرُ المَلاَئِكَةَ أَنْ يَقِفُوا، قال: فَأَنْطَلِقُ، وَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ الرَّبّ عزّ وجلّ، فَيَأْذَنُ لي، فَأَسْجُدُ وأَقُولُ: يَا رَبِّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أَمَرْتَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّار. فيقُولُ لِي: انْطَلِقْ، فَأَخْرِجْ منهم، فَأَنْطَلِقَ فَأُخرِجُ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ الله أَنْ أُخْرِجَ.

ثُمَّ يُنَادِي الْبَاقُونَ: يَا مُحَمَّدُ نَنْشُدُكَ الشَّفَاعَةَ، فَأَرْجِعُ إِلَىٰ الرَّبِّ فَأَسْتَأْذِنُ، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَسْجُدُ، فَيُقَالُ لي: ٱرْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأُثْنِي عَلَىٰ الله بِثَنَاءٍ لَم يُثْنِ عَلَيْهِ بِهِ أَحَدٌ، أَقُولُ: ثُمَّ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَىٰ النَّارِ، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخرِجْ مَنْهُمْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُخرِجُ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِن إِيمَان، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ لَيْسَتْ تِلْكَ لَكَ، تِلْكَ لي. فَأَنْطَلِقُ فَأُخْرِجُ مَنْ شَاءَ الله أَنْ أُخرِجَ، وَيَبْقَىٰ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ النَّارِ فَيُعَيّرُهُمْ أَهْلُ النَّارِ. فَيَقُولُونَ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ الله، وَلاَ تُشْرِكُونَ بِهِ أَدْخَلَكُمْ النَّار، فَيَحْزَنُونَ لِذَلِكَ، فَيَبْعَثُ الله مَلَكاً بِكَفٍّ مِنْ مَاءٍ، فَيَنْضَحُ بِهَا في النَّارِ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ، فَيُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا فَتَضَيَّفُوا النَّاسَ، فَلَوْ أَنَّهُمْ جَمِيعَهُمْ نَزَلُوا بِرَجُلٍ وَاحِدٍ، كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُ سَعَةٌ، وَيُسَمَّوْنَ الْمُحَرَّرِينَ».

النَّوْعُ الخامس:

شفاعة الرَّسُول ﷺ لبَعْضِ مستحقّي دُخُول الجنَّةِ في رَفْعِ دَرَجاتِهِم فيها.

واسْتُدِلَّ لهٰذا النوع بما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وغَيْرِهما، من رواية أَبي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِي، أَنَّهُ لمَّا أُصِيبَ عَمُّهُ أَبُو عَامِرٍ فِي غَزْوَة أَوْطاس، أَخْبَرَ أَبُو مُوسَىٰ رَسُولَ الله ﷺ بذَلك، فَتَوَضَّأَ ﷺ فَرفَعَ يَدَيْهِ وَقَال:

«اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبي عَامِرٍ، وٱجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ».

وجاء في صحيح مسلم، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَا لِأَبي سَلَمَة بَعْدَ وَفاته فَقَال:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وٱخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وٱغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِين، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ».

النوع السادس:

شفاعة الرَّسُولِ ﷺ لأقوام فِي أَنْ يَدْخُلُوا الجنَّة بِغَيْرِ حساب

واسْتُدِلَّ لِهَذَا النوع بِحَدِيثِ عُكَّاشَةَ بْنُ مِحْصَنٍ، وهو في الصَّحِيحَيْن. وجاء فيهما التصريح بأَنَّ عُكَّاشَةَ قالَ للرسُول ﷺ: ٱدْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، أي: من السَّبْعينَ أَلْفاً الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب، فقال له الرسول ﷺ: «أَنْتَ مِنْهم» فقامَ رَجُلٌ فقال: يَا نَبِيَّ الله، ٱدْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَة»[1]. رواه مسلم عن عِمْران.

وجاء عند البخاريّ أَنَّ أبا هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول:

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفاً، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيّ يَرْفع نَمِرَةً[2] عَلَيْهِ، قَالَ: ٱدْعُ الله لِي يَا رَسُولَ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فقالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ

---

(١) انظر الجامع بين الصحيحين، جمع وترتيب «صالح أحمد الشامي» رقم الحديث (٢٣٦) مكرر.

(٢) نَمِرَة: أي: شَمْلَةٌ فِيهَا خُطُوطٌ مُلَوَّنَةٌ كجِلْدِ النِّمر.

مِنَ الْأَنْصَارِ فقالَ: يَا رَسُول الله، ٱدْعُ الله لي أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَة»[1].

النوع السابع:

شفاعَةُ الرَّسُول في تخفيف العذاب عمَّنْ يسْتَحِقُّ الخلُودَ في النّار.

واسْتُشْهِدَ لِهَذا بِالْحَديثِ الذي رواه البخاريُّ عَنْ أبي سَعِيدِ الْخُدْرِيّ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: لَعَلَّها تَنْفَعُهُ شفاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَة، فَيُجْعَلَ فِي ضَحضَاحٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ».

ورَواهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيث يَزِيد بْنِ حَبِيب.

في ضَحضَاحٍ: أي: في مكانٍ حَرَارَتُهُ قَلِيلَةٌ، يقال لغة: ماءٌ ضَحضَاح، أي: قَلِيلٌ لاَ عُمْقَ فيه. وهذه الحرارة القَلِيلَة بالنّسْبَةِ إلَىٰ ما في الجحيم من حرارةٍ عظيمة، كافيةٌ لأنْ يَغْلِيَ مِنْهَا دِمَاغُ المعذَّبِ بها من أهْلِ الكفر.

النوع الثامن:

شفاعَةُ الرسول في أَنْ يُؤْذَنَ لجميع المؤمِنين بِدُخول الجنَّة.

واسْتُشْهِدَ لهذا النوع بما جاء في صحيح مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

«أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ في الجنَّة».

وجاء في بَعْضِ روايَات حَدِيث الصور، ما يلي كما أورد ابْنُ كثير في النهاية، قول الرسول ﷺ:

«فَأَنْطَلِقُ فَآتِي الْجَنَّةَ فَآخُذُ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، ثُمَّ أَسْتَفْتِحُ، فَيُفْتَحُ لِي، فَأُحَيَّىٰ وَيُرَحَّبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ وَنَظَرْتُ إِلَىٰ رَبِّي عزّ وجلّ خَرَرْتُ لَهُ ساجداً، فَيَأْذَنُ الله مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِه بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لِي: ٱرْفَعْ يَا مُحَمَّد، وٱشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي،

---

(١) انظر فتح الباري، الحديث رقم (٥٨١١) الجزء العاشر.

قَالَ الله ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ: مَا شَأْنُكَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، وَعَدْتَنِي الشفاعَةَ، فَشَفِّعْنِي فِي أَهل الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ الله عزّ وجلّ: قَدْ شَفَّعْتُكَ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخولِ الْجَنَّة.

فَكانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: والَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ، مَا أَنْتُمْ في الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَساكِنِكُمْ، من أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْواجِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ.

فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَة، مِمَّا يُنْشِيءُ الله عزّ وجلّ، وثِنْتَيْنِ مِنْ بَنَاتِ آدم، لَهُمَا فَضْلٌ عَلَىٰ مَنْ أَنْشَأَ الله بِعِبَادَتِهِمَا الله في الدُّنيا».

النوع الْعَاشر:

شفاعة الرَّسُول في أهل الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ الّذين دَخَلُوا النار لإخراجهم منها.

وقَدْ تواتَرَتِ الْأَحاديث المثبتَةُ لِهَذَا النَّوْعِ مِنْ أنواع الشفاعَة، ومِنْها حَدِيث أنَسِ بن مالِكٍ رضي الله عنه قَال: قال رَسُولُ الله ﷺ:

«شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».

وجاء تفصيل هٰذه الشَّفَاعَةِ في عِدَّةِ روايَاتٍ في الصحيحين البخاري ومسلم، مِنْهَا رِوايَةٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه، قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ مِنْ بَعْدَ وصْفِ السُّجُودِ لِلَّهِ وسؤاله أن يَقْبَلَ شفاعَتَهُ، فِي حَدِيث طويل:

«فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّة، حَتَّىٰ مَا يَبْقَىٰ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآن» أي: وَجَبَ عَلَيْهِ الخلُودُ فيها.

قَالَ: ثُمَّ تَلاَ هٰذِهِ الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

أقول: هو المقام المحمود الذي جاء ذكْرُه في الآية (٧٩) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

وبهذا تَمَّ هٰذا الملحق والحمْدُ لله على معونَتِه ومَدَدِه وتوفيقه

سورة الواقعة

٥٦ مصحف - ٤٦ نزول

وهي مكيّة إلا الآيتين (٨١ و ٨٢) فهما مدنيّتان
وآيتها (٩٦) آية



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ

٩ ـ • قرأ حمزة في الوقف: [المَشَمَةِ] في الموضعين بنقل حركة الهمزة إلى الشين وحذف الهمزة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [المشأمَة].

١٦ ـ • قرأ أبو جَعْفر: [مُتَّكِينَ] بحذف الهمزة، وقفاً ووصلاً. وقرأها كذلك حمزة في الوقف.

وقرأها بتسهيل الهمزة أيضاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مُتَّكِئِينَ] .

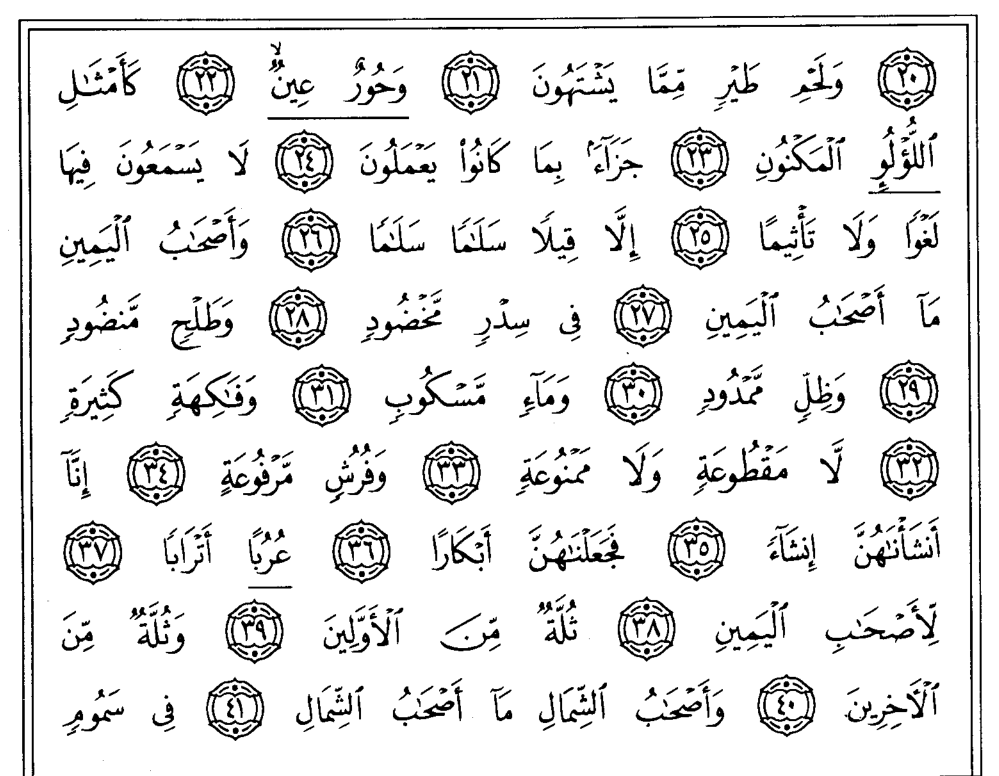
١٨ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [وَكَاسٍ] بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها حمزة كذلك أيضاً في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَكَأْسٍ].

١٩ ـ • قرأ عاصم، وحَمْزَة، والكسائي، وخلف: [وَلاَ يُنْزِفُونَ] من فعل: «أَنْزَفَ» اللازم، بمعنى «سَكِرَ، أو ذَهَبَ عقلُه».

=



= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُنزِفُون] من فعل «نَزَفَهُ» المتعدّي، أي: أذهب عَقْله، أو من فعل «نُزِفَ» أي: ذَهَبَ عقله بسُكرٍ أو نحوه.

٢٢ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر: [وَحُورٍ عِينٍ] بالجرّ عطفاً على [وَلَحْمِ طَيْرٍ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَحُورٌ عِينٌ] بالرفع، على الاستئناف والابتداء، والخبر محذوفٌ تقديره «لَهُمْ» ويُحَسِّنُ هذا الاستئناف، أنّ الحور العين لَسْنَ من صنف ما يُؤكل ويُشرَبُ حتى يُجْمَعْنَ مع المشروبات والمأكولاَت بالعطف.

٢٣ ـ • قرأ السّوسي، وشعبة، وأبو جعفر: [اللُولُؤِ] بإبدال الهمزة الأولى واواً. وكذلك قرأ حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [اللُؤْلُؤِ].

أمّا الهمزة الثانية فيقرؤها بإبدالها واواً في الوقف هشام وحمزة فقط، ولَهُما أيضاً تَسْهِيلُها مع الرَّوْم، وإبدالها واواً خالصة مع السكون والإشمام والرَّوم.

٣٧ ـ • قرأ شعبة، وحمزة، وخلَفِ: [عُرْباً] بإسكان الرّاء.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [عُرُباً] بضمّ الرَّاء.

عُرْب، وعُرُب، لغتان في جمع «عَرُوب» وهي المتَحبّبةُ العاشقة لزوجها.

وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

٤٧ ـ • قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [إِنَّا] بحذف همزة الاستفهام، وتقديرها ذهناً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَءِنَّا] بإثبات همزة الاستفهام.

٤٧ ـ • قَرَأ نافع، وحفص، والكسائي، وخلَف: [مِتْنَا] بكسر الميم.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم الميم: [مُتْنَا] ،.

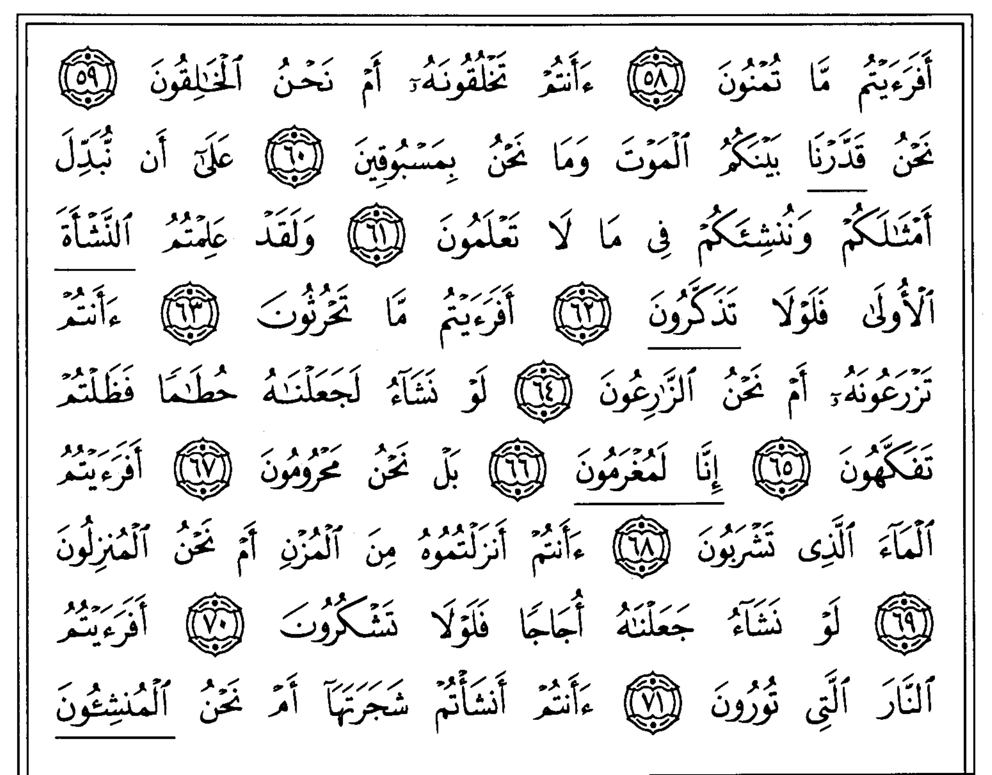
والقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٤٨ ـ • قرأ قالون، وابنُ عامر، وأبو جَعْفَر: [أَوْ آبَاؤُنَا] بإسكان الواو من «أو» على أن «أو» حرف عطف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَوَ آبَاؤُنَا] بفَتْح الواو من «أو» علىٰ أنّ الهمزة للاستفهام، والواو حَرْف عطف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بيانُه، أي: يَقُول المشركون: أَنُبْعَثُ إلى الحياة مرّةً أخرى، ويُبْعَثُ أيضاً آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ، ويَقُولُونَ أيضاً: أَنُبْعَثُ نَحْنُ، أوْ يُبْعَثُ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ أيضاً، ولم يأتِهِمْ رسُولٌ من ربّهم (هذا بحَسَبِ زَعْمِهم) إذ أُرْسِل إليهم إسماعيل عليه السلام، وعلموا برسالات أهل الكتاب.

٥٥ ـ • قَرأ نافع، وعاصِم، وحمزة، وأبو جعفر: [شُرْبَ] بضم الشين، وقرأها باقي القراء بفتح الشين، وهما وجهان عَرَبيان للكلمة.



٦٠ ـ • قرأ ابن كثير: [قَدَرْنا] بفتح الدال دون تشديد، وقرأ باقي القراء: [قَدَّرْنَا] بتشديد الدال.

«قَدَرَ، وقَدَّرَ»: لغتان والمعْنَىٰ واحد.

٦٢ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [النَّشَآءَة].

وقرأها باقي القراء العشرة: [النَّشْأَةَ] «النشأ والنشاءَهُ» لغتان عربيتان، بمعنى: الحدوث المصحوب بالتكامل المتدرج غالباً.

٦٢ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [تَذَكَرُون] .

وقَرَأها باقي القرّاء العشرة: [تَذَّكَّرُونَ] بتشديد الذال المفتوحة، أصْلُها «تتذَكَّرُونَ» أدْغِمَتِ التاء بالذال فصَارَتْ «تَذَّكَّرُون».

أمّا قراءة «تَذَكَّرُون» فقد حُذِفَت منها إحْدَىٰ التاءين تخفيفاً.

فالقراءتان متكافئتان.

٦٦ ـ • قَرأ شعبة: [أَئِنَّا لَمُغْرَمُونَ] بإثبات هَمْزة الاستفهام.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّا لَمُغْرَمُونَ] دون همزة استفهام.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداءِ المعنى المراد.

٧٢ ـ • قرأ اْبن وردان بخُلْفٍ عنه: [الْمُنْشُونَ] .

وقرأ باقي القراء العشرة: [المنشِئُونَ] . وهما وجهان في النطق.

﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ .

٧٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [بِمَوْقِعِ] بالإفراد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمَوَاقِعِ] بالجمع.
ومؤدّىٰ القراءتين واحد.

٧٧ ـ • قرأ ابن كثير: [لَقُرَان]. وقرأها الباقون: [لَقُرْآنٌ] وهما وجْهان عربيان نطقاً.

٨٩ ـ • قرأ رُوَيس: [فَرُوحٌ]. وقرأها الباقون: [فَرَوْحٌ] بفتح الراء. **الرَّوح**: الراحَةُ والفرح، والرَّحْمَة، وطيب الرائحة. **والرُّوح**: هو فيما أرى الإمداد بما يؤنسُه ويُسْعِدُه بعد الموت.

٩٥ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْوَ] بإسكان هاء الضمير.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضم هاء الضمير. والقراءتان لغتان عربيتان.

(٢)
ممّا جاء في السُّنَّة بشأن سورة (الواقعة)

ورَدَ بشأن سورة (الواقعة) عدّة أحاديث، منها ما يلي:

(١) روى الترمذيّ عن ابن عباس، قال: قال أبو بَكْرٍ: يا رَسُولَ الله ﷺ قَدْ شِبْتَ، قال:

«شَيَّبَتْني هُود، والواقعة، والمرسَلات، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» حديث حَسَنٌ غريب.

(٢) روى البيهقيُّ في شُعَب الإيمان، وغيره عن ابْنِ مسعود رضي اللهُ عنه قال: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يقُول:

«مَنْ قَرأ سورة الواقعةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَداً».

(٣) وأخرج ابن عساكر عن ابْنِ عباسٍ عن الرسول ﷺ قال: «سُورَة الْوَاقِعَةِ سُورَةُ الْغِنَىٰ، فَاقْرَؤوهَا وَعَلِّمُوهَا أَوْلاَدَكُمْ».

(٤) وَأَخْرَج الدَّيْلمِي عَنْ أَنَسٍ قال: قال رسُول الله ﷺ: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فَإِنَّهَا سُورَةُ الْغِنَىٰ».

(٥) ورَوىٰ الإمامُ أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَة، قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَنَحْوِ مِنْ صَلاتِكُمُ الّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلاَتُهُ أَخَفَّ مِنْ صَلاَتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرأُ فِي الْفَجْرِ الْوَاقِعَة وَنَحْوَها مِنَ السُّوَرِ».

(٦) ورَوىٰ ٱبْنُ عَسَاكر، في تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُود، قالَ: مَرِضَ عبد الله مَرَضَهُ الّذِي تُوُفّي فِيه، فَعَادَهُ عُثْمانُ بْنُ عَفَّان، فقال: مَا تَشْتِكي؟. قال: ذُنُوبي. قال: فَمَا تَشْتَهِي؟. قال: رَحْمَةَ رَبّي. قَالَ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِطَبِيبٍ. قال: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي. قَالَ: أَلاَ آمُرُ لَكَ بِعَطَاءٍ؟.قال: لاَ حَاجَةَ

لِي فيه. قال: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: أَتَخْشَىٰ عَلَىٰ بَنَاتِي الْفَقْرِ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَاتِي يَقْرأْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُول:

«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَداً».

الفاقة: الفقر والحاجة.

(٣)
موضوع سُورة (الواقعة)

يدور موضوع سورة (الواقعة) حوْلَ تقسيم الناس يَوْمَ القيامَةِ، لمجازاة العباد الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، إلى ثلاثة أصناف: مع عَرْضِ لقطاتٍ مِنْ جزاء كلّ صِنْفٍ منهم:

الصنف الأول: المؤمنون المسلمون أصحاب اليمين، وهم أهل الجنَّة بوَجْهٍ عامّ، على دَرَجاتهم المنخفضة والمتوسطة.

الصنف الثاني: الكافرون المجرمون أصحاب الشمال، وهم أهل النّار بوَجْهٍ عامّ، على دَرَكاتهم الأولى، فالمتوسطة.

الصنف الثالث: السَّابِقُونَ المقَرَّبون من المحسنين والأبرار، وهم أصحاب الدرجات الرّفيعاتِ السَّامِيَاتِ في جنَّاتِ النّعيم.

ويفهم من التقابل والتناظُر «صِنْفٌ رَابِعٌ» وهم الموغِلُونَ في الكُفْرِ وارْتكاب الجرائم الكبرىٰ، ونَشْرِ شُرورهم في الأرض، ودَعْوَتِهم إلى الكفر.

وهم أصْحَابُ الدركات السُّفْلَىٰ السَّحِيقَةِ من النار، ومنهم المنافقون الّذِين هُمْ في الدرك الأسْفَلِ من النار.

واسْتَدْعَى هذا الموضوع تقديم بيانات إقناعِيَّةٍ، وأدِلَّةٍ بُرْهانِيَّةٍ،

للمكَذِّبينَ بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين، على صدْق الأخبار القرآنيّة المتعلّقَةِ بيوم الدين، وتوجيه العقول الحصيفة الدّراكة لاستبصار الْمَجْدِ الكبير الذي يَتحلَّىٰ بِهِ الْقُرْآنُ، المشْتَمِلُ علىٰ أخْبَارِ يوم الدِّين ومَا فيه من جزاء بالثواب، أو بالعقاب، على حَسَب أحوال أصناف الناس، مع مُتَابَعَةِ مُعَالَجَةِ المكذِّبينَ بالْبَعْثِ وبالجزاء يَوْمَ الدّين، بالإقْنَاعَاتِ الفكريّة، ثُمّ بالترغيب والترهيب، بتقديم بَعْضِ بيانَاتٍ عَمَّا في يَوْمِ الدّين من ثوابٍ وعقابٍ، وهٰذِهِ الإقْنَاعَاتُ والترغيباتُ تُثْبِتُ لأولي الألْبَاب أنَّ أنْبَاءَ الْبَعْثِ ويْومِ الدّين الواردةَ في القرآنِ المجيد، هي حقُّ اليقين.

ويختم اللهُ السورة بأمْرِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لَدَيْهِ الاستِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ، لما في قَلْبِهِ مِنْ خَيْرٍ، بأن يُسَبِّحَ باسْم رَبِّه العظيم المهَيْمِن عَلَيْهِ دواماً بصِفَاتِ رُبُوبيَّته.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروسُ سورة (الواقعة)

بالتأمُّل ظَهَر لي تقسيم سورة (الواقعة) إلى أربعة دُرُوس:

الدرس الأول:

يتضمَّنُ التذكير بِيَوْم القيامة، مقروناً بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَجْري قُبَيْلَه وعِنْدَ حُدُوثه، وبُعَيْدَه، ويتضمّن بيان تَقْسِيم الناس يَوْمَئِذٍ إلى الأصْنافِ التي سبَقَ بيانها ضِمْنَ بيان موضوع هذه السورة، ويتضمَّنُ بَيَانَ لقطاتٍ مِنْ جزاءِ كلِّ صنف منهم.

وهو الآيات من (١ ـ ٥٦).

الدرس الثاني:

يتضمَّنُ معالجة المكذّبين بِيَوْم الدّين بِبَعْضِ الإقناعات والحجج البرهانية، من الظّاهرات الكونيّة.

وهو الآيات من (٥٧ ـ ٧٤).

الدرس الثالث:

يتضمَّن بيانَ مَجْدِ القرآن الذي يَشْهَدُ ما فيه من إعجازٍ على صِدْقِ ما اشتمل عليه من أخبارٍ عَنِ البْعَث ويَوْمِ الدِّين وما يجري فيه.

ويتضمَّن معالَجةَ المكذِّبين بيَوْم الدّين بِبَيَانَاتٍ وحُجَجٍ فيها إقناعٌ كافٍ، لطالبي الحقّ، مع الترغيب والترهيب، بعَرْض بعْضِ ما يجري فيه من جزاءٍ بالثواب، أو جزاءٍ بالعقاب.

وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٤).

الدرس الرابع:

يوجِّهُ اللهُ عزّ وجلَّ فِيه الخطابَ لِمنْ يتَلَقَّى القرآن وهو مؤمن به، أو مُسْتَعِدٌ لأنْ يُؤْمِنَ به وبكلّ ما جاء فيه، وهذا الخطاب يتضمَّنُ بيان أنَّ مَا جاء في أنباء القرآن لَهُوَ حَقُّ اليقين، ويتضمَّنُ تَوْجيهَهُ لأنْ يُسَبِّحَ باسم رَبِّهِ العظيم، المهيْمِنِ عليه دواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيّته.

وهو الآيتان: (٩٥) و(٩٦).



(٥)
السّور التي سبق الحديث فيها عن الجزاء والبعث ويوم الدّين وبعض ما يجري فيه

إذا استثنينا سُور «الشّرح ـ والكوثر ـ والكافرون ـ والفلق ـ والناس ـ والإخلاص ـ وقُريش» وجَدْنَا سائر السُّوَر التي سَبَقَ تدبُّرها بحسب ترتيب النزول، وهي (٣٨) سورة قد جاء فيها بيانٌ ما مُوَسَّعٌ أو مُتَوسِّطٌ، أو مقْتَضَبٌ، أو إلماحيٌّ في السُّور الصّغيرة، وفي بَعْضِها تفصيلات، عن الجزاء يوْمَ الدّين، وما فيه من حساب وجزاء وإدانَةٍ للعباد بحَسَبِ أعمالهم، وفيها لقَطات بيانيَّة من مشاهِدِ يوم الدّين، ومشاهِد مِمَّا يجري

في الجنَّة مِنْ ثواب للمؤمنين المتقين، بحسب دَرجاتهم، ومشاهدَ ممَّا يجري في دار العذاب من عقاب للكافرين، بحسب دَرَكاتهم.

وهذا يَدُلُّ على القيمةِ الْعُظمىٰ للإيمان بِيَوْم الدين، في دفع الإنْسَانِ للالتزام بشرائع الإسْلام وأحكامِه عقِيدَةً وعملاً، وأنّ الإيمان بالجزاء الرَّبَّاني في الحياة الأخرى، يَقَعُ في المْرتَبَةِ الثانية بَعْدَ الإيمانِ باللهِ وبصفاتِه وأسمائه الحسنى، في أُسُسِ العقيدة الإسلاميَّة، لأنَّهُ هُو الركْنُ العظيم الّذي يُحَرِّكُ في النفوس مِحْوَرَي الْخَوفِ والطَّمَع، الموجِّهَيْنِ لسُلُوكِ الإنسان، متىٰ استقرَّ في القلب الإيمانُ به، استقراراً راسخاً.

وهذه القيمة العظيمة، هي الّتي جَعَلَتْ من الحكمة الرَّبَّانِيَّة تنْويعَ البيان عن هـٰذَا الركن، في مُعْظَم السُّوَرِ القرآنية، لتَعْمِيق جذُوره في القلوب الّتي تُؤْمِنُ به، وللتَّذْكِيرِ بِهِ في كُلِّ المناسَبات الَّتي فِيهَا أمْرٌ بفِعْل خَيْرٍ وطَاعَةٍ للهِ عزّ وجل، أَوْ نَهْيٌ عَنْ فِعْلِ شَرٍّ ومعْصِيَةٍ لله عزّ وجل، ولتَحْذِير الكافرين والمكذّبين بِه، من عَاقِبَةِ مَا اختارُوهُ لأنفسهم بإراداتِهم الحرَّة في رِحْلَةِ امتحانِهم، ولقَطْع كُلِّ أعْذَارِهم الّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها، إذا وقفوا يوم الدِّين في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ، لمحاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والأمْرِ بَسَوْقِهِمْ إلى دار العذاب، لِيُلاَقوا جزاءَهم بالْعَدْل، على ما قَدَّمُوه أو أَخَّرُوه في الحياة الدنيا، يَوْمَ كانوا موضوعين فيها ممتحنين ذوي إراداتٍ حُرَّة، ومُمَكَّنِينَ مِنْ تحقيق كثيرٍ مما يخْتارُونَه مِنْ فِعْلٍ أَوْ ترك.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (١ ـ ٥٦)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾:

تمهيد:

تتحدَّث هٰذه الآيات عن الحادثة العظمَىٰ المنتظرة، وهِيَ قِيامُ ساعَةِ الْبَعْث، بقيام الأمواتِ من الأجداثِ لملاقاة وَعْدِ رَبّهم، يومَ الدّين الّذِي يكُونُ فِيه الحسَابُ، وفَصْلُ الْقَضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء، وتجري قُبَيْلَهُ ومَعَهُ تغييراتٌ كونيَّة عظيمة ومَهُولَة، ويُحْشَرُ فيه الخلائق ويُفْرزُونَ، لِيَقِفُوا في محكمة الْعَدْلِ والفضل الرَّبَّانِيَّة خاضِعِين خاشِعين أذِلَاءَ، لاَ حَوْل لهم ولا قُوَّة.

ومن الأحداث الْمُمَهِّدَةِ لذلِكَ الْيَوم، رَجّ الأرض بِعُنْفٍ شديد، وتَفْرِيقُ الجبال وتَجْزِئتَهُها حتَّىٰ تَكُونَ ذَرَّاتُها هَبائيَّةً مُتطايرةً فِي مُخْتَلِفِ الاتِّجَاهَات، ومُنْبَثَّةً مَعَ الرّيح لَيْسَ لها استقرارٌ ولا ثَبَات.

والخطابُ في هذا الدّرس مُوجَّهٌ لكلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان من الإنس والجنّ.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللهِ عزّ وجل:

• ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾: أي: إذا حَدَثَتِ الحادِثَةُ، وسَقَطَتِ السَّاقِطَةُ الْعُظْمَىٰ، المعلّقةُ بالقضاء الرَّبّاني على الزَّمَنِ المقرَّرِ أن تَحْدُثَ فيه، فهي تترقَّبُ أن يأتي هذا الزَّمَنُ المعلومُ المسَمَّىٰ عنْدَ رَبِّ الْعَالَمِين، حتَّىٰ إذا حانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ وسقَطَ عَنْ مَجْرَاهُ الْغَيْبِيّ، سَقَطَتْ معَهُ واقِعَةً بإسْقَاطِ الله عزّ وجل لها، إذْ تَقَعُ بأهوالها العظام على مواقِعِ سُقُوطِ أحداثها في الكَوْنِ، فتكونُ مَوْجُودَةً في الواقع، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَضَاءً رَبَّانِيًّا مُعَلَّقاً على زمن وقوعِها في حَيِّزِ الوجود.

يقال لغة: «وَقَعَ الشيءُ» أي: سَقَطَ، وَحَدَثَ.

والمرادُ بالواقِعَةِ أَحْدَاثُ يوم القيامة، وقَد دَلَّ علىٰ هذا المراد مَا في الآيات التاليات لهذه الآية من قرائن، ودلَّ التعريف بـ (ال) على عظمتها.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾: أي: لا يُوجَدُ بَعْدَ وَقْعَةِ أحداث الواقِعَةِ العظمىٰ نَفْسٌ كاذِبة، فلَفْظ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ محذُوف تقديرُه: «نفس» وهذا نظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١٨﴾﴾.

إنَّ النفوس تكونُ يوم القيامة في حياة الحقّ الرَّهيبةِ مسلوبَةَ الاختيار، إِذِ انْتَهَىٰ زَمَنُ ابْتِلائها، فَلاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ فيها أن تَكْذِبَ أو تَحْتَالَ أو تَقُولَ عَنْ شيءٍ مَا إِلَّا الحقَّ والصِّدْقَ وما هو واقِعٌ، المؤمنونَ، والكافرون، والمنافِقُونَ الذين كانوا كذَّابِين في الحياة الدنيا، لا يَمْلِكُ أحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ يَوْمئِذٍ إلَّا الحقّ، وقَدْ يُعْطَىٰ الكافر عند محاسَبَتِهِ فقط حُرّيَّةَ الدّفاع عَنْ نفسه، فَيَجْحَدُ فَتَشْهَدُ عليه جَوارِحُهُ فيُخَاصِمُها قائلاً لها: عَنْكُنَّ كنْتُ أدافع.

وبناءً على هذا الفهم الذي ترجَّحَ لديَّ فَاللّامُ في عبارة ﴿لِوَقْعَتِهَا﴾ هي بمَعْنَىٰ: «بَعْد» مثل اللّام في قَوْلِ الله عزّ وجلَّ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾: أي: بَعْدَ زَوالِ الشَّمْسِ عن كَبِد السماء، وهذا تحديدٌ لأوّل وقت صلاة الظهر، ويمتد إلى وقت صلاة العصر حتى آخر وقتها، وبَعْدَ غروب الشمس، ويمتد إلى طلوع الفجر.

وممّا لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكْذِبَ فيهِ نَفْسٌ مَا يَوْمَئِذٍ، كُلُّ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدّين، لأنَّها تكونُ أحداثاً مَشْهُودَةً لجميع الخلائق، وواقعاً يُدْرِكُهُ الحسّ، فَمَا كانَ خَبَراً في الحياة الدنيا، قابلاً لأنْ يُكَذِّبَ به الكافِرُ، بدافع من أهواء نَفْسِه وشهواتِها وكِبْرِهَا ورَغَبَاتها في الفجُور يَصِيرُ أمْراً واقعاً

مشهوداً، ولأن كل نفس ظالمة تكُونُ يومئذٍ في حالة ذُعْرٍ شَدِيدٍ مِنَ العذاب الذي تُسَاقُ إلَيْه بأمْرِ الْمَلِكِ الجبارِ العليم الّذِي لاَ يَخْفَىٰ علَيْه شيء، فهِيَ لاَ تَمْلِكُ جُرْأَةً لأنْ تَكْذِبَ في شيءٍ خوفاً من زيادة عذابها، علىٰ احتمال أنّها تَمْلِكُ حُرِّيَّةَ أَنْ تَكْذِبَ.

إنَّ الْمُلْكَ يوْمَئِذٍ كلُّهُ للهِ الواحد العزيز الْعَلِيم الْقَهَّار.

وجملة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ يَتَرَجَّحُ لَدَيّ أَنَّهَا اعْتراضِيَّة، بَيْنَ الشَّرْطِ وجوابِهِ المحْذُوفِ الْمُقَدَّرِ ذِهْناً، فهي لا مَحَلَّ مِنَ الإعراب كسَائر الْجُمل الاعْتِراضِيَّة.

وتقدير جَوابِ الشرط في: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أقولُ فيه مَعَ بَسْطٍ وإطْنابِ شارحَيْن ما يَلي: إذَا وَقَعَتِ الواقِعَةُ جَرَتْ أَحْدَاثٌ عظامٌ مَهُولَةٌ في الكَوْنِ كُلِّهِ، وأحداثٌ عظامٌ مُرْهِبَةٌ للعِباد الّذِينَ بُعِثُوا مِنْ أَجْدَاثِهِم للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذ الجزاء، وهم لا يَمْلِكُونَ إيماناً وَعملاً صالحاً يَمْنَحُهُم العزيزُ الجبَّارُ به أمْناً مِنْ عذابه، بَلْ يَلْقَوْنَ يَوْماً عَسِيراً جِدّاً غَيْرَ يَسِيرٍ عَلَىٰ الْكَافِرِين.

ويصلُحُ بوضوحٍ أنْ يكون جوابُ الشرط قولَ اللهِ تَعَالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾... وحتىٰ آخر البيان الذي يتَعَلَّقُ بتقسيم أهْلِ الْمَوقِفِ يومَ الدّين إلى ثلاثة أصنافٍ مصرَّحٍ بهم، وصَنف رابعٍ مطويٍّ.

فمِمَّا يَجْرِي يَوْمئذٍ للعباد الّذين كانوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوضعَ الامتحان مِنْ جِنٍّ وإنْسٍ، أنّ هٰذه الواقِعَة بحوادِثها تكونُ خافِضَةً لفريقٍ منهم في الدَّرَكاتِ المنْحَطَّاتِ النازلاَتِ في اتّجاه أسْفَلِ الجحيم، بحَسَبِ كُفْرِ كُلٍّ مِنْهم، وجرائمه وكُثْرَةِ معَاصِيه. وتكونُ رَافِعَةً لفَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ في الدَّرجات الصَّاعِدَاتِ في اتّجاه الْفِرْدَوْس الأعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النعيم، بحَسَب إيمانِ كلٍّ منْهُمْ وكَثْرَة ما قَدَّم من أعْمالِ دَرجاتِ مَرْتَبَةِ

«التقوى» ودَرَجات مَرْتَبةِ «الْبِرِّ» ودَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ «الإِحْسَانِ» فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾: أي: هي خافِضَةٌ رافِعَةٌ، وفي القراءة الأخرىٰ ﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً ۝٣﴾ بالنَّصبِ على الحاليّة، أي: حالة كوْنها خافضة رَافِعَةً.

﴿خَافِضَةٌ﴾: اسم فاعل من فعل: «خَفَضَهُ» بمعْنَىٰ أنْزَل مكانَهُ المادّيُّ، أو مكانَتَهُ المعنويَّة في الدرجات أو في الدَّرَكاتِ، وحَطَّ مِنْها في اتّجاه الأسْفَل.

يقال لغة: «خَفَضَ الْخَافِضُ الشَّيْءَ» أي: حطَّهُ مِنْ عُلْوٍ، وأَنْزَلَ دَرَجَتَهُ أوْ دركَتَهُ نَحْو الأَسْفَل.

﴿رَّافِعَةٌ﴾: اسم فاعل من فِعْل: «رَفَعَهُ» بمَعْنَىٰ أعْلاَهُ في الدَّرَجاتِ صُعُوداً.

جاءَتْ نِسْبَةُ الْخَفْض والرَّفْع في هذه الآية، لأَحْداثِ يَوْمِ الدّينِ، الواقعة مُسْتَقْبلاً لاَ مَحالَة، نَظَراً إلى أنّها أدواتٌ وأسْبابُ الْخَفْضِ والرَّفْعِ بحَسَبِ الظَّاهر، مَعَ الْعِلْمِ بأَنَّ الْفَاعِلَ الْحقيقيَّ هُوَ اللهُ عزّ وجلَّ، لِأَنَّهُ هُو القاضِي بالجزاء، وهو الآمِرُ بِتنفيذِه، وهو الخالِقُ للأدواتِ والأسْبَابِ والمسَبَّباتِ.

وهُنَا يَقَعُ في الأذهانِ تَساؤلٌ مفادُه: هلْ لَنَا أَنْ نَتَلَقَّىٰ بياناً عَنْ بَعْضِ الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّة العظْمَىٰ الَّتِي تَحْدُثُ في هـٰذِهِ الواقعة؟.

فجاء الجوابُ الرَّبَّاني في قول الله عزّ وجلَّ:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

أي: تَكُون هـٰذِهِ الواقعَةُ، ذاتُ الأحداثِ العظْمَىٰ، إذَا رُجَّتِ الأَرْضُ

رَجًا عَنِيفاً، وبُسَّت الجبال بسًّا شديداً، فكانَتْ بالْبَسِّ الشديد ناعمةَ الذَّرَّاتِ كالْهَبَاءِ الذي يتطايَرُ في الجوّ، إذْ لاَ وَزْنَ لَهُ ينْحَطُّ به إلى الأرض.

﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: هُزَّتْ، وحُرِّكَتْ بِشِدَّة، يُقَالُ لغةً: «رَجَّ الْحَدَثُ الشَّيْءَ يَرُجُّهُ رَجًّا» أي: هزَّهُ، وحَرَّكَهُ بِشِدَّةٍ، فارْتَجَ، أيّ: فاهْتَزَّ وَتَحرَّكَ واضْطَرَب.

﴿رَجًّا﴾ مَفْعُول مُطْلَق، يَدُلُّ على شدّة الرَّجِّ وعُنْفه.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾: أيْ: وفُتِّتَتِ الجبالُ إلَىٰ أجزاءٍ صغيرةٍ جدًّا، يقال لغة: «بَسَّ فُلاَنٌ الشَّيْءَ بَسًّا، وَبَسَّتِ الرَّحَا الْحَبَّ بَسًّا» أي: فَتَّتَتْهُ، وَفَرَّقَتْهُ، فالْبَسُّ التفتيتُ إلَىٰ أجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ والتَّفْرِيق.

﴿بَسًّا﴾: مفعولٌ مطلق، يَدُلُّ على شدَّةِ التجزئة والتفريق.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾: أي: فكانَتِ الجبالُ بالْبَسِّ الّذِي حَدَثَ فيها هَبَاءً مُتَفَرِّقاً في الجوّ، لاَ وَزْنَ لَهُ يَجْعَلُهُ يَهْبِطُ إلى الأرض.

الْهَبَاءُ: الترابُ النّاعِمُ الدقيق أو نحوه، من كلّ مَا يَطِيرُ مع الهواء، وقَدْ يَعْلَقُ بالأشياء، أو لا يَعْلَقُ، فَيَنْبَثُّ في الجوّ مُتَفَرّقاً، فلا يَبْدُو مِنْهُ إلّا ذَرَّاتٌ تتحرَّكُ فِي الجوّ تُرَىٰ في ضَوْءِ الشَّمْسِ الداخِلِ من كَوَّةٍ ما إلى مَكانٍ مظْلِم.

﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أي: متفَرّقاً مُنْتَشِراً يَتَطَايَرُ في الجوّ، يقال لغة: «بَثَّهُ، يَبُثُّهُ، بَثًّا» أي: فَرَّقَهُ، ونَشَرَهُ، في مخْتَلِفِ الجهات. ويقال: «بَثَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ وَنحْوَه» أي: أثارتْهُ، وهَيَّجَتْهُ، وفَرَقَتْهُ في الجهات.

فالمعنى: تكونُ الواقِعَةُ الكُبْرَىٰ المنتَظَرَةُ، إذَا هُزَّتِ الأرْضُ وحُرّكَتْ تَحْرِيكاً شَدِيداً عَنِيفاً، وفُتِّتَتِ الْجِبالُ إلى أجزاءٍ صغرىٰ جدًّا، حتَّىٰ صارت

مِثْلَ الهَبَاء الّذي يَنْبَثُّ ويَنْتَشِرُ في الفضاء متطايراً لخِفَّتِه، أي: فلا يَبْقَىٰ من الجبالِ في مَواضِعِها التي كانت فيها، إلَّا مِثْلُ الذَّرَّات الصّغيراتِ المتطايراتِ في الجوّ لخِفَّتِها، ولا تُرَى بالأبْصَارِ إلَّا في ضَوْءِ الشَّمس الداخِلِ مِنَ الكَوَّةِ إلى مكانٍ مظلم.

وهذه الظاهرةُ التي سَوفَ تَحْدُثُ، هي إحْدَىٰ الظواهر التي جَعَلَ اللهُ عزّ وجلَّ أَزْمانَ حُدُوثها قُبَيْلَ الواقِعة الكبرى، أو مَعْها، وَعِنْدَ قيام السَّاعة(١).

قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لكُلّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء من الإنس والجنّ:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذِهِ الآيات من الدرس الأوّل مِنْ دُرُوس السُّورَةِ، بَيَانُ تَقْسِيم الناس يَوْمَ الدِّين إلَىٰ أصْنَافٍ ثَلاثَة، ويُفْهَمُ الصّنْفُ الرابع من التقابُلِ والتناظُرِ بَيْنَ الأَصْنَاف كما سبَقَ بيانه تحت عنوان «موضوع السورة».

---

(١) انظر استعراض ما جاء في القرآن بشأن الأطوار الّتي تتعرَّضُ لها الجبال في المستقبل، فيما سبَق بيانه لدى تدبّر الآية (٣) من سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

وفيها بيَانُ لَقَطاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ مِنْ جَزاءِ السَّابِقِينَ في الخيرات بإذْنِ الله في جنَّات النَّعِيم، وقَدْ جَاءَ الحديثُ عنهم صِنْفاً ثالثاً، لاسْتِكْمَالِ بيَانِ لقَطاتٍ مِنْ ثوابِهِمْ في جنَّاتِ النعيم أوّلاً، عَقِبَ ذِكْرِ كَوْنِهِم صنْفاً ثالثاً مُمْتَازاً، دلَّ علَىٰ تميُّزهم تَكْرِيرُ وصْفِهِم بأنّهم السَّابِقُونَ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ وقَد استفاد الشاعر أبو النجم من هٰذا الأسْلُوبِ البياني، فقال في الثناء على شِعْرِه المتَمَيِّز: أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْرِي شِعْرِي.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾: أي: وصِرْتُم بالكيْنونَةِ المستَقْبَلِيَّةِ بَعْدَ فَرْزِكُمْ في مَوْقف الحشْرِ يَوْمَ الدِّين، أصْنَافاً ثلاثَة.

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أي: أصْنَافاً: «يُطْلَقُ الزَّوْجُ في اللُّغَةِ على الصِّنْفِ مِنْ كُلّ شَيْءٍ» وجَمْعُه «أزْواج» وهذا المعنى هو المراد هنا.

ويُطْلَقُ الزَّوج في اللّغَة ويرادُ به خلاف المفرد. وكلُّ شيئَيْن مُقْتَرِنين هُما زَوْجان، ولَوْ كانَا مختلِفَيْنِ غَيْر مُتَشَاكِلَيْن. والتَّزْويج في اللُّغَةِ: قَرْنُ شيءٍ بشيء، ومِنْهُ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ أي: قُرِنَتْ بها الأرواح التي كانت منْفَصِلَةً عَنْهَا بالموت.

قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾؟ في هذه الآية بَيَانٌ للصنْفِ الأوَّل، وهُمْ أصْحَابُ الْيَمِينِ مِنْ جُمْهُورِ المؤمنين، والفاء جاءت تفريعاً على عبارة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ وتَصْلُحُ أَنْ تكون واقِعة في جواب شرط: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ أي: فالمحشورون للجزاء: أصحابُ الْمَيْمَنَةِ، وأصحابُ المشأمة، والسابقون.

«الْمَيمَنَة»: تأتي في اللُّغَةِ بمعنىٰ الْيُمْنِ الذي هو ضِدُّ الشُّؤْم، وتأتي بمعنى جِهَةِ الْيَمِين.

«أَصْحَاب»: جمع «صَحب» وهذا جمع «صَاحب» وتجمع لفظة «أصْحَاب» على «أصاحيب» من صيَغ مُنْتَهىٰ الجموع، فالمراد بأصحاب الميْمَنَةِ أصحاب اليمين، كما جاء في الآية (٢٧) الآتية لدَى التفصيل في بيان لمحَاتٍ من الجزاء المعدِّ لَهُم.

والصّاحِبُ في اللّغة: هو المعاشر المخالط المرافق، وقد حصل تَوَسُّعٌ في استعمال كَلِمَةِ «صاحب» وكلمة «أصْحاب» فتُسْتَعْمَلاَنِ للدلالة عَلَىٰ مُطْلَق الملازَمَةِ أو الاقتران، أو الحلُول في المكان، أو الانتماء إليه، أو الانتماء إلَىٰ أيِّ شيءٍ، أو لتملُّكِ الشيء، أو لحيازته، وتُطْلَقان علىٰ كلِّ علاقَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْن.

وجاء عند المفسرين في تفسير «أصْحاب الميمَنَةِ» أنَّهُم الَّذِينَ يَأخُذُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانهم، أو الَّذِينَ يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الْيَمِينِ إلى جهة الجنَّة، أو الذين يُوضَعُونَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْش.

أقول: كلُّ هـٰذِهِ المعاني صالِحَةٌ لتفسير أصحاب الميمنَة، فَهُمْ يَأْخُذُونَ كُتُبَهُم بأيمانهم، ويُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ إلى جِهَةِ الجنَّة، ويُوضَعُون عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، فالأَوْلَىٰ حَمْلُ الْعِبارَة عَلَىٰ هـٰذِهِ المعانِي كُلِّها، دونَ تَرْدِيدٍ بَيْنَها.

وعبارة: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟ استفهام تَعْجِيبيٌّ من الخيْرِ العظيم، والثَّوابِ الدَّائم في جنَّاتِ النعيم، والنّعيم المقيم، الّذي يمنَحُهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحيم لهم يَوْمَ الدِّين، مع الثناء على منزلتهم الرفيعة عند ربّهم.

أي: أعْظِمْ مُتَعَجّباً أيُّها المتلَقِّي، بمَا سَوْفَ يَلْقَىٰ أصْحَابُ الميمَنَةِ عنْدَ رَبِّهِمْ يوْمَ الدين من أجْرٍ عظيمٍ لاَ تَسْتَطِيعُ تَصَوُّرَهُ ولاَ التكَهُّنَ بِهِ، ففي

أنواع نعِيمهم وإكْرَام اللهِ جلَّ جَلاَلُهُ لَهُمْ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

وهذا أسْلُوبٌ تعجيبي من أساليب القرآن الّتي جاءتْ في نُصُوصٍ عَدِيدَة منه مثل: «القارعَةُ مَا القارعَة؟ ـ الحاقَّةُ مَا الْحَاقَة ومَا أدْراكَ ما الْحَاقَة؟ ـ ومَا أدْراكَ مَا سَقر؟ ـ ومَا أدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْل؟ ـ ومَا أَدْرَاكَ مَاهِيَة» ونحوها.

وهو من الأساليب التعجيبيَّة الّتي لم تكُنْ معْرُوفَةً عنْدَ البلَغاء فيما أعلم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ⑨﴾: في هذه الآية بيانٌ للصنف الثاني مِنْ عباد الله يَوْمَ الدين، وهُمْ أصْحَابُ الشمال.

والجملة معطوفة على الجملة السَّابقة لها، فهي مُفَرَّعَة على عبارة ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ⑦﴾.

«المَشْأَمَةُ»: تَأْتي في اللُّغَةِ بمعنَيْين: بمعنَىٰ الشُّؤْم الذي هُو ضِدُّ الْيُمْن، وبمَعْنَىٰ جِهَة الشمال.

وقد جاءَ عنْد المفسّرين في تفسير «أصْحاب الْمَشْأَمَةِ» أنَّهم الّذِين يأُخذون صُحف أعْمالهم بشمائلهم، أو الَّذين يُؤْخَذُ بهم ذاتَ الشمال إلى جهة النار، أو الّذين يُوضَعُون عَنْ يَسارِ الْعَرْش.

أقول: كلُّ هٰذِهِ المعاني صالحةٌ لتفسير أصحاب المشأمة، فهُمْ يأخُذُون كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلهم، ويُؤْخَذُ بِهِمْ ذَات الشمال إلى جِهَةِ النار، ويُوضَعُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، فالأولى حَمْلُ العبارة علىٰ هذه المعاني كُلّها، دون تَرْدِيدٍ بيْنَهَا.

وتدبُّر بقية الآيَةِ يُقَاسُ علىٰ نظيرتِها السَّابقَةِ لها.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾: في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانٌ للصّنْفِ الثالث مِنْ عباد الله يوم الدّين، وهم السَّابِقُونَ المتقدّمُون المتَفوِّقُون من أصْحَاب الْيَمِين، يفْرِزُهم اللهُ عزّ وجلَّ مِنْهُمْ، ويُمَيِّزُهم ويَجْعَلُهُمْ سَابقينَ في الصفوف الأولَىٰ من المؤمنين المسلمينَ المتقين، وسَبْقُهُمْ يكُونُ باسْتِكْثَارِهم مِنْ فِعْلِ الخيراتِ والصالحاتِ والْقُرُبَاتِ مِنْ أعمال مَرْتَبَة «الْبِرّ» وأعْمَال مَرْتَبَةِ «الإحسان» ابتغاء مَرْضاة اللهِ عزّ وجلَّ، والْتَقَرُّبِ إلَيْهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه، وهذه الأعمال الظاهرة أو الباطِنَةُ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات، بَلْ هي مَنْ نوافِلِ العبادات والْقُرُبات، بِفِعْلِ المنْدُوبِ إلى فِعْلِه دُون إلزام، وتَرْكِ المَنْدُوبِ إلى تَرْكِه دُونَ إلْزَام.

يقال لُغة: «سبَقَ الفارسُ القافِلَةَ» أي: تَقَدَّمَها فصار قَبْلَها في المسير. «وسبَقَ الْفَرَسُ» أي: جاء قَبْلَ الأفراس في الحلْبَة. ويُقال: «سبَقَ فُلاَنٌ علَىٰ قَوْمِهِ بالْعِلْمِ أو بالْجُودِ والكَرَم» أي: تَفَوَّقَ عليهم بذلك.

فالسَّابِقُونَ: هُمُ المتَفَوِّقُونَ المتَقَدّمون على سائر المؤمنين المتقين.

وجاء تكرير وصْفِهِمْ بالسَّابِقين فقال الله عزّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴿١٠﴾﴾ للإشعار بالثّناء عليهم بالتَّفَوُّقِ والتَّقَدُّم إلى الصُّفوف الأولىٰ.

وبما أنّ أَعْمَالَهُم التَسَابُقِيَّة كانت في اتّجاه التَّقَرُّب إلى الله بفِعْلِ الصالحات الّتي تُرْضيه جلّ جلالُهُ، كانَ من مُكَافَأتِهم عند ربّهم أن يُثْنِيَ عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: أولئِكَ رَفِيعُو المنازِلِ هم الْمُقَرَّبُون عنْد رَبّهم، ثواباً لهم على سبقهم بصالحاتِ أعمالهم.

وقد جاء في الحديث الْقُدْسِيّ الصحيح:

«إذا تَقرَّبُ الْعَبْدُ إلَيَّ شِبراً تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعاً، وَإذَا تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً، وإذَا أتَاني يَمْشِي أتَيْتُه هَرْوَلَة».

رواه البخاري عن أنس بن مالك (انظر الحديث (٧٥٣٦) في «فتح الباري».

والمرادُ التقرُّبُ إلَىٰ اللهِ بمَا يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ من الأعمال الصالحة، من الفرائض فالنوافل، ومن ترك المحرّمات فالمكرُوهات. ولا يزال العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلى الله بالنوافلِ حتَّىٰ يُحِبَّه، وحينئذٍ يتقرَّبُ اللهُ مِنْهُ بفيُوضِ رَحَمَاتِهِ وعَطاءَاته.

ويقابلُ هذا الصِّنف السّابقَ الْمُتَفَوِّقَ، صِنْفٌ رابعٌ طَواه النصُّ القرآني لإمكان استخراجه بالتَّدَبُّر، وهم صِنْفُ غُلاَة الكافرين المجْرِمين المتَجَبِّرين، الدُّعَاةِ إلى الكُفْر والفِسْقِ والفجور، وهم في الدَّرْك الأسْفَل من النار، في مقابل السَّابِقين الّذِين هم من أهل الفردوس الأعلى ذِي الدَّرجات المتفاضلات.

والسَّابقون هُمُ المرسَلُونَ والأنبياءُ، والصِّدِّيقونَ، والشهداءُ والصالحون من المؤمنين المسْلِمين ذوي المرتَبَةِ السَّامِيَةِ، والدَّرَجاتِ المتَفَاضِلاَتِ فيها.

قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات بيانٌ عَنْ حَالِ «السَّابِقِينَ السَّابِقِينَ» المتميّزين بالسَّبْقِ والتَّفَوُّق، والْقُرْبِ من اللهِ رَبّ الْعَالَمِينَ يَوْمَ الدّين، وبَعْدَهَا يأتي عَرْضَ لقطاتٍ من نعيمهم الّذِي يكافِئُهُمْ رَبُّهُمْ به.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: **جنّات**: جَمْعُ «جَنَّةَ» وهي في اللُّغة مَا يَحْتَوِي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهارٍ وقُصُورٍ، وعلى كلّ ما يَلَذُّ ويَطِيبُ للنفوس والحواسّ. ودارُ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ فيها جنَّاتٌ كَثِيرَاتٌ باعتبار أَقْسَامِها، ويَجْمَعُها جميعاً اسْمُ «جَنَّة» باعتبار أَنَّها كلَّهَا دارٌ للنعيم، كشَأن دَار الحياة الدُّنْيا بكُلّ ما فِيها مِنْ أَرْضٍ وسماوات وما بينهما.

النّعيم: مَصْدَرُ: «نَعِمَ الرَّجُلُ، يَنْعَمُ، نَعماً، ونَعْمَةً، ونَعِيماً» أي: طَابَ، وَرَفُهُ، وهَدأَ بالُهُ، واطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ، واسْتَرَاحَ، وتأْتِي مادّة «نَعِمَ» بمعْنَىٰ: «نَضُرَ» وبمعنى: «لاَنَ مَلْمَسُهُ، وكلُّ هذه المعاني يَصِحُّ وَصْفُ نَعِيم الجنَّة بها.

وللتفريق بَيْنَ لذَّاتِ الحياة الدُّنيا ومَا فِيها من رَفَاهِيَةٍ وطيّبات، وبَيْنَ مَا فِي الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين من ذَلِك، وصَفَ اللهُ ما في الحياة الدنيا من ذلك بأنَّهُ «مَتَاع» لسُرْعَةِ زَوَالِهِ، وقِلَّةِ قِيمَتِهِ، ووصَفَ ما في الجنَّة من ذَلِكَ بأنَّهُ «نَعِيم» لتخصيص هذا اللّفظ بما هو باقٍ خالِدٌ مُتَجدِّد، وبما هُوَ عظيم الْقِيمَة لذَّةً وسَعَادَةً ورَفاهِيَةً.

• ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾:

«**الثُّلَّة**»: في اللُّغَةِ الْجَمَاعَةُ من النَّاس، ويُرَادُ بها هنا الجماعة الّتي لَيْسَتْ بالْقَلِيلَةِ، لمقابلَةِ «الثُّلَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ» في النَّصّ بقَوْل الله عزّ وجلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الأَوَّلُون: هم الأنبياء والمرسلون من عَهْدِ آدم، والسَّابقون المتَفوِّقُونَ من الَّذِينَ آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهُمْ بإحْسَان، وكان هؤلاء ثُلَّةً بالنِّسْبَةِ إلى أعْدادِ البشر الأولين.

الآخِرُونَ: هُمْ الرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ، وأصحابُه الَّذِينَ رضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عِنْهُ، والتَّابِعُونَ لَهُمْ بإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين، وهٰؤلاَءِ قَلِيلون، نَظَراً إِلَىٰ كَثْرَةِ أَعْدَادِ النَّاسِ في الآخِرين.

لكِنَّ أَهْلَ الجنَّةِ من الآخِرِين دُونَ أنْ يَكُونُوا من السَّابقين، قد يَصِلُونَ إلى مقدار نِصْفِ أهْلِ الجنَّةِ جَمِيعاً، كما صَحَّ عَنِ النبيّ الرسول محمّد ﷺ.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري (مِنْ حَدِيثٍ ذِي طُولٍ) أن رسُولَ الله ﷺ قَالَ:

«. . . والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّة». فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ:

«أرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فقال: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجنَّةِ» فَكَبَّرْنا.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الآياتِ وَصْفٌ لِبَعْضِ نَعِيمِ السّابِقِينَ المتَميِّزِين بِسَبْقِهِمْ، في

جنّات النعيم يوْمَ الدِّين، إذ كانوا في حياة امتحانهم في الدُّنْيا، سابِقِين في الخيرات بإذْنِ الله، مما فيه رضوان الله عزّ وجلَّ، والتقرُّب إلَيْه بالنوافل من مَحَابِّه.

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾: الجملَة هـٰذِهِ حاليَّة: أي: حالة كونهم على سُرُرٍ موضُوَنَةٍ سُعَداءَ في جنَّاتِ النعيم. «**السُّرُر**»: جَمْعُ «السَّرِير» هُوَ الْمُضْجَعُ ذُو القوائم الأربعَة الّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الأرض، وما يُشْبِهُهُ، ويُبْسَطُ الفِراشُ اللَّين علىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ مِنْهُ، ويُجْمَعُ أيضاً على: «أَسِرَّة».

«**الْمَوْضُونَة**»: أي: المنْسُوجَة، **الْوَضْنُ**: النَّسْجُ المضاعَفُ، ويقالُ: «وَضَنَ السَّرِيرَ وأشباهَهُ بالْجَوْهر» فهو «واضِنٌ» وهي «واضِنَة» والمفْعُول: «مَوْضُونٌ».

أي: مُسَطَّحَاتُ هـٰذِهِ السُّرُرِ مَنْسُوجَةٌ نَسْجاً مُضَاعفاً، ومُطَعَّمَةٌ بالجواهر النَّفِيسة، وخُيُوطِ الذّهب وأسْلاَكِهِ.

وجاء في القرآن وصْفُ هـٰذِهِ السُّرُر بأنَّها مَصْفُوفَة، وبأنَّها مَرفوعة:

• فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الغاشية/٨٨ مصحف/٦٨ نزول) في وصْفِ الجنَّة:

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

• وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الطور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول) في وصف نَعِيم المتقين في جنَّاتِ النعيم:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى:

• ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾: «**الْمُتَّكِىءُ**»: مَنْ يَسْتَوِي قاعداً عَلَىٰ وِطَاءٍ مُتَمَكّناً. و«**الاتّكاءُ**»: هو الْجُلُوسُ بِتَمكُّنٍ عَلَىٰ مَجْلسٍ وَثِير، ويُصَاحِبُهُ

غالباً وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدَين علَىٰ مَا يَحْمِلُهُما للرَّاحَة، أي: فهم يتكِئُونَ علَىٰ السُّرُرِ.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾: أي: يُقَابِلُ هؤلاء السَّابِقُون من أهل جناتِ النّعيم بَعْضُهُمْ بَعْضاً بُوجُوههم، فَيُشاهِدُ بَعْضُهُمْ بعْضاً، ويُحَادِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مُحَادَثَاتِ إيناسٍ وتَنَعُّم بنَفِيسِ الأحَادِيث، لأنّ هـٰذِهِ من لوازم التقابل في مجالِسِ الأُنْس بَيْن المتحَابِيّن المتصَافِين، الّذِين لا يُضْمِرُ بعضهم لبَعْضٍ غِلّا، مِنْ حِقْدٍ أو حَسَدٍ أو تَنَافُس، ولو تفاضَلَتْ دَرَجَاتُهُمْ.

وهـٰذِهِ الجملة حالية أيضاً، فالعبارات من الجملة الحاليّة المتَتابعة، كالْجُمَل الوصْفيَّة.

قول الله تعالى:

• ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾:

وهذه جُمْلَة حَالِيَّةٌ أيضاً، مناظرة لسابِقتَيْها.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾: أي: يَدُورُ عليهم، ولا يَلْزَمُ أَنْ يكُونَ الطواف على شكل دائرة مُتساوية الأبعاد عن المحور، أو متقاربة الأبعاد، بَلْ كُلُّ عَوْدٍ على بَدْءٍ في الحركة يُسَمَّىٰ طوافاً، ومِنْهُ الطوافُ بَيْنَ الصَّفَا والمرْوة.

يُقَالُ لغة: «طَافَ حَوْلَهُ، وَبِهِ، وعَلَيْهِ، وفيه، يَطُوفُ طَوْفاً، وطَوَافاً» أي: دَارَ، وحَامَ، وعاد في حَرَكَتِه إلى المكانِ الذين بدأ منه، أَوْ مَرَّ عليه أوْ به.

﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾: «**الْوِلْدانُ**»: جَمْعُ «الْوليد» والمرادُ به هنا الْغُلَامُ الخادم.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: يَجْعَلُهُمُ اللهُ بَاقِينَ أَبَداً في خِدْمِتِهم، وهم يتَنَعَّمونَ بهذه الْخدمةِ، والمرجَّحُ أن يكونوا مخلوقين في الجنة لخدمة أصْحابها، كالْحُورِ العِين.

وَجَاءَ في سُورَةِ (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) وصْفُهُمْ بأنّهُمْ غِلْمَانٌ، كأنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ جمالاً وَحُسْناً وأَناقَةً، **«اللُّؤْلُؤُ المكْنُونُ»**: هُو المحفوظ المسْتُورُ، الّذِي لاَ تَعْبَثُ بِهِ الأيْدِي، حِمَايَةً لَهُ مِنْ إفْسَاده، ولَمْ يَتَعَرَّض لِمَا يغيّر صَفاءَه ونقاءَه، ودَرَجَةَ جَمالِه من عوارض مختَلِفةٍ، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿غِلْمَانٌ﴾: جمع «غُلاَم» وَهُوَ الخَادِمُ الّذِي طَرَّ شَارِبُهُ، وبَدَأَ الدُّخُولَ في مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ.

وَجاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) قول الله عزّ وجلَّ في وصْفِ نعيم الأبرار في الجنة:

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾:

فَدَلَّ مَا جاء في هذه الآيَةِ مع مَا جاء في آيَة سُورَة (الطور) علىٰ أنَّ جَمَالَهُمْ كَجَمالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُون الذي لم تَعْبَثْ بِهِ أيْدي العابثين، وأنَّ انْتِشَارَهم في مجالِس المنَعَّمِينَ في الجنَّةِ كاللُّؤْلُؤِ المنْثُورِ نَثْراً بَدِيعاً.

قولُهُ تَعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾:

أي: يطوف عليهم الوِلْدَانُ المخَلَّدُون بهٰذِهِ الأدوات النّفيسةِ، وذكر هٰذِهِ الأدوات يُشْعِرُ عَنْ طَرِيقِ الكِنَايَةِ بما فيها مِنْ أنواعِ أشْرِبة نفيسَةٍ لَذَّةٍ للشاربين.

﴿بِأَكْوَابٍ﴾: **«الأكْواب»**: جَمْعُ «الكُوب» وهو الْقَدَحُ مِنَ الزُّجاج ونحوه، المستدير الرأس، الَّذِي لا آذانَ لَهُ، ولاَ عُرْوة، وهو من آنية الشّراب، ويُجْمَعُ أيضاً علىٰ أكْوُب.

﴿وَأَبَارِيقَ﴾: **«الأباريق»** جمع «الإبْرِيق» وهو إناءٌ ذُو أُذُنٍ وخُرْطُومٍ

يَنْصَبُّ مِنْهُ السَّائل. وسُمِّيَ إبْرِيقاً لِأَنَّ مَعْدِنَهُ يَبْرُقُ من صَفائِهِ ونفاسَتِه.

﴿وَكَأْسٍ﴾: «**الكَأْسُ**» الْقَدَحُ ما دَامَ فِيه الخَمْرُ، ويُجْمَعُ عَلىٰ «أَكْؤُسٍ» و«كُؤُوس» فإذا لم يكُنْ فيه خَمْرٌ فَهُو كُوبٌ.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: أي: من نَهْرِ خَمْرٍ يَجْرِي في الجنَّة ظَاهِراً يَسْهُلُ التَّناوُلُ مِنْه.

وإذ جاء في القرآن بيان أنَّ الجنَّة فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غير آسِنٍ، وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وأنَهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبين، وأنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مصَفًّىٰ، ولمَّا كانَتِ الكأْسُ هِيَ الْقَدَحَ المملُوءَ بالْخَمْر في اللُّغَةِ، فالَّذِي أَرَاهُ أَنْ تكُونَ عِبارَة: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ وَصْفاً عامًّا لِلْأَكواب، والأبَارِقِ، والكَأْسِ، باعْتِبارِ مَا فِيها، أي: مَمْلُوءَةٍ مِنْ أنْهُرٍ تَجْرِي في الجنّة، من ماءٍ غير آسِنٍ: ولَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَاربين، وعَسَلٍ مصَفًّىٰ، وإِذْ كانت الْكَأْسُ الْقَدَحَ المملُوءَ خَمْراً، فالأقْدَاحُ والأباريق تَبْقَىٰ للْماء، وَاللَّبَنِ، والْعَسَلِ المصَفَّىٰ.

وفي بيان هـٰذِهِ الأنهار قال الله عزّ وجلّ في سورة (مُحمَّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ... ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وَصْفُ الجنَّة.

﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي: لاَ يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ بالمنتنات.

﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾: أي: لم يَتَأَثَّرْ بالمنْتِنَاتِ علَىٰ طُولِ الْمَدَىٰ، فكُلَّما شَرِبَ مِنْهُ المنَعَّمُونَ في الجنَّةِ وَجَدُوهُ كأَنَّهُ قَدْ خُلِقَ لِسَاعَتِه.

﴿مِّن خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: مَعَ سَلْبِ صِفَةِ الإسْكَارِ مِنْهَا، إذْ لاَ غَوْلَ فيها، كما جاء في نصوص أخرى.

قول الله تعالى:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَلاَ يُنْزَفُونَ].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾: أي: لاَ تُصَابُ رُؤُسُهُمْ بالصُّدَاعِ بِسَبَبِ شُرْبِهِمْ خَمْرَ الجنَّةِ الّتي هِيَ لَذَّةٌ للشَّارِبين، بخلاف خُمُور الدُّنيا.

حَرْف «عَنْ» يأتي بمعنَىٰ التجاوز، ويَأْتي بمعنىٰ التعليل، ومن هٰذيْنِ المعنيين نستَطِيعُ أنْ نفهم أنّهم لاَ يُصابُون بالصُّدَاعِ بَعْدَ شُرْبها بسَبَب شُرْبهم لها.

الصُّدَاع: ألَمٌ في الرأس مَعْرُوف، وهو عَرَضٌ فيه تُسبِّبُهُ وتُحْدِثُهُ مؤثراتٌ كثيرة، منها ارتفاع ضغط الدّم، ومنها ما تُؤَثِّرُهُ الْخَمْرُ في بَعْضِ أجْهِزَةِ الْجِسْم.

وجُمْلَةُ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ لاَ مَحَلَّ لها من الإعراب.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: [وَلاَ يُنْزَفُونَ] في القراءة الأُخرى، وقَدْ سبَق في القراءات توجيههُما اللُّغَوِيّ.

والمعنى: لاَ تَذْهَبُ عُقُولُهُم بالسُّكْرِ الّذي تُحْدِثُهُ خَمْرُ الدنيا، **السُّكْرُ**: غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ واختلاطُهُ من الشّراب المسْكِر.

إنّ الله عزّ وجلّ لم يَجْعَلْ خَمْرَ الجنَّةِ مُسْكِرَةً لشَارِبيها المنَعَّمِين بلَذَّة شُرْبِها، بخلاف خَمْرِ الدُّنيا الّتي جَعَلَها الله في الإسلام من المحرَّمات، لصِفَة الإسْكارِ الّتي فيها، والأضرار الجسميّة الّتي تنشَأُ عنها، أو تتوَلّدُ منْ تأثيراتها.

قول الله تعالى:

• ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَيَطُوفُ عليهم الوِلْدَانُ المخَلَّدُونَ بِفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ من ثَمراتِ أشْجَارِ الجنَّة.

الْفَاكِهَة: الثَّمَارُ اللَّذِيذَة، وتُطْلَقُ أيضاً على الْحَلْوَاء. وتجمع على «فَوَاكه».

﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾: أي: مِمَّا يُفَضِّلُونَ لِنَعِيمهم. **تخير** الشَّيْءَ مِنْ أشياء، أي: انْتَقَاهُ وفَضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وكذلك «اخْتَارَهُ».

وتَخَيُّرُهم مِنْ أصْنَافِ الفاكِهَةِ وأنْواعِها يَدُلُّ عَلَىٰ كَثْرَةِ الأنواع والأصْناف الّتي تُقَدَّمُ لَهُمْ، فَهُمْ يَخْتَارُونَ مِنْهَا مَا يَحْسُنُ في نظرهم، وتَمِيلُ نُفُوسُهُمْ إليه، وَيَرَوْنَ أنَّهُ يُحَقِّقُ لهم الأَوْفَرَ لَذة وَالأكْثَرَ تَنعمًّا.

قولُ الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾: إنَّ اللُّحومَ المشْويَّةَ مِنَ المثيرات الْقَوِيَّةِ لشَهْوَةِ الْأَكْلِ مِنْها، ولَحْمُ الطَّيْر مِنْ أكْثر اللُّحُومِ إثَارَةً لِشَهْوَةِ الْأَكْلِ مِنها.

فالمنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّة، يُقَدِّمُ لَهُمُ الوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ فيها لَحْمَ طَيْرٍ ممَّا يَشْتَهُونَ مِنْ أنْواعِها وأصْنَافِها، بَعد أَنْ يَطُوفُوا عليهم بفاكِهَةٍ كَثِيرَة فَيَتَخَيَّرُونَ مِنْها مَا يَرَوْنَهُ الأحْسَنَ والأفضل والأكثر لَذَّة.

وتَقْدِيمُ الفاكِهَةِ على لَحْم الطَّيْر في تَرْتيب الْجُمَل، يُشْعِرُ بأَنَّ تقديم أكْلِ الفاكِهةِ على أكْلِ اللُّحُوم هُوَ الأحْسَنُ والأفْضَلُ للصّحة ولِلْهَضْم.

قول الله تعالى:

• ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: [وَحُورٍ عِينٍ] بالجرّ.

قراءة الرفع هي على تقدير: ولَهُمْ حُورٌ عِينٌ في جنَّاتِ النعيم. وَلاَ داعيَ لإيراد الوجوه الإعرابيَّة الأخرى، فهي من الصِّناعة النحويَّة.

وقراءة الجرّ، هي على أنَّ كلمةَ «حُورٍ» معطوفة علىٰ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ على تقدير: ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولْدَانٌ مُخَلَّدُونَ مصحوبينَ بخادمات، حُورٍ عين، هُنَّ غير الحور العين الزوجات الخاصَّاتِ للأسِرَّةِ والمعاشَرَةِ، أو معطوفة على: ﴿... جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ والمعنى يَكُونُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الدِّين سُعَداءَ فِي جنَّاتِ النَّعيم، وفي خِدْمَة وِلْدَانٍ مُخَلَّدِينَ، وفِي حُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المكْنُون.

وهذا أَحَدُ توجيهات الزَّمخشريّ، وهو توجيه أَرَاهُ حَسَناً ومقبولاً، ولو طَالَ الْفَصْل، إذْ للقرآن أسْلُوبُهُ الخاصُّ في الرَّبْطِ وفي العطف. وتَشْنِيعُ صاحِبِ الْبَحْرِ علىٰ الزَّمَخْشَرِيّ في هـٰذَا التَّوْجِيهِ واعتبارُهُ فَهْماً أعْجَمِيًّا، سَبَبُهُ التَّسَرُّعُ وعَدَمُ الأَنَاةِ في تَدَبُّر النُّصُوص الْقُرْآنيّة، فَكَمْ نُلاحظ في القرآن رَبْطاً بَيْنَ دُرُوسِ السُّورَة الْقُرْآنيّة، مع طُولِ الْفَصْل بَيْنها، ورَبْطاً بيْن آخرِ السُّورَةِ والدَّرْسِ الأَوَّلِ من دُرُوسها. إنَّ تَحْكِيمَ الصِّناعةِ النَّحْوِيَّةِ قَدْ يُوقِعُ المفسِّرَ في أَخْطاءٍ فِكْرِيَّة، لاَ يَقْبَلُ بها المتدبّر الْحَصِيفُ لِكِتاب اللهِ المجيد.

«**حُورٌ**»: جمع «حَوْراء» وهي من النساء الْبَيْضَاء. **والْحَوَرُ**: في الْعَيْنِ شِدَّةُ بَيَاضِ بياضها، مع شِدَّة سَوادِ سَوادِها، وهذا المعنى غيرُ مُرَادٍ هُنَا والله أعْلم.

«عِينٌ»: جمع «عيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْن الحسَنَةِ الواسعة.

وقد جاء في القرآن بشأن الْحُورِ العين.

(١) قول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (الدُّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) في وصْفِ نعيم المتَّقِين يَوْمَ الدّينِ في الجنَّة:

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾.

(٢) وقولُ الله عزَّ وجلَّ فِي سُورَةِ (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في وصف نعيم المتقين أيْضاً.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) في وصْفِ نعيمِ المتقين غير السَّابقين في جَنَّتَيْن هُما دُونَ الجنَّتَيْن اللَّتَيْن للمحسِنين، خطاباً للإنس والجنّ:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤﴾.

﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾: جاء عند البخاري ومُسْلم وصف خيمة المؤمن في الجنة بأنها خيمة من لُؤْلُؤَةٍ مُجوَّفَة، طولُها سِتُّون مِيلاً.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: أي: هُنَّ في دَاخِل خِيامِهِنَّ مُلازماتٌ، لا يَخْرجْنَ مِنْها، فَلا يَتَطَلَّعْنَ لِغَيْرِ أَزْواجِهنّ، عِفَّةً، وعِشْقاً لهم، وتعلقّاً بهم.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أيْ: لم يَمَسَّهُنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أزْواجِهِنَّ من المؤمنين، لا إنْسٌ ولا جنٌّ.

قول الله تعالى:

• ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾: أي: وَصْفُ بَشَرَاتِ الْحُورِ الْعِين في جمال الألوان يَشْبِهُ أوْصَافَ ألْوانِ اللُّؤْلؤ المكْنُون بياضاً وَلمعاناً وحُسْناً.

«أمْثَال» جَمْعُ «مَثَل» ويَأْتي المثَلُ في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ «الوصْف» فالتشبِيهُ بالكاف مُوَجَّهُ لِأَوْصَافِ اللُّؤْلُؤِ المكنون، واللُّؤْلُؤُ لَهُ أوْصافٌ جمالية مختلفة الألوان.

«المكْنُون»: أي: المحْفُوظُ المستور، الّذي لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدي العابثين، ولم يَتَعرَّضْ لِمَا يُغَيّرُ صَفاءَهُ ونقاءَه، ودَرَجَة جَماله، من عوارض مختلفة.

قول الله تعالى:

• ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: «**الجَزاءُ**» المكافَأَةُ عَلَىٰ الْعَمَل، ويُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الثوابِ والعقاب، والمراد هُنَا في الآيَةِ «الثوابُ» على الإيمان والصالِحات مِنَ الْأَعمال.

• ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كانوا في الحياة الدنيا، حَياةِ الابتلاءِ يَعْمَلُونَ، مِنْ أَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ كالإيمان، والنيَّاتِ، والإراداتِ الصالحات، وأعْمالٍ ظاهرة، كأداءِ أرْكان الإسلام، وفِعْلِ الخير، والخلُقِ الحسَنِ.

والجزاء الرَّبَّانيُّ للعباد المؤمِنينَ هو فَضْلٌ مِنَ اللهِ عَلَيْهم، استَحَقُّوه بِوَعْدِهِ الكريم، إذ كُلُّ أَعْمَالِهِمُ الصَّالحة لاَ تُكافِئُ مَا أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِم في الدُّنيا من نِعَمٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَة.

قول الله تعالى:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾:

«**اللّغْو**»: كُلُّ مَا لاَ يُعْتَدُّ بِه مِن كلامٍ وغَيْرِه، إذْ لاَ فَائِدَة مِنْهُ. وكُلُّ كلامٍ لاَ يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ.

إنّ أهل الجنَّةِ يكونُونَ فيها جَادِّينَ، غير هازلين، وكذلك الملائكة فيها، والوِلْدانُ المخلَّدُون، والْحُورُ العين، فلا أحَدَ مِنْهم يتَكَلَّمُ بكلامِ لَغْوِ، ولاَ يَعْمَلُ عملاً لاَ فائدة مِنِه.

فأهْلُ الجنَّة في الْجَنَّةِ لاَ يَسمَعُونَ لَغواً ما.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾: التأثِيمُ الاتِّهَامُ بارْتِكَابِ الإثم، إذْ لاَ أَحَدَ يَرْتَكِبُ في الجنَّةِ إثْماً حَتَّىٰ يُتهَمَ أَحَدٌ بِه، مِنْ قِبَلِ أَحَدٍ مَا في الْجَنَّةِ، لا من قِبَلِ المؤمنين والمؤمنَاتِ، ولاَ من قِبَلِ الْحُورِ العِينِ، ولا مِنْ قِبَلِ الملائكة، ولا من قِبَلِ الوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِين.

وبما أنَّ الله يَنْزِعُ ما في صُدُور أَهْلِ الجنَّةِ مِنْ غِلٍّ قَبْلَ إدْخَالِهِم إلَيْها، فإنَّهُ لاَ يكُونُ بَيْنَهُمْ تَشَاتُمْ، بَلْ هُمْ جَمِيعاً إخْوَانٌ مُتَوَادُّونَ مُتَصَافُونَ، يَحْتَرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ولاَ يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بعضاً، والشّتائمُ تَدْخُلُ في عُمُوم التَّأْثِيم.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾: «الْقِيلُ»: الْقَوْل، أي: لكِنْ يَسْمَعُون فيها تَحِيَّةً يُقَالُ لَهُم مِنَ الملائكة وَغَيْرِهِمْ، وعِبَارَةُ «سَلاَم» هِي تَحِيَّةُ أهْلِ الجنَّة في الجنة.

قال الله عزّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: دُعَاؤُهم الّذي يَدْعُونَ رَبَّهم به: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: نُسَبِّحُكَ مُنَزِّهِينَ تَنْزِيهكَ لنفسك.

قَوْل الله عزّ وجلَّ بشَأْن عُمُوم أصحاب اليمين الّذين هم دُون السابقين:

• ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات بيانُ عِظَم منازل أصحاب اليمين، في جنَّاتِ رَبِّ العالمين، بأسْلُوب الاستِفْهَام التَّعْجِيبي مِنْ أنواع سَعادَاتهم فيها، بعبارة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وأعظم بأنواع السعادات الّتي يكونُ فيها أصْحَابُ الْيَمِينِ يوم الدّين، إذْ يكونون في سعاداتٍ عظيماتٍ، لاَ تَسْتَطِيعُ الخَلائق وَصْفَها، أوْ تَخَيُّلَها، وحينَ يشاهِدُونها يقفون في سَاحاتها متعجّبين مَذْهولين، ويقولون بأسلوب الاستفهام: مَا هـٰذَا الشيءُ العظيمُ الَّذِي يَفُوقُ قُدْرَاتِ التخيُّلِ والتَّوَهُّمِ الَّتِي أُوتِينَاهَا في الحياة الدنيا.

وجاء في هذه الآيات بيانُ لقَطاتٍ من نعيم أصحاب اليمين يوم الدّين، مِن أشْبَاهِ ما يَعْرِف النّاسُ من متاعِ الحياةِ الدُّنيا، مَعَ التَّفَاوُتِ العظيم بين مَا يَعْرِفُونَ في الحياة الدُّنيا، وبين مَا فِي جنَّاتِ النعيم، فَهِيَ تَشْتَرِكُ مَعَها في الجِنْسِ فقط، وتختلف مَعَها في الأنواع، نظير اشتراك الْبَعُوضَةِ مع إنْسَانٍ كامل في الجنس، الذي هو الحيوان، فالْبَعُوضَةُ كائنٌ حيٌّ، والإنْسَانُ الكامل كائن حيٌّ، هذا هو الاشتراكُ في الجنْسِ الذي هو وصْفٌ كُلِّيٌّ، لَكِنَّ الفرق بَيْنَ نوع الْبَعُوضَة ونوع الإنسان، كالفرق بَيْنَ الأرضِ والسَّماء السابعة.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟ هذه العبارة معطوفةٌ بالواو على عبارة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: وَصِنْفُ أصْحَاب اليمين يكون من ثوابهم في جنَّاتِ النّعيم ما يلي بيانه.

ودَلَّتْ هـٰذه العبارة علىٰ أَنَّ أصحابَ الْيَمِينِ هم الذين عبَّرت عنهم الآية (٨) بِقَوْل الله عزّ وجلَّ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾.

وسبَقَ أن عَرَفنا المرادَ بالاستفهام في نحو عبارتَي: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾؟! ـ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾؟! مِنْ أنَّهُ اسْتِفهامٌ تعجيبيٌّ ممَّا سَوْف يكونُون فيه يوْمَ الدّين من أمْر عظيم يفُوقُ التَّصوُّرَ والتخيُّلَ والتَّوهُّمَ، حتَّىٰ يَذْهَلَ مَنْ يُشَاهِدُهُ دُونَ أنْ يَسْتَطِيعَ وصْفَهُ، فيقولُ مُتَعَجّباً مذهولاً: مَا هَـٰذا الّذِي أُشَاهِدُه؟!!.

وسبق أن عرَفنا أنَّ هَـٰذَا الأسْلُوبَ التعجيبيَّ، هو من الأسَالِيبِ التي جاءت في نُصوصٍ عَدِيدَةٍ من القرآن المجيد.

قول الله تعالى:

• ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾: أي: يكون أصْحابُ اليمين، في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْم الدّين، في مُحِيطٍ بِهِمْ من أشجار السِّدْرِ المخْضُودِ.

السِّدْر: صنْفٌ من أصْناف الشجر المعروفة عنْدَ العَرَب، والّتي تَنْبُتُ في بلادهم، وهو شَجَرُ النَّبِق. وَوَاحِدَة أشجار السِّدْر «سِدْرَة» ولَهُ ثَمرٌ يَخْرُج في قُرُون ضِمْنَهَا حُبُوبٌ اسفنجيَّة ليّنَةٌ ذَاتُ حَلاوَةٍ، وذَاتُ نَوَىٰ، وفي أغْصَانها شَوْكٌ، ولهذه الشجرة عند العرب خصائص علاجية، وعَسَلُ النَّحْلِ الّتي تَرْعَىٰ شَجَرَ السِّدْر ذُو قيمة عالية عندهم بالنسبة إلى سائر أنواع العَسل، وهو من الأشجار المعمّرة الّتي تمتد أعمارها إلى مائة عام.

ويُذْكَرَ من خصائِصِ هذا الشجر العلاجيَّة العلاجُ به من مسّ الجنّ، وأوراقُه بالماء تقْلَعُ الأوساخ، وتُنَقِّي الْبَشَرَة وتَجْعَلُها ناعِمَة.

ولا بدّ أن نلاحظ الفرق العظيم بين أشجار الجنة وأشجار الدنيا، كما جاء بيانُه في التمهيد.

مَخْضُود: أي: منزوع الشَّوْكِ مِنْ أغْصَانه، يقال لغة: «خَضَدَ الْغُصْنَ يَخْضِدُه» أي: نزع الشَّوْك عَنْه.

ويقال على التشبيه: «خضَدَ فلانٌ شَوْكَةَ نِدِّه» أي: كَسَر حِدَّتَه، وأبْعَدَ عنْهُ مَا كان يَحْتَمِي به من قُوَّة، فالشَّوْكَة تُستَعملُ بمعنى القوة.

ويفهم من القرائن أنَّ شجر جَنّاتِ أصحابِ اليمين، دُونَ شَجَرِ جنَّاتِ السَّابقين، ذاتِ الميزة الأرفع، والقيمة الأعظم.

ولم يأتِ في هذه السّورة بيانٌ عن أصناف أشجار جنّاتِ السَّابقين.

قول الله تعالى:

• ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحاب اليمين في جنَّاتِ النعيم يوْمَ الدّين، في مُحِيطٍ بِهم من أشجار الطَّلْح ذي الثَّمَرِ الذي انضم بعْضُه إلَىٰ بعضٍ باتّساقٍ بَدِيع، وتراصُفٍ مُنْتظم.

الطَّلْح: الْمَوْز، ونوعٌ من الأشجار العظيمة أيضاً كما قيل.

وُصِفَ الموز عند القدماء بأنه «طعامُ الفلاسِفَة» وبأنه «فاكِهَةُ الْحُكَماء».

وفي الطبّ الحديث: وُصِفَ الموز بأنَّهُ ذو خصائص غذائيَّةٍ نفيسَةٍ جدًّا، قَلَّما تجتمِع في غيره من الثمرات.

مَنْضُود: أي: مجموع بعْضُه إلى بعضٍ باتِّسَاقٍ بَدِيع، وَتراصُفٍ منتظم.

وما في الدنيا من أشجار الموْزِ مثالٌ مصغَّرٌ كثيراً من أشجار الطَّلْحِ في جنَّاتِ النّعيم يوم الدّين.

قول الله تعالى:

• ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾: أي: ويكونُ أصحاب اليمين في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين في مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ ظِلٍّ مَمْدُود، لاَ تُعْرَف لَهُ حُدُودٌ، ودائم لا انقطاع فيه ولا انْتِهاءَ له.

الظلّ: مَا يَبْقَىٰ مِنِ انْكِشَافٍ في المرئي، بَعْدَ سَتْرِ أَشِعَّةِ مَنْبَعِ الضَّوْءِ عَنْهُ بسَاترٍ ما، والظّلُّ يختلف بحسَب اختِلاف كثافَةِ السَّاتر، ومقدارِ سَمَاحِهِ للنُّور بأن يمُرَّ منْهُ.

ويكونُ الظلُّ في الصَّباح بالنسبَةِ إلى الشمس في جهة الغرب، فإذا تَحَوَّلَ في المساء إلى جهَةِ الشرق سُمّي «فَيْئاً» من فِعْل: «فاءَ» بمعنَىٰ: «رَجع».

وجاء في عدّة نصوص من القرآن المجيد بيان أنَّ أهل الجنَّة يَوْم الدّين، يكونون في ظلالٍ، وأنَّهم هم وأزواجُهُمْ في ظلال، أي: لاَ تَمَسُّهم أشعة شمْسٍ بحرارتها، وأنّ الله عزّ وجلَّ يُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً، ووصف الله عزّ وجلَّ الجنّة بأنَّها ذات ظلٍّ دائم، وَبأنَّها ذات أُكُلٍ دائم.

مَمْدُود: أي: دائم وشاملٍ لكلِّ مَوْقِعٍ في الجنَّة.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحابُ اليَمينِ في جنَّات النّعيم يومَ الدّين في مَشْهَدٍ بَدِيعٍ من ماءٍ مصْبُوبٍ يُشاهِدُون انصبابَهُ، كأَبْدَع وأجْمَلِ شَلَّالاَتٍ تَنْصَبُّ مِن المرتفعاتِ إلى مجاريها المنخفضات الّتِي تجري من تَحْتِ قُصور أهل الجنَّةِ أَنْهاراً.

يقال لغة: «سَكَبَ الماء ونَحْوَهُ يَسْكُبُهُ سَكْباً وتَسْكَاباً، فَهُوَ مَسْكُوب» أي: صَبَّهُ فَهوىٰ مُتَتَابعاً سَرِيعَ الْهُوِيّ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾: أي: ويكُونُ أصْحَابُ الْيَمِينِ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين، في تَنَعُّمٍ دائمٍ بفاكِهَةٍ نفيسَةٍ ذاتِ أَنْوَاعٍ تَفوقُ الحصْرَ بالنِّسْبَةِ إلى عِلْم الخلائق، وقد استفيد هذا من

تنكير لفظ فاكهة، مع القرائن. وتأتيهم هٰذه الفاكهةُ المتنوعَةُ كثِيرَةً جدًّا، فَلاَ هِيَ مَقْطُوعَةٌ في وقْتٍ مَا من الأَوْقاتِ بحَسَبِ الفصول، وَلاَ هي مَمْنُوعَةٌ عَنْ راغبيها للتنَعُّم بِها في وقْتٍ مَا من الأوقات. بَلْ هي مَبْذُولَةٌ لهم دواماً، وفي مُتَنَاوَلِ أَيْدِيهم، وعلى ما يَرْغَبُون فيه، من تَقْدِيمها في أطباق، أو قَطْفِهَا مِنْ أغْصَانِ شَجَرِها، أو تناوُلِها بأفْواههم، من أغْصَانِها، أو مِنْ أيْدِي الوِلْدَانِ المخَلَّدِينَ، أو مِنْ أيْدِي الْحُورِ العِينِ.

واختير في عبارة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أسْلُوبُ نَفْي النَّقِيضِ، لتَعْلِيمِنَا أنَّ نَفْيَ أَحَدِ النَّقِيضَيْنِ يَسْتَلْزِمُ عقلاً إِثْبَاتَ النَّقِيضِ الآخَرِ. وهذا منْسَجِمٌ مع الأَدِلَّة الّتِي يُقَدِّمُها القرآنُ لإثبات أصُولِ الدّين الرّبّاني، وإبْطالِ كُلِّ ما يُنَاقِضُه، إذ هي تَعْتَمِدُ علىٰ البراهين العقليّة، والحقائِقِ الّتي تَشْهَدُ العقولُ السَّلِيمة بأنَّها حقّ، ثم على المدْرَكَات الحسيَّة، وما تُقَدِّمُهُ من لَوَازم عقْلِيَّة.

وأمّا الخَبَرِيَّاتُ فَبُرْهَان صِدْقها يَعْتَمِدُ عَلى البرهان العقِليّ الدّالّ علىٰ صِدْقِ المخْبِرِ بها، كَكَوْنِ المخْبِرِ بها رَسُولاً مُؤَيَّداً مِنَ اللهِ عزّ وجلَّ بالمعجِزَة، وبُرْهَانُ العقْلِ يقضي بأنّ الله عزّ وجلَّ لاَ يُؤيِّدُ بِالْمُعْجِزة مَنْ يَكْذِبُ في الإخبار عنه.

قول الله تعالى:

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾:

«فُرُش»: جمع «فِرَاش» وهو ما يُفْرَش (أي: يُبْسَط) مِنْ متاع الْبَيْت، والظاهِرُ أنّ الْمُرَاد بالْفُرُشِ هُنَا الحشَايَا، الّتِي تُبْسَط علىٰ الأسِرَّة، فهي ليِّنَةٌ مُهَيَّأةٌ للضّجُوع عَلَيْها كأحْسَنِ وأكْمَلِ مَا يُمْكِنُ أنْ تكُون عليه الحشايَا.

«مَرْفُوعَة» أي: مَرفوعَة علىٰ مَوَاضِعِها مِن الأسِرَّةِ النَّفِيسة.

وذكْر الفُرُشِ المرفُوعَةِ علىٰ الأسِرَّة، يَسْتَدْعِي في أذْهَانِ الموعُودِينَ بالنعيم، أصْحَاب الْيَمين، تَصوُّرَ مَنْ يَكُنَّ علَيْها من الْحُورِ العين، الْمُخَصَّاتِ لهم في مَنَازِلِهِمْ في الجنَّةِ، بحَسَب دَرَجَةِ كلِّ مِنْهُمْ.

وبناءً على حُدُوثِ هـٰذَا التصوُّرِ في أذهَانِهِمْ، جَاءَ وصْفَهُنَّ هُنَا في النّصّ دُونَ سَابقِ ذِكْرٍ لَهُنَّ إلّا برمْزِ عبارةٍ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ وهـٰذَا مِنَ الْأدَبِ الرَّفِيعِ جدًّا، فقال اللهُ عزّ وجلّ بضمير المتكلّم العظيم إعظاماً لشأْنِهِنَّ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾.

الإنْشاء: هو الإيجادُ المُتَدرّجُ للشَّيْءِ وفق نظام التربيَّة المتنامِيَة.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾: أُعِيدَ الضّمِيرُ «هُنَّ» علىٰ مُتَصَوَّرَاتٍ ذهْنَا غَيْرِ مَذْكورات لفظاً، بإبْداعٍ أدَبيّ رَفيع.

﴿إِنشَآءً﴾ مفعُول مطلق، يَدُلُّ عدَمُ وصْفِهِ بإبقائِهِ مُنكّراً على:

(١) عظمة الخَلْق الْإبداعيّ الْإنْشائيّ.

(٢) وكمَالِ الْمُنْشَإِ للْوَظِيفة الّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِها.

وليتأكّدَ المنعَّمُونَ بِهِنَّ مِنْ أَنَّهُنَّ خُلِقْنَ لَهُمْ ولم يَسْبِقْ لَهُنَّ مُعَاشَرَةٌ زوجيَّة، جَعَلَهُنَّ الله - جلّ جلالُهُ - أبْكاراً، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦﴾.

«أبكاراً»: جَمْعُ «بِكْرٍ» وهِيَ العَذْرَاء الّتي لم تُفْتَضّ بَكارَتُها، وهي غشاءٌ جلْدِيٌّ يُمَزَّقُ عِنْدَ مُجَامَعَة الأنثىٰ البِكْرِ مِنَ النّساء، ووجُودُ هذا الغشاء دليلٌ على أنّها لَمْ يَسْبِقْ أنْ جَامَعَها ذكَرٌ.

ووَصَفَهُنَّ الله عزّ وجلّ بِقَوْله:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ وفي القراء الأخرىٰ: [عُرْباً] بإسْكانِ الرَّاء، والْقِرَاءتان لغتان عَرَبيّتَان مُتكافئتان.

«عُرُب، وعُرْب» جَمْعُ «عَرُوب» وهِيَ المُتَحَبِّبَةُ لزَوْجِها العاشقة له،

الحريصَةُ علىٰ إسْعاده، فَهُنَّ بهذا الوصف من أنْعَمِ مَا في الجنَّةِ من لذّاتِ نَعِيمها.

﴿أَتْرَابًا﴾: جَمْع «تِرْب» وهو المماثل في السِّنّ، وأكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَل في المؤنث، وقد تَدُلُّ عبارة «أتراباً» مع التماثل في السِّنّ على التوادّ بيْنَهُنّ وعَدَمِ التحاسُد.

فالْحُورُ الْعِين لِأصحاب اليمين في جنَّاتِ النعيم ذواتُ أعمارٍ مُتَماثلَةٍ، إذْ يَكُنَّ فتياتٍ فِي رَيْعَانِ شَبَابِهِنّ، ونُضْج أنوثَتِهِنَّ دَوَاماً، ولاَ تَتغَيَّرُ أحْوَالُهُنَّ عَنْ هذا الوصْفِ، إذْ هو خالِدٌ مَعَ خُلُودِهِنَّ، وكذلِكَ يكون المنعَّمُون في الجنَّة، هُمْ شُبَّانٌ دَواماً، لاَ يَتَعَرَّضون لكُهُولة تزيد على (٣٣) سنة، ولاَ لشَيْخوخَةٍ فَمَا فَوْقَها، بخِلافِ أَحْوالِ الأَحياء في ظُروفِ الحياة الدّنيا.

وأبَانَ الله عزّ وجلَّ أَنَّهُنَّ قَدْ أُنْشِئْنَ خِصِّيصَىٰ لِأَصْحَابِ الْيَمِين، فقال تبارَكَ مَجْدُهُ، وَتعالىٰ جَدُّهُ، وعَظُمَ جُوده:

﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: أنْشَأْنَاهُنَّ، وأعْدَدْنَاهُنَّ، وهيأناهُنَّ، لأصْحَاب الْيَمِين، إكراماً مِنَّا لَهُمْ، وإنْعَاماً مِنَّا عَلَيْهِم.

وأبان اللهُ عزّ وجلَّ نِسْبَةَ أصْحَاب الْيَمِين التقريبيّة لَنَا، والمبنيَّةَ عَلَىٰ عِلْمه المُحِيط بما كانَ وبما يكُونُ عليه عبادُهُ الموضوعون في الحياة الدّنيا موضع الامتحان، فقال تَعَالَىٰ:

- ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

«الثُلَّةُ»: هي في اللُّغة الجماعَةُ مِنَ الناس. ويُشْعِرُ ذِكْرُ «ثُلَّة» بمعنى جماعَة، أنَّ أصْحَابَ الْيمين مِنَ مجْموع الموضوعين موضع الامتحانِ في الحياة الدنيا، لاَ يَبْلُغُونَ أَنْ يكُونوا النِّصْفَ ولا قَرِيباً من النِّصْفِ، فَهُمْ لاَ يُوصَفُونَ بأكْثَر مِنْ كونِهِمْ جَمَاعَةً.

الأَوَّلُون: هم من آدَمَ إِلَىٰ عَهْدِ التكليف بالإيمان بمُحمّد ﷺ واتّباع رِسالَته.

الآخِرُون: هم مَنْ كُلِّفُوا بالإيمان بمحمَّد ﷺ واتّباعِ رسالَتِهِ، من بَعْدِ بِعْثَتِه، وحتى تقوم السَّاعة، وهُمْ كُلُّ الموضوعين موضع الامتحان من إنْسٍ وجنٍّ، اعتباراً من تبَلُّغِهم هٰذَا التَّكْلِيف.

وسبق بيان أنّ الآيات من (١٠ ـ ١٤) قد دَلَّت على أنَّ السَّابِقين ثُلَّةٌ من الْأَوّلين، أي: هُم جماعَةٌ بالنِّسْبَةِ إلى الأولين وأعدادهم، وقَلِيلٌ من الآخِرينَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وإلى أعدادهم الكثيرة، الّتِي ليْسَ لملْيَاراتِها الكافرة حظٌّ في جنَّاتِ النعيم.

قول اللهِ عزّ وجلَّ بشَأْنِ عُمُومِ أصْحَابِ الشّمال (= المشْأمة):

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآيات بَيانُ لقَطَاتٍ من جَزَّاءِ عُمُومِ أصحابِ الشمالِ في دار العذاب يوم الدين، مع بيان السَّبَب الذي استَحقُّوا بِهِ الخلود في دار العذاب، إذ كانوا في حياة امتحانهم في الدنيا يُصِرُّونَ على الكفر بالله، واتّخاذ شُرَكاءَ مِنْ دونه، وكانوا يُكذِّبُون رُسُلَ رَبّهم، وبمَا جاء في كُتبِهِ المنزلَةِ عَلَيْهِمْ، مِنْ أنْبَاءِ يَوْم الدّين،، والجزاءِ في دار النّعيم، أو في دار

العذاب، بحَسَبِ ما يَكْسِبُ العباد في مَرْحَلة امتحانهم في الحياة الدّنيا.

وفيها أيضاً بيانُ جانِبٍ من معالجتهم بشأن تكْذِيبهم بِيَوْم الدِّين، وهم في الحياة، بأسْلُوبِ تَعْلِيمِ الرَّسُولِ ﷺ، فكُلُّ داعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَا يَقُولُهُ لهم مؤكّداً أَنَّهُمْ مع الأوَّلِينَ والآخِرِينَ لَمَجْمُوعُون ولَمسُوقُونَ إلى مُحَاسَبَتِهِم، وفَصْل القضاء بَيْنَهم، وتَنفِيذِ مُجَازاتِهم، في ميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، مُحَدَّدِ الزَّمَنِ مِنْ قِبَلِ رَبّ العالمين، في خُطَّةِ الْخَلْقِ الّتِي قَدَّرَها وقَضاهَا، وَحَدَّدَ أزْمَانَ كلِّ الأحْدَاثِ الَّتِي تَجْرِي لَدَىٰ تَنْفِيذِ ما سَبَقَ أَنْ حَدَّدَ مَقادِيرَهُ وقَضاهُ بحكْمَته. ومَا يَقُولُهُ لَهُمْ بعُنْفٍ وجَفاءٍ إبَّانَ تَنْزِيل سُورَةِ (الواقعة) إذْ جاءت مُعَالجاتُهُمْ في نحو أربَعِينَ سُورَة نزلَتْ قَبْلَها، بمُخْتَلِفِ وسائل الإقناع الفكريّ الهادىء الحكيم، ووسائل التّرغيب والتّرهيب فأصَرُّوا علَىٰ باطِلهم، وعلَىٰ تكذيبهم بقانون الجزاء الربَّانِيّ، فالمناسِبُ بَعْدَ هَـٰذا الصَّبْر الطَّويل عَلَيْهِم، أنْ يُقالَ لَهُمْ بإصرارٍ علىٰ الحقّ، مُنَاسِبٍ لإصرارهم على الباطِلِ والتكذيب بالحقِّ الرَّبّانيّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

لَقَدِ انْتَهَىٰ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هٰؤلاءِ وَقْتُ الملايَنَةِ والْمُلاطَفَةِ والرِّفْقِ، وجَاءَ دَوْرُ المخاشَنَةِ في الْقَوْلِ، وهزّ نفوسِهم بشيءٍ من العنف.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾؟!! هذه العبارة معطُوفَةٌ بالواو علـى عـبـارة: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟!!. أي: وَصِـنْـفُ أصْحَابِ الشِّمال (= المشأمَة) نُبَيِّنُ شيئاً من الحديث عَنْهُمْ فيما يلي، وسبَق أن عرفنا المراد بالاستفهام في نحو عبارة: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؟!! مِنْ

أنّه اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ ممَّا سَوْف يكونُونَ فيه يوم الدّين من أمْرٍ فَظيع، وهو بالنسبْةِ إلى أصحاب الشمال تَعْذِيبٌ أَبَدِيٌّ، وخِزْيٌ وإِذْلاَلٌ وإهانَة وصَغار، حتَّىٰ يَذْهَلَ مَنْ يُشاهِدُهُ دُونَ أنْ يسْتَطِيع وصْفَه، فيَقُول مُتَعجِّباً مَذْهولاً: مَا هَـٰذَا الّذي أُشَاهِدُهُ؟!!.

قول الله تعالى:

• ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾: أي: يكونُ أصْحَابُ الشِّمَالِ فِي جَهَنَّمَ دارِ عذَابِهم يَوْم الدّين، في مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ سَمُومٍ وحَمِيم.

السَّمُوم: الرِّيح الحارَّةُ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامّ الأجْسام.

الْحَمِيم: الماءُ الحارُّ الشّدِيدُ الحَرارَة.

فَهُمْ بصُورَةٍ دائمةٍ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ وسائرَ أبْدانِهم رَيحٌ سَمُومٌ شديدة الحرارة، ويَشْتَدُّ ظَمَؤُهُمْ فلا يَجِدُون إلَّا ماءً حاراً شَدِيدَ الحرارة يَشْرَبُونَ منه.

قول الله تعالى:

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: ويكونُ أصْحابُ الشِّمَالِ يوم الدِّينِ في دارِ عذابهم، في أمْكِنَةِ ظِلٌّ مِنْ دُخانٍ أسْود، يَبُثُّ حَرارةً، ويَذُرُّ عَلَيْهِمْ قَتاماً، فيَزْدادُونَ بِهِ قُبْحاً.

الْيَحْمُوم: هُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَد، وهو المرادُ هنا، ويُطْلَقُ هذا اللَّفْظ على الأسود من كلّ شيءٍ.

﴿لَّا بَارِدٍ﴾: أي: إنّ هذا الظِّلَّ مِنَ الدُّخانِ الأسْودِ الّذي يَسْتُرُ سَمَاء إقامَتِهِمْ في جهَنَّم، يَكُونُ ظِلًّا حَارّاً لاَ بَارِداً، لِيَزِيدَ مِنْ عذابِهِمْ.

جاءَ هذا البيان بأسْلُوب نَفْيِ أَحَدِ النَّقِيضَيْن، لإثْباتِ نقيضه.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي: ولَيْسَ لهَـٰذا الظِّلِّ صِفَةٌ مَا تُذْكُر في ثَنَاءٍ مَا عَلَيْهِ، بَلْ كُلُّ صفاتِهِ ذَمِيمَةٌ.

وجاء هذا البيان أيضاً بأسْلُوب نَفْي أحَدِ النقيضَيْن، لإثبات نقيضِه.

الكريم: هو المحمود بصفات حسنَةٍ فيه. فالذي ليْسَ كريماً لا تكونُ له صفاتٌ حَسَنَةٌ يُثْنَىٰ عليه بها.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟!:

جاءت هٰذِهِ الآيَاتُ لبَيَان سَبَ تَعْذِيبهم في جَهَنَّم يَوْمَ الدِّين، وهو يَرْجع إلى ثلاثة أمور:

(١) أنَّهم لَمْ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ في الحياة الدُّنيا بأدْنَىٰ شُكْرٍ، إذْ جَعَلَهُمُ الله فيها مُتْرَفين، فَلَمْ يشكُرُوهُ بالإيمان به رَبًّا واحداً، وإلَهاً لاَ شَريك لَهُ في إلَهيّته.

(٢) أنَّهُم كانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العظيم، أي: الإثم العظيم، وهو الكُفْر الذي يُعْتَبَرُ الشّرْكُ أخفَّ دَرَكَاته، وأشدُّ مِنْهُ جُحود الرَّبِّ الخالق جلّ جلالُه، وأخَسُّ مِنَ الْجُحُودِ حَمْلُ الناسِ عليه بالإكراه، مَع ارْتِكَاب الظلْم والْعُدْوانِ والفجور، أو مع النفاقِ وابتغاءِ الشرِّ بالمؤمنين المسلمين من داخل صفوفهم.

(٣) أنَّهم كانُوا يُكَذِّبُونَ بِيَوْم الدّين، معانِدِينَ كلَّ الحجج البرهانية والبيانات الإقناعيَّة الّتِي كانت تُقَدَّم لَهُمْ، دُونَ أنْ تكون لهم حُجَّةٌ يُقَدِّمُونَها إلَّا مُجَرَّدَ الاستغراب، والاستِبْعَادِ، وعِبَاراتِ التعجب.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّهُمْ كانُوا في مَرْحَلةِ ابتلائهم في الحياة الدُّنيا مُتْرفين، يَسْتَمْتِعُونَ بِكَثِيرٍ من مَتَاعات الحياة الدُّنيا الّتِي أنْعَمَ اللهُ عزّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بها، فَلَمْ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْهم بأدنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكر، وهي دَرَجَةُ الإيمان الصحيح بِرُبوبيَّة اللهِ وإلَهيَّتِهِ.

﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾: أي: قَبْلَ ذَلِكَ الْعَذاب الّذِي يُعَذَّبُونَهُ في جهنم يوم الدين، والمراد ما كانوا فيه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

المتْرَفُ: أي: الكَثِيرُ الاستمتاع بما أنعم الله به عليه من متاع الحياة الدنيا، ويأتي لفظ «المتْرَفِ» في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ: الْبَطِر المسْتَكْبر، يقال: «أترفت النعمة فُلاناً» أي: أبْطَرَته.

فالمعنى: كانوا كثيري الاستمتاعِ بِنِعَمِ اللهِ عليهم، مع بَطَرِهم واسْتِكْبَارِهِمْ في الأرض، وكُفْرِهِمْ بَرَبّهم الذي وَسَّعَ عليهم في أرْزاقهم، وفيما آتاهم من متاع الحياة الدُّنيا.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: وكانوا في مرحلة امتحانهم في الحياة الدنيا يُصِرُّون بعِنَادٍ على ارْتِكابِ الإثْمِ العظيم الذي يَعْصُونَ به رَبّهم.

﴿يُصِرُّونَ﴾: أي: يلازمون بمكابَرَةٍ وعِنَادٍ على ارتكاب الإثم العظيم.

﴿ٱلْحِنث﴾: هو في كلام الْعَرَب الْعِدْلُ الثقيل، وسُمّي به الذّنْبُ والإثْمُ لِثِقَلِهما، باعتبار ما يترَتَّبُ عَلَيْهما من عقابٍ شديد، وعذاب أليم.

والحِنْثُ العظيم: هو الإثْمُ الذي لا يَغْفِر الله لمَنْ مَات علَيْهِ يَوْمَ الدّين، ويتحقّقُ بالشِّرْكِ الّذي هو أخَفُّ دركات الكفر، فبما هو أشَدُّ مِنْهُ انحطاطاً في دركات الكفر، وارتكاب الجرائم، حتَّىٰ الدَّرْكِ الأسْفَلِ منها، الذي يَسْتَحِقُّ المنحطُّ إليه الدَّرْكَ الأسْفَل من النّار.

وتفسير «الحِنْثِ الْعَظِيم» بالشِّرْك تَفْسِيرٌ لَهُ بأوّلِ دَرَكاته، إذْ تأتي بَعْدَهُ دَرَكَاتٌ هِي أَشَدُّ انْحِطاطاً وخِسَّةً من دَركةِ الشّرْك بالله في إلَهِيّتِهِ، أَوْ في رُبُوبيته.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وَقُرِىء: [إنّا لَمَبعُوثُونَ] وقُرِىء: [أَوْ آباؤُنا] وقرىء [مُتْنا].

دَلَّ هذا البيانُ علىٰ أنّهم كانُوا يُنْكِرُونَ الجزاءَ الرَّبَّانيّ، ويُنْكِرُونَ الْبَعثَ إلى الحياة الأخرى، ويُنْكِرُونَ كُلَّ مَا جاء مِنْ أنْباءٍ عَنْ يَوْمِ الدّين. دُونَ أنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً مَا على إنكارِهِمْ غير الاستبعادِ والاستغراب، بأسْلُوب الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي.

فيَوْمَ الدّين يُلاقُونَ، مَا كانوا لَهُ مُنْكِرِين، ومَا كانوا بِهِ يُكَذِّبُون.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: وصِرْنا بَعْدَ الموْتِ تُراباً مُتَفرِّقاً في تراب الأرض ﴿وَعِظَٰمًا﴾: أي: وصِرْنا بَعْدَ الموت عظاماً باليةً نَخِرَةً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أو [**إنَا لَمَبْعُوثُونَ**]: عباراتُ تعجُّبٍ بأسْلُوبِ الاستفهام التعجبيّ الذي لا يقترن به دليل ما. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ـ ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾: يُبْعَثُونَ، ويحاسَبُونَ، ويُجازَوْنَ، وقَدْ كانُوا يَعْبُدُونَ الأوثان، وقد عاشُوا قبل محمد، وقبل الكتاب الذي يدّعي أنّ الله أوحَىٰ به إليه. «أو» بإسكان الواو أو فتحها على القراءتين هي فيما أرى بمعنىٰ الواو. تأتي واو «أو» مفتوحة عند النحاة إذا كانت للاستفهام، أو الإنكار، أو الرَّد. وتأتي ساكنةً إذا كانت للشك، أو التقسيم، أو التفصيل، أو الإبهام، أو التسوية، أو التخيير، أو بمعنى بل، أو إلى أو إلّا أو بمعنى الواو.

وجاءت العبارة هنا ملحقةً باستِفْهامٍ تَعَجّبِيٍّ لَمْ يَقترِن به دَليلٌ ما، ولم يقترن به نَقْضٌ لأَدِلَّة إثباتِ يَومِ الدّين البرهَانية التي سبق في نجوم التنزيل بيانها.

وليس لعبارات التعجُّب قيمةٌ مَا فيه ميادِينِ المناظرات والمجادلاَتِ الفكريَّة، الّتي تُطْلَبُ فيها البراهين، أو الحجج المنْطِقيَّة المقبولة في العقول السليمة، فَهِيَ لاَ تَسْتَدْعِي رَدّاً عَقْلِيًّا، بل تَسْتَدْعي تأكيداً إخبارِيًّا، وعُنْفاً بيَانيّا، وضَغْطاً على مِحْوَرِ الخوف في النفس.

فقال الله عزّ وجلَّ لرسوله فَلِكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾:

قُرِىء: «شُرب، وشَرْبِ» بضمّ الشين وفتحها، وهما وجهان عربيّان لنطق الكلمة.

أي: قلْ لهؤلاء المكَابِرين المعانِدين، الذين لا يُقَدِّمُون لتَكْذِيبِهِمْ بيوْمِ الدِّين، نقضاً لأدلَّة الإثبات، ولا حُجَّةً تَسْنُد تكذِيبهم، ولَيْسَ لَدَيْهم قولٌ غَيْرُ الاستفهام التعجُّبيّ، مَا يلي أخذاً من هذا النّصّ، ومن نَصّي سورة الصَّافَاتِ، الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) وسُورَةِ الدُّخان، الآيات من (٤٣ ـ ٤٩):

إنَّ الأوّلِينَ مِنْ عَهْدِ آدم حتىٰ عَصْرِنَا الحاضر، والآخِرِينَ من عَصْرِنا الحاضر حتى آخِرِ إنْسَانٍ على وجْهِ الأرض يُوجَدُ مُسْتَقبلاً، لَمبْعُوثون للحياة الأخرىٰ بَعْدَ مَوْتِهم، وفَنَاء أجْسَادِهم، ولمجموعون في الْمَحْشِرِ مُسوقين إلي ميقاتِ حِسَابهم وفَصْلِ القضاءِ بينهم، مُقَدّمَةً لتنفيذ الجزاء الذي يستحقّونه بعَدْلِ اللهِ عزّ وجلَّ أو بفضله، في يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قَدْ حدَّدَ اللهُ عزّ وجلَّ زَمَانَهُ وَكُلَّ ما يجري فيه، في خُطَّة التكوين العامَّة، الّتي تُعْتَبَرُ الحياةُ الدنيا مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلها.

ثم إنَّكُمْ أَيُّها الضَّالُون التّائِهُونَ في ظُلمَاتِ الْغَوَاية، المكذِّبُونَ بيَوْمِ الدّينِ، لَسَوْف تَدْخُلُون جهَنَّم دَارَ عَذَابِ الْمُجْرِمين، عقاباً لكم على كُفْرِكُمْ وَتَكذِيبِكُمْ برَسُولِ رَبّكُمْ وكتَابه، بَعْدَ بَعْثِكُمْ وحِسَابِكُمْ والحكْم عليكم بالْخُلُودِ في النّار، ولَتُلجَؤُونَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوع إلَى أَنْ تَأْكُلوا مِنْ شَجَرٍ في دارِ عَذَابِكُم، مُرٍّ كَرِيهِ المنظرِ كَرِيهِ الطَّعْم، نَكِدِ المأكَل، يُسَمّىٰ «الزَّقُومَ» هو في جَهَنَّمَ طَعامُ الأثيم، لَهُ ثَمَرٌ قَبِيحُ المنْظَر، كأَنَّهُ رُؤُوسُ الشياطين،

ومَهْمَا أَكَلْتُم مِنْهُ لاَ يَسُدُّ جُوعَكُمْ، فَتَجدونَ أنْفُسَكُمْ مضطّرينَ أنْ تَمْلؤوا ممَّا تأكُلُون من ثَمَرِ هٰذَا الشّجَرِ بُطُونَكُم، لَكِنَّهُ يكُونُ فِي بُطُونِكُمْ كالْمُهْلِ، يغْلِي فيها كَمَا يَغْلِي الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة، فَيَشْتَدُّ ظَمَؤُكم، فتُضطَّرُون أنْ تَشْرَبُوا عَلَىٰ مَا أكَلْتُمْ مِنْه من الْحَمِيم أي: من الماء الذي يَغْلِي مِنْ شِدَّةِ حَرَارَتِه، فَتَشْرَبُونَ حِينئذٍ شُرْبَ الإبِلِ المصَابَةِ بِدَاءِ الْهُيَامِ، الّتي تَهِيمُ في الأرض ظامِئَةً لاَ يُرْوِيهَا مَاءٌ مَهْمَا شَرِبَت.

قول الله تعالى:

• ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾:

﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾: **الميقاتُ**: يأتي للدّلالَة على معانٍ ثلاثة:

١ ـ الوقت المعيَّن لفِعْلٍ ما.

٢ ـ الموْعِد الّذي جُعِلَ لَهُ وقْتٌ مُحَدَّد.

٣ ـ المكان الّذي جُعِلَ لشيءٍ ما يُفْعَلُ عِنْدَه.

وهذه المعاني الثلاثة صالحة كلُّها هنا، فمَحْكَمَةُ الحساب، وفَصْلِ القضاءِ يوم الدّين، ذاتُ وَقْتٍ معيّنٍ مُحَدَّدٍ عند الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه. وهي مَوْعِدٌ جُعِلَ لَهُ في خُطَّةِ التكوين الرَّبانيَّةِ وقْتٌ معلومٌ مُحَدّد. ولَهَا مكان مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ يوْمَ الدّين، يُجْرِي اللهُ فيه الحسابَ وفَصْلَ القضاء.

وضُمِّن اسْمُ المفعول في عبارة: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ معْنَىٰ «مَسُوقِين» فَعُدّيَ تَعْدِيته بحَرْف «إلىٰ» وحُذِفَ المضَافُ وهو «شهود» قَبْل: ﴿مِيقَٰتُ﴾ لسُهُولَةِ إدْراكه. والْيَوْمُ الْمَعْلُومُ هو يَوْمُ الدّين، وميقاتُه هو مَوْعِدُ وزمانُ ومكانُ الحساب وفَصْلِ القضاء، مُقدِّمةً لتنفيذ الجزاء.

فيكون معنى الآية كما يلي:

لَمَجْمُوعُونَ مَسُوقِينَ إلىٰ شُهُودِ مِيقَاتِ الحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، تمهيداً لِتَنْفِيذ الجزاء.

قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾:

دَلَّ حَرْف العطف ﴿ثُمَّ﴾ علَىٰ فاصِلٍ زَمَنِيّ بَعْدَ شُهُودِ ميقات اليومِ المعلوم، يكُونُ فيه انْتِظَارُ تَنْفِيذِ الجزاءِ بإدْخالهم جَهَنَّمَ، وانتظارُ تهَيُّجِ بُطُونهم مِنَ الجوعِ فيها، وحَاجَتِهِمْ الشّدِيدَة الّتي لا يَسْتطيعونَ دفْعَها، لأكْلِ شيءٍ ما فيها، فيَرْحَلُونَ بَاحِثِينَ عَمَّا يأكُلُونه لسَدِّ جُوعهم.

وجاء في هـٰذَا التعْلِيمِ التوجيهُ لمخَاطَبَتهمْ بِعُنْفٍ وَجفاءٍ ومُخَاشَنَة، إذْ وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤوسٍ مِنْ إصْلاحِهم مَعَها عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّة، فقد سَبَقَ في نُجُوم التَّنْزِيل في نحو أربعين سورة قَبْلَ نُزُول سورة الواقِعَةِ مخاطَبَتُهم والتَّوْجِيهُ لمُخَاطبتهم بمخْتَلِفِ أسَاليب الإقناع الفكري الحكيمَةِ الرَّفيقة، ومختلِفِ أساليب الترغيب والترهيب، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إلّا العنادُ، والإصرارُ علَىٰ بَاطلهم، اتّباعاً لأهوائهم، وشهواتهم، ورَغباتهم من الحياة الدُّنيا، وتَمَسُّكاً بتقاليدِهم العمياء، فأمْسَىٰ مِنَ الحكمة في مخاطَبَتِهم اتّخاذُ أُسْلُوبِ العنف والجفاء والمخاشنة.

﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: أي: المجافُون لِلصِّراطِ المستقيم، والمبتَعِدُونَ عَنْهُ، معانَدَةً للحَقِّ والخيرِ والْهُدَىٰ، بَعْدَ بيان كلّ ذلك لكم.

وهذا أحد معنى الضلال، وهو المناسب هنا.

﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾: أي: المكذِّبُونَ رَسُولَ رَبكُم، والمكذبون بكتابه، والمكذبُون بأنباء يَوْم الدّين.

قول الله تعالى:

- ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾:

اسم الفاعل: «آكِلُون» يُرادُ بِهِ هُنَا المستقبلُ البعيد، وذلِكَ إذْ يكونون في جهَنَّمَ يَوْم الدّين، فهو في الدلالَة على الزمن بمنزلة الفعل المضارع.

وحرف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِن شَجَرٍ﴾ للتبعيض، لأنَّهُمْ يأكُلُونَ في جَهَنَّمَ بَعْضَ ثَمَرِ هذا الشّجر الكَرِيه، وأرى أنّ هذا الْوَجْهَ أوْلَىٰ الوجوه بالاعتبار.

وحَرْف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ للبيان، أي: من نَوْعِ شَجَرٍ في جهنَّمَ يقالُ لَهُ: «زَقُّوم».

وجاء في وَصْفِ شَجَرَة الزَّقُوم ما يلي:

(١) لَهَا ثَمَرٌ كريهُ المنظر كأَنَّهُ رُؤُوسُ الشياطينِ، وفي هذا إحالَةٌ عَلَىٰ مُتَخَيَّلٍ في أذْهَانِ المخاطَبِينَ لِرُؤُوس الشياطين، إذْ يتخيَّلُونَها بأقْبَحِ صُورَةٍ لشيءٍ مَا في الْخَيَالِ التوهمي، وبأشْنَعِ منظر.

وقال الزّجاج والفّراء: الشياطين حيّاتٌ لها رُؤُوس وأعراف، وهي من أقْبَح الحيَّاتِ وأخْبَثِها وأخَفِّها جِسْماً.

وقيل غير ذلك:

(٢) شجرةٌ لها ثَمَرٌ مُرٌّ كَرِيهُ الرائحة، يُلْجأُ أهْل النار إلى الأكْلِ منه، للجوع الشديدِ الذي يَنْزِلُ بهم، فلا يأكُلُونَهُ مضْغاً، وإنَّما يَتَزَقَّمُونَهُ تَزَقُّماً، لأنَّه مكْرُوهُ نَتِنٌ، أي: يَبْتلعونَه ابتلاعاً بَجهْدٍ ومشقة.

التَزَقُّمُ: الْبَلْعُ عَنْ جَهْدٍ، لشِدَّةِ الضَّرُورَة الدَّاعيَةِ إلى سَدِّ الجوع الذي هو أشدُّ إيلاماً من بَلْع المرِّ الكَرِيهِ النَّتِنِ بجَهْدٍ ومشقّة.

(٣) تَنْبُتُ هـٰذِهِ الشجرة في أصْلِ الجحيم، أي: في القاع من وِدْيَانها.

(٤) ثَمرُهَا كالْمُهْل (أي: كالْقَطِرَانِ، أو كُدُرْدِيّ الزيت وهو عكرُه).

(٥) ثَمرُها يَغْلِي في بُطونِ آكلِيهِ مِن شدّة حرارَتِه، كَغَلْيِ الحميم (أي: كغَلْيِ المَاءِ الشديد الحرارة).

قول الله تعالى:

• ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: فمالِئُونَ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا بُطُونهم. جاءت (الْ) في لفظ ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ عِوَضاً عَنِ الضمير الذي يَعُودُ على المخاطبين: أي: فمالِئُونَ مِن الأكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا بُطُونَكُمْ، لأنَّ الأكْلَ منه لا يَسُدُّ جُوعَكُمْ مَهْمَا أَكَلْتُمْ، فَلا تَقِفُونَ عن الأكْلِ منه إلَّا إذا امتلأَتْ بطُونكُم، وصِرْتُمْ غير قادِرينَ على أَنْ تُضِيفُوا شيئاً إلى بُطُونكُم بَعْدَ امتلائها بالزَّقُّوم، إلَّا شَراباً يتَسَرَّبُ تَسَرُّباً.

واسم الفاعل في هذه الآية كاسْم الفاعل في الآية الّتي قَبْلها.

قول الله تعالى:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: فَسوْف يُلْجِئكم الظَّمَأُ الشّديد بعد الأكل من ثَمَرِ شجرة الزّقّوم الّتي تَمْلَؤُونَ مِنْها الْبُطون، إلَىٰ شُرْب ماء كثير، لكِنَّكُمْ لاَ تَجِدُون في الجحيم دَارِ عذابكُمْ إلَّا ماءً حارّاً شديد الحرارَة، فَتَشْرَبُونَ مِنه مِثْلَ شُرْبِ الْهِيم فَلا يُرْوِي ظَمَأكم، فَتهِيمُون.

الحميم: الماء الحارُّ ذو الحرارة الشديدة. و(ال) تُشير إلى ما جاء في الآية (٤٢): ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

الهيم: الإبل المُصابَة بِدَاءِ الْهُيَام، فهي تَشْرَبُ فَلا تَروىٰ، فتَنْطَلِقُ هائِمةً لا رَاحَةَ لَهَا ولاَ اسْتِقْرار. يقال: بعير أهيم، وناقَةٌ هَيْماء.

الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يَعُودُ علَىٰ المأكُولِ المفهوم ذهناً من عبارة: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

وجاء تكرير ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ في الآية (٥٥) للدَّلَالَة على تكريرِ شُرْبهم مَرَّةً فَمَرَّةً لِيُطْفِئوا ظمأهم، لكِنَّه لا يَنْطَفِىء، وفيه مع هٰذا إيجادُ تَوَازُنٍ بَيْنَ هذه الآية وبَيْنَ التي قبْلَها (٥٤).

وفي ختام هذه الفقرة الّتي علّمَ الله عزّ وجلَّ فيها رسولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمّتِه، كيْفَ يُخاطِبُ المعانِدين المكابرين، الكافرين، المكذّبين بيومِ الدّين، والّذِين وصَلُوا إلى دركَةٍ إجرامِيَّة، مَيْؤوسٍ مَعَهَا من أَنْ يَسْتجِيبوا لدَعْوَةِ الحقّ، عَنْ طَرِيق إرادَاتِهم الحرّة، قال الله عزّ وجلَّ مُخاطِباً كُلَّ مُتَلَقٍّ لهذا البيان القُرْآني:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾: أي: هذا الطعام من شَجَرٍ هو مِنْ صنف شجر الزَّقّوم، هو الطعام الّذي يُقَدَّمُ لَهُمْ إذْ يُسْتَضَافُونَ في جَهَنَّم دارِ عَذَابهم.

«النُّزْل ـ والنُّزُل» بضمّ الزاي وإسْكانها، هو في اللُّغَةِ ما يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِهِ من طَعَامٍ ونحوِه إذا نَزَل به.

يُقالُ لغةً: «فُلاَنٌ حَسَنُ النُّزُلِ» أي: حَسَنُ الضيافة.

وأَنْزَالُ الْقَوْم: أَرْزَاقُهُمْ.

وعَنِ الزّجَّاج: أَنَّهُ يُطْلَقُ «النُّزُلُ» علَىٰ الْمنزل، فالنُّزُلُ على هذا يشْمَلُ المكان والضّيافة فيه.

وذُكِرُ النُّزُلُ» هُنَا، الَّذِي هو مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِه النّازِلِ بِه، على سبيل التَّهَكُّمِ بالْمُجرمين المعانِدِين، مقابل استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا.

أي: إذا أَدْخَلْنَاهُمْ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابهم، فإنَّنا لاَ نَتْرُكُهُمْ يَجُوعُونَ دُون أنْ نُقَدِّمَ لَهُمْ طعاماً، بَلْ نَقُدِّمُ لهم ثَمَرَ شَجَرِ الزَّقّوم، الذي يَغْلِي في بُطُونهم كغَلْيِ الحميم.

وأمّا الصِّنْفُ الرّابِعُ من الناس يوم الدين، الذي لم يأتِ في سورة (الواقعة) بيانٌ صَرِيحٌ عنْهُ، وقَدْ دَلَّ عليه التقابل والتناظُرُ بَيْنَ الْأَقْسَام، كما سَبَقَ في الرَّسْم البياني، وهُو صِنْفُ غُلاةُ الكَفرَةِ المجرمين، والأئِمة الدُّعَاةُ

إِلَىٰ الكُفْرِ والْفُسُوقِ والْعِصْيَانِ والْفُجُور في الأرض، فقد جاء بيانٌ مَا، عَنْ بَعْضِ أحْوالِ أَفْرَادِه مُوزَّعاً في سُوَر القرآن المجيد، فَمِنَ النُّصُوصِ الّتِي تَعَرَّضَتْ لِحَدِيثٍ مَا عنهم، النُّصوص التالية:

(١) قول الله عزّ وجلَّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) بشأن الوليد بن المغيرةِ أحَدِ أئمة الشرك والعناد والكفر في مكّة إبّان التنزيل:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾:

أي: سَأُحَمِّله عَذَاباً شاقًّا في جهَنَّم فَوْق طاقته، إذْ أجْعَلُهُ صَاعداً فيها على عقبة كَؤُودٍ.

الصَّعُود: العقَبَةُ الشّاقَة، والمشَقَّة، والطَّريقِ الصاعِدَة، ورُوي عن النبيّ ﷺ: «أَنَّ الصَّعُودَ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يُصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفاً، ثُمَّ يَهْوِي كَذَلِكَ مِنْهُ أبَداً».

وظاهرٌ أنَّ مِثْلَ هٰذَا الْعَذَابِ، خاصٌّ يَوْمَ الدِّينِ بِأئمَةِ الكُفْرِ، الداعين إليه، والمحرّضِين عليه، ولَيْسَ كُلُّ الْكَافِرِينِ يُعَذَّبُونَ بِمِثْلِ هذا العذاب.

(٢) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

سَبَقَ تَدَبُّر هذا النصّ لدى تَدَبُّر سورة (ص) فَلْيُرْجع إليه. والشاهِدُ هُنَا هو ما في هذا النّصّ من دَلاَلَةٍ علَىٰ أنّ عذابَ أئِمة الكُفْر مِنْ أهل الصنف الرابع أخْبَثِ صِنْفَي الكافرين المجرمين أشدُّ من عذاب الكافرين،

إذْ كانُوا الْفَوْجَ السَّابقَ في إدْخالهم جهنَّم دَارِ عَذَابهم، وجاء في مقالِ أَتْباعهم الْفَوْج الّذي أُقْحِمَ جَهنَّمَ بَعْدَهم، قولُهُمْ لهم: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ فَدَلَّ هذا عَلَىٰ أنّ الْأَئِمَةَ الّذِين كانُوا دُعاةً إلى الكُفْرِ في الحياة الدُّنيا، هُمْ فِي القرار من جَهنَّم، وهو القاع منها، وجاء في دُعائهم رَبَّهُمْ قولُهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ وعَدَمُ الرَّدّ على دُعائِهِم يَدُلُّ على أنَّهُمْ في الواقع يُعَذَّبُونَ عذاباً أشدَّ، معادلاً لوصْفِهم إذ كانوا كافِرِينَ في أنْفُسِهم، وداعين إلى الكُفْر وحامِلِينَ الناسَ عليه.

(٣) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول): بشأن المكَذّبين بآيات الله ومَا يُقالُ لهم يَوْمَ الدِّين عند إدخالِهِمْ جهنّم:

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حتَّىٰ إذا انْتهَىٰ تلاحُقُهُمْ وَتَتَابُعُهُم واسْتَقرُّوا فِي مَواضِعِهم مِن النّار جَمِيعاً.
- ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ أي: قَالَ: لِكُلٍّ مِنْكُمْ مِثْلُ عَمَلِه مِقْداراً وصِفَةً، فأئمة الكفر الدُّعاة إلَيْهِ أكْثَرُ إجْراماً فجزاؤُهُم مِنَ العذاب يُعَادِلُ ما اكْتَسَبُوا من الآثام والجرائم.

وقد سبق تدبّر هذا النَّصّ لدى تدبّر سورة (الأعراف) فَلْيُرْجَعْ إليه. والشاهِدُ هُنَا هو مَا في هذا النَّصّ من بيان أنّ عَذَابَ الْغُلاَةِ في الكفر والضلال، الدَّاعِين إلى الكُفْر والفساد في الأرض، أشدّ من عَذَاب الضّالّين بأنْفُسهِم الّذِين لا يَدْعُون إلى الضلال، ولا يَحْمِلُونَ الناسَ عَلَىٰ الكفر والفساد والإفساد في الأرض.

ومن هذا نَفْهَم بعض وَاقع حال الصنف الرابع من أصناف الناس يوم الدين.

(٤) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بشأنِ فِرْعَوْنَ وَآلِه:

﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أَمْرٌ يُوَجَّهُ مِنَ الله عزّ وجلَّ للمكلَّفِين مِنَ الملائكة بَسَوْقِ آل فِرْعَوْن إلى جَهَنَّمَ، بِأَنْ يُدْخلُوهُمْ أشَدَّ الْعَذَاب، وظاهِرٌ أنَّ أشَدَّ العذابِ في جَهَنَّمَ إنَّما يَكُونُ لِأئمة الكُفْرِ وغُلاَةِ الْمُجْرِمِين، الَّذِين كانوا في الحياة الدُّنيا طَاغِينَ، ويَحْمِلُونَ الناسَ عَلَىٰ الكُفْرِ والطُّغيان، وهم أهْلُ الصِّنْفِ الرابع من الناس يوم الدِّين.

(٥) ولمَّا جَمَع المنافِقون بَيْنَ الكُفْرِ بَاطِناً، وإعْلانِ الإسْلاَمِ في الظاهر، ليخادعُوا به الله والّذين آمَنُوا، كانَ جُرْمُهُمْ مِنْ دَرَكَةِ أَخَسِّ المجْرِمين، فكان عقابُهُمْ عِنْدَ رَبِّهم يوْمَ الدِّين فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ من النّار، إذْ يُجْمَعُونَ مَعَ أهْل الصنف الرابع من أصناف الناس يوم الدين.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الأوّل من دُروسِ سُورَةِ (الواقعة) والحمد للّهِ على مَعُونَتِهِ، وتوفيقه، وفتحه.



(٧)
التدبر التحليلي للدّرسِ الثاني من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (٥٧ ـ ٧٤)

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ

أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

تمهيد:

اشتمل هذا الدرس الثاني من دروس سورة (الواقعة) علىٰ عرض طائفة من الظواهر الكونيّة الدَّالَّة على طائفة جَليلة مِنْ صفاتِ رُبُوبيَّة اللهِ لكَوْنِهِ، مِنْها عظيم قُدْرَتِه وإتقانِه لصُنْع كُلِّ شيءٍ خَلَقه، وحِكْمَتِه السَّامِيَة، وأَنَّهُ لَمْ يَخْلُق عِبادَه في هذه الحَياةِ الدنيا عَبَثاً، دُونَ أَنْ يُتابِعَ حَياة امْتِحانهم بحياة أخرىٰ، يُجْرِي فِيها حسابَهُ لهم، وفَصْلَ قضائه بَيْنَهُمْ، ومُجَازاتَهُمْ على مَا أَسْلفُوا في رِحْلَةِ امْتِحانِهِم، من عَقائِدَ ونِيَّاتٍ وأعْمالٍ بَاطِنَةٍ وظاهرة.

والظَّواهِرُ الكونيَّةُ الّتي عَرَضَها وَنَبَّهَ عَلَيْها هذا الدَّرس، والتي تَدُلُّ علىٰ أنّ اللهَ هو الذي خلق الناسَ، هي سِتُّ ظواهر:

الظاهرة الأولىٰ: النُّطفة المنويَّة.

الظاهرة الثانية: الموْتُ الَّذِي لاَ مَفرَّ لحَيٍّ منه.

الظاهرة الثالثة: نَشْأَةُ الحيَاةِ الأولَىٰ.

الظاهرة الرابعة: النباتُ في الأرض، وإبْداعُ الرَّبِّ في تَنْشِئَتِه.

الظاهرة الخامسة: الماءُ وإنْزَالُهُ نَقِيًّا طَهُوراً سائغاً شرابُهُ مِن الْمُزْنِ.

الظاهرة السَّادِسة: النّار، وتَخْزينُها في الأشجار للانتفاع بها عند الحاجة.

ودَلَّ هذا الدَّرْسُ، على أنَّ إدْرَاكَ هٰذِهِ الظواهر، يَدْفَعُ مَنْ كانَ مِن أُولي الألْبَابِ المنْصِفِينَ الذين يَخْشَوْن رَبَّهم، إلى أن يُسَبِّح باسْمِ رَبّه العظيم.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾:

أواخرُ الدَّرسِ الأوَّلِ من دُرُوسِ السُّورة، تتعلَّقُ بأصْحَاب الشّمالِ (= أصْحَابِ المشْأَمَة) وعَرْضِ لَقَطاتٍ من عذابِهِمْ في الجحيم يوْمَ الدّين، لأَنَّهُمْ كَانُوا يُصِرُّونَ في حَياةِ امْتِحانِهم علىٰ الإثْمِ العظيم، ويُكَذِّبُون بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين.

فهم المخاطَبُون الأَولونَ بما جاء في الدّرس الثاني من دُروسِ السُّورَة، وسِيلةً لإقناع من يَسْتجيبُ منهم أو من غيرهم لدعْوَةَ الحقّ الرَّبَّانيّة، في هٰذا الدّين الخاتم، وبتنويع الأَدِلّةِ وتَصْرِيفها لا يبقىٰ عُذْرٌ لمعْتذرٍ حينما يقف بيْنَ يَدَي رَبّه للحساب، وفصْلِ القضاء.

على أنَّ الخطاب يتناوَلُ كُلّ موضوعٍ في الحياة مَوْضع الامتحان من الإنْس والجنّ.

جاء البيان في هٰذه الآية بضمير المتكلِّم العظيم، لأنَّ الكلام يَتَعَلَّقُ بِخَلْقِهِ العظيم لعِبادِه، فقال تعالى للمخاطبين من الإنْسِ والجنّ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وحْدَنا، وقَبْلَ خَلْقِنَا لكُمْ لَمْ تكونوا شيئاً مَذْكُوراً. فإنْ كُنْتُم تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الّذِين خَلَقْتُمْ أنفُسَكُمْ، فأثْبِتُوا دَعْوَاكُمْ بِحُجَّةٍ مَا، أَوْ

امْنَعُوا عَنْ أنْفُسِكُمُ الموْتَ الَّذِي قَدَّرْناه بَيْنكم، وإِنْ كنتم تَزعمونَ أنَّ خالقاً غَيْرَنَا هُو الَّذِي خَلَقَكُمْ فَاذْكُرُوه، وأَثْبِتُوا بحجَّةٍ مقْبُولَةٍ ماذا خَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ أَو مِنَ السَّمَاءِ، أو اسْأَلُوه أَنْ يَمْنَعَ عَنْكُمُ الموْتَ إذَا نَزَلَ بِكُمْ لِيُثْبِتَ أَنَّه هُو الخالِقُ لَكُمْ.

لَكَنَّ أحداً ما في الوجود غَيْرَ الله لاَ يَسْتَطِيع أنْ يَدَّعِيَ أَنَّه هو الخالق.

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾: «لَوْلاَ» هُنَا بِمَعْنَىٰ «هَلَّا» الّتي فيها معنى الْحَضّ والحثّ، أيْ: فَهَلاَّ تُصدِّقُونَ بِأَنْبَائِنَا عن الحياة الأخرىٰ، وما فيها من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتنفيذِ جزاء، في جنَّاتِ النَّعيم، أوْ في دَارِ العذاب الأليم.

وفي هذا الحضّ معنى تلْويمِ المكذبين، وبيانِ سُوءِ اختيارِهم، ونقصانِ عُقُولِهِمْ، إذْ يُنْكِرُونَ الحقَّ المؤيَّدَ بالبراهين العقليّة، والحجج الدامغة.

والظاهر أنّ عبارة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ مِوجّهةٌ للدهريينَ وكلِّ الذين لا يؤمنون بالرَّب الخالق، كالملاحدة والوجوديين، أو يجْعَلُون له شريكاً في خَلْقِهِ للناس، كالذين يؤمنون بخالقين أو أكثر.

بعد هذا جاء عَرْضُ الظواهر الكونيَّةِ المختارة لِلْعَرْضِ في هذا الدَّرْس، من ظواهر خَلْقِ اللهِ في كونه الدَّالّة على طائفة مِنْ صِفاتِه الجليلة:

الظاهِرَة الأولَىٰ: النُّطْفَةُ المنويّة، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عزّ وجلَّ في هذا الدرس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!.

استفهامٌ يُرادُ بِهِ لَفْتُ أنظار المخاطبين إلى هٰذِهِ الظاهرة العجيبة من ظواهر الخلْق الربانِيِّ، التي فيها جُرْثُومَةُ الأحياء البشريّة، وفي الخليّةِ بعْدَ انعقادها كلُّ صفات الكائنِ التي تظهر جليّة حينما يكْبُر، وتَبْرُزُ صِفاته.

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: أي: النطفة المنويَّةُ الّتي تُخْرِجُونَها من العضو التناسلِيِّ. وتُسمَّىٰ: «الْمَنِيّ» وهو سائلٌ أبْيَضُ غليظ تَسْبَحُ فيه الحيوانات المنويَّة، يَخْرُجُ من القَضِيب إثْر جِمَاعٍ أو نَحوِه، ومَنْشَؤهُ إفرازات الخصيتَيْن، ويخْتَلِطُ بِه إفرازُ الْحُوَيصلَتَيْن المنويّتَيْنِ، والبروسْتَاتة، وغُدَدُ الْمَبَال (مجرىٰ البول).

المنيُّ عندَ الأطباء

يُطْلَقُ على الإفرازاتِ التناسليّة للرَّجل، تُفْرِزُها الْخُصْيَة، والبروستاتا، والْحُوَيْصِلَة المنويّة، وهو مكوّن من عنصرين:

(١) الحيوانات المنويّة، الّتي تتكوّن من القنوات المنويَّة في الخُصْيَة.

(٢) السّائل الذي يحمل الحيوانات المنويّة، ويُغذِّيها، وهي تَسْبَحُ فيه حتّىٰ تَصِلَ إلى الرَّحِم، ويحميها من الإفراز الحامضيّ القاتل لها في المِهْبَل.

والدَّفقَةُ الواحِدَةُ من المنيِّ تحمل مائَتَيْ مَلْيُون حيوان منويّ فأكثر، والَّذِي يُلَقِّح البُوَيْضَةَ حيوانٌ منويٌّ واحد للجنين الواحد بَسب العادة.

وفي الرّحلة الطويلَة الّتي تَسْعَىٰ الحيوانات المنويَّة لاجتيازِ مَسافَتِها، من المهْبَلِ، فعُنُقِ الرَّحم، فالرَّحِمِ، فقناةِ الرَّحم لتَلْتَقِيَ بالبُيَيْضَة، تَهلِكُ الأعداد الكثيرة منها، ولا تَصِلُ منها إلى قُرْبِ جدار الْبُيَيْضَةِ إلّا مئاتٌ مِنها، وبالمشِيئَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يُخْتَارُ بحَسَبِ العادة واحدٌ منها، لاختراق جِدَارِ البُيَيْضَةِ، وتُحْجَزُ البقيَّةُ عن الاختراق فتَهْلِك.

والذكورةُ والأنوثَةُ في الْجَنِين تَأتيان من الحيوان المنويِّ الملَقِّح، الآتي من الزّوج الذكر، فإذا كان ذكراً تكوَّن الجنينُ ذكراً، وإذا كان أنثَىٰ تكوَّنَ الجنينُ أُنْثَىٰ بقضاء الله وقَدَرِه، ومحْضِ مشيئَتِه واختيارِه.

وقد اكتشَفَ مُتابِعُو البحْثِ من عُلَماءِ الأجنَّةِ، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفي القرن العشرين، عَجائِبَ مُذْهِلَةً في مَنِيِّ الرَّجُلِ، وبُيُوضِ المرأة، وفي التراتيب والتَّدابِيرِ الرَّبَّانِيَّة، الّتي يَتَحقَّقُ بها إنْشَاءُ الجنِين، حتَّىٰ وِلادَته طِفْلاً، وتَنامِيه إلى أن يكون إنساناً كاملاً، ما يَدُلُّ دَلاَلَةً قَطْعِيَّةً علىٰ أنَّ مُنْزِلَ القرآنِ هُوَ خالقُ الأكوان، وهو العليم بمَا خَلَقَ وبَرَأَ وأنْشَأَ.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟!.

هل يَدَّعِي مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلٍ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَنِيَّهُ؟!.

هلْ يدّعي الأطبَّاءُ وخبراء المخابِرِ والمعامل الكيميائيّة، أنّهم قادرون علىٰ تَصْنِيع نُطْفَةٍ مَنَوِيَّة، أو حَيَوانٍ منويٍّ واحدٍ؟!.

إنّ الإنس والجنَّ جميعاً عاجزون عَنْ ذلك، ولا يمكن لهم أنْ يَدَّعوه إلا كاذبين مفترين على الله.

إنَّ الله وحْدَهُ لاَ شريكَ له هو خالق النُّطَفِ المنويَّةِ كلّها بُقْدَرتِهِ العظيمة، وحِكمتِهِ السَّامِيَة، فَهُوَ وَحْدَهُ مُبْدعكُمْ أيُّها الناس، فَهَلَّا تُصَدِّقونَ نبأَهُ العظيم، بأنه سَيُعِيدُكم إلىٰ الحياة مَرَّةً أخرىٰ، بَعْدَ مَوْتِكُمْ، لِيُحَاسبكم، ويَفْصِلَ القضاء بينكُمْ، ويُثِيبكُم أو يُعاقبَكُمْ على ما سَلَفَ مِنْكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا!!.

الظاهرة الثانية: ظاهرةُ مَوْتِ الأحياء، الّذي لا مفرَّ لحيٍّ منْه، وقَدْ جاء التنبيه عَلَيْها في قول الله عزّ وجلَّ في هـٰذا الدَّرس، مع تنويعٍ في الأسْلُوب البياني، من الاستفهام إلى الخبر، ومع استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوعَ يتطَلَّبُ إظهارَ عظمَةِ رُبوبيَّة الرَّبّ جلّ جلالُهُ:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

• ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وفي القراءة الأخرى: **[قَدَرْنا]** والمعنىٰ فيهما واحدٌ، يقال لغة: «قَدَّرَ الشَّيْءَ، وَقَدَرَه» أي: حَدَّدَ مقادير كلِّ وصْفٍ فيه لَهُ وحَدَات صُغْرَى، تُقَدَّرُ جُمْلتُه بمقدار أعدادها، كأَعْداد ذرَّاته، وأعداد نقاط طُولِه وعرضه، وأعداد وحدات طاقته.

فالمعنى: نَحْنُ جَعَلْنَا مَوْتَ كلِّ واحِدٍ مِنْكُم مُقَدّراً بالزمانِ، والمكانِ، والأسبابِ، فَلا يتأخَّرُ مَوْتُ كُلِّ حَيٍّ منْكُمْ زَمَاناً مَا، مَهْمَا قَلَّ، ولا يَتَقَدَّمُ مَوْتُهُ زَماناً مَا، مَهْما قَلَّ، والمكانُ الذي حَدّدْنَاهُ أن يموت فيه لا بُدَّ أنْ يموت فيه، وكذلك السَّبَب.

فمعنى: «قَدَّرْنا» و«قَدَرْنا» في هذا النّصّ، حَدّدْنا الوَحَدَات الزمنيّة، الَّتي تَسْتَمِرُّ فيها حياة كُلٍّ منكم، والْوَحْدَة الزّمَنِيَّة الصُّغْرى الّتي يموتُ فيها بانفصال الرُّوح عن نَفْسِهِ الّتي تَذُوقُ بِهِ الموت، والمكانَ الذي يكون موتُه فيه، والسَّبَبَ الذي اختَرْنَاهُ لِأَنْ يكونَ مَوْتُه به.

والموتُ يَكُونُ بنَزْع رُوحِ الحيِّ مِنْ نَفْسِه المشتملَة على برنامج وجُودِه وحياته، وفي نواة كُلِّ خَلِيَّةٍ من خلايا جَسَدِه «برنامجه الوراثي» أي: الخُطَّةِ الأساسيّة الشّاملة لكلّ صفاته الْجَسَدِيَّة والنفسية، وعلى وفقها تَظْهَرُ صِفَاتُهُ، فما هو مِنْها جَبْرِيٌّ، لاَ يَخْضَعُ لاختيارات إرَادَتِه، كصِفَاته الْجَسَدِية، ومَا هو منها علىٰ غيْر نِظَام الجبْرِ، يكُونُ لَدَيْه اسْتِعْدادٌ للاستجابَة لمطالب إرَادَتِه الحرَّة، كَحَرَكَةِ يَدَيْهِ ورِجْلَيْه، وأجْفانِ عَيْنَيْه، ولِسَانِهِ وشفتَيْه.

ودلّنَا علىٰ أنَّ النّفسَ هي التي تَذُوقُ الْمَوْتَ بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾:

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾.

الرُّوح: مَا بِهِ تَكُونُ الحياة، وهي سِرٌّ من أَسْرَار اللهِ في كوْنِه، وهي من أَمْرِهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

والنَّفْس: شَيْءٌ فِي داخلِ الْجَسَدِ يشْتَمِلُ على بَرْنَامج وُجود الحيِّ وحَياته، فإذا نُفِخَتِ الرُّوحُ فيها، صَارَ الْجَسَدُ حيًّا، وإذا نُزِعَتِ الرُّوحُ مِنْها ذَاقَتِ النَّفْسُ الموتَ، وفَقَدَ الْجَسَدُ الحياة، فصار ميْتاً.

وكلُّ الناس يَعْرِفُونَ ظاهرة الموت، وكلُّ النَّاس يجهلون حقيقته.

• ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾: جاء السَّبقُ في القرآن للدَّلالة على السَّبْقِ الزّماني، وللدّلالَةِ عَلَىٰ السَّبْقِ المكانِي، وللدَّلاَلَة على السَّبْقِ المعنويّ بالصّفات ومنها المكتسباتُ الإراديَّةُ، وللدَّلاَلَة علَىٰ التَّفَوُّقِ فِي الْقُوَّةِ والْقُدْرَةِ على الغَلَبة، وهذا المعنَىٰ الأخير هو المناسِبُ هنا.

أي: وما تُوجَدُ فِي الوجُودِ قُدْرَةٌ مَا، تُغَيِّرُ مَا قَدَّرْنَاه وقضَينَاهُ في قضيّةِ الموْتِ، زماناً، ومكاناً، وسَبَباً، سابِقَةً لقَدَرِنا وقضائِنا وخَلْقِنا فِي شيءٍ من ذلِكَ، ولاَ في غَيْرِ قضيَّةِ الموتِ من عظائِمِ المقادِيرِ وصَغائِرِها،

وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ فِي شيءٍ مَا نُرِيدُهُ، بلْ نَحْنُ السَّابِقُونَ النَّافِذَةُ مَشِيئَتُنَا فِي كُلِّ شيءٍ جَبْراً أو تخييراً.

ولاَ يَخْفَىٰ ما فِي اسْتِعمالِ ضَمِيرِ المتكلّم العظيم، من دَلاَلَةٍ عَلَىٰ عظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ، وقَهْرِهِ وجَبَرُوته وسُلْطَانِه.

• ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾: دَلَّتْ عبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على عبارةٍ مطْوِيَّةٍ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ في أَلْفَاظ النصّ، وهي: «بَلْ نَحْنُ قادِرُونَ» وجاءَتْ عبارةُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾ مَبْنِيَّةً عليها، أي: بَلْ نَحْنُ قادِرُون على أنْ نُبَدِّلَ بِكُمْ أمْثَالَكُمْ، فنَخْلقَ بَشراً آخَرِينَ أمْثَالَكُمْ، ونَجْعلَهُمْ أبْدالاً لَكُمْ، فَمَا أَنْتُمْ إلَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، نُحْييكم بحَسَبِ مَشِيئَتِنَا، ونميتُكُمْ بِحَسَبِ مَشِيئَتِنَا، ونَأْتي بأمْثالكم أبْدالاً عَنْكُمْ بحَسَب مَشيئَتنا الَّتي نُنَفِّذُها إذا اقتضَتْ ذلِكَ حكْمَتُنا.

• ﴿... وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾: أيْ: ونَحْنُ قَادِرُونَ على أَنْ نُنشِئَكُمُ النَّشَأة الأُخرىٰ، التي يَكونُ بِهَا بَعْثُكُمْ للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذِ الجزاء. وتَكُونُ هـٰذِهِ النشأَةُ الأخرىٰ في ظُرُوف وأسْبَابٍ وأزْمَانٍ وأحْدَاثٍ لاَ تَعلَمُونها، كما كُنْتُمْ عند النشأَةِ الأولىٰ الَّتِي كُنَّا نُنْشِئُكُمْ إِيَّاها لا تَعْلَمُونَ عَنْها شيئاً، وأنْتم في أصلاب آبائِكم، ثم في أرْحَام أمَّهاتكم، ثم في طفولتكم الأولى، وبعْد أن عَقَلْتُمْ وعَلِمْتُمْ نَشَأَةَ أشباهكم، صِرْتُمْ تقِيسُونَ نَشْأَتَكُمْ عليها، فَعَلِمْتُموها عن طَرِيق قياسِ الأشباهِ والنظائر بَعضِها على بعض.

الظاهرة الثالثة: ظاهِرَة نشأة الحياة الأولى، وقد جاء التنْبيه عليها في قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: عَنْ طَرِيق مُلاَحَظَةِ نَشْأَةِ أشْبَاهِكم ونظائرِكم، وأنَّهَا كانَتْ سُلاَلَةً فِي أطْوَارٍ بَدأَتْ من الطين، إذِ

اسْتُلَّتْ مِنَ الطِّينِ الأغذية، واسْتُلَّتْ من الأغْذِيَةِ عناصِرُ بناء الأجْسَادِ، واسْتُلَّتْ من الْجَسَدِ عناصِرُ النّطْفَةِ المنويَّة في الذُّكور، وبناء البيْضَاتِ في الإناث، ثم انْعَقَدَ الجنِينَ ونَما وتخلَّقَ، ونُفِخَتْ فيه رُوحُ الحياة، ثم لمَّا حَانَ وَقْتُ خُروجِهِ أخرجَهُ اللهُ من بطنِ أُمِّهِ ولِيداً.

أفَلَيْسَ لَديكُمْ مَنْطِقٌ قياسِيٌّ، تَقِيسُونَ بِهِ أحْدَاثَ النَّشْأَةِ الأُخْرَىٰ، الَّتِي أخْبَرَكُمْ بِهَا خالِقُ النَّشْأَةِ الأُولى؟؟!.

وقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولىٰ عَنْ طَرِيقِ هـٰذَا القياس نَفْسِه، وظاهِرٌ أنَّهُ لاَ يُشْتَرَطُ في صحة القياس تَطَابُقُ الأحداثِ بتفْصيلاتها، بل يَكْفِي لصحّتِهِ مَا يُثبتُ الْقُدْرَةَ علىٰ إعادَةِ النَّشْأة، المماثِلَةِ في النَّتيجة للنشأة الأولى.

«النَّشْأَة»: وَ **«النَّشَاءَة»** قراءتان، والمعنى فيهما التكوين المتدرّج ضِمْنَ نِظام التَّرْبِيَةِ، حَتَّىٰ إبلاَغِ الشيءِ دَرَجَة كماله.

وهما لغتان عَرَبِيَّتان، كالرأفَةِ والرَّآفة، بالقَصْر والمدّ.

• ﴿... فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: فَهلَّا تَضَعُونَ النَّشْأَةَ الْأُولى الّتي عَلِمْتُموها في سَاحَةِ تَذَكُّرِكم الحاضِر، لتقيسُوا النّشْأة الأخرىٰ عليها، بالمقَايِيس المنْطِقيَّةِ الّتي تُقَاسُ بها الأشْباه والنظائر، بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ من الماضِي والمستقْبَلِ والحاضر، فإذا وَضَعْتَمُوهَا في ساحَةِ تَصَوّرِكُمْ الآنِيِّ، فرُبَّما دَفَعَتْكُمْ إذا كنْتُمْ ناشدِينَ الحقَّ، قادِرِينَ على التجرُّدِ من أهوائِكُمْ وتقالِيدِكم الْعَمْياء، إلىٰ الإيمان باليوم الآخر، وبما أعَدَّ الله فيه من حساب، وفَصْلِ قضاءٍ، وتنفيذِ جزاء، وهذا الإيمان يَدْفَعُكم إلى اختيار السّير على صراط الله المستقيم، والتحرُّرِ من آسِرَاتِ الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، وزينات الحياة الدنيا.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصْلُها «تَتَذَكّرُون» حُذِفَت إحدى التاءين تخفيفاً في النطق.

الظاهرة الرابعة: النَّبَاتُ في الأرض، وإبْدَاعُ الرَّبِّ في تَنْشِئَته، وقد جاء التنبيه عليها في قول الله عزّ وجلَّ في هذا الدَّرْس:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾.

﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾: أي: تُنْبِتُونَهُ، وتُنَمُّونَهُ، حتَّىٰ يَبْلُغَ غايته.

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: أشياءَ مُحَطَّمةً مُكَسَّرَةً، أصْلُ الْحَطْم في اللُّغَةِ الكَسْرُ على أيّ وجْهٍ، دون عِنَايةٍ بالمكْسور، ولا اكْتِرَاثٍ به، ولا بأيّ شأن من شُؤونه، أو مع قَصْدِ التخلُّصِ مِنْ هيئتِه وصُورتِه، وإتلافِ كلِّ نَفْع فيه.

يقال لغة: «حَطَمَ الشيءَ يَحْطِمُهُ حَطْماً» أي: كَسَرَهُ على أيّ وجه.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: أي: فَدُمْتُمْ تَتَنَدَّمُون. «**فَظَلْتُمْ**» أصْلُهَا «فَظَلِلْتُمْ» حُذِفَت اللّام الأُولَىٰ تخفيفاً في النُّطْقِ، والماضي «**ظَلَّ**» من باب «حَسِبَ يَحْسَبُ» وأصْلُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «ظَلَّ» الاستمرارُ بالأمْرِ نهاراً، ومن التوسُّع دلالتها على الدوام أكثر من ذلك.

«**تفكَّهُون**» يأتي فِعْلُ «تَفَكَّهَ» بمعنى:

(١) أكَلَ الفاكِهةَ، وتمتَّعَ بالشيء مُتَلَذِّذاً به.

(٢) تعَجَّبَ.

(٣) اغْتَاب.

(٤) تَنَدَّمَ، وهذا المعنَىٰ هو المناسِبُ هنا.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)﴾: أي: إنَّا لخَاسِرُونَ، يقال لغة: «غَرِمَ فِي تجارته» أي: خَسِرَ، فهو «غَارِم». ويقال: «أَغْرَمَهُ» أي: جَعَلَهُ غارماً خاسِراً.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾: **المَحْرُوم**: الشَّقِيُّ الذي لا يُصِيبُ خيراً من وجْهٍ يتوجَّهُ له، ويُطْلَقَ على الفقير. وفي هذه العبارة إضرابٌ عن الخسارة وإثباتٌ للحرمان.

فالمعنى: أَفَرَأَيْتُمْ أيُّها المعْنِيُّونَ بالخطاب، مَا تَحْرُثُونَ (أي: مَا تَشُقُّونَهُ فِي تُرَاب الأَرْضِ بالمحاريث) وَتَبْذُرُونَ فيه البزور رَجاءَ نباتها، وتَسْقُونَه ماءً، أو تنتظِرُونَ نُزُولَ غيثِ السَّماءِ عليه. أخْبِرُوني أأنْتُمْ تُنْبِتُونَهُ، أمْ رَبٌّ عظيمٌ هو الّذي يُنْبِتُهُ ويُنَمِّيهِ، مع أزْمَانِ اللَّيلِ والنَّهارِ، قَدْراً فَقَدْراً حتَّىٰ يَبْلُغَ دَرَجَةَ كمالِه، فيكُونَ لَكُمْ رِزْقاً حَسَناً، وأنْتُم نَائِمُونَ، أَوْ غَافِلُونَ، أَوْ لاَهُونَ لاَعبُون.

إنّ مَلاَيين الأعمال الإنْشائيَّةِ تَجْرِي في النبَّاتِ ليلاً نهاراً، وأَنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ عَنْهَا شيئاً، وتكْشِفُ بَعْضَهَا كَمِرَاتُ التصويرِ التتابُعِيِّ في وَحَداتٍ زمنية صُغْرىٰ.

إنَّنَا نَحْنُ ذَلِكَ الرَّبُّ العظيم الَّذِي يُنْبتُ لَكُم وينَمِي لَكُمْ زُرُوعَكُمْ وثِمارَكُمْ، الَّتي هِيَ موادُّ غِذائكُمْ وغِذَاءِ أنْعَامكم في حياتكم.

وكَما نَحْنُ نُنْبِتُ زُرُوعَكُمْ رَحْمَةً وعِنَايَةً بِكُمْ، نَحْنُ الْقَادِرُونَ علَىٰ جَعْلِهِ حُطاماً في لحظَاتٍ، كأنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِ رِيَاحاً بارِدَاتٍ، أو رياحاً سَمُوماً، فتُهْلِكَهُ وَتَجْعَلَهُ مُحَطَّماً.

وحِينَئِذٍ لاَ تَسْتطِيعونَ أَنْ تَفْعَلُوا شيئاً إلَّا مُواصَلَةَ النَّدَم قائلين: إنَّا لَخَاسِرُونَ، بَلْ نَحْنُ أَشْقِياءُ مَحْرُومُونَ مِن الْخَيْرِ، أيْنَما تَوَجَّهْنَا، ومَهْمَا اجْتَهَدْنا.

إتقان صنع النبات وقيمته في الحياة:

دَرَسَ علماءُ النبات الكونيّون في القرْنَيْن التاسع عشر والعشرين من

التاريخ الميلادي، ظاهرةَ النباتَاتِ في الأرض، فاكتشفوا حقائق مذْهِلَةً عجيبةً، مِنْ إتقان صُنْعِ اللهِ في كَوْنِه، ودَوَّنُوها عِلْماً واسِعاً يَغُوصُ في بُحُوثِه المتخصّصون.

وفيما يلي فِقَراتٌ موجَزاتٌ جدّاً من مَقَرَّراتِهِم في عِلْم النَّبَات.

(١) إنّ الناس لا يَسْتطيعون الحياة في الأرض بِدُون النبات، فالأكسجين الذي نَتَنَفَّسُه يَنْتُج عن النباتات. وهي مصدر الغذاء للإنسان ولسائر الحيوانات، وغذاء الإنسان من الحيوان يرجِعُ في الحقيقة إلى الغذاء من النبات.

(٢) النباتات مَصْدَرُ الكِسَاءِ وسائرِ ما يُنْسَجُ مِن خُيُوط، وسائر ما يُفْتَلُ حِبالاً، فمِنَ النَّبَاتَاتِ الأقْطَانُ، والكتَّانُ، وألْحِيةُ كثير من النباتات، ومنها الأصواف، والأشعار، والأوبار، لأنَّها تَنْبُتُ بالغذاء النباتي.

(٣) الأخشابُ التي تُنْتِجُها النَّبَاتَات إحدى الموادّ الأساسيَّةِ الّتي اعْتَمَدَتْ عَلَيْها الحضارَةُ الإنْسَانيّة.

(٤) أحصى علماء النبات ما يزيد على (٣٥٠) ألف من أنواع النباتاتِ في الأرض، ولم يسْتطِيعُوا أنْ يُحْصُوا كلَّ أنواعها.

(٥) من أنواع النباتات مَا هو صغير دون الملّيمتر، ومنْها ما هو عملاقٌ يصل ارتفاعه إلى خَمْسِينَ مِتراً، ومَنها ما هو بيْنَ ذلك.

(٦) النباتات مَصْدَرُ معظم النّيران الّتي يسْتَخْدِمُهَا الناس، فالفحم الحجَرِي من أشجار نباتاتٍ قديمة، والنِّفْط يَتَكَوَّنُ من تراكُمِ نباتاتٍ وأجْسَادِ أحْيَاءٍ قديمة، غَطَّاهَا الطّينُ والرَّمْلُ، وطالَ عليها الزّمَنُ مع عوامل ضُغوطٍ وحَرارَة، فتحوَّلَتْ نِفطاً بِتَقْدِير الله وقضائه.

(٧) معظم الأدويَةِ ذاتُ مَصْدَرٍ نَباتيٍّ، أو مُصَنَّعَةٌ تقليداً لَمَا في النباتات من خصائص دوائية.

(٨) تَرْتَبِطُ النباتاتُ بجميعِ الكائنَاتِ الحيَّةِ والناميَةِ في الأرض.

(٩) تُسَاعِدُ النباتاتُ في الحفاظ على التُّرْبَة، حتَّىٰ لا تَذْرُوَها الرِّياح، ولا تجرِفَها المياه.

(١٠) الورقة الخضراءُ في النباتات معْمَلٌ كيميائيٌّ مُعَقَّدٌ مُذْهِشٌ، لصناعة غذاء الإنسان، والكائنات الحيَّةِ الّتي تتغذَّى على النباتات، على الرُّغْم مِنْ صِغَرِ حَجْمِها، وعَدَم مُلاَحظة التعقيد في مظهرها، واسْتِهَانَةِ الناظر العاديّ بِشَأْنِها. وبقيمتها.

إنّ ورقة النَّبات نوع من الآلات الدقيقة الصُّنْع، الّتي تَعْمل وهِيَ مَكْشُوفَةٌ في العراء، وفي مخْتَلِف الأحوال الطبيعيَّة في الجوّ.

إنَّها العضْوُ النباتي الّذي يؤدّي وظيفَتَينِ حَيَوِيَّتَيْن للنَّبَاتِ، هُمَا: التَّنَفُّسُ، وصِنَاعَةُ الغذاء.

وقَدْ أُعِدَّتْ إعداداً مُلائماً لاستقبالِ أشِعَّةِ الشَّمْس السَّاطِعَةِ الحارَّة طَوالَ سَاعات النهار، وتَحَمُّلِ وابلِ المطَرِ الّذي قَدْ يَتَسَاقَطُ عَلَيْها أيّاماً عَدِيدَة، وَبِهـٰذَا الإعْدادِ العجيبِ اسْتَطاعَتْ أنْ تتكَيّف للظروف المختَلِفَةِ بالكيفيّاتِ الملائمات، فلا تَسْمَح بالتَّبَخُّرِ الزَّائِدِ علىٰ المطلوبِ حِينمَا تَشْتَدُّ عليها وطْأَةُ الشمس، ولا تسْمَح للأمطار الزّائدة بأنْ تَنْفُذَ إلى داخِلِها، فَتُفْسِدَ مصْنُوعاتِها السُّكَّرِيَّة.

ومع أنّ الورقة الخضراء في النباتاتِ بالغةُ الرِّقَّة والتَّفَلْطُح، إلَّا أنَّها في واقع حالها تَرْكيبٌ مُعَقَّدٌ من الخلايَا والأنْسِجة، يُغلِّفُهُ جِلْدٌ عُلْوِيٌّ، وجِلْدٌ آخَرُ سُفْلِيٌّ، وفي هـٰذَيْنِ السَّطْحَيْنِ ولا سيما السُّفْلِيُّ منهما تُوجَدُ ثُغُورٌ كثيرَة صغيرة، تقُومُ بِعَمَلٍ آلِيّ عجيب، إذْ تَنفَتِحُ وتَنْغَلِقُ تَبعاً للحاجَةِ، فإذا زَادَتْ نِسْبَةُ الماء في الورقَةِ انْفَتَحَتِ الثُّغُورُ لِتَطْرَحَ الزَّائد، ولِتَسْمَحَ لَهُ بأنْ يتبخَّرَ، وإذا نَقَصَتْ نِسْبَةُ الماء فيها انغلَقَتْ هـٰذِهِ الثُّغور.

وفي الورقَة الخضراء خُطَّةٌ هَنْدَسِيَّةٌ رائعة، قائِمَةٌ على شرايينَ وعُرُوقٍ وألْيَافٍ، ومادَّةٍ خَضراءَ تُؤَدِّي وظيفَةً أَسَاسِيَّةً في صِنَاعَة الغذاء النباتي.

وعُنُقُ الورقَةِ الخضراء هو السَّاقُ الّذي يَصِلُها بأصْلِها، وعَنْ طريقه تَتَبادَلُ الأخْذَ والعطاء، فتأْخُذُ الماء ومَحَالِيلَ الأمْلاح من أَصْلِها الّذي يَصِلُها بالْجُذور الْمَاصَّةِ، وتُعْطِي مُنْتَجاتها السُّكّرِيَّة لأصْلِها الّذي يُوَزِّعُهُ على سائر جَسَدِهِ، وعلى منتجاته مِنَ الثمر، بِحَسَب حَاجَةِ كلٍّ جُزْءٍ من ذلك.

وحين نَضَع هـٰذه الورقة الخضراء النباتيَّة تَحْتَ المِجْهر الضخم، نلاحظ خُطُوط هذا المعمل الدقيق العجيب، القائم بوظائفه الحياتيَّة بإتقانٍ تامّ.

والنشاط الصناعي الّذي تقومُ بِه الورقَةُ الخضراءُ النباتِيَّةُ، يَبْرُزُ في المادّة الخضراء نَفْسِها، فعِنْدَها مفتاحُ سِرّ هـٰذا النَشاطِ الصِّنَاعِيّ الكيميائيّ العجيب.

إنَّ الواحِدَةَ من ملايين الخلاَيَا الّتِي تتكَوَّنُ منها الورقة النباتيَّةُ الْخَضْراء، تُشْبِهُ ـ لَوْ كَبَّرْنَاها للنَّظَر ـ غُرْفَةً مُتْقَنَةً مُحَاطَةً بِجِدَارٍ مِن السّلْيُولوز، وفي داخلها مادّةٌ على شكل حُبَيْبَات تُسَمَّىٰ «سيتُو پلازم» وفي هذه المادّة عَدَدٌ من حُبَيبات مستديرة، ذاتُ لَوْنٍ أخْضَرَ بَرَّاق، وهذا اللّون المسمَّىٰ «كُلُورُ وفيل» هو نوع من الأصْباغ، فهو مادّة كيميائيّة مُلَوِّنَة، كالأصْباغ الّتِي تُعْطِي الشَّعرَ، والرّيشَ، والجلْدَ، والْعَيْنَ ألْوانَها، وكالصِّبْغ الأحْمَرِ الذي يُعْطِي الدّمَ لَوْنه، وهو الذي يَدْعُونَه «هِيمُو جْلُوبين».

إلى غير ذلك من إتقانٍ رَبَّانِيٍّ عجيب[1].

---

(١) انظر «الفصل الرابع»: «آياتٌ في النَّبات» من كتاب: «براهين وأدلة إيمانيَّة» للمؤلف.

الظاهرة الخامسة: الماءُ وإنزالُه من المزْنِ نقيًّا طَهُوراً سائغاً شرابُه للشاربين.

وقد جاء التَّنْبِيه علىٰ هٰذه الظَّاهِرَة في قول اللهِ عزّ وجلَّ في هذا الدَّرس:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿ٱلْمُزْنِ﴾: جمع «المزْنَة» وهي السَّحَابَةُ الحاملة للماء.

﴿أُجَاجًا﴾: «**الأُجَاجُ**» ما يَلْذَعُ الْفَمَ بمَرَارَتِهِ ومُلُوحَتِهِ، فهو الْمِلْحُ المرُّ.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾: أي: لَوْ شئنا جَعَلْنَاه مُرّاً مالحاً. لَمْ تأْت هُنَا اللَّامُ في جواب «لَوْ» وسَبَقَ أَنْ جاءت في جواب: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

قال النحاة: مجيء اللّام في جواب «لَوْ» وعَدَمُ مجيئها إذا كانَ الجواب ماضياً مُثْبَتاً جَائِزان، إلّا أنَّ اقترانَ الجوابِ بِاللَّام أكثر في الاستعمال، فجاء النصّ هنا بالجائزَيْنِ، وقُدِّم الأكثر استِعْمالاً في لسَان العرب.

فالمعنى: أفرأيْتُمْ أيُّها المعنيّون بالخطابِ الماءَ الذي تَشْرَبُونَهُ حُلْواً سَائِغاً للشّاربين، لاَ مُلُوحَة فيه ولا مرَارة، بسبب نظام التَّصْعيد والتقطير الذي جَعَلْنَاهُ رحمة لكم، وعِنَايَةً بِكُمْ.

أَخْبِرُوني، أأنْتُمْ دَبَّرْتُم نظامَ تَصْعِيده من المحيطات المرَّةِ المالحة، مُجَرَّداً مِنَ الموادّ الْمُرَّةِ والمالحة، وتكوينِه سُحُباً في الأجواء، وإِنْزَالِهِ طَهُوراً نَقِيًّا سائِغاً للشاربين، أمْ نَحْنُ الّذين دَبَّرْنا ذَلِكَ، ونُجْرِيه بقُدْرَتِنا، وإِتْقَانِ صُنْعِنا عنايةً بكم ورَحْمةً لكم؟!.

مَنْ مِنْكُمْ يَدَّعي أنَّهُ هو مُدَبِّر هذا التَّدبير، ومُقَدِّرُ هـٰذا التَّقْدِير؟!.

وإذا لم يكُنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَفْعَلُ هـٰذا فَهَلْ يَفْعَلُهُ أحدٌ في الْوجُود غَيْرُنا؟!.

أمَا كَانَ من الممكِن عَقْلاً أن نجْعَلَ المواد المختلِطَة بِه تَتَبَخَّرُ مَعُهُ فَيرْجع من السَّحاب أُجَاجاً كَما صَعَدَ، فَلا تجدون في الأرض ماءً حلْواً نقيًّا تَشْرَبُونه؟؟.

أفلا تَدْفعُكُم عِنَايَتُنا بكم إلَى أَنْ تُؤَدُّوا واجب شُكْرِنَا بالإيمان السّليم الكامل، وبالْعَمل بما أنْزَلنا إليكم من تكاليفَ على مقادير استطاعاتكمْ؟؟.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾: أي: فَهَلَّا تشْكُرُونَ «لَوْلاَ» هنا تخصيصيّة بمعنى «هلّا» وتختصُّ بالجملة الفعليّة.

«الشكر»: مقابلَةُ إنْعَامِ المنْعِم بِما يُرْضِيه من عَمَلٍ أو تَرْك، أو أيّ شيءٍ مادّيّ يَسُرّه، وقَدْ يَشْمَلُ الْقَوْلَ الّذي فيه ما يُرْضي المنعم، إلّا أنّ بعض القول يختصُّ بعبارَتي الحمد والثناء.

آيات الله وآلاؤه في الماء:

في الماء آيات جَليلاتٌ دالّاتٌ على الخالق القدير، الحكيم الرحيم الْعَلِيمِ الخبير، المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ولعظم مَا في الماء بخصوصه من أياتٍ وآلاَء، امْتَنَّ اللهُ عَلَىٰ عباده به، مشيراً إلى طَائِفَةٍ مِنْ ظَواهِرِ تَهْيِئَتِه وإعدادِه للنَّاسِ في الأرض.

وقد جعل الله الخالق العظيم الحكيم الماء مادَّةَ حياة كلّ ذي حياة، ولولاه ما نبت نباتٌ، ولا نَمَا شجر، ولا تَهَيَّأَ غِذاءٌ لحيوانٍ أو بَشَر.

وقد أَمَدَّ الله به الأرض إمداداً كبيراً، فَجَعلَ البحار مستودعاتٍ عظيمات جدّاً، تُمِدُّ سُكَّانَ الأرض بما يَحتَاجُونَ إلَيْه من ماء، ولوْ أنَّ البحارَ كانت حُلْوةً لأَسْرَع إليها الفساد، فأنْتَنَ ماؤُها وصار آسناً.

ولكِنَّ حكمة الخالقِ بديع السماوات والأرض، حمَتْ مياه الْبَحْرِ مِنَ الفَسَادِ بالمعقّم المخالط لها.

وبالعنايَة الفائقَةِ وإتقان الصنعة، جعَل الله عزّ وجلَّ نظام التبخُّرِ لاَ يُصْعِّدُ إلّا الماء الخالص من العناصر المخالطة له في البحار.

ويتجمّع بخار الماء الذي يتصاعَدُ من المحيطاتِ العظيمات ومن غيرها علىٰ شكل سُحُب تَسْبَحُ في الفضَاء، ويتراكَمُ بَعْضُهَا علىٰ بَعْض، وتَسُوقُها الرِّياح، وتَرْكُمُ بَعْضَها على بَعْضٍ بأمْرِ الله، وتُزْجيها إلى أرضٍ قَضَىٰ الله أَنْ يَسْقِيَها ويُرْويها ويُرْويَ الأحياء فيها، ويُنبتَ زَرْعَها.

ويُرْسلُ الله عزّ وجلَّ رَياحاً باردة ذوات لقاحٍ، فتَتَكثَفُ الأبْخِرَةُ، وتتَجَمَّعُ علىٰ نويات اللّقاح ماءً، فَتَتَسَاقط قطرات، تكبُرُ وتَصْغُرُ بقوانِين قَدَرِيَّة، وتَكُونُ مطراً يَنْزِلُ من السَّماءِ عِنْدَ أمْكِنَةِ تَجمُّعِ السَّحاب، إلى الأرض الّتي قَضى الله أنْ يسْقِيَها أو أذِنَ به، فيُحْيِي بِهِ اللهُ الأرضَ بَعْدَ مَوْتها، ويَسْقِي الظماءَ من النباتِ والحيوان والناس.

ويتجمَّع الماء، فَيَجْرِي في الوديان والشعاب، وتمْتَلِىءُ منه الأحواض والمستودعات، ويَسْلُكُ سُبُلَهُ إلى الْعُيونِ والآبار، لتكونَ مَوَارِد للواردين، ومشارِبَ للظَّامِئين.

ويخالِطُ الماء الترابَ الطيّب، فتَتَفتَّحُ البزُور بإذْنِ رَبّها، وتنفَلِقُ، وتَمْتَدُّ الجُذُور، ويشُقُّ النباتُ الأرض، ويتصاعَدُ الزَّرْعُ ويَتَفرَّعُ شَطْؤه، ويَقْوىٰ جِذْعُه، وتتنامَىٰ فروعه، ويُزْهِرُ زَهْرُه، ويثْمِرُ ثَمرُهُ.

فإذا البزرة الّتي كانت صغيرة كالخردلة أو العدسة أو الحمصة أو النواة، قد صارت شجرةً عظيمةً وارِفَةَ الظِّلال، ثقيلَةَ الأحْمَالِ، عظيمَةَ النَّفْع، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْن رَبّها، فَيَفِدُ إلَيْهَا الآكِلُونَ، ويَغْتَذُونَ ممّا فيها من غذاءٍ لهم، وينْتَفِعُون من ورَقِها وخَشَبِها وَكُلِّ شيءٍ فيها.

إنَّها لَأَنْظمةٌ عجيبَة، وسَلاسِلُ مُتَرَابِطَةٌ غَرِيبة، وهي جَمِيعُها تخدم غايةً مَرْسُومة مَعْلومة، قد أُحْكِمَتْ مِنْ أجْلِها حَلْقَاتُ السَّلاسِلِ أيَّما إحكام، ورُتِّبَتْ بعِنايَةٍ فَائِقَةٍ مَا فوقَها لدَىٰ النظرة الكليَّةِ الشاملَةِ مِنْ مَزِيد، ضِمْنَ مقادير الغايَةِ من هـٰذِه الحياة الدُّنيا.

فَهَلْ وُجدَتْ هـٰذِهِ السَّلاسِلُ المحكمَةُ الْبَدِيعَةُ الهادفة لغايَةٍ مقْصُودَةٍ على سبيل المصادفةِ مِنْ طبيعةٍ عَمْيَاءَ، لاَ عَقْلَ لَهَا وَلاَ إرادة؟!!.

الظاهرة السادسة: ظاهرة النار، وتخزينها في الأشجار ومَا تتحوَّلُ إليه الأشجار، للانتفاع بها عِنْد الحاجةُ.

وقد جاء التنبيه على هـٰذه الظاهرة في قول اللهِ عزّ وجلَّ في هـٰذا الدرس:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿تُورُونَ﴾: أيْ: تُوقِدُونَ، يُقَالُ لغةً: «أَوْرَىٰ فُلاَنٌ النَّارَ» أي: أَوْقَدَها.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ﴾: أي: أأنتم خلَقْتُمْ وأَوْجَدْتُمْ ضِمْن نظام الإحداثِ المصْحُوبِ بالتكامل المتدرّج غالباً، وهـٰذا هو معنى «الإنشاء».

﴿شَجَرَتَهَآ﴾: هي واحدة «الشَّجَر» وهو كلُّ نَبَاتٍ يَقُومُ على سَاقٍ صُلْبَةٍ، وقَدْ يُطْلَقُ علَىٰ كُلِّ نَبَاتٍ ولَوْ لَمْ يَكُنْ قَائماً على ساقٍ.

ويقالُ: «اشْتَجَرَ الشَّيْءُ» أي: تَدَاخَلَ بعْضُه في بعض، ولعلَّ الشجر سُمِّيَتْ مِنْ معنَىٰ تَداخُلِ بَعْضِ النَّبَاتِ في بَعْضٍ، وبهذا المعنَىٰ يَشْمَلُ كُلَّ نبات.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾: «**التَّذْكِرَة**» مَا يُسْتَذْكَرُ بِهِ الشيءُ المطلوبُ

تَذَكُّرُهُ، كالرّتيمة، والبطاقة الّتي تُذَكِّرُ بموعِدِ اللّقاء، أو الاجتماع، أو نحو ذلك.

وفي جَعْلِ النَّارِ تَذْكِرَة معْنَىٰ التَّذْكِير بعَظَمَةِ خالِقِها، وَخَازِنِهَا فيما خَلَقَ مِنْ أشْجار، وفيما تَتَحَوَّلُ إليه الأشجار، وفي حِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ إذْ لم يَجْعَلْها مُتَدَفِّقَةً كالأنهار والينابيع، ومعنَىٰ التَّذْكير بنار جَهَنَّمَ الَّتي أعْتَدَهَا اللهُ عزّ وجلَّ للْمُجْرِمين الكافرين، يُعَذِّبُهُم بها وفي دَارِهَا يوْمَ الدّين.

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: «**المتاعُ**»: ما يُنْتَفَعُ بِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ والفناءُ يأتي عَلَيْه في الدُّنيا.

الْمُقْوُونَ»: هم المسافرون ونحوهم النازِلُونَ في «الْقَوَاء» أي: في الْقَفْرِ من الأرض، إذْ تكُونُ النار الّتي يُورُونَها مِنْ أشْجَارِه متاعاً لهم، لِدِفئِهم، وطَهْوِ طعامهم.

يقال لغة: «أَقْوَىٰ الرَّجُلُ» أي: حَلَّ في الأرْضِ الْقَواء، مثل «أصحر» أي: دخل في الصحراء.

وهي أيضاً متاع لغير النازلين بالقَواء (= بالقفر) وجاء ذكر «الْمُقْوِيين» لبيان العنايَةِ بهم في حكمة الله عزّ وجلَّ، إذْ تَشْتَدُّ حَاجَتُهُمْ وهم مُسَافِرُون للحصول على حَطَبٍ أو شيءٍ منْ يَابِسِ نباتِ الأرض يُوقِدُونَهُ ناراً، أمَّا الْمُقِيمون في القُرَىٰ فإنَّهُمْ يكونون في العادَةِ مُعِدِّين ما يَلْزَمُهُمْ وَقُوداً للنَّارِ الّتي يَحْتاجُونَها لدِفئهم، وطَهْوِهم، وسائِرِ منافعهم، فذكْرُ العنايَةِ بذَوِي الحاجَاتِ الطَّارِئَةِ، يَدُلُّ على العنايَةِ بذَوِي الحاجاتِ المتكرّرَات دواماً من بابِ أولَىٰ، وهذا من روائِع الْإِيجاز في البيان.

النار في العلوم الطبيعيّة:

تقول مقرَّراتُ العلوم الكونية: إنّ النَّار تَحْدُثُ من الاتّحاد السّريع

للأكسجين مع الموادّ الأخرى، وتختلف أنواع النار باختلاف أنواعِ الموادّ الّتي تتّحدُ مع الأكسجين.

ولتولّد النار ثلاثة شروط:

الشرط الأول: وجود المادّة الّتي يُرادُ إشعالها.

الشرط الثاني: تَسْخِينُ الوقود إلى درجَةِ الحرارة التي يشتعل بها نوعه.

الشرط الثالث: توافر الأكسجين بقدرٍ كافٍ لاشتعال المادة المراد إيقادُها.

والنار مع خطرها العظيم، ذاتُ نفع عظيم، فلا بُدَّ من التعامل معها بغايَةِ الدّقّةِ والْحَذَر من مخاطِرها.

ومن فوائد النار صهْرُها للمعادن، وتعقيمُها، وقد تصهر الحجارة، إذا ارتفعَتْ دَرَجَةُ حَرارَتِها، وهي الشرط اللازم لمعظم الصناعات الثقيلة الكبرَىٰ.

وبالنار يتحجَّرُ الطين فيصير آجُراً، ويَصِيرُ خزفاً، وتصير الحجارة اسمنتاً، إلى منافع كثيرة يَصْعُبُ حصْرُها[1].

وبَعْدَ التنبيه على الظواهر الكونية السّت، الّتي هي إِحْدَىٰ آيات الله في كونه، والتي سبَقَ بعْضُ شرحٍ تفصيليّ عنها، خاطب اللهُ عزّ وجلَّ المتلقِّيَ الذي آمَن بربّه، وخَضَع له مُذْعِناً، بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾: أي: فإذا عَرفْتَ أيُّها المتَلَقِّي أيّا كُنْتَ عظمَةَ ربّك، مِن تأمُّلِك في آياتِهِ في كونه، والّتي منها الظواهر السّتُّ التي نَبَّهْنَاكَ عليها، فَسَبِّحْ باسْمِه قائلاً: سُبْحَانَ رَبِّيَ العظيم.

---

(١) اقرأ قصيدة (النار) في ديوان «آمَنْتُ بالله» للمؤلف.

التسبيح باسم الرَّبّ: تنزيهُ وتقديسُ كلّ اسْم من أسمائه عن كلّ ما لا يليق به، مما يتنافى مع أزليَّتِه، وأبدِيَّتِه، ووَحْدَانِيَّتِه، وكمالِ صِفَاتِه الوجوديّة، والمعنى: سبِّح قارناً تسبيحَك باسْمِ من أسْماء ربّك العظيم، لتجمع بين التنزيه والحمد.

وجاء ذِكْرُ «اسْمِهِ» الشامِلِ لكلّ أسمائه وصفاته الحسْنَىٰ، لأنّ عِلْمَ الْخلائِقِ لاَ يَصِلُ إلى إدْراكِ شيءٍ من ذاتِ الرَّبّ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه، أمَّا أسْمَاؤُه وصِفَاتُهُ فَيُدْرِكُونَ مِنْهَا على مقادير استعداداتِ الإدْراكِ عِنْدهمْ، وَيُطْلِقُون مَدَاها الكماليَّ الَّذِي لا نهايَةَ له، فيؤمِنُونَ بِه، ولَوْ عَجَزُوا عن مُسَايَرَتِهِ في الإدْرَاك.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الثاني من دروس سورة الواقعة، والحمد لله على منّتِه، ومعونته، وتوفيقه، وفتحه.



(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الواقعة) وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٤)

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ

إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

تَمْهيد:

(١) اشتمل هٰذا الدرس على قَسَم بمواقِع النُّجومِ فِي الكَوْنِ الْفَسِيح الذي لا يُدْرَكُ مِنْهُ إلّا النَّزْر الْيَسِير، مع المجاهر المكبّرَةِ والمقرِّبة.

والْمُقْسَمُ علَيْه كَوْنُ الْقُرْآنِ كريماً، أي: مسْتَجْمِعاً فضائلَ الحقّ والخير والشَّرف، والبراءَة من كلّ النقائص، ومستجمعاً لكلِّ صفات الكمال القولي، ذي الدَّلالاتِ على الحقّ، وعلى الخير، وعلى الهداية إلَىٰ الّتي هي أقْوَمُ في كلّ ما يتَعلَّق بالأخْلاقِ أو بالسُّلُوكِ، وعلىٰ كونه مُدَوَّناً في كِتَابٍ مَكْنُونٍ هو اللَّوْح المحفوظ، وهذا الكتاب لا يمسُّهُ إلّا المطَهَّرُونَ، وهم من الملائكة الذين لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أمَرَهم ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرون، وعلَىٰ كونه تنزيلاً من رَبّ العالمين.

(٢) واشتمل على خطاب المعْنِيّين الأَوَّلِينَ بالخطاب في السورة، وهُمُ المكذِّبُونَ بنَبَأ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدّين، وبما سَوْفَ يجري فيه ممَّا أنبَأَ اللهُ عزّ وجلَّ، خالِقُ النُّجومِ وواضِعُها في مواقِعها السَّحِيقة في أبْعَادِ الكَوْن، ومُنْزِلُ القرآنِ المجيد الكريم، فيَضَعُهُمْ في المناظَرَةَ أَمَامَ أربع قضايا:

القضيّة الأولى: تتضمَّنُ توجيهَ التَّثْرِيبِ لهم، بسَبَب عَدَم اعْترافِهِم بأَنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ جلّ جلالُهُ. وَإِذْ لَمْ يَسْتطيعوا أَنْ يُنْكِرُوا عظَمةَ بيانِه البليغ، ولم تُطاوِعْهم نفوسُهم وأهواؤهُم أَنْ يُؤْمِنُوا بأنَّهُ كتابٌ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ اللهِ رَبّ العالمِين، فَقَدْ لَجؤُوا إلى الإدْهَانِ، بأَنْ قالُوا عن القرآن: «سِحْر» وقالُوا: «شِعْر» وقالُوا: «مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ الأوَّلِين» وفي هٰذِهِ العبارات اعترافٌ بتمجيد القرآن مَعَ الإدْهانِ والمصَانَعَةِ، والملايَنَةِ في القول المقرونَةِ بِصَرْفه عن كَوْنِه مُنَزَّلاً من عند الله على رسُولِهِ محمّد ﷺ.

القضيَّةُ الثانية: تتضمَّن تَقْرِيعَهُمْ وتلويمَهُمْ، بسَبَبِ تكذيبِهِمْ بما جاء

في القرآن كلام اللهِ من أنباءٍ عن الْبَعْث ويَوْمِ الدِّين، في مقابل إنْعام اللهِ عليهم بالرّزْق الَّذِي يَحْتاجُونَ إلَيْهِ دَواماً، ولاَ رازِقَ في الوجود غيرُهُ، مع أنَّ وَاجِبَ شُكْرِ اللهِ يَفْرِضُ عليهم أن يُصَدِّقُوا بما جاء في كتابِهِ المعْجِز من أنباء البعث، ويَوْم الدّين، وما يجري فيه من أحداث.

القضيّة الثالثة: تتضمَّن وَضعهم أمام ثلاثَة احتمالات، اثنان منها احتمالاَنِ مقبولان عقلاً، والاحتمال الثالث مَرْفوضٌ عقلاً:

الاحتمال الأوَّلُ (المقبول عقلاً):

أَنْ تكون الحياة غير مستَتْبِعَةٍ إدَانَةً ولاَ جزاءً، وهذه الحياة تَسْتَدْعي من حِكْمَةِ الرَّبّ الحكيم أنْ لاَ يمْنَح من يُحْيِيهِ إرادةً حُرَّةً، وإدْراكاً واعياً للخير والشرّ ومجالاَتهما، وتَمْكِيناً من فِعْلِ الخير والشرّ وهو يَعْلَم، لكن الواقع خلاف ذلك.

الاحتمال الثاني (المقبول عقلاً):

أنْ يهَبَ لمَنْ يمنَحُهُ الحياة إرادةً حُرَّة، وإدْراكاً واعِياً للخير وللشرّ، وتَمْكِيناً من فِعْلِ الخير والشرّ، وهذا النوع من الحياة يَسْتَدْعِي من حكْمَةِ الرَّبّ الحكيم، ليكون خَلْقُه بَرِيئاً من العبث والظلم، أن يَجْعَلَها حياةَ امتحانٍ واختبار، وأَنْ يُتْبِعَها بالحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

ومن تمام الحكمة في منْحِ هذا النَّوْع من الحياة، أنْ يجعل الخالِقُ فاصلاً زَمَنِيًّا بَيْنَ زَمَنِها وبَيْنَ زَمَنِ الحساب والجزاء، وأفضل فاصِلٍ بيْنَهُما هو الموت، ليَجْمَعَ الخَالِقُ بَعْدَهُ كُلَّ الذين وُضِعُوا موضع الامتحان، في صعيد واحد، ويُحَاسِبهم، ثم يجازِيَهم، وهذا يَسْتَدْعي إحياءَهُمْ مَرَّةً أخرى، وهذا هو الذي تمّ اختياره للإنس والجنّ.

الاحتمال الثالث (احتمالٌ غير مقبول عقلاً):

وهذا الاحتمال هو مَا يَرُومُه جاحِدُو يوْمِ الدّين، وهو أَنْ تكون لهم

حياة فيها إرادةٌ حُرَّةٌ، وإدْراكٌ واعٍ للخير والشرّ، وتمِكينٌ لهم من فِعْلِ الخير والشرّ، ويتمنَّوْن مع ذلِكَ دَوامَها، وعَدَم انقطاعها بالموت الفاصل بَيْنَ الحياة الأولى والحياة الأخرى.

والرّاغبون في تحقّق هذا الاحتمال المرفوض عقلاً هم الّذِين يَقُول الله عزّ وجلّ لهم:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فَهَلَّا إنْ كُنْتُمْ ـ كما تَزْعُمونَ ـ سَوْفَ لاَ تُحَاسَبُونَ وَلاَ تُجازَوْن على أعْمالِكُمْ لأن وجودكم ظاهرة طبيعية، تَرْجِعُونَ بكلّ وسائِلكُمُ الحياة إلى أجْسادِكم مستفيدين من الظواهر الطبيعيَّة السببيَّة، وذلك عند مفارقتها لها، أو عقب مفارقتها لها، في حالة أنّه لم يخْتَلَّ في أجسادكم شيء، بل انتهَتْ بقضائِنَا رِحْلَةُ امتحانِكُمْ، وجاء وقت نَزْع رُوح الحياة منها، بانتظار إعادة الحياة إليكم للحِسَابِ، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ولكن لَنْ تَسْتطِيعوا، وبهذا يَثْبُتُ ما أنبأناكُمْ بِهِ، من أَنَّكُمْ مَدِينُون حتماً.

القضية الرابعة: تتضمَّنُ تَأكيد قضيَّةِ الجزاء يوم الدّين، ببيانٍ فيه إضافة بعض تفصيل، لثواب المقرّبين، وثواب أصحاب اليمين، وعقاب المكذّبين الضّالينَ.

التدبّر التحليليّ:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

سبق لدىٰ تدبر أول سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان ما ظهر لي من المراد بالقسم المنفيّ في القرآن المجيد، بعد أَنْ ذكرتُ آراء المفسرين بشأنه، فقيل: «لا» زائدة. وقيل: «لاَ» تنفي كلاماً مطويًّا. وقيل غير ذلك.

وأقول:

«إنَّ عبارة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ونظائرها أسلوبٌ بيانيٌّ قرآنِيٌّ مُبْتَكَرٌ، للدَّلالَةِ علىٰ أنّ الموضوع مع حال المخاطب يقْتَضِي اقتضاءَيْنِ متعارضَيْن:

(١) أحَدُهُما يسْتَدعي الْبَيَانُ فيهِ الْقَسَمَ المؤكّدَ للْخَبَر الذي يُؤْتَىٰ بالقسَم لتأكيده.

(٢) والآخَرُ يَسْتَدْعِي الْبَيانُ فِيه عَدَمَ الْقَسَم.

فكان الحلُّ المبتكَرُ في أساليب البيان القرآنيَّة اختيار أُسْلُوب ذِكْرِ لفظ الْقَسَم والمقْسَمِ به تنبِيهاً علَيْه، مع سَبْقه بأداة النفي «لاَ».

فالجانبُ الذي اقْتضَىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حالُهُ بِذِكْر الْقَسَمِ والمقْسَم به، تنْبِيهاً علىٰ ما في الْمقْسَم بِهِ مِنْ تَأْكيدٍ أو حُجَّةٍ هاديَةٍ إلىٰ أَنَّ الموضوع الَّذِي يُرَادُ تَأْكِيدُهُ حَقٌّ وصِدْق.

والجانبُ الّذِي اقْتَضىٰ عدَمَ حُصُولِ الفائدة المرجُوَّةِ من الْقَسَم، رُوعِيَ حَالُهُ بِنَفْيِ الْقَسَمِ بأداة النَّفي «لاَ».

فقولُ الله عزّ وجلَّ: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ مع مُلاحظة أنّ الموضُوع المرادَ تأْكِيدُهُ كَوْنُ القرآنِ كريماً ومُنَزَّلاً من رَبِّ الْعَالَمِين، يكشفان الاقتضاءَيْنِ المتعارِضَيْن:

فالمخاطَبُونَ يَجْحَدُونَ كوْنَ القرآن مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ العالمين، خالِقِ السَّمَاوَاتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما.

ومواقِعُ النُّجُومِ فِي السَّمَاواتِ من آيات اللهِ العظيمات، وهيَ أهْلٌ لِأَنْ يُقْسِمَ اللهُ بها.

لكِنَّ المعنيِّينَ الأولينَ بالخطاب لم تَصِلْ بَعْدُ مَدارِكهُمُ الْعِلْميَّةُ إلى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ مَواقِعِ النجوم، حتَّىٰ يكونَ الْقَسَمُ بها يُفِيد بالنسبَةِ إلَيْهِم تَوْكيداً.

بَيْد أَنَّهُ سَيَأْتِي في الْقُرُونِ اللاّحِقَةِ لِزَمَنِ التَّنْزِيلِ، باحِثُونَ عِلْميُّون يكتَشِفُونَ عظَمَةَ مَواقِعِ النجوم من آيات اللهِ في كَوْنِه، وهؤلاء يُلاَئِم حالَهُمْ أنْ يُقْسِمَ اللهُ لَهُمْ بمواقِعِ النجوم، علَىٰ أنّ القرآن تَنْزِيلٌ من لَدُنْه، وأنَّ كلَّ ما جاء فيه من أنباءِ حقٍّ وصِدْق، ولا سيما أنباء الجزاء، ويَوْمِ الدين، وما سَوْف يَجْرِي فيه من أحداث.

وإذِ اجْتَمَعَ الاقتضاءَان المتعارضان، كان الحلُّ المناسِبُ مع الحرص على الإيجاز في التعبير، ذِكْرَ الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِ كلِّ ذَلِكَ بأداة النفي «لاَ».

فالَّذِينَ لاَ يُؤَثِّرُ فيهم الْقَسَمُ، وَلاَ يَقَعُ في نفوسهم مَوْقِعَ المؤكِّدِ يُخَاطَبُونَ بالنفي.

والَّذِينَ يُؤَثِّرُ فيهم هَـٰذَا النوعُ مِنَ الْقَسم يَجِدُونَ في ذِكْرِهِ مَنْفِيًّا تَنْبِيهاً لَهُمْ علىٰ عظَمَةِ الْمُقْسَم به، ويُدْرِكُونَ أَنَّ الْمَقْصُودِين بِنَفْي الْقَسَمِ الجاهِلُون بعَظَمَةِ مَوَاقِعِ النجوم، الَّذِينَ لاَ يتأَثَّرُونَ بالتَّوْكِيد به.

وهذا الحلُّ الموجَزُ الْبَدِيعُ، قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْقَسَمِ لمَنْ يُؤَثِّرُ فيه، وعَدَمِ الْقَسَمِ بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ لاَ يُؤَثِّر فيه.

ونمثّل لهذا الأسلوب ـ وللهِ الْمَثَلُ الأعْلَىٰ ـ بقول المحبّ لمحْبُوبِهِ الْهَاجِرِ له: أنَا لاَ أَحْلِفُ لَكَ بأنَّنِي أُحِبُّك كثيراً، ومُشْتَاقٌ إلىٰ لُقْياكَ، وأسْهَرُ اللّيالِيَ الطِّوَالَ أنْظِمُ فِي التعبير عن حُبِّي وشَوْقي روائعَ القصائد، لِأَنَّكَ غَيْرُ عَابِىءٍ بكُلِّ ما أَجِدُ نَحْوَكَ.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾: جاءت الفاء تفريعاً على ما جاءَ في الدَّرْسين: (الأول والثاني) من دُروس السُّورَة، ومَا تضمَّنَاهُ من بيانٍ قُرْآنِيٍّ عن الجزاءِ الرَّبَّانِيّ، وعَنْ يَوْم الدِّين، ضِمْنَ خُطَّةِ التكوين الّتي قَدَّرَهَا اللهُ عزّ وجلَّ وقَضَاها، وأبَانَ لَنَا مِنْها في القرآنِ الكريم لَقَطَاتٍ ذَواتَ شأنٍ.

والْقَسَم أسْلُوبٌ عَرَبيٌّ مِن أسَالِيبِ تَوكيد الخبر، ويكُونُ المقْسَمُ بِهِ عَادَةً شيئاً عظيماً، ومن سُنَّة الله عزّ وجلَّ في كتابِهِ أن يُقْسِمَ برُبُوبيَّتِهِ، أو بغيرها من أسمائه وصفاته، أو بِبَعْضِ آياته العظيمات في كونه.

وفي القراءة الأخرى: [بِمَوْقِعِ النُّجُومِ] على إفراد «مَوْقِع» ومؤدّى القراءتين واحد، لأنّ إضافة المفرد إلى الجمع يجعل المفرد بقوة الجمع.

النجوم: هي الأجرام المضيئة في السماوات، وشَمْسُنا نَجْمٌ لَيْسَ كبيراً بالنِّسْبَةِ إلىٰ عمالقة النجوم.

مَوَاقِعُ النجوم: **مواقِع**: جمع: «مَوْقِع» وهو مكان وقوعِ شيءٍ ما، ومَواقِعُ القَطْر: مَسَاقِطُه.

ولا نَعْرِف بِصُورَةٍ تقريبيَّةٍ مواقع النجوم، حتَّىٰ نُدْرِك عَجْزَنَا عَنْ تَصَوُّرِ الأبعاد السَّحِيقَةِ في السّماوات التي فيها نجومٌ هي من خَلْقِ اللهِ عزّ وجلَّ، وخاضِعَةٌ لَهُ جلَّ جلالُهُ، ومُسَيَّرَةٌ ومُسخَّرَةٌ بأمْرِه، وحتَّىٰ نُدْرِكَ أَنَّ الكَوْنَ فِي اتِّسَاعٍ مُسْتَمِرّ.

يقول علماء الفلك[١]:

(١) إنَّه يُوجَدُ ما يزيد على (٢٠٠) بليون بليون من النجوم.

(٢) الشمس ليسَتْ إلَّا نجماً مُتوسِّط الحجم، وقُطْرُها أكْبَرُ من قُطْر الأرض بمقدار «١٠٩» مرَّة.

(٣) بعْضُ النجوم العملاقة قُطْرُهُ أكبَرُ من قُطْرِ الشمس بمقدار ألف مَرَّة، وهي لبُعْدها السّحِيق في أبْعادِ الكون تَظْهَرْ لأعيننا في الأرض مثل نقطة من ضوءٍ بمقدار الْعَدَسَة.

---

(١) اقتباساً من «الموسوعة العربيّة العالمية».

(٤) أقرب نجم إلينا غير الشمس يَبْعُدُ عن الأرض بمقدار أربعين مليون مليون كيلومتر.

(٥) النجوم الّتي نراها في اللّيْل خليط من نجومٍ قريبةٍ مُعْتِمَةٍ، ونجومٍ بَعِيدَةٍ مضيئةٍ جدًّا.

(٦) النجوم في السماوات لها حركات في مداراتٍ لها.

(٧) النجومُ في السماوات تَتَجمَّعُ في وحداتٍ، وكُلُّ تجمُّعٍ مِنْهَا خاضع لنظامٍ واحد، يُدْعَىٰ «مَجَرَّة».

وفي السَّمَاوات ما يَزِيدُ على «بَلْيُون» مجرَّة.

وفي مجرّتنا الّتي فيها أرْضُنَا وشمسُنَا والكواكب التسعة التابعة لها، والّتي تُدْعَىٰ «دَرْب اللّبَّانَة» ما يزيد على مئة بليون نجم. وقُطْرُ مجرّتنا هذه يُقَدَّرُ بمئة ألْفِ سَنَة ضَوْئيّة، علماً بأنَّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومتر.

إلى غير ذلك من عجائب لم يَصِلْ علماء الكونيَّات حتَّىٰ عصرنا الحاضر، إلَّا إلى معرفة القَلِيلِ الْيَسِيرِ منْها، بالنسبة إلى سائرها.

من هذه الفِقَراتِ التي الْتَقَطْتها من بحوث مستفيضة عن النجوم نُدْرِكُ أنَّ المراد بمواقع النجوم أمْران:

الأمر الأول: مواقع بُعْدِها السَّحِيق في السماوات، وإدْراكُ هذا يفوقُ قُدْرات التصوّر البشري.

الأمر الثاني: المواقع الّتي يَسْقُط فيها كلُّ نجْم ضِمَنَ حَرَكته المنتظمة في مداره من مجرّته التي هو فيها، والّتي لا يَخْرِمُ فيها كُلُّ نجم مَوْقِعَهُ المحدَّدَ لَهُ، على ما قَدَّر اللهُ له وقضىٰ. فبالنظر، إلىٰ سُرْعَةِ حركة النجوم يعتبر كلُّ موقع يَصِلُ إليه مَسْقطاً من مساقطه.

إنَّهُ من المذْهِشِ والمذْهِلِ حقًّا، مَواقعُ النجوم بالنسبة إلى مَنْ يُتَابعُ قِسماً منها بالمجاهر والمكبِّراتِ.

ولهذا قال الله عزّ وجلَّ في الآية التالية:

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنَّ الْقَسَمَ بمواقِعِ النجومِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ جدًّا، دالٌّ على عظمة الخالق الرَّب جلّ جلالُهُ، الَّذِي أعْظَمَ وأتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً كبيراً أم صغيراً.

ولو أنَّكُمْ تَعْلَمُون أيَّها المعنيّونَ بالخطاب عظَمَةَ مواقع النجوم، لأدْرَكْتُمْ عظمةَ القَسَم بها، وعظَمةَ صِفَاتِ خالِقِها، وهذا يهديكم إلى الإيمان به وبكتابه القرآن الكريم، وبما جاء فيه من أنباء، ولا سيما منها أنباءُ يوم الدّين وما يجري فيه.

وهذه الجملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ جملة معترضَةٌ بَيْنَ المقْسَمِ بِهِ والمقْسَمِ عليه. وعبارة ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ معترضةٌ أيضاً بَيْنَ جُزْأي الجملة المعترضة، فهو اعتراضٌ في مُعترِضة.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يَعودُ على القَسَمِ الَّذِي يَدُلُّ عليه: «أُقْسِمُ».

قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

• ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾: الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لاَ يحتاج عائداً يعُودُ عليه، لِأَنَّهُ مبيَّنٌ بالجزْءِ الثاني من الجملة، وهو ﴿لَقُرْءَانٌ﴾ فهو هنا كضمير الشأن في عدم حاجته إلى عائدٍ سابق يعودُ إليه.

واللَّام في «لَقُرآنٌ» هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر، ويُجاء بها للتوكيد. ولفظ «القرآن» هو في الأصل مصْدَرٌ لِفِعْلِ «قرأ» يقالُ لُغَةً: «قَرَأَ

الكِتَابَ، يَقْرَؤُه، قِرَاءَةً، وَقُرْآناً» أي: تتبَّع كلماتِهِ نظراً، ونَطَقَ بها. وأُطْلِقَ في الاصطلاح الدينيّ على الكتاب المنزّل مِنْ لَدُنَ رَبّ العالمين، على محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعون.

﴿كَرِيمٌ﴾: أي: بالِغٌ غايَةَ الشَّرَف، وجامع كلَّ صِفات المجد والكمال البياني، ومُبَرّأٌ من كلّ النقائص، إذْ فيه بَيَانُ الحقّ والخيْر ومكارم الأخلاق ومحاسِنَ السُّلُوك، وهو يهدي للَّتِي هي أقوم.

• ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾: أي: مكتُوبٌ أَصْلُهُ في كتابٍ مَسْتُورٍ مَصُونٍ، وهو اللّوح المحفوظ[١]، والله هو العليم بالكتابة التي تكونُ في اللّوح المحفوظ.

«**المكنون**»: هو المستور المخفيُّ المبْعَدُ عن الوصُول إليه. «**الكِنّ**»: هو المكان المحفوظ المحجوب ببناء أو بغيره، ولهذا وصَفَ الله عزّ وجلَّ اللّوح المحفوظَ بأنَّهُ مَكنون، وبأنَّه لا يَمَسُّهُ إلَّا المطَهَّرُون، وهم من الملائكة.

• ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾: «**المسُّ**»: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ على وُصُول سَطْحِ الشيءِ إلى سَطْح الشيء الآخر، دون الدُّخول إلَىٰ شيءٍ موجودٍ تَحْتَ السطح. يقال لغة: «مَسَّ الشيءَ يَمَسُّهُ مَسًّا» أي: لَمَسه.

«**المطهَّرُونَ**»: هم من المخلوقات الحيَّةِ ذواتِ الْعِلْم الملائِكَةُ، لأنَّ الله عزّ وجلّ بالتكْوِينِ الذي فطَرَهُمْ عليه قَدْ جَعَلَهُمْ مُطَهَّرِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ فِكْرِيّ، واعتقاديّ، ونَفْسِيّ، وسُلُوكي، فهم لاَ يَعْصُونَ اللهَ عزّ وجلَّ في جهاز المعرفة لديهم، ولا في اعتقادَاتِهم القلبيّة، ولا في حرَكات نفوسهم، ولا في شيءٍ من سلوكهم الظاهر والباطن، وهُمْ مطيعون بالفطرة، يفْعَلُونَ مَا يأمُرُهم الله به.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول)، «اللّوحُ المحفوظ في القرآن وبعض السُّنَّة».

فالملائكة أو قِسْمٌ منهم هم المأذونون بأن يَصِلُوا إلىٰ اللَّوْحِ المحفُوظ ويمَسُّوه، ويَقْرؤوا مِنْهُ ما أَذِنَ الله لهم بأن يَقْرَؤوه فيه، أو يَسْتَنْسِخُوه منه.

ولم يَمَسَّ ولَنْ يَمَسَّ اللَّوْحَ المحْفُوظَ غَيْرُ الْمُطَهَّرِين، أما الجنُّ فلا يمسُّونه، لأنَّهُمْ مُعَرَّضُونَ للمعَاصِي والمخَالَفَاتِ حتَّىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ، وهذه أرْجاسٌ تَجْعَلُهُمْ مَمْنُوعِينَ بالْقَهْرِ الرَّبَّانِيِّ من الوصُولِ إلى اللَّوْح المحفوظ، وكذلك الإنس مهما اتخذوا مِنْ وسَائلَ.

• ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: إنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، تَنْزِيلٌ من رَبِّ الْعَالَمِين، فلَفْظ «تنزيلٌ» صفَةٌ أخرى للفظ «قرآن» ويجوز نحويًّا أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو تَنْزيل.

«التنزيلُ والإنزالُ»: يرادُ بهما في الاستعمالات القرآنيَّةِ إيصالُ الأشياء من مَقام رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ إلى خَلْقِهِ، لأنَّ الله عزّ وجلَّ هو الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ، وكلّ الكائنات دونَهُ مَنْزِلَةً ومكانَةً، ولو كان هو جل جلاله أقْرَبَ إلى عباده من حِبَالِ أوْرِدَتهم، ولا يلْزَمُ من التعبيرِ بالإنْزَالِ أو بالتنزيلِ إهباطُ الشيءِ من مَكانٍ عَالٍ إلى مكانٍ منخفض، بل كثيراً ما يكون المرادُ الدّلاَلَة على علُوّ المقام الرَّفيع للمنزِّلِ الخالق، أو الواهب، أو المتفضل بعطاءاته.

﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: من المتصرّف بصفات رُبوبيَّته بكلّ العالمين، والمرادُ بالْعَالمين هُنَا كُلُّ مَا سِوَىٰ الله عزّ وجلَّ في الأكْوان، إذ هو جلّ جلالُهُ رَبُّ كلِّ شيء.

قول الله عزّ وجلَّ خِطَاباً للكافرين بالرَّسُول وبالقرآن وبيوم الدين، وفي الصَّفِّ الأول منهم مُشْرِكو مكّة وما حولها إبَّانَ التنزيل وهم المعنيّون الأوّلون في السورة:

• ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾؟.

هَاتان آيتان مَدَنيَّتَان اقتضت الحكمة الحركيّة تأخيرَ إنزالهما إلى ما بَعْدَ هِجْرَة الرَّسُول ﷺ إلى المدينة، لئلا يكونَ في بَيَان مُداهنة أئمَّة المشركين بذكر القرآن بما يشعرُ بإعظامِهِم لبلاغته الساحرة الاسرة، ما يَدْفَعُهُمْ إلى توجِيه الشتائم له ولأساليبه البيانية ظلماً وعُدْواناً.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾:

هذا الحديث: هو القُرآن الكريم، والاستفهام في العبارة هنا يراد به التَّثْريبُ، والتلويم، إلى حدّ التوبيخ، والْفَاءُ حرف عطف على جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ وفيها معنىٰ التفْريع، أي: أَفَصَحَّ في أَذْهانِكُمْ أَنْ تُدْهِنُوا بالقرآن الكريم، ذي المجْد العظيم، والذي هو تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين، فتُعْطُوهُ من ألسنتكم إدْهاناً دون أن تُؤْمِنُوا بأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّكم؟!.

«بِهـٰذَا الْحَدِيثِ» معمولٌ لاسم الفاعل ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ قُدّم عَلَيْهِ لغرض التخصيص، أي: أتخصُّون هذا القرآن الكريم بإدْهانكُمْ مع عَدَم تَصْدِيقكم بأنّه مُنَزَّلٌ من عنْدِ رَبّكم؟! إنَّ هذا مِنْكم لجحُودٌ عظيم.

﴿مُّدْهِنُونَ﴾: اسم فاعل من «أدْهَنَ يُدْهِنُ»: أيْ: لاَيَن في الْقَوْل، مخادَعَةً، ومُراءاةً، بُغْيَةَ التهَرُّبِ من الاعتراف بالحقّ.

والمعنى: تُعْطُون القرآن أوْصافاً فيها اعترافٌ بعظمته وتَفَوُّقِه، على سبيل المداهنة، ولكن فيها صَرْفٌ عن الاعتراف بِكوْنِه منزّلاً من عند الله رَب العالمين، وعن كونه معجزاً يقتضي إعجازُه الإيمانَ بكونه مُنَزَّلاً من عند الله العزيز الحكيم الحميد.

ومن إدْهَانهم قولهم عن القرآن: «إنَّهُ سِحْر» أي: إنَّ تَفوُّقَهُ بسبب كونه سحراً. وقولهم عنه «هُو شِعْرٌ» أي: هو لَوْنٌ من ألوان الشعر غير المألوف، الذي يُمْكِن أنْ يأتي بنظيره فحولُ الشعراء. وقولهم عنه: «هُوَ مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكتاب» أي: إنّ تَفَوُّقَهُ بسَبَب كونه مَنْقُولاً عن كُتُبِ الرُّسُلِ السابقين.

وهذا من أئمة مشركي مكّة إبَّان التنزيل اعترافٌ منهم بعظمة القرآن وتَفَوُّقِه الْبَيانيّ، إلّا أنَّه إدْهانٌ منهم ومصانعةٌ ومخادَعَة، إذْ لم يَسْتَطِيعُوا أن يقولوا بشأنِهِ كلاماً فيه طَعْنٌ أو تجريحٌ أو نَقْدٌ بعَيْبٍ، نظراً إلى أنَّ جماهيرهم لا تقْبَلُ ذَلِكَ منهم.

وغرضهم من الأوصاف الّتي أطْلَقُوها، صَرْفُ جماهيرهم التابعين لهم، عن الإيمان بكون القرآن تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العالمين، فمن لوازم هذه الإيمان الإيمنُ بأنّ محمّد بن عبد الله نبيُّهُ ورسُولُه، واتّباعُ الدّين الذي جاء به.

• ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: وتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ إنْعَام اللهِ عليكم بالرِّزْقِ الّذي به استمرارُ حَيَواتِكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بكِتابِ رَبِّكم المعجز، وبما جاء فيه مِنْ أنباء يوم الدين، وتكذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ الّذي يُبَلِّغُكُمْ عَنْه مَا يُوحي به إليه، وقَدْ كان الواجبُ عليكم أنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُمْ الرازقَ لَكُمْ بالتَّصْدِيقِ والإيمان والاتّباعِ، والطَّاعَةِ بالعملِ بما يأمُرُكم به، وباجتناب مَا يَنْهاكُمْ عنه.

ففي هٰذه الآيَةِ محذوفاتٌ يمكن استخراجها بالتأمُّل: أي: وتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ رِزْق اللهِ لكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بكتابه ورسوله، بدَلَ أن تَشْكُرُوه بالإيمان وبالعمل بما يُرْضيه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

﴿فَلَوْلَآ﴾ في الموضِعَيْنِ بمعنى: «فَهَلَّا» للحضّ.

﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾: أي: إذا بَلَغَتِ الرُّوحُ الحلْقُوم عِنْدَ نَزْعها من

الحيّ لإماتَتِه. حُذفَت «الرُّوحُ» هنا وهي فاعلٌ لسُهُولَةِ إدْراكه محذوفاً، من القرائن. والعامل في «إذا» الظرفية هنا فعل: [**تَرْجِعُونَها**].

الْحُلْقُوم: تجويفٌ خلف تجْويف الفم، وفيه ستُّ فتحات، فُتْحة الفم الخلفيّة، وفتحتا المنخزين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحَنْجَرَة، وهي مجْرَىٰ الطعام والشراب والنفس، ويجمع على حَلاقِم وحَلاقِيم.

﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: «**مَدِينِينَ**» جمْعُ «مَدِينٍ» اسم فاعل من فعل: «دَانَه، يَدِينُهُ» أي: حاسَبَهُ وجَازاه، وهذا المعنى أكثر معاني هذا الفعل ملاءمَةً لهذا النّصّ، لأنَّ المعنّيين بالبيان هم الّذِين جَحَدُوا يوْمَ الدِّين، وهو يوم الحساب والجزاء بَعْدَ البعث إلى الحياة الأخرى.

فالسورة بدأتْ بالحديث عن يوم القيامة، وتابَعَتِ الحديث عن أحداثٍ تجري يوْمَ الدّين للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وعرضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ آياتِ رُبُوبيَّة اللهِ في كَوْنه، لبيان قُدْرتِهِ على بَعْثِ الأموات إلىٰ الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، لمحاسبتهم، وفَصْل القضاء بينهم، ومجازاتهم على ما قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امتحانهم، وأنَّهُ هو الّذِي قَدَّرَ بَيْنَ الأحْيَاءِ الموْتَ، فَمَا أَحَدٌ بقادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَمْنَعَ نُزُولَ الموْتِ بالحيِّ إذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وعَرَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ القرآن كلامُ اللهِ، أنْزَلَهُ علىٰ رسُوله مُحَمَّدٍ، أي: فَمَا جَاءَ فيه من بيانات عن يوم الحساب والجزاءِ حَقٌّ لاَ شَكَّ فيه، وعَلىٰ كلّ مَنْ تَلَقَّاهُ من الموضعين في الحياة الدُّنيا موضِعَ الامتحان أنْ يُؤمن به.

فإصْرارُ الكافِرين علىٰ إنْكار نَبإِ يَوْمِ الدّين مُكَابَرَةٌ وعِنَادٌ بالْبَاطل، فالحكمة تَقْتَضِي تَحدِّيَهُمْ بِأَنْ يَمْنَعُوا نُزُولَ الموْتِ بأحَبِّ الناسِ إلَيْهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِ، وبُلُوغ رُوحِهِ إلَىٰ حُلْقُومِه، والَّذِي قَدَّرَهُ الرَّبُّ بيْنَ عباده، ليكون فاصلاً بيْنَ حياةِ الابْتِلاَءِ وحَيَاةِ الجزاء.

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ من فعل: «رَجَعَهُ، يَرْجِعُهُ، رَجْعاً، ومَرْجِعاً، وَمَرْجِعَةً، ورَجُوعاً، ورُجعاناً» بمعنى أَرْجَعَهُ إِلَىٰ مَا كان عليه، وهٰذِهِ «أَرْجَعُهُ» لغة هُذَيْل من قبائل العرب.

والمعنى: إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين في زعْمِكُمْ أَنْ الرَّبَّ لَمْ يُقَدِّر بَيْنَكُمُ الموْتَ في هٰذِهِ الحياة، ليَبْعَثَكُمْ إِلَىٰ الْحَيَاة مَرَّةً أُخرَىٰ للحساب، وفَصْل القضاء وتَنْفِيذِ الجزاء، وقُلْتُمْ: مَا يُهْلِكُنا إلَّا الدَّهْر، فاتَّخِذُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعون من وسائلَ لإرجاعِ الرُّوحِ إلى الجسَدِ عنْد نَزْعِها وبُلُوغِها الحلْقومَ، ومَيِّتُكُمُ الّذي تحِبُّونَهُ سَلِيمُ كُلِّ الأعْضاءِ الظاهرةِ والباطِنَة، ولَيْسَ فِيهِ من عِلَّة تَقْتَضِي الموْتَ، غيْرَ انْتِهاءِ أجَلِ حياتِه الّتي قَدَّرْنَاهَا لَهُ، ولْيَجْتَمِعِ كُلُّ أطِبَّاءِ الدُّنيا ليَرُدُّوا لَهُ حياتَهُ، ولَنْ يَسْتَطِيعوا، فَمَا قضاه اللهُ لاَ رَادَّ له.

هذه الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) مُتَمِّمات لما جاء في الآيات من (٦٠ ـ ٦٢): ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

الموتُ والحياةُ ظاهرتان من ظواهر الخلْق الرَّبَّاني:

لدىٰ التأمُّل التفكريّ العميق نكْتَشفُ أَنَّ الحياة والموتَ ظاهرتانِ متَمَاثِلَتانِ في عَمَلِيَّاتِ الخلْق الرَّبَّانيّ.

(١) فالحياة تكون بنَفْخِ الرُّوحِ الّذي يُخْلَقُ بأمْرِ الله التكوينيّ، وهو سِرٌّ من أسْرَار اللهِ في الوجود، وبإدْخَالِهِ في الْجَسد الذي لم تَكُنْ فيه حياة، فَيَصيرُ حيًّا.

وقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ الَربّ جلّ جلالُهُ، على أَنْ يجْعَلَ للأجْسَادِ الَّتي قضَىٰ بأنْ تكونَ ذواتَ حيَاةٍ، نِظاماً تَركيبيًّا ذا بناء من خلايا وأعضاء ومؤهَّلاً لأن تظهر فيه حركاتٌ تَدُلُّ على حَياته، وهذا النِّظَامُ التركيبيُّ

العجيب في غاية الإتقان والترابط، لِيكون دالاً علىٰ طائفة جليلة من صِفاتِ خالقِهِ ومُتْقِنِ صُنْعِه.

على أنّ هذا البناء التركيبيَّ، ليْسَ بِشَرْطٍ عَقْلِيٍّ لظهور الحياة في جسَدٍ مَا، إذا نفخ اللهُ عزّ وجلَّ فيه رُوح الحياة، فلَوْ نَفَخَ اللهُ رُوحَ الحياة في حَجَرٍ صَلْدٍ مُتمَاثِلِ الذّرَاتِ، لَظَهَرَتْ فيه الحياة، علَىٰ مُراد اللهِ الخالق الرَّبِّ فيه.

(٢) والمْوتُ يكونُ بنَزْعِ الرُّوحِ من الْجَسَدِ الحيّ، وبِنَزْعِهَا يكُونُ الجسَدُ مَيِّتاً لاَ حَيَاةَ فيه.

فإدْخالُ الرُّوح في الجسَدِ، وإخراجُها من الْجَسَدِ أمْرَانِ مُتماثِلاَنِ، وكِلاَهُمَا مِنْ خَلْقِ اللهِ وأفعالِه في كَوْنِهِ، فالإحْياءُ بمثابَةِ إدْخالِ بَطّاريَّةٍ كهربائيّة في مَوْضِعِ تَوْصِيلِ طَاقَتِها، من آلَةٍ تَعْمَلُ بالطاقَةِ الكَهْرُبائية المحفوظة بالبطَّارِيَّة، وهيَ سَلِيمة الأجهزة في بنائها التركيبيّ. والإماتَةُ بمثابَةِ نَزْعِ هٰذِهِ الْبَطّاريّة من الآلَة.

فما الدَّاعي لإنْكارِ كَوْنِ اللهِ عزّ وجلَّ قدّرَ بيْنَ عباده الموتَ، تقديراً مبنيًّا عَلَىٰ أَنْ يُنْشِئَهُمُ النَّشْأَةَ الأخْرَىٰ في أحْوالٍ وأسْبَابٍ لا يَعْلَمُونها.

فَمَنْ زعَمَ خِلافَ هٰذَا، فَلْيَرُدَّ الرُّوحَ إلى جِسْمٍ سَلِيمٍ كُلِّ الْأَجْهِزَةِ فيه، إذا قَضَىٰ اللهُ مَوْتَهُ، وبَلَغَتْ رُوحُهُ إلَىٰ حُلْقُومِهِ.

نفهم هذا من قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ ومن لوازمه:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

جاء في هذا النصّ تكرير عبارة: ﴿فَلَوْلَآ﴾ بمعنَىٰ «فهَلّا» الدَّالّة على

التحْضِيض، لإفادَةِ أنَّ التَّحدِّيَ بإرْجَاعِ الرُّوح إلى الجسَدِ، بَعْدَ بُلُوغِها في الاحتضار إلى حُلْقُومِهِ، مُوَجَّهٌ ضدَّ زَعْمَيْن من مزاعِم الكافِرين بوجْهٍ عامٍّ، وهم فريقان: فريق لا يُؤمنونَ بالله الرَّب خالقاً، وهُم الذين وجَّهَ اللهُ عزّ وجلَّ لَهُمْ قَوْلَه في السورة: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾ وهؤلاء هم الدَّهْرِيُّونَ. وفريقٌ يُؤمِنُونَ باللهِ الرَّبِّ خالقاً لهم، ولكِنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بالْبَعْث وبالْحياة الأخرىٰ وبيَوْم الدين، وهم الذين وجَّهَ الله عزّ وجلَّ لهم قوله في السّورَة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

وَقَدْ تَحَدَّىٰ اللهُ عزّ وجلَّ الفريقَيْنِ كِلَيْهِما بأنْ يُرْجِعُوا الرُّوح إلَىٰ جسدِ مَنْ يُحِبُّونَ، إذا بَلَغَتْ عند احْتِضَارِهِ حُلْقُومَهُ، وهُمْ ينْظُرُونَ حَشْرَجَتَهُ، ويَتَرَقَّبُونَ أنْ يلْفِظَ نَفَسَهُ الأخير، ولاَ يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَفْعَلُوا لَهُ شيئاً لاسترجاعِ رُوحِهِ، أو استِبْقَاءِ حياته، مع كون كلِّ أجْهِزَتِهِ سَلِيمَةً لَمْ يَتَعَرَّضْ شيءٌ منها لِخَلَلٍ لا تبقىٰ الحياة معه بحَسَبِ العَادَة.

وقولُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ دلَّ على قضيَّتَيْن:

القضية الأولىٰ: أنَّ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ، أقْرَبُ إلى المحتَضَرِ المقضيِّ عليه بالْمَوْتِ، مِنْ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ على بقاء حياته، بِعِلْمِهِ، وقُدْرَتِهِ، وهيْمَنَتِهِ بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِه، كما قال اللهُ عزّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾.

«حَبْلُ الْوَرِيد»: يُطْلِقُه الْعَربُ عَلى الْوَتِين» وهو الشِّرْيَان الرئيس الذي يُغَذِّي الْجِسْمَ بالدَّم النقِيّ الخارج من القلْب.

القضية الثانية: أنَّ المكلَّفَ بقَبْضِ رُوحِه ونَزْعِهَا من جَسَدِه مِنَ

الملائكة، أو المكلَّفين منهم بحضور نزع رُوحِهِ، يكونون أقْرَبَ إلَيْهِ من كلِّ مَنْ حَوْلَهُ الذين يحْرِصُون على بقاء حياته، فأجْسَادهم النورانية تكون أقْرَبَ إلى جَسَدِه وأجْهِزَتِهِ الدَّاخليَّةِ من مُحِبِّيه وأطبّائِهِ من الناس.

وعبارة: [نَحنُ أَقْرَب] اسْتُعْمِل فيها ضميرُ المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يتعلَّقُ بِقَهْرِ اللهِ لعباده بالموتِ، وبكلِّ أمْرٍ جَبْرِيّ لَمْ يَجْعَلْ لهم فيه اختياراً، وهي على تقدير: نَحْنُ والمكَلَّفُونَ مِنْ ملائكِتَنا بأمُورِ نزع رُوحِه من جَسَدِه، أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ، ولَكِنْ لا تُبْصِرُونَ ما يُبْصَرُ، ولاَ تُدْرِكُونَ مَا لاَ يُبْصَر.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾:

رَبْطاً بحَدَثِ الموْتِ الفاصل بين حياة الابتلاء وحياة الجزاء، وبكونِ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء مَدِينين (= مُحَاسَبِينَ ومُجازَيْن) في الآخرة، وهو ما جاء في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧).

ورَبطاً بما جاء في أوائل السورة من تقسيم الناس إلى أزْواجٍ (= أصْنَاف) ثلاثة: أصْحاب الميْمَنة (= اليمين) وأصحاب المشأمَة (= الشمال) والسَّابقين، وهم المقرَّبون من رَبّ العالمين.

جاء هذا التفصيلُ في خواتيم السُّورة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء عاطفة. و«أمَّا» حرْفٌ فيه معنَىٰ الشرط والتوكيد دائماً، والتفصيل غالباً، ويَدُلُّ على شَرْطيَّتِها لزوم الفاء الرابطة.

﴿... إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: أي: فأمَّا إنْ كان الميّتُ من صِنْفِ السَّابِقين المقرَّبين، وهو الصِنف الأعْلَىٰ.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وقرأ رُوَيس: ﴿فَرُوحٌ﴾: أي: فمِنْ ثوابِهِ عِنْدَ رَبِّه اسْتِقْبَالُهُ بِرَوْحٍ وَرُوحٍ ورَيْحَانٍ مَوْصُولات بِجَنَّةِ نَعِيمِ يَوْم الدّين. لفظ «رَوْحٌ» مُبْتدأ خبره محذوف، والتقدير فَلَهُ رَوْحٌ.

وجواب الشرط هذا هو جوابُ «أمَّا» الشرطية، والفاء وما بَعْدَهَا سدًّا مَسَدَّ جواب الشرط «إنْ».

«الرَّوحُ»: الراحَةُ، والْفَرَحُ، والرَّحْمَةُ، وطِيبُ الرّائحة، وهٰذِهِ يَجِدُها في البرزخ عَقِبَ الموت، وتَسْتَمِرُّ حتَّىٰ يَدْخل الجنَّةَ يوم الدّين.

الرُّوحُ: هو فيما أرى إمدادُه بما يؤنِسُهُ ويُسْعِدُهُ بعْدَ الموْت، وهو في البرزخ بَيْنَ الحياة الأُولى والحياة الأخرى، ثم بَعْدَ الْبَعْثِ حتى يَدْخُلَ الجنة.

فبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

وَرَيْحَانٌ: جاء في اللّغة أنّ «الرَّيْحَانَ كلُّ نَبْتٍ طيّب الرَّائحة ـ والرَّحْمَةُ ـ والرِّزْق» وجاء عند المفسِّرين أنه الرزق.

وقَدْ ثبت أنَّ الشهداء الذين يُقْتَلُونَ في سبيل اللهِ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يرزقُون وأنَّ أرْواحَهُمْ تَدْخُلُ في حواصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ تُرْزَقُ مِنَ الجنَّة، وتأوي إلى قنادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بالْعَرْش، حتَّىٰ بعْثِهِمْ ودُخولِهم الجنَّة.

فقد يكونُ المقرَّبُون من الَّذين يُرْزَقُون بوسيلةٍ ما بَعْدَ مَوْتهم وقَبْلَ بَعْثِهِمْ، أو أنَّهُمْ يُعَامَلُون معاملة الشهداء لكثرة ما قَدَّمُوا من أعمالٍ صالحة، والله أعلم.

وَجَنَّةُ نَعِيم: هي الجنَّةُ الّتِي يَدْخُلونَها يَوْم الدّين، والّتي أَعَدَّهَا الله للمتقين، ويَدْخُلُ فيهم الأبرارُ والْمُحْسِنُون، لأنَّهم مُتَّقُونَ وزيادةٌ من دَرَجات مَرْتَبَةِ البرّ، أو مِنْ دَرَجَاتِها مع دَرَجاتٍ من مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ

«النعيم»: كلمة اختيرَتْ في القرآن للدَّلاَلَةِ على كلّ ما في الجنَّة يوم الدين من أنواع سعاداتٍ ولذّاتٍ وطيب حياة وعيشٍ رَغدٍ.

• ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾: أي: وأمّا إنْ كانَ الميّت من أصحاب اليمين، ولم يَرْتقِ بصالحات أعماله إلى أنْ يكونَ من السَّابقين، فَمِنْ ثوابِه عَقِبَ مَوْتِهِ، استقبالُهُ بتحيَّةٍ طيّبة تُحيِّيهِ بها مَلائِكَة الرَّحْمَة.

والمعنى الذي أرَاهُ: فيُقَالُ لَهُ: سَلاَمٌ لَكَ، أيْ: أمْنٌ وطُمَأْنِينَةٌ وتَحِيَّةٌ طيّبة، مُوَجَّهَةٌ لكَ، حالَة كَوْنِكَ مِنْ صِنْفِ أصْحَابِ الْيَمين. والمخاطِبُونَ لَهُ بهذا هُمْ مَلائكة الرَّحْمَة.

وقد تَسْتقْبِلُهُ أَرْواحُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ بالتحيَّةِ بالسَّلام، والدُّعاءِ لَهُ بالسَّلام.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن سلام الملائكة على المؤمنين حين يَتَوَفَّوْنَهُمْ:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٢﴾.

• ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾: أي: وَأَمَّا إِنْ كَانَ الميّتُ من المكَذِّبينَ للرَّسُولِ والمُكَذِّبِينَ بالقرآنِ وبِيَوْمِ الدّين، وهم صِنْفُ أَصْحَابِ الشّمالِ، فَلَيْسَ لَهُ من ملائكة الرَّحْمَةِ عند نَزْعِ رُوحِهِ مِنْ جَسَدِه تحيَّةٌ طَيّبَة، بل جاء في القرآن بَيَانُ أنَّ مَلائكة الْعَذَابِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: ذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٥١﴾.

والْمُرَاد بـ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هُنَا المبْتَعِدُونَ عَنِ الحقّ وصِرَاطِ الْهُدَىٰ، بِكَسْبٍ مِنْهُمْ، يَحْمِلُون به وِزْرَ ضَيَاعِهِمْ في متاهَاتِ الباطِلِ والشّرّ.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾: أي: فَضِيَافَتُهُمْ في جهنَّمَ دَارِ عذابَهِمْ، ماءٌ حارٌّ يُقَدَّم لهم ليَشْرَبُوا، وهم شَدِيدُو الظَّمأ، ويجدون أنْفُسَهُمْ مضطرِين أنْ يشْرَبوا منه على الرُّغم من شدّة حرارته.

«النُّزُل»: هو في اللُّغَةِ مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضيْفِهِ من طعام وشرابٍ ونحوها إذَا نَزَل به.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾: يقال لغة: «صَلاهُ تَصْلِيَةً بالنار» أي: أدْخَلَهُ فيها ليَحْتَرِق بِلَهَبها.

والإضافة في هذه العبارة بمعْنَىٰ «في» أي: وَتَصْلِيَةٌ فِي جحيمٍ، أي: واحْتراقٌ بِنَارِ جحيم.

جَحِيم: لفظ يُطلَقُ عَلَىٰ كُلِّ نَارِ عظيمةٍ في مَهْوَاةٍ. و «**الجحيم**» اسْمٌ من أسماء دار العذاب النّارِ يَوْم الدّين.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



(٩)
التدبّر التحليلي للدّرس الرابع الأخير من دُروس سورة (الواقعة) وهو الآيتان (٩٥ و٩٦) آخر السورة

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

جاء هذا البيان ختاماً مُنَاسباً لكلّ مَا جاء في السُّورَةِ من بيانات، ولا سيما ما يتعلّقُ منها بأنباء عن البعث ويوم الدّين.

فالمشار إليه بعبارة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ما جاء في السورة من بيانات بدءاً من قول الله عزّ وجلّ في صَدْرِها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ وحتَّىٰ غاية الآية (٩٤) منها.

﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: أي: لَهُو المستوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّهُ حقٌّ.

«**الحقّ**»: هو الأمر الثابت الذي لاَ شَكَّ فيه.

«**اليقين**»: هو العِلْمُ الذي لاَ شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مراتِبهِ ما اعْتَمد على أدلّة فكريّة صحيحة أوْ خَبرِيّةٍ صادقة. يقال لغة: «اسْتَيْقَنَ فُلانٌ الشيءَ» أي: عَلِمَهُ عِلْماً مؤكّداً لاَ شَكَّ فيه.

وجاءت جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقَة ـ وضمير الفصل».

مراتب اليقين:

دلّت النصوص القرآنيَّة على أنّ اليَقين لَهُ ثلاث مراتب:

المرتبة الدُّنيا: «عِلْمُ الْيَقِين» أي: المسْتَوى من اليقين الذي يُوصَفُ بأنَّهُ علْم لاَ شكَّ فيه، إذْ تكون أدلّتُه فِكْرِيَّة صحيحة، أو خبَرِيّةٌ صادقة. وقد يطلق على هذه المرتبة لفظ «اليقين» فقط، دون إضافة لفظ «علم» إليه.

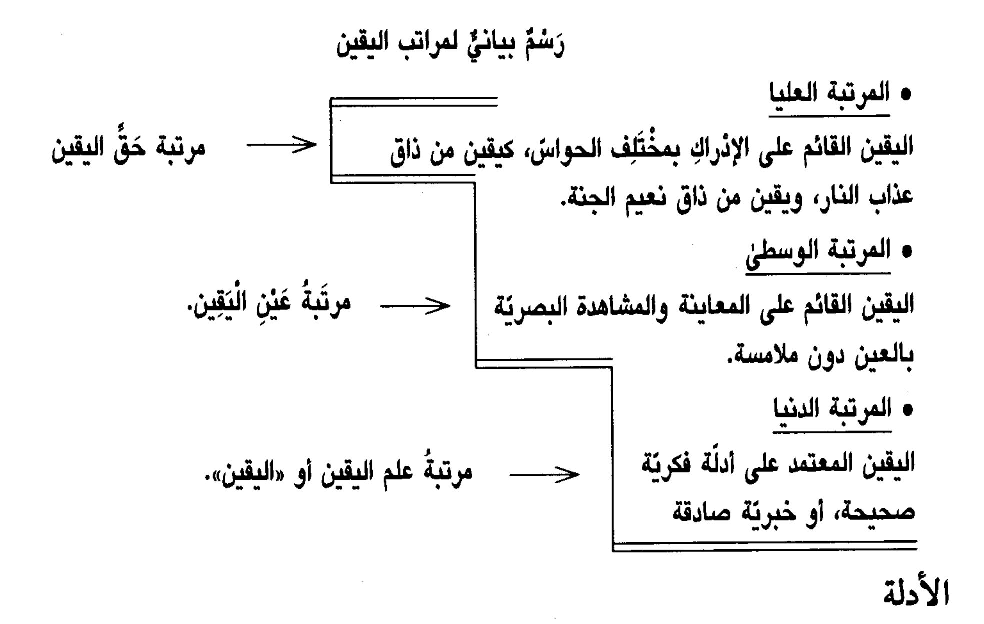
المرتبة الوسطى: «عَيْنُ الْيَقِينِ» أي: المستوى من اليقين القائم على المشاهدة بالْعَيْن مشاهدةً صحيحة ليس فيها أدنى شك.

المرتبة العلْيا: «حَقُّ اليقين» أي: المستوى من اليقين القائم على

إدْراكُ المعلوم بمخْتَلِفِ الحواس، كمُشَاهَدَةِ الْمَعْلُومِ ولَمْسِه، وذَوَقَان آلاَمِه أو لَذّاته.

مثل يَقِينِ مَنْ دخل النارَ وذاقَ عذابها، ويَقينِ من دخل الجنَّة وذاقَ نعيمها.

رَسْمٌ بيانيٌ لمراتب اليقين



الأدلة

• فمن أدلَّة «عِلْمِ اليقين» قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾: فالمرادُ بالْيَقِين في هٰذِهِ الآية الموتُ، وهو قَبْلَ أن تَذُوقَهُ نَفْسُ المدْرِكِ عِلْمٌ لاَ شَكَّ فيه، مُعْتَمِدٌ على أدلَّة فكريَّةٍ قطعيّة، قائمةٍ علَىٰ قياس الْمُدْرِكِ نفسه على مَنْ سَبَقَهُ من الأحياء، وعلى الخبر الصحيح: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (التكاثر/ ١٠٥ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ فَعِلْمُ اليقين أدْنَىٰ مراتب اليقين.

• ومِنْ أدلَّة «عَيْنِ الْيَقِين» قول الله عزّ وجلَّ في سُورة (التكاثر) أيضاً:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾: أي: ثُمَّ لَتَرَوْنَّ الْجَحِيمَ أيُّها المكَذِّبُونَ بِيَوْم الدّين وبالأحْدَاث الَّتِي تَجْرِي فيه، وهذا يكون حينما يَرَوْنَ الْجَحِيمَ بأعْيُنِهم، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوها ويَذُوقوا الْعَذَابَ فيها.

• ومن أدِلَّة «حَقِّ الْيَقين» الآية التي نتابع تدبُّرَها من سُورَة (الواقعة) ووَصَفَ اللهُ أَنْبَاءَ القيامَة والأحداثِ التي تجري فيها بأنَّهَا حَقُّ اليقين، نظراً إلى أنَّ عِلْمَ اللهِ بكلّ شيءٍ هُوَ من مستوىٰ «حَقِّ اليقين» ونظراً إلى أنَّ العباد بَعْدَ أنْ تجريَ أحْدَاثُ يَوْمِ الدِّين عليهم، ويَذُوقوا آلامَها أو لَذَّاتها، تَكُونُ حينَئذٍ بالنِّسْبَةِ إليهم «حَقَّ اليقين».

ونظير ما جاء في هذه الآية، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾:

وفي تَدَبُّرِ سُورَة (التكاثر) مَزِيدُ تفصيلٍ في الشواهد والأدلَّة القرآنية.

وخَتَمَ الله سورة (الواقعة) بِقَوْلِهِ خِطاباً للمتَلَقِّي المؤمِن:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ وبمثل هذه الآيَةِ خَتَمَ اللهُ عزّ وجلَّ سورة (الحاقّة).

وهذه الآية قد جاءت أيضاً في آخر الدّرس الثاني من دُروس سورة (الواقِعة) الّتي فتح اللهُ في تَدَبُّرِها ما فتح، وهي الآيَة (٧٤) وقد سبَقَ تَدَبُّرها، فلا حَاجَةَ للتكرار.

وبهذا انتهى تَدَبُّر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه، وأسْأَلُه المزيدَ من فُيُوض مِنَحِهِ.

❁ ❁ ❁

ملاحق تدبر سورة (الواقعة)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: شجرة الزَّقّوم في القرآن المجيد.

(١٠)
مستخرجات بلاغيّة من سورة (الواقعة)

تشتمل سورة (الواقعة) على اختيارات بلاغية بديعة، وقد فتَح الله عزّ وجلّ عليّ باستخراج طائفة منها، دون استقراءٍ شامل.

أولاً:

ممّا جاء في هذه السورة من بلاغيَّات نفيسات اختيار نظام الآيات القصيرات المتقارِبَات التعادُلِ في بنائها، مع التنويع في النظام التعادُلي، وعَدَم التزام تَعَادُلٍ مُعَيَّن، ابْتِعاداً عَنِ النَّمِطِيَّة الرَّتيبَةِ الَّتي تُوَلِّدُ السأَمَ لمَا فيها من السَّرْدِ الْمُمِلّ.

ومُتَابعُ تَدبُّر بَلاغَة القرآن يُدْرِكُ ما فيه من تنويعٍ مُدْهِشٍ، في بنائِه اللفظّي، وفي أسَاليبه البيانية، وفي صُوَرِه البديعة، وفي أدِلّتِه وحُجَجه، وفي تَرْغيبه وتَرْهيبه، وهذا هو معْنَىٰ التَّصْرِيف الّذي دَلّتْ عليه نُصُوصٌ قرآنيّةٌ مُتَعدّدة، منْها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

ثانياً: ممّا في السورة من إيجاز ومُساواة

(١) كثير جدًّا من آيات سُورة (الواقعة) يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ عنوان «المساواة» وهي المطابقة التامَّة بَيْنَ الكلام المنطوقِ به وبين المعاني المرادة.

فمن الأمثلة الواضحة فيها:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾.
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾.

(٢) وفي السورة من «إيجاز الحذف» ما يلي:

- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾:

أي: وتجْعَلُونَ بَدَلَ شُكْرِكُمْ رَبَّكم على رِزقهِ إيَّاكم أنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ، وتُكَذِّبونَ بِكتابِهِ وبمَا جاء فيه من حقٍّ وهداية.

- ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣﴾:

أي: فَهَلَّا إِذَا بلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلْقومَ.



ثالثاً: في السّورة التوكيد لدواع بلاغيّة ببَعْضِ المؤكدات التالية

«القسم - إنّ - الجملة الاسميّة - اللّام المزحلقة - ضَمِير الفصل - لقد».

ومن الأمثلة فيها ما يلي:

- ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥﴾.
- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾.

• ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

• ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

❋ ❋ ❋

رابعاً: في السورة من البلاغيات خروج الاستفهام عن أصل وضْعِه لدواع بلاغيّة

ومنه ما يلي:

(١) الاستفهام المراد به التعجيب من ارْتفاع المنزلَةِ أو انخفاضِها، في:

• ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾؟!.

• ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾؟!.

(٢) الاستفهام المرادُ به الإنكار، في:

• ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟!.

(٣) الاستفهام المراد به التقرير، في:

• ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟!.

ولهذا المثال في السورة نظائر.

(٤) الاستفهام المراد به التَّلْويم والتوبيخ، في:

• ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

❋ ❋ ❋

خامساً: الدَّلالَة على ارتفاع المنزلَةِ بذكر وصْفِ أصْحابها مُكَرَّراً، في:

• ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.



سادساً: المدْحُ بأسْلُوب التشبيه، في:

• ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾.

هذا التشبيه ذُكِرَ فيه المشبَّهُ والمشَّبَهُ بِهِ وأداة التشبيه، ولم يُذْكَرْ فيه وجْهُ الشَّبَه، فهو من التشبيه المرسَل، لذِكْرِ أداةِ التشبيه فيه، ومن التشبيه المجْمَلِ لِعَدَمِ ذِكْرِ وجْهِ الشَّبَه، فهو تشبيه مُرْسَلٌ مجمل.



(١١)
الملحق الثاني
شجرة الزّقوم في القرآن المجيد

جاء بشأن شجرة الزّقوم في القرآن ثلاثة نصوص يحْسُنُ تَدَبُّرها تَدبُّراً تكامُلِيًّا، وهي:

(١) الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

(٢) الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

(٣) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

النصّ الأول:

الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

قال الله عزّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾:

سبق تَدَبُّر هذا النّص في موضع تدبّره من السّورة، وأُوجِزُ هُنَا ما سَبَقَ تفْصِيلُه وبَسْطُه لإعطاء النظرة التكامليّة بين النُّصُوص حَقَّها من التصوّر.

جاء هذا النصّ تعليماً من الله عزّ وجلَّ لرسوله فلكلّ داع إلى الله مِنْ أمَّته، كَيْفَ يجيب المكابرين المعاندين، الْمُصرّين على تكذيبهم الرّسول، وتكذيبهم بالقرآن وبأنباء يوم الدين، دون أن يُقدِّموا لِتكْذيبهم نقضاً لأدلَة الإثبات، الّتي جاء بها القرآن، ولا حُجَّةً يتخذونها ذَرِيعَةً لتَكْذِيبهم، ولم يكن مِنْهُمْ في هذا الأمْرِ إلَّا إطلاقُ الاستفهامات التّعَجُّبيَّةِ، مع أنَّ عبارَات التعجُّب غيرُ ذاتِ قيمة مَا، في ميادين المُنَاظراتِ والمجادلات الفكريَّة، الّتي تُطْلَبُ فيها البراهين، أو الْحُجَجُ المنطقيَّة المقبولَةُ في العقول السليمة.

فلا جواب لَهُمْ إلَّا الإصْرَار على تأكيد وقوع ما بِهِ يُكذّبون، وهذا ما جاء في هذا التعليم الرَّبَّاني.

• ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: قُلْ لهؤلاء المكابرين المعاندين الّذين وصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْئُوسٍ من استجابَتِهِمْ معها لِدَعْوة الحق، بإراداتهم الحرَّة: إن الأوَّلين من عَهْدِ آدم حتَّىٰ عَصْرِنا الحاضر، والآخِرين من عَصْرِنا الحاضِرِ حتَّىٰ آخر إنسانٍ سَيُوجَدُ على وجه الأرض.

• ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾: أي: لَمبْعُوثون للحياة الأخرى بَعْدَ مَوتهم، وفناء أجْسَادِهم، ولَمَجْمُوعُونَ مَسُوقِينَ إلى ميقاتِ حسَابِهم، وفَصْلِ القضاء الرَّبَّانِيّ بينهم، تمهيداً لتنفيذ الجزاء الذي

يسْتَحِقُّونه، بِعَدْلِ الله عزّ وجلَّ، أو بفضله، في يوم معلوم عند الله عزّ وجلَّ، إذْ حَدَّدَ زمَانَهُ، ومكانَه، وكُلَّ مَا يَجْرِي فيه، في خُطَّةِ التكوين العامَّة، الّتي قضاها وقدَّرها، والّتي تُعْتَبَرُ الحياةُ الدُّنيا مَرْحلَةً مِنْ مَرَاحِلِها.

جاء تأكيد هذا البيان بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللّام المزحلقة).

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُحَاسَبتِكم، وفصْل القضاء بينكم، مِنْ قِبَل الله رَبِّكُم، وانتظارِكم تَنفِيذَ الجزاءِ، بإدْخالِكُمْ جهنَّمَ دَارِ تَعْذِيبكم، وبَعْدَ تَهَيُّجِ بُطُونكم من آلاَمِ الجوع، أيُّها الضَّالُونَ المجافُون لصراط الله المستقيم، والمبتَعِدُونَ عَنْهُ معانَدَةً للحقّ والخير والْهُدَىٰ، والمكَذِّبونَ بالحقّ الذي جاءكم مِنْ عنْد رَبّكم.

• ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾: أي: لَمُلْجَؤُون من شدة جُوعِكُمْ وآلاَمِه، إلَىٰ أَنْ تَأْكُلُوا من ثَمرِ شجَرٍ في جَهَنَّمَ، يُسَمَّى «شجَرَ زَقُّوم» أو «شَجَرَ الزَّقُوم».

ويوحي البيان هنا بأنّ في أكلهم من شجر الزّقوم تَعْذِيباً لهم، ولكنَّهُمْ مُلْجَؤُون إلى الأكل منها.

• ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: فَمالِئُونَ من الأكْلِ مِنْ ثَمرِها بُطُونكُمْ، لأنكم مَهْمَا أكَلْتُمْ منها لاَ تَهْدأ آلاَمُ جُوعِكُمْ، ولَكِنَّ امتلاء بُطُونِكُمْ مِنْها لاَ يُمَكّنُكُمْ مِنْ أَنْ تُضِيفُوا شيئاً، إلَّا مَاءً يَتَسَرَّبُ تَسَرُّباً، في فراغات الطّعامِ غير السَّائل.

• ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فَشَارِبُونَ عَلَىٰ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ شَجَرِ الزَّقُوم، مِنَ الماء الحارّ الشديد الحرارة، الذي لا تجدون أهْوَنَ مِنْهُ في دار عذابكم.

• ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فسَوْفَ تجدون أنفسكم مضطرين إلى تكرير الشُّرب مِنْهُ، مَرَّةً فمَرَّةً، لأنَّهُ لاَ يُرْوِي ظَمأكم الشديدَ،

فَتَشْرَبُونَ، وتَشْرَبُون، وتَشْرَبُونَ، مثلَ شُرْبِ الإبِلِ الْهِيمِ الْمُصَابَةِ بدَاءِ الْهُيام، إذ تَسْتَمِرُّ بِه ظامِئَةً شَدِيدَة الظمأ مهما شَرِبَتْ، فَتَسِيرُ في الأرض هائمةً كئيبةً تُعَانِي من أَوْجَاعِها.

وفي ختام هذا التعليم قال الله عزّ وجلَّ بشَأْنهم في النصّ:

• ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هـٰذَا الطعام الكريه النَّكِدُ المؤلم، هو الضيافة التي تُقَدَّم لهم في دار عذابهم يوم الدين.

النُّزُل: هو ما يُعِدُّه الرَّجُلُ لضيفه إذا نزل به.

وقد جاء هذا التعبير على سبيل الاستهزاء بهم، في مقابل استهزاء أبي جَهْلٍ بالوعيد بالزُّقوم لمَّا سمع به، فيما رُوي عن ابن عباس. من أن أبا جهل جَمَع أصحابَهُ، فأخْرَجَ إلَيْهم زُبْداً وتَمْراً، فقال لهم: تَزَقَّمُوا من هَـٰذا، فواللهِ ما يتَوَعَّدُكم محمَّدٌ إلَّا بِهَـٰذَا.

وجمهور المفسرين على أنّ الشجرة الملعونة في القرآن، المذكورة في الآية (٦٠) من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول) يُرادُ با شجرَةُ الزَّقوم.

النصّ الثاني:

الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول).

قال الله عزّ وجلَّ بَعْدَ الحديثِ عَنْ لقَطَاتٍ مِنْ نعيم أهل الجنَّةِ ورزقهم فيها، وما يكونُ لهم في ضِيَافَةِ الرَّحْمٰن:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

في هذه الآيات مع سَوَابقها المتضمنة بيانَ بعضِ نعيم أهل الجنّة في الجنّة، عَرْضُ مُقَارَنَةٍ واضِحَةِ الْفَرْقِ العظيم، بَيْنِ ضِيَافَةِ الرحْمٰنِ الرحيم، لأهْلِ كَرَامَتِه فِي جنَّاتِ النعيم، وضيافَة الْعَزيز الجبَّارِ المنتقم ذي العقاب الأليم، للكَفَرةِ المجْرِمِينَ فِي دَركات الجحيم.

• ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؟!: المشَارُ إلَيْهِ بعبارة:

﴿أَذَٰلِكَ﴾؟ مَا جاء في الآيات من (٤٠ ـ ٤٩) من سورة (الصافَّات) وهِيَ قول الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

• قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرٍو، وابْنُ عَامرٍ، ويعقوب: [**المخْلِصِينَ**] بكَسْر اللام (اسم فاعل) وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**الْمُخْلَصِينَ**] بفتح اللّام (اسم مَفْعُول). وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم مُخْلِصُونَ بأعمالهم، ومُخْلَصُونَ من قِبَلِ الله جلّ جلالُهُ.

• وقرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**يُنْزِفُونَ**] من فعل «أَنْزَفَ» اللّازم، بمعنى «سَكِرَ، أو ذهَبَ عَقْلُه».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**يُنْزَفُونَ**] من فعل «نَزَفَهُ» المتعدي، أي: أذْهَبَ عَقْلَه، أو من فِعْلِ «نُزِفَ» أي: ذَهَبَ عَقْلُهُ بِسُكْرٍ أو نحوه.

ومؤدّى القراءتين في المعنىٰ واحد.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾: أي: أولَـئِكَ رَفيعُو الدَّرَجاتِ المشَرَّفُون بعُبُودِيتهم لله عزّ وجلَّ، لَهُمْ من فيْضِ عطاءِ اللهِ الرحمن الرحيم

في جنَّاتِ النعيم، رِزْقٌ معلومٌ عِنْدَهُ جلّ جلالُهُ، على سَعَتِهِ الّتي لا يَعْرِف الْعِبَادُ لها حُدُوداً ولاَ مَقَادِيرَ.

• ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾: أي: ومِنْ فِيض الرِّزْق الرَّبَّانِيّ الَّذِي يُقَدَّمُ لهم فَواكِهُ كثيرةُ الأنواع، وافرة المقادير، وهُمْ مع مَا يَتَنَعَّمُونَ بِه من رِزْقٍ وَفَوَاكِهَ مُكْرَمُون، تُكَرِّمُهُم الملائكةُ، ويُكَرِّمُهُمُ الوِلْدَانُ المخلَّدُون، والْحُورُ العين، وكُلُّ ذلِكَ بتَدْبيرٍ من اللهِ العزيز الْحَمِيد الرحيم.

• ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: يكونُون في جنَّاتِ النّعيم مُتْكِئينَ عَلَىٰ سُرُرٍ رَفِيعةِ المسْتَوىٰ، عَظِيمَةِ الإبْدَاعِ والْإِتْقَانِ والنَّفَاسَة، مُتَقابِلين بوُجُوهِهم، يُؤَانِسُ بعْضُهُمْ بعضاً.

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾: أي: يَطُوفُ عليهم الولْدان المخلَّدُون بخَمْرٍ في كَأْسٍ مأخُوذَةٍ مِنْ أنْهارِ الْخَمْرِ الّتي تجري في جنّاتِ النعيم.

الكَأْس: القدحُ ما دام فيه الخمر، ويُجْمَع على «أَكْؤُسٍ» و«كُؤُوس» فإذا لم يكن فيه خَمْرٌ فهو «كُوبٌ».

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: أي: من نَهْرِ خَمْرٍ يجري في الجنة، فيكون ظاهراً يَسْهُلُ التناول منه.

• ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿بَيْضَآءَ﴾: وصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ خَمْرَ الجنَّةِ بِأَنّها بيضاء. قال الحسَن: خمر الجنَّةِ أشَدُّ بياضاً مِنَ اللَّبَن.

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: كلُّ عُنْصُرٍ من عناصِرها، وكُلّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِها تَمْنَحُ شارِبَها لَذَّة، فَمِنْ حَقِّها أنْ تُوصَفَ بأنَّها عَيْنُ اللَّذَّةِ على سبيل المبالغة.

• ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: أي: لَيْسَ فيها عُنْصُرٌ مُسْكِرٌ يُذْهِبُ العقول، ويُسَبّبُ صُدَاعاً في الرُّؤوس، وقُدِّم ﴿فِيهَا﴾ لإفادة تخصيص خمر الجنة بنزع عنْصُرِ الإسكار منها.

• ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: أي: ولا شاربوها يَسْكَرُون بسَبَب شُرْبهم لها، إذْ لَيْسَ فيها غَوْل، وجاءت هذه العبارة بمثابَةِ التأكِيد على أَنّ خَمْر الجنَّةِ لاَ غَوْلَ فيها، أي: ليس فيها مادَّةُ إسْكار، على الرُّغْمِ من وجُودِ لذَّةِ الخمر فيها.

• ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وعِنْدَهُمْ حُورٌ مُهَيّآتٌ لِنَعِيم أهْلِ الجنَّةِ، قَاصِرَاتُ الطَّرْف علىٰ أزْواجِهِنَّ، فَلا يَنْظُرْن إلى غيرهم، ولاَ يُرِدْنَ غَيْرَهم، لأنّ قُلُوبَهُنَّ ونُفُوسَهُنَّ مَمْلُوءَةٌ بحُبِّ أزواجِهِنَّ في الجنة.

﴿عِينٌ﴾: جَمْعُ «عَيْنَاء» وهي ذَاتُ الْعَيْنِ الحسَنَةِ الواسعة.

• ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾: أي: كأنّ ألْوانَ جُلُودِهِنَّ بَيْضُ النَّعَام، إذْ تُكِنُّهَا النعامة بالرّيش من الرّيح والغبار، فلَوْنُهُ أبْيَضُ في صُفْرَةٍ، وهو أحْسَنُ ألْوانِ النّساء. وقيل: كبَياضِ الْبَيْض قَبْلَ أنْ يُقْشَرَ وتَمَسَّهُ الأيْدي.

والمرادُ أنّ ألْوَانَ أجسادِهِنّ أجْمَلُ ألْوَانٍ تَكُونُ عليها جُلُود النساء، وأنّ نضارَتَها وبهاءَهَا أبْدَعُ مَا يُمْكِنُ أنْ يَتَصَوَّر المنعَّمُون.

بَعْدَ هذا الوصْفِ لضِيافَةِ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة، جاء في مقابِلة وصْفُ الضيافةِ التَّهكُّمِيَّةِ للظّالمين في دار العذاب النار.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾؟! أي: أذَلِكَ الّذي ذكَرْناه آنفاً مِنْ ضِيَافَةِ أصْحَاب الجنَّةِ في الجنَّةِ، بما يَلَذُّ لَهُمْ ويُسْعِدُهم وَيَطيبُ لهم،

خَيْرٌ أمْ مَا يَنَالُهُ الظالِمُون مِنْ أنواعِ عذابٍ في الجحيم، ومِنْهُ الطَّعَامُ الّذِي يُعَدُّ لهم، وهو ثمَرُ صِنْفِ شَجَرٍ يُسَمَّىٰ الزَّقُّوم».

في هٰذِهِ الآية اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ به اسْتِثَارَةُ مِحْورَي الطَّمَع والخوفِ معاً، وتَهْيِيجُهُمَا في نُفُوسِ الكَفَرَةِ المكَذِّبين، إنْ كانَتْ لدَيْهم أَلْبَابٌ قابِلَةٌ لِأَنْ تَسْتَجِيبَ، ولَوِ استجابَةً من الدَّرجات الدنيا، فإنْ لَمْ يَسْتجيبوا لأنَّهُمْ مَرَدُوا على الكُفْر، وتحجَّرَتْ قُلُوبُهم ونُفُوسُهم فصارت كالحجارَةِ أو أَشَدَّ قَسْوَةً، فإنّ في الناسِ آخرين لم يُؤْمِنُوا بَعْدُ، ولكِنَّ لدْيهم استعداداً لِأَنْ يَسْتجيبوا استجابةً إراديَّةً لدَعْوَةِ الحقّ، عن طريق استِثَارَة مِحْوَرَي الطَّمَعِ والْخَوْفِ في نفوسِهم، بما جاء في هذا البيان ونحوه.

﴿نُزُلًا﴾: **النُّزل**: بضم الزاي وإسكانها ما يُعِدُّ الرَّجُلُ لضيفه من طعام وغيره، إذا نزل به، ويشمل المكانَ وأنواعَ الإكرامات الأخرى غير الرزق.

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

أصْلُ معنَى «الفِتنة» الصهر بالنار للمعْدِن، كالّذهب والفضّة، لتمييز رَديئه من جَيِّده، وشاعَ استعمالُ اللفظ بمعنى الاختبار والامتحان، ويُطْلَقُ ويرادُ به التعذيبُ بالنار، أو بما يُشْبِهُ التعذيبَ بالنار. وهذا المعنى الأخير، هُوَ المعنى الأكْثَرُ مُلاءمَةً لِلآيَة هُنَا، لأنّ شجرة الزَّقُّوم في جهَنَّم شَجَرَةٌ يُعَذَّبُ بالأكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا الظَّالِمُونَ، وهُمْ يُلْجَؤون إلى الأكْل مِنْها، لشدّة الجوع الذي يُحِسُّون بآلاَمِه في بُطونهم، ولا يَجِدُونَ غَيْرَ ثَمرِهَا يأكلونَ منه فِي الدَّركاتِ الّتي هم فيها من جهنم.

﴿لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾: المرادُ بالظالمين هنا، الظّالِمُونَ من دَرَكَاتِ الكُفْرِ، لا الظالِمُونَ لأنْفُسِهم بكَثْرَةِ المعاصِي من المؤمنين.

• ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾: أي: تنبُتُ في قَعْرِ الجحيم، دارِ عذاب المجرمين الكفرة المكذبين بيوم الدّينِ، عذاباً دائماً.

ولا عجب أنْ يُنْبت اللهُ عزّ وجلّ شَجَرَةً في دار العذاب يَوْمَ الدين، فهو يخلق ما يشاء، ويجعل لما يَخْلُقُ الأسْبَابَ الملائمة للظروف الّتي تُحِيطُ بالمخلُوق الّذِي يخلُقه.

على أنّ الجحيم دَارَ عَذَابِ المجرمين ليْسَتْ كُلُّها لَهَباً في كُلّ مواضِعها، إنَّما تُحيطُ بها النار من كلّ جوانبها، ففيها مواضِعُ حارَّةٌ شَدِيدَةُ الحرارة ولكِنْ لَيْسَ فيها نارٌ مُلْتَهبَة، وتخْتَلِفُ أمَاكِنُهَا ودَرَكَاتُها بحَسَبِ مَقَادِيرِ وَنِسَبِ معاصي المعَذَّبِين فيها، وعُصَاةُ المؤمنين مَحْمِيُّونَ فيها مِنَ الْحَرِيق، وعذابُهُمْ فيها على مَعَاصِيهم يكُونُ بما دُونَ الْحَرِيق، لقول الله عزّ وجلّ في سورة (اللّيل/ ٩٢ مصحف/ ٩ نزول):

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾: أي: لاَ يَحْترِقُ بِنَارِها إلّا الأَشْقَىٰ الْكافِرُ الَّذِي كَذَّبَ وتولّىٰ.

• ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾: طَلْعُ الشَّجَرِ مَا يَطْلُعُ فيه مما يُؤْكَلُ مِنْ ثَمَراته. وقَدْ وصَفَ الله عزّ وجلّ طَلْعَ شَجَرَةِ الزَّقُّوم بأنَّهُ يُشْبِهُ رُؤُوسَ الشَّياطين، وفي هـٰذا إحالَةٌ علَىٰ مُتَخيَّلٍ في أذْهان المخاطَبِينَ لرؤوسِ الشَّياطين، إذْ يتخيَّلُونَها بأقْبَحِ صُورَةٍ، وأشنع منظر.

• ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: إنَّ الظالمين سَوْفَ يَجِدُونَ أنفُسَهُمْ مُلْجَئِينَ إلى الأكْلِ مِنْ طَلْعِ صِنْفِ شجرة الزّقوم، لشِدَّةِ الجوع الّذِي تشْتَدُّ آلامُهُ في بُطونهم، ولاَ يجدون في الجحيم شيئاً آخر يأكُلونه أخف منْهُ أذىً وإيلاماً.

وبما أنه لا يُغْنِي من جُوع، فإنَّهم يمْلَؤُون منْهُ بُطُونَهم، عسَىٰ أَنْ يكونَ ملْؤُها سبَباً في إسْكاتِ جُوعِ بطونِهم.

• ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: أي: ثُـمَّ بَـعْـدَ امـتـلاءِ

بُطونهم من طَلْع شجر الزّقوم، يَشْتَدُّ ظَمَؤُهم شدّةً عظيمة، فلا يجدونَ ماءً بارداً ولا شراباً حَسَناً يُرْوُون به ظَمَأَهم، بل يَجِدُونَ حَمِيماً، أيْ: ماءَ شديد الحرارَةِ، قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا مِنْه، فَيَشْرَبُونَ منه مُلْجَئين، لتخفيف لهيب ظمئهم، فيَدخل هذا الماء الحميم إلى بُطونِهِمْ، فَيَخْتَلِطُ بما أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: **الشَّوْبُ** في اللُّغَة ما اخْتَلَطَ بغيره، ودَلَّ نَصُّ سورة (الواقعة) إلى أنَّهُمْ يَشْرَبُونَ على ما أكَلُوا مِنَ الزّقوم، من الحميم، وهو الماء الشديد الحرارة، فجاء هذا النصّ من سورة (الصّافات) مبيّناً أنَّ الحميم يَدْخُلُ إلى بُطُونِهِم إذا شَرِبُوه فيكونَ مع ما أكلوا من الزَّقُّوم شَوْباً، أي: مختَلِطاً بَعْضُه ببعض.

هذا الْحَمِيمُ مع الزَّقُوم الذي يَغْلي في البطون، لا يَدْفَعُ عنهم شيئاً من الظَّمأ وحَرَارَتِه.

• ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾: دَلَّت هـذه الآيـة عـلـىٰ أنَّ جُوعَهُمُ الشديدَ يجعلُهم يَرْحَلُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ في الجحيم، إلى قاعِها حيث مَنَابتُ شجر الزّقُّوم، لِيَأْكُلُوا مِنْه، وعلى أنّ ظَمَأَهُم الشديد يجعلُهُمْ يَرْحَلُونَ إلَىٰ حَيْثُ يُوجَدُ الماء، فَلا يَجِدُونَ إلَّا مَاءً حَمِيماً، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ شُرْبَ الْهِيم، فيخْتَلِطُ في بطُونهم بما أكَلُوا من شجر الزّقُّوم، لكِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَوَاقِعَ شجر الزَّقّوم، ومواقع الماء الحميم أشَدّ مِنْ مَنازِلِهِمْ في الدَّرَكَات التي هُمْ فِيها من الجحيم، فَيَرْجِعُونَ إلى دركاتهم فيها، حتَّىٰ تُلْجِئَهُمُ الضَّرُورة إلى رحْلَةٍ أخرى لْلأكْلِ مِنْ شَجَرِ الزُّقُّوم، وللشُّرْب من الحميم.

فأضَاف هذا النصّ من سورة (الصّافات) إضافات لَمْ تَأْتِ في النّصّ الأول الذي من سورَة (الواقعة).

وبهذا تَظْهَرُ لَنا صُورةٌ من صُورِ التكامل في النصوص القرآنية الوارِدَةِ في مختلِف السُّوَر حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحد.

النصّ الثالث:

الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

(٤٥) • قرأ ابْنُ كثير، وحَفْص، ورُوَيْس: **[يَغْلِي]** على أنّ الضمير يعود إلىٰ الطعام.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[تَغْلِي]** على أنّ الضمير يَعُود إلى شجرة الزَّقوم.

ومُؤَدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

(٤٧) • قرأ نافع، وابن كثير، وابْنُ عامر، ويعقُوب: **[فَاعْتُلُوهُ]** بضم التاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فاعْتِلُوهُ]** بِكَسْر التاء.

القراءتان وجهان عَرَبيان لنُطْق الكلمة، يقال لغةً: «عَتَلَهُ» يَعْتِلُهُ، ويَعْتُلُه».

(٤٩) • قرأ الكِسَائي: **[ذُقْ أَنَّكَ]**. أي: ذُقْ لِأَنَّكَ كنْتَ تَزْعُمُ في الدنيا أنَّكَ العزيز الكَرِيم.

وقرأ باقِي القراء العشرة: **[ذُقْ إِنَّكَ]** على الابتداء، تهكُّماً به، إذْ كَانَ مستكْبراً عن اتّباع الرَّسُول، زاعماً أَنَّهُ عَزِيزٌ كريم في قومه، فلا يليق به اتّباع رَسُولٍ بشَرٍ مثله.

تمهيد:

جاء في هٰذَا النصّ ما لم يأتِ في النصَّين السَّابقين، فالتكامُلُ بَيْنَهُ وبينهما واضح، وفيه بيان أنّ شجرة الزّقوم طعام الأَثيم المسرفِ في آثامِه، إذْ تكون طعامَهُ في الجحيم دَارِ عذابه، وأنّ المأكُولَ من شجرَةِ الزّقوم يكونُ كالْمُهْلِ يغْلِي في البطون، وأنّ هذا الأثيم المنحطَّ بآثامه إلى دَرَكاتِ الكَافِرين المجرمين، يأمُرُ الله الملائكةَ المكلَّفِين المأمورين بتَعْذِيبهِ أنْ يَحْمِلُوه مُهَاناً إلى وَسَطِ الجحيم، وأنْ يَصُبُّوا فَوْقَ رَأسِهِ من الماء الحارّ الشّدِيد الحرارة تعذِيباً له، وأن يَقُولُوا لَهُ: ذُقْ هذا العذاب، جزاء ما كُنْت تَزْعُمُهُ لِنَفْسِك من أنّكَ أنت العزيز الكريم لا غَيْرُك، مُسْتكبراً عن الإيمان الذي أمَرَكَ به رَبُّك، وعَنِ الْعَمَل بمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ من شرائع وأحْكَامٍ وَوَصَايا في الدّين الذي اصْطَفاهُ لهم.

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾: أي: سَوْف يكُونُ طَعامُ الْأثِيمِ في الجحيم يَوْمَ الدِّين، مِمَّا يُؤْكل مِنْ صِنْفِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، الّتي سبَقَ بيانٌ تَعْرِيفِيٌّ بها.

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: هو المسْرِفُ الغالي في ارتِكَاب الذنُوب والآثام مِنْ دَرَكَةِ الكفر، فهو يختصّ بالكافر الفاجر الذي كان في حياة الامتحان يُكذّبُ بيَوْم الدّين، وبكلّ الأحداث الّتي تجري فيه.

قول الله تعالى:

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾: في هاتَيْن الآيتَيْن إضافةُ وصْفٍ للمأكُول مِنْ صِنْفِ شجرة الزَّقُّوم، من أنَّهُ كالْمُهْل،

وأنَّه إذَا دَخَلَ بُطونَ آكليه في الْجَحيم صَارُوا يَشْعُرُونَ بأنَّه يَغْلِي فيها كَغَلْيِ الماء الحارّ.

﴿كَالْمُهْلِ﴾: الْمُهْلُ: يطلَقُ في اللّغة على الْقَطران السَّائل ـ والمعْدِن الذَّائب ـ ودُرْدِيّ الزَّيت (أي: عَكَرِ الزيت).

﴿يَغْلِي﴾: أي: يَفُورُ من شِدَّة الحرارة، يقال لغة: «غَلَتِ الْقِدْرُ، تَغْلِي، غَلْياً، وغَلَيَاناً» أي: فارَتْ وطفَحَتْ بقوة الحرارة.

قول الله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الآياتُ مقتطَعَة من حَدَثٍ مستقبليٍّ يجري يوم الدين، يَتَعَلَّقُ بالْأَثِيم، الّذِي جعَلَ اللهُ عزّ وجلَّ طعامَهُ في الجحيم، مِمّا يُؤْكَلُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقوم.

يقال يومئذٍ للملائكة المكلَّفِين أنْ يُوصِلُوهُ إلى دَرَكَةِ عذابِه في الجحيم:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: خُذُوهُ من المكان الّذي ينتظر فيه تنفيذ قضاء الله بشأنِه، وهو تَعْذِيبُه في دَرَكَةِ عذابِه في الجحيم، فجرُّوه جَرّاً عَنِيفاً مَسْحُوباً على ما يُلاقي جِسْمُهُ مِنْ أرْضِ المحشر، فاحْمِلُوه.

يقال لغة: «عَتَلَهُ، يَعْتِلُه، عَتْلاً» أي: جرَّهُ جرّاً عَنِيفاً، وجَذَبَهُ فَحَمَلَه، كما تُجَرُّ وتُحْمَلُ الأشياء المهينَة.

ولا بُدَّ أن يُدْرِكَ المتدبّر مَا فِي هـٰذَا الْعَتْلِ مِنْ إهانَةٍ وإذْلاَلٍ وتَعذيب.

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: فأوْصِلُوهُ إلى وسط الجحيم واطرُحوه. قال الزَّجاج: سواءُ كُلِّ شيءٍ وَسَطُه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾: دَلَّ حرف العطف (ثُمَّ) علَىٰ وُجودِ فَاصِلٍ بَعِيد بَيْنَ مَكَانِ انتظارِه في المحشر، ومكَانِ تعذيبه في وَسَط الجحيم.

وصَبُّ الْمَاء ونحوه، سَكْبُهُ حَتَّىٰ يَدْفَعَ بَعْضُه بَعْضاً، وفي كُلِّ جديدٍ فيه إضافة عذاب إذا كان المرادُ به التعذيب.

﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾: أيْ: من الماء الحارِّ الذي يَغْلِي، وفيه تَعْذِيبٌ لَهُ. ولمّا كانَ الغرضُ من صَبِّ الحميم فوْقَ رَأْسِهِ إيْصَالَ العذابِ إلَيْه، كان التَّعْبِيرُ بالصَّبِّ من عذاب الحميم، أوْلَىٰ من التَّعْبيرِ بالصّبّ من الحميمِ الذي فيه عذاب له. والإضافة في ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ هي على تقدير حَرْف «مِنْ» أيْ: من عذاب مِن الحميم.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾: أي: يقالُ لَهُ مَعَ صَبِّ الْحَمِيم فَوْقَ رَأْسِهِ الّذِي يَعُمُّ بَدَنَهُ وهُوَ قائم، ذُقْ هذا العذابَ الذي سبَّبَهُ لَكَ كُفْرَكَ بِمَا جَاءَكَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، إذْ كنْتَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ في الحياة الدُّنيا، وكُفْرُكَ وجُحُودُكَ الحقَّ سبَّبَهُ لَكَ تَوَهُّمُكَ أَنَّكَ أنْتَ وحْدَكَ الْعَزِيزُ الكريم، فَلا يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ رَبِّك، وأَنْ تَعْمَلَ بِكِتَابٍ أنزلَهُ لِيَعْمَلَ عبادُهُ المكّلفُونَ بما جاءَ فِيه من بياناتٍ لهم، ولِيَسِيرُوا على صِرَاطِه المستقيم.

جاء في سبب النزول مَا أَخرَجَ ٱبن مَرْدَوَيْهِ عن ابْنِ عباس قال:

مَرَّ أبو جَهْلٍ بِرَسُولِ الله ﷺ وهو جالس، فلمَّا بَعُدَ، قال رسُولُ الله ﷺ:

«أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ».

فلمَّا سَمِعَ أبو جَهْلٍ قَال: مَنْ تُوعِدُ يَا مُحَمَّد؟.

قال: «إِيَّاكَ».

قال: بِمَ تُوعِدُني؟.

قال: «أُوعِدُكَ بالْعَزِيزِ الْكَرِيم».

فقال أبو جهل: أَلَيْسَ أَنَا الْعَزِيزُ الْكَرِيم؟.

فأنزل الله عزّ وجلَّ الآيات من (٤٣ ـ ٤٩) من سورة (الدخان).

جاء في العبارة القرآنية، وفي عبارة أبي جهل بحَسَب هذه الرّوايةِ، ما يَدُلُّ على أنّ المعذَّبَ بصَبِّ الحميم فَوْقَ رأسِهِ، قد حَصَرَ وصْفَي: «العزيز الكريم» بنَفْسِه، والدَّالُّ علىٰ الْحَصْرِ تَعْرِيفُ طَرَفَي الْإسناد.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾: هٰذِهِ عبارَة مقتطَعَةٌ مِمَا سَوْفَ يُقَالُ لِلْمُعَذَّبِين الخالِدِينَ في الجحيم، وهم يَذُوقونَ العذابَ فيها.

﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾: أي: مَا كُنْتُمْ به تُجَادِلُونَ على مَذْهب الشّكِّ والرّيبة، لإبطال الحقّ الَّذِي جاءكم به رُسُلُ رَبّكم، مع أَنَّهُ لا مِرْية فيه، أي: لاَ شك فيه.

الْمِرْية: الجدلُ ـ والشَّكّ. ويقال: «مَارَاهُ مُمَارَاةً وَمِراءً» أي: جادله وناظره. و«تَمارَىٰ الْقَوْم» أي: تجادَلُوا.

و«الَّتمَارِي، والْمُمَاراة» المجادلَةُ على مذهب الشّك والرّيبة.

يقال للمناظَرَة: «مُمَارَاة» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ من المتَنَاظِرَيْن يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صَاحِبِهِ وَيَمْتَرِيه، كما يمْتَرِي الْحَالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضّرْعِ.

وأصل المادّة تَدُورُ حولَ اسْتخراجِ الشيء بالملايِنَةِ والإيناس، ومِنْهُ المسْحُ علَىٰ ضَرْعِ الناقةِ لتَأْنَسَ فيَدُرَّ لَبَنُها.

مادّة «زَقَمَ» في اللُّغة:

جاء في «لسان العرب» لابن منظور ما يلي:

(١) «زَقَمَ الشّيءَ يَزْقُمُهُ زَقْماً» أي: ابْتَلَعَه.

(٢) «الزَّقْمُ» اللَّقْم، هما بمعنًى واحد. يقال لغة: «لَقِمَهُ يَلْقَمُهُ».

(٣) «التَّزَقُّمُ» التَّلَقُّم. والاسمُ: «الزَّقْم» كاللَّقْم.

(٤) «زَقَمَ اللَّحْمَ» أي: بَلَعَه، بفتح اللّام وكَسْرِها.

(٥) «أَزْقَمْتُه الشَّيْءَ» أي: أَبْلَعْتُهُ إِيَّاهُ.

(٦) عَنْ ثَعْلب: «الزَّقُّومُ» كلُّ طعام يقْتُل، **والزَّقْمَةُ**: الطَّاعُون أيضاً.

(٧) «الزَّقُّوم» من «الزَّقْم» وهو اللَّقْمُ الشديد، والشربُ المفرط.

(٨) «الزَّقُّوم»: الْحُلْقُوم.

وبهذا انتهى الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (الواقعة) والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.



سُورَةُ الشُّعَرَاء

٢٦ مصحف ـ ٤٧ نُزُول

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَقِيلَ: إلَّا:

(١) الآيَة ١٩٧ فَهِيَ مَدَنِيَّة

(٢) والآيات مِن (٢٢٤) وَحَتَّىٰ غَايَةِ الآيَةِ (٢٢٧) آخر السُّورَة



(١)

نصّ السّورة وما فيها من فرش القراءات

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ

١ ـ • قرأ أبو جعفر: [طَا، سين، ميم] بالسكت على الأحرف الثلاثة بدون تنفّس.

٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [إِنْ نَشَا] بالألف بدل الهمزة من «نَشَأْ» في الوصل والوقف. وكذلك هشام، وحمزة في الوقف فقط.

٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: [نُنْزِلْ] من فِعْلِ: «أَنْزَلَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نُنَزِّلْ] من فعل: «نَزَّلَ».
«أنزَلَ» و«نَزَّلَ» مُتَكافِئَان.

٤ ـ • أبْدَل الهمزة الثانية ياء: [السَّمَاءِ ءَايَةً] نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأها باقي القراء العشرة همزة محققة.

٥ ـ ٦ • ضم يعقوب هاء الضمير من [يَأْتِيهُمْ] و[فَسَيَأْتِيهُمْ] وكسرها الباقون.

١٠ ـ • أبْدَلَ الهمزة من [ائْتِ] في الوصل: ورشٌ، والسوسي، وأبو جعفر. وحقّقها باقي القرّاء العشرة.
وأمّا في الوقف فكلّ القرّاء يبتدئون بهمزة وصل مكسورة، مع إبدال الهمزة الساكنة ياءً مدّيّة.

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

---

١٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٢ ـ ١٤• قرأ يعقوب: [يُكَذِّبُونِي ـ يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً. وقرأهما باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم: [يُكَذِّبُونِ ـ يقتُلونِ].

١٣ ـ • قرأ يعقوب: [وَيَضِيقَ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقَ لِسَانِي] بنصب الفعلين، عطفاً على [أَن يُكَذِّبُونِ] المنصوب.
وقرأهما باقي القراء العشرة بالرَّفع، على الاسْتِئْناف.

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

٣٠ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر، [جِيتُكَ] بإبدال الهمزة ياء، في الوصل والوقف، وكذلك قرأها حمزةُ في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [جِئْتُكَ] بالهمزة.

٣٦ ـ • قرأ قالون، وابن وردان: [أَرجِهِ] باختلاس كسرة الهاء.
وقرأها ورْشٌ، والكسائي، وأبن جَمَّاز، وخلف في اختياره: [أَرْجِهِ] بكسر الهاء مع صلتها.
وقَرَأَهَا ٱبْنُ كثير، وهشام: [أَرْجِئْهُ] بإثبات الهمزة، وضمّ الهاء، مع إشباع الضمّ.
وقرأها أبو عمرو ويعقوب: [أَرْجِئْهُ] أيضاً ولكن باختلاس الضم.
وقرأها ٱبن ذكْوان: [أَرْجِئْهِ] بإثبات الهمزة، وكسر الهاءِ مع الاختلاس.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَرْجِهْ] بترك الهمزة، وإسْكان الهاء. وهي وُجُوهٌ عرَبِيَّةٌ من الأداء.

٣٩ ـ • قرأ هشام، والكسائي، ورُوَيس: [قِيلَ] بإشمام كسْرَة القاف. وقرأها باقي القُرَّاء العشرة بالكَسْرَة الخالصة.

٤٢ ـ • قرأ الكسائي: [نَعِمْ] . =

إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نَعَمْ] . فَتْحُ العين وكَسْرُهَا وجْهان عربيان لنطق كلمة «نعم».

٤٥ ـ • قَرَأَ حَفْصٌ: [هِيَ تَلْقَفُ] . وقرأها البَزّي: [هِيَ تَّلَقَّفُ] بتشديد التاء والقاف في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [هِيَ تَلَقَّفُ] بتشديد القَافِ فقط.

وبين التشدِيد وعَدمِهِ تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وجعفر، [أَنِ ٱسْرِ] بوصل همزة «ٱسْرِ» من فعل «سَرَىٰ» ويلزم منه كسْرُ نون «أن» في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَنْ أَسْرِ] بقطع الهمزة وإسكان النّون.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [بِعِبَادِيَ إِنَّكُم] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكانها: [بِعِبَادِي إِنَّكُمْ] .

٥٦ ـ • قرأ نافع، وأَبْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وهشَام، وأَبُو جَعْفَر، ويعقوب: [حَذِرُونَ] جَمْعُ «حَذِر» مبالغة «حاذر». =

فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا

= وقرأها باقي القراء العشرة: [حَاذِرُونَ] جمع «حَاذِر». وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٥٧ ـ • قرأ ابنُ كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونَ] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُون] بضم العين. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٦٢ ـ • قرأ حفص: [مَعِيَ رَبّي] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٦٢ ـ • قرأ يعقوب: [سَيَهْدِينِي] بإثبات ياء المتكلم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بِحَذْفها، وهو من الإيجاز في النطق.

٦٤ ـ • وقف رُويس بهاء السّكت في [ثَمّ].

٦٨ ـ • قرأ قالُون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْو] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [لَهُوَ] بضمها.
وهما وجهان عَرَبيّان لنطق الكلمة.

٦٩ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُم] بضمّ الهاء.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.
وهما وجهان عربيّان.

فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

---

٧٧ ـ • قرأ نافع وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عَدُوٌّ لِيَ إِلاَّ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١• قرأ يعقوب: [يَهْدِينِي ـ ويَسْقِينِي ـ ويَشْفِينِي ـ ثُمَّ يُحْيِينِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذفِ ياء المتكلّم، وهو من الإيجاز في النُّطق.

٨٦ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعفر: [لِأَبِيَ إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى

١٠٨ و١١٠● قرأ يعقوب **[وأطيعُوني]** بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحَذْفها.

١١١ ـ ● قرأ يعقُوب: **[وَأَتْبَاعُكَ]** جمْعُ «تَابع».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[واتَّبَعَكَ]** فعلاً ماضياً.
ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

١١٥ ـ ● قرأ قالون **[إنْ أنا إلاَّ]** بإثبات ألف «أنا» وصلاً، في إحدىٰ روايتَيْن له.
وقرأها باقي القراء العشرة بحذفِ الألف، وهو الوجْه الثاني لقالون.

١١٧ ـ ● قرأ يعقوب: **[كذّبوني]** بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: **[كَذَّبُونِ]** بحذف ياء المتكلم.

وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

١١٨ ـ • قرأ ورْشٌ، وحفصٌ: [وَمَنْ مَعِيَ مِنْ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

١٢٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمّ الهاء.
وهذا حكم هذا اللفظ حيث ورد، مع وقف يعقوب له بهاء السكت.

١٢٦ ـ • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٢٧ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وحفْص، وأبو جعفر: [إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان، وكذلك في الآية (١٠٩).

١٣٤ ـ • قرأ ابن كثير، وابن ذكْوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وعُيُونٍ] بضمّ العين.

١٣٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمْرو: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم.

=

عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟

= وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان: [إِنِّي أَخَافُ].

١٣٧ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وخلف: [خُلُقُ] بضمّ الخاء واللّام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة [خَلْقُ] بفتح الخاء وإسكان اللّام.

١٤٤ ـ • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأَطِيعُونِ] بحذفها، وهو من الإيجاز في النطق.

١٤٥ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

١٤٧ ـ • قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَعُيُونٍ] بضمّ العَيْن.

١٤٩ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [فَرِهِينَ] جمع «فَرِهٍ» من فعل: «فَرِهَ، يَفْرَهُ، فَرَهاً، فهو فَرِه» بمعنى: بَطِرَ وأَشِر.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَارِهِينَ] جمع «فَارِهٍ» من فعل: «فَرُه، يَفْرُهُ، فراهةً، وفُرُوهة، فهو فاره»: أي: خفَّ ونَشِط، وحَذِقَ ومَهَر.
وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، إذْ كانوا نشيطينَ أهل حِذق ومَهارة، وكانوا بَطِرينَ مُسْتَكْبِرين.

ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾
مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا
فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا
كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ
رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ
يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ
﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ
﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا
عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ

---

١٥٩ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: [لَهْوَ] بإسكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمها: [لَهُوَ].

١٧٣ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسْر الهاء.

=

أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

= وهما وجهان عَرَبيان.

١٧٦ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [أَصْحَابُ لَيْكَةِ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَصْحَابُ الأَيْكَةِ].

١٨٢ ـ ● قرأ حفصٌ، وحمزَة، والكِسائِيّ، وخلَف: [بالْقِسْطَاسِ] بكَسْرِ القاف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بالْقُسْطَاسِ] بضمّ القاف.
والقراءتان وجْهان عربيّان لنُطْقِ الكلمة.

١٨٧ ـ ● قَرَأ حفصٌ: [كِسَفاً] بفتح السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [كِسْفاً] بإسْكَان السّين. «كِسَفاً»، و«كِسْفاً» جمع «كِسْفَة» وهي القطعة من الشيء.
فالقراءتان متكافئتان.

١٨٨ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها الباقون بإسكان ياء المتكلّم.
وهما كما عرفنا وجهان عربيان.

عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾

---

١٩٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وحفص، وأبو جعفر: [**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأمِينَ**] أي: نزَّلَ الله عزّ وجلّ بالقرآن الرُّوحَ الأمينَ جبريل.

وبيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

١٩٧ ـ • قرأ ابن عامِرٍ: [**أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ**] برَفْع «آيَةٌ» على أنّها فاعِل أو اسم «تَكُنْ» التامة، والمصدر المؤوّل من: [**أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيل**] بدل من الفاعل، أو خبر «تَكُنْ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً**] بنَصْب «آيَةً» على أنها خبَرُ «تَكُنْ» واسمها المصدر المؤوّل من [**أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسرائيل**].

ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ
لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾
ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ
﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ
كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ
كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ
مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ .

---

٢١٧ ـ ● قرأ نافع، وابْن عامر، وأبو جعفر: [فَتَوَكَّلْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَتَوَكَّلْ].

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فالعطف بالفاء للإرشاد إلى ترتيب التوكّلِ على معصيتهم له.

والعطف بالواو للإرْشاد إلى التوكّل على الله دواماً.

(٢)
ممّا وَرَد في السُّنّة بشأن سورة (الشعراء)

جَاء عِنْدَ القرطبيُّ في تفسيره عن الْبَرَاءِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ أعْطَانِي السَّبْعَ الطِوالَ مَكَانَ التَّوْرَاةِ، وأعْطَانِي المِئِينَ مَكَانَ الْإِنْجيلِ، وأَعْطَانِي الطّواسِينَ مَكَانَ الزَّبُور، وفَضَّلَنِي بالْحَوَامِيمَ والمفَصَّلِ مَا قَرَأَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

الطواسين: وهي: ١ ـ «الشعراء» المبدوءة بـ (طَسِمٓ). ٢ ـ و«النَّمْلُ» المبدوءة بِـ (طَس) ٣ ـ و«القصص» المبدوءة بـ (طَسِمٓ).

الحواميم: هي المبدوءة بـ (حَم) وهي ست سور: ١ ـ «غافر» ٢ ـ «فُصِّلَتْ» ٣ ـ «الشّورى» ٤ ـ «الدُّخَان» ٥ ـ «الْجَاثِية» ٦ ـ «الأحْقَاف».

❁ ❁ ❁

(٣)
موضوع السّورة

(١) تُتَابعُ سورةُ (الشعراء) مُعَالجَةَ كفَّارِ مكَّة وما حَوْلَها، بحَسَب الطَّوْرِ الّذي كانوا فيه إبَّانَ تَنْزِيلِ هٰذِهِ السورة، إذْ أَصَرُّوا علَىٰ تكْذِيب الرَّسُول محمّد ﷺ في نُبوّتِهِ ورِسالَتِهِ، وإذْ أَصَرُّوا على التكْذِيب بالقرآنِ، وعلَىٰ عَدَمِ الإيمَانِ بِأَنَّهُ تَنْزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالمين، وَوَصَفُوهُ بأنّه لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الشِّعْرِ وأنَّ الجنَّ تُوحِي بِهِ إلَيْهِ، وإذِ اسْتَهْزَؤُوا بما اشتمَلْت عَلَيْه آيَاتُهُ مِنْ نُذُرِ الْعَذَاب والإهْلاَكِ المعجَّل، وبِنُذُرِ العذابِ الأليم الخالِدِ في دَارِ العذاب يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ الْبَعْثِ والْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء بَيْنَ العباد.

وعلاج الكافِرِينَ حَوْلَ قَضِيَّتِي الإيمان بالرَّسُول محمّد ﷺ، والإيمان بالقرآن مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ العالمين، ولَيْسَ بِشِعْر، ولا بكلام تُوحي به الجنُّ للرَّسُولِ، قَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التنزيل، في عِدَّةِ سُوَرٍ وبأساليبَ مُتَنَوِّعة،

فَمِنْهَا مَا يتَعَلَّقُ بِبَيَانِ كمالِ القرآن ومَجْدِهِ وإعجازه وأَنَّهُ تَنْزِيل مِنْ رَبّ الْعَالَمِينَ، وأنَّ صِفَاتِ القرآنِ الإعجازيَّة تَتَضَمَّنُ بُرْهَاناً قَطْعِيًّا عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوّةِ الرسول وصِدْقِ رِسَالَتِه، ومِنْهَا مَا يَنْفِي عنه أَنَّهُ سِحْرٌ أو شِعْرٌ.

فجاءَ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) معالَجَةُ اتِّهَامِهِمْ للرَّسُول ﷺ بأَنَّهُ سَاحِر، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

وجاء في سُورَةِ (يَس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) نَفْيُ صِفَةِ الشّاعر عن الرَّسُول ﷺ، ونَفْيُ صِفَةِ الشِّعْرِ عن القرآن، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وعرضَت السورة أمثلة من الأمم السابقة، وفي كلٍّ منها آيَةٌ واعظةٌ لمعاصِري التنزيل مِنَ الكافرين المعاندين وغيرهم.

(٢) وتتابعُ سُورَة (الشعراء) تَرْبِيَةَ اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ شِدَّةِ حِرْصِهِ على إيمانِ قومِهِ بما جاءهم بِهِ عن رَبِّهِ، ولا سِيمَا عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُون منهم، وبشأن اشتغال نَفْسِهِ حتى عُمْقِ فُؤادِه بالْهَمِّ والْغَمِّ والحزْنِ إذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، والإحْسَاسِ بِمَشَاعِرِ الْأَلَمِ الشديد من أجْلِهِمْ، خَوْفاً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُعَرِّضُوا أنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وعِنَادِهِم واسْتِكْبَارِهم لِعَذَابِ وهَلاَكٍ مُعَجَّلَيْنِ إذْ يُجْرِي اللهُ عَلَيْهِمْ سُنَّتَهُ الّتي أجْرَاهَا في كُفَّارِ مُكَذِّبي رُسُلِ رَبّهم من قَبْلِهِم، ولعذابِ أَلِيمٍ دَائِمٍ خالِدٍ يَوْمَ الدِّين، في الجحيم دَار عذَابِ المجرمين.

وهَـٰذَا الإحساسُ النَّفسِيُّ حتَّىٰ عُمْقِ فُؤَادِه جَعَلَهُ يَرْغَبُ في أنْ يُرِيَهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ آيَةً مِنَ الخوارقِ تَجعَلُ قُلُوبَهُمْ تَخضَعُ لها، وتَجعَلُ أعْنَاقَهُمْ تُطَأْطِئُ لها ذُلّاً للهِ وانْكِسَاراً، وبذلِكَ تَلِينُ قُلُوبُهُمْ، ويُؤْمِنُون بما جاءهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَيُسْلِمُونَ لَهُ طَائِعِينَ.

ومعالجَةُ نَفْسِ الرَّسُول ﷺ بَشأنِ هَمِّه وغمِّهِ الشديدَيْن من أجْلِ قومِه، وَلاَ سِيمَا عَشِيرَتُهُ الأقْرَبُونَ، قَدْ سبقَتْ في نجوم التنزيلِ في عِدَّةِ سُوَر بأسَالِيبَ مُتَنَوّعة، فمِنْها مَا كان لِبَيَانِ وَظِيفَتِهِ في رِسَالَتِهِ، وأنَّها لاَ تتجَاوَزُ حُدُود التَّبْلِيغ والبيانِ والتذكير، ومَا يُرْشِدُه إلى تَفْوِيض الأَمْرِ إلى رَبّه، الَّذِي يَهْدِيه سَواءَ سَبِيلِ دَعْوَتِه لِرَبّه، وإلى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ في أَمْرِهِ كُلِّه، مُراقباً دواماً أَنَّ رَبَّهُ خَبِيرٌ بِذُنُوبِ عِبادِهِ، عَلِيمٌ بِمَا هُوَ الأحْكَمُ مِنَ احْتِمَالاَتِ مُعَامَلَتِهِ لعباده في رِحْلَةِ امْتِهَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

• فمِنْها قَوْلُ الله لَهُ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.



(٤)
دروس سورة (الشعراء)

تشتمل هذه السُّورَةُ عَلَىٰ ثَلاثَةِ دُرُوسٍ مُتَعَانِقَةٍ حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ. ضِمْنَ نظام شَجَرِيّ.

الدرس الأول (هو الآيات من ١ ـ ٩):

وقد تضمن ما يلي:

(١) مُتَابَعَة الحديث عَنِ الْقُرْآن الّذِي جاء في نجوم التَّنْزِيلِ قبل سورة (الشعراء) وعَنْ أقوالِ المكَذّبين بأنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين، وإعراضِهم عَنْ كُلِّ تنزيلٍ مُحْدَثٍ مِنْ آياته وسُورِهِ، واسْتِهْزَائِهِمْ بما جاء فيه مِنْ وَعِيدٍ معجَّلٍ في الدنْيَا، أو مُؤَجّلٍ إلَىٰ يَوْم الدّين، وإنذارِهم بأنَّهُ سَيأْتِيهِمْ في زمانٍ غَيْرِ بَعِيدٍ في الدنيا، تَحْقِيقُ أَنْبَاءِ مَا كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ، مِنَ انْتِصَارِ

الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوابه واتَّبَعُوهُ عَلَيْهِم، وهَزِيمَتِهِم مُنْكَسِرينَ أذِلَّاءَ، وهَلاَكِ مَنْ يَهْلِكُ مِنْهُمْ مُعَذَّبينَ.

مَعَ عَرْض دَلِيلٍ مِنْ أَدِلَّةِ إقناعِهِم بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، لِكَوْنِهِ المنْعِم عليهم بالرّزق، إذْ يُنبتُ لهم في الأرْضِ مِنْ كلِّ صِنْفٍ كريم من أصناف نباتات الأرض، وهٰذَا يَدُلُّ علَىٰ قُدْرَتِهِ علَىٰ حِرْمانِهِمْ وإهلاكِهِمْ، عقاباً لهم على كُفْرِهم وتَكْذِيبهم رسُولَ رَبِّهِمْ، وتكذيبِهِمْ بِكِتَابِهِ القرآن الْمُبين.

(٢) مُتَابَعَة تَرْبية الله عزّ وجلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، بشَأْنِ هَمِّه، وحُزْنِهِ الشّدِيدِ، إذْ لَمْ يُؤْمِنْ قَوْمُهَ ولا سيما عَشِيرَتُهُ الأقْرَبُونَ بما جاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّه، خَوْفاً عليهم من عَذَابِ اللهِ المعجَّلِ في الدنيا، والمؤَجَّلِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّين.

وفي هٰذِهِ المتابَعَةِ التَرَبَوِيَّةِ تَيْئِيسٌ لَهُ مِنْ أنْ يُؤْمِنَ أكْثَرُهُمْ مُسْتَقبلاً عَنْ طَرِيق إرادَاتِهِمُ الْحُرَّة، أي: فَلْيَكُفَّ عن شَغْلِ نَفْسِهِ وقَلْبِهِ بالْهَمِّ، والحزْنِ الشَّديدِ والغمِّ مِنْ أجْلِهم، فَقَدْ وَصَلُوا إلىٰ حَالةٍ مَيْؤُوسٍ منها، وعَلَيْهِ أَنْ يُوَجِّهَ طَاقَاتِ دَعْوَتِهِ إلى آخَرِين، لَدَيْهِم أمَارَاتُ الرَّجَاء باسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوته.

❁ ❁ ❁

الدّرس الثاني (هو الآيات من ١٠ ـ ١٩١):

وهو يشتمل علَىٰ لقطاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، سابقين وأقوامهم، وفي نهاية كلٍّ مِنْها تَكْرِيرٌ لما جاء في نِهايَة الدَّرْس الأوّل، تَعْقيباً على بيان حال كُبَراء كفّار مكّة وما حَوْلَها، المكذبين بإصرار ومعاندةٍ ومكابرة، من وصول أكثرهم إلَىٰ دَرَكَةٍ ميؤوس مَعَها من إيمانهم عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، وهو قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وتيسيراً في التصْنِيفِ قسَّمْتُ هذا الدّرسَ إلى سبعةِ فُصُول:

الفصل الأول: مِمَّا يتَعَلَّقُ بمُوسَىٰ عَلَيْه السّلام وقومِه مِنَ الْمِصرِيّين.

الفصل الثاني: مِمَّا يتعلَّقُ بإبْراهيمَ عَلَيْهِ السلام وقوْمِه في العراق.

الفصل الثالث: مِمَّا يتعلّق بنوح عليه السَّلامُ وقَوْمِه.

الفصل الرابع: مِمَّا يتَعلَّقُ بهُودٍ عليه السلام وقومه «عاد».

الفصل الخامس: ممَّا يتعلَّقُ بصَالِحٍ عليه السّلام وقومه «ثمود».

الفصل السادس: مِمَّا يتعلَّقُ بلُوطٍ عليه السّلام وقومه «أهْلِ أرْضِ سَدُوم».

الفصل السابع: مِمَّا يتعلَّقُ بِشُعَيْب عَلَيْهِ السلام وقومه «أهْلِ مَدْين». و«أصْحَابِ الأيكة».

❁ ❁ ❁

الدرس الثالث: (هو الآيات من ١٩٢ ـ ٢٢٧ آخر السورة)

هذا الدرس مُرْتبطٌ بالدَّرْسِ الأوّل من دُروس السورة، وفيه مُتَابَعَةٌ لمَا جاء فيه.

• فجاء فيه الحديث عن القرآن الكريم.

• وجاء فيه توجيه تربَويٌّ للرَّسُولِ ﷺ.

• وجاء فيه متابَعَةُ مُعَالَجَةٍ للمقْصُودِين بالمعاجلة من مشركي مكَّةَ وما حولها، وردٌّ علىٰ بعض مزاعمهم الافترائيّة بشأن القرآن الكريم، وهي الّتي كانت تَتَرَدَّدُ على ألْسِنَةِ كُبرائهم إبَّانَ تَنْزِيل السورة وَقَبْلَه.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١ ـ ٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ تَرْبِيَةٌ من الله عزّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بشَأْن شِدَّةِ هَمِّهِ وغَمِّهِ وَحُزْنِهِ، خوفاً على قَومِهِ في مكّةَ وما حولَها، ولا سيما عشيرتُهُ الأقْرَبُونَ، من أن لا يَكُونوا مستقبلاً مِنَ الّذين يُؤْمِنُونَ، ويتّبِعُونَ هُدَىٰ اللهِ الذي أنْزَلَ لعباده، فَيُعَرِّضُوا أنْفُسَهُمْ لعذَابِ أليم خالدٍ يومَ الدّين، في نار الجحيم دار عذَاب الْمُجْرِمين، مع ما قَدْ يَنْزِلُ بهم من عذابٍ وإهلاكٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، عقاباً لهم علَىٰ كُفرِهِمْ وعنادهِمْ وإصْرارهِمْ على بَاطِلِهِمْ، وتكْذِيبِهِمْ بالحقِّ المنزَّلِ مِنْ عِنْدِ الله رَبّ العالمين.

وفيه إشارةٌ إلى تَطلُّع الرسول ﷺ ورغْبتِهِ في أنْ يُنْزِلَ الله عزّ وجلَّ على قَوْمِه آيَةً خَارِقَةً، تَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ خاضِعِينَ لسُلْطانها، وتَكونُ سبباً لإنقاذهم من عذاب النار يوم الدّين، إلّا أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ لَمْ تَقْتَضِ حكْمَتُه أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ خارِقَةً لِعِلْمِهِ جلّ جلالُهُ، بأنّ المعْنيّين بِهَمِّ الرَّسُول وغَمّه وحُزْنِهِ، قَدْ عَرَفُوا الحقَّ وجَحَدُوه، فَهُمْ لا يحتاجُونَ دَليلاً يُثْبِتُ لهُم أنَّ القرآنَ حقٌّ مُنَزَّلٌ من عِنْدِ الله، وأنَّ محمّداً نبيٌّ ورسُولٌ صادِقٌ، وأنَّ كُلَّ ما

جاءَ به حقٌّ وصِدْقٌ، وإذْ عَلِمَ اللهُ عزّ وجلّ أَنَّ الحكْمَةَ لاَ تَسْتَدْعي إنْزَالَ آيَةٍ مِمَّا تَطَلَّعَ الرَّسُولُ ﷺ إلى إنْزالِهِ، دُونَ تَصْرِيحٍ مِنْهُ بذلك، فإنَّ اللهَ لم يَشَأْ إنْزَالَ شَيْءٍ ممّا تطلَّعَ إلَيْهِ ورَغب فيه، فَعَدَمَ مشيئَتِهِ ذلِكَ دَليلٌ علَىٰ أنّ الحكمة تَسْتَدْعِي عَدَمَ تَحْقِيق هٰذِهِ الرَّغْبَة.

وفي هذا الدَّرْسِ بيانُ أنَّ المعنيّينَ بِهَمِّ الرَّسُولِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ، قَدْ كَذَّبُوا جاحِدِين، مُصِرِّين علَىٰ بَاطِلِهم، واسْتَهْزَؤوا بالْأَنْبَاءِ الَّتِي فِيهَا وَعِيدٌ بانْتِصَارِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه عليهم، فقال الله عزّ وجلَّ لرَسُولِهِ مُطَمْئِناً لَهُ ولِلْمُؤْمِنِينَ، ومُنْذِراً للجاحدين المعنيّين بالمعالجة:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾.

وفي هٰذا الدَّرْس تذكِيرٌ للمعْنِيّين بخطابٍ غَيْرِ مُوجَّهٍ لهم، إعراضاً عَنْهُمْ فِي مقابلِ إدْبارِهِمْ وَتَوَلّيهم عن الحقّ الرَّبَّانِيِّ، بآيَةٍ من آياتِ رُبُوبيَّةِ اللهِ ورَحْمَتِهِ المشْهُودَةِ بتَكْرار، وهي آيَةُ إنْبَاتِ اللهِ في الأرض مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَرِيمٍ مُسْتَجْمِعٍ صفات الْحُسْنِ والنَّفْعِ.

وختم الله عزّ وجلَّ هذا الدّرس ببيان أنّ المعْنِيين قد مَرَدُوا على بَاطِلهم، فَأَكْثَرُهم لَنْ يكُونُوا مُسْتَقْبلاً من المؤمنين، وجاءَتْ بَعْدَ هٰذا البيان دلالَةٌ ضِمْنِيَّةٌ بأنّ هؤلاء الأكْثَرين سيجازيهِمُ اللهُ بِعِزّته الغالبَةِ القاهرة، وأمَّا الأقَلُّون الّذين يُرْجَىٰ إيمانُهُمْ مُسْتَقْبلاً فَسَيُعَامِلُهُمُ الله عزّ وجلّ بِرَحْمَتِهِ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾: هذه ثلاثَةُ حُروفٍ من الْحُروف الْمُقَطَّعَةِ الوارِدَةِ فِي

أوائل بَعْضِ سُورِ القرآن الكريم، وقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَةِ (القلم/٨٨ مصحف/ ٤ نزول).

قرأ أبو جعفر: «طَا، سِينْ، مِيمْ» بالسَّكْتِ على الأحرف الثلاثة بدون تَنَفُّس، أمّا باقي القرّاء العشرة فَلَمْ يَسْكُتُوا هٰذا السَّكْتُ.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾: جاءت الإشارةُ إلى آياتِ القرآن المجيد باسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ الْبَعِيد ﴿تِلْكَ﴾ للدَّلاَلَةِ على عُلُوّ مَنْزِلَةِ الْقُرْآن عُلُوّاً لاَ يُدَانِيهِ أيُّ كَلام صادِرٍ عَنْ غَيْرِ اللهِ عزّ وجلَّ، فلا تَسْتَطِيعُ الخلائق أنْ تَأْتِي بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وأرَىٰ أنّه لا داعي لجعْلِ المشار إليه آيات هذه السُّورة، إذ هي داخلةٌ في عموم آياتِ القرآن كُلّه ما نزل مِنْهُ ومَا لَمْ يَنزِلْ مِنْهُ بَعْدُ.

﴿ءَايَٰتُ﴾: جَمْعُ «آيَة» وهي في اللُّغَةِ الْعَلامَة، والأمارة الدَّالَّةُ على شيءٍ ما.

وكَلِمَةُ «آية» وجَمْعُها آيَاتِ أُطْلِقَتْ في القرآن على أرْبعة أنواع:

النّوع الأول: الآيَاتُ الكونيَّةِ الدَّالَّاتُ علَىٰ طائفة من صفات الخالق الرَّبّ وأسمائه الحسنىٰ، ومنها أنّه عليم حكيم قدير رحيم اتقن كُلّ شيءٍ صنعاً.

النوع الثاني: الآيات الإعجازيَّة الخوارقُ، كعَصَا موسى عليه السلام، وكإحياء الموتَىٰ لعيسَىٰ عليه السلام، وكانشقاق القمر لمحمّد بن عبد الله ﷺ.

النوع الثالث: الآيَاتُ الجزائيَّة، كإغراق قوم نوح، ونجاة نوح والذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه في السّفينة، وكإغراق فِرْعَوْن وكلّ جُنْدِهِ الّذين خَرَجُوا معَهُ لِقِتَالِ بَنِي إسْرائيل حينَ خَرجوا من مِصْرَ بقيادة موسى وهارون عليه السلام، ونجاة بني إسرائيل بآيَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ لموسَىٰ.

النوع الرابع: الآيَاتُ الْبَيَانِيَّةُ الْمُنَزَّلَة، وهي الْكَلاَمُ الَّذِي يَنْتَهِي بفواصِل داخِلَ السُّورَة القرآنيّة، والآيَةُ مِنْهَا ما يَنْتَهِي بفاصِلَة ولَوْ كان كَلِمة، مثل ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ أو بعض الحروف المقطّعة، مثل ﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ : أي: الْقُرْآن المنَزَّل على الرسول ﷺ، سُمّي كتاباً للدّلاَلَة على أنَّ الْمَطْلُوبَ مِنَ الرَّسُول ومن سَائر المؤمنين أن يَكْتُبُوهُ ويَجْعَلُوا سُورَهُ مجموعةً في كتابٍ واحِدٍ ذي دُفَّتَيْن، مُمَيَّزاً عَنْ غَيْرِهِ من الكُتُب.

و«الْ» في لفظ «الكِتَاب» هُنَا لِلْكَمَالِ، نَظَرَاً إلَىٰ أَنَّهُ بَالِغٌ دَرَجَةَ الكمَالِ فِي كلِّ شيءٍ من مَبَانِيه ومَعَانِيه.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» وهـٰذَا الفعلُ يأتي لازماً ومتعدّياً.

فَمَعناهُ عَلَىٰ اللازم: الظّاهِرُ الواضِح الذي لا غُمُوض فيه لمن تَدَبَّرَ جُمْلَةَ نُصوصِه حَوْلَ مَوضوع واحد.

ومعناه عَلَىٰ المتَعَدِّي: الْمُظْهِرُ الْمُوضِحُ للمعَاني المرادِ بيانُها للناس، إِذَا أَحْسَنَ المتدبِّرُ جَمْعَ النّصوصِ وَتَدَبَّرَها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً.

وكلا هـٰذين المعْنَيْنِ مُرَادَانِ والله أعلم، فَالقرآن المجيد ظاهِرٌ في نَفْسِه، وهو كاشِفٌ مُظْهِرٌ للمعاني المرَادِ بيانُها للناس بآيَاتِه، وقد يَقتضِي هذا الكشف جَمْعَ عِدَّة نُصوص وتَدَبُّرَهَا تَدَبُّراً تكامُلِيًّا.

قول الله عزّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

﴿لَعَلَّكَ﴾: كَلِمَةُ «لَعَلَّ» تَدُلُّ على أمْرٍ مُتوقَّع الحصُول بِحَسَبِ نِظَام الأسْبَابِ والمسَبَّبَات، فإنْ كانَ المتوقَّع حُصُولُهُ مَرْغُوباً فيه كانَ التوقُّعُ تَرَجِيًا، وإنْ كان المتوقَّعُ حُصُولُهُ مَكْرُوهاً كانَ التَّوَقُّعُ إشفاقاً.

و«لَعَلَّ» هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ في الإشفاق.

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي: قَاتِلٌ نَفْسَكَ يَا مُحمَّدُ مِنَ الْهَمِّ والْغَمّ والْحُزْنِ. وأصْلُ الْبَخع في اللُّغَة أنْ يَذْبَحَ الذّابِحُ ذَبيحتَهُ، حتَّىٰ تَبْلُغَ سِكّينُهُ قَرِيباً من فَصْلِ الرأسِ كُلِّهِ عن سَائِرِ جَسَدِها.

﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: أيْ: حَذَرَ أنْ لاَ يَكُونَ قَومُكَ وعشيرَتُكَ الأقْربُونَ، الّذِينَ اجْتَهَدْتَ في مُعَالَجَتِهِمْ مِنْذُ بَدْءِ رِسالَتِكَ، مُؤْمِنِينَ قَبْلَ انتهاء آجالِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فَيُعَرِّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَاب الله الخالِدِ في دارِ العذاب يَوْمَ الدّين، مع ما قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عَذابٍ وهَلاَكٍ فِي الحياة الدُّنيا عِقاباً لهم على إصرارهم على الْجُحُود.

استعمل اسم الفاعل وهو لفظ «مُؤمنين» هُنَا للدَّلاَلَةُ على الاستقبال فهو هنا بمَنْزِلَة الفعل المضارع ونظائره في القرآن كثير.

وفي عبارة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ رائحة الاستفهام العتابي، مع التّوجِيهِ المشدّد أَنْ لاَ يحزَن مِنْ أجل خوفه ألّا يكُونُوا مؤمنين.

فالمعنىٰ: أشْفِقْ علىٰ نَفْسِكَ يا مُحمَّدُ من أنْ تُعرِّضَهَا للقَتْلِ بِسَبَبِ الْهَمِّ والْغَمِّ والْحُزْنِ، مِنْ أجْل قَوْم لَمْ يُشْفِقُوا على أنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمُ الّذِي أوعَدَهم به، مع اسْتِيقَانِ قُلُوبِهِمْ من صِدْق نبُوَّتِكَ ورِسالَتِكَ، وأنَّ الْقُرْآنَ الّذِي تَتْلُوه عليهم مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

لكِنَّ قُلوبَهُمْ كالْحِجارَة بَلْ هِيَ أشَدّ قَسْوَةً، بِسَبَبِ كِبْرِهم ورَغَباتِ الْفُجُورِ الّتِي في نُفُوسِهم، ومَا لَدَيْهم من عِنَادٍ وتَمَسُّكٍ بمواريثهم الباطِلَةُ، فَهُمْ لَيْسوا صَالِحين لأن تُشْفِقَ عليهم، وتَهْتَمَّ وتحْزَنَ مِنْ أجْلهم.

وقد دلَّ هـٰذا الْبَيان عَلَىٰ أنَّ مِنْ نِظَام الأسْبَاب والمسَبَّبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي النَّاسِ، أَنَّ شِدَّة الْهَمِّ والْغَمِّ والْحُزْنِ، قَاتِلَةٌ للنُّفوسِ قَتْلاً بَاخِعاً، فاصلاً لِلأَرْوَاحِ عَنْها فَصْلاً سَرِيعاً، لاَ علَىٰ سبيلِ الموْتِ البطيء كالْعِشْق، بل هُوَ كالذَّبْحِ إلى أقْصَىٰ الرَّقَبَةِ.

وقد سبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ أنْ خاطَبَ اللهُ عزّ وجلَّ رسُولَهُ ﷺ بقوله له في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى:

[... **فَلاَ تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**] .

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمع «حَسْرَة» وهي شدّة التَّلَهُّفِ والحزْن.

أي: فلاَ تَحزَنْ مِنْ أجْلِ الذين كَفرُوا مِنْ قَوْمِكَ، خوفاً عَلَيْهِم مِنْ عذاب رَبّهم، فهم في حياة ابتلاء وامْتِحَانٍ، وإنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُون لحظَةً فَلَحْظَة، والحزْنُ مِنْ أجْلِهم يُخَالِفُ مقتَضيَاتِ حِكْمَةِ الله، إذْ قَضَىٰ وقَدَّرَ أن يَمْتَحِنَ عباده، فَيَكْشِفَ بالامْتِحانِ أحوال نفوسهم، وما تختار باختيارها الحرِّ من خير أو شرّ، ومِنَ اخْتَار بإرادته الحرَّةِ الباطلَ والشّرَّ، فَعَلَيْهِ أن يتحمَّلَ هُو وحْدَهُ نتيجةَ اختياره.

وسبق لدىٰ تدبّر هذه الآيَةِ في أثناء تدَبُّر سورة (فاطر) شرحٌ مُناسِبٌ وبَيانٌ مُسْتَفِيضٌ حَوْلَها، فَلْيُرْجَعْ إليه.

ولمَّا كانت عاطِفَةُ الرَّسُول نَحْوَ قَوْمِهِ شدِيدةً في الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ من عَذَاب النَّار يَوْم الدِّين، ورأىٰ أنَّ التوجيه الذي جاء في سورة (فاطر) توجيهٌ إرْشادّيٌّ، فقد بقي يَشْعُرُ بالْحُزْنِ الشَّدِيدِ من أجلهم.

فاقتضت الحكمة التربويَّةُ أنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِ حَوْلَ هذا الموضوع ما تَدَبَّرْنَاهُ آنِفاً مِنْ سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

ثمّ لمّا لَمْ يَستَطِعْ أن يَصرِفَ مَشاعِرَ حُزْنِهِ عَلَىٰ قوْمِهِ، ورأى أنَّ التَّوجيهَ الرّبّانِيَّ إرْشَادٌ لاَ تكليف، كانَ من الحكْمَةِ التَّرْبويَّة الرَّبَّانِيّة أن يُنْزِلَ اللهُ علَيْهِ قولَهُ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾: أي: وأنت سائر على آثارِهِمْ تَحْرِصُ على هدايتهم وتحْزَنُ مِنْ أجْلِهِمْ، وهم مُوغِلُونَ في الابْتِعَادِ عن صراط الحقّ والْهُدَىٰ الذي تَدْعُوهم إلَيْهِ، فلا ترى إلَّا آثارهم، إذْ أدْبَرُوا وَتَوَلَّوْا تَائِهِينَ في أودية الضلال والفسق والفجور.

﴿أَسَفًا﴾: أي: حُزْناً. والمراد ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ آيات القرآن.

• ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

دلَّتْ هٰذِهِ الآية على أنَّ نَفْسَ الرَّسُولِ ﷺ تَطَلَّعَتْ، راغِبَةً في أنْ يُنَزِّلَ اللهُ عزّ وجلَّ مِنَ الآياتِ المادِّيَّةِ، مَا يَجْعَلُ مَنْ هُوَ حَزِينٌ مِنْ أجْلِهِمْ يُؤْمِنُونَ، حِرْصاً على نجاتِهِمْ مِنْ عذاب الله، وسَعَادتهم الأبَدِيَّةِ في جنَّاتِ النَّعِيم، دُونَ أنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ ذَلِكَ بدُعَاءٍ ظاهِرٍ أوْ خَفِيّ.

لَكِنَّ حِكْمَةَ اللهِ الْعَلِيم بخفايَا نُفوسِهِمْ وقُلوبِهِمْ اقتضَتْ عَدَم تَلْبِيَةِ هٰذِهِ الرَّغْبَةِ النَّبويَّة، فَلَمْ يَشَأْ أنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ من السَّمَاءِ آيَةً تُلْجِئُهُمْ إلَىٰ الْإيمانِ إلْجاءً، إذِ الحكْمَةُ فِي امْتِحَانِهِمْ في ظروف الحياة الدُّنيا، تَقْتَضِي أنْ تَدْفَعَهُمْ عُقُولُهُمْ وضَمَائِرُهم وإرادَاتُهم الحرَّة إلَىٰ الإيمان بربّهم وبما جاءهم عنه، وإسْلامِهِمْ لأوامِره ونواهيه طائِعِينَ مختارِينَ، لاَ مُكْرَهِينَ، ولاَ مُلْجَئِينَ إلْجاءً بمخاوِفَ مادّيَّةٍ، كما فَعَلَ الله عزّ وجلَّ بِبَنِي إسرائيل، إذْ رَفَعَ فَوْقَهُمْ الطُّورَ وَتَوَعَّدَهُمْ بإلْقَائِهِ عليهم، وقالَ لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. البقرة.

﴿إِن نَّشَأْ﴾: كلُّ مَا جاءَ في القرآن من مِثْل هٰذِهِ العبارَة، فهو يَدُلُّ

عَنْ طَرِيق اللُّزُومِ الْفِكْرِيّ على أنّ حِكْمَتَهُ جلَّ وعَلاَ اقْتَضَتْ أنْ لاَ يَشَاءَ فَلَمْ يَشَأْ، لكنَّهُ قادر على أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، وأنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء، لَوِ اقْتَضَتْ حكْمَتُهُ أنْ يَشَاءَ.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾: أي: إنْ نَشَأْ أَنْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنَ السَّماءِ تُلْجِئُهُمْ إلْجَاءً إلىٰ الإيمان والإسلام نُنْزِلْهَا عَلَيْهِمْ، فالأمْرُ يَسِيرٌ علَيْنَا لاَ يَحْتاجَ أكثر من أن نقول: «كُنْ» فَهُو يكون. لكِنَّ حِكْمَتَنَا لَمْ تقتض أَنْ نَشَاءَ إنْزَالَ آيَةٍ مُلْجِئَة. ونَحْنُ نختار الأحْكَمَ والأحْسَنَ والأَفْضَل دَواماً.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: أي: فدامَتْ أعْنَاقُهُمْ مُطَأْطِئَةً مُنْحَنِيَةً لَها بسَبَبِ خَوْفِهم من انتقامِ ربِّهم منهم، حالَة كونهم فِي نفوسهم وقلوبهم خاضعين لربّهم، خَوْفاً من عذابه وجَبَرُوتِ سُلْطانه.

للمفسِّرين عدّةُ تَخْريجات لهذه العبارة، إذْ أشكل عليهم استعمال لفظ ﴿خَٰضِعِينَ﴾ الّذي هو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالم، والظاهر أن يُقال: فظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ لها خاضِعَةً.

والّذي أراه أن في الْجُمْلَة مَحْذُوفاً دَلَّ عليه لفظ ﴿خَٰضِعِينَ﴾ فالمراد فيما أرىٰ الدّلاَلَةَ على أمْرَين:

الأوّل: خضوع الظاهر بِطَأْطَأةِ الرِّقَابِ وانكِسَارِها وانْحنائها.

الثاني: خضوع النُّفُوسِ والْقُلوبِ من أعماقِهَا خَوْفاً من جَبرُوتِ سُلْطانِ اللهِ العظيم.

ومُقْتَضىٰ الدَّلاَلَةِ على هٰذيْنِ الأمْرَينِ أنْ يُقال: فظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ مُنْحَنِيَةً خَاضِعةً في السُّلُوك الظَّاهر، وظَلُّوا في نفوسِهِمْ وقُلُوبِهم خائفِين خاضِعِينَ من هَوْلِ مَا يُشاهِدونَ من عَظَمَةِ الآيَة.

وإيجازاً في التَّعْبير حُذِفَ مِنَ اللَّفْظِ مَا يَدُل على انحناء الأعناقِ وانْكِسَارِها، اكتفاء بذِكْرِ ﴿أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ وحذف من اللفظ مَا يَدُلُّ على حالة نفوسِهِمْ وقُلُوبِهم، الّتِي هي في الحقِيقَةِ ذواتُهم، اكْتِفَاءً بذِكْرِ: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ ونظائِرُ هذا الحذف في القرآن المجيد كثيرة.

﴿فَظَلَّتۡ﴾: فعْلُ: «ظَلَّ، يَظَلُّ، ظَلًّا، وظُلُولاً» يأتي للدّلالة على معْنَيَيْن:

المعنىٰ الأوّل: يقال فيه: «ظَلَّ فُلاَنٌ يَعْمَلُ كَذَا» أي: اسْتَمَرَّ يَعْمَلُ كذا نهاراً.

المعنى الثاني: يقال فيه: «ظَلَّ فُلانٌ مُطِيعاً مُنْقَاداً». أي: دَامَ على الطاعَةِ والانقياد.

وهذا المعنى الثاني هو الملائم للنّصّ هُنَا.

وجاء استعمال الفعل الماضي: ﴿فَظَلَّتۡ﴾ بمعنى الفعل المضارع لمجيئه في جواب «إنْ» الشرطية[١].

﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾: «أعْنَاق» جمع «عُنُق» وهو وُصْلَةٌ بيْنَ الرأسِ والْجَسَد، «يُذَكّر، وقد يُؤنث» ويُطْلَقُ عليه «الرَّقَبَة».

ويُطْلَقُ لفظ «الأَعْنَاقِ» علىٰ رُؤَسَاءِ الْقَوْمِ وسادَتِهم وأعْيَانِهم، وعلى هذا المعنى يقالُ في فهم الآية: فظلّتْ ساداتُهُمْ لها خاضِعِين.

﴿لَهَا خَٰضِعِينَ﴾: «لَهَا» معْمُول لـ «خاضِعِينَ» مُقَدَّمٌ عليه، للتَّخْصِيصِ، وللتلاؤُمِ مَع رؤوسِ الآيات.

---

(١) يقال لغة: إنْ شَاءَ فَعَل، أي: إنْ يَشأْ يَفْعَلْ، وكلُّ أدوات الشرط يكونُ فعل الشّرْط وفعل جوَابه فيها مضارعاً أو مَاضياً، والماضي ينقلب بها معناه إلى المضارع. كما يَنْقلِبُ المضارع إلى معنى الماضي إذا دخَلَتْ عليه «لَمْ» الجازمة.

الخضوعُ: هُوَ في اللُّغَةِ الْمَيْلِ والانْحِنَاء، والذُّلُّ والانقياد، يقال لغة: خَضَعَ، يَخْضَعُ، خَضْعاً، وخُضُوعاً، وخُضْعَاناً» أي: مَالَ وانْحَنَىٰ ـ وذَلَّ وانْقَادَ.

ومن الخضوع اللِّينُ في الْقَوْلِ، تَذَلُّلا واسْتِعْطَافاً، أو اسْتِمَالةً وتَلطُّفاً.

قول الله تعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾:

في هذه الآية مُتابعةُ بيانٍ عَنِ المعنِيّينَ بِهَمِّ الرَّسُول وغَمِّه وحُزْنِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ. وهذه الجملة حاليّةٌ فيما أرَىٰ، أي: أنت شديدُ الحزن القاتِلِ من أجْلِهِم حالةَ كونهم ما يأتيهمْ من ذكر من الرحمن مُحْدَثٍ إلَّا كانوا عنه معرضين.

﴿مِّن ذِكْرٍ﴾: أي: من نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ مُنَزَّلٍ ليَكُونَ ذِكْراً يُسْتَذْكَرُ عِنْدَ المناسبات الدَّاعِيات إلى تذكُّرِ شيءٍ مِنْهُ، وحرف «مِنْ» مَزِيدٌ لتوكيد العموم.

﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: اختير هنا اسْمُ الله الرّحمن» للدّلالة على أنَّ كُلَّ مَا يُنْزِلُهُ الله عزّ وجلَّ لعباده في كتابِهِ، من وَصَايَا وشَرَائِعَ وأحكام هو من عطاءاتِ رحمته لعباده، إذْ فيها نجاتُهُمْ وسَعَادَتُهُمْ الأبَدِيَّةُ الخالدة، إذا اهْتَدَوْا بهُدَاهَا، وعَمِلُوا بما اشتملَتْ عليه من أوامِرَ، واجتنبُوا ما اشتَمَلَتْ عليه من نواهِي.

﴿مُّحْدَثٍ﴾: أي: مُحْدَثِ التنزيل.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: أي: إلَّا كَانُوا مُحَوِّلِينَ وُجُوهَهُم عَنْه.

الإعْرَاضُ: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بيْنَ الإقبالِ والإدْبَار، وأصْلُ الإعراضِ

إعطاء الجانب، عُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانِبَه، وعارِضَا الإنْسَانِ صَفْحَتَا خَدَّيْه.

وجاء وصْفَهُم بالإعراضِ هُنَا مَعَ أَنَّهُمْ مُدْبِرُونَ عن الدّينِ كُلّه، وعَنْ كُلّ دَعْوَةٍ تَتَّصِلُ به، للدّلاَلَةِ علىٰ أَنَّهُمْ إذَا تُلِيَتْ عليهم آيَاتٌ مُنَزَّلاَتٌ تنزيلاً مُحْدَثاً سَمِعُوهَا، وهُمْ مُعْرِضُون عن مُقَابَلَةِ الرّسُول ﷺ بوجوههم، إشعاراً بأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِئِينَ بها، ولا يَعْنِيهِمْ أنْ يَسْمَعُوها.

فأَبَانَ اللهُ لِرَسُوله بِهـٰذِهِ الآيَةِ، أنّ الّذِينَ يَحْزَنُ من أَجْلِهِمْ حُزْناً شَدِيداً من شَأنه في نظام الأسبابِ والمسبَّبَاتِ أنْ يكون قاتِلاً، قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ ميؤوسٍ معها من إيمانِهِمْ وإسلامهم عن طريقِ إراداتهم الحرَّة، فَهُمْ غَيْرُ جَدِيرين بِهَمِّهِ وغَمِّهِ وحُزْنِهِ من أجْلِ نجاتهم من عذاب النار، وسعادتهم في جنَّاتِ النعيم.

والمعنَىٰ: راقِبْهُمْ وأنت تتْلُو عَلَيْهم ذِكْراً مُحْدَثاً تَجِدْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ وهُمْ عَنْكَ مُعْرِضُونَ، إشعاراً بأَنَّهُمْ غَيْرُ عَابِئِين ولاَ مُكْتَرِثين.

وزاد حَالُهُمْ سُوءاً إبَّانَ نُزُول سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلَّ بشأنِهم:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: يتظاهرون بأنهم مشغولونَ عنه باللّعِبِ مع أنّهم يَسْتَمِعُونه، لكِنَّهُمْ يَجْحَدُونه، ويَجْحَدُونَ مَا جَاءَ فيه، ويجْحَدُونَ نُبوةَ الرّسُولِ وَرِسَالَتَه، فقُلوبُهُمْ لاَهيةٌ عنه.

قول الله تعالى:

- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾:

أي: فَقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُول، وكَذَّبوا بالقرآن، وبأَنْبَاءِ الوعِيد الّتِي جاءتْ فِيه، ومنها الوعيد بانتصار الرسُولِ والّذين آمَنُوابِهِ واتَّبَعُوهُ عَلَيْهِم، في زَمَنٍ غَيْرِ بعيدٍ، واسْتَهْزَؤُوا بِهٰذِهِ الأنباء، إذ يَرَوْنَ الرَّسُولَ والمؤمنين بِهِ ضفعاءَ مُضطَّهدين، لا قوَّة لَهُمْ على مُوَاجهة قُوىٰ كُبَراءِ مَكَّة ذوي السُّلطَانِ والغِنَى والْأَتْبَاعِ والأنصارِ الكثيرينَ بالنِّسْبَةِ إلى جماعاتِ المؤمنين المسلمين.

وتدبُّر هذه الآية بعُمْقٍ يَكْشِفُ أنَّ فيها حذفاً من الأوائل تَدُلّ عَلَيْه الأواخر، وحَذْفاً مِنَ الأواخِرِ تَدُلُّ عليه الأوائل، وهو ممَّا يُسَمَّىٰ عِنْدَ البلاغِيّين «الاحتباك» والتقدير:

فَقَدْ كَذَّبوا واسْتَهْزَؤُوا بأنْبَاء الْوَعِيد الّتِي جاءت في القرآن، ومنها انتصار المؤمنين عليهم في زمَنٍ قَريب، فَسَيَأْتِيهِمْ قَرِيباً (بدليل اسْتِخدام حرف «السّين») تَحْقِيقُ أنْبَاءِ ما كانوا بِهِ يُكَذِّبُونَ ويَسْتَهْزِئُون بتكرار متجدّدٍ حيناً فحِيناً.

﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾: أي: أخبار، مُفْرَدُهَا «نَبَأ» وهو الْخَبَرُ البارِزُ الظَّاهر ذو الشَّأْنِ الْمُهِمِّ الرَّفيع.

الإنْبَاء: الإخبارُ والإعْلاَمُ، يُقَالُ لُغةً «أَنْبَأَهُ، وَنَبَّأَهُ الْخَبَرَ وبالْخَبَر» أي: أعْلَمَهُ به، ويُسْتَعْمَلُ النَّبَأُ كثيراً في الْخَبَرِ ذِي الْخَطَرِ والشأْنِ المثِيرِ للعِنَايةِ به، لأنَّ أصْلَ مادَّةِ الكلمة يَدُورُ حول الارتفاع والظُّهور.

وكلُّ خَبَرٍ لَهُ دَلالَةٌ في الإدْرَاكِ الذِّهْنِيّ، ولَهُ تعلُّقٌ بواقعٍ يُطابقُهُ إنْ كانَ صَادِقاً، ولاَ يُطابقهُ إنْ كان كاذِباً.

وإتيانُ النّبأِ أو الْخَبرِ الصَّادِقِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ تَعَلُّقِهِ بالواقِع المستَقْبَليّ، يَكُون بتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ على وفق الصُّورَةِ الّتِي قَدَّمَهَا للإدْراك الذهْنِيّ.

وعبارة: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يُرادُ بِها الواقع المطابقُ للصُّورَةِ الّتي قَدَّمَهَا للإدْراك الذِّهْني، هذا في التحليل الْفَلْسَفِي.

أمّا بالنسبة إلى الشَّرْحِ اللُّغَوِيِّ فالْعِبَارَةُ على تقدير: فَسَيَأْتِيهِمْ واقِعُ أَنْباءِ مَا كانوا بِهِ يُكَذّبون ويَسْتَهْزِئون من وعيدٍ.

ودلَّ قول الله لِرَسُولِهِ بشأنِ مَنْ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ حُزْناً شَدِيداً، قاتلاً بحِسَبِ نِظَام الأسْبابِ والمسَبَّبَاتِ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: واسْتَهْزَؤُوا، علىٰ أَنَّهُمْ غَيْرُ جَدِيرِين مُطْلَقاً بأن يَحْزَن مِنْ أجْلِهِمْ حُزْناً مَا، أوْ أَنْ يَشْفَقَ عَلَيْهِم، إِذِ الْمُرادُ أَنَّهُمْ كذَّبُوا جاحِدِين، لاَ شَاكِّين، ولاَ باحِثِينَ عَنِ الحقِّ بأنَاةٍ وتفكُّر، بَلْ قَدْ دَمَغَتْهُمُ الحجَّةُ، واستيقَنَتْ أَنْفُسُهُمْ أَنَّ مُحمَّداً صَادِقٌ فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبّه، فَهُمْ كافِرُون كُفْراً إرادِيًّا يَسْتُرونَ بِهِ الحقَّ الَّذِي اسْتَيْقَنُوه، ويُجَادِلُون بالباطل ويَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ، ويَسْتَخْدِمُونَ وَسِيلَةَ الاسْتِهْزاءِ لِتَضْلِيل جماهِيرِهم، والتَّغْشِيَةِ علَىٰ بصَائِرِهم.

قول الله تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾:

الواو العاطفة هُنَا بَعْدَ همزة الاستفهام عَطَفَتْ على محذوف يمكن إدراكه واستخراجُه بالتفكّر المتأنّي، أي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آيات الله الكثيرةَ في كَوْنه، ونِعَمَهُ الّتي لا يستطيعون إحصاء مفرداتها، ولَمْ يَرَوْا بأفكارهم وقلوبهم ناظرين بأعينهم إلى الأرض كم أنبَتْنا فيها من كلّ زَوْجٍ كريم، إنعاماً مِنَّا عليهم ورحمةً منّا بهم.

والاستفهام فيه معاني التلويم والتثْرِيب والتوبيخ، وقد عَنَىٰ اللهُ بالخطاب هنا المكذِّبين المستهزئين، الذين يدور الحديث في هٰذا الدرس حولهم، مع الإعراض عنهم، في مقابلِ إدْبارهم وتوليهم، وجحودِهم الذي يُعانِدُون به الحقَّ مع اسْتِيقَانِ أنفسهم وقلوبهم به.

وقد ذكَرْتُ أنَّ الواو عاطفةٌ على محذوفٍ مطويّ في مَثَاني دلالات الآية، إذْ دلَّتْنِي الاسْتِعمَالاَتُ القرآنيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ حُروفِ العطف يمكن أن

يُعْطَفَ بها على محذوفٍ مَطْوِيٍّ في مَثَاني دلالات النَّصّ، مثل «الفاء» الّتي سَمَّاها النحْوِيُّونَ الْفَاءَ الفصيحة، أَخْذاً من العطف بها في القرآن على محذوفٍ يُمْكن اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً.

والْفِعْلُ في ﴿يَرَوۡا﴾ ضُمِّنَ معنى الفعل في «يَنْظُرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ بحَرْفِ الجرّ «إلى»، والتقدير: أَوَ لَمْ يَروْا نَاظِرين بأعْيُنِهِم إلى الأرض، والْغَرَضُ الدَّلاَلَةُ علَىٰ الرُّؤْيَةِ الفكرية العِلْمِيَّة، وعلى النَّظَرِ بأَعْيُنِهِمْ إلَىٰ ظاهِرَةِ إنْبَاتِ الله النباتاتِ في الأرض، ذواتِ الثمرَاتِ منْ كلِّ جِنْسٍ ونَوْعٍ وصنف.

﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾:

كلمة «كَمْ» هُنَا خبريَّة، تدُلُّ علىٰ عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهَم المقدار والجنس أو النوع، أو الصّنْفِ. وهي اسْمٌ ثُنائِيٌّ مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ، ويكونُ تَمْيِيزُها مَجْرُوراً مفرداً أو جمعاً. وتمييزها هنا «الإنبات» المفهوم من ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾ وهو مُبَيَّنٌ هنا بحرف «مِنْ» البيانية، في عبارة: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ واختير ضمير المتكلم العظيم في ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾ لما في هذا الإنبات من دلالة على رُبوبيّةَ الله لعباده، ورحمته العظيمة بهم.

﴿زَوۡجٖ﴾: يُرَادُ بالزَّوْج هنا ما يَشْمَلُ الجِنْسَ، والنوعَ، والصّنْف. وإطلاق لفظ «الزوج» على الجنس، أو النوع، أو الصنف، إطْلاقٌ لُغَوي.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: جَامِعٍ للصفات الحسَنَةِ النافعة للناس ولسائِرِ الأحياء في الأرض.

وجاء هنا تخصيصُ آيَاتِ الله في النَّبَاتِ بالذكْرِ الصَّرِيح في اللّفظ، مع العطف على محذوفٍ مطويٍّ يَشْمَلُ سَائر آياتَ الله التي سَبَقَ في نجوم التنزيلِ التَّنْبِيهُ عليها، لِمَا في النباتاتِ من آثارِ رَحْمَةِ الله بعباده، ونِعَمِهِ الكثيرة عليهم، ممَّا يَشْهَدُونَه في مُعْظَمِ أوْقَاتِهِمْ نهاراً وليلاً، ويَسْتَمْتِعُون بِهِ

في أقواتهم وفَاكِهَاتِهم، وأقوات ومنافع أنعامهم ودوابّهم دَواماً. وهٰذه النِّعَمُ العظيمة والوفيرةُ تَسْتَدْعي من الناسِ المستَمْتِعِينَ بها في الأرض أنْ يُقَابِلُوهَا بالشكر، والطَّاعَةِ، والإسْلام، والإيمان، لاَ أَنْ يقابلوها بالكُفْرِ والْجُحُودِ والفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ، كما يَفْعَلُ الَّذين يُكَذِّبُونَ ويَسْتَهْزئون مِنْ كُبَراءِ كُفَّارِ مَكَةَ وَمَا حَوْلها، وهُمُ الّذِينَ يحْزَنُ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ مِنْ أَجْلِهِمْ، حُزْناً شَدِيداً قَاتِلاً بحَسَبِ نظَامِ الأسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ في الناس.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: إنَّ في ذَلِكَ المقدار العظيم الذي أنْعَمْنَا بِهِ على الناس، بما أنْبَتْنَا في الأرض من كُلِّ زَوْجٍ كريمٍ، لآيَةً عظيمةً كافِيَةً للدَّلاَلَةِ علَىٰ ربوبيَّةِ الله الخالق لعباده، وإنْعَامِهِ عليهم، ورحْمَتِه بِهِمْ، ونَحْنُ نَرْضَىٰ لَهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا وَيَشْكُرُوا، ونَجْزيهِمْ عَلَيْهِما جَزَاءً عَظِيماً في جَنَّاتِ النعيم، ونَنْقِمُ مِنْهُمْ أَنْ يَجْحَدُوا ويَكْفُرُوا، مع استمتاعهم بأنواعِ وأصنافِ نِعَمِنَا عَلَيْهِم، ونَجْزِيهم بعقابٍ عادلٍ على ما قَدَّمُوا مِنْ سَيِّئاتٍ، وعلى كفرهم بالحقِّ الذي استيقَنَتْهُ أنْفُسُهُمْ، لكِنْ جَحَدُوهُ ظُلْماً وعُلُوّاً.

لَكِنْ مَا وَجَدْنَا أَكْثَرَ هٰؤلاء الّذِين يُكَذِّبُونَ ويسْتَهْزِئُون ويَحْزَنُ الرسُولُ مِنْ أجْلِهِمْ حُزْناً شدِيداً، مَا وَجدْناهم ذَوِي قابليَّةٍ ـ بحَسَبِ الحالَةِ الّتي وصَلُوا إليها ـ لأنْ يُؤْمِنُوا مسْتَقْبَلاً، إذْ وَصَلَتْ نفوسُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى حَالة من العناد والتَّحَجُّرِ والْهُبُوطِ في الدركات مَيْؤُوسٍ مَعَها من إيمانهم وإسلامهم عَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الحرَّة، وفْقَ نظام الأسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ في طبائع الناس.

لفظ «كان» في عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ معنى

الصَّيْرُورَةِ ذاتِ الاستمرار، ونظائر هـٰذِهِ الدَّلاَلَةِ لفِعْلِ «كان» كثيرةٌ في القرآنِ المجيد. أي: وصَارَ أَكْثَرُهُمْ مَرْضَىٰ القلُوبِ مُتَحجّرين غير ذوي قَابليَّةٍ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، فَهُمْ ذُوو حالاَتٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من أَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً عن طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّة.

ولأمْرَاضِ قُلُوبِ النّاسِ أَمَارَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْها في ظواهِرِ سُلُوكِهِمْ، فَكَيْفَ بالخالِقِ الْعَلِيم المطَّلِع علىٰ كُلّ الظَّواهر، وعلى ما في الْقُلُوب والنفوسِ والضَّمَائِرِ من سَرَائر.

فعبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مستقبلاً، تُفَسَّرُ تفسيراً تَدَبُّرِيًّا بِأَنْ نقول: وَصَارَ أَكْثَرُهُمْ غَيْرَ ذَوِي قابِلِيَّةٍ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

استعمل اسم الفاعل ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ في مكان الفِعْلِ المضارع «يُؤْمِنُون» الدّال على الحالِ والاستقبال.

أمّا الّذين لَدَيْهِمْ مِنْهُمْ قابِلِيَّةٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً فَهُمْ أَقَلُّهُمْ. ومِنْ هؤلاءِ الأقَلِّ الَّذِين آمَنُوا مِنْ كُبراء مُشْرِكي مَكَّةَ بَعْدَ نُزُول سُورَةِ (الشعراء) والّذين آمَنُوا مِنْهُمْ بَعْدَ هِجْرَةِ الرسُول ﷺ إلى المدينة، والذين آمنوا مِنْهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَبَعْدَه، كأبي سُفْيان بْنِ حَرْب.

وأوْعَدَ اللهُ الكافرين المكذّبين المعانِين المصرّين علىٰ الباطلِ، بعقابٍ يُجْرِيه بِعِزَّتِهِ الْغَالِبَةِ، وأشَارَ إِلَىٰ هَـٰذَا الوعيد بِذِكْر اسْمِهِ «العزيز».

وأَطْمَعَ الَّذِين لَدَيْهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا ويَتَّبِعُوا الْحَقَّ الّذي جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهم، بمغفرة وبثوابٍ يُجْرِيه لَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، وأَشَار إلى وَعْدِهِ الكريم بِذِكْرِ اسْمِهِ «الرَّحِيم».

فقال الله عزّ وجلَّ خطاباً للرَّسُولِ ولكُلِّ مُتَلَقٍّ للخِطَابِ من بَعْدِه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الْقَوِيُّ الغالِبُ.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: الْعَظِيمُ الرَّحْمَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيء.

جاء توكيد هذه الجملة بالمؤكِّدَات: «إنّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللَّام الْمُزَحْلَقة ـ ضمير الفصل».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الأوَّل، مِنْ دُرُوسِ سورة (الشعراء) والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفَتْحِهِ، وفيض عطائِه.



(٦)
التدبّر التّحليلي للدّرسِ الثاني من دُرُوس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١٠ ـ ١٩١)

وفيه سَبْعة فصول

الفصل الأول
لقطات تتعلّقُ بقصَّةِ موسَىٰ عَلَيْه السَّلام وَقومِهِ مِن المصْرِيّين

وهي الآيات من (١٠ ـ ٦٨).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾

قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ
يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟
حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟
لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ
فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا
ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ».

تمهيد:

سبق تدبّر هذا النصّ تدبُّراً تكامليًّا مع النصوص القرآنيّة الأخرى المتعلّقة بموضوعات فقراته، لدىٰ تدبُّر ما يَتَعَلَّقُ بقصّة موسَىٰ وهارون عليهما السّلام في سورة (طـه).

ولِذَا أقْتَصِرُ هُنَا على تحْلِيلِ فقراتِ هـٰذا النصّ من سورة (الشعراء) دُون إعادة الدّراسة التكامليّة بَيْنَهُ وبَيْنَ سَائِرِ النصوص القرآنية، المتعلّقة بقصة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

ولما كان مُشركو مكة قد ألَحُّوا بطَلَبِ الآياتِ الماديّة، كآيات موسى عليه السلام قَدَّمَ الله هنا قصَّته للدلاَلَةِ على أنّ الآيات المادِيَّة لم يَكُنْ لها تأثير عى قوم معاندين مكابرين، بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مُعَانِدِي كُبَرَاءِ قُرَيشٍ شبَهٌ كبير في الصّفات النّفسية المسْتَكْبِرَةِ المعَانِدَة، فلا جَدْوَىٰ من إجراء الآيات المادِيَّة لهم.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: أي: واذْكُر الأحْدَاثَ الّتي جَرَتْ وَقْتَ نِدَاءِ ربّكَ مُوسَىٰ، واذْكُرْ عِظَاتِها، بمعنى: ضَعْها في ذاكِرَتِكَ لِتَعْلَمَ سُنَّةَ رَبِّكَ فِي عبادِه ومِنْهُمْ أنبياؤهُ ورُسُلُه، ثُمَّ مَنْ هم دُونَهُمْ مُؤْمِنِيهِمْ على مراتِبِهِمْ ودَرَجَاتهم، وكافِرِيهم علَىٰ مَهَابِطِهِمْ وَدَرَكاتِهِم.

﴿وَإِذْ﴾ العطف بالواو هنا يَدُلُّ على مطويٍّ في اللّفظ مُقَدَّرٍ في الذِّهْنِ، أي: ضَعْ في ذاكِرتِكَ يَا مُحَمَّدُ ما أرْشَدْناك إليه في الدَّرْسِ الأوّل من دُروس السورة، مِنَ الكَفِّ عن الْحُزْنِ الشّدِيد من أجْلِ كُفَّارِ قومِكَ

وعشيرَتِكَ الأقربين، إذْ وَضَعُوا أنفسهم باختيارهم الحرِّ في مَهَاوِي عذابِ رَبِّهِم الخالِدِ يوم الدّين، وضَعْ في ذاكِرَتِكَ الأحداثَ الّتي جَرَتْ وَقْتَ نداءِ رَبّكَ مُوسَىٰ وَعِظَاتِها.

والخطابُ مُوَجَّهٌ أيضاً بَعْدَ الرَّسُولِ محمّد ﷺ لكلّ مُتَلَقٍّ يَنْتَفِعُ بما تضمَّنَهُ من دَلاَلاَتٍ وعِظات.

[إِذْ]: ظرفٌ للزّمان الماضي، وهو هنا زمَنُ بعضِ الأحداث التي جرَت لموسىٰ عليه السلام وقْتَ نداءِ اللهِ عزّ وجلَّ مُوسَىٰ، ومَا بَعْدَه حتَّىٰ آخرِ الأحداث المبيَّنَةِ فِي النصّ من قِصَّتِه.

﴿نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾: أي: دعَاهُ بِصَوْتٍ عَالٍ، أَصْلُ النداء في اللُّغَةِ: الدُّعاء بأرْفَع صَوْتٍ يَسْتَطِيعه المنَادِي من الناس.

وكان هٰذا النداء من الرَّبّ جلّ جلالُهُ لموسَىٰ قَبْلَ أَنْ يُقَرِّبَهُ ويُنَاجِيَهُ مُنَاجَاةً، كما أوضَحْتُ هذا في النظرات التكامليّة لدىٰ تَدَبُّرِ سورة (طـه).

المناجَاةُ: هي الإسرارُ بالحديث.

واختيرتْ هُنَا عبارَةُ ﴿رَبُّكَ﴾ للدّلاَلَةِ علَىٰ صفاتِ رُبيَّتِه المشتَمِلَةِ على شُمُولِ عِلْمِهِ، وسَامِي حِكْمَتِهِ في اختياراتِهِ لمقادِيره في عباده، فَلاَ يَنْبَغِي لعبادِهِ المصْطَفَيْنَ الأخْيار أَنْ تكونَ لَهُمْ رَغباتٌ مخالفاتٌ لمَا قَدَّرَهُ وقَضَاهُ بِحِكْمَتِه في عباده.

﴿مُوسَىٰٓ﴾: سبَقَ في سورة (طـه) مَا يَتعلَّقُ بهذا الاسم الذي سُمِّيَ بِهِ نبيُّ اللهِ ورَسُولُه الّذي أنزلَ عليه التوراة.

﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: «أنْ» تفسيريَّة ومَا بَعْدَها تفسيرٌ لِبَعْضِ ما خاطَبَ اللهِ به موسَىٰ عليه السلام، دَلَّ عَلَىٰ الْبَعْضِيَّةِ مَا جاء في النّصوص الأخرىٰ من بيانٍ لما خاطب الله بِه مُوسَىٰ بجانب الطور.

﴿ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ﴾: أي: جيء الْقَوْمَ. يقالُ لغة: «أَتَىٰ المكانَ أَوِ الرَّجُلَ يأتِيه، أتياً، وإتْيَاناً، وإتيًا، ومَأْتًى، ومَأْتَاةً» أي: جاءَهُ.

وجاء في سورة (النازِعَات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسَىٰ:

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾:

وبالنظرة التكامليَّة بَيْنَ الأمْرِ بالذَّهَابِ والأمْرِ بالإتيان يَبْدُو لِي أنَّ التَّكْلِيفَ أذِنَ لَهُ بأنْ يَصِلَ إلى أهْلِهِ أوَّلاً، وبَعْدَ ذلِكَ يأتِي إلَىٰ فِرْعَوْن، وَلَكِنَّ عَلَيْهِ أنْ لاَ يَتَأَخَّرَ عَنْ مُقَابَلَةِ فِرْعَوْنَ، وبِعَدَم تأخُّرِهِ يَكُونُ بمَثَابَةَ مَنْ ذَهَبَ مُبَاشَرةً من مُنَاجَاتِهِ رَبَّهُ إلى مُقَابِلَةِ فِرْعَوْنَ، لِيُبَلِّغَ رسالَةَ رَبِّهِ إلَيْه.

ووَصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ فِرْعَوْن وَقَوْمَهُ بوَصْفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ في حقِّ اللهِ عليهم، وظُلْمِهِمْ لعبادِ اللهِ بسُلْطانِهِمُ الآثم الغاشم، وظُلْمِهِمْ أنْفُسَهُم بمُمَارَسَةِ ما يَضُرُّهم وَلاَ يَنْفعهم، ويُفْهَمُ هذا التَّعْمِيمُ مِنْ واقِعِ حَالِ فِرْعَوْنَ، وَمَلَئِهِ، وجنُودِهِ، وسائر قَوْمه الذي جاء بيانُه في القرآن المجيد في مختَلفِ النّصُوص.

ويُومِىءُ وصْفُهُمْ بالظَّالِمِينَ إلى الحكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إرْسالِ رَسُولٍ إليهم، لِيُبيِّنَ لَهُمْ مطْلُوبَ رَبِّهِم مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا، تحقيقاً لِسُنَّتِهِ في إرْسَالِ رَسُولٍ إلَىٰ كلِّ أمَّةٍ يَتَطَلَّبُ واقِعُها إرْسَالَ رَسُولٍ إلَيْها، لِيُبَلِّغَها الدِّينَ الَّذِي اصطفاهُ لِعِبادِهِ في حياة الابتلاء.

وأبان اللهُ عزّ وجلَّ المُرَادَ بالْقَوْم الظَّالِمِينَ فقال تَعالىٰ: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ ويَدْخُلُ فِرْعَوْنُ فيهم، لأنّه أكْثَرُهُمْ طُغْياناً وكُفْراً وإمَامُهُمْ في كُلّ شرّ.

وهو بَدَلٌ أو عطفُ بيان من: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقولُ اللهِ تَعَالَىٰ لموسى بشأن قوم فِرْعَوْن: ﴿... أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾؟

يَتَضَمَّنُ تعليماً لَهُ بأنْ يَسْتَعْمِلَ فِي دَعْوَتِهِ لَهُمْ أَلْيَنَ الْقَوْل في بداية الأمْر، ويكُونُ هَـٰذَا بأسْلُوب الْعَرض الاستفهامِيِّ الرَّفيق.

والمعنى: فَقُلْ لَهُمْ: «أَلاَ تَتَّقُونَ»؟.

وهذه العبارة الرفيقةُ اللّيّنَةُ قَدْ قالَها كما أبان اللهُ عزّ وجلّ في مواضع من سورة (الشعراء) نوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ عليهم السَّلاَمُ لأقوامهم، في بدايَةِ دَعْوَتِهِمْ إلى دِينِ اللهِ رَبّهم، الّذي اصطفاه لعباده.

وقالها أيضا إلْياس عليه السلام لقومه، كما أبان الله عزّ وجلّ في الآية (١٢٤) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

وعلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ أن يَقُولَها في جَدَلِيَّاته للمشركين، كما جاء في الآية (٣١) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول). وفي الآية (٨٧) من سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول).

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، ويُرَادُبِهِ هنا الْعَرْضِ اللَّيِّنُ الرفيق بأسْلُوب الاستفهام. و«لاَ» حَرْفُ نَفْيٍ، و«تَتَّقُونَ» فِعْلٌ مُضَارِعٌ مَنفيٌّ بـ «لاَ» المسبوقَةِ بِهَمْزَةِ الاستفهام.

والمعنى: ألاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَقُوا أنفُسكُمْ مِنْ عَاقبة ما أَنْتُمْ فيهِ من كُفْرِ بِرَبّكُم، وظُلْمِ لحقِّهِ عليكُمْ، وظُلْمِ لعباد اللهِ، وظُلْم لأنْفُسِكُمْ بِمُمَارَسَة مَا يَجْلُبُ لَكُم الضُّرَّ والأذَىٰ، وشُرُوراً لاَ تَسْتَطيعونَ كفَّ وَيْلاتِهَا عَنْكُمْ.

يقال لغة: «اتَّقَىٰ يتّقِي اتّقَاءً، وتَوَقَّىٰ، يَتَوَقَّىٰ تَوَقِّياً، وتُقىً، وتَقِيَّةً، وَتِقَاءً» أيْ: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا يَضُرُّهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أو يؤلمه ما يَقِيهِ ويحْفَظُهُ مِنَ الضُّرِّ والأذىٰ والألم. والاسْمُ «التَّقْوىٰ».

و«الوِقَاءُ، والْوَاقِيةُ» كلُّ مَا وَقَيْتَ وَحَفِظْتَ بِهِ شيئاً ما، من مادّيٍّ أو معنويّ.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

القراءات:

(١٢) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرٍو، وأَبُو جَعْفَرٍ: [**إِنِّيَ أَخَافُ**] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشَرَةِ بالإسْكان: [**إنِّي أَخَافُ**].

(١٢ ـ و١٤) • قرأ يَعْقُوب: [**يُكَذِّبُونِي ـ يقْتُلُونِي**] بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً وَوَقفاً.

وقرأهُما باقي القرّاء العشَرَةِ بِحَذْفِ ياء المتكلم: [**يُكَذِّبُونِ**] ـ [**يَقْتُلونِ**]. حذف ياء المتكلّم في النُّطق مألُوف في اللِّسان العربي، وهو من الإيجاز في النطق.

(١٣) • قرأ يعقوب: [**وَيَضِيقَ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقَ لِسَانِي**] بنَصْبِ الفِعْلَيْنِ عَطْفاً على [**أَنْ يُكَذِّبُونِ**] المنصوب.

وقرأهُمَا باقِي الْقُرَّاءِ العشرة بالرفع على الاستئناف: [**وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي**].

والقراءتان متكامِلَتَانِ في أداء المعنَىٰ المراد، فقراءة يعقوب على معنى: وأخافُ أنْ يَضِيقَ صَدْرِي ولاَ يَنْطَلِقَ لِسَانِي.

وقراءة الجمهور هي على معنىٰ: وأَنَا يضيقُ صَدْرِي ولا يَنْطَلِقُ لِسَانِي بِحَسَبِ مَا أعْرِفُ مِنْ نَفْسِي في المواقف الْحَرِجة.

وإيرادُ الْقِرَاءَتَيْنِ يدُلُّ على أنَّ مُوسىٰ عليه السلام عبَّر بالعبارتين، إحْدَاهما أبَانَ فيها ما يَعْلَمُ من نفسه بِحَسَبِ العادة، والْأُخْرَىٰ أبانَ فيها تَخَوُّفَهُ من أَنْ تَتَحَكَّمَ بِهِ صِفَتُه المعتادة.

التدبّر التحليلي:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾: أي: قال موسى عليه السلام: رَبِّ إنِّي أخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي في أنّي رسُولُ رَبِّ العالمين، أي: وإِذَا كذَّبُوا بِرِسالَتِي وبما جِئْتُهُمْ بِه، فإنَّهم قَدْ يُنَكّلُونَ بي، إذْ إنّي أعْلَمُ أنَّهُمْ جَبَابِرَةٌ، ذَوُو سُلْطانٍ استِبْدَادِيٍّ جائرٍ ظالمٍ.

• ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾: أي: وأَنا أعْرِفُ مِنْ طَبْعِي أَنَّ صَدْرِي يَضِيقُ[1]، فَلاَ أتحَمَّلُ المناظرات والْمَجَادلات، فأَخْشَىٰ أنْ أَتَّصَرَفَ تَصَرُّفَاتٍ قَوْلِيَّةً أو عَمَلِيَّةً تُعَرِّضُنِي للهلاك. وأعْرِفُ أنَّ في لِسَانِي حُبْسَةً تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَنْطَلِق مُنْدَفعاً بقوةٍ وسُرْعَةٍ في البيان، فيتَّخِذَ القومُ هٰذِهِ الْحُبْسَةَ مُتّكَأً للتَّهكُّمِ بي والسُّخْرِيَةِ مِني، وقد استغلَّها فِرْعَوْنُ في بَعْضِ خُطَبِهِ لِقَوْمِهِ إذْ قال كما ذَكَر الله عزّ وجلَّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) بقوله:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وسَأَلَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ رَبَّهُ أَنْ يُرْسِلَ إلَىٰ أخِيهِ هَارُونَ وَزِيراً لَهُ، وَشَرِيكاً له في رِسَالَتِهِ، ويَشُدَّ بِهِ أزْرَه، فقال كما جاء في هذا النَّصّ الذي

(١) ضيق الصَّدْر: كناية عن سُرْعة الانْفِعَال بالمثيرات، كمثيرات الغضب، ومثيرات الحزن، ونحو ذلك.

نتدبَّرُه: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: فاجْعَلْهُ نبيًّا ورسُولاً مَعِي. وجاء في النصوص الأخرى التصريحُ بما طُوِيَ في هذا النصّ، وقَدْ سَبَقَ إيضاحُ هذا في النظرات التكامليَّاتِ إلى النصوص لدى تدَبُّر سُورَةِ (طه).

وقال مُوسَى عليه السَّلام لِرَبّه مُبْدِياً تَخَوُّفَهُ من أنْ يَقْتُلَهُ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُه، عقوبَةً لَهُ على الْقَتيل الذي كان قَدْ وَكَزَهُ انتصاراً للإسْرَائيلِيّ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ، ولم يَكُنْ يَقْصِدُ قتْلَهُ، فقال لربه:

• ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾:

فدلّتْ هٰذِهِ الآيةُ علَىٰ تخوُّفه من أن تقْتُلَهُ السُّلْطَةُ الفرعونيَّة، بسبب الذَّنْبِ الّذي كان قد ارتكَبَهُ قبْلَ خُرُوجه من مصر إلى مدين فارّاً، إذْ عَلِمَ أنَّ الْقَوْمَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ ليقتلُوهُ، وبقتله لا يتمكّنُ مِنْ تأديَة وظائف رسالته.

وسبَق في تدبّر سورة (طه) بَيَانُ هٰذِهِ القصة.

فأجابَهُ الله عزّ وجلَّ بقوله له ﴿كَلَّا﴾ وفي هذا الجواب شدَّةٌ فيها معنى الزّجْرِ، إذْ لَمْ يَسْتَدْعِ ذِهْنُه بِسُرْعَةٍ، أنّ مُرْسِلَهُ رَبَّ العالمين والّذِي بِيَدِهِ تَصَارِيف كلِّ شيءٍ في الوجود، سَيَحْمِيهِ ويُدَبّرُ لَهُ مِنَ الأمُور مَا يَقِيه، ويَصْرِفُ عنه كَيْدَ مَنْ يُرِيدُه بشَرٍّ وبكُلِّ مَا يَكْرَهُ من سوء، فقال الله عزّ وجلَّ في النصّ:

• ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

فدَلَّتْ هٰذِهِ الآيةُ علىٰ أنَّ الله عزّ وجلَّ بَعْدَ أنْ وَجَّهَ لَهُ الكلمة الزاجِرَة، أَعْلَمَهُ بأنَّهُ قد أجابَ طَلَبَهُ، فَجَعَلَ أَخَاهُ رَسُولاً مَعَهُ وزيراً ومُسَاعِداً، فَهُوَ يُوَجّهُ لَهُما معاً الأمْرَ بالذَّهَابِ إلى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ ويُلْحقُ بهما سَائِرُ قَوْمِه، مصحوبَيْنِ بآيَتِي الْعَصَا والْيَدِ، وسائر الآيات التِّسْعِ التي أَعْطَاه اللهُ إياها، وسبَقَ بيانُها مُفَصَّلَةً في تدبُّرِ سورة (طه) وفي مواضِعَ أُخْرَىٰ مِنْ هذا الكتاب، ومصحوبَيْن بآياتِنا البيانية.

وَطَمْأَنَهُ اللهُ عزّ وجلَّ بقولِهِ له: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: حِينَما تَصِلاَنِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، نَكُونُ مَعَكُمْ مُسْتَمِعِينَ مَا تَقُولاَنِ لِلْقَوْمِ، ومَا يَقُولُ لَكُمَا فِرْعَوْنُ، ومَا يَقُولُ ملَؤُهُ في مجْلِسِه الملَكِيِّ الْمَهِيب، فَنَحْنُ بالمْرْصَادِ لِحمَايَتِكُمَا وَتَأْمِينِكُمَا ودفْعِ كلّ شرٍّ وسُوءٍ عَنْكُما.

وجاء في هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ المطْمْئِنَةِ اسْتِعْمَالُ ضَمِير المتكلّم العظيم، للدَّلاَلَة على كَمَالِ قُدْرَتِه جلّ جلالُهُ على حمايتهما.

وجاءت مؤكّدة بـ «إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسميَّة» لزيادة طَمْأَنتهما.

وبَعْدَ هـٰذَا وجَّهَ اللهُ عزّ وجلَّ لموسَىٰ ولِأَخِيهِ الْغَائِبِ عن مقام الخطَابِ، تَعْلِيماً مُجْمَلاً عَنْ مَضْمُونِ الْعَرْضِ الّذي يَعْرِضانِهِ على فِرْعَوْنَ عِنْدَ لِقَائِهِمَا له، ويُلْحَقُ بِهِ التَّفْصِيلُ الذي جاء بيانُه في النُّصوص القرآنية الأخرىٰ، مع لَوَازِمِهَا الفكريَّةِ، وما تَسْتَدْعيه من شرح وتفصيل، فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾:

وجاء في سورة (طـه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴿٤٧﴾﴾...

فما الحكمة من الإفراد في نصّ سورة (الشعراء)؟.

أقول: أوْرَدَ المفسرون والنحاةُ عِدَّة تخريجات عَرَبيَّةٍ، والَّذي أراهُ هو ما سبَقَ أنْ ذَكَرْتُهُ لدى تدبّر سورة (طـه). والمعنى: أَنَّنا رَسُولاَنِ ولَكِنَّنا بمَثَابَةِ رَسُولٍ واحد، لأنَّنا مُتَعَاضِدَانِ مُتكاملان، فمَا يَقُولُهُ أَحَدُنَا يُعَبِّرُ عَنْ قَوْلنا مُجْتَمِعَيْن، لاَ يَنْفَرِدُ أَحَدُنَا عن الآخر بشيء.

وهـٰذَا نظير قَوْلِ وَفْدٍ من جُمُهورٍ كبيرٍ للوافِدِين عليه، نَحْنُ شَخْصٌ واحد، أو رَجُلٌ واحد، أي: متكاتِفُون مُتَعَاضِدُونَ، لاَ يَنْفَرِدُ أَحَدُنا بِرَأْيٍ علىٰ خِلاَفِ آرَاءِ الآخرين.

وبين التعليمَيْن تكامل، أي: قولاً له مرّةً: «إنَّا رَسُولاَ رَبّكَ» وقُولا له أخرى: «إنا رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِين» أي: إنّا رَسُولاَن بمثابَةِ رسُولٍ واحد، وإنَّ رَبَّكَ هُو رَبّ الْعَالَمِين جميعاً، من أَحياء وغير أحياء في السماوات والأرض.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾: «أَنْ» تفسِيريَّة، تُفَسّرُ بَعْضِ مضْمُونِ رِسَالَتِهِمَا إليه، إذْ رِسَالَتُهما إليه تتضَمَّنُ قَضِيّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ:

القضية الأُولىٰ: دَعْوَة فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إلى دِينِ اللهِ الذي اصطفاه لعباده في حياة امتحانهم، وهي الحياة الدّنيا.

القضية الثانية: مطالبةُ فرعَوْنَ بأنْ يأذَنَ لِبني إسرائيل بالْخُروج مِن مِصْر بقيادتهما، وعَوْدَتهما إلى الأرض الّتي قَدِمَ أجدادُهم منْها أيّام يوسف عليه السّلام.

وطوى النصّ هنا أحداثاً كثيرة جاء بعضُها في نصوص أخرى، وقفز إلى قول فرعون لموسى ما جاء في البيان التالي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: قال فِرْعَوْنُ لموسَىٰ عليه السلام بحَسَب دَلاَلَة هذا البيان المشتمل على أربع قضايا: مِنْهنّ ثلاثُ قَضَايا مُصَدَّرَاتٌ باستفهام تَقْرِيريّ من فرعون لموسى عليه السلام، لانتزاع إقراره بها، والقضية الرَّابعةُ يتَّهِمُ فرعَوْنُ بها موسَىٰ بأنّه من الكافرين، أي: من الجاحِدِينَ لِلْمِنَنِ الّتي أنْعَمَ علَيْه بها الْقَصْرُ الفرعوني.

فالكُفرُ: يأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ جُحُودِ النِّعْمَةِ للتَّنَصُّلِ من أداءِ واجب الشكر عليها.

القضيّة الأولى: استفهامٌ تَقْرِيريٌّ، يَمْتَنُّ بِهِ فِرْعَوْنُ علَىٰ مُوسَىٰ عليه السّلام، بأنَّ الْقَصْرَ الْفِرْعَوْنِيَّ رَبَّاهُ مُنْذُ كَانَ وَليداً حَدِيثَ الوِلاَدة، حتَّىٰ بلَغَ واكْتَمَلَ، ولَمْ يَقْتُلْهُ كَشأْنِ سائر مواليدِ سَنَتِهِ مِنَ الإسْرَائِيلِيّين، إذِ الْتَقَطَهُ بَعْضُ آلِهِ مِنَ النِّيلِ وأَحبُّوهُ وَكَرَّمُوهُ، مع عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الإِسْرَائيليِّينَ، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؟ اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ على الْمَنْفِيّ بِحرْف «لم» لِيقولَ بلَىٰ فَعَلْتُمْ ذلِكَ.

التربية: تَجْمَعُ في مَعْنَاهَا كُلَّ مَا يَتَطَلَّبُهُ إنْشَاءَ الْمُرَبَّىٰ ورعايَتُهُ وَحِفْظُهُ، وَتَنْمِيَتُهُ جَسَدِيًّا ونَفْسِيًّا وفِكْرِيًّا وسُلُوكِيًّا.

والمرادُ: ألَمْ نُرَبِّكَ في ضِمْنِ أُسْرَتِنَا الملكيَّةِ كأَحَدِ أوْلاَدِنا، مُنْذُ كُنْتَ حَدِيث الوِلاَدَةِ، حتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلاً ذا قُوَّةٍ تَسْتَنِدُ فيها إلىٰ أنَّكَ واحِدٌ مِنْ أفراد الْقَصْر الملكيّ الفرعوني في مصر.

القضيّةُ الثانية: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ يَمْتَنُّ به فرعونُ على موسى عليه السلام بأَنَّهُ لَبِثَ في رِعاية القصر الفرعونيّ وحمايَتِهِ، وَمَنْحِهِ فُرَصَ الارْتقاء والنجاح في أمُوره كُلِّها كأَحَد أفرادِ الْقَصْرِ، طَوَال سِنِينَ من عُمْرِه، فقال فرعون له: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

قيل: لبِثَ في الْقَصْرِ الفرعونيّ (١٨) سنةً من عُمْرِهِ، وقيل: (٣٠) سنة، وقيل: أكثر من ذلك، والله أعلم.

أي: أَوَ لَمْ تُقِمْ فِي كَنَفِنَا كَأَحَدِ أفراد الْقَصْرِ مِنْ آلِنَا، سِنِينَ مِنْ عُمُرِك، ونَحْنُ نَرْعَاكَ، ونَمْنَحُكَ مَا تَطْلُبُ مِنْ مَطَالِبَ، ونُمِدُّكَ بِقُوَّةٍ مِنْ سُلْطَانِنَا، حَتَّىٰ صِرْتَ رَجُلاً مُكْتَمِلَ الرُّجُولَة.

فالاستفهام التقريريّ الوارد في القضيَّة الأولى، مُنْسَحِبٌ عَلَىٰ هٰذِهِ القضيَّةِ الثانية.

اللُّبْثُ: الإقامَةُ في المكان زَمَناً لَيْسَ بالْقَصِير.

القضيَّةُ الثالِثَة: اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيريٌّ ثَالِثٌ، يُقَرِّرُ بِهِ فِرْعَوْنُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السّلام، بأَنَّهُ قَتَلَ نفْساً مِنَ المصْرِيين، انتصاراً لإِسْرائيليٍّ هُو مِنْ شيعَتِهِ وقَوْمه، وهـٰذِهِ الجريمَةُ تَسْتَحِقُّ عقوبَةَ الْقَتْل، ويظْهَرُ أَنَّ هـٰذِهِ العقُوبَةَ قَدْ سَقَطَتْ بمُرورِ الزَّمَن، بمقْتَضَىٰ قانُونِهِمْ حينئذٍ، فقال فرعون له:

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾:

أي: أوَ لَمْ تَرْتَكِبْ جَرِيمَةَ قَتْلِ المصْرِيّ، انتصاراً لرَجُلٍ من قَوْمِكَ الإِسْرَائيليّين.

والاستفهام التقريريُّ مُنْسحِبٌ على هـٰذِهِ القضيَّةِ أيضاً ومُرادُ فِرْعَوْن من تقرير موسى عليه السّلام بهـٰذِهِ القضايا الثلاث، إشعارُه بأَنَّ مَا جاء بِهِ الآنَ لاَ يتلاءم مع سابقِ عَهْدِهِ في الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيِّ وآله، ولا سيما مطالَبَتُه بالإِذْنِ لبَنِي إسْرائيل بأَنْ يَخْرُجُوا من مصر، مع الاحتمال القويّ بأنَّه يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ بِهم، لِيُعِدَّ مِنْهُمْ جَيْشاً مُقَاتلاً، ويَرْجِعَ بِجَيْشِهِ لِتَقْوِيضِ مُلْكِ أَوْلياء نِعْمَتِهِ، وانْتِزَاعِهِ مِنْهُم بالْقُوَّةِ الْعَسْكرِيّة، والاسْتيلاء علىٰ أموالهم وممتلكاتهم، وهم خُبَراءُ بأَرْضِ مِصْرَ، وبرجالِها، وبمراكز قُوىٰ سُلْطانِ الْقَصْرِ الفرعونيّ فيها، إنّ هذا عَمَلٌ مُنَافٍ لفضيلَةِ الْوَفاء.

والمعنى: فكَيْفَ يَتَلاءَمُ هـٰذَا مع ما يَدْعُو إِلَيْهِ من حقٍّ وخَيْرٍ ورُشْدٍ وفضائل، في الدّينِ الجديدِ الّذي يَدْعُو إليه.

القضية الرابعة: إدَانَةُ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بأَنَّهُ من الكافرين الجاحِدِين، لِمَا قَدَّمَهُ لَهُ الْقَصْرُ الْفِرْعَوْنِيُّ مِنْ نِعَمٍ ومِنَنٍ، وقَدْ كَانَ يَجِبُ عليه أنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لهـٰذِهِ النِّعَمِ والْمِنَن، فيَكُونَ من المؤيِّدِين المناصِرِينَ، ومِنْ ذوي الولاء الصادق، لاَ مِنَ الكافِرِينَ الجاحِدين، الّذِين يقابلون الإِحْسَانَ بالإِساءَة، والخيْرَ بالشّر، والجميلَ بالقبيح، فقالَ فرعونُ لَهُ:

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: وأنْتَ مِنَ الجاحِدِينَ للنِّعَمِ والْمِنَنِ الّتِي تَلَقَّوْهَا مِنْ أوْلياء الإحْسَانِ إلَيْهم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

تمهيد:

دلَّت هٰذِهِ الآيَاتُ الثلاثُ على ما أجابَ بِهِ موسى عليه السلام علىٰ القضايا التي وَجَّهَهَا لَهُ فِرْعَون.

وقد بدأ موسىٰ عليه السلام بالإجابَةِ على قَتْلِهِ المصْرِيَّ انتصاراً لأحدَ أفراد قومِهِ الإسْرائيليّين، فأبان أنَّهُ قَتلَهُ في الزَّمَنِ الَّذِي كان فيه من الضَّالّين الجاهِلِينَ، الّذِين يَنْدَفِعُونَ معَ أهوائِهِمْ وعصبيَّاتهم، ووَلاءاتِهم الْقَوْمِيّة، وفي الزَّمَنِ الّذي كانَ فِيه خاضِعاً لمؤثّراتِ مَدْرَسَةِ الْقَصْرِ الفِرْعَوْنِيّ، النفسيَّةِ، والاجتماعيَّة، والتَّسَلُّطِيَّة، وأبَانَ لَهُ أنَّهُ لمَّا عَلِم بأنَّ مَلأَ الْقَصْر يأْتمِرُونَ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَّ مِنْهم، وخَرَجَ مِنْ مِصْرَ هارباً، وأقَامَ في مَكانٍ لاَ سُلْطَانَ لِحُكَّامِ مِصْرَ عَلَيْهِ حينئذٍ. وأبّان لَهُ أنَّ اللهَ رَبَّهُ وَهَبَ لَهُ حُكْماً عَقِبَ فِراره من مِصْرَ، وأنَّ اللهَ رَبَّهُ جَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

التدبر التحليلي:

- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِذًا﴾ قالُوا: هِيَ هُنَا حَرْفُ جواب، أي: نَعَمْ، قَدْ فَعَلْتُهَا في حَالِ أنّي كُنْتُ من الضَّالّين (أي: الْجَاهِلِين) الَّذِينَ لا يَعْرِفُونَ الكثير من الأمور الَّتِي فيها تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل، والخير والشرّ، والصَّالِحِ والفاسد.

الضّلال: يأتي في اللُّغَة بمعنَىٰ الْجَهْلِ بالشيْءِ، لِخُلُوّ الذِّهْنِ من مَعْرِفَتِه، وهذا المعنى هو المعنىٰ المناسِبُ هنا.

ولسْتُ أدْري لِمَاذا لم يُوردِ النَّحْوِيُّونَ احتمالَ أن تكونَ ﴿إِذًا﴾ هنا دَالَّةً علىٰ الظَّرْفِيَّة، وأنْ يكون التنوينُ عِوَضاً عَنْ مُضَافٍ إلَيْهِ مَحْذُوفٍ، كما قَالُوا في نحو «حِينَئِذٍ» و«يَوْمئذٍ». فهذا المعنَىٰ هو الأقربُ خُطُوراً في الذِّهْنِ بحَسَبِ سوابق العبارة ولواحقها، أي: فَعَلْتُها حينَئِذٍ وأنَا مِنَ الضَّالّين.

• ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾:

أي: فَعقِبَ وقْتِ خوفي مِنْكُمْ أَنْ تقْتُلُوني، هَرَبْتُ مِنْكُمْ إلَىٰ حَيْثُ لاَ يُمْسِكُ بِي جنُودُكُمْ، لِيَسُوقُوني إليكم.

﴿لَمَّا﴾ ظَرْفٌ للزَّمَانِ الماضِي هُنَا، أي: حينَ خِفْتُكُمْ فيما مضَىٰ عَقِبَ قَتْلِي المصْرِيَّ.

• ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾:

الْهِبَة: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الأعْوَاضِ والأغراض. يُقالُ لغة: «وَهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ، وَهْباً، ووَهَباً، وهِبَةً، فهو واهِبٌ، وَوَهَّابٌ، وَوَهُوبٌ، وَوَهَّابَة».

﴿رَبِّي﴾: أي: خالِقِي، والَّذي تَتَعَلَّقُ بِي دَواماً صِفَاتُ رُبُوبيَّتِهِ، ويُمِدُّنِي دَواماً بعَطَاءَاتها، ويُهَيْمِنَ عَلَيَّ دَواماً بِسُلْطَانها ورَحْمَتها.

﴿حُكْمًا﴾: **الْحُكْمُ**: فِقْهُ الأمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الخيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِهما، والْحَسَنِ والسَّيِّىء وحُدُودِهما، والْجَمِيلِ والْقَبِيح وحُدُودِها.

وبناءً على فِقْهِ الأمُور يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أحكامَهُ العلميَّة، وأحْكَامَهُ القضائيَّة مطابقة للحقّ والخير والفضيلة.

والمعنى: فأعطاني رَبّي بفَضْلٍ مِنْهُ فِقْهاً في الأمور، بَعْدَ أنْ كُنْتُ جاهلاً.

• ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أي: وجَعَلَنِي نَبِيًّا مِنَ الأنبياء ورَسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ قَبْلِي لتبليغِ أُمَمِهِمْ رِسَالاَت رَبّهم إليهم.

وقد دَلَّ الواقع التاريخيُّ علىٰ أنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولاً في زَمَنٍ مُتَأَخّرٍ عَنْ زَمَنِ فِرَارِهِ من مِصْرَ عَقِبَ قَتْلِهِ المصْرِيّ، لكِنَّ عبارة: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ تَدُلُّ على أنَّ هٰذِهِ الْهِبَةَ قَدْ كانت عَقِبَ فراره من جُنودِ فِرْعَوْنَ في مصر، فالعطف بالواو لعبارة: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لاَ يَدُلُّ على الاقتران في الزّمن بَيْنَ هِبَتِهِ الحكْمَ وبَيْنَ جعْلِهِ من المرسَلِين، إذْ بَيْنَ الزَمَنَيْنِ أكثر من عشْرِ سنين.

وبَعْدَ أنْ أجابَ مُوسَى عليه السَّلامُ فِرْعَوْنَ علىٰ ما قَرَّرَهُ بِهِ بشأن قَتْلِهِ للمصريّ انتصاراً للإسْرَائيليّ، وجَّهَ مُوسَىٰ لَهُ الجوابَ على المِنَنِ الّتِي امْتَنَّ بها فِرْعَوْنُ علَيْهِ، وعلَىٰ إدانَتِهِ لَهُ بأنَّهُ مِن الْجَاحِدِينَ الَّذِينَ لاَ يُقابِلُونَ الإحْسَانَ بالشُّكْرِ، بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ التالية:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟!.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبِيٌّ مَحْذُوفٌ لفظاً، مُقَدَّرٌ ذِهناً.

﴿تَمُنُّهَا﴾: أي: تتحدَّثُ بأَنَّكَ تفضَّلْتَ بِها عليَّ، وتعْتَبِرَها مِنْ مَحَامِدِكَ وإحْسَانَاتك. والمشار إليه بعبارة ﴿تِلْكَ﴾ ما ذكَرَ فرعون من ترْبيته لموسى في القصر الفرعوني، وإقامَتِه فيه كَأَحَدِ أفراد الْقَصْر الناشئينَ فيه، واستعمل اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على احتقارِها بجانب الاستعباد الذي فرضه على بين إسرائيل وهو واحدٌ منهم.

﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: أنْ جعلت بني إسرائيلَ عَبِيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ، بالقَهْرِ والْغَلَبَةِ وقُوَّةِ سلطانِك.

والْمَعْنَىٰ: أتِلْكَ النِّعْمَةُ الَّتِي ذَكَرْتَها تَصْلُحُ لِأَنْ تمْتَنَّ بِهَا عَلَىٰ أحَدٍ مِنْ بني إسرائيل الّذين جَعَلْتَهُمْ عبيداً لَكَ ولِقَوْمِكَ.

وطَوَىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ في نفسه بيَانَ أنّ المنَّةَ لِرَبِّي الَّذِي أنْقَذَني من الْقَتْلِ الّذي فَرَضْتُموهُ علىٰ مواليِدِ الإسرائيليّين وأنا واحِدٌ مِنْهم، إذْ وضَعَتْنِي أُمِّي في التابُوت، فأوْصَلَه رَبِّي إلىٰ قُرب شَاطِىء قَصْرِكم، والْتَقَطَنِي من طرَفِ النَّهرِ بَعْضُ آلِكَ، وألْقَىٰ مَحَبَّتِي في قُلُوبِكُمْ، وصَرَفَ نُفُوسَكُمْ عَنْ قَتْلِي مع مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْ أبْنَاءِ قَوْمِي، إذْ تَصَوَّرْتُمْ أنَّنِي سَأَنْفَعُكُمْ، أَوْ أن تتخِذُوني ولَداً مِنْ أولادكُمْ بالتَّبَنِّي.

تِلْك في الحقيقة ليْسَتْ مِنَناً مَنَنْتُمْ بِهَا عَلَيَّ علىٰ سبيلِ الإحسان، إنَّما نظَرْتُمْ فيها إلىٰ مصالِحِكُمْ، مع مُراعاة عواطِفِ بعض آلِكُمُ، إذْ ألْقَىٰ رَبِّي محبَّتِي في قُلُوبهم.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾:

في هٰذِهِ الآياتِ بَيَانُ حِوَارٍ فِكْرِيّ، انْتَقَلَ إلَيْهِ فِرْعَوْنَ اشْتِقاقاً مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ وهَارُون لَهُ: ﴿... إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعَرَضَا عليه وعلى مَلَئِه وقَوْمِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا به، ويَتَّبِعُوا الدِّينَ الَّذِي حَمَّلَهُمَا رِسالَتَه رَبُّ الْعَالَمِين.

• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٣)﴾؟:

[مَا] اسم استفهام يسْتَفْهَمُ بِه عَنْ غَيْر ذي العلم، ويُسْتَفْهَم بِه عَنْ صِفَاتِ ذي الْعِلْم، ومِن صِفَاتِه حقيقةُ ذاته.

وقد سأل فِرْعَوْنَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بمقتضى دلالَةِ هـٰذِهِ العبارة، عَنْ حَقِيقَةِ رَبِّ العالَمِين.

فأعرضَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ إجابَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حقيقة ذاتِهِ جلّ جلالُهُ وسَمَتْ عن الإدْراكِ ذاتُه، لأنَّ حقيقَةَ ذاتِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ إدْرَاكَهَا، ولأنَّ نُورَ ذَاتِه، أَوْ نُوراً مِن ذاتِهِ لاَ يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ إدْرَاكَهُ بأجْهِزَةِ الإدْراكِ الَّتِي وَهَبَهُمْ رَبُّهم إياها.

ولكِنْ أجابَهُ بِعِبَارَاتٍ فيها تَفْصِيلُ آثارِ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ في كوْنِه، الجامِعَةِ لكثيرٍ مِنْ صِفَاتِه الجليلات العظيمات، كالْعِلْم المحيط بكلِّ شيءٍ، وكالإرادة الحكيمة، والْقُدْرَةِ علَىٰ خَلْقِ ما يشاء، والتدبير الدائم الكاملِ لتَصَارِيفِ الكَوْنِ، والرَّحْمَةِ بعِبادِه إلى غير ذلِكَ من صفات رُبُوبيَّتِهِ.

فذكَرَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ بَعْضَ مظَاهِرِ صِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ:

• ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

خاطَبَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ مِنْ حَوْلِهِ بِمَا دَلَّ علَيْهِ هـٰذَا البيان.

والمعنى: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ مَنْ لَهُ الصِّفَاتُ الْجَلِيلاَتُ العظيماتُ الَّتِي مِنْ آثارِها خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض وما بَيْنَهُما، ولَهُ الهيْمَنَةُ علَىٰ تَصَارِيفِ كُلِّ ذَلِكَ، وبخَلْقِهِ يتحقَّقُ بقاءُ كُلّ ذلِكَ في الوجود وبصِفات رُبُوبيْتِهِ يُجْرِي مَقَادِيرَهُ على وفْقِ حكْمَتِه، وشُمُولِ عِلْمِهِ، وعظيم قُدْرَتِهِ علىٰ مَا يشاء.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: تُؤْمِنُون به ولَوْ لَمْ تَعْلَمُوا حقيقة ذاتِه، من إدْراكِكُمْ لآثار صِفَاتِهِ في هـٰذَا الكون الكبير، إنْ كُنْتُمْ مَسْتعِدّين لأنْ تُفَكِّرُوا بالحقائقِ الَّتي أعْرِضُها عليكُمْ، فَتَصِلُوا إلى إدْراكِ الحقّ، فَتُوقِنُوا بِربّ العالَمِين الذي أدْعُوكُمْ إلىٰ الإيمان به، عن طريق البراهين والأدِلّةِ العقليّة، بالنظر في لوازِم خَلْقِهِ للْعالَمِين، ومن العالَمِين السَّمَاواتُ والأرض وما بينهما.

بدأ مُوسَىٰ عليه السلام في إجابته بإعْطَاءِ النَّظْرَةِ الكلّيّةِ الشّامِلَةِ للعالَمين، ليَدُلَّ عَلَىٰ أنّ لِهَـٰذَا الكَوْنِ كلِّه خَالِقاً رَبًّا مُدبّراً مُتصَرِّفاً بكُلِّ حركاته وسَكَنَاتِهِ، ومَا يَجْرِي فِيه من تغيُّرات، وهو مُقَدِّرُ مقادِيرِ كُلِّ شيءٍ فيه.

اليقين: هو العلم الّذي لا شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مراتِبِهِ ودَرَجاتِهِ ما اعْتَمَدَ عَلىٰ أَدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ عقْلِيَّة، أَوْ خَبَرِيَّةٍ صادقة لاَ يعْتَرِيها شَكّ.

وتَلْزَمُ منْ هذا البَيَانِ مقالَةٌ أُخْرىٰ تُفْهَمُ باللُّزُوم الذهني، وهي: فإذَا كُنْتُمْ غيْرَ مسْتَعِدِّين لأنْ تُفكّروا فتُوقِنُوا مستقبلاً بالحقّ الّذي أدْعُوكم إلىٰ الْإيمانِ به، مهْمَا قَدَّمْتُ لكُمْ من الأدلّة، فإنَّ بياني هذا لَنْ يُغيِّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لِرَبِّكُمْ شيئاً.

عندئذٍ استغلَّ فِرْعَوْنُ عَدَمَ إجابَةِ مُوسَىٰ لَهُ عَنْ حقيقَةِ ذاتِ رَبّ العالَمِين، فنظر إلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ ملأِ قَوْمِهِ، فقال لهم مَا دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾؟!.

أي: ألاَ تَسْتَمِعُونَ إجابته غيْرَ المطابِقَةِ للسؤال، إنّي أسْأَلُهُ عَنْ ذاتِ رَبّ العالمين، الذي يَدْعُونا إلى الإيمان به، فلا يجيبُنِي ببيَانِ حقيقَةِ ذاته، وإنّما يأتي ببعضِ عناصِرِ كونِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فيَذْكُرُ أَنَّهُ رَبُّ السّماواتِ والأرض وما بينهما.

وهٰذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ في عَقْلِه خَلَلاً.

فتابَعَ مُوسَىٰ عليه السّلام بيانه الذي دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: رَبُّ العالَمِينَ هُوَ أيضاً رَبُّكم الّذِي يُمِدُّكم بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيّتِهِ

دواماً، وربُّ آبائِكُمُ الأوّلينَ السَّابقين، الَّذِينَ ماتُوا عِنْدَ انتهاء آجالهم في الحياة الدّنيا.

وهُنَا اسْتَغَلَّ فِرْعَوْنُ جَهْلَ معظم مَلَئِهِ بدقائق مَا أفادتْهُ أجْوِبَةُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، ومُسْتَغِلًّا مَا فَرَضَهُ مِنْ إلَهِيَّتِهِ الَّتِي جَعَلَ نَفْسَهُ فيها معبُوداً لقومه، ومستَغِلًّا خُضُوعَهُمْ وخُنُوعَهُمْ واسْتِسْلاَمَهُمْ لكلّ ما يَقُولُ لَهُمْ مِنْ رأْي، فقال لمَلَئِهِ ما دَلَّ عليه قول اللهِ عزّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾:

قال فرعون هذا الكلامَ تهكُّماً، وإنْكاراً لأَنْ يَكُونَ رَسُولاً، أو صَالحاً لأنْ يَحْملَ رِسالةً من رَبِّ العالَمِينَ على مَا يَدَّعي.

أي: أنا أسْأَلُهُ عن أشياء مُعَيَّنَةٍ، وهو يجيب بأجْوبَةٍ بَعِيدَةٍ عمّا أسْأَلُهُ عَنْهُ، وهٰذِهِ مِنْ صِفَاتِ المجَانين وأكَّدَ لَهُمْ جُنُونَهُ بثلاث مؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة) أي: بما يَدُلُّ في لُغَتِهِ علىٰ مِثْلِ هٰذِهِ المؤكّدات.

ولم يَلْتَفِتْ مُوسَى عليه السّلام إلى اتّهام فِرْعَوْنَ لَهُ بالجنُونِ في مُخَاطَبَتِهِ لِمَلئِهِ، بلْ صَبَر عليهِ وأعْرَضَ عَنْهُ، وتابَعَ بيانَهُ بقوله الّذي دلَّ علىٰ معْنَاهُ قول الله عزّ وجلَّ:

• ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

كَلِمَتَا «الْمَشْرِقِ» و«الْمَغْرِبِ» تَصْلُحَانِ للدَّلاَلَةِ على الزمان والمكان، وتَصْلُحان للدّلاَلَة على الحدَثِ كَمَصْدَرٍ ميمي، إذْ خَرَجَا عن قاعِدَة «مَفْعَل» بفتح العين في اسْمي الزّمان والمكان.

والمعنىٰ: أنّ رَبَّ العالَمِينَ هُوَ المدبّر والمتصرِّفُ بصِفَاتِ رُبُوبيته لمكان شروق الشّمْسِ ولزمانه، ولشُرُوقها، وحَركتها، ومَسِيرَتها، وهو

المدَبّر والمتصرّف بصفات رُبُوبيّتِهِ لمكان غروب الشمس ولزمانه، ولغروبها، ولظهور اللّيْلِ والكواكب فيه. وهو رَبُّ كُلّ ما بَيْنَ المشرق والمغْرِب من أشياءَ، وناميات، ورياحٍ وسُحُبٍ، وقُوىً ظاهِرَةٍ أَوْ خِفيَّةٍ، وظُلْمَةٍ وضياء، وأحياءٍ وَبَشَرٍ، وغَيْرِ ذلِكَ.

﴿إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: تُدرِكونَ حَقِيقَةَ رُبُوبيَّتِهِ للمشرق والمَغْرِب ومَا بَيْنَهما، إنْ كُنْتُم تُعْمِلُونَ أذْهَانَكُمْ في التَّفَكُّرِ في هٰذِهِ الظواهِرِ الكَوْنِية، وكُلَّمَا تَوَصَّلْتُمْ إلى حَقِيقَةٍ عَقَلْتُمُوهَا بعقالٍ في جهاز المعرفَةِ لدَيكُمْ، وهي تنقُلُكُمْ إلَىٰ حقيقةٍ بَعْدَهَا في سَلاَسِلَ مُتَمَاسِكَةٍ مُترابِطَةٍ مُتعَاقِدَةٍ، حتَّىٰ تُدْرِكُوا أَنَّ اللهَ الخالِقَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ والمتَصَرِّفُ فيهِ بتَدْبِيرَاتِهِ الحَكِيمة، وهُوَ الْمُحَرِّكُ دَواماً لكلّ مُتَحَرِّكٍ فيه، والْمُسَكِّنُ لكلِّ سَاكِنٍ فيه، وهُوَ الْقَدِيرُ على إيجاد ما يَشَاءُ، وإعْدَامِ مَا يَشاء، وحَسْبُكُمْ أَنْ تَدُلَّكُم الظواهِرُ علَىٰ صِفَاتِهِ، ومَا لَكُمْ وللْبَحْثِ عَنْ ذَاتِه الَّتِي لَسْتُمْ مؤهَّلِينَ بِالأَجْهِزَةِ الّتِي خَلقَهَا لَكُمْ لإدْراكِها؟. وهل تَسْتَطِيعُونَ إدْراكَ كُلِّ شيءٍ في الكون؟ ألاَ تُوجَدُ أشياءُ تُؤْمِنونَ بوجُودِها كأرْواحِكُمْ وَقُدْرَاتِ المعرفة فيكُمْ وأنْتُمْ لاَ تَعْرِفُونَ حقيقَةَ ذاتها؟.

كلُّ هٰذِهِ المعاني هي من لوازِمِ عبارة: ﴿إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهنا أَدْرَكَ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يُنَاظِرُ رَجُلاً ذَا عَقْلٍ كبيرٍ وحُجَجٍ دامِغَة، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَ مَلَؤهُ عُمْقَ حُجَجِهِ وبراهِينِهِ الدّقيقة والمحكَمة، فضاقَ صَدْرُه، ولَمْ يَجِدْ لَدَيْهِ إلّا وَسِيلَةَ التهديد الأوّليّ بالسّجن فقال له مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ في الآية التالية:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: قَالَ فِرْعَوْنُ لموسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام: لَئِنِ اتَّخَذْتَ مَعْبُوداً تُطِيعُهُ وتَعْبُدُهِ غَيْرِي، لأَجْعَلَنَّكَ في السِّجْنِ مع المسْجُونين من العصاة

والمجْرِمين. اللام في ﴿لَئِنِ﴾ مُوطئة للقسم، أي: أقسم لَئِنِ اتَّخَذْتَ معبوداً غيري لأسْجُنَنَّكَ.

وهُنَا جَاءَ دَوْرُ ما آتَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ موسَىٰ عليه السَّلامُ من خوارقَ أُولَىٰ، وهُما آيَتا الْعَصا والْيَد، لإخافَتِه ورَدْعِهِ عن أنْ يَتَصَرَّفَ تَصَرُّفاً فِيهِ إيذاءٌ لَهُ وَلأَخِيهِ هارُونَ، فقال لَهُ ما جاء بيانُهُ في الآية التالية:

• ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾؟.

الواو بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفْهام تَعْطِفُ علىٰ مطْوي محذوفٍ من اللّفْظِ، ومُدْرَكٍ في الذهن، أي: أَتَأْمُرُ بِسِجْنِي ولَوْ جِئْتُكَ بشَيءٍ عظيم، يُبَيّنُ لَكَ أَنّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حقًّا وصِدْقاً؟.

فأجابَ فِرْعَوْنُ بما دلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ التالية:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: فأْت الآنَ بهـٰذا الشيء الْمُبِين الَّذِي ذَكَرْتَهُ، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقينَ في أنَّكَ نبيٌّ ورَسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ.

فأجْرَىٰ مُوسَىٰ علَيْه السَّلام ما أعطاه رَبُّهُ وأذِنَ لَهُ بإجرائه، وهما آيَتا العصا والْيَدِ، دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في الآيَتَيْنِ التالِيَتَيْنِ:

• ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: فألْقَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عَصَاهُ، فَقَلَبَها اللهُ عزّ وجلَّ بأَمْرِ التَّكْوِين فَجَعَلَهَا ثُعْباناً مُخِيفاً، فَفَاجَأَتْ فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ بتَحَوُّلِها ثُعْبَاناً واضحاً جَلِيًّا مُرْعِباً مخيفاً.

وأَدْخَلَ يَدَهُ السَّمْراءَ في جَيْبِهِ (أي: في فُتْحَةِ ثَوبِهِ عِنْد صَدْره) إلَىٰ إبطِهِ، فَجَعَلَهَا اللهُ عزّ وجلَّ بأمْرِ التكوين بيضاءَ، وأَخْرَجَها ففاجَأَتِ الْقَوْمَ بتَحَوُّلِها بيْضاءَ مُتَلأْلِئَةً كالْبَرْقِ اللاّمع.

وأدْهَشَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السّلامُ بهاتَيْنِ الآيتَيْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ في مَجْلِسِه، وأدْرَكَ فِرْعَوْنُ قُوَّة تَأْثيرهِمَا علَىٰ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وأرَادَ أَنْ يتدَارَكَ الموقِفَ الصَّعْبَ، فقالَ للملأ حولَهُ مَا جَاءَ بَيَانُ مَعْنَاهُ في الآيَتَيْنِ التالِيَتَيْن:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: إنَّ هَـٰذا الّذي أجراهُ هُو مِنْ قبيلِ السِّحْرِ، ولَيْسَتا آيَتَيْنِ أجْرَاهُما ـ كما يَزْعُمُ ـ رَبُّ العالَمِينَ، لإثباتِ صِحَّةِ دَعْوَاهُ بأنَّهُ نبيُّهُ ورَسُولُه، بدَلِيل أنّه يُطَالِبُ بأنَ نَأْذَنَ لشَعْبِ بني إسرائيلَ بالخروج من مِصْر بقيادَتِهِ وقيادَةِ أَخِيهِ هارون، هذا يجْعَلُنَا نُدْرِكُ أنَّهُ يُرِيدُ تَكْوينَ جَيْشٍ مِنْ بَنِي إسرائيل خارِجَ مِصْرَ، لِيَرْجِعُوا ويُقاتِلُونا ويُخْرِجونَا مِنْ أرْضِنا ومُلْكِنَا وَأمْوالِنَا، ويكونوا هُمْ ذَوي الْمُلْكِ والسُّلْطانِ في مِصْر، وعِنْدَئذٍ يُنكِّلُونَ بِنَا قَتْلاً واستعباداً، انْتِقاماً مِنّا لاسْتِعْبَادِنا لَهُمْ، وَوَسِيلَتُهُ الآنَ في إخافتنا هي السِّحْرُ الذي جاءَنا بِه.

وعَقِبَ هذا اسْتَشَارَ فِرْعَوْنَ مَلأَهُ قائِلاً لَهُمْ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أيْ: فَمَا الشَّيْءُ الّذِي تُشِيرُونَ بِهِ عَلَيَّ، يقال لغة: «أَمَرَ فُلاناً بشَيْءٍ» أي: أشَار بِهِ عَلَيْه.

فأشَارُوا عليه بما جاءَ بَيانُهُ في الآيَتَيْنِ التاليتين:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: «أَرْجِئْهُ» والمعنَىٰ: أَخِّرْهُ وأَجِّلْهُ، يُقَالُ لُغَةً: «أَرْجَأَهُ، يُرْجِئُهُ» أي: أجَّلَه، أوْ جَعَلَ له أجلاً.

أي: اجْعَلْ لَهُ وَلِأَخِيهِ أجَلاً مُحَدَّداً، لإجراء مباراةٍ سِحْرِيَّةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ سَحَرَةِ مِصْر، وأرْسِلْ مَبْعُوثِين مِنْ قِبَلِكَ، لِلْبَحْثِ في المدائِنِ المصْرِيَّةِ عَنْ

كلَّ سَحَّارٍ عَلِيم مَاهِرٍ في السِّحْرِ، وحاشِرِينَ إلَيْكَ مَنْ يَجِدُونَ مِنْهُمْ في مِصْر، وأْمُرْهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ بِهِمْ، إعْداداً للمبَارَةِ الّتي تُقِيمُها بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وسبق بَيَان وجوه القراءات في ﴿أَرْجِهْ﴾ لدَى نَصّ السورة.

﴿سَحَّارٍ﴾: صيغة مُبَالَغَةٍ لصيغة «سَاحِر» وهي إحدى قراءتَيْنِ في النصّ الذي في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

أي: احْشُر كُلَّ سَاحِرٍ عَلِيم، وكُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

الحشْرُ: هو في اللّغَةِ الجمْعُ والسَّوْق.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

• ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾: أي: فَجَمَعَ جُنُودُ فِرْعونَ السَّحَرَةَ، لإجراء المبَاراة في الموعِدِ المحدَّد زماناً ومَكاناً، فصار مَعْلُوماً لكُلّ مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُ المباراة.

﴿لِمِيقَٰتِ﴾: اللّام للتعليل، وفي العبارة مَحْذُوفٌ، تقديرُه: لحضور المباراة في ميقات يوْمٍ معلوم.

الميقات: الوقتُ المعيَّنُ لفِعْلٍ ما، والْمَوْعِدُ الّذِي جُعِلَ لَهُ وقْتٌ مَا، والْمَوْضِعُ الّذِي جُعِلَ لشيْءٍ يُفْعَلُ عِنْدَه.

• ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾؟.

أي: وقَالَ مُذِيعُو نَبَأِ المبَارَاةِ علىٰ سَبيلِ الْعَرضِ لا الإلْزَامِ لجماهِيرِ المصْرِيّين: هَلْ أَنْتُمْ مجتَمِعُونَ؟.

وفي هذا العرْض بأسْلوب الاستفهام تَرْغيبٌ في الحضُور.

واقترن بإذاعَةِ النَّبأ توجِيهُ عِبَارة الرَّجاءِ باتّباع السَّحَرَةِ لتَعَلُّم السِّحْرِ مِنْهُمْ، إنْ كانُوا هم الغالِبِينَ في المباراة بينهم وبيْنَ موسَىٰ الّذي يقول: إنَّ مَا جاء بِه هو من آياتِ رَبّ العالمين؛ الذي يَدْعُو إلىٰ الإيمان بِهِ، والإسْلاَمِ لَهُ، واتباع دينه، هو وأخوه هارون.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

دلّتْ هاتان الآيتان على أنّ فِرْعَوْن دَعَا مَنْ جَمَعَ وسَاقَ من المدائنِ المصْريّةِ إلَىٰ مجْلِسِهِ، أو حَضَرَ إلَىٰ المكَانِ الّذي جمعهم فيه في عاصمته، وعَرَضَ علَيهم الغرضَ الّذي جَمَعُهُمْ مِنْ أَجْلِهِ، وهو إجراء مباراة بَيْنَهم وبيْنَ الإسْرَائيليّ مؤسَىٰ، الَّذِي يَسْحَرُ عَصَاه فتَصِيرُ ثعباناً مخيفاً.

ولمّا كان السَّحَرَةُ لا يُجرُونَ أعْمالَهُمُ السّحْريَّةَ إلّا بأجْرٍ، قالوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؟.

أي: أتُعْطِينَا أجراً يُكافِىء المالَ والْجَهْدِ الّذِي نَبْذُلُهُ لإجراء أعْمَالِنَا السِّحْرِيَّة، إنْ كُنَا نَحْنُ الْغَالِبِين بِسِحْرِنا مَا يأتي به موسىٰ؟.

فأجابَهُمْ فِرْعَوْنُ فوراً قائلاً لهم: ﴿نَعَمْ﴾ وقرىء [نَعِمْ] وزَادَهُمْ إطماعاً قائلاً لهم: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأَجْعلُكُمْ حينئذٍ من المقرَّبينَ عِنْدي، من حاشِيَةِ قَصْرِي أمْنَحُكُمْ مِنْ مِنَحِي، وأُجِيبُ طَلِبَاتِكُمْ، وأُحقِّقُ رَغَبَاتِكُمْ.

وطوىٰ النصُّ هنا أحداثاً، مُنْتَقِلاً إلَىٰ أَحْدَاثِ إجْرَاءِ المباراة في الميقاتِ الّذِي تَمَّ تَحْدِيدُه، والْتَقَطَ مِنْهَا لقطاتٍ لبيانها هنا في السورة، فقال الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

قول موسىٰ لهم: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ جاء جواباً لعَرضِهِمْ الذي جاء بيانه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وفي سورة (طـٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وطُوِي هُنَا في (الشعراء).

أي: اطْرَحُوا في سَاحَةِ المباراة ما عِنْدَكُمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيٍّ أَعْدَدْتُمُوه لها، فأنَا مُتَحَدِّيكُمْ، وَقَابلٌ تَحَدِّيكُمْ.

لقد طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُلْقُوا أَوّلاً ليَتَسَنَّىٰ لَهُ إبْطالُ كَيْدِهم كُلِّهِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ، واسْتَغَلَّ لهٰذا تخييرَهُمْ له.

فَطَرَحَ السَّحَرَةُ في سَاحَةِ المباراة أدواتِهِمُ السِّحْرِيّة، حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ، وأقْسَمُوا بِقُوَّةِ فِرْعَوْنَ الإلَٰهيَّة الغالِبَةِ لكُلِّ الْقُوىٰ، قائلين بَعْدَ الْقَسَمِ جواباً له: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فأكَّدُوا عبارتَهم هٰذِهِ بأرْبَعِ مؤكدَات: «إنّ - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة - ضمير الفصل».

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: بقوة فِرْعَوْنَ الغالِبَة، المادّية والمعنويَّة، إذ جَعَلَ فِرْعَوْن نفسه إلَٰهاً لشعْبِهِ.

العِزَّة: الْقُوَّةُ الْغَالِبَة.

وبعد أن ألْقَىٰ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ وأَجْرَوْا أعمالَهُمُ السِّحْرِيَّة، وَسَحَرُوا أعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ، كما جاء في غير هذه السّورة، ألْقَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلام عصاه كما قال الله تعالى في هذه السورة:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: فانقلَبَتْ بِأَمْرِ الله التكوينيِّ عصا موسى عليه السَّلام حَيَّةً

عظيمةً، وفاجأت المشاهِدِينَ بأنّها شَرَعَتْ تَبْتَلِعُ ابْتِلاعاً حقيقيًّا ثعابين السَّحَرَةِ الَّتي هِيَ في الحقيقة ما زَالَتْ حِبَالاً وعِصيًّا.

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تتناول بسُرْعة في فَمِها فتَبْتَلِعُه. يقُال لغة: «لَقِفَ الشيءَ، يَلْقَفُهُ، لَقْفاً، ولَقَفاناً، أي: تناولَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخذه بفَمِهِ فابتلعه. وقرىء [وتَلَقَّفَ] يَلْقَفُهُ، لَقْفاً، ولَقَفاناً، أي: تناولَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخذه بفمه فابتلعه. وقرئ [تَلَقَّفُ] أي: تَبْتَلِعُ بشِدَّةٍ وسُرْعة.

واجْتَهَدَ السَّحَرَة اجتهاداً بالغاً للمحافظة عليها مَوْجُودة في ساحَةِ المباراة، ومنْعِ حيَّةِ موسَىٰ من ابْتِلاعها فخَابُوا ولَمْ يُفْلِحُوا، وقد كان هٰذا الاجتهادُ مُرافقاً لابتلاعِهَا حبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ بدَلاَلَةِ الْفِعْل المضارِع في عبارة: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: أي: وهُمْ مَا زَالُوا يُجدِّدُونَ أعْمالَهُم السِّحْرِيَّةَ الكواذب، الّتي تعْتَمِدُ على كذِبٍ خداعِيٍّ للأعْيُن، وليس لَهُ حقيقةٌ في الواقع.

«الإفك»: الكذِبُ قولاً أو عَملاً، يقال لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أفْكاً، وإِفْكاً، وأُفُوكاً ـ وَأَفِكَ يَأْفَكُ أَفْكاً» أي: كذَبَ.

وعَجَزَ السَّحَرَةُ عن اتّخاذِ أيِّ شيءٍ حِيالَ الْعَصا المنقَلِبَةِ حيَّةً حقيقيَّة، وابْتِلاَعِها كُلَّ أدَواتِهِمُ السِّحْرِيَّة، وأدْرَكُوا أنَّها آيَةٌ مِنْ آياتِ خالِقِ الكَوْنِ، رَبِّ العالمين، فخَرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلنِينَ إيمانَهُمْ برَبّ العالَمِين، رَبِّ موسَىٰ وَهارون.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

جاءَ الفِعلُ في: ﴿فَأُلْقِىَ﴾ مبنيًّا لِمَا لَمْ يَسُمَّ فاعِلُهُ، للدَّلاَلَة عَلَىٰ أنّ سُلْطَانَ آيَةِ اللهِ بابْتِلاَعِ كُلّ ما صَنَعَ السَّحَرَةُ، جَعَلَتْهُمْ بِتِلْقَائِيَّةٍ مَقْسُورين عَلَىٰ أَنْ يَخِرُّوا سَاجِدِين لله رَبِّ الْعَالِمين، مُجري هٰذِهِ الآيَةِ العظيمة لموسَىٰ عليه السَّلام.

والفاء في العبارة دَلَّتْ على أنّهم خَرُّوا سَاجِدِينَ عقب ابتلاع العصا المنْقَلِبَةِ حيَّةً كُلَّ مَا صَنعُوا، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ تَلَكُّؤٌ ولاَ تَرَيُّث، انْدِهَاشاً بالْحَدَثِ، ومُعْتَرِفِينَ بالخيبَةِ، وَأَنَّهُمْ مَغْلُوبُونَ حَقًّا.

﴿سَٰجِدِينَ﴾: أي: حالَةَ كَوْنِهِمْ سَاجِدِين حينَ أُلْقُوا.

السُّجود: يكونُ لغةً بإحْنَاءِ الظَّهْرِ وَتَطَامُنِه، وأقصاه يكونُ بوضع الجبْهَةِ علىٰ الأرض.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

يَحْكي اللهُ عزّ وجلَّ بهٰذِهِ المقالَةِ إعْلانَهُمْ إيمَانَهُمْ باللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الرَّبِّ الذي يَدْعُو إلى الإيمان بِهِ مُوسَىٰ وَهارون.

والمرادُ هُنَا مِنْ كونِهِ رَبَّ الْعَالَمِين، كَوْنُه رَبَّ كُلّ مَا فِي الْوُجُودِ سِوَىٰ اللهِ عزّ وجلَّ.

فأثَارَ سُجُودُهُمْ وإعْلاَنُهُم الإيمانَ برَبّ العالَمِينَ رَبّ مُوسَىٰ وهارون، غَضَبَ فِرْعَوْنَ وسَخَطَهُ الشّديد، فقال لَهُمْ مَا أبانَتْهُ الآيَة التالِيَة:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هذ الآية على بيان ثلاث قضايا وجَّهَها فِرْعَوْن لسَحَرتِهِ الّذين آمَنُوا بِرَبِّ العالمين، وآمَنُوا بمُوسَىٰ وأسْلَمُوا:

القضيَّةُ الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلَّ حكاية لما قاله فرعون للسَّحَرَةِ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾:

فعل «آمَنَ» يَتَعَدَّى بحرْف الجرّ «الباء» فيُقال لغة: «آمَنَ بِهِ» أي: اعتَقَدَهُ اعْتِقَاداً قَلْبِيًّا جازماً به، فلماذا عُدِّيَ هنا باللّام؟.

أقول: ضُمِّنَ فعل «آمَنَ» معنَىٰ فعل «أَسْلَمَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فصار

المعنىٰ: آمَنْتُمْ بِهِ وَأَسْلَمْتُمْ له، وبهذا التضمين مع التَّعْدِيَة الَّتِي تُلائم الْفِعلَ المضمَّنَ غَيْر المذكور في اللّفظ، أغْنَتِ الْجُملَةُ الواحِدَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، وهذا مِنْ روائع الإيجاز القرآنيّ.

ويُقالُ في التقدير: آمَنْتُمْ بِه مُسْلِمينَ له.

ودلَّتْ عبارَةُ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ على أنَّ من نِظَام الحكْمِ الْفِرْعَوْنِيّ، أَنَّهُ لَيْسَ لأحَدٍ مِنْ رَعِيَّةِ فِرْعَوْنَ، أَنْ يُؤْمِنَ بشَيْءٍ علَىٰ خِلاَفِ دِينِ فِرْعَوْنَ إِلَّا بإذْنِهِ، فإِنْ فَعَلَ شيئاً من ذَلِكَ، اسْتَحَقَّ العقابَ الَّذِي يَقْضِي بِهِ فِرْعَوْنُ، ومنْهُ الصَّلْبُ بَعْدَ تَقْطِيع الأيْدِي والأرْجُلِ من خلاف.

فالدّينُ في نِظامِه تُجْبَرُ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ بسُلْطَانِ الْقُوَّة.

«**الإذن**» يأتي في اللُّغَةِ بمعنى «العِلْم». ويَأْتي بمعنىٰ «الْإِباحَة» وهذا المعنَىٰ الثاني هو الملائمُ هنا.

القضية الثانية: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ حكاية لمعنى مَا قالَهُ فرعون للسَّحَرَة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾:

في هذا الْقَول حُكْمٌ عَلَيْهِمْ بإدَانَةٍ افترائيّة، قرَّرَ فيها فرعَوْنُ أنّ ما جَرَىٰ قَدْ كانَ مؤامَرَةً مُدبَّرَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَىٰ، وأَنَّهُمْ كانُوا مُتَفِقِينَ مَعَهُ على أنْ يُظْهِرُوا عَجزَهُمْ، وأَنْ يَغْلِبَ سِحْرُهُ سِحْرَهم، وأنْ يَخِرُّوا سَاجِدِينَ مُعْلنين إيمانهم وإسلامهم. إذْ هُو كَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَهُمُ السّحر، واتَّفَقُوا مَعَهُ على أنْ يكُونُوا شُركاءَهُ فِي حُكْمِ مِصْرَ، بَعْدَ إسْقَاطِ حُكْمِ فِرْعَوْنَ.

ويظهر أنَّ فرْعَوْنَ أعْلَنَ هذا لإقناع جماهير المصْريّين بأنَّ ما جَرىٰ مؤامَرَةٌ مُدَبَّرَة، حتَّىٰ لاَ يَنْسَاقُوا وراءَ السَّحَرَة فيُؤْمِنُوا بموسَىٰ نبيًّا ورسُولاً لِرَبِّ الْعَالَمِين، ويُسْلِمُوا له، وبذلك يَفْلَتُ زمام الأمْر مِنْ يَدِهِ جَماهِيريًّا، مع أنَّ ما أعْلَنَهُ لَيْسَ لَهُ أمارة تَدُلُّ عليه، فقد كانَ موسَىٰ خارج مصْرَ فارًّا من القتل كما سَبَقَ بيانه.

القضية الثالثة: دلَّ عليها قوْلُ اللهِ عزّ وجلَّ حكايَةً لمعنَىٰ مَا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ من عقاب: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

في هٰذا بيانُ أنَّ فِرْعَوْنَ أكَّدَ عَزْمَهُ على مُعَاقَبَتِهِمْ بما جاء في هذا القول، ولكِنَّهُ جعَلَ بَيْنَ الْوَعِيدِ وبَيْنَ التَّنْفِيذِ فُسْحَةً دَلّتْ عليها أداة التَّسْوِيفِ الطويلِ «سَوْفَ» رَجاءَ أَنْ يَتُوبُوا، ويَعُودُوا إلى حَظِيرَتِهِ، سَنَداً لِمُلْكِهِ القاهِر لجماهير القبط، والمسْتَعْبِدِ للإسْرَائِيلِيّين.

فالعبارة على تقدير: إنْ لَمْ تَتُوبُوا وَتَرْجِعُوا إلَىٰ حظيرَتي.

وجاء الوعيد مؤكّداً باللّام الواقِعَةِ في جواب قَسَم منْوِي، ومؤكّداً بنون التوكيد الثقيلَةِ في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ و﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ وبلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

تَقْطِيعُ الأيْدِي والْأَرْجُلِ مِنْ خِلاَفٍ يكُونُ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُمْنَىٰ. والرِّجْلِ الْيُسْرَىٰ، أَوْ بِقَطْعِ الْيَدِ الْيُسْرَىٰ والرِّجْلِ الْيُمْنَىٰ، وهذا النوعُ من التشويه العقابيّ في الأعضاء، أخفُّ ضرراً من قَطْع اليُمْنَىٰ منْ كُلٍّ منْهما، أو الْيُسْرَىٰ مِنْ كُلٍّ منْهما، لأنّ السَّالمةَ تُعِينُ المقْطُوعَةَ مِنْ جِهَتِها.

وزادَ فِرْعَوْنُ في تَوَعُّدِهِ وتَهْدِيدِهِ، فأعْلَنَ لِسَحَرَتِهِ أَنَّهُ سيَتْرُكُهُمْ مُقَطَّعِي الْأَيْدِي والْأَرْجُلِ مِنْ خِلاَفٍ زَمَناً يُعَذَّبُونَ فِيه، ثُمَّ لَيُصَلِّبَنَّهُمْ أجْمَعِين، تَصْلِيباً عنيفاً شَدِيداً يكُونُ به تَعْذِيبُهُمْ ومَوْتُهُمْ صَبْراً بَعْدَ ذَلِكَ، ويكُونُ بِهِ التَّشْهِيرُ بِهِمْ أَمَامَ الْغَادِينَ والرَّائِحِين من الشَّعْب المصْرِيِّ وغَيْرِهم، ليَكُونُوا عِبْرَةً لكُلّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسَه بمُخَالَفَةِ دِينِ الملِكِ وَنِظَامِ حُكْمِه.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطْراف الْجِسْمِ، وتَعْليقُهُ علىٰ خَشَبَةٍ مَعْرُوفَة بالصَّليب، وتكُونُ على شكْلِ سَطْرٍ قائم عَمُودِيّ، وسَطْرٍ آخَرَ يُوضَعُ وَسَطُهُ على السَّطْرِ القائم دُونَ رَأسِهِ بنَحْوِ الرُّبْع.

وقد يكونُ هذا الصَّلْبُ على سُوقِ شَجَرٍ ذَواتِ سُوقٍ مُرْتَفِعَةٍ عالية، كالنَّخْلِ، والسَّرْوِ، ونَحْوِهما.

قول الله عزّ وجلَّ حكايةً لمعنىٰ ما أجاب به السَّحَرَةِ فِرْعَوْنَ علىٰ تَوَعُّدِهِ لهم:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نعتبِرُ مَا سَتُنْزِلُهُ بِنَا بمقْتَضَىٰ تَهْدِيدكَ ضارًّا لنَا، بَلْ هُو سَيزيدُنَا عِنْدَ رَبِّنَا سَعادَةً وَأَجْراً عظيماً، وَمَا نَلْقَاهُ مِنْ جُنُودِكَ وزَبَانِيَتِكَ لاَ يَزِيدُ في اعتبارِنَا على كوْنِهِ أذًى.

يقالُ لغة: «ضَارَهُ يَضِيرُهُ أَمْرُ كَذا» و«ضَارَهُ يَضُورُهُ» أي: أضَرَّ به.

إنَّ السَّحَرَة مُنْذُ أَعْلَنُوا إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ، قَدْ صَارَت لَدَيْهِم بَصِيرَةٌ إيمانِيَّةٌ نَفَّاذَةٌ، وتَعَلُّقٌ كامِلٌ بالآخِرَة، واسْتِهَانَةٌ بالدُّنيا وبكلّ ما فيها من مَسَرَّاتٍ وَمَكارِه، فقالوا لِفِرْعَوْن: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ وَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: إنَّا إلَىٰ رَبِّنَا رَاجِعُونَ.

يُقَالُ لغة: «انْقَلَبَ» أي: رَجَعَ، وانْصَرَفَ.

وفي عبارتهم هذه كنايَةٌ عَنْ أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ بِرَحْمَتِهِ وجُودِهِ وَكَرَمِه سَوْفَ يَشْمَلُهُمُ بالغفران والإسعاد، ويُفيضُ عَلَيْهِمْ من هباته وعطاياه خيراً عظيماً، ويُدْخِلُهُمْ فِي جنَّتِهِ، فَيَمْنَحُهُمْ فيها سعادةً أَبَدِيَّةً خالِدَة.

وقالوا لِفِرْعَوْن: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

لَقَدْ أَدْرَكَ السَّحَرَةُ أَنَّ لَهُمْ خَطَايَا كثيرَةً سَبَقَ أَنْ ارتَكَبُوهَا، ولاَ سيما أعْمالُ السِّحْرِ وَوَسائِلُه الّتي كانُوا يُمارِسُونها، فهم إذا صَبَرُوا علىٰ العذاب الّذي يتَوَعَّدُهُمْ فِرْعَوْنُ بِهِ، فإنَّهُم يَطْمَعُونَ في أَنْ يَغْفِرَ لهم رَبُّهم خطَاياهُمْ

بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا أوّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الْقِبْطِ بما جاء به مُوسَىٰ وهارونُ عن الله رَبِّ العالمين، بِحَسَبِ مَا ظَهَر لَهُمْ من واقِع الشَّعْبِ المصْرِي، أَمَّا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَعْلَنَ إيمانه.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: بأَنْ كُنَّا أَوّلَ المؤمنين من الشعب المصري. والباء المقدّرة قبل «أنْ» سببيّة.

والمعنىٰ: لقَدْ سبَقَ أنْ كَانَ مِنَّا خَطَايا كثيرةٌ في جنْبِ اللهِ، ونَطْمَعُ الآنَ في أن يغفرَ لنا رَبُّنَا خطايَانا، بسَبَب أنْ كُنَّا أوّل المؤمنين من القبط.

ولَزِمَ ذكْرُ قَيْدِ القبط، لأنَّ السَّحَرَة يَعْلَمُونَ أنَّ كثيراً من رجال بني إسرائيل ونسائِهم سبَقَ أَنْ آمَنُوا بموسَىٰ وهارُون نَبِيَّيْن ورَسُولَيْنِ من رَبّ العالِمين، وآمَنُوا بالدّين الذي جاءَا بِهِ عنه.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوّل المؤمنين والسَّابقينَ إلى الإيمان، أعْظَمُ أجرا عِنْدَ الله من الّذين يُؤْمِنُون بَعْدَهم.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

قَفَزَ النّصُ هُنَا في (الشعراء) إلَىٰ بيان رِحْلَةِ خرُوج بَنِي إسرائيل بقيادة موسى وهارون مِنْ مِصْر، وطُوِيَتْ أحداثٌ كثيرةٌ بَيْنَ حَدَثِ المباراة مع السَّحَرَةِ، وحَدَثِ الخروج، وقد جاء بيانُ أحداثٍ منها في نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ من سُور غير (الشعراء) سبق بيانها في تدبر سورة (طـه).

• قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو جعفر: [أَنِ اسْرِ] بوصْلِ الهمزة، وكَسْرِ النون في الوصل، من فعل «سَرَىٰ يَسْرِي» يقال لغة: «سَرَىٰ بفُلاَنٍ ليلاً» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنْ أَسْرِ] بإسْكان النون، وقَطْعِ همزة

«أَسْرِ» من فعل: «أَسْرَىٰ يُسْرِي». يقال لغة: «أَسْرَىٰ اللَّيْلَ وَبِهِ يُسْرِي» أي: سَرَىٰ. ويُقال أيضاً: «أَسْرَىٰ فُلاَناً، وأَسْرَىٰ به» أي: سَرَىٰ به.

فالقراءتان لغتان متكافِئَتان.

أيْ: سِرْبِهِمْ لَيْلاً. **السُّرَىٰ**: المشْيُ في اللّيل.

فالمعْنَىٰ: وأبْلَغْنَا مُوسَىٰ عَنْ طَرِيقِ الوحْي أَمْرَنَا بأَنْ يَخْرُجَ لَيْلاً مع بني إسْرَائيل من مِصْرَ، فخرج بهم باتِّجاه سيناء.

[أَنْ أَسْرِ]: «أَنْ» تفسيريّة بمعْنَىٰ «أي» وما بَعْدَهَا يُفَسِّرُ ما هُوَ مُبْهَمٌ في عبارة **[وَأَوْحَيْنَا]** ويجوزُ أي تكون «أَنْ» مخفَّفَةً من الثقيلة، واسْمُها ضَمِيرُ الشّأن محذوفٌ وجوباً كما يَقُول النحويّون، وتقديرهُ، أنّ الشأْنَ العظيم الخطير هُوَ أمْرُنا لَكَ بِأَنْ تَسْرِيَ ليلاً بعبادي بني إسرائيل.

﴿بِعِبَادِيٓ﴾: الباء الجارّة هُنَا للتعدية، لأَنَّهُ يقال لغةً: «أَسْرَىٰ فُلاَناً وأَسْرَىٰ به، أي: جعلَهُ يَسِيرُ ليلاً».

ووصف الله عزّ وجلَّ جُمْهُور بني إسْرَائيل الخارجين مع موسَىٰ عليه السَّلام بأَنَّهُمْ عباده على معنيَيْن:

المعنى الأول: الْعُبُودِيّة الاختياريّة والجبريَّة معاً، وهذه تلائم مَنْ كان قد آمَنَ فِعْلاً من بني إسرائيل بموسَىٰ عليه السَّلام، وبما جاء به عَنْ رَبّه.

المعنى الثاني: العبوديّة الجبريَّة فقط، وهذه تلائم الّذين لم يُؤْمِنُوا به بَعْدُ من بني إسرائيل، ولم يُسْلِمُوا، وقَدْ خَرَجوا مَعَهُ خُروجاً قَوْميًّا، لا انتماءً دينيًّا.

بدليل ما جاء في الآية (٨٣) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) من أنّه لم يُؤْمِنْ لموسَىٰ إلّا ذُرّيّةٌ مِنْ قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِمْ.

وأعْلَمَ اللهُ عزّ وجلَّ موسى بقوله له: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أنَّ فِرْعَوْنَ وَجَيْشاً مَعَهُ سَيَتَّبِعُونَهُمْ لقِتَالِهِم، وردِّ جُمْهورِهِمْ إلى العبوديَّةِ والتَّسْخِير والإذْلال.

ولهذا الإعلام لوازمُ فِكْرِيَّةٌ، أي: ولكِنِّي سَأَتَوَلَّىٰ إنْقَاذَكُمْ وَتنجِيَتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكم بما أشاءَ من وَسَائلي فَلا تَخَفْ من اتّباعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، وَكُنْ أنْتَ وَقَوْمُكَ مطمَئِنِّينَ لتَدْبيري، وقضَائِي وقَدَري.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾:

أي: فلمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِخُروج بني إسرائيل دون إذْنٍ منه، أَرْسَلَ قُوّاداً مِنْ قِبَلِهِ حَاشِرينَ جُنُودَ قتالٍ في المدائنِ المصْرِيَّة، من كلّ أرْضِ مِصر، لتَكْوينِ جيْشٍ كبيرٍ، يُتَابعُ بني إسرائيل الفارِّين بقيادة موسَىٰ عليه السَّلام.

والمرادُ رَدُّ جماهِيرهم إلَىٰ الذُّلّ والْعُبُودِيّة، بَعْدَ قَتْلِ زُعَمَائِهم الّذِين قادُوا أسْباطَهُمْ في الخروج، ومَنْعُهم مِنْ تكْوِينِ جَيْشٍ خارج مصر، ومن عَوْدَتِهم مقاتِلين للاستيلاء على حُكْم مصر، بقيادة موسَىٰ وأخيه هارون.

قول الله عزّ وجلَّ حكايةً لمعنَىٰ ما قالَهُ فِرْعَوْن، ويظهر أنَّه خطب في الجيش الذي جمَعَهُ وساقَهُ مُحَرّضاً على الْمَسِير لقتال بني إسرائيل: أو خطَبَ موجهاً كلامه لعموم الشعب.

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المشارُ إلَيْهم هُمْ بَنُو إسرائيل الّذين فرّوا من الاستعباد والإذْلاَلِ الفرعَوْنِيّ والقِبْطِيّ.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: أي: لجماعَةٌ ضعيفَةٌ مِنَ الناسِ، وقَلِيلُونَ غَيْرُ قَادِرِينَ علَىٰ القتال، فالسَّيْطَرَةُ عَلَيْهِمْ سَهْلَةٌ مَيْسُورَة.

وتُجْمَعُ «شِرْذِمة» على «شَرَاذِم». ويُطْلَقُ لفظ الشرذمَةِ في اللُّغَةِ على الْقِطْعَةِ مِنَ الشيء. ويقال لغة: «ثِيابٌ شَراذِم» أي: ثيابٌ مُمَزَّقَةٌ بالِيَةٌ خَلَقَة.

وقد جاء تأكيد العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزَحْلَقة» وهٰذِهِ تَرْجَمَةٌ لما يُسَاوِيها في لغة فرْعَون.

قول الله عزّ وجلّ متابعاً حكايَةَ معنى ما قالَهُ فرعَوْن لجيشِهِ في خُطْبَتِه:

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

«الغيظ»: الغضَبُ الشديد، يُقَالُ لغة: «غَاظَهُ، يَغِيظُهُ، غَيْظاً» أي: أغضَبَه أشَدَّ الغضب. ويقال أيضاً: «أَغاظَهُ يُغِيظُهُ».

والمعنى: إنّ هؤلاء الإسرائيليينَ قَدْ أغْضَبُونا أشَدَّ الْغَضَبِ بتَصَرُّفاتهم، وبخُرُوجِهِم مِنْ مِصْر دون إذْنٍ مِنّا، فَلا بُدَّ من الانتقام مِنْ زُعَمائِهم وتأديبِ جماهيرهم.

خَاطَبَ فرعَوْنُ قَوْمَهُ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم، إِذِ ادَّعَىٰ لِنَفْسِهِ الإلَٰهِيَّةَ والرُّبُوبيَّة.

وجاء تأكيد عبارته بالمؤكدات: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة» لتدلَّ على عبارته التوكيديّة في لغته.

قول الله عزّ وجلّ متابعاً حكاية معنى ما قالَهُ فرعَوْنُ لجيشِهِ في خُطْبَتِه:

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [حَذِرُونَ] جَمْعُ حَذِر، مُبَالغاً في بَيَانِ شدّة حَذَرِه في عبارة لاَحِقَةٍ للأولى.

أي: خائفونَ علىٰ مُلْكِ مصْرَ، وعلىٰ الشعب القِبْطِيّ من خُرُوجهم،

إذْ قَدْ يُكَوِّنُونَ خارجَ مصْرَ جيشاً قَوِيًّا، ثُمَّ يَرْجِعُون مُقَاتِلِين، لانتزاعِ الحكْم بِالْقُوَّةِ، واستِعْبَادِ الشَّعْبِ القِبْطِيّ بِقُوَّةِ السلطان، انْتقاماً من استِعْبَادِه لَهُمْ بِسُلْطَانِنَا الْفِرعَوْني.

هذا مَا دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿لَجَمِيعٌ﴾: أي: الْمَلِكُ، ورِجالُ دولَتِه، وسائر القِبْطِ في مِصْر.

والعبارة مؤكَّدَةَ كسَابِقَتِها.

قَوْلُ الله عزّ وجلَّ:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي قراءة أخرى: [وَعِيُونٍ] بِكَسْرِ الْعَيْن.

تحدَّث الله عزّ وجلَّ في هاتين الآيتينِ عَنْ حِكْمته في تَدْبيراتِه. للانتقامِ من فرعون وجنوده.

أيْ وكان في إغرائهم وتَهْيِيجِهمْ منَّا لنفوسهم وقلوبهم، وإحداثِ الغضب الشديد فيها، والرَّغبة في مُتابِعَةِ بَنِي إسرائيل الضعفاء، أنْ أخْرَجْنَا فِرْعونَ وآله، وعِلْيَة قَوْمِه، ممّا يمْلِكُون من جنَّاتٍ وعُيونِ ماء جاريات، ومِمَّا يملَكُون من كنوز ذهبيّة وغَيْرِهَا، جَمَعُوها بقوَّةِ سلطانهم في مِصْرَ، وأخْرَجْناهُمْ مِنْ مقامٍ كريمٍ، كانوا فيه مكرَّمين مفَضَّلِينَ أعزّاء، ذوي عُلُوٍّ في أرْضِ مِصْر، وهو مقامُ سُلْطَتِهِمْ الّتي هي لَهُمْ في عُمُومِ مصر.

﴿جَنَّاتٍ﴾: جمع «جنَّة» وهي الحديقَةُ المكْتظَّةُ بالأشجار، فهي ساترةٌ لما تَحْتَها من أَرْضٍ وأشياءَ وأحياء.

﴿وَمَقَامٍ﴾: **المقام**: يُرادُ به المكان المعنويُّ الرَّفيع، الّذِي كانُوا فِيهِ أهْلَ وِلاَيَةٍ وحُكْمٍ وسُلْطَانٍ.

﴿كَرِيمٍ﴾: أي: مُفَضَّلٍ على ما سِوَاهُ من الأمْكِنَةِ المعنوية.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾:

تَبادَرَ لِأَذْهانِ كثيرٍ من المفسِّرين، أنَّ الله عزّ وجلّ مَلَّكَ بَنِي إِسْرَائيل، ما كانَ لِفِرْعَوْنَ وآلِهِ وعِلْيَةِ قَوْمِهِ في مصر، فَفَهِمُوا هٰذِهِ الآيَةَ علىٰ وفْقِ هذا الّذي تبادَرَ لَهُم.

مع أنّ الثّابِتَ تَاريخيًّا أنَّ بَنِي إسرائيلَ لَمْ يَعُودُوا إلى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنها، بَلْ أَبْقَاهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ تائِهِينَ في صحراء سينا وما حَوْلها، ممّا يتَّصِلُ بها برّاً أَرْبَعِينَ سنة، لأنَّ معظمَهم قَدْ رَفَضُوا أَنْ يَدْخُلُوا أَرْضَ الكَنْعَانِيّين مقاتِلين، وقالُوا لموسَىٰ عليه السَّلام: إنَّ فيها قَوْماً جبَّارِين، وإنَّا لَنْ نَدْخُلَها مَا دَامُوا فيها. وقالوا له: ٱذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلاَ إنَّا هٰهنَا قاعِدُون.

وبَعْدَ أَنْ تُوُفِّي هَارُونُ ثُمَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام، ومضَتْ أَرْبَعُون سنةً تائِهِينَ في الأرض، غَيْرَ مسْتَقِرِّينَ في مُدُنٍ ولاَ قُرَىٰ، وبَعْدَ أَنْ نشأ جيلٌ جَدِيدٌ قادرٌ على القتال، هيأَ اللهُ عزّ وجلَّ مَنْ يَقُودُهم، فَدَخلُوا أَرْضَ الكنْعَانِيّين بقتالٍ، وهي أرض فِلِسْطِينَ، ونَصَرَهم اللهُ عزّ وجلَّ ومَلَّكَهُمْ مَا كانَ لمُلوكِ هٰذِهِ الأرضِ الجبابِرَةِ الْوَثَنِيِّينَ الكفَرَة، مِنْ جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كريم.

وبالتأمُّلِ والتفكير الدقيق، ظهر لي أنَّ قول الله عزّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِقَوْمٍ آخرينَ غَيْرِ أهل مِصْر نظير ما حَصَلَ لأهل مِصْرَ مع بني إسْرَائيل، فنَصَرَ اللهُ بَنِي إسْرَائيلَ عَلَيْهِمْ، ومَلَّكَهُمْ مَا كَانَ لملُوكهم وأثريائِهِمْ مِنْ جنَّاتٍ وعُيُونٍ وكُنُوزٍ ومقَامٍ كريم، وهُنَا يأتي مَوْقِعُ قول الله عزّ وجلَّ: ﴿... وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾: أي: وجعَلْنَا بني إسرائيلَ هُمُ المالِكِينَ لَهَا، بَعْدَ مَالِكيها السَّابقين، عن طريق القِتَالِ والحرْب والمعونَةِ الرَّبَّانِيَّة.

وبهذا ينْحَلُّ الإشْكال، ويَتِمُّ التوفيقُ بَيْنَ النَّصّ القرآنِيّ والواقِعِ التَّاريخيّ.

ونلاحظ أنّ هٰـذِهِ الآية قد قَفَزَتْ بعبارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أكْثَرَ من خَمْسِينَ سنةً إلىٰ جهَةِ الأَحْدَاثِ الّتي حَدَثَتْ في المستقبَلِ بَعِيداً عَنْ حَدَث عبُور بني إسرائيلَ الْبَحْرَ، وغَرَقِ فرعَوْنَ وكلّ جُنُودِهِ الّذين تابَعُوا بَنِي إسْرَائيل معه.

وقد جاءت هذه الآية كالمعترضَةِ ضِمْنَ الكلام عن تَسَلْسُلِ الأحداثِ بتَتابُعٍ، للإشعار بأنّ الله عزّ وجلَّ قَدْ مَنَحَ بني إسرائيلَ ما كان وَعدَ به أجدادهم المرسَلِينَ، وكان تأخير تحقيق وعْدِهِ بسَبَبٍ من بني إسرائيل أنفسهم، إذْ رَفَضُوا أنْ يَدْخُلوا أرضَ الكنْعَانِيّين مُقَاتِلِينَ بقيادة موسَىٰ عليه السَّلام، لِيَظْفَرُوا بالأرْضِ المقدّسة (= القدس وما حوله) وهي الأرض التي بارك الله فيها.

قول الله عزّ وجلَّ:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾:

﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: أي: فَسَارَ جيْشُ فِرْعَوْنَ بقيادته، في أَثَرِ جُمْهُورِ بَنِي إسْرَائيل، عَلَىٰ الطريق الذي ساروا فيه.

يقال لغة: «تَبِعَهُ، يَتْبَعُهُ، تَبعاً، وتُبُوعاً، وتَبَاعاً، وَتَبَاعَةً» أي: سَارَ في أَثَره. وكذلِكَ يُقَال: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» أي: سَارَ في أَثَرِهِ يَطْلُبُه.

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: حَالَةَ كوْنِهِمْ داخِلِينَ في وقْتِ شُرُوقِ الشَّمْس. يُقَالُ لغة: «أشْرَقَ الْقَوْمُ» أي: دخَلُوا في وقْتِ شُرُوق الشَّمْسِ، عنْدَ طُلُوعها، ومَدِّ ضِيَائها علىٰ الأرض.

لَمْ يُحَدِّدِ النَّصُّ الْيَوْمَ الّذي أَتْبَعُوهُمْ فيه، فلا بُدَّ أَنْ نُقَدِّرَ زَمَناً ما

يُسْتَطَاعُ فيه جَمْعُ الجيْش وحشْرُهُ وسوقُه من المدائن المصرّية، وإعدادهُ بأقْصَىٰ سُرْعَةٍ، لملاحقَةِ بني إسرائيلَ على الطريق الذي سَلَكُوهُ.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: فَلَمَا وَصَلَ جيْشُ فِرْعَوْن بقيادته، إلى مكانٍ يُمْكِنُ أنْ يَرَىٰ فيه كُلُّ جَمْعٍ من الْجَمْعَيْنِ الآخر، قال أصْحَابُ موسَىٰ المؤمِنُونَ به، والْمُسْلِمُونَ لَهُ، والملازمُونَ مُرافَقَتَهُ، والمحيطُونَ بِهِ كالْهَالة، الذين استخلصهم لصُحْبَتِهِ في حِلّهِ وترحالِه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ من قِبَلِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ.

يُقَالُ لغة: «تَراءَىٰ الْفَرِيقانِ، أو الْجُمْعَان، أو الشخصان المتباعِدان» أي: رأىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر، أوْ وَصَلاَ إلى مكانٍ يُمْكِنُ فِيه أنْ يَرَىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر.

[مُدْرَكُون]: اسم مفْعول من فِعْل «أَدْرَكَ» يُقَال لغة: «أَدْرَكَ فُلانٌ الشَّيْءَ» أي: لَحِقَهُ وبلَغَهُ وَنَالَه.

والمعنى: قال أصحاب موسَىٰ المقَرَّبُونَ له: إنَّ جيْش فرعَوْنَ سَيُدْرِكُنا، وسيَنَالُنا بأسْلِحَتِهِ مُقَاتِلِينَ لنَا، فَقَدْ وصَلَ هذا الجيشُ إلَىٰ مكانٍ يَرَوْنَنَا فِيه وَنَرَاهُمْ، وأَمَامَنا الْبَحْرُ، فماذا نَفْعَلُ للنجاةِ من هذا الجيشِ الّذي لا قِبَلَ لنا بمقاتَلَتِهِ؟.

فقال لهم موسى عليه السَّلام زاجراً ومُعَلِّلاً زَجْرَهُ: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: لا تَخْشَوْا علَىٰ أنفسكم، ولا على جُمْهورِ بَني إسْرَائيل، فإنَّ

مَعِيَ رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بأَنْ أَسْرِيَ بِبَنِي إسرائيلَ، وأَعْلَمَنِي بأَنَّنا مُتَّبَعُون، فهو حتماً سَيَهْدِيني إلىٰ وسِيلَةِ النجاة من هٰذا الْجَيْش الّذي لاَ قُدْرَةَ لِقَوْمِي بَنِي إسْرَائيل على مُقَاتَلَتِهِ.

وكانوا قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ بَحْرِ «سُوف» وهو «الْبَحْرُ الأحْمَر».

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: فعَقِبَ إعلان أصْحاب موسَىٰ تخوُّفَهُمْ مِنْ إدْرَاكِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ لهم، وتخوُّفِهِمْ من الْبَحرِ إذا فَرُّوا مِنْ مُواجهَةِ الجيْشِ الفرعَوْنِي، وعَقِبَ إجابَةِ مُوسىٰ عليه السَّلام لهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أَوْحَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ إلىٰ موسَىٰ عَلَيْهِ السّلام بِأَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرِ بِعَصَاهُ لينْشَقَّ، وليكُونَ لهم في قاع الْبَحْرِ طَرِيقٌ يَابِسٌ جَافٌّ، فإذا عَبَر هو وقومه فيه فإنَّهُمْ لاَ يَخْشَوْنَ أَنْ يُدْرِكَهُمْ عَدُوُّهم، ولاَ يَخْشَوْنَ فِيه غَرَقاً.

فضَرَبَ مُوسَى عليه السَّلام الْبَحْرَ مُبَاشَرَةً بعَصاهُ الْبَحْر، تَنْفيذاً لِلأَمْرِ الرَّبَّانِي، فانْفَلَقَ الْبَحْرُ بِأَمْرِ الله التكوينيّ، فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم.

الْفِرْق: الْفِلْقُ مِنَ الشيء إذا انْشَقَّ.

الطَّوْدُ: الْجَبَلُ العظيمُ الذَّاهِبُ صُعُداً في الجوّ.

والمعنى: فكانَ كُلُّ قِسْمٍ انْفَرَقَ مِنَ الماءِ مُنْحَازاً لإحْدَاثِ طَرِيقٍ يَعْبُر مِنْهُ بَنُو إسْرَائيلَ إلَىٰ الشَّاطِيءِ الآخر، كالْجَبَلِ العظيم قائماً ثابتاً لا يَسِيلُ مِنْ مَائِهِ شيءٌ إلَىٰ الطريق الْيَبَسِ، الذي جَعَلَهُ اللهُ عزّ وجلَّ في قاع الْبَحْر.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: أي: وقَرَّبْنَا هُنَاك الآخَرين، وهُمْ جَيْشُ

فِرْعَوْنَ بقيادته، وجَعَلْنَاهم يقتربُونَ مِنْ مَكَانِ الْفَرْق، فَرَأَوْا طَرِيقاً واسِعاً مُنْفَتِحاً في وسَطِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عظيمَيْنِ من ماء مُتَجمِّد، أحَدُهُما على يَمِينِ الْعُبُورِ، والآخَرُ على يَسَارِه. ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: وقرَّبْنا. «أَزْلَفَه وزَلَفَهُ» قَرَّبه.

﴿ثَمَّ﴾: اسْمٌ يُشارُ به إلى المكان البعيد، وهو ظرفٌ لا يتصرَّف، وقَدْ تَلْحَقُهُ التاء، فيُقَال: ثَمَّةَ، ويُوقَفُ عَلَيْها بالهاء.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جلّ جلالُهُ بعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، إذْ يُجْرِي في كوْنِهِ ما يَشَاءُ، ويَخْلُقُ فيه ما يشاء، ويَتَصَرَّف فيه على ما يشاءُ من كلّ أَمْرٍ حكيم.

وطَمَسَ الله على بَصِيرَةِ فرعَوْن وقادَةِ جيْشِهِ، وسَائِر جُنوده، فَدَخَلُوا في الطريق اليَبَسِ مُتابِعِينَ بَنِي إسْرائيل، ومُتَوَهِّمين أنَّ انفلاَقَ الْبَحْرِ ظاهِرَةٌ طبيعيَّة من الظواهِرِ الّتي قَدْ تُحْدِثُها الرِّياح الباردة، ولَمْ يُدْرِكوا أَنَّ الله رَبّ العالمين قَدْ فلَقَ البَحْرَ لِبَني إسْرائيل لِيُنْجِيَهُمْ ثُمَّ لِيُغْرِق فيه عَدُوَّهم.

وكان لثورَةِ الغضَب المجنُونَة، معَ الطَّمَع بالظَّفَر ببَني إسرائيل، أثَرٌ في طَمْسِ بصائرهم جميعاً، إذْ أعْمَاها عن إدْراك الْمَصِير الّذي هُمْ إلَيْه صائرون.

وجاء التعبير عن فرعون وَجَيْشِه بعبارة ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ اسْتِهَانَةً بِهِمْ، وتحْقِيراً لَهُمْ.

ودَخلَ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وسائِرُ جَيْشِهِ مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ مُتَابِعِينَ جُمْهُور بَنِي إسْرَائيل، وخَرَجَ بَنُو إسْرائيل إلى البرّ من جِهَةِ الشَّاطِىء المقابل، مع كلّ دوابّهِمْ وأحْمَالِهِمْ.

وتَرَكَ اللهُ الْبَحْرَ على حالِه المفروقِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّىٰ يكونَ

فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ كُلُّهم في وَسَطِ الطريق الْيَبَس في الْبَحَر، بدلالة حرف العطف «ثم» في قول الله عزّ وجلَّ:

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ولمّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجَيْشُهُ إِلَىٰ نحو الثُّلْثِ الْأَخِيرِ من الطريق الْيَبَس داخل الْبَحْر، أَمَرَ اللهُ الْبَحْر بأنْ ينْضَمَّ مَاؤُه عليهم، فسالَتِ الجبال المائيّة علَيْهِمْ مُتَدَفِّقَةً بشِدَّةٍ وعُنْفٍ، فَعَذَّبَتْهُمْ وأغْرَقَتْهُمْ أجْمَعِين.

وختم اللهُ عزّ وجلَّ هذا الفصل بالفاصلَة الّتي جاءتْ مُكرَّرَةً ثماني مرّات في السورة، وهي قول الله عزّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: إنّ مَا جَرَىٰ لموسَىٰ وبَنِي إسرائيل، ومَا جَرَىٰ لِفِرْعَوْنَ وجُنودِهِ لآيَةً من آيات الله على سُنَّتِهِ في عبادِهِ، ومع هذه الآية فَإنَّ المعْنِيّين الَّذِين جاء الحديث عنهم في الدرس الأول من دروس السّورة، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكة وما حَوْلها، الّذِين وصَلَ أَكْثَرُهُمْ إلَىٰ حالةٍ ميؤوس من إيمانِهِمْ معَها عن طريق إراداتهم الحرَّة، والَّذِين كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِم حُزْناً قاتِلاً، بِحَسَب نِظَام الأسْبَاب والمسَّبَباتِ في الناس، أَكْثَرُهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا عُولِجُوا وأمْهِلُوا، وصَارَ إنْزَالُ العقاب عليهم وتَطْبِيقُ سُنَّةِ اللهِ فيهم بنَصْرِ الرسول والمؤمنين معه عليهم هو الأمْرَ الحكيم.

وقَدْ سَبَقَ تحليلُ بقيّة ما جاء في هاتَيْنِ الآيتين، في آخر الدَّرْس الأول من دُرُوسِ السورة.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
لقطات تتعلّق بقصّة إبراهيم عليه السّلام وقومه
وهي الآيات من (٦٩ ـ ١٠٤)

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

تمهيد:

هذه لقطات من قصّة إبراهيم عليه السّلام وقومه، فيها آيةٌ ذاتُ عِظَاتٍ لِمَنْ شاء أنْ يَتَّعِظَ بها مِنْ أهْلِ الإيمان والدَّعْوَة إلىٰ الله، وفيها عِظَاتٌ للكافِرين المعاندين المشركين، الذين يَعْبُدُون من دُون الله أصناماً، فيَعْكُفُون عَلَيْها، وهي لا تَنفعُهم ولا تَكْشِفُ عنهم ضرّاً، ولا تَدْفَعُ عَنْهُمْ

أذىً، إنْ عَقَلُوا مُتَفَكِرِينِ. وهجروا تقالِيدَهُمُ العَمْياء، وأدْركوا ما في بيان اللَّهِ من أنباء، عن مَصِير المشركين السَّابِقين، وما يَنَالُونَهُ عِنْدَ رَبِّهِم من عَذَابٍ أليم.

وقُدِّمَت قِصَّةُ إبراهيم في هٰذه السورة على قِصَّةِ نوح عليهما السّلام، للتشابه بَيْنَ كُفَّار قوم إبراهيم عليه السّلام في الوثنيَّة وفي التقليد الأعْمَىٰ للآباء والأجداد وفي العناد والمكابرة، وبَيْنَ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْش، واعتماد كلٍّ من دَعْوَةِ إبراهيم عليه السّلام ودَعْوَةِ محمّد ﷺ، عَلَىٰ مَنْطِقِ العَقْلِ والحُجَجِ البُرْهانيّة، والمجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وإبراهيم مُعَظَّمٌ عندهم لأنّه أبو جدّهم إسماعيل عليهما السلام.

ونُدْرِكُ أنّ عَرْضَ حجج إبراهيمَ عليه السّلام على قومِهِ ضمن ذِكْرِ قِصَّتِهِ هُو بمثابَة عَرْضٍ لهذه الحُجَج نَفْسِهَا على مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، بأُسْلُوبٍ غَيْرِ مُباشر.

التدبُّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

• ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾: أي: وبَعْدَ إبلاغِكَ يا مُحَمَّدُ الّذين تَحْزَنُ مِنْ أجْلِهِمْ حُزْناً قاتِلاً قَتْلاً باخِعاً بحَسَبِ نظام الأسباب

والمُسَبّبَاتِ في الناس، قِصَّةَ موسَىٰ، والآياتِ الّتي أجْرَيْنَاهَا له، فلَمْ يَكُنْ لَهَا أَثَرٌ في فرعون ومَلَئِهِ وشَعْبِهِ المعاندين المكابرين المصرّين على باطِلِهِمْ، أشْبَاهِهِمْ، اُتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ إبْرَاهِيمَ في دعوَتِهِ لِقَوْمِهِ الوثنيّين، الَّذِين تُشَابِهُ حَالُهُمْ حَالَهُمْ، فإبراهيمُ والِدُ جَدِّهِمْ إسْماعيل، وهو الَّذِي أعْلَمَهُ اللَّهُ بمكانِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ أوّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاس، الّتي يَرْتَبِطُ بها مَجْدُهُمْ بَيْنَ العرب، وهو الذي بناها مع وَلَدِهِ إسْماعيل، وبَيَّنْ لَهُمْ أنَّهُ قد كانَ عَدُوّاً للأَوْثَانِ الّتي كان قومُهُ يَعْبُدونها، وهاجَرَ مُفَارِقاً لَهُمْ، وقَدِمَ إلى وَادِي مكَّةَ وتَرَكَ فيه ولَدَهُ إسماعيل مع أُمِّهِ هاجر، لِيُؤَسِّسَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً بتَوْحِيدِ الرَّبّ، وبوحدانيّتِهِ في إلٰهِيَّتِهِ، ثُمَّ أقام بناء الكَعْبَةِ للتَّوْحِيدِ ومحارَبَةِ الوثنيَّةِ بكُلِّ أشْكالِهَا وصُوَرِها.

تِلَاوَةُ القرآن: النُّطْقُ به مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وكلماته كما أنزلَهُ الله، فإذا كان تَتَبّعاً للمَكْتُوب فهي قراءة.

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

[إِذْ] ظَرْفٌ لحدَثٍ مَضَىٰ مبنيٌّ على السُّكون، والعاملُ فيه هنا [أَتْلُ] أي: أتْلُ عَلَيْهِمْ كلامَ إبراهيم حِينَ قالَ لِأَبِيهِ وقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ ومُنَاظَرَتَهُ لَهُمْ بَعْدَ هٰذَا السُّؤَال.

بدأ إبْرَاهِيمُ عليه السّلام دَعْوَتَهُ لِأَبِيهِ فَقَوْمِهِ بسُؤَالهم عمّا يَعْبُدُونَ، لِيَسْتَفْهِمَ عَنْ حقيقةِ الأصنام الّتي يَعْبُدُونَها، ولِيَعْرِفَ مَا يَعْتَقِدُونَ من صفاتٍ لها تَسْتَحِقُّ عِنْدَهُمْ أنْ تُعْبَدَ بِحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمْ، أوْ لِيَكْشِفَ جَهْلَهُمْ وحماقَتَهُمْ في عبادتها.

وبَدْؤُه بأبيهِ الْتِزَامٌ بِمَنْهَجِ الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ، إذْ تَقْتَضِي البَدْءَ بالأَقْرَبِين، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ في القُرْبِ، حتَّىٰ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ من الأقوام الأقرب فالأقرب.

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟؟ أي: ما حقيقة ما تعبُدون؟ «مَا» الاستفهاميّة يُسْتَفْهَمُ بها عَنْ غَيْرِ ذي العلم، ويُسْتَفْهَمُ بها عن صفاتِ ذي العلم، ومِنْ صِفاتِهِ حقيقة ذاته.

فسَأَلَهُمْ إبراهيم عليه السَّلام عن حَقِيقَةِ ذاتِ ما يَعْبُدون، وعَنْ صِفَاتِهِ الّتي تُؤَهِّلُهُ لأنْ يُعْبَدَ.

• ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾: فـذَكَـرُوا لَـهُ ذَواتِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وأبَانُوا أنَّها أصْنَامٌ مِنْ حجارة أو من أخشابٍ أو مَعْدنٍ أو نحو ذٰلِكَ من جَامِدَاتٍ مُصَوَّراتٍ بصُوَرِ أحياء من الناس، أوْ من سائرِ الحيوانات، كالْبَقَرِ. لم يَفْهَمْ أبُوه وقومه أنّه يسألهم عن حقيقتها والصّفات التي تؤهّلُها لأنّ تُعْبد، فأجابوه عن ذواتها، وعن نوع عبادتهم لها.

الصَّنَم: تمثالٌ من حَجَر، أو خَشَبٍ، أو مَعْدنٍ، يَزْعُمُ عَابِدُوهُ أنَّ عبادَتَهُمْ لَهُ تُقَرِّبُهُمْ إلى الله، أو إلٰهِ غَيْرِهِ يَجْلُبُ لهم نفعاً، أوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وعبادة الأصنام تكون بتَقْرِيبِ القَرَابِين لها، أو السُّجود لها، أو الطواف حَوْلَها، أو العُكُوفِ عليها، أو التَّمَسُّحِ بها، أو سُؤَالِهَا بالدُّعاءِ لجَلْبِ نَفْعٍ أوْ دَفْعِ ضُرّ.

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: [**عَاكِفِينَ**]: أي: ملازمين ملازمَةَ المُقِيم الَّذِي أعْطى كُلَّ نَفْسِهِ وحَوَاسِّهِ لِمَا هُو عاكِفٌ عَلَيْهِ، يُقالُ لُغة: «عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أقْبَلَ عَلَيْهِ مُلازماً لَهُ، لا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عنه، كأنَّهُ حابِسٌ نَفْسَهُ عليه. وهذا لَوْنٌ مِنْ ألْوَانِ عبادة العاكف لِلْمَعْكُوفِ عليه.

ضُمِّنَ اسم الفاعل [**عَاكِفِينَ**] معنى اسم الفاعل «عَابِدِينَ» فعُدِّيَ تَعْدِيته بلام التقوية، وقُدِّم المعمول [**لَهَا**] على عَامِلِهِ.

والتقدير: فنَظَلُّ عاكِفِينَ عَلَيْهَا عابِدِينَ لَها.

[فَنَظَلُّ]: أي: فَنُداوِم على عِبَادَتِها بالعُكُوف. يقال: «ظَلَّ نَهارَهُ يَفْعَلُ كذا». وقَدْ يَأْتِي هذا الفعلُ بمعنى الدوام ولَوْ في غَيْرِ النهار.

وإذا كانوا هُمْ من عُبَّادِ الكواكب فإنَّهُمْ يَعْبُدُونَ رُمُوزَهَا الّتي هي الأصنامُ في النهار، ويتوجَّهُون لِعِبَادَتِهَا في اللّيلِ عِنْدَ ظُهُورِهَا في السَّمَاءِ.

• ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾:

كان إبراهيم عليه السّلام يَعْلَمُ من حالِ قَوْمِهِ أَنَّهُم يَعْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ بالدُّعاء، ويُؤْمِنُونَ بأنَّ عبادَتَهُمْ لها تجلُبُ لهم نفعاً أو تَدْفَعُ عنهم ضرّاً، دلّ على هذا سُؤالان لقومه جاء بيانُهما في هاتَيْنِ الآيتَيْن.

طرَحَ إبراهيم عليه السّلام على أبيه أوّلاً فَقَوْمِهِ بَعْدَ ذٰلِكَ سؤالَيْن:

السُّؤال الأوّل: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ حِينَ تَدْعُونَهُم لمطالب حياتِكم مِنْ رِزْقٍ، ونَصْرٍ، وذُرِّيَّةٍ، وأمْنٍ، ونَحو ذلكَ من مطالب الحياة.

نزَّلَ أصْنَامَهُمْ مَنْزِلَةَ العُقَلَاءِ أهْلِ العِلْمِ، مُجَارَاةً لَهُمْ في معتقدهم، ورُبّما كانَتْ صُوَرُ أصْنامِهِم على صُوَرِ بَشَرٍ ماتُوا، فذكرهم بصِيغَةِ جَمْع العقلاء.

السُّؤال الثاني: هل يَنْفَعُونَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِيُحَقِّقُوا لَكُمْ نَفْعاً؟ هَلْ يَضُرُّونَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِاسْتِرْضَائِهِمْ حتَّىٰ لَا يَضُرُّوكُمْ؟ أو هَلْ يَضُرُّون أعداءَكم فتَعْبُدونَهُمْ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِمْ؟

أَسْئِلَةٌ تَابَعَ بها إبراهِيمُ عليه السَّلامُ مُنَاظَرَتَهُ لِقَوْمِهِ، الّتي بدأها بالسُّؤال الأول: مَا تَعْبُدُون؟

هذا مَنْهَجٌ جَدَلِيٌّ حكيمٌ يُبَاشِرُ الموضُوعَ من أقْرَب السُّبُل.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ عَجزُوا عَنْ إثبات أنَّ أصْنَامَهُمْ تَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ، وعَجزُوا عن إثبات أنَّها تَجْلُبُ نَفْعاً أو ضرّاً كما سبَقَ بيانه.

فأجابوا بما جَاءَ بَيَانُهُ في الآية التَّالية:

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

[بَلْ] هُنَا تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ فيما يظهر، أي: لا نَسْتَطِيعُ إثباتَ أنَّهم يَسْمَعُونَ دُعَاءَنا، ولَا نَسْتَطِيعُ إثباتَ أنَّها تَنْفَعُ أو تَضرُّ، بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذٰلِكَ الفِعْلِ الّذي نَفْعَلُهُ نَحْنُ مِنْ عباداتٍ لها بالعُكُوفِ، والدُّعاءِ وغيرهما، فنَحْنُ على آثارِ آبائنا سائِرُونَ، ولَهُمْ مُقَلِّدُونَ.

وبهذا كشف إبراهيم عليه السّلام لَهُمْ أنَّهُمْ على باطلٍ واضح البُطْلان، نظراً إلى أنَّ تَقْلِيدَ ما كان عَلَيْه آباؤهم لا يَصْلُحُ لأنْ يكُونَ دليلاً بحالٍ من الأحوال، لاحتمال أنَّهُمْ كانُوا جاهلين، أو كانُوا على ضلالَة يَتَّبِعُون فيها الأَهْوَاء، أو كانوا متأثِّرين بوَسَاوِسِ الشَّيَاطِين وتَسْوِيلَاتهم.

وعِنْدَئِذٍ رَأَىٰ مِنَ الحِكْمَةِ في المُناظَرَةِ أنْ يُعْلِنَ لَهُمْ أنَّ كلَّ مَعْبُوداتِهِم ومَعْبُودَاتِ آبائِهِمْ من دُونِ اللَّهِ رَبِّ العالَمين، أعْدَاءٌ لَهُ، إذْ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ من الصِّفاتِ الّتي تُؤَهِّلُهَا لأنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وعبادتُهَا عُدْوَانٌ على حَقِّ رَبِّ العالمين في أنْ لَا يُعْبَدَ شَيْءٌ ولا كائِنٌ مَا من دونَه، إذْ لا إلٰه بحقٍّ إلّا هُوَ، فَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ العالَمِين.

فقال لَهُمْ في المُناظَرَةِ الّتي دَلَّ عَلَيْهَا هٰذا النَّصّ، ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الفاء في: [أَفَرَأَيْتُمْ] فصيحَةٌ تَعْطِفُ على محذوف، والتقدير: أتَفَكَّرْتُمْ تفكُّراً سليماً سَدِيداً، فرأَيْتُمْ بعُقُولكُمْ وقُلُوبكم بُطْلَانَ ما كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآباؤكم الأقْدَمُون، تَعْبدونَهُمْ مِنْ دونِ اللَّهِ رَبِّ العالَمِينَ، وما زِلْتُمْ أَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُم، تَقْلِيداً لآبائِكُمْ، فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي، لأنَّهُمْ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الإلٰهِيَّةِ وَصْفٌ

ما، وأنَا أعْتَبِرُ كلَّ باطلٍ عَدُوّاً لي، أكْفُرُ بِهِ، وأُعَادِيهِ، وأُقَاتِلُهُ، ومن اللّازم الفكريّ لمعاداة الباطل مُعَادَاةُ أنْصَارِهِ المؤمنين به، والدَّاعِينَ إلَيْه.

وجاء في النّصّ إيثارُ عبارةِ [**مَا كُنتُمْ**] على غيرها لتَشْمَلَ آباءهم الأقْدَمين، وَهِيَ تَنْسَحِبُ إلى مَا قَبْلَ لحظَةِ التكلُّم، على أنّ فعل «كان» لَهُ في الاستعمال صِفَةُ الدَّوَامِ أو الاستمرار في كثير من العبارات، وله صِفَةُ الصَّيْرُورَة الّتي يُلازِمُها غالباً الاستمرار.

ووصَفَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ آباءَهُمْ بالأَقْدَمِينَ، للدَّلَالَةِ على أنَّ الأقْدَمِيَّة لَا تُعْطِي الباطِلَ مَشْرُوعِيَّةَ البقاء، ولا تُكْسِبُهُ شَيْئاً من صفاتِ الحقّ، فالباطلُ أزَلاً باطِلٌ أبَداً، والباطلُ لِذاتِهِ فيما مضىٰ، باطِلٌ دَواماً في الماضي والحاضِرِ والمُسْتَقْبَل.

يُطْلَقُ لفظ «عَدُوّ» بالإفراد على المفرد والمثنّى والجمع والمذكّر والمؤنّث، ويُسْتَعْمَلُ أيضاً على الأصْلِ في المطابقة.

وكِلَا طَرَفَي العِدَاء عَدُوٌّ للآخر، ومَنْ اتَّخَذَ حيّاً أو جماداً أو غير ذلك عَدُوّاً، فإنَّهُ يُرِيدُ النكاية به، وإنزال المكرُوه فيه بكلّ الوسائلِ المُتاحَةِ له، ولهذا كَسَّرَ إبراهيم عليه السَّلام أصْنامَهُمْ في مَرْحَلَةٍ من مراحلِ دَعْوَتِهِ لقومه، إذِ اتَّخَذَهَا عَدُوّاً له.

ولمَّا كان قَوْمُهُ مُشْرِكين، يَعْبُدُونَ أصْنَامَهُمْ ويَعْبُدُونَ أيضاً مع عِبَادَتِهِمْ لها رَبَّ العالَمِين، كانَ مِنَ الواجِبِ أنْ يَسْتَثْنِيَ فيقول: [**إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ**]، أي: إلَّا المَعْبُودَ المتَّصِفَ بأنَّهُ رَبُّ العالَمِين، أي: خَالِقُ العالمين، والمُتَصَرِّفُ دَواماً بكلّ الكائناتِ سِواه بصِفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَة لمُعْظَمِ أسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، وصِفَاتِهِ العُلْيَا.

وإذِ اسْتَثْنَىٰ إبراهيمُ عليه السّلام رَبَّ العالَمِين، أبانَ من صفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الّتي تَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ أن يَعْبُده، فقال:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

فذكر إبراهيمُ عليه السّلام من صفاتِ رُبُوبيَّة رَبِّ العالَمِين التي له بها ارْتباطٌ شديدٌ في حَيَاتِهِ تِسْعَةَ ظَوَاهِر

الظَّاهرة الأُولى: أنَّهُ خَلَقَهُ، إذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ شَيْئاً مَذْكُوراً، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾، أي: الذي حدَّدَ مقادير كلِّ شيءٍ فيّ، وابْتَدَعَنِي من العَدَم، بَعْدَ أنْ لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً.

الخَلْقُ: يَأْتِي في اللُّغة بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: التقدير، وهو إعطاء أجْزَاءِ الشَّيْءِ مقاديرَها بإتقان.

المعنى الثاني: ابْتِدَاعُ الشَّيْءِ على غيرِ مثالٍ سَبَق، وإيجاده من العدم.

وكلا هٰذَيْن المعنَيَيْنِ مُرادانِ هنا، فالله الخالقُ عزّ وجلّ أبْدَعَهُ مِنَ العَدَم على غير مثالٍ سبَق، وأعْطَىٰ أجزاءَهُ مقادِيرَها بعَظِيم حِكْمَتِهِ، المُقْتَرِنَةِ بعِلْمِهِ المُحِيطِ بكلِّ شَيْء، وأتقنَ صُنْعَه.

الظاهرة الثانية: أنَّهُ يَهْدِيه لتَنْفِيذِ الأعمال المحقِّقَة للأغْراضِ مِنْهَا، وهٰذه الهِدَايَةُ تَشْمَلُ كُلّ تَصَرُّفَاتِهِ الإراديّة، الجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، فقال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أي: فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذي يَهْدِينِي، ومِنْ أمْثِلَةِ هٰذِهِ الهداية الرَّبانيّة ما يلي:

١ ـ هدايَةُ الطِّفْلِ الصّغير إلى كيفيَّةِ ارْتضاع الثَّدْي، بَعْدَ أنْ أعْطَىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ فَمِهِ المقدارَ الحكيمَ المُلَائِمَ للرّضاع.

٢ ـ هِدَايَةُ أصابعِ اليَدَيْنِ للْقِيام بوَظَائِفِها العَمَلِيَّة الحركيَّة، بَعْدَ أنْ

أعْطَىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا المِقْدَارَ الحكيمَ الملائِمَ لمُخْتَلِفِ الأعْمَالِ الَّتي تَقُومُ بها رَاحَةُ اليَدِ والأَصَابعُ فيها.

٣ ـ هداية الفكر لمعرفة كثير من حقائق الأشياء بما جعل اللَّه فيه من مَوَازِين.

٤ ـ هدايَةُ الرِّجْلَيْنِ للقيام بالمشي وسائِرِ أعمالِهما، بعد أنْ أعطىٰ كُلَّ جُزْءٍ من أجزاء رِجْلَيْهِ المقدار الحكيم الملائم لمختَلِفِ الأعْمَالِ الّتي تَقُومُ بها الرِّجْلَان.

وهكذا إلى كلِّ شَيْءٍ، في مُخْتَلِفِ الكائنات الحيَّة، وخصَّ إبراهيم عليه السَّلام نَفْسَه، لِيَكْشِفَ لِقَوْمِهِ سببَ عبادَتِهِ لربِّه وحْدَه، ولِيَقِيسُوا أنْفُسَهُمْ عليه.

الظاهرة الثالثة: أنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُطْعِمُهُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾، أي: والّذي هو وَحْدَهُ يُطْعِمُني لَا غيره، اسْتُفيد القَصْرُ من ضَمِير الفَصْل، وقد جاء بين اسْم الموصول وصلته.

فالله عزّ وجلّ هو الذي يَخْلُقُ أرْزَاقَ العباد، ويَخْلُقُ وَسَائِلَهَا في كونه، وإبراهيم واحِدٌ منهم، ولولا خَلْقُ اللَّه وقضاؤه وقدَرُه لم يَنْبُتْ نبات، ولم تَحْيَ أحْيَاءُ، ولَوْلَا تَهْيِئَةُ وسائِلِ الطَّعَام لم يَطْعَمْ طاعِمٌ في الأرض، ولَوْلَا أنْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْأَحْيَاء أفواهاً تأكُل، ومجاريَ إلى بطونِهِم تَبْلَع، وعناصِرَ هَضْم تَهْضِمُ، وأدواتٍ وعناصِرَ تُوَزِّعُهُ إلى مواضِعِ الحاجَةِ إلَيْهِ من الأجساد، وتَصْرِفُ عنها أذىٰ فضَلَاتِهِ، لَمْ يَطْعَمْ طاعِم.

ولو اخْتَلَّ شيءٌ من ذلكَ عَنْ سَوَائِهِ لما وصَلَ الطَّعام إلى مواضِعِ الحاجَةِ إليه، ولمَا وصَلَتِ الأقْواتُ إلى مُقْتَاتِيهَا.

الظاهرة الرابعة: أنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الذي يَسْقِيه مَاءً وأنواع شراباتٍ أخرى، فقال: ﴿وَيَسْقِينِ﴾، أي: والّذي هو وَحْدَهُ يَسْقيني لَا غيره، هذه الجملة معطوفة على ﴿يُطْعِمُنِى﴾، فلَهَا حُكْمُها مِنَ القصر.

إنّ الله جلّ جلَالَهُ رَبَّ العالَمِين هو الذي خَلَقَ الماء وسائر الأشْرِبَةِ الّتي يُعْتَبَرُ الماءُ العُنْصَرَ الأكْثَرَ والأعْظَمَ فيها، وهو الذي يُصْعِدُ مياه البحار ويَجْعَلُها سَحَاباً، ثُمَّ يُنْزِلُها ماءً طَهُوراً سائِغاً للشّاربين، وهو الذي خَلَقَ في أجْسَادِ الشَّارِبِينَ الأدواتِ الصالحاتِ لإيصال الماء إلى مواضع الحاجَةِ إليه من الأجساد، وجعَلَ لما يَحْمِلُ من فضلاتِ مُؤْذِياتٍ أدواتِ تَصْرِيفٍ لها.

ولو اخْتَلَّ شَيْءٌ من ذٰلِكَ عَنْ سَوَائِهِ لتعَطَّلَتْ حَيَاةُ الأَحْيَاءِ، واشْتَدَّتْ آلَامُها.

الظاهرة الخامِسة: ظاهرة الأمْرَاض الّتي هي من عناصِرِ ابتلاء اللَّهِ لعباده في الحياة الدُّنيا، ليُذَكِّرَ عبادَهُ به، فيَعُودُوا إلَيْهِ بالدُّعاءِ والخضوع والتَّذَلُّلِ، سَائِلِينَ أنْ يشفيهم.

وقد تأدَّبَ إبْراهيمُ عليه السلامُ مع رَبِّه، فلَمْ يَنْسُبْ إلَيْهِ القضاء بالمَرَض الذي هو من قضائه وقَدَرِهِ، بَلْ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

الظاهرة السّادسة: ظاهرةُ الشِّفاء من المرض، الذي لا يتحقَّق إلَّا بتَقْديرٍ من اللَّهِ عزّ وجلّ وقَضاء، فقال عليه السّلام: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، جواباً لقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾.

إنّ الشفاء من عوارض الأمراض، لا يكُونُ إلَّا بقَدَرٍ من اللَّهِ وقضاء، فإذا قَضَى اللَّهُ بالشِّفاء ألْهَمَ الطبيبَ الدَّوَاء الذي جعَلَهُ هو سَبَباً للشفاء، فشَفَىٰ بِهِ المَرِيض، الدَّواءُ سَبَبٌ من الأسباب الّتي خَلَقَها هو في كَوْنِهِ، والشِّفَاءُ لا يَتَحَقَّقُ إلَّا بتقديره وخَلْقِهِ، فتعالىٰ الخَلَّاقُ الفَعَّالُ ما يشاءُ على ما يشاء.

الظاهرة السَّابعة: ظاهِرَةُ إمَاتَةِ الأحياء، إنّهَا هِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، إذْ يَتَحَقَّقُ المَوْتُ بفَصْلِ الرُّوحِ الَّذِي هو السِّرُّ الرَّبّانيُّ الذي تَكُونُ بِهِ النفوسُ حيَّةً، فإذا فُصِلَ عَنْهَا صارَتْ مَيّتةً.

وكلٌّ مِنَ الوَصْلِ والفَصْلِ إنَّما يكونُ بخَلْقِ اللَّهِ وفِعْلِهِ.

فقال إبراهيمُ عليه السَّلام: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾، ومعلومٌ أنَّ الموتَ يقينٌ لَا يَجْحَدُهُ أشَدُّ النَّاسِ كُفْراً وعِناداً.

الظَّاهِرة الثَّامِنَة: ظاهرة إعادة الحياة للموتىٰ يوم الْبَعْث، وقَدْ أراد إبراهيم أنْ يُعْلِنَ إيمانَهُ بِيَوْمِ الدِّين، الّذي يُبْعَثُ فيه النَّاسُ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، علىٰ ما قَدَّمَ العَبْدُ في حياة الامتحان في الدُّنيا من إيمانٍ وكفر، وخَيْرٍ وشرّ، فقال في دَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ وقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، أي: ويُحْيِيكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ، ويفْصِلَ قَضَاءَه بينكُمْ، وليجازيكُمْ بحَسَب مَا كَسَبْتُمْ في رحلةِ امتحانكم في الحياة الدنيا.

الظاهِرَة التاسعة: ظاهرةُ غُفرانِ اللَّهِ لمِنَ آمَنَ مِنْ عِبَادِهِ وأسْلَمَ له، وسأَلَهُ أنْ يَغْفِرَ لَهُ، وهذه الظاهرة تكُونُ يَوْمَ الدّين، ويَطْمَعُ بها المؤمنون المسلمون، فقال إبراهيم عليه السَّلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

وقَد اعتبر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام هذه الظاهِرَةَ الَّتِي يُؤْمِنُ بها، مَعَ الظَّاهِرَة الثامِنَة الَّتِي أعْلَنَ إيمانَهُ أيْضاً بها، مُمَاثِلَتَيْنِ للظواهِرِ السَّابِقَة لهما في بيانِهِ الدَّعَوِيّ، نظراً إلى أنَّ الإيمان بالله وباليَوْمِ الآخِرِ وما فيهِ من حسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَحْقِيقِ جَزَاء، هُمَا الرُّكْنَانِ الأعْظَمانِ في أُسُسِ العقائِدِ الإيمانِيّة في الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، في كلّ ما بَعَثَ به أنبياءَهُ ورُسُلَه.

ومن حكمة إبراهيم عليه السّلام الدَّعْوِيَّة أنَّهُ عَرَضَ عَقِيدَتَهُ الإيمانيّة لأبيهِ ولِقَوْمِهِ، لِيَتْرُكَ لَهُمْ فُرْصَةَ مُنَاظَرَتِهِ بِشَأْنِهَا، وعِنْدَئِذٍ يُقَدِّمُ حُجَجَهُ البُرْهَانِيَّة حَوْلَ مَا يُبْدُونَ مِنْ شُكُوكِهِمْ بِشَأْنِهِ.

وظاهر في دعوةِ إبراهيم لِأَبِيهِ وقومِهِ بِشَأْنِ الإيمان باللّه وباليوم

الآخر، أنَّها تَعْتَمِدُ على الأُسْلُوبِ غَيْرِ المُبَاشر، إذ بَيَّنَ لهم إيمانَهُ بالقضايا الّتي عرَضَها، ولم يَقُلْ بصَريحِ العبارة أدْعُوكُمْ إلى الإيمان بها، لٰكِنْ يُفْهَمُ هٰذا باللُّزُومِ الذِّهْنِي.

وأتْبَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيانَه لما يُؤْمِنُ به بشأن القضايا الّتي عَرَضَها، بدعاءٍ دَعَا به رَبَّهُ الّذي أبان أنَّهُ رَبُّ جميع العالمين، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾:

عناصِرُ هذا الدُّعَاءِ تؤكّد إيمانَهُ بيَوْمِ الدِّين إيماناً لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، ودعاؤه رَبَّهُ بها أمَامَ أبيه وقومِهِ، هُوَ في الحقيقةِ دَعْوَةٌ غَيْرُ مُبَاشَرَةٍ، إلى الإيمان بمِثْلِ ما يُؤْمِنُ هو به، والمَطَالِبُ الّتي سألَها رَبَّهُ في دعائِهِ، تَسْتَثِيرُ دَوافعَ ذوي العقول الرَّشِيدَةِ إلىٰ طَلَبِهَا والتعلُّق بها.

وهي خَمْسُ مَطالِبَ لنَفْسِهِ، ومَطْلَبٌ لأبيه دفَعَتْهُ إلَيْهِ عاطِفَتُهُ نحوه، إلّا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أبانَ لَهُ أنَّهُ لَا يَجُوزُ الدُّعاءُ بالمغفرة لكافر، لأنّ مِثْلَ هٰذا الدُّعاء يتنافى مَعَ قضاء اللَّهِ بشأنه، لكِنْ أبان الله عُذْرَ إبراهيم عليه السّلام بأنّ دعاءَهُ لأبيه قَدْ كانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ بأنْ يُؤْمِنَ، فلمّا تبَيَّنَ لَهُ أنّه عَدُوٌّ لله تبرَّأَ مِنْهُ.

وفيما يلي شرحُ عناصر الدُّعاء الخمسة، الّتي دَعَاهَا إبراهيمُ عليه السَّلَامُ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ:

العُنْصُر الأول: قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾:

الحُكْم: فقه الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقِّ والباطل وحُدُودِهما، ومعرفةُ الخير والشرّ وحدودهما، ومعرفة الحسَنِ والسَّيِّئِ وحُدُودها، والجميل والقبيح وحدودهما.

وبناءً على فقه الأمور يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الحُكْمَ أحكامه العِلْمِيَّة وأحكامه القضائيّة مطابقةً للحقّ والخير والفضيلة.

ويَدْخُلُ في إيتائِهِ الحُكْمَ إيتاؤُهُ القُدْرَة على تقديم الحجج الدامغة، والبراهينِ القاطِعَةِ لجَدَلِيّاتِ المُبْطِلِينَ والمراوغين، ومُحَاصَرَتِهِم مِنْ كلّ مَهْرَبٍ فِكْرِيّ.

وقَدْ أتَىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إبْرَاهيمَ حُجَّتَهُ الدامغَة لقَوْمِهِ، أهلِ الباطلِ والشِّرْكِ، وظهر هذا في مجادَلَاتِهِ ومُنَاظَرَاتِهِ لِقَوْمِهِ ولِمَلِكِهِمْ نُمْرود، وذكَرَ اللَّه عزّ وجلّ بَعْضَها في مواضعَ من القرآن المجيد.

ولم أُفَسِّرَ الحُكْمَ هُنا بالنُّبُوَّةِ، لأنَّ سوابق هذا الدُّعاء تُشْعِرُ بأنَّه يَدْعُو قَوْمَهُ إلى دينِ اللَّهِ الحقّ، من مَوْقِعِ كَوْنِهِ نَبِيّاً ورَسُولاً، على أنّ النُّبُوَّة تَأْتِي اصْطِفاءً من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا تأتِي بِطَلَبِ العَبْدِ لها.

الهِبَة: العطيَّة الخاليةُ من الأعواضِ والأغراض، يقال لغة: «وهَبَ لَهُ الشَّيْءَ، يَهَبُهُ: وَهْباً، وَوَهَباً، وهِبة، فهو واهِبٌ، ووَهَّابٌ، وَوَهُوبٌ، ووَهَّابَة».

العنصر الثاني: قولُهُ: ﴿... وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: واجْعَلْنِي ألْحَقُ الصَّالِحِينَ السَّابِقِين في فِعْلِ الخَيْراتِ قَبْلي، من أُولي العَزْمِ مِنَ الأنبياء والمُرْسَلِين، أي: فإذا لحقْتُهم سِرْتُ مَعَهُمْ سابقاً في الخيرات الّتي تُرْضِيكَ عَنِّي.

و«ال» في: ﴿بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ للكمال، أي: واجْعَلْنِي مِنْ ذَوي الكمال في صَلَاحِهِمْ، الخالِينَ من كلِّ فسادٍ مَهْمَا قَلَّ.

الصَّلاح: ضِدُّ الفساد، يقالُ لغة: «صلَحَ يَصْلُحُ صَلَاحاً، وصُلُوحاً، وصَلُحَ، فهو صالح»، أي: خلا مِنَ الفساد. والمَعَاصِي في السُّلُوكِ الدِّينيّ من الفساد.

وجاء في القرآن لفظ «الصَّالِحِينَ» وصفاً للأنبياء والمرسلين، وطائفة من المؤمنين، الذين يَأْمُرُون بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر ويُسَارِعُونَ في الخيرات بإذْنه الله.

العنصر الثالث: قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: وَاجْعَلْنِي دواماً حتَّى آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أنفاسي في الحياة الدّنيا من كاملي الصَّلاح، حتَّىٰ يكون لي ثناء حَسَنٌ صادِقٌ مُطابِقٌ لواقع حالي في الآخِرين من الناس، بمقتضىٰ سُنَّتِكَ في عبادِك الصالحين.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي: ثناءً صادِقاً لَا مُبالغَةَ فيه ولا زيادةَ عن واقِع الحال الذي تَجْعَلُنِي فيه، «أُطْلِقَ اللِّسَانُ وأُريد به الثناء الحسَنَ الّذي يَنْطِقُ اللِّسانُ به، وإضافَةُ اللِّسَان إلى الصِّدْقِ مِنْ إضافة الموصُوفِ إلى صِفَتِهِ، أي: لِساناً صِدْقاً، وهٰذا من الوَصْفِ بالمَصْدَر للدّلالَةِ على المطابقةِ التامَّةِ بَيْنَ الثَّناءِ والصِّدْقِ فيه.

وهذا الاستعمالُ هو من استعمالاتِ العرب في أقوالهم، ونظيره قولهم: «رَجُلُ صِدْقٍ» أي: رَجُلٌ نِعْمَ هو رَجلاً. و«امْرَأَةُ صِدْقٍ»: أي: وامْرَأَةٌ نِعْمَتْ هي امرأة، فَهُوَ تعبيرٌ من تَعْبيرات الثناء والمدح.

ومن نظائره في القرآن: «قَدَمُ صِدْقٍ ـ مَقْعَدُ صِدْقٍ ـ مُبَوَّأُ صِدْقٍ ـ مَدْخَلُ صِدْقٍ ـ مَخْرَجُ صِدْقٍ ـ لِسَانُ صِدْقٍ»، أي:

- قَدَمٌ نِعْمَ هُوَ قَدَماً ـ مَقْعَدٌ نِعْمَ هو مَقْعَداً ـ مُبَوَّأٌ نِعْم هُوَ مُبوّأً ـ مَدْخَلٌ نِعْمَ هو مَدْخَلاً ـ مَخْرَجٌ نِعْم هُوَ مَخْرَجاً ـ لِسَانٌ نِعْمَ هُوَ لِساناً».

والوَصْفُ بالمَصْدَرِ مثل: «رَجُلٌ عَدْلٌ» يَدُلُّ على كمال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَة المُثْلَىٰ لِنَوْعِهِ، فالرَّجُل الكامل في نَوْعِهِ يكُونُ متّصِفاً بأكمل صُوَرِ العَدالة. والمَقْعَدُ الكامِلُ في صِفاتِ حُسْنِهِ، هُوَ ذُو الصُّورَةِ المُثْلَىٰ لِنَوْعِهِ، فإطْلَاقُ المَقْعَدِ الكامل عَلَيْهِ إطْلَاقٌ فيهِ كمال الصِّدْقِ، وهكذا إلى سائِر الأمْثِلة.

وسؤال إبراهيم عليه السَّلام الثَّنَاءَ الحسَنَ الصَّادِقَ في الآخِرِينَ، هُوَ في الحقيقة دُعاءٌ بكمالِ المدَاوَمَة على أن يكون من كامِلي الصالحين، طَوالَ أزْمَانِ حياتِهِ في الدُّنْيا، حتَّىٰ آخرِ زمَنٍ مِنْ أزْمَانِ حياتِهِ فيها، وهو عليه السَّلَامُ يَعْلَمُ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ في عبادِهِ، أنَّ مَنْ كانَ كذٰلِكَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ ثناءً حَسَناً صِدْقاً في الآخِرِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأرض ومَنْ عليها، ويَسْتَمِرُّ كذٰلِكَ في الآخِرَة يَوْمَ الدِّين.

وأجْرَى اللَّهُ عزّ وجلّ سنّته، فجعلَ لإبراهيم عليه السَّلام لسانَ ثناءٍ غايةٍ في الصدق في الآخرين، إذْ كان طوال حياتِهِ من كامِلِي الصَّلَاح.

العنصر الرابع: قوله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿مِن وَرَثَةِ﴾ «وَرَثَة»: جمع «وارِثٍ» وهو مَنْ يَصِيرُ إلَيْهِ مَا كانَ لِغَيْرِهِ من مالٍ، أو مَجْدٍ، أو غَيْرِهِما، دون عِوَض.

وقد عَلِمَ إبْراهيم عليه السَّلامُ، أنَّ دُخُولَهُ جَنَّةَ نَعِيم يوْمَ الدِّين إنَّما يكُونُ بفضل اللَّهِ لا بأعْمَالِه مهما كانت صالحة، فطَلَب من رَبِّهِ أنْ يَتَفَضَّلَ عليْهِ فيَجْعَلَهُ مِنْ وَرَثَةِ جنَّةِ نَعِيم، بفَيْضِ عطائِهِ، ورُبَّما لَاحَظَ مع هذا أنّ الجنَّةَ مُعَدَّةٌ إعداداً صالحاً لنعيم كلِّ الإنْسِ والجِنّ فيها إذا آمَنُوا وأسْلَمُوا، لكنّ أكثرهُمْ سَيَكُونون بالامتحان من أهْلِ النار لا مِنْ أهلِ الجنَّة، فيَرِثُ أهْلُ الجنَّةِ ما كانَ مُهَيّأً للّذِينَ استحقّوا دُخُول النارِ بالامتحان، فَيَمْلِكُونَهَا ميراثاً بلا عوضٍ.

وبهذا يكون ميراثُ الجنَّة بمعنىٰ الهِبَة بلا عِوَضٍ، وبمعنى امتلاكِ ما كان مُهَيّأً لآخرين، لكنَّهُمْ حُجِبُوا عَنْهُ بكُفْرِهِمْ، وأُدْخِلُوا دار العذاب النار.

العنصر الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾: يأتي في اللّغة الخزيُ للدّلالة على عِدَّةِ معانٍ:

المعنى الأول: الوقوع في الشرّ والعذاب والمصائب والبلايا.

المعنى الثاني: الافتضاح بالقبائح والسيّئات والآثام المكتومة، المُورِثَةِ للخجل الشديد منها.

المعنى الثالث: الاستحياء ممّا يَنْزِلُ مِنْ ذُلٍّ وهَوَان.

وهذه المعاني كلُّها صالحةٌ لأنْ تكونَ مُرادةً هنا، على معنىٰ احْفَظْنِي رَبِّ واعْصِمْنِي مما يكون سبباً في إنْزَالِ العذاب بي، وسبباً في افتضاحي بالقبائح والسّيّئات، وسبباً فيما يُخْجِلُني من ذُلٍّ وهوانٍ، يَوْمَ يُبْعَثُ الإنْسُ والجنُّ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذه العِصْمَةُ تكون بإعانَتِهِ وتَوْفِيقِهِ حتىٰ يُداوِم على الاسْتِقَامَةِ على صراط الله اعتقاداً، وقولاً، وعَملاً، ونِيَّةً.

فدعا بأن يكون معصوماً في الدُّنيا من المعاصي، ليكون مَحْمِيّاً مِنَ الخزي يوم الدين.

وقد أَعْلَنَ إبراهيمُ عليه السّلام بدعائه هذا أمامَ أبيهِ وقَوْمِهِ، أنّ إيمانَهُ وإسلامَهُ لِرَبِّهِ نابعٌ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ عذابِ يوم الدّين، ومن افتضاحه بالقبائح، ومِمّا يُخْجِلُه مِنْ ذُلٍّ وهَوَانٍ بسَبَبِ تَنَكُّبِهِ صراط الله المستقيم، فهو يَسْأَلُ لِنَفْسِهِ الحِفْظَ والعِصْمَة والاستقامَة على طاعة رَبِّهِ حتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنْ أنْفَاسِهِ في الحياة الدُّنيا.

والعاقل الرَّشِيدُ مِنْ قَوْمِهِ لَا بُدَّ أنْ يَتَأَسَّى به، شُعوراً مِنْهُ بأنَّهُ صادقٌ حقّاً في دعائه، خائِفٌ حَقّاً مِنْ خِزْيِ يوم الدّين، وهذا الأسْلُوب من أشدِّ الأسَاليبِ غَيْرِ المُبَاشِرَةِ تأثيراً في الآخرين.

وأتَمَّ إبراهيم عليه السَّلامُ اسْتِعْطَافَهُ لِرَبِّهِ في دُعائِهِ بوَصْفِهِ ليومِ البَعْثِ بِمَا يَعْلَم من العقائد الإيمانيّة بِشَأْنِهِ، فقال:

• ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

لفظ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ . . .﴾ بدَلٌ من: [يَوْمَ يُبْعَثُون].

والمعنىٰ: يوم لا يَنْفَعُ مالٌ أحداً كان قد جمعه في الدنيا، وأنْفَقَهُ أو تَرَكَهُ ميراثاً، بالغاً ما بلغ، ولا يَنْفَعُ أحداً أبناؤه الّذِين كان في الدنيا يعتزُّ بهم، وكانوا يَنْصُرُونَه، والبنُون هم ألْصَقُ الناسِ بالرَّجُلِ لنُصْرَتِهِ.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾: أي: إلَّا مَنْ أتىٰ الله بَعْدَ مَوْتِهِ بقَلْبٍ سليمٍ خالٍ من الأمراض الصارفة لَهُ عن الإيمان، وعَنْ طاعَةِ الله في أوامِرِهِ ونواهيه، كمرَضِ الكفر، وكمرَضِ كبائر الذنوب والآثام.

وذو القلب الّذي كان في الحياة الدُّنيا سليماً من مَرَضِ الكُفْر، وأمراضِ كبائِرِ الذُّنُوب والآثام، وأتى رَبَّهُ يوم الدِّين وهو سليم القلب، قَدْ ينتَفِع بثواب أمواله التي كان قَدْ جمَعَهَا ممَّا أَذِنَ الله به، وأنْفقَهَا فيما أذن الله به، وأدّىٰ الحقوق الّتي فرَضَها الله فيها.

وذو القَلْب الذي كان في الحياة الدُّنيا سَلِيماً من مَرَض الكفر، وأمراض كبائر الذُّنُوب والآثام، وأتىٰ رَبَّهُ يوم الدّين وهو سليم القلب، قَدْ يَنْتَفِعُ ببَنِيهِ، إذْ يجد في صحيفته ثواب تربيته لهم تَرْبيةً إيمانيَّةً إسلاميَّة، وقَدْ يَنْتَفِعُ بأدْعِيَةٍ كانوا قَدْ دَعَوْا بها في حياتِهِم لأبيهم، فاستجابةُ اللَّهِ دُعَاءَهم هُوَ من آثار أعمالهم الصالحة، وهٰذه تَظْهَرُ يَوْمَ الدّينِ، وبهٰذا يكُونُ الأبْنَاء نافِعِينَ لِآبَائِهم.

ويُلْحَقُ بالمالِ كلُّ ما يَمْلِكُ الإنْسَانُ في الحياة الدنيا أنْ يَتَصَرَّف فيه، ويُلْحَقُ بالبَنِين كلُّ مَنْ للإنسان به صِلَةٌ ما نتجَ عَنْهَا دعاءٌ صالح مقبولٌ عند الله، أو عَمَلٌ مَا ممّا فيه رضوانٌ لله عزّ وجلّ، وكان لهذه الصِّلَةِ تأثيرٌ في كَسْبِ عَمَلٍ مَبْرُورٍ مأجورٍ عند الله.

فالاستثناءُ الوارِدُ في العبارة على وفق هذا الفهم استثناءٌ متَّصِل

بوضوح، وقد اتَّجَهْتُ لهذا الفَهْم، لأنَّه لا مال لأحَدٍ يومَ الدِّين، حتَّىٰ يُتَصَوَّرَ أنَّهُ يَنْفَعُه، إلَّا إذا اعْتَبَرْنَا أنَّ العبارة على تقدير أنَّه لا أحَدَ يَمْلِك يومَ البَعْثِ مالاً حتَّىٰ يُتَصَوَّر أنَّهُ تنْفَعُه، ولا أحَدَ يجتَمعُ حَوْلَهُ بَنُوه، حتىٰ يُتَصَوَّرَ أنَّهم قد ينصرونه، إذْ يَفِرُّ المَرْءُ يومئذٍ من أخِيهِ، وأُمِّهِ وأبِيهِ، وصاحِبَتِهِ وبَنِيه، فلِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

واتِّباعاً لِبَيانِ إبْراهِيمَ عليه السَّلام في دعوتِهِ لأبيهِ وقومه، وإذْ وَصَلَ إلى غَايَةِ مَا أَرَادَ إسْمَاعَهُ بأسْلوبٍ غير مباشر، كان من الحكمة في البَيَانِ القرآني، أنْ يُقَدِّمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لَقَطاتٍ عَنِ الجنَّةِ والجَحِيم، مِنْ أحْدَاثِ يَوْمِ الدِّين، لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ إبراهيم عليه السَّلامُ، لكِنِ اسْتَدْعَتْهَا المُنَاسَبَة، وفي ذِكْرِهَا عَقِبَ كلامِهِ، إشعارٌ بِأَنَّ كَلَامَهُ فيما يَتَعَلَّقُ بِقَضَايا الدِّينِ ويوم يُبْعَثُونَ حَقٌّ وصِدْق، فهو بمثابَةِ كلامٍ صادرٍ عن الله جلّ جلاله.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

في هذه الآياتِ مَشْهَدٌ من مشاهد يوم القِيامَةِ، يومِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، وفيها لقطاتٌ مِنْ أحداث يومِ الدِّين، هي بالتفصيل خَمْسُ لقطات:

اللَّقْطَةُ الأُولَىٰ: تَقْرِيبُ الجنَّةِ إلى حَيْثُ يَراهَا المتَّقُونَ في مَكَانِ تَجْمِيعِهِمْ الخاصِّ بأصْحَابِ اليَمِينِ، الواقِعِ إلى جِهَةِ يَمِينِ العَرْشِ، من أرضِ المحشر. دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

الإِزْلاَف: التقريب، يقال لغة: «أَزْلَفَ الشَّيْءَ»، أي: قَرَّبَه.

للمتّقين: أي: لكلّ زُمَرِ المتّقين، الَّذِينَ اتَّقَوْا بإيمانِهِمْ الخلودَ في النار، ولو كانوا مِنْ مُرْتَكِبِي كبائِرِ الإثم، وصار معلوماً أنّ المتَّقين على مراتب ودرجاتٍ في كلّ مَرْتبة، فالدُّنيا مرتبة التقوىٰ ذات الدَّرجات المتفاضلات الكثيرات، والوسْطَىٰ مَرْتَبَةُ البرِّ، ذات الدَّرَجات المتفاضلات الكثيرات، والعُلْيَا مَرْتَبَةُ الإحْسَان، ذات الدّرجات المتفاضلات الكثيرات.

اللَّقْطَة الثانية: تَبْرِيزُ الجَحِيم لِلْغَاوِين، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾: [**وَبُرِّزَتْ**]: أي: وَأُظْهِرَتْ بَعْدَ خَفاء. يقال لغة: «بَرَزَ، يَبْرُزُ، بُرُوزاً» أيْ: ظَهَرَ بَعْدَ خَفَاء.

[**الجَحِيم**]: اسم من أسماء النّار، دار العذاب يوم الدّين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ في اللُّغَة.

﴿لِلْغَاوِينَ﴾ **الغَاوُون**: هم الضَّالُّونَ المجافُون لسبيل الحقِّ والهُدَى، اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، والفاسِدُون الخائِبُون.

يقال لغة: «غَوى، يَغْوِي، غَيّاً» و«غَوِيَ، يَغْوَىٰ، غَوَايَة» أي: ضَلّ، وفَسَد، وخاب، تاركاً سبيل الرُّشد عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتّباعاً لأهوائه وشهواته، ولوساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعاتهم بالباطل.

ويراد بالغَاوِين الذين تُبَرَّزُ الجحيم لَهُمْ، وهم في مكان تجميعهم في المحشر الخاصّ بأصحاب الشمال، الواقعِ إلى جِهَةِ شمال العرش، الكافِرُون، الذين يُقْضَىٰ عليهم بالخُلُودِ في عذاب النار.

اللَّقْطَةُ الثالثة: مقالَةٌ تَحْسِيرِيَّةٌ يَقُولُها الملائكَةُ المُكَلَّفُونَ بحَشْرِهِمْ وبِسَوْقِهِمْ إلى مَصَائِرِهِمْ في الجحيم، دَلَّ عليها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: في أيّ مكانٍ يُوجَدُ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ في الدُّنيا، هل تَجِدُونَ لَدَيْهِمْ ما يَنْفَعُكُمْ، أوْ يَدْفَعُ عذَابَ اللَّهِ عنكم.

فإنْ كانُوا مِنَ الَّذِينَ دَعَوْكم إلى عِبَادَتِهِم، أوْ مِنَ الّذين رَضُوا بذلِكَ، فهَلْ يَسْتَطِيعُونَ أن يَنْتَصِرُوا لأنْفُسِهِمْ، فَيَدْفَعُوا عن أنفسهم عذابَ رَبِّهِمْ، فضلاً عن أن يَنْصُرُوكم، فيَدْفَعُوا عنكم عذاب الله.

وإنْ كانَتْ أوثاناً حجارَةً أو أخشاباً أو معادنٍ أو نحو ذلكَ، فلا وجود لِهَيَاكِلِهَا مطلقاً، لأنَّها صارت حطاماً مفتّتةً ضِمْنَ ذرّاتِ الأرض، كَسَائِرِ ما في الأرض من أشياء، والمرمُوزُ بها إليهم يتبرَّؤُونَ مِنْ عابِدِيها.

الاستفهام في ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ فيه معنىٰ تَحْسِيرِهِمْ على أنفسهم، إذْ ظَهَرَتْ خيبَةُ مَسَاعِيهِمْ في حياة امْتِحَانِهِم، بعِبَادَتِهِمْ لِآلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وتَعْرِيضِهِمْ أنْفُسَهُمْ لعذابٍ خالدٍ في الجحيم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

اللقطةُ الرابعة: فيها بيانُ كَبْكَبَةِ المشركين، وسائر الغَاوِين، وجُنُودِ إبْلِيسَ أجْمَعِين، في الجَحِيم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: أُلْقُوا على وُجُوههم وعلى رُؤوسهم مُنْقَلِبِينَ في الجحيم جَمَاعَةً فجماعةً، وزُمْرَةً فزُمْرَةً، وكذلك سائر الغَاوِين.

الضمير في [هُمْ] يَعُودُ على المشركين، الّذِين كانوا في الحياة الدنيا يَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ، وهم من الغَاوِين، وهذا يَدُلُّ المتدبّر على أنّ [والغاوُون] يُرادُ بهم وسائِرُ الغاوِين، سواءٌ أكانوا مُشْرِكِين، أمْ شرّاً منهم كالجاحدين وجُودَ الرَّبّ جلّ جلاله، وكالذين يَجْمَعُونَ بَيْنَ الكُفْر والنّفاق.

سبق آنفاً شرحُ معنى: «الغاوِين».

يقال لُغةً: «كَبْكَبَ الشَّيْءَ»: أي: قَلَبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ، ورَمَاهُ في مَهْواة.

الكَبْكَبَة: الكَبُّ الذي يَتْبَعُهُ كَبٌّ. «فَكُبْكِبُوا» مُضَاعَفُ «كُبُّوا» بتَكْرِيرِ اللّفظ الذي قد يدلُّ على تكرير المعنى، مثل: «كَفْكَفَ دَمْعَهُ» و«لَمْلَمَ مَتَاعَهُ» و«جَرْجَرَ الشَّرابَ».

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: والمُغْوُون الدَّاعُون إلى الغَوايَة، الّذينَ هُمْ جُنُودُ إبليس، سواءٌ أكانوا مِنَ الجِنِّ أمْ مِنَ الإنْسِ، ونظراً إلى أنّه لا يُوجَدُ لأحَدٍ مِنَ المُغْوِين الّذين هُم جُنُودُ إبْلِيسَ عُذْرٌ مَا، جَاءَ تأكيدُ كَبْكَبَتِهِم في الجحيم بعبارة ﴿أَجْمَعُونَ﴾، أي: لَا يُسْتَثْنَىٰ مِنْهُمْ أحَدٌ بجَهْلٍ أو غَيْرِهِ ممَّا قَدْ يُعْذَرُ بِهِ بُلَهَاءُ الغَاوِين، فجنُودُ إبليس فُطَنَاءُ أشرار.

اللقطة الخامسة: لَقْطَةُ تخاصُم بينَ الغَاوِينَ وبيْنَ الَّذِين كانوا سبباً في غَوَايتهم، وهم في الجحيم يُعَذَّبُونَ، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾: أي: قالَ الَّذينَ كانوا يَعْبُدون من دون اللّه شركاء، أصْناماً أو غير ذلك، وهم في الجحيم يُعَذَّبون، لِمَنْ كانوا يَعْبُدُونَهُمْ من إنْسٍ أو جنٍّ وكانوا بعِبَادَتِهِم لهم راضين، أو اتَّخذُوا أنْفُسَهُمْ آلِهَةً أوْ أرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ كَفِرْعَوْنِ مُوسَىٰ، وأمَرُوا النَّاسَ بعبادتهم، يُخَاصِمُونَهُمْ ويُنَازِعُونَهُمْ.

﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: يَتَخَاصَمُونَ ويَتَنَازَعُونَ مع الّذين كانوا مَعْبُوديهم في الحياة الدُّنيا، يقال لُغَةً: «اخْتَصَمَ القَوْمُ» أي: خَاصَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، في جدالٍ ومُنَازَعَة.

جملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ حَالِيَّةٌ مُقَدَّمَةٌ على مَقُولِ القَوْل.

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾: التاء من حروف القسم، قال سيبويْه: إنَّ العَرَب لا يُدْخِلُونَ تاء القَسَم في غَيْرِ لفظ «الله». فلا يقولون مثلاً «تَربّي» كما يقولون: «وربّي» وجواب القسم: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إنْ» هُنَا هي المخفّفة من الثقيلة، وهي مهملةٌ من العمل، واللام في [لَفِي] هي الفارقة بين «إنْ» المخفّفة من الثقيلة، و«إنْ» النافية، وهي مؤكّدَة لخبر [كُنَّا].

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: لَفِي ضياع عن صراط الحقّ، وهذا الضَّيَاعُ مُبِين، من فِعْل «أبَانَ» اللازم بمعنى: «ظَهَرَ ووضح» أي: لفي ضلال عن صراط الحقّ ظاهرٍ وواضحٍ.

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾: [إذْ] ظَرْفية فيها معنى التَّعليل، أي: كنّا لَفِي ضلالٍ مُبِينٍ حينَ كُنَّا نُسَوِّيكُمْ برَبّ العالَمِين، في إلٰهِيَّتِهِ أَوْ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فنَعْبُدُكُمْ كعِبادة العابدين له.

يقال لغة: «سَوَّىٰ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ» أي: جعلَه مساوياً لَهُ مُمَاثِلاً مُعَادِلاً.

[رَبُّ العالَمِين] هو الخالق لما سواه، والمتصرّف في العالمين دواماً بِصفاتِ ربوبيته، التي سبق بَيَانُهَا مِراراً.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾: أي: ومَا كانَ سبَبَ ضَلَالِنا عن صِراط الحقِّ والهُدَىٰ غَيْرُ المُجْرِمِينَ، الّذين كانُوا دُعاةً للشِّرْكِ بِرَبِّنا رَبِّ العالمين، إذْ جَعَلُوا نُفوسَهُمْ جُنُوداً لإبْلِيس في الإغواء والإضلالِ عن الحقِّ والهُدَى وفِعْلِ الخَيْر، وعن صراط النّجاةِ مِنْ عذابِ الله، والسعادة الأبَدِيَّة في جنَّاتِ النعيم.

المُجْرِمُون: هم مرتكبُوا الجرائم الكبُرىٰ، والآثامِ العظمىٰ، ومن أشْنَعِهَا الإغواء، ودَفْعُ مَنْ يَسْتَجيب لهم إلى الغوايَة، وأُطْلِقَ هذا اللّفظ في القرآنِ على مُسْتَحِقِّي الخلُودِ في عذَابِ النَّارِ على تَنَازُلِ دَركاتِهِم فيها، حتى الدَّرْكِ الأسْفَلِ منها.

وبعد هذا قالوا مُتَحَسِّرين:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

[مِنْ] زيدَتْ لتأكيد استغراق عُمُومِ النفي والتنصيص عليه، أي: فَلَيْسَ لنَا شَافِعُونَ بالاستغراق الشَّامِلِ يشفعون لنا، فواحَسْرَتنا على ما فرَّطْنا في جَنْبِ الله، ولَيْسَ لنا صَدِيقٌ مَا حَمِيمٌ يَنْصُرُنا أو يُواسِينا في عَذَابِنا فواحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنا في جَنْبِ الله!!

الصَّدِيقُ الحميم: هو الّذي يَوَدُّكَ ويُدَافِعُ عَنْكَ، وتَوَدُّهُ وتُدَافِعُ عَنْهُ. كلُّ خُلَّة وصَدَاقَةٍ في الدُّنْيا بَيْنَ غَيْرِ المُتَّقِين، تَنْقَلِبُ إلى عَدَاوَةٍ شَدِيدة يَوْمَ الدِّين، كما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

أمّا المتَّقُون فيَحْفَظُ اللَّهُ لَهُمْ خُلَّاتِهِمْ ومَوَدَّاتِهِم، لأنَّها مِنْ عناصِرِ سَعَادَاتِهِمْ في جنَّاتِ النَّعِيم.

وأخيراً يُعْلِنُ هؤلاء الغاوُونَ الذين كانوا في الحياة الدنيا يَعْبُدُونَ مَعْبُودِينَ من دون الله تَمنِّيَهُمْ، أنْ تَكُونَ لَهُمْ عوْدَةٌ إلى حياة الامتحان حتَّىٰ يَكُونُوا مؤمنين، لا يُخَالِطُ إيمانَهُمْ شِرْكٌ ما، فيَقُولُون:

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: الفاء عاطفة [لَوْ] هُنَا للتَّمَنِّي، إذْ عَلِمُوا أنَّ طَلَبَهُمْ الرَّجْعَةَ إلى حياةِ الامتحان، فيَكِرُّوا مِنْهَا مُؤْمِنِينَ إلى حَيَاةِ الجزاءِ، طَلَبٌ مَرْفُوض، فلا يَمْلِكُونَ إلَّا التَّمَنِّي.

الكَرَّة: واحِدَة «الكَرّ» وهو الرُّجوع إلى الوراء لاستئناف الإقبالِ إلى الأمام.

[**مِنَ المُؤْمِنِينَ**]: أي: من فِئَةِ المؤمنين الصادقين في إيمانهم، الَّذِينَ لا يخالِطُ إيمانَهُمْ شِرْكٌ في رُبُوبيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا في إلٰهِيَّته.

وفي ختام هذا الفَصْلِ المتعلّقِ بإبراهيم عليه السَّلام ودعوته لأبيه وقومه، جاءَتْ في السُّورة الآيتان اللّتان جعَلَهُمَا الله بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نِهَايَةِ كلّ مجموعة من اللّقطات المختاراتِ في السُّورَةِ من قِصَصِ رسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامِهِمْ، وهما:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾:

وقد سبَقَ تَدَبُّرُهما، فلا حاجة إلى التكرار، ولا شكَّ أنَّ قصة إبراهيم عليه السّلام وقومه، وما سَيُلاقونه يوم الدّين تشتمل على آيَةٍ عظيمة ذات عِبَر وعِظات جَلِيلَات، ومع تلك العِبَر والعظات فإنّ أكثر المعنيّين بالمعالجة في السّورة قد وصَلوا إلى حالةٍ مَيؤُوسٍ منها.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث
لقطات تتعلَّقُ بقصة نوح عليه السَّلامُ وقومه
وهي الآيات من (١٠٥ ـ ١٢٢)

قال اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

تمهيد:

جاء بِشَأْنِ نوحٍ عليه السَّلامُ وقومِهِ في القرآن الكريم (٢٨) نصّاً من (٢٨) سورة، وهذا هو النَّصُّ الثامن بحَسَبِ ترتيب النزول، وقَدْ كنت تدبَّرْت هٰذه النُّصوص في كتاب خاصٍّ بها، عنوانُه «نوح عَلَيْهِ السَّلام وقومُه في القرآن المجيد»، واكتشفت عن طريق وضع جداول للأفكار الّتي اشْتَمَلَتْ عليها هٰذه النصوص، فوجَدْتها متكامِلَةً فيما بينها، والمكرّراتُ فيها هي المدخل إلى ذِكْرُ اللّقطاتِ المختارات في النّصّ من السّورة، والموعظةُ التي تشتمل عليها النصوص، وهي بمثابة تكريرِ العلاج الدوائي، ثم ما كان مُكَرَّراً في واقعِ القصَّة، فجاء التكرير تَنْبيهاً عليه.

وإذْ أُحِيلُ على ذٰلِكَ التدبّر الَّذي أفْرَدْتُ لَهُ كتاباً خاصّاً، فإنّي أقتصر هُنا على تدبّر آيات هذا الفصل، دون توجيه العناية لإبْراز التكامل بين هذا النّصّ وبين سائر النصوص، الثمانية والعشرين، وقد سبَقَ في هذا الكتاب التدبّريّ تدبُّر سبعة نصوصٍ في مواضعها من سورها.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

كلمة «قوم» اسمُ جَمْعٍ لآدميّ، فيجوزُ في العَرَبِيَّةِ تَذْكيره وتَأْنِيثُه، وهنا جاء تأنيثه. وجاء تذكيره في: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ الأنعام آية (٦٦).

واسم الجَمْعِ لغير الآدميّ يجبُ في العربيَّة تأنيثُه دواماً.

القوم: هم الجماعة من الناس الذين تجمعُهم جامعة يقومون لها، ذكوراً وإناثاً.

وقد يُخَصَّصُ اللَّفْظُ بالذُّكُورِ دُونَ الإنَاثِ، كقول زُهير:

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ونوحٌ عليه السَّلامُ قد سبق التعريف به في هذا الكتاب، وهو من أُولي العزم من الرُّسل.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جاء هنا لفظ المرسلين مجموعاً، وجاء في القرآن نظيره بالنسبة إلى «عاد» و«ثمود» و«قَوْم لُوط» و«أصحاب الأيْكَة».

أورد المفسّرون عدّة احْتِمالات للمراد بالجَمْع، ومنها اعتبار مَنْ كذَّبَ رسولاً واحداً بمثابَةِ مَنْ كذَّبَ كلَّ الرُّسل.

والذي ترجَّحَ لَدَيَّ أَنَّهُ قَدْ جاء لقَوْمِ نوحٍ عِدَّةُ رُسُلٍ، وأنَّ نُوحاً عليه السَّلام كانَ آخِرَهُم إرسالاً إليهم، أو بقاءً فيهم[(١)]، وهذا لا يتعارض مَعَ ما جاء في حديث الشفاعة يومَ الدّين، إذْ يَأْتِي النَّاسُ إِلَيْهِ بعد أن يَعْتَذِرَ آدم من الشفاعة لهم، فيقولُون له: أنت أوّل الرُّسُلِ، إذْ يُرادُ بهٰذِهِ العبارة أَنَّهُ أوَّلُ الرُّسُلِ مِنْ أُولِي العزم، لا أَوَّلُ الرُّسُلِ على الإطلاق، فقد جاء قبله من الرُّسل آدم، وشيث، وإدْريس عليهم السّلام، إلَّا أَنَّهُمْ لم يكونوا من أُولي العزم، ولم يأتِ في الحديث أنّ أهل الموقف يطوفون على كلِّ الرُّسُلِ بَلْ يَنْتُقُون بَعْدَ نوحٍ أُولي العزم منهم، وهم إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السَّلام، ثُمَّ يأتونَ أخيراً إلى محمّد ﷺ فيشفع لهم.

وكذلك جاء للأقوام «عاد» و«ثمود» و«قوم لوط» و«أصحاب الأيكة» عدَّةُ رُسُلٍ قبل: «هود» و«صالح» و«لوط» و«شعيب» عليهم السَّلام، ولا داعِيَ لمُخَالَفَةِ ظاهِرِ اللفظ الذي جاء مَجْموعاً بالنسبة إلى هؤلاء الأقوام.

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾؟:

---

(١) انظر في الصفحة (٣٦١) من المجلد الأول: «هل كان نوح عليه السّلام أوّلُ رُسُل اللَّه للناس»؟

أُخُوَّةُ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ قد كانَتْ أُخُوَّةَ نَسَبٍ، فهو منهم، ولا يَلْزم هذا في كلّ الرُّسل، فقد جاءَ مثلُ هذا التعبير بشأن لوطٍ عليه السّلام وقومه، مع أنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ نَسَباً، بل كانَ وافداً إليهم، ولا يرجع نَسَبُهُ إلى جدِّهِمْ، فأُخُوَّتُهُ لهم قد كانَتْ أُخُوَّةَ مُواطَنَةٍ ولِسَان، وأُخُوَّةَ تَرْجِعُ إلى آدَمَ عليه السَّلام وزوجه.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: عَرضٌ رَفِيقٌ بأداة العَرْضِ «أَلَا» وأرجّح أنَّها كلمةٌ واحِدَة، تَسْتعمل للعرض، وللتحضيض، وللاستفتاح والتَّنْبيهِ، ولَيْسَتْ مؤلَّفَةً مِنْ هَمْزَةِ الاستفهام وحرف النفي «لا» ولو كان أصْلُها كذلِكَ، إذْ أقول: إنَّ ذلِكَ الأصْل قَدْ تُنُوسِي، وصارَتْ «أَلَا» بالاستعمال كلمةً واحدة.

والذي عرضه نوح عليه السلام على قَوْمِهِ أنْ يَتَّقُوا عقابَ اللَّهِ وعذابَهُ المؤجَّلَ إلى يوم الدّين، مع ما قَدْ يُنْزِلُه بهم من عقابٍ مُعَجّل، وقد تحقّق بإغراقِهم إغْراقاً جماعِيّاً.

﴿تَتَّقُونَ﴾: مضارع فعل «اتَّقَىٰ» أي: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَحْذَرُ وِقايَةً تَحْمِيه، من ضُرّ أو أذىً أو عُقُوبة، والوقاية من عقوبة الله تكون بفِعْلِ ما أمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عنه، والإيمانُ الصحيحُ الصادق أوّلُ مأمُورٍ به في الدِّين الذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، والكُفْرُ وأدناه الشِّرْكُ أوّلُ منهيٍّ عنه في الدين الذي اصطفاه الله لعباده، في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا.

تقولُ لغة: «اتَّقَيْتُ اتّقاءً» و«تَوَقَّيْتُ، تَوَقّياً، وتُقىً، وتَقِيَّةً، وتِقَاءً» أي: جَعَلْتَ بَيْنَك وبَيْنَ ما يَضُرُّك أو يُؤْذِيكَ أو يُؤْلِمُكَ، أو يُحْزِنُكَ، ما يقيك، والاسم «التقوى».

قول اللَّه عزّ وجلّ في حكاية معنى ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ لقومه:

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾:

﴿رَسُولٌ﴾: أي: نبيٌّ ورَسُولٌ، لأنّ النُّبُوَّةَ سابِقَةٌ للرّسَالَةِ، ومُرَافِقَةٌ لَهَا دواماً بَعْدَ تكليفِ النَّبِيِّ مَسْؤولياتها.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتَّصِفٌ بخُلُقِ الأمَانَةِ بوَجْهٍ عامّ، وأمينٌ على رسالاتِ رَبّي، أُبَلِّغُهَا لكُمْ كما أَتلقَّاهَا بالوَحْيِ عَنْهُ، لا أزِيدُ فيها شيئاً من عندي، ولا أنْقُصُ منها.

عبارة [لَكُمْ] معمول للفظ [رَسُولٌ] قُدِّمَ على عامله لإفادة التخصيص، أي: رسالَتِي خاصَّةٌ بِكُمْ، فأنا مَبْعُوثٌ من عِنْدِ اللَّهِ لكم، لأُبَلِّغَكُمْ رِسَالَاته.

والمعنى: إنّي لَكُمْ على وَجْهِ التَّخْصِيص نَبِيٌّ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ من عِنْدِ الله رَبّي وربّكُمْ، وأمِينٌ على رِسالاته، أبلّغُكُمْ إيَّاها كما أتلقَّاها بالوحي عنه، دون زيادَةٍ فيها ولا نقصان.

وبما أنَّهُ يترتَّبُ على كونه نبيّاً رَسُولاً، يُبَلِّغ عن رَبّه وربّهم رسالَاته، أنَّهُمْ مأمُورون من قِبَلِ اللَّهِ ربّهم بطاعتِهِ، قال لهم:

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: فاتَّقُوا عذابَ اللَّهِ، وأطِيعُوني فيما أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، لأنَّكُمْ إذا لَمْ تُطِيعُونِي فيما أدْعُوكُمْ إلَيْهِ، وأنَا رسُولٌ مُبَلِّغٌ عن اللَّهِ رَبّكُمْ، كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لعقابه وعذابه، فَلَيْسَتِ القضيَّةُ قَضِيّتي الخاصَّة بي، وإنَّما هي قضِيَّةُ اللَّهِ رَبّي وربّكم، ولَهَا علاقَةٌ بي وبكُمْ معاً.

وقال لهم ما دَلَّ عليه قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

إنّ أوّل ما يتبادر إلى أذْهان الأقوام المَدْعُوّينَ مِنْ قِبَلِ أيِّ داعٍ من الدُّعاة إلى مَبْدإٍ أو فِكْرَةٍ، أو عَمَلٍ، أوْ جَمَاعَةٍ، أن يتّهِمُوهُ بأنَّ له مَصْلَحَةً شَخْصِيَّةً مِنْهُمْ، يَحصُلُ عليها من جرّاءِ اتِّباعِهِمْ له فيما يَدْعُوهم إلَيْه، كان من الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ أنْ يُعْلِنَ الرَّسُولُ تَجرُّدَهُ من أيَّةِ مَصْلَحَةٍ شخصيَّةٍ يَحْصُلُ عليها من قومه الّذين يدعوهم إلى دين الله ربِّهِ وربّهم، ومعلومٌ أنَّ أدْنَىٰ المصالِحِ وأخفَّها، مطالَبَتُهُمْ بأجْرٍ على ما يُقَدِّمُ لهم من تَعْلِيمٍ ونُصْحٍ

وإرْشاد، ومُجاهَدَةٍ في ابْتغاءِ الخَيْرِ لهم، وتَدْرِيبٍ وتَرْبِيَةٍ على الإيمانِ ومشاعِرِهِ، وآثارِهِ في السُّلوك، وعلى مُمَارَسَةِ الفضائِلِ الخُلُقِيَّةِ والسُّلوكِيَّةِ، وعبادةِ اللَّهِ عزّ وجلّ وَفْقَ أحكام شرائعه.

وظاهر أنّ التجرُّدَ والتَبرُّؤَ مِنْ أدْنَىٰ المصالح الشخصيّة وأخَفِّها، يَسْتَلْزِمُ بداهةً التجرُّدَ ممَّا هُوَ أصْعَبُ على نفوس القوم وأشدّ.

ولكن لَيْسَ معنىٰ ذلك أنَّهُ لا يَطْلُبُ أجْراً مَا مُطلقاً، فهٰذِهِ مِثالِيَّةٌ خياليَّةٌ بالنِّسْبة إلى البَشر، ولو كانوا من أُولي العزم من الرُّسُل، وهو لَا يَدَّعيها عليه السَّلام، بل هُوَ واثِقٌ مِنْ أجْرٍ عظيم يظفر به عند رَبّ العَالَمِين، فقد تكفّلَ الله عزّ وجلّ عن المَدْعُوِّين بأجْرِ الدُّعاةِ إلى دينِهِ وإلى عبادته. ولئلا يفهم مِنْه هذا الفهم قال نوحٌ عليه السّلام:

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ما أجْرِيَ الّذي أستحقُّهُ إلّا على كَفالَةِ رَبّ العالَمِين، فهو وَحْدَهُ الضامِنُ له، وهو وَحْدَهُ الذي تحمَّلَهُ وتَكَفَّلَ بِهِ، وهو وحْدَهُ الّذي أثِقُ بأنْ يَمْنَحَنِي إيَّاهُ يومَ الدّين.

وبناءً على هذا فإنّني أُعِيدُ عليكم مقالتي لكُمْ، وأنَا متّصِفٌ بكامِلِ التجرُّدِ من أيَّةِ مصلحةٍ شخصيَّةٍ أطْلُبُها لنَفْسِي مِنْكُمْ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؟:

﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾: أي: أنُؤْمِنُ بِكَ وبما جِئْتَ به، مُسْلِمِينَ ومنقادِينَ لَكَ. ضُمِّنَ فِعْل «نُؤْمِنُ» معنى فعل «نُسلِمُ» فعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملة عن جُمْلَتَيْن.

﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: أي: والحالُ أنَّهُ اتَّبعَكَ الأرْذَلُونَ.

الأرذَلُون: هُمُ الأخَسُّون من الناس، أصْحَابُ المِهَنِ الحقيرَة، والأعمال الّتي يترفّع عنها أهْلُ الكرامة والشّرف، ويترَفَّع عَنْها أيضاً الّذين هم من وسَطِ النّاس، وقَدْ عَرَّفُوهُم بأداة التعريف «ال» للدّلالة على أنَّهم مُشْتَهِرُون بالأرْذَلِيَّة، فهم يذكَرُون بها.

والأرْذَلُونَ أيضاً: هم أهْلُ الطَّبقَةِ الدُّنيا في المجتمع، والذين لَهُمْ أعمالٌ رَدِيئة، أو هم متَّهَمُون بالقبائِحِ وفِعْلِ الرَّذَائِل.

ويظهر أنّ الذين قالوا هذه المقالَةَ هُمْ كبراء قومِ نوحٍ وملؤهم، وربَّما قالَها مَنْ هم من وسَطِ الناس، لأنَّ الله عزّ وجلّ لم يَخُصَّ الملأ في هذا النصّ بالذكر.

لقد استكْبَر قومُ نوحٍ عليه السَّلام عن اتّباعه، وتَعَلَّلُوا بأنَّه قد اتَّبَعَهُ الأرْذَلُون فيمَنِ اتَّبَعه، فَهُمْ لا يَسْتَجِيبُونَ لدَعْوَةٍ يَكْثُرُ في أَتْبَاعِهَا الأرْذَلُون.

ويُدْرِكُ المتدبّر أنَّهم تعَلَّلُوا بهذه العلّة في مرحلة متقدّمة من مراحلِ دعوته لقومه، ولهذا اقتصر النصّ هنا على بيان هذا التَّعَلُّلِ من تعلّلاتهم، ثم جاء في نصوص أخرىٰ إضافة تعلّلاتٍ لم تذكَرْ في هذا النّصّ، للإشارة إلى أنَّها كانت في مراحِلَ لَاحقة من مراحِلِ دعوته لقومه.

ولمّا كانت كلمة الأرْذَلين قد تَعْنِي فريقَيْن من الناس:

١ ـ فريق المتّهَمين بفِعْلِ القبائح والرَّذَائِل.

٢ ـ فريق أهل الطبقة الاجتماعيّة الدُّنيا والمِهَنِ الحقيرَة.

كان جوابُ نوح عليه السّلام يتضمَّنُ الرَّدّ على الأمْرَين معاً، فقال لهم ما أبانه الله عزّ وجلّ بقوله:

• ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

قولُه: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ دَلَّ على أَنَّهُمْ قالُوا له: أَنُؤْمِنُ ونُسْلِمُ مُنْقادين لك، والحالُ أنّه اتَّبَعَكَ الأَرْذلُون، وأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَرْذَلُون، لَيْسُوا أخفياء عَلَيْك، فأجابهم بهذا الجواب.

أي: ومَا تأثير عِلْمِي بِمَا كانُوا يَعْمَلُون، في دَعْوَةٍ رَبَّانِيَّةٍ أَمَرَنِي رَبُّ العالَمِين بأنْ أُبَلِّغَها لجميع قومي دُون استثاء.

أَلَيْسَ هؤلاء بشراً مُطالَبِين بالإيمان والعَمَل الصالح، مهما كانت طبقَتُهُمُ الاجتماعِيَّةُ في نظركم طبقَةً خَسِيسَة.

أَلَا يستحقُّونَ مثل غَيْرِهِمْ ثوابَ اللَّهِ والجنَّة، إذَا آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات؟!

أَلَا يستحقُّون مثلَ غَيْرِهِم عقابَ الله والنار، إذا كَفَرُوا وعَمِلُوا السّيّئات؟!

أَلَيْسُوا بشراً قابِلِينَ للتّوبة والإصلاح مَهْمَا كانت أعمالُهُمْ رَذيلةً سَيّئةً قبل الإيمان واتّباع الرَّسُول؟!.

إنّ الإيمان والإسلامَ يَجُبّانِ ما كان قَبْلَهُمَا مِن مَعَاصِي وآثام.

وإذَا كنْتُ أعْلَمُ بما كانوا يَعْمَلُون من سَيّئات، فَهَلْ مِنْ وظيفتي أنْ أُحَاسِبَهُمْ عليها بَعْدَ إيمانِهِم وإسْلامهم؟!

إنّما أنا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ رِسَالَاتِ رَبّي، أمَّا حِسَابُهُمْ على أعمالهم فعلىٰ رَبّي، وهو الذي سوف يحاسِبُهُمْ عليها يوم الدّين، وهو الحكيم فيما يجازي عليه، وفيما يكَفِّرُهُ مِنْ خطايا، ولا سيما جبُّ الخطايا التي كانت قبل الإيمان والإسلام.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

فعِلْمِي بما كانوا يَعْمَلُون لَا يَجْعَلُنِي أتْرُكُ دَعْوَتَهُمْ، وهم بشَرٌ مِنْ

عباد اللَّهِ، مَسْؤُولونَ كسَائِرِ البشر عَنِ الإيمان والعَمَلِ الصَّالحِ، وهم في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنُونَ كغَيْرِهِمْ، وسَوْف يُحَاسَبُون يَوْمَ الدّين، ويجازَوْن على أعمالهم كغَيْرِهم، وأنا رَسُولُ اللَّهِ رَبّ العالَمِين في دائرة امتحان النّاس في الحياة الدّنيا.

ويدلُّ حرف العَطْفِ في أوّل قول نوحٍ عليه السّلام لِقَوْمِهِ عَنْ الأرْذَلين:

﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ على أنَّه قد قال كلاماً قَبْلَه، وعطف عليه هذا القول، والمعطوف عليه مَطْويٌّ في النصّ القرآني، ونَسْتَطِيعُ بالتأمُّلِ أن نَكْتَشِفَ شيئاً مِنْ ذلك.

إنّ نوحاً عليه السّلام لا بُدَّ أن يكون قَدْ قَدَّم لقومه بياناً دلَّهم فيه على أنّ هؤلاء الذين يَرَوْنَهُمُ الأرْذَلِين هُمْ بَشَرٌ مِثْلُهم، ومسؤولُون تُجاهَ رَبِّهِمْ عن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالح، وأنَّهُ مُرْسَلٌ من رَبِّه رَبّ العالَمِين، لدَعْوَتِهِم ودَعْوَةِ غيرهم من قومه، ولَيْسَ مَبْعُوثاً لطَبَقَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ خاصَّةٍ دون طبَقَةٍ أو طبقاتٍ أخرى، فقال لهم بعد هذا البيان:

- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

وأعلن تمنّيَهُ أنْ يَشْعُروا بالحقائق الّتي أبانَها قائلاً لهم: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، فلفظ «لَوْ» هنا حرف تَمَنٍّ، أي: أتمنَّى لكم أنْ تَشْعُرُوا بهٰذِهِ الحقائق.

الشُّعُورُ بالشيءِ أوّلُ مراحِلِ إدْرَاكِهِ، ولعلَّه مأخوذٌ في اللُّغَةِ من الشَّيْءِ يُلامِسُ الشّعَر، فيُحِسُّ به الإنسانُ إحساساً خفيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوَسُّعاً إلى الإدْرَاكاتِ الفِكْرِيَّةِ الأُولَى الخفيفة.

ثُمَّ تَأْتِي بَعْدَ الشُّعورِ إدْرَاكَاتٌ أقْوَىٰ قَدْ توصِل إلى العِلْم، فإلى اليقين.

ومع هذا التَّمَنّي يُلْمِحُ نوحٌ عليه السّلام إلى أنَّهم ما زَالُوا في جهالَةٍ مُطْبِقَة، إذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى مَرْحَلَةِ الشُّعُورِ بأولى الحقائق الّتي يَدْعُوهُم إلى الإيمان بها.

وطالَبَهُ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ ومَعَهُمْ أوْسَاطُهُمْ، بأن يَطْرُدَ هؤلاء الَّذِين اتَّبَعُوهُ مؤمنين به، وبما جاء به عن الله رَبِّ العالَمِين، وهم الذين وصَفُوهم بأنَّهم الأرْذَلُون، واعتبروا طَرْدَهُ لَهُمْ شرطاً لقبول اتِّباعه والإسلام له، دلَّ على هٰذا المَطْلَبِ مِنْ مطالبهم قَوْلُه الذي حكىٰ الله معناه بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾: زيدت «الباء» في ﴿بِطَارِدِ﴾ للتوكيد.

طارِد: اسم فاعل من فعل «طَرَدَهُ، يَطْرُدُهُ، طَرْداً» أي: نَحَّاهُ وأبْعَدَهُ ومنَعَهُ من الاقتراب، استخفافاً به، أو عقاباً له.

لم يَقُلْ نوحٌ عليه السّلام: وما أنا بطاردهم، وإنما قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾ لأمْرَيْن:

الأمر الأول: إرادة التعميم.

الأمر الثاني: بيان الدّاعي الذي يوجب عليه أن يمتنع عن طَرْدِهِم، وهُوَ وَصْفُ الإيمان.

أي: وما أنا بطارد أيّ فَرْدٍ أو جماعَةٍ دَخَلُوا في سِلْكِ جماعة المؤمنين، إذ الإيمان يَجْعَلُهُمْ مِنَ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة، مَهْمَا كان وَضْعُهُمْ الاجتماعي قبل ذلك، ومَهْمَا كان سُلُوكهم من قَبْلُ، فالإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه.

وأخيراً أبان نوح عليه السّلام لقومه وظيفَتَهُ الّتي أمَرَهُ اللّه أنْ يَقُومَ بها تُجاه المكذّبين الجاحِدِين، فقال لهم ما حكاه الله عنه بقوله تعالىٰ:

- ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥﴾: «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما». أي:

ما أنا بالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِ المُسْتَجِيبين لدَعْوَتي، الرافِضِين لها بَعْدَ البيان الكافي الوافي، بإصرارٍ ومُعَانَدَةٍ، واسْتِكْبَارٍ عن اتّباع الحقِّ، وإيثارٍ لمتاع الحياة الدّنيا، إلّا نذيرٌ مُبين.

فهو عليه السّلام يُنْذِرُهُمْ بعَذَابِ اللَّهِ إذا أصَرُّوا على كفرهم وعنادِهِمْ وكِبْرِهِم، وهو عَلَيْهِ السَّلامُ واضِحٌ في رسالَتهِ كلَّ الوُضوح، يَدْعُو كلَّ طَبقاتِ المجتمع، وكلّ أفراده المؤهّلِين لإدْراكِ الدَّعْوَةِ، أنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا.

ولَيْسَ صاحبَ تنظيمٍ سِرِّيّ يُخْفِي فيه بَعْضَ مبادئه وغاياته، ويَجْمَعُ على ما يُخْفِي فيه أصحابَ المصالح والمنافع منه، ويُبْعِدُ الآخرين.

إنَّه عليه السَّلام مُبِينٌ، واضِحٌ كلَّ الوضوح، من فعل «أبَانَ» اللازم، بمعنى ظَهَرَ واتَّضَحَ فهو «مُبِين» أي: ظاهر واضح، وهو أيضاً مُبِين لكلِّ عناصِرِ دَعْوَتِهِ، لَا يُخْفِي منها شيئاً، مِنْ فعل «أبانَ» المُتَعَدِّي، أي: أبان الشَّيْءَ إذا أظْهَرَهُ وَوَضَّحَهُ.

وهكذا كلُّ المُرْسَلِين المَبْعُوثِين مِنْ رَبّ العالمين، وهكذا كلّ رِسالاتِ الله للناس، إنَّها ذواتُ بياناتٍ واضحاتٍ مَعْرُوضاتٍ للجميع على السّواء.

وجاء تخصيص وصف «نذير» بالذكر هنا لأنّ المخاطبينَ من قومه لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِهِ، ولم يُؤْمِنُوا به، ولا بما جاء به عن رَبّ العالَمِين، فهو لهم «نذير» ما دامُوا على هذا الوَصْف.

فالقَصْرُ الذي دلَّ عليه النفيُ الاستثناء هنا هو من قبيل القصر الإضافي، لا الحقيقي، أي: ما أنا بالنّسبة إليكم في موضوعِ رسالَتي، بَعْدَ أن أبْلَغْتُكُمْ ما أمَرَنِي ربّي بتبليغه إلّا منذرٌ لكُمْ بعذابِ رَبّي، ويَشْمُلُ هذا الإنذارُ مؤجّلَ العقاب ومعجّله.

ولو أنّهم آمنوا لكان لهم «بشيراً» بثواب اللَّهِ العظيم في جنَّاتِ النعيم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

لقد انتهت المراجعات الجدليَّة الكلامِيَّة بَيْنَ نوحٍ وقَوْمِهِ في آخر مراحلِ دعوتِهِ لَهُمْ، عِنْدَ الموقِفِ الحازِمِ الذي أعلَن فيه قوله لهم: ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، وأعْلَنُوا فيهِ إصرارَهُمْ على الكفر، وتمسُّكَهُمْ بباطِلِهِمْ، ومُعَادَاتِهِم للحقِّ الرَّبَّاني وللدَّاعي إليه.

وإذْ لَمْ يَبْقَ في جَعْبَةِ نوحٍ عليه السلامُ إلَّا أنْ يُنْذِرَ كُفَّارَ قَوْمه بعقابِ اللَّهِ لَهُمْ، وإذْ بَلَغَ كفَّارُ قَوْمِهِ إلى حَالَةِ ميؤوسٍ مَعَهَا مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طريقِ إراداتهم الحرَّة، كان من تلقائية الردّ أن يُهَدِّدوه بالرَّجْمِ إنْ لم يَنْتَهِ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، بمنهج الإقناع وبالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، وبالمجادَلَةِ الحكيمةِ بالَّتي هي أحْسَن.

• ﴿...لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

اللّام في [لَئِن] موطئة للقسم، فهي واقعة في جواب قسم منويّ، أي: نقسم لئن لم تَنْتَهِ يا نوح عن متابعة الدَّعْوَةِ إلى دينِكَ، والمُحَاجَّة والمجادَلَةِ للإقناع به، لنَحْكُمَنَّ علَيْكَ وعلى مَنْ آمَنَ معَكَ بالقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، ولَنُنَفِّذَنَّ ذلك عمليّاً، ولتكونَنَّ واحداً مِنَ المَرْجُومِينَ الّذين سَنَرْجُمُهُمْ ونتخلَّصُ مِنْهم.

وبهذا قَطَعُوا عَلَيْهِ طريقَ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إليه مِنْ قَوْمِهِ، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ أصْدَرُوا قَرَارَهُمْ بِرَجْمِهِ ورَجْمِ الَّذين يَدْعُونَ إلى دِينِهِ من الَّذِينَ آمَنُوا به، فتوجَّه نوح عليه السّلام لربّه داعياً.

قال اللَّه عزّ وجلّ قاصّاً ما دَعا به نوحٌ عليه السَّلام رَبَّه:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

فأبان نوح عليه السَّلام في دُعائه لربِّه أنَّه يَئِسَ من إيمان قَوْمِهِ عن طريق إراداتهم الحرَّةِ يأساً نهائيّاً، إذْ قال في دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ وفي قراءة يعقوب: [**كَذَّبُوني**] بإثبات ياء المتكلّم، أي: إنَّ كلَّ قومي كذّبوني باسْتِثْنَاءِ القِلَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني، ومَنَعُونِي مِنْ متابعة دعوتي في عامَّتهم، فلَمْ يَبْقَ لي مَطْمَعٌ في هِدَايَةِ أحَدٍ منهُمْ غيرِ الَّذِينَ آمَنُوا بي، وقد بَلَغُوا دَرَكَةَ التَّكْذِيب الجازم لي، بَعْدَ كُلِّ بياناتي ومجادلاتي لهم.

وطوىٰ عليه السَّلام في دعائه لِرَبِّه، ذِكْرَ تَهْدِيدِ كُبَراء قومه له ولِمَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ، بالقتل رَجْماً بالحجارة، إذَا تَابَعُوا الدَّعْوَة في عامَّتِهِم إلى الإيمان بالله وبالدِّين الّذي اصطفاه لعباده، واكْتَفَىٰ في دُعَائِهِ بقوله:

﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

الفتح: يُطْلَقُ في اللّغة على النّصر، ويُطْلَقُ على الحكم والقضاء.

ويَظْهَرُ أنّ المراد بقول نوح عليه السّلام في دعائه لربّه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاقضِ ربِّ واحْكُمْ بَيْنِي وبَيْنَ قَوْمِي، مُنْتَصِراً لأوليائك على أعدائِكَ بما تَشاءُ من فتح، فقد وَصَلَ قَوْمِي إلى دَرَكَةٍ لَا مطمع بَعْدَها في استجابتهم عن طريق إرادَاتهم الحُرَّة لدَعْوَةِ الحق، ولم يَبْقَ إلَّا أنْ تَفْصِل الحُكْمَ والقضاء المعجّل في الحياة الدُّنيا بحِكْمَتِكَ بَيْنِي وبَيْنَهم.

ولم يَذْكُرْ نوحٌ عليه السَّلام في دعائِهِ لرَبِّهِ نَوْعاً مِنْ أنْواعِ الفتح الّذي سألَهُ ربَّه، بل قال: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، أي: فتحاً ما بحِكْمَتِكَ وعلى مُرادِكَ. وربّما يكون مُرادُه فتحاً عظيماً شاملاً يُناسِبُ غُلُوَّهُم في العِنَاد والكُفْرِ والتّكذيب، ويُناسِبُ تَوَعُّدَهُمْ له بالقتل رجماً بالحجارة.

﴿... وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: ونَجِّنَا مِمَّا تَوَعَّدُونا به، فالموقفُ بيننا قد صار مَوْقِفَ قوَّةٍ ماديّة، لَا نَسْتَطِيعُ مُواجَهَتَها بقُوَّتِنَا دُونَ أن تَنْصُرَنا أنْتَ بِنَصْرِكَ رَبَّنَا.

لقد كانت قوَّةُ نوحٍ ومَنْ معهُ من المؤمنين لَا تُكَافِئ بمقتضىٰ نظام الكون السَّبَبِيّ قُوَىٰ قَوْمِهِ الّذين تَوَعَّدُوهم بالرّجم بالحجارة.

ونَسْتَطِيعُ أنْ نَفْهَمَ أنَّ نُوحاً عليه السَّلام، قد تَوَقَّفَ مُنْذُ ذٰلِكَ الحين، عن القيام بدَعْوَةِ كُفَّارِ قَوْمِهِ إلى دينِ اللَّهِ، واقتصر على الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، خشية أنْ يتعرَّضَ هو ومَنْ آمَنَ معه للقتل، بدليلِ أنَّ النُّصوصَ القرآنيّة المتعلّقةَ بقصَّةِ نوحٍ لَمْ تَذْكُرْ شيئاً عن أعمال قام بها كُفَّارُ قَوْمِهِ لتَنْفِيذِ مَا تَوَعَّدُوهُمْ به.

ونَسْتَطِيعُ أن نفهم أيضاً أنَّ دُعَاءَ نوحٍ عليه السلام بقوله: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قدْ كانَ بَعْدَ أن ضاقَ صَدْرُهُ بالتزام الصَّمْتِ عَنِ الدَّعْوَةِ إلى سَبِيلِ رَبِّه، وهو ذو البيان والحجج الجَدَلِيَّةِ الدَّامِغَة، خَوْفاً على نَفْسِهِ وعلى من آمَنَ به واتَّبعهُ، من أن يُنَفِّذَ فيهم قومُهم قَرَارَهُمْ الظالم الآثم الطاغي، فيَرْجُمُوهُمْ بالحجارة حتَّىٰ القتل.

وطوىٰ النصُّ هُنا أحداثاً جرَتْ بين هٰذه المرحلةِ، وبينَ نجاة نُوحٍ في الفُلْكِ، وما تَبِعَهُ مِنْ إغْرَاقِ كُفَّارِ قَوْمِهِ.

واعْتُبِرَ الفاصِلُ الزَّمَنِيُّ بَيْنَهُمَا مَهْمَا كانت مُدَّتُهُ بمثابَةِ الصَّفَحاتِ المَنْزُوعَاتِ مِنْ مُجْرَياتِ القصَّة، فقال الله عزّ وجلّ:

• ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

الفاء في [فأنْجَيْنَاهُ] فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ على مَحْذُوف، يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً، والتقدير:

فاسْتَجَبْنَا دُعاءه مباشرةً، فحَكَمْنَا بإغراقِ الأرضِ بالماء، وبنجاة نوحٍ ومَنْ آمَنَ مَعَهُ في الفُلْكِ المَشْحُونِ، وأمَرْنَاهُ بصُنْعِهِ، وقامَ بأعْمَالِ الصَّنْع حتَّىٰ كَملَتْ، وجاء المَوْعِدُ المُقرَّرُ، وأمَرنا نوحاً بركُوبِ السَّفِينَة، وبأنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فيها من كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وأهْلَهُ إلّا من سَبَقَ القولُ بإغْرَاقِهِ لكُفْرِهِ، وبأن يَحْمِلَ معَهُ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ، ورَكبوا، وأمْطَرَتِ السَّمَاءُ ماءً، وفاضَتِ الأرْضُ ينابيع، وارْتَفَعَتِ السَّفِينَةُ مع ارتفاع الماء، وجرَتْ بهم، وأنْجَيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ مِمَّا تَوَعَّدَهُ بِهِ قَوْمُهُ.

[**الفُلْك**]: مركَبُ البَحْر، يُطْلَقُ بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع، ويذكّر ويؤنّث، وقد جاءَ هُنا مُذَكّراً.

[**المَشْحُون**]: أي: المَمْلُوء، فالشَّحْنُ هو مَلْءُ السفينَة، وإتْمامُ جهازِها كُلِّه.

[**ثُمَّ أغْرَقْنَا الباقِينَ**]: دلَّ العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الدالّ على الترتيب مع التراخي، على أنَّ إغراق كفّارِ قَوْمِهِ قد تحقَّقَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ. والذِّهْنُ يستطيع أنْ يُدْرِكَ أنَّ القَوْمَ أخَذُوا يَتَسَارَعُونَ إلى الجبال، وإلى كلّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الأرض، فِراراً مِنْ تكاثُرِ المياه المنصَبَّة من السماء، والمتفجّرة من الأرض، فكان أكْثَرُهُمْ قُوَّةً على صُعُودِ الجبالِ حتَّىٰ أعَالِيهَا بغيَةَ أنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الغَرَقِ، أكْثَرَهُمْ في تَأْخِيرِ ساعَةِ الغَرَقِ عَنْ نَفْسِهِ، لكنْ الماء كان يُلاحِقُهُ صُعُوداً شيئاً فشيئاً، ومرَّتْ أيَّامٌ وأسابيع، وأكثر، حتَّىٰ أغْرَقَتِ المياهُ أعالِيَ رؤوسِ الجبال الشّامخة.

عِنْدَئِذٍ تمَّ إغراقُ جميع الباقِين في الأرض من قومِ نوح، وهُمُ الَّذِينَ لم يَرْكَبُوا مَعَهُ في الفلك.

كلمة [**الباقِينَ**] تَدُلُّ على أنَّ الغَرَقَ عَمَّ كُلَّ قَوْمِ نوح، باستثناء الَّذِينَ حَمَلَهُمُ الفُلْكُ، ولَيْسَ صَرِيحاً بأنَّهُم الباقُونَ في عموم الأرض.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بنوحٍ عليه السَّلام وبقومه، جاءت في السُّورة الآيتان اللَّتانِ جَعلَهُمَا الله عزّ وجلّ بمثَابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نهاية كُلِّ مَجْمُوعَةٍ من اللَّقَطاتِ المختارات في السّورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سبعة وأقوامهم، وهما

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُهُمَا، فلا حَاجَةَ إلى التّكرار، ولا شكّ أن قصَّةَ نوح عليه السّلام وقومه، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة ذاتِ عِبَرٍ وعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تِلْكَ العِبَر والعِظاتِ فإنّ أكثرَ المعنيّين بالمعالجة في السُّورَةِ وهم كبار كفّار قُريش، قد وصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فهم غَيْرُ مُنْتَظرٍ منهم أنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع
لقطات تتعلّق بِقِصَّةِ هُودٍ عليه السّلام وقومه عاد
وهي الآيات من (١٢٣ ـ ١٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ

فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

تمهيد:

سبق تدبُّر ما جاء بشأن هود عليه السّلام، وقومه عاد، في السّور التالية، بحسب ترتيب نزول سُوَرِها:

١ ـ سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول)، الآيات من (٦ ـ ٩).

٢ ـ سورة (النجم/ ٥٣ مصحف ٢٣نزول)، الآية (٥٠).

٣ ـ سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول)، الآيات من (١٢ ـ ١٤).

٤ ـ سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول)، الآيات من (١٨ ـ ٢١).

٥ ـ سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، الآيات من (١٢ ـ ١٤).

٦ ـ سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)، الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

٧ ـ سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)، الآية (٣٨).

٨ ـ وهذه الآيات من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) الآيات من (١٢٣ ـ ١٤٠) تَدْعُو إلى تدبُّرها مع آيات هذه السورة.

وبقي بعد هذه الآيات تدبّر ما في السّور التالية:

٩ ـ سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) الآيات من (٥٠ ـ ٦٠) و(٨٩).

١٠ ـ سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)، الآية (٣١).

١١ ـ سورة (فصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول)، الآيات من (١٣ ـ ١٦).

١٢ ـ سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول)، الآيات من (٢١ ـ ٢٦).

١٣ ـ سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول)، الآيتان (٤١ و٤٢).

١٤ ـ سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول)، الآية (٩).

١٥ ـ سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول)، الآيات من (٤ ـ ٨).

١٦ ـ سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)، الآية (٣٨).

١٧ ـ سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول)، الآية (٤٢).

١٨ ـ سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)، الآية (٧٠).

وأسأل اللّه أنْ يتفضّل علَيَّ بتَدبُّرِ جميع هذه النصوص، تدبُّراً تكامليّاً، في ملحق من ملاحق هذه السّور التي لم أتَدَبَّرْهَا بَعْدُ، إنّه هو المُعِين والفتاح الوهّاب.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

﴿عَادٌ﴾: أُمَّةٌ من العرب البائدة، مُسَمَّاةٌ باسْم جَدّهَا «عاد» وهو من سُلالة سامٍ بن نوح عليه السّلام، وكانوا يَسْكنون الأحقاف، وهي أرضٌ من جنوب شِبْهِ الجزيرة العربيّة، تقع في شمال حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمالٌ قاحلة، وهي مُطِلَّةٌ على البَحْرِ يقال لها: «الشّحْر» واسْمُ واديهم «مغيث».

وباقي تدبّر هذه الآية مشابه لتدبّر الآية السابقة (١٠٥) بشأن قوم نوح فلا حاجة للتكرار هنا.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

وقرأ يعقوب: [**وأطِيعُوني**] بإثبات ياء المتكلم.

هذا البيان عن قول هودٍ عليه السّلام لقومه عادٍ في دعوته مطابقٌ تماماً للبيان الذي سَبَق عن قول نوحٍ لقومه في دعوته لهم، فالتدبُّر الذي سَبَق للآيات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصة نوح وقومه يُلاحَظ كلُّهُ هُنَا، إلَّا اسم الرَّسُول، فهُنَاك «نوح» عليه السّلام، وهنا «هود» عليه السّلام.

وهذا مِنْ شواهِدِ وَحْدَةِ رسالَاتِ اللّهِ لعِبَادِهِ، ولو تَعَدَّدَ المُرْسَلُون في الأمم.

﴿هُودٌ﴾: نبيٌّ من أنبياء الله ورسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، بعَثَهُ إلى عاد، القوم الذين سبق التعريفُ بهم آنفاً، وهو منهم نسباً، يَصُلُ نَسَبُه إلى سام بنِ نوح عليه السَّلام، وهو منهم موطناً ولغة.

وجاء في تفصيل نَسَبه ثلاثَةُ أقوال، لم أرَ داعياً إلى ذكرها هُنا.

قول الله عزّ وجلّ في حكايَةِ بَعْضِ ما قالَهُ لقومه:

• ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿أَتَبْنُونَ﴾؟!: استِفْهَامٌ فيه معنَى الإنكار عليهم، لاتِّهَامِهِ إيَّاهُمْ بالعَبَث في قوله لهم: ﴿تَعْبَثُونَ﴾.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي: بكلّ طريق. **الرِّيعُ**: السبيل، سُلِكَ أم لم يُسْلَك ـ الطَّريق المنفرج بَيْنَ الجبَل ـ الطريق عامّة. والظاهر أنّ لفظ «كلّ» لإفادة الكثرة لا الاستغراق.

﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: أي: أتَبْنُونَ علامَةً مُرْتَفِعَةً بكُلِّ طريقٍ لَا مَصْلَحَةَ لكم

فيها، ولا نفعَ فيها، والاشتغالُ ببنائها وإنفاقُ الأموال فيها عَبَثٌ لا فائدة فيه، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا أهل بناءٍ حضاري، وكانوا يتفاخرون ببناء الآياتِ المُرْتَفِعَات، كالتماثيل الّتي يَصْنَعُها بَعْضُ الملوك والرؤساء لأنْفُسِهم، ويَنْصِبُونها في مواضِع بارزة من الطُّرُق والميادين، لِيَشْهَدَها الغادون والرائحون، وكالمِسَلَّاتِ الّتي كان قُدَماء المصريّين يَنْصِبُونَها، للتفاخُرِ بِسُلْطانهم، وعظَمَةِ مُلْكِهم.

إنّها لو كانت أبْنِيةً حَضَارِيَّةً نافِعَةً، لمَا لَامَهُمْ رَسُولُهم هودٌ عليه السَّلامُ عليها، بل هي أبْنِيَةٌ يَبْنُونَها لمجرَّدِ التفاخُرِ والتعاظم، فهي عَبَثٌ لَا نَفْعَ فيه.

العَبَثُ: هو العَمَلُ فيما ليس لَهُ فائِدَةٌ تُرْجَىٰ مِنْه، فتضِيعُ الطَّاقَةُ المبذولَة فيه دون تَحْقيقِ مَصْلَحَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أهْلِ العقل والرُّشد.

• ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: أرى أنّ الكلام هُنا مستأنف، أو هو معطوف على كلّ الجملة السَّابقة، وليس الاستفهام التلويمي مُسَلَّطاً على ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، لأنّ اتّخاذ المصانع الّتي اتّخذوها لَيْسَ مِنْ قبيل العبث، بل فيها مصالح للحياة الدّنيا.

أي: وأنْتُم تَتَّخِذُونَ مصانِعَ، ألَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون.

المصانع: جمع مفردُهُ «المَصْنَعَة» و«المَصْنَع» وهي كلُّ ما يُصْنَعُ من أبنيَةٍ، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحواضِ مياه، ونحوها.

قال الأصْمَعِيّ: العَرَبُ تُسَمِّي القُرَى (أي: كُلُّ مُجَمَّعٍ سَكَني) مصانِعَ، واحِدَتُهَا مَصْنَعَةٌ.

فالمعنى: وأنْتُمْ قدْ أنْعَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عليكم نِعَماً وَفِيرَةً، من مظاهِرِها أنَّكُمْ تَبْنُونَ مُدُناً وقُرًى وقُصُوراً وحُصُوناً وأحواضَ مياهٍ، وهٰذه أنْسَتْكُمْ المَوْتَ والدارَ الآخِرَةَ بَعْدَ البَعْثِ، فتَرَكْتُمُ العَمَلَ فيما يَقِيكُمْ عذاب

اللَّهِ يومَ الدِّين، من إيمانٍ صحيح، وطاعةٍ للَّهِ فيما يأمُرُكم بِهِ وفيما يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وقد كانَ الواجِبُ عليكم أنْ تَشْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بالإيمان الصحيح الصادق، وبالإسلام له والعمل بمراضيه، لَا أن تَسْتَخْدِمُوا نِعَمَ اللَّهِ عليكم في معصِيَتِه.

وعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أكَّدَتْ فِكْرَةَ زيادَةِ نِعَمِ اللَّهِ عليهم الّتي جَعَلَتْهُمْ يُبَالِغُونَ في إنشاء المُنْشَآتِ الحضاريّة الّتي تَفوَّقُوا فيها على الأقوام من حولهم، حتَّىٰ صاروا يَبْنُونَ المبانِيَ العَبَثِيَّةِ للتَّفَاخُرِ، غُلُوّاً في الدَّلَالَةِ على أنَّهُمْ أغْنِياءُ مُتْرَفُون، وتدُلُّ مظاهِرُهُم على أنَّهُمْ نَسُوا الموتَ، وتَوَهَّمُوا أنَّهُمْ خَالِدون، فجاءت عبارة هودٍ عليه السَّلام لهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بمثابَةِ قوله: ألَعَلَّكُمْ تَتَوَهَّمُونَ أنَّكُمْ تَخْلُدُونَ في هذه الحياة الدُّنيا، الّتي تُبَالِغُونَ في اتِّخاذ مَا يُتْرِفُكُمْ فيها ناسِينَ المَوْتَ، والبَعْثَ، ويَوْمَ الدِّين.

كلمة «لَعَلَّ» تَدُلُّ على معنىٰ التوقُّع، وسِيقَتْ هُنا مَسَاقَ الشيءِ المُسْتَفْهَمِ عنه، أي: أتَتَوَقَّعُونَ أنَّكُمْ تَخْلُدُونَ، مَعَ أنَّ الموت يَقِينٌ لَا يَنْزِلُ عن مستوىٰ اليَقِين، وهذا التوقّع أنْسَاكُمُ العَمَلَ للآخرة.

• ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: هٰذِهِ العبارة من هود عليه السَّلام سَاقَها مَسَاقَ عِبَارَتِهِ قَبْلَها.

أي: وقَدْ أنْعَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عليكم بالقُوَّة المُتَفَوِّقَةِ على قُوَىٰ كلِّ الأقوامِ مِنْ حَوْلِكُمْ، حتَّىٰ صِرْتُمْ بِامْتِلَاكِكُمْ لِلْقُوَىٰ الّتي سَبَقْتُمْ بها مَنْ حَوْلَكُمْ جَبَّارِينَ في الأرض، فإذَا بَطَشْتُمْ بأعْدَائِكُمْ أوْ بِخُصُومِكُمْ بَطَشْتُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ جَبَّارِين ظالِمين طُغاةً بُغاةً بغير حقٍّ.

﴿بَطَشْتُم﴾: **البَطْشُ**: «التناولُ بشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة ـ الأخْذُ الشَّدِيدُ في كلّ شيءٍ ـ الأخْذُ القَوِيُّ الشَّدِيد ـ السَّطْوُ في سُرْعَةٍ». تَقُولُ لُغَةً: «بَطَشَ، يَبْطُشُ، ويَبْطِشُ، بَطْشاً».

﴿جَبَّارِينَ﴾: جمع مفرده «جَبَّار»، ويُطْلَقُ على: «مَنْ يُكْرِهُ النَّاسَ بالقُوَّةِ والعُنْفِ على ما يُرِيدُ بغَيْرِ حقٍّ ـ وعلى المُكْرِه المُجْبِرِ بِسُلْطانِهِ ـ وعلى المتكبر، والعَاتِي، والمُتَسَلِّطِ بالقُوَّة».

المعنى: وقَدْ كان الواجب عليكم إذْ أنْعَمَ اللَّهُ عليكُمْ بالقُوَّة السَّابِقَةِ المتفوّقه، أن تقيموا الحقّ والعَدْلَ، لا أنْ تكونوا مُسْتَكْبِرِينَ عُتَاةً تَتَسَلَّطُونَ على الناس بالقُوَّة، وتُكْرِهُونَ الناسَ على ما تُرِيدُونَ بغَيْرِ حقٍّ، وتَبْطِشُونَ جبَّارِين.

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾: أي: فاتَّقُوا عقابَ اللَّهِ رَبِّي وربّكُمْ وربِّ العالَمِين جميعاً، بعَدَمِ استخدام ما أنْعَمَ به عَلَيْكُمْ ممَّا أُتْرِفْتُمْ فيه، ومِنْ قُوىً مُتَفَوِّقَةٍ سابِقَةٍ لِقُوَى مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ، في معصِيَتِهِ وفي ظلم عِبَادِ اللَّه، والعتوّ والطغيان في الأرض، وأطيعُوني فيما أُوصِيكُمْ به، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ، بَلاغاً عن رَبِّكُمْ، فإنَّ في اتِّخاذِكُمْ ما تَقُونَ به عذابَ رَبِّكُمْ، وفي طاعَتِي الّتي يأمُرُكُمْ بها رَبُّكُمْ، سعادةً لكُمْ، ونجاةً مِنْ عذابِهِ، وفَوْزاً عظيماً.

وقد جاءت هذه العبارةُ ملائمةً ملأَمَةً تَامَّة لِلْفِهْمِ الذي فتح اللَّهُ به للآيَتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ (١٢٩ ـ ١٣٠).

وقالَ لَهُمْ أيضاً كما حكىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ عنه بقوله:

• ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

[وعِيُونٍ] في القراءة الأخرى.

أي: إذَا كُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أنَّ ما اتَّخَذْتُمُوهُ مِنْ مُدُنٍ، وقُرَى، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحْوَاضِ مياهٍ، وغَيْرِ ذلكِ ممَّا تفتخرون بأنَّه من صُنْعِكُمْ، ومِنْهُ تَفَوُّقُكُمْ بالقُوىٰ الحربيَّةِ على مَنْ حَوْلَكُمْ، وتَجْهَلُونَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ هُو

الّذِي أمَدَّكُمْ بكلِّ ذٰلِكَ، لِيَبْلُوكُمْ ويَمْتَحِنَكُمْ فيما آتاكم، فانْظُرُوا إلَىٰ مَا أَمَدَّكُمْ به ممَّا تَعْلَمُونَ يَقِيناً أنَّهُ مِنْ عَطَاءِ رَبّكُمْ لَكُمْ، فَقَدْ أمَدَّكُم بأنْعَامٍ، وأنْتُمْ تَعْلَمُون وتُؤْمِنُونَ بأنّه من عطاء الله لكم، وأمَدَّكُم بِبَنِين، وأنتم تَعْلَمُون أيضاً وتُؤْمِنُونَ موقنين بأنه من عطاء الله لكم، وأمَدَّكُم بجنَّاتٍ وعُيُونٍ، وأنْتُمْ تُؤْمِنُونَ موقِنِينَ بأنَّه من عطاء الله لكم، فلا تقابلوا نِعَمَ اللَّه عليكم الّتي أمَدَّكُمْ بها، وجَعَلَهَا وافِرَةً كثيرةً عِنْدَكم، بالكُفْرِ والجحود والعِصْيان.

• ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وأنْتُم قَوْمِي وعَشِيرَتي، مُقامُنَا واحد، وجدُّنا واحد، ولُغَتُنَا واحِدة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يَوْم الدّين، يومُ الجزاء الأكْبَر، الذي تُبْعَثُ فيه الخلائِقُ للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاءِ، مع ما قَدْ يُعَجّلُ اللَّهُ لهم من عقابٍ، إذا كان هذا البيان صادراً بَعْدَ أن أنذرهم هودٌ عَلَيْه السّلام بالعقاب المعجَّل المصحوب بإهلاكٍ شاملٍ، باستثناء الّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

قول اللَّه عزّ وجلّ يَحْكِي رَدَّ كُفَّارِ قَوْمِهِ على مَوْعِظَتِهِ لهم

• ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿سَوَآءٌ﴾: هٰذه بمعنىٰ التَّسْوِيَة، وتأتي بَعْدَها هَمْزَةُ التَّسْوِية، الّتي يُؤَوَّل مَا بَعْدَها بمَصْدَر، والتقديرُ هنا، وَعْظُكَ وعَدَمُهُ سَواءٌ عَلَيْنَا. وبَعْدَ هَمْزَةِ التَّسوية تأتي «أمْ» كما في الآية.

﴿أَوَعَظْتَ﴾: **الوَعْظ**: النُّصحُ بالفِعْلِ أو بالتَّرْكِ، المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنّصْحِ، واتِّبَاع ما هدىٰ إليه فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

قال ابْنُ سِيدَه: الوعظ تَذْكِيرُكَ للإنسان بما يُلَيّن قَلْبَهُ من ثواب وعقاب.

والموعظة: ما يكُونُ به الوَعْظ مِنْ قَوْلٍ أو فِعْلٍ.

والمعنى: لَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْنا يا هُودُ بوَعْظِكَ، فكُفَّ عنه، ويَدُلُّ هذا على أنّه عليه السَّلام قَدْ أكْثَرَ مِنْ وَعْظِهِ لَهُمْ، وتَخْويفهم مِنْ عذابِ ربِّهم، إذا اسْتَمَرُّوا على ما هم فيه من كُفْرٍ وعنادٍ وإصرارٍ على الْتِزَامِ الباطل، واتّباعِهِمْ أهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِم في مَعْصِية اللَّه عزّ وجلّ.

قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى [**خَلْقُ**] بفَتْحِ الخَاءِ وإسْكَانِ اللّام ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

بين القراءتَيْنِ: [**خُلُقُ**] و[**خَلْقُ**] تكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، الظاهر أنّ قَوْمَ هود عليه السَّلام قالُوا لَهُ مقالتين:

المقالة الأولى: قالوا لَهُ فيها: إنَّ ما نَحْنُ فيه هو عادَةُ الأوَّلِينَ من آبائِنَا وأجدادنا، ونَحْنُ على آثارِهِمْ مُقْتَدُون، ولَمْ يُهْلِكِ اللَّهُ آباءَنا، ولَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ ما تُنْذِرُنا بِهِ.

اسْتُعْمِلَ لفظ «الخُلُق» بمعنىٰ العادَةِ المُتَمَكِّنَة، إذ العادة المتأصِّلَةُ بمثابَةِ الخُلقِ الفِطْرِيّ، يكونُ لَهَا سُلْطَانٌ على سُلُوكِ الإنْسَان.

المقالَة الثانية: اتَّهَمُوهُ فيها بأنَّهُ يَفْتَرِي على اللَّهِ بما يُبَلِّغُ مِنْ دِينٍ، وبما يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عذابِ رَبّ العالَمِين، وهذه المقالة دَلَّتْ عليها كَلِمَةُ [**خَلْق**] بمعنىٰ افتراءِ الكذِبِ واخْتِلَاقِهِ، أي: ما هذا الذي تُحَدِّثُنَا به إلَّا افتراءٌ وكَذِبٌ من نوع افتراءِ مَنْ سَبَقَكَ من الأوّلين الّذين زَعَمُوا أنَّهُمْ مُرْسَلُونَ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالَمِين، وهذا الفَهْمُ يَزِيدُ في تَرْجيح أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ أَرْسَلَ لعادٍ رُسُلاً قَبْلَ أنْ يُرْسِلَ إليهم هوداً عليه السّلام، وبه يكُونُ قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ مَحْمُولاً على ظاهِرِهِ بلا تأويل.

ويؤكِّدُ هَاتَيْنِ المقالَتَيْنِ قولُ قومِ هُودٍ عليه السَّلَامُ له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾، أي: لَمْ يُعَذَّبْ آباؤنا مِنْ قَبْلِنَا حتَّىٰ نُعَذَّبَ نَحْنُ، وهذا مَحْمُولٌ على العذاب المعجَّلِ في الحياةِ الدُّنيا، وإذْ نَرَى أنَّ ما تَقُولُهُ لَنَا اخْتِلَاقٌ وكَذِبٌ، فما نَحْنُ بمُعَذَّبِينَ بالعَذَابِ الَّذِي تُنْذِرُنَا به معجّلاً كان أم مؤجّلاً.

قول اللّه عزّ وجلّ:

• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾: أي: فكانَ آخِرُ أمرِهم أنْ كذَّبُوهُ بلا احتمال رَجْعَةٍ عن قرارهم فأهلكناهُمْ[1].

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بهُودٍ عليه السَّلامُ وقَوْمِهِ، جاءت في السُّورَةِ الآيَتَان اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللّه عزّ وجلّ بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كلّ مَجْمُوعَةٍ من اللَّقَطَاتِ المختارات في السورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامِهِمْ، وجاءت الآيَةُ الأولىٰ مِنْهُمَا هنا بَعْضَ آية، فقال الله عزّ وجلّ:

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

وقد سبَقَ تدبُّرُ هذا البيان، فلا حاجَةَ إلى التكرار، ولا شكَّ أن قِصَّةَ هُودٍ عليه السّلام وقومه قد اشتملت على آيَةٍ عظيمةٍ ذاتِ عِبَرٍ وعِظَاتٍ جَلِيلَاتٍ، ومع تلك العِبَر والعِظات فإنَّ أكثر المعنيّين بالمعالجة في السورة وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش، قد وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوس منها، فهم غير منتظرٍ منهم أنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً عن طريق إراداتهم الحرَّة، مَهْما أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

❊ ❊ ❊

---

(١) وقد جاء تفصيل إهلاكهم في نصوص أخرىٰ، يأتي إن شاء اللّه تدبُّرُها في دراسة تكامليّة.

الفَصْل الخامس

لقطات تتعلَّقُ بقصة صالِحٍ عليه السّلام وقومه ثمود

وهي الآيات منَ (١٤١ ـ ١٥٩)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾:

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد (٢١) نصّاً عرضَتْ لقطات من قصة ثمود قوم الرسول صالح عليه السّلام، موزعات في (٢١) سورة، وقد سبق أن تدبّرنا منها ما جاء في (٩) سور، هي (الفجر ـ النجم ـ الشمس ـ البروج ـ قَ ـ القمر ـ صّ ـ الأعراف ـ الفرقان)، وجاء الحديث عنهم موسّعاً في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

وأسأل اللّهُ عزّ وجلّ أن يُمِدَّني بمعُونَتِهِ وفتْحِهِ، حتى أتدبّر كلّ النصوص المتعلقة بهم تدبّراً تكامليّاً، في ملحق من ملحقات السور التي فيها الحديث عَنْهُم، ممّا لَمْ أتَدَبَّرْهُ بَعْدُ.

التدبّر التحليلي:

قول اللّه عزّ وجلّ:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

جاء في عرض اللّقَطات من قِصَّة نوحٍ عليه السّلام وقومه في الآيات (١٠٥ ـ ١٠٩) وفي عَرْض اللّقطات من قِصَّة هود عليه السلام وقومه في الآيات من (١٢٣ ـ ١٢٧)، نظير هذه الآيات الواردات في اللّقطات المختارات لسورة (الشعراء) من قصّة صالح عليه السّلام وقومه، وبما أنَّها متطابقة تَطَابُقاً تامّاً، دالاً على وَحْدَةِ الرِّسَالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ في أصولها للناس، فإنّي أكْتَفِي بما سَبَقَ تَدَبُّرُه للآيات المُتَعَلِّقاتِ بقصّة نوح عليه السَّلام وقَوْمِهِ، فالآياتُ هُنَا مطابقَةٌ للآياتِ هُنَاك، وتَدَبُّرها مُطابقٌ لما سبَقَ بيانُهُ، ولا حَاجَةَ للإعَادةِ، لأنَّها ذاتُ سِباقٍ وسِيَاقٍ واحِدٍ، والمُحَالُ عَلَيْهِ قَرِيب.

قول اللّه عزّ وجلّ في حكايَةِ قَوْلٍ من أقْوَالِ صالحٍ عليه السّلام، في دَعْوَتِهِ لقومه إلى دِينِ اللّهِ الحقّ الّذي جاءَهُمْ به:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

الظاهر من هذه المقالات أنّها من أوَاسِطِ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، ولَيْسَتْ مِنْ أوائلها.

القراءات:

جاء في هذه الآيات قراءتان في [عُيُونٍ] وفي [فَارِهِينَ] إحداهما كما جاء في المصحف، والأخرى كما يلي:

• فقرأ ابن كثير، وابْنُ ذَكْوان، وشعبة، وحَمْزَة، والكسائي: [وَعِيُونِ] بكسر العين، والقراءتان لغتان عربيّتان.

• وقرأ نافع، وابْنُ كثيرٍ، وأبُو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر، ويَعْقُوب [فَرِهِينَ] جمع «فَرِه».

فَارِهِينَ: جمع «فَارِه» اسم فاعل من فعل «فَرُهَ، يَفْرُهُ، فَراهَةً، وفُرُوهَةً»، أي: جَمُل وحَسُنَ، وخَفَّ ونَشِطَ، وحَذِقَ ومَهَر.

فَرِهِينَ: جَمْعُ «فَرِهٍ» صفة مشبّهة باسم الفاعل من فعل «فَرِهَ، يَفْرَهُ، فَرَهاً، فهو فَرِه»، أي: بَطِرَ وأشِرَ واسْتَكْبَرَ بما يَمْتَلِكُ من وسائل رفاهية.

فبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد بيانه، إذ كانوا ذوي خفَّةٍ ونَشَاطٍ، وحِذْقٍ ومَهَارَة، ونَضَارة وحُسْنٍ، بَسَبَبِ ما يَسْتَمْتِعُونَ به من نِعَم وافِرة، وأرْزَاقٍ فاخِرَة، وكانوا مُسْتَكْبِرِينَ بَطِرِينَ أشِرِينَ، يَجْحَدُون الحقّ ويَتَّبِعُونَ الهوى، ويَسْتَكْبِرُونَ على عباد الله.

التدبّر التحليلي:

جاء في هذه الآيات بيَانُ خَمْسِ مقالَاتٍ وجَّهَها صالح عليه السَّلام لقومه ثمود.

المقالة الأولى: دلَّ عليها قَوْلُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

بدأت هذه المقالة باستفهامٍ تَحْذِيريّ مِنْ مَغَبَّةِ إصرارهم علىٰ الكفر، وما هم فيه من سيّئاتٍ، مشيراً به إلى أنّ اللّه العزيز الجبَّار لَنْ يَتْرُكهم آمِنِينَ يَسْتَمْتِعُونَ بما أنْعَمَ عليهم من جنَّاتٍ وعُيونٍ وزُرُوعٍ ونَخْلٍ هي من خَيْرِ أشجارِهِمْ، ذاتِ طَلْعٍ فاخرٍ.

﴿أَتُتْرَكُونَ﴾؟: اسْتِفَامٌ تَحْذِيريٌّ، يُثِيرُ به في نفوسهم وقلوبهم الخوف

من عقاب اللَّه المعجَّل لهم على كُفْرِهِمْ وقبائح أعْمَالِهِمْ، ومعاصيهم لبارئهم، وهٰذه أمورٌ تَسْتَدْعِي بحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، أنْ يَسْلُبَهُمْ اللَّهُ ما هم فيه من نِعَمٍ وافِرَة، باطِنَةٍ وظاهرةٍ.

فمن النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ «الأَمْن» دَلَّ عليها قولُهُ لهم: ﴿ءَامِنِينَ﴾، أي: أيَتْرُكُ لكُمْ ربّكُمْ نِعْمَةَ الأمْنِ، وأنْتُمْ تَكْفُرُونَ به، وتَعْبُدُونَ من دُونِهِ شركاء، وتَعْصُونَهُ بالظُّلْمِ والعُدْوَانِ، والبَغْيِ والفُجُورِ في الأرْض. ومن سُنَّتِهِ في عباده أنْ يُنْزِلَ عُقُوبَتَهُ ويَسْلُبَ نِعَمَهُ عَنِ الّذِينَ تَصِلُ خطايَاهم إلى مِثْلِ الحال الّتي وصَلْتُمْ إلَيْهَا.

ومِنَ النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ الجنَّاتِ، وهي الحدائق المكتظَّة بالأشجار، ذواتِ الظلِّ والثمار.

ومِنَ النِّعَم الّتي كانوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ العُيُونِ الّتي كان اللَّه عزّ وجلّ يُفَجِّرُها لهم، فَيَشْرَبُونَ منها ماءً حسناً، ويَسْقُون منها أنْعَامَهُمْ وزُرُوعَهُمْ.

ومن النّعم التي كانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بها نِعْمَةُ الزُّرُوعِ المُخْتَلِفَةِ لَهُمْ ولأنْعَامِهِمْ ودَوَابِّهِم، إذْ يُنْبِتُهَا لهم، ويَحْمِيها لهم من الآفاتِ والجوائح، ولَوْلَا حفْظُ اللَّهِ العليمِ الحكيمِ الرَّحيم لها، لتَعَرَّضَتْ للآفاتِ والجوائح المتلفة والمُدَمِّرَة لها.

وخصَّ عليه السَّلام بالذكر نِعْمَةَ أشجار النَّخْلِ ذواتِ الطَّلْعِ الهَضِيم، لأنَّ أشجار النَّخِيلِ أكْرَمُ الأشجار وأنْفَسُهَا عِنْدَ سكان شبه الجزيرة العربيَّة منذُ ما بَعْدَ عَصْرِ نوحٍ عليه السَّلام.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثَمرُهَا نَاعِمٌ لَطِيفٌ لَيِّنٌ مَرِيء. **أقول**: وهو أيضاً سَهْلُ الهَضْم في الجوف، لأنّ «هَضِيماً» بمعنىٰ مَهْضُوم، والطّعام المهضوم هو الّذي يَسْهُلُ في المَعِدَةِ تَفْتِيتُهُ، ويَسْهُلُ في الأمعاء امْتِصاصُ عناصره النافعة، وانْحِدَارُ فضَلَاتِهِ.

والأصْلُ في لفظة (الطَّلْع) أنّها غلاف يشبه الكوز، ينفتح عَنْ حبٍّ منضود، فيه مادّة إخصاب النخلَة. ثم أُطْلِقَ على كلّ ما يَطْلُعُ في الشجر من ثمرٍ توسُّعاً.

والتوسُّعُ في دلالَاتِ الكلماتِ العربيّة له نظائر كثيرَة في اللّسَان العربي.

المقالة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، وفي القراءة الأخرى: [فَرِهِينَ].

وقد سبَقَ قريباً تحليلُ معنى [فَارِهِين] و[فَرِهِينَ] وأنَّهُمَا قراءتان متكامِلَتان في الدَّلَالَةِ على المعنىٰ، فدلّت قراءة «فَارِهِين» علىٰ أنَّهم حاذقون ومَهَرَة، وعلى أنَّهُمْ مُسْتَمْتِعُونَ بنِعَمٍ وافِرَة فَهُمْ بها نَضِرُون تَظْهَرُ عليهم آثار الرفاهية، ودلَّتْ قراءة «فَرِهِين» على أنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ أشِرُونَ بَطِرُون طَاغُون.

وكانت لهم في مدائنهم في الحجْر أعْمالُ عُمْرَانِيّة ما زالَتْ بَعْضَ آثارِهَا ظاهِرَةً في جبال واديهم، فكانوا يَقْطَعُونَ الصَّخْر، ويَنْحِتُونَهُ، ويَبْنُونَ به مساكِنَ لَهُمْ تَصْمُدُ طَوِيلاً تُجاه عوارِضِ الأيام، بَيْنَمَا كانت مَسَاكِنُ أهل القُرَىٰ مِنْ حَوْلِهِمْ من اللَّبِنِ والطّين، وهِيَ لا تَصْمُد للأحداث كما تَصْمُدُ الصُّخُور، وكانُوا يَنْقُبُونَ الجبال فيَتَّخِذُونَ لهم داخِلَها بيوتاً، ومدافِنَ لعظمائهم.

وكانت مهاراتهم العمرانيَّةُ ذات هدفين:

الهدف الأول: الترف، بما يَصْنَعُونَ لأنفسهم من مُتْرِفات.

الهدف الثاني: الاستكبارُ وحُبُّ العلُوّ في الأرض.

فقال لهُمْ صالح عليه السَّلام نبيُّهم ورسُولُهُمُ الّذي هو منهم نَسَباً،

ولغة، ومَوْطناً، مُحَذّراً لَهُمْ مِنْ عقاب اللَّهِ، ومحذّراً لهم مِنْ بأس اللَّهِ ونِقْمَتِهِ، أتَتْرُكُونَ أيضاً فيما هٰهُنَا تَنْحِتُونَ من الجبال بيوتاً فارهين؟!.

أي: احْذَرُوا فإنّ رَبّكم سيُنْزِلُ بكُمْ نِقْمَتَهُ وبأسَه ويَسْلُبُكُمْ نِعَمَهُ، إذا لم تُؤْمِنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً وتُسْلِمُوا له وتُطِيعُوا.

المقالة الثالثة: دلَّ عليها قولُ اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: فاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ وعذابَهُ، واتّقوا أن يَسْلُبَكُمْ رَبّكُمْ ما يُنْعِمُ به عَلَيْكُمْ.

جاء الأمر بتقوى اللَّه في هذه المقالة الثانية، مرتّباً ومُتَفَرّعاً على الاستفهام التحذيري من عقاب الله ونقمته الّذي جاء في المقالَةِ الأولى، فالفاء للترتيب مع التفريع.

وقد سبَقَ عدَّة مرَّاتٍ شَرْحُ معنىٰ «التقوىٰ» وخُلاصَتُه أنْ يَجْعَلَ المتَّقِي بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يُؤْذِيهِ، أو يَضُرُّهُ، أو يُؤْلِمُهُ، أو يُحْزِنُهُ، وِقَايَةً تَحْفَظُهُ وتَحْمِيه، وتَقْوَىٰ اللَّه تكون بصِدْقِ الإيمانِ به، والإسلامِ له، والعَمَلِ بمراضِيه فيما أمَرَ به أو نَهَىٰ عنه.

المقالة الرابعة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: وأطيعُوني فيما أوصيكُمْ به، وفيما أنْهَاكُمْ عنهُ بَلاغاً عن اللَّه ربّي وربّكم وربّ العالمين، فطاعَتُكُمْ لي هي من طاعتكم للَّهِ ربّكُمْ، لأنّ اللَّه عزّ وجلّ يأمُرُكُمْ بطاعَةِ رسُولِهِ المؤيّدِ مِنْ قِبَلِهِ بما يُثْبِتُ صحَّةَ نُبُوَّتِهِ، وصِدْقَهُ في أنّه رَسُولُ رَبّكُمْ إليكم.

المقالة الخامسة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

المُسْرِف: هو مَنْ يَتَجَاوَزُ حَدَّ الحِكْمَةِ والحقّ في تَصَرُّفاتِهِ، ويتجاوز ما يقتضيه العقلُ الرَّاجِحُ. يقال لغة: «أسْرَفَ، يُسْرِفُ، إسْرافاً»، أي: جاوز حَدَّ الحقّ والحِكْمَةِ وما يَقْتَضِيه العَقْلُ الرّاجح. وجَهِلَ، وغَفَلَ.

ومِنْ شَأْنِ المُسْرِفِ أنْ يَفْعَلَ الشُّرُور، ويرتكِبَ الحماقات، ويَقْتُلَ بغَيْرِ حقٍّ، ويَلْتَزِمَ الباطل، ويكُونَ كَفوراً جَحُوداً، ولا سيما إذا كانَتْ له مكانَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ ذاتُ وَزْنٍ، أوْ لَهُ قُوَّةٌ مَرْهوبَةٌ، أو كانَ ذا ثَرَاءٍ ماليٍّ واسِعٍ، أو كان ذا حُظْوَةٍ عِنْدَ ذَوي السُّلْطان.

وكان الكبراءُ المُسْرِفُونَ في ثَمُودٍ مَعْرُوفِينَ بتَصَرُّفاتِهِم الآثِمَة الظَّالِمَةِ الطَّاغِيَةِ الباغِيَةِ، وكانُوا يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ لتَقْوِيَةِ سُلْطانِهِم، وتَحْقِيقِ مصالحهم الخاصَّة، وزيادَة ما يَمْتَلِكُونَ من ثَرواتٍ، ويَضَعُونَ الشعاراتِ والأنظمة الّتي يوهمون بها أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وهُمْ في الحقيقة يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ولَا يُصْلِحُونَ.

وهٰذا هُو شأن المُسْرِفين الطُّغاةِ في كلِّ أُمَّةٍ، وفي كُلِّ عَصْرٍ، يُنَافِقُونَ الشُّعُوبَ بظَواهِر إصْلاحيَّةٍ خادِعَةٍ، وهم في الحَقِيقَة يُفْسِدُون، مُطَبِّقِين مبادئَ شيطانيَّة، وسَالِكِينَ مسالِكَ إبْلِيسِيَّة، ويَجْعَلُونَ أنْفُسَهُمْ آلِهَةً تُعْبَدُ مِن دُونِ اللَّه، فيَضَعُونَ القوانينَ المُفْسِدَة الضَّارَّة، الّتي تخدُم مصالحهم، وتُمَكِّنُ سُلْطَانَهم في الأرض، وتحقِّقُ لَهُمْ أهْوَاءَهُمْ وشهواتهم، وتُرْضِي إمامَهُمُ الأكْبَرَ إبليس عليه اللَّعْنَةُ إلى يوم الدِّين، حتَّى يكون هو وجنوده في قاع الجحيم.

الفَسَادُ: ضِدُّ الصَّلاح. **والإفْسَادُ**: تحويلُ الصَّالِحِ مِنْ كَوْنِهِ نافعاً مفيداً، إلى كَوْنِهِ ضارّاً أو مُؤْذِياً، ويأتي بمعنىٰ إتلاف الصَّالح، كإحراق الأشجار النَّافِعَة، وهَدْمِ المباني المفيدة، وقَتْلِ العُلَماء، وإثارة الرَّعَاعِ الجَهلَةِ الحَمْقَىٰ على الحُكَماءِ، وسَجْنِ وَتَعْذِيبِ الأبْرياء.

وبهٰذه المقالَة نهىٰ صالحٌ عليه السَّلام عامَّةَ ثَمُودٍ، عَنْ طاعَةِ كُبَرَائِهِمْ ذوي السُّلْطانِ فيهم، المُسْرِفينَ الذين يُفْسِدُونَ في الأرْضِ، ويُوهِمُونَ بشِعَارَاتِهِمْ الكاذِبَاتِ المزَيَّنَاتِ بزُخْرُفِ القول، أنَّهُمْ يُصْلِحُونَ.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَحْكِي بَعْضَ أَقْوَالِ كُبَرَاءِ ثَمُودَ في رَدِّهِمْ دَعْوَةَ رَسُولهم صالحٍ عليه السَّلام إلى دِينِ اللَّهِ الحقّ:

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارةٌ فيها قَصْرٌ بأداة «إنَّما» أي: ما أنت إلّا مِنَ المُسَحَّرين، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصّفات بالنسبة إلى ادّعائك الرسالة إلّا أنك مُسَحَّر.

«المُسَحّرُ»: الَّذي سُحِرَ مَرَّةً فمرَّة حتَّىٰ فَسَدَ عَقْلُهُ ومَسَّهُ الخَبَلُ. يُقالُ لُغَةً: «سَحَّرَ السَّاحِرُ فلاناً»، أي: سَحَرَهُ مَرَّةً فَمَرَّةً حتَّى تَخَبَّلَ عَقْلُهُ، وضاعَ رُشْدُه.

فاتَّهَمَ كُبراءُ ثمودٍ رَسُولهم صالحاً عليهم السلام بأنَّه مُسَحَّرٌ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُور، أي: إنّ السِّحْرَ الّذي سُلِّط عَلَيْهِ جَعَلَهُ مُخْتَلَّ العقل مخبَّلاً، لا يُقَدِّرُ خُطُورَةَ ما يَقُولُ بِشَأْنِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، وواجَهُوهُ بهذا الاتّهام، ولم يَقُولُوهُ في غَيْبَتِهِ.

وتَعَلَّلُوا لِرَفْضِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ بأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوهِمِينَ بأنّ كَوْنَهُ بَشراً يُنَافِي كَوْنَهُ نَبِيّاً ورَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ قِبَلِ ربِّ العالَمِين، فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: لَيسَ لكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الخارجَةِ عن نِظَامِ البَشَرِ، كعَدَم حاجَتِكَ إلى الطعام والشّراب، وعَدَم حاجَتِكَ إلى أنْ تَتزَوَّجَ، مَا يُؤَهِّلُكَ لأَنْ تَكُونَ نَبِيّاً تَتَلَقَّىٰ الوَحْيَ عن اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، ولِأَنْ تَكُونَ رَسُولاً تَحْمِلُ رِسالةً مِنْهُ وتُبَلِّغَنَا إيَّاها.

وتعلُّلُ كُفَّارِ الأُمَمِ بِبَشَرِيَّةِ أَنْبيائهم ورُسِلِهِمْ ظاهرةٌ مألُوفَةٌ، على الرُّغْمِ مِنْ فَسَادِ مَا تَعَلَّلُوا به بمقاييس العَقْل السَّوِيّ، والحُجَجِ المنطقية البرهانية.

وقد سَبَقَ أنْ أَوْضَحْتُ هذا في الملحق الثالث من ملاحقِ تدبّر سورة

(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بعنوان: «بيان اعتراض الأُمَمِ على بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ في القرآن»[1].

وبَعْدَ أن رَفَضُوا نُبُوَّتَهُ ورِسالَتَه تَعَلُّلاً بِبَشَرِيَّتِهِ، قالُوا لَهُ على سَبِيلِ التَّحَدِّي:

• ﴿... فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: فَأْتِ بعلامَةٍ مِنَ العجائبِ الخوارِقِ المُعْجِزَة، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في أَنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ رَبّ العالمين.

جاء في العبارة الدَّالَّة على مقالتهم استعمال كَلِمَة «إنْ» المُشْعِرَة بأَنَّهُمْ يَشُكُّونَ بَلْ يَعْتَقِدُونَ بأنَّه عاجِزٌ عنْ أنْ يَأْتِي بآيَةٍ خارِقَةٍ مُعْجِزَة.

فاسْتَجَابَ رَسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام بإذْنٍ مِنْ رَبّهِ لِطَلَبِهِمُ المُعْجِزَةَ الحِسِّيَّة على ما يُحَدِّدُون.

وأشارت الدلائل الضمنيَّةُ للنُّصُوص إلى أنَّه عَرَضَ عَلَيْهِمْ ما يَخْتَارُونَ من آيَةٍ معجزة، وكانُوا مُعْجَبِين بالإبل.

فطلَبُوا أنْ يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَظيمَةٍ عيَّنُوهَا ناقَةً ذاتَ أوْصَافٍ عيَّنُوهَا، فقال لهم عليه السّلام: نعم. فدَعَا رَبَّه، فأخرج اللَّه لهم النّاقة من الصخرة كما طَلَبُوا، فآمَنَ بَعْضُهُمْ، وأَصَرَّ أَكْثَرُهُمْ على الكفر.

وأبان لهم صالحٌ عليه السَّلام مسؤولياتهم وواجباتهم نحوها، وقال لهم: يكونُ لهذه الناقة يَوْمٌ تَشْرَبُ فيه الماء الذي تَشْرَبُونَ منه، واليَوْمُ الثاني يكونُ لكم، فالماءُ قِسْمَةٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا على التَّنَاوُب.

وقال لهم: يَجِبُ عَليكم أنْ تَذَرُوهَا تأكُلُ من أرضِ اللَّه ما تشاء، وأنْ لَا تَمَسُّوهَا بسُوء، وأنْ لَا تَمَسُّوا الماء المخصَّصَ لها في يومِهَا بسُوءٍ، وإلَّا نزل بكم عذابُ يَوْمٍ عظيم.

---

(١) انظر المجلد السادس ص(٢٦٣) وما بعدها حتى الصفحة (١٨١).

وشدّدَ صالحٌ عليه السَّلام في تَحْذِيرِهِمْ، وقال لهم: احْذَرُوا ناقَةَ اللَّهِ وسُقْيَاهَا، أنْ تَمَسُّوا شيئاً من ذلك بسُوءٍ، فقَدْ أخْرَجَها اللَّهُ لكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ، وعلى الأوصافِ الّتي حدَّدْتُمْ، ومن الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنْتُمْ، فمَعْصِيَتُكُمْ بَعْدَ كلِّ هذا مَعْصِيَةُ عِنادٍ ومُكابَرَة، دُون أنْ يكونَ لكُمْ فيها شبهة عُذْرٍ ما.

والتزمَتْ ثمُودُ بالواجبات الّتي كانت صعبة عليهم، خوفاً من أنْ يُنْزِلَ اللَّه بهم عذاب يَوْمٍ عظيم.

ثُمَّ تأثَّرَتْ مصالِحُ كثيرةٌ لهم بهذا الالتزام، فعزَموا على أن يتخلَّصُوا مِنَ النَّاقةِ بعقْرِهَا وذَبْحِهَا، واسْتَهَانُوا بإنْذَارَاتِ رَسُولهم، فحرَّضُوا أشقاهم على قتلها، فأخَذَ سِلَاحَهُ، وتَطاوَلَ مُسْتَكْبراً، وعقَرَ النَّاقَة.

وقد سبق في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) ذكر بقيَّةِ التفصيلات.

وجاء هنا في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بيان موجَزٌ جدّاً عن آيَةِ النّاقَةِ، وعَقْرِ ثمودٍ لها، في قول اللَّه عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ...﴾:

﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾: **الشِّرْبُ**: الحظُّ من الماء. وقيل: وقْتُ الشِّرْبِ، ونَوْبَةُ الاستقاء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: فيقْبِض عَلَيْكُمْ عذابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤلِماً لكُمْ بعُنْفٍ وشِدَّةٍ، في يَوْمٍ عَظِيمِ الأهوال، عظيم وسائِلِ التعذيب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: **العَقْرُ**: هو قَطْعُ إحْدَى قوائم البعير لِيَسْقُطَ على الأرض،

حتَّى يتمكَّنَ العاقِرُ مِنْ نَحْرِهِ. ويأتي العَقْر بمعنى ذَبْحِ الحيوان، والظاهر أنَّهُمْ عَقَرُوهَا فَذَبَحُوهَا أو نَحَرُوهَا.

﴿فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾: تَدُلُّ هٰذِهِ العبارة على أنَّ عَقْرَهُمْ للناقَة قد كان قُبَيْلَ الغُرُوب، أو بَعْدَهُ. وأنَّ أمارات نزول عذاب اللَّهِ فيهم بَدَأَتْ مع صَباحِ اليوم التالي فنَدِمُوا.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾: دلَّتْ الفاء هُنا على أنَّ أخْذَ العَذَاب لَهُمْ قد كانَ عَقِبَ نَدَمِهِمْ، فلَمْ يَطُلْ الزَّمَنُ الفاصِلُ بَيْن نَدَمِهِم وأخذ العذاب لهم.

وقد جاء في نصوصٍ أخرى أنّ اللَّه قَدْ أهْلَكَهُمْ بصَيْحَةٍ مَصْحُوبَةٍ بصاعِقَةٍ طاغيَةٍ لا تُبْقِي ولَا تَذَر.

وبقيت قصَّتُهُمْ تُرْوَىٰ، ومَسَاكِنُهُمْ تَدُلُّ عَلَيْهم.

وفي خِتام هذا الفَصْلِ المتعلّق بصالح عليهِ السَّلام وقَوْمِهِ، جاءت في السُّورَةِ الآيتان اللَّتَانِ جعَلَهُمَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمثابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كلّ مَجموعَةٍ من اللّقطاتِ المختاراتِ في السُّورَةِ من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، وجاءت الآيَةُ الأُولى منهما هنا بَعْضَ آية، فقال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

وقد سبق تدبّر هذا البيان فلَا حَاجَةَ إلى التّكرار، ولا شكَّ أنَّ قصَّةَ صالح عليه السّلام وقومه، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذات عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات، ومع تِلْكَ العِبَرِ والعظاتِ فإنَّ أكْثَرَ المعنيّينَ بالمعالجة في السُّورَة، وهم كُبَراء كُفَّارِ قُرَيْش، قد وَصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فهم غير مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، مهما أُمْهِلُوا وعُولجوا.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس
لقطاتٌ تتعلَّق بقصَّةِ لُوطٍ عليه السّلام وقومه
وهي الآيات من (١٦٠ ـ ١٧٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

تمهيد:

جاء ذكر «لوط» عليه السّلام وقومه في (١٥) نصّاً في القرآن المجيد، من (١٥) سورة، وجاء في معظمها ذكر لقطاتٍ من قِصَّتِهِ مع قومِهِ، متكاملات فيما بينها، وقد سبقَ تَدَبُّر هٰذه النصوص تدبُّراً تَكَامُلِيّاً في الملحق الخامس من ملاحق تدبّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)[1]. وإذْ أُحِيلُ على هذا المُلْحَقِ في التدبّر التكاملي للنصوص بشأن لُوطٍ عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، فإنّي أقتصر هُنَا على تَدَبّر فقرات هذا النصّ الوارد في سورة (الشعراء) إذْ قد سبق تدبُّره مع سائر النصوص بصورة تكاملية.

اجتبىٰ اللَّه عزّ وجلّ «لُوطاً» ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، فجعَلَهُ نَبِيّاً، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إلى أهل «سَدُوم» وكانت لهم خَمْسُ قُرىٰ في مكان

---

(١) انظر الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١) من المجلد الخامس.

البَحْر الميّتِ في فِلْسطِين، وكانوا قوماً كفرَةً مُشْرِكين، وكان من رذائلهم تواطُؤهم على فعل الخبائث، ومنها إتيانُهم الذُّكرانَ شَهْوَةً من دون النساء، فرَفَضُوا دَعْوَةَ رَسُولهم، فأهْلَكَهُمْ اللَّهُ وأمْطَر عليهم حجارَةً حارَّةً قاتِلة، وقَلَبَ ديارهُمْ فجعلَ عالِيَهَا سَافِلَها، وخَسَفَ بهم الأرض.

التدبُّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾:

هذا البيان عن لوط عليه السّلام مطابقٌ تماماً للبيان الذي سبق عن نوح، وهود، وصالح، عليهم السَّلام، وجاء فيه أنَّهُ أخوهم مع أنّه ليس منهم نسباً، إنّما كان مُواطِناً، وكانت زوجته منهم.

فالتدبُّر الذي سبَقَ للآيات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصّة نوح وقومه، يلاحظ كُلُّهُ هنا إلّا اسم الرسول.

وهذا من شواهد وَحْدَةِ رسالَاتِ اللَّهِ لعباده، ولو تَعَدَّدَ المُرْسَلُون في الأُمم.

قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لبَعْضِ ما قال «لُوطٌ» عليه السَّلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾:

كلمة «الذّكران» أخف من كلمة «الرجال» الّتي جاءت في نص سورة (الأعراف) لِأنّها قد تُحْمَلُ على الغِلْمَان، وفيها دلالَة على أنّ هذا التأنيب قد كان في المرحلة الأُولَى من تلويمِهِ لهم، على هٰذه الشنيعة من أفعالهم الشائعة في مجتَمعهم بوقاحة.

والاستفهام الذي في عبارة ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾؟! استفهامٌ خارجٌ عَنْ أصلِ دَلَالَتِهِ الّتي هي طَلَبُ الإفهام، إلى مَعْنَىٰ الإنكار عليهم، وتلويمهم وتأنيبهم على ممارسة هٰذه الفاحِشَةِ بوقاحَة.

والمعنى: أتأتُونَ الذُّكرانَ من الناس في أدْبارهم حَيْثُ القَذَارَاتُ، وتَذَرُونَ مَكان الطهارة والنقاء الّذي خلقه لكُمْ ربُّكُمْ في فُرُوجِ أزواجِكُمْ من النساء.

وتدلُّ عبارة: ﴿. . . بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ على أنّ قومه رَدُّوا عَلَيْهِ قائلين: لَسْنَا الوحِيدين بَيْنَ النَّاس في ممارَسة هٰذه العادة لتحقيق لذَّاتِ الفُرُوج، فَفِي كُلّ الأُمم أُناسٌ يُمَارِسُونَها، فقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: أي: بَلْ أَنْتُمْ انْفَرَدتم في ممارسة هٰذهِ القبيحة الشَّاذَّة بجُرْأَةٍ ووقَاحَةٍ، إذْ تجاوزْتم الحُدُودَ النِّسْبِيَّة الَّتي توجَدُ عِنْدَ غيركم من أهْل الفجور من الأمم كمّاً وكَيْفاً.

يقال لغة: «عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، فَهُوَ عادٍ»، والجمع «عَادُون» أي: تجاوز الحدَّ المحتَمل عادةً في التجاوز الَّذي يفعله العصاة. والمعنى تجاوزتُمْ في انحرافِكُمْ وشُذُوذِكم ما عَلَيْهِ غَيْرُكُمْ، بِنِسْبَةِ عَدَدِ الأفراد المنحرفين الشّاذّين في كلّ أُمَّة، وفي كيفيَّةِ مُمَارَسَةِ هذا الشُّذُوذِ مُجاهَرَةً ووقاحَةً وعُدْواناً على غَيْرِ المنحرفين الّذين يَسُوؤُهم أنْ تُمَارَسَ مَعَهُمْ هٰذِهِ الفاحِشة.

أي: بل أنتم قومٌ ظالِمُونَ مُتَجاوِزُونَ حُدُودَ الفواحِشِ الّتي يَعْصِي بها عُصَاةُ النَّاس لِرَبِّهم.

وفي مرحلة متأخِّرَةٍ مِنْ دَعْوَةِ «لُوطٍ» عليه السَّلام قومه إلى دين اللَّه الحقّ، قالوا له ما جاء بيانُه في الآيَةِ التالية:

• ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

اللّام في ﴿لَئِن﴾ مُوطّئة للقسم، أي: نُقْسِمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عَنْ دَعْوَتِنَا إلى دِينِكَ، وتَأنِيبِنا والتَّشْنِيعِ علينا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أرْضِنَا أنْتَ ومَنْ هُوَ على دينِكَ وطَرِيقَتِكَ.

ولم يجد «لوط» عليه السّلام وهو مُهَدَّدٌ بالإخراج القَسْرِي من كلّ أرْض «سَدُوم» إلّا أنْ يُعْلِنَ سَخَطَهُ وعَدَمَ رِضاهُ عَنْ أعمالهم المنكرة القبيحة الشَّنِيعَة، ويقول لهم ما جاء بيانه في الآية التالية:

• ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: إنّي لِعَمَلِكُمْ الّذي أنْكَرْتُهُ عليكم، مُبَلّغاً رِسالَاتِ رَبّي من الكارهين المُبْغِضِينَ، المستنكرين الهاجرين.

يقال لغة: «قَلَىٰ الشَّيْءَ، وقَلَىٰ فُلَاناً، يَقْلِيهِ قِلىً» أي: أبْغَضَهُ وهجره.

ودعا «لوطٌ» عليه السَّلامُ ربَّهُ أنْ يُنَجّيَهُ وأنْ يُنَجِّيَ أهْلَهُ مِنْ مَغَبَّةِ ما يَعْمَلُ قَوْمُه، مُدْرِكاً أنَّهُمْ مُهْلَكُونَ لَا مَحالَة، فقال مَا جاء بيانه في الآية التالية:

• ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

أي: نَجّنِي وأَهْلِي مِنَ العقابِ والعَذَابِ الّذي سَيَنْزِلُ بِقَوْمِي، جزاءَ ما يَعْمَلُونَ من شِرْكِيَّاتٍ، وقَبائح ومُنْكَراتٍ.

ويظهر أنَّه أدْخَلَ زَوْجَتَهُ في عُمُومِ دُعَائِهِ، لأنَّها لَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ الخبائث والمنكراتِ، على الرُّغم من كفرها، وكَوْن هواها مَعَ قَوْمِهَا، إلَّا أنَّ قضاء اللَّهِ عزَّ وجلَّ شَمَلَها بأنْ تكونَ مع الهالكين من أجْلِ كُفْرِهَا، وخيانتها لزَوْجِهَا بإبْلَاغِ قَوْمِهَا ببَعْضِ ما يَجْرِي في داره، وببَعْضِ تَصَرُّفاته.

وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّهُ نَجّاهُ وأهْلَهُ أجْمَعِينَ، إلّا امْرَأَتَهُ العجوز فَقَدْ

جَعَلَهَا في الغابرين الهَالكين، وأَنَّهُ دَمَّرَ الآخَرِينَ، وأَمْطَرَ عليهم من سماء أَرْضِهِمْ حِجَارَةً مُهْلِكَة، فقال تعالىٰ:

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾:

أي: فاسْتَجَبْنَا له دُعاءَهُ، فنَجَّيْنَاهُ وأهْلَهُ أجْمَعِينَ، إلَّا عَجُوزاً مِنْ أَهْلِهِ هي امرْأَتُهُ كائِنَةً في الغَابِرِين، الهالكين، والباقين في أرْضِهِمْ لم يُنْجِهِم اللَّه.

الغابِرُ: يأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: الماكث الّذِي لَا يَتَحَوَّل.

المعنى الثاني: الذاهِبُ الماضِي الذي لم يَبْقَ لَهُ وُجُود.

وكِلَا المعنيَيْنِ يَنْطَبِقان على امرأة لوط، فقَدْ أثبتها اللَّهُ عزّ وجلّ في أرْضِ قَوْمِهَا، ولَمْ يُنَجِّهَا مَعَ من أنْجى مِنْ أَهْلِهِ، وجَعَلَها تَمْضِي هالِكَةً مع قَوْمِهَا فَلَمْ يَبْقَ لهَا وجُودٌ ضِمْن الأحْياء، لأنَّها كانت كافِرَةً ومع هوىٰ قَوْمِهَا، فَهِيَ لا تَسْتَحِقُّ أنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ دُعَاءَ «لوط» عليه السّلام ضِمْن عموم أهله، إذْ كانَتْ على غَيْرِ دِينِهِ وعلى غَيْرِ طريقَتِهِ.

وبعدَ أنْ أخْرَجَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لُوطاً وأهْلَهُ، وهما ابْنَتَاهُ، مِنْ أرْضِ «سَدُوم» وأوْصَلَهُمْ إلى مَكانٍ لَا تَصِلُ إلَيْهِ وسائل إهْلَاكِ قومِهِ أهْلَكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قَوْمَهُ، فقال تعالىٰ في النصّ:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حَرْفُ عَطْفٍ دَلَّ على التَّرَاخي بَيْنَ خُرُوجِ «لوط» عليه السَّلامُ وأهْلِهِ من أرْضِ «سَدُوم» لإبْعَادِهِمْ عَنْ دائِرَةِ نُزُولِ العَذَاب، فلمَّا اسْتَقَرُّوا في مَكَانٍ آمِنٍ بَعِيد، أنْزَلَ اللَّهُ وسائِلَ تَدْمِير قَوْمِهِ، وهُمْ كُلُّ الآخَرِينَ بَعْدَ «لُوطٍ» والنّاجين من أهله.

التَّدْمِيرُ: هو الإهلاك باستئصالٍ، ومَحْوُ المباني وآثارها، حتَّىٰ لا يُرَىٰ مِنْها شيء.

وأصْلُ معنىٰ التَّدْمِير: تَحْطِيمُ الشيءِ المُدَمّر، على وَجْهٍ لَا يُرْجَى بَعْدَهُ إصْلاَحُه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ جاءَ هُنَا المَطرُ مُنَكَّراً مَقْرُوناً بعِبَارَةِ ذَمٍّ له، وجاء في نصٍّ آخر بيان أنّ المطرَ الذي أنْزَلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على قوم «لوط» قد كان «حجارةً من سجِّيل»، أي: حجارة أصلُها طِينٌ تحجَّرَ، ورُبَّما كانَ للنار مع موادَّ كالكبريت أثرٌ في جَعْلِهِ مُتَحجّراً مُحْرقاً.

وجاء في نصٍّ آخر بَيانُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَلَبَ عليهم أرْضهم، فجَعَلَ عالِيَها سافِلَها.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: الفاء للتفريع الدّال على سوء عاقبة المفسدين، «سَاءَ» فعل لإنشاء الذّمّ على سبيل المبالَغَة، ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فاعل «سَاء»، والمخصوص بالذَّمّ محذوف، والتقدير: مَطَرُهُمْ، دلَّتْ عليه عبارة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

ودلَّتْ عبارة: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ على أنْ «لُوطاً» عليه السَّلَامُ، كان قد أنْذَرَهُمْ بعَذَابٍ يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِهِمْ، فيُهْلِكُهُمْ به إذا لم يُؤْمِنُوا ولم يُقْلِعُوا عن قبائحهم وفواحِشِم.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بلُوطٍ علَيْهِ السّلام وقومه، جاءَت في السُّورَة الآيَتَانِ اللّتان جَعَلَهُمَا اللَّهُ عزّ وجلّ بمثابَةِ فاصلٍ يُكَرَّرُ في نهايَةِ كُلّ مجموعة من اللّقطاتِ المختارات في السُّورَةِ، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

وقد سبقَ تَدَبُّر هذا البيان في المرَّة الأولى مِنْ إيراده في السورة، فلا حاجَة إلى التّكرار.

ولا شَكَّ أنَّ قِصَّةَ لُوطٍ عليه السَّلام وقَوْمِهِ، قد اشتملَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وعظاتٍ جَلِيلاتٍ، ومع تِلْكَ العِبَرِ والعظاتِ فإنَّ أكْثَرَ المعنيّين بالمعالجة في السّورة، وهم كُبَراءُ كفّار قُرَيْش، الّذين قال اللّه لرَسُولِهِ بشأنهم: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ قد وَصَلُوا إلى حالَةٍ مَيْؤُوسٍ من إيمانهم مَعَها عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة، فَهُمْ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ بحَسَبِ واقِع حالهم النفسيّ أنْ يُؤْمِنُوا، مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا.

❋ ❋ ❋

الفصل السّابع
لقطات تتعلّق بشُعَيْبٍ عليه السلام وقومه أصحاب الأيكة
الآيات من (١٧٦ ـ ١٩١)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾:

تمهيد:

جاء في القرآن المجيد ذكر شعيب عليه السّلام وذكر قومه في تِسْعَةِ نصوص من تسع سُور، ففي أرْبَعَةٍ مِنْها جاء التصريح باسم شعيب عليه السّلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدْين» وفي اثْنَيْنِ منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب مَدْين» وفي أربعة منها جاء ذكرهُم بعنوان «أصْحَاب الأيْكَة»؛ إذْ كانت لهم أيْكَة (أي: غيضة) نفيسة تُقْصَدُ فيها نَاعِمُ الشجر.

وقد اشتمل كلّ نصٍّ من هٰذه النُّصوص على لقطات موجزات من مُجْمَلِ قصّة شعَيْبٍ عليه السّلام وقومه.

وقد سبق تدبُّر هذه النُّصوص تدَبُّراً تكامليّاً في المُلْحَق السادس من ملاحِقِ تدبّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)[١].

وإذْ أُحِيلَ على هذا الملحَقِ في التدبُّر التكامليِّ للنُّصُوص بشَأْنِ شُعَيْبٍ عليه السّلام وقومه في القرآن المجيد، فإنّي أقتصر هنا على تَدَبُّرِ فقراتِ هذا النّصّ الوارد في سورة (الشعراء)، إذْ قد سبَقَ تَدَبُّرُهُ مَعَ سائر النُّصوص بصُورَةٍ تكامُليَّة.

التدبّر التحليلي:

قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾:

هذا البيان عن شعيب عليه السَّلام، مطابقٌ تماماً للبيان الذي سبقَ عَنْ نوح، وعَنْ هُود، وعَنْ صالح، وعن لُوطٍ، عليهم السّلام.

---

(١) انظر الصفحات من (٣٥١ ـ ٤٢٩) من المجلّد الخامس.

فالتدبّر الذي سبقَ للآيَات من (١٠٥ ـ ١٠٩) المتعلّقة بقصَّةِ نوح عليه السَّلام وقومِهِ يُلاحظُ هُنا إلَّا اسْمَ الرَّسُول، وإلَّا أنَّ شُعَيْباً لَمْ يُذْكَرْ هُنا بأنَّهُ أخُو أصْحَاب الأيْكَةِ، مع ذِكْرِهِ بأنَّهُ أخُو أصْحَابِ مَدْيَن في نصِّ سورة (الأعراف)، وفي نصِّ سورة (هُود)، وفي نصّ سورة (العنكبوت)، فهل عَدَمُ ذِكْرِ أنَّهُ أخُو أصْحَابِ الأيْكَةِ يَدُلُّ على أنَّ أصْحَابَ الأيْكَةِ كانُوا مُجاورين لأصْحَابِ مَدْيَن ولَمْ يَكُنْ جَدُّهُمْ مَدْيَن، وقَدْ أُرْسِلَ شُعَيْبٌ عَلَيه السّلام إلى أصْحابِ مَدْيَن الَّذِينَ كانَ أخَاهُمْ نَسَباً ومُواطَنَة، وأُرْسِلَ أيضاً في الوقتِ نَفْسِهِ إلى أصْحَابِ الأيْكَةِ المجاورين لَهُمْ، ولم يَكُنْ شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أخَاهُمْ نَسَباً ولَا مُواطَنَةً، فَلَمْ يُذْكَرْ في نصٍّ من النّصوص أنَّهُ أخُوهم.

أقول: هذا فَهْمٌ يُرَجّحُ أنَّ أصحاب مَدْيَن غَيْرُ أصْحَابِ الأيْكَةِ، مع أنَّهُمَا جميعاً قومُ النبيِّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عليه السّلام واخْتَلَطَا بمقتضىٰ التجاور، فهُمَا أُمَّةٌ واحدةٌ باعتبار أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلام، قدْ كانَ رَسُولاً لهما معاً وفي وَقْتٍ واحد، وهما قَوْمَانِ باعتبار أنَّ أهْلَ مَدْين يَنْتَسِبُونَ إلى جدِّهِمْ مَدْين بن إبراهيم عليه السّلام، وأمَّا أصحابُ الأيْكَة فَلَا يَتَّصِلُ نَسَبُهُمْ بهِ، وكانت الغيضة غيضَتَهُمْ (الأيْكَة) ولَيْسَتْ غيضَةَ أصحاب مَدْين، واللَّهُ أعْلم.

وهذا تَعْدِيلٌ لما كُنْتُ ذكَرْتُ في المُلْحَقِ السَّادِس من ملاحِقِ تَدَبُّرِ سورة (الأعراف) من أنَّ أصحاب مَدْين هم أصحابُ الأيْكَة فيما تَرَجّح لديّ هُناكَ.

قول اللّه عزّ وجلّ يَحْكِي بَعْضَ مقَالَاتِ شُعَيْبٍ علَيْهِ السَّلَامُ لأصْحَاب الأيْكَة:

﴿ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ

ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

في هذه الآياتِ الأربع، بيانُ سِتِّ قضايا وجَّهَها شعيبٌ عليه السلام لأصحاب الأيْكَة، آمراً، وناهياً، ومُحَذِّراً.

القضيّةُ الأولى: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عنهُ بقوله: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ...﴾، أي: اجْعَلُوا الكَيْلَ تامّاً كاملاً وافياً غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

الكَيْلُ: مَصْدَرُ «كَالَ» يقال لغة: «كالَ الحبَّ أو نَحْوَهُ من جامدٍ أو سائلٍ، كَيْلاً، ومَكَالاً»، أي: قدَّرَ كميَّتَهُ بالمِكْيَالِ، وهو وعاءٌ تَعارَفَ الناسُ على مقدار ما يَسْتَوْعِب، فتُكَالُ بِهِ الأشياء لمعرفَةِ مقدار حَجْمِها.

وقَدْ كان هؤلاء القومُ يَتَلاعَبُونَ بالكَيْلِ وبالمكاييل، فيَنْقُصُونَ النّاسَ حقّهم إذا كالُوا لهم، أمّا إذا كالُوا لِأَنْفُسِهِمْ من النّاس فإنَّهُمْ يُوفُونَ، أوْ يَزِيدُونَ على الوفاء بالاحْتِيالِ، فيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطل.

القضيّة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقَوْلِهِ: ﴿...وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾، أي: ولَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ النّاسَ حُقُوقَهُمْ.

يقال لغة: «أخْسَرَ فُلَانٌ الشَّيْءَ»، أي: نقصه.

أمَرَهُمْ شُعَيْبٌ عليْهِ السَّلام بالوفاء، ونهاهُمْ عَنْ ضِدِّهِ الَّذِي هو الإخْسَار، وهو النقص، مع العِلْم به من الأمْرِ بالوفاء، لأنَّ الأمْرَ بالشَّيْءِ نَهْيٌ عن ضِدِّهِ بَداهَةً، إلَّا أنَّ النَّصَّ تضمَّنَ الدَّلَالَةَ على أنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كانَ خَطِيباً بارعاً، ومِنْ براعَتِهِ في خطابته أنَّهُ كانَ يَأْمُرُ بالشَّيْءِ ويَنْهَىٰ عَنْ ضِدِّهِ، لإيضاح مقولاته إيضاحاً لَا يَحْتَمِلُ التأويل.

القضية الثالثة: دلَّ عليها ما حَكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله:

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾. **«القِسْطاس»** فيها قراءتان بضمِّ القافِ

وكَسْرِهَا، وهما لغتان عربيّتَانِ لهٰذه الكلمة، وهو أضبط الموازين وأقْوَمُها وأعْدَلُها، أي: وزِنُوا بأضْبَطِ الموازينِ وأقْوَمِهَا وأعْدَلِهَا.

المستقيم: أي: المعتدل المستوي، الذي تُوزَنُ به الأشياءُ فَلَا يَزِيدُ على مقاديرها الحقيقيَّة، ولَا يَنْقُصُ منها. والمراد بإضافة هذا الوصف التَّنْبِيهُ على وجوب عدم التلاعُبِ بما يُسَمَّىٰ في أعرافِهِم قُسْطاساً.

وقد كان هؤلاء القوم يتلاعبون بالوَزْنِ وبالموازين، ليَأْكُلُوا بِتَلَاعُبِهِمْ أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل، فأمَرَهُمْ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلام بأنْ يَزِنُوا بالقُسْطَاسِ المستقيم، وفي هذا نَهْيٌ لهم عَنِ التحايُلِ بالوَزْنِ وبالموازين ليَأْكُلُوا أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله:

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ... ﴿١٨٣﴾﴾، أي: ولا تَنْقُصُوا النَّاسَ أشياءَهم، سواءٌ أكان ذلِكَ عَنْ طريقِ الكَيْل أم المكيال، أم عن طريقِ الوَزْنِ أم الميزان، أمْ عَنْ طريقٍ آخر، ففي هٰذه العبارة تَعْميمٌ بَعْدَ تخصيص.

البَخْسُ: هو النَّقْصُ، وفعل «بَخَسَ» مثل فِعْلِ «نَقَص» يتعدَّى إلى مَفْعُولَيْن. يُقالُ لغة: «بَخَسَ فُلانٌ فُلاناً حَقَّهُ» أي: نَقَصَهُ حَقَّهُ.

والنَّقْصُ عَنِ الحقِّ مع العِلْمِ لَا يَكُونُ إلَّا بِظُلْمٍ، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحْتيالِ والكَذِبِ والمخادَعة.

دَلَّتْ هذه القضايا الأرْبَع على أنّ شعيباً عليه السّلام، قد كانَ يَلْجَأُ في خطاباتهِ ومواعِظِهِ لقومه إلى أُسْلُوب الإطْنَاب، لأنَّ أحوالَهُمْ كانت تَقْتَضِي ذلِكَ، وأنَّهُمْ كانُوا يَفْعَلُون بالتفصيل كلَّ هٰذهِ الرذائِلِ والعدوانات على عباد اللَّهِ مِنْ قَوْمِهِمْ ومن غَيْرِ قَوْمهم.

وقد كان من فَصَاحَتِهِ عليْهِ السَّلامُ، أنَّهُ كان يُنَوِّعُ في الكلماتِ وفي

الأساليبِ، ويأتي للدّلالة على المعنىٰ الواحِدِ من وُجُوهٍ مُخْتَلِفَة، فَمَرَّةً مِنْ جِهَةِ الإيجاب، ومَرَّةً مِنْ جِهَةِ السَّلْبِ، ومرَّة بتَعْيِين القضيَّةِ، وأُخْرَى بإِدْخَالِهَا ضِمْنَ قَضِيَّةٍ عامَّة، وهكذا تكونُ براعَةُ الخطَبَاء.

القضيَّةُ الخامِسَة: دلَّ عليها ما حَكَاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُ بقَوْلِهِ:

﴿... وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: **العُثُوُّ**: أشَدُّ الفَسَاد. يقالُ لغة: «عَثِيَ، يَعْثَىٰ، عُثُوّاً» أي: أفْسَدَ إفْساداً شَدِيداً جدّاً.

وقد دلَّ هذا النَّهْيُ على أنَّ قومَ شُعَيْبٍ عليه السَّلام، كانُوا مِنَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ في الأرْضِ أشَدَّ الفَسَادِ، بأعْمَالِهِمُ الإجْرَامِيَّة الظَّالِمَةِ الجَائِرَة، ولهذا رأى شُعيبٌ عليه السّلام من الحكمة أنْ يَخُصَّ إفسادَهُمْ في الأرض بنَهْيٍ يُشَدِّدُ فيه.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مؤكّدةٌ لِعَامِلِهَا.

الفساد: هو في اللّغة التَّلَفُ والعَطَبُ، وتحَوُّلُ الشيءِ من كَوْنِهِ صالحاً نافعاً إلى كونه غَيْرَ صالح ولا نافع، بل رُبَّما يصيرُ ضارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ الصَّالحة.

الإفساد: الإتْلَافُ، وتحويلُ الشيءِ عن صَلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشَّيْءِ ضارّاً كَرِيهاً مُفْسداً للأشياء الصالحة.

ويَشْمَلُ النَّهْيُ عَنِ الإفْساد في الأرْضِ بعُمُومِهِ، النَّهْيَ عَنْ كُلِّ الممارساتِ الظالماتِ الجائراتِ، ذواتِ العُدْوانِ على عباد اللَّه، الّتي كان قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السَّلام يمارِسُونها بانتشار عامّ، ومِنْهَا نَشْرُ الكفريّات والشركيّات وأنواعِ الفِسْقِ والفُجُورِ، وكلِّ فسادٍ خُلُقِيٍّ وسُلُوكيٍّ فَرْدِيٍّ واجْتِماعيّ.

القضيَّة السَّادِسة: دلَّ عَلَيْهَا مَا حكاهُ اللَّهُ عزّ وجلّ عَنْهُ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

الجِبِلَّةُ: الأُمَّةُ من الخَلْقِ، والجماعَةُ من الناس.

أي: واتَّقُوا عِقَابَ رَبِّكُم الَّذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ، بأن تَجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَ عِقَابِهِ لَكُمْ وِقايَةً تَحْمِيكم، وهذه الوقايَةُ الّتي تَحْمِيكُمْ هي الإيمانُ الصَّحِيحُ الصَّادِق بِهِ وبصفاته، والإسْلامُ لَهُ، وطاعَتُهُ في أوامِرِهِ ونواهِيهِ.

فمَنْ كان لَدَيْهِ عَقْلٌ وبَصِيرَة، وعَلِمَ بأحوالِ الأُمَم السَّالِفَة، وما أنْزَلَ اللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ بالكافِرِينَ من عَذَابٍ، وإهلاك شامل، اقْتَنَعَ واتَّعَظَ، فلَمْ يُعَرِّضْ نَفْسَهُ لسخَطِ اللَّهِ عليه بمعَصْيَتِهِ مِنَ الكَبَائر، حتَّىٰ لَا يَكُونَ عُرْضَةً لعقابه العادل، الذي لا مَحِيصَ عنه إلَّا بالاستغفار والتوبَة الصحيحة الصادقة، فاللَّهُ جلَّ جلاَلُهُ غَفُورٌ عَفُوٌّ رَحِيمٌ بعباده.

قول اللَّه عزّ وجلَّ يَحْكِي رَدَّ أصْحَابِ الأيْكَةِ على شعيبٍ عليه السَّلام فيما وجَّهَه لهم من دعوة إلى دين اللَّه، وفيما أمَرَهُمْ به ونَهاهُمْ عنه:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

تضَمَّنَ قولهم هذا أرْبَعَ قضايا رَدُّوا بها على جُمْلَةِ مَقُولَاتِهِ لهم:

القضيَّةُ الأولى: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُمْ بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾:

هذا الاتِّهام نظير الاتِّهام الذي وجَّهَتْهُ ثَمُودُ لِرَسُولِهِم صالح عليْهِ السَّلام، والذي سبق تدبُّره قَرِيباً.

«المُسَحَّرُ» هُو الذي سُحِرَ مرَّة فمَرَّة حتَّىٰ صارَ مخبَّلاً وفَسَدَ عقله.

وفي العبارة قصر بأداة «إنَّما» أي: ما أنتَ إلَّا من المسحَّرين، وهو من قِسْم القصر الإضافي، أي: لَيْسَ لكَ مِنَ الصِّفات بالإضافة إلى ادّعائك الرّسالة، وبيانَاتِكَ في دَعْوَتِكَ، إلَّا أنَّك مُسَحَّرٌ مِنَ المسحَّرِين.

فاتَّهَمَ كُبَرَاء أصْحَاب الأيْكَةِ رَسُولَهُمْ شعيباً عليه السَّلام بأنَّه مُسَحَّر، ولَيْسَ مُجَرَّد مَسْحُور، أي: إنَّ السِّحْرَ الّذي سُلِّط مُتَتابِعاً عليكَ قد جَعَلَكَ مُخْتَلَّ العَقْل مُخُبَّلاً، وبِسَبَبِ ذلك تُواجِهُ كُبَرَاءَ قَوْمِكَ بما يَسُوؤُهم، دُونَ أنْ تُقَدِّرَ خُطُورَةَ ما تُوَاجِهُهم بِهِ مِنْ أَقْوَالِكَ.

القضيّة الثانية: دلَّ عليها ما حكاهُ اللَّه عزّ وجلّ عنهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا... ﴿١٨٦﴾﴾:

وهذه أيضاً نظيرُ الّتي اعْتَرَضَتْ بها ثَمُودُ على رسُولهم صالح عليه السّلام، والّتي سبقَ تدبُّرُها قَرِيباً.

أي: ليس لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الخارجة عن نظام البَشَرِ في طعامهم وشرابهم ونِكاحهم، ما يُؤَهِّلُكَ لأنْ تَكُونَ نبيّاً تتلقَّى الوَحْيَ عن اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، ولأنْ تكونَ رَسُولاً تَحْمِلُ رسالَةً مِنْهُ وتُبَلِّغُنَا إيَّاهَا.

وعلى مِثْلِ هذا تعلَّلَ كُفَّارُ الأُمَم السَّابِقَة لشُعَيْبٍ عليه السَّلام، ومن كانوا بَعْدَهُ، إذْ زَعَمُوا أنَّ البَشَرِيَّةَ لَا تَصْلُحُ للنبوّة، ولَا لِتَلَقِّي رِسالَةٍ رَبَّانِيَّة، وهذا مِنْ جَهْلِهِمْ وعَدَمِ تَقْدِيرِهِمْ رَبَّهُمْ حقَّ قَدْرِهِ، إذْ هو القادر على أن يَخُصَّ بَعْضَ عِبَادِهِ بما يَشَاءُ على ما يشاء.

وقد سبقَ تدبُّر النُّصوص القرآنيّة المتعلّقة بموضوع «بيان اعتراض الأمم على بَشَرِيَّة الرُّسُلِ في القرآن» في الملحق الثالث من ملاحق تدبُّر سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول)[1].

(١) انظر المجلّد السادس، الصفحات من (٢٦٣ ـ ٢٨١).

القضيَّة الثالثة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّه عزّ وجلّ عنهم بقوله: ﴿...وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّنَا نَظُنُّكَ كاذِباً مِنَ الكاذبين، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على ربِّهم بادّعاء النُّبُوَّة والرِّسالَة.

[إنْ] هي المخفَّفة مِنَ الثقيلَة، ويُؤَازِرُها في التوكيد اللّام في عِبَارَة [لَمِنَ]، وتُسَمَّى اللَّامَ الفارِقَةَ بين «إنْ» المخفَّفة من الثقيلة وبين «إنْ» النّافِية.

ونظراً إلى أنَّهُ قَدْ كانَ عليه السّلام مَعْرُوفاً لدَىٰ عامَّة قَوْمِهِ وخاصَّتِهِمْ بأنَّهُ صادِقٌ لَا يَقُولُ إلَّا حقّاً، ما اسْتَطاعُوا أنْ يَقُولُوا له عبارةً يَجْزِمُونَ فيها بأنَّهُ كاذبٌ في دَعْوَاهُ النُّبُوَّة والرِّسالة، أو بأنَّه واحِدٌ مِنَ المُتَنَبِّئِينَ الكاذبين، بل اكْتَفَوْا ببيان أنَّ ما يتصوَّرُونَهُ فيه هو مِنْ قبيل الظَّنّ، لَا مِنْ قَبيلِ اليَقِينِ المستَنِدِ إلى عِلْمٍ وخِبْرَةٍ بأحوالِهِ وأفْعَالِهِ وأقواله.

وصَبَرَ شعيب عليه السَّلام على شتائِم الكبراء من كُفَّار قَوْمِهِ له، كما صَبَرَ سائِرُ رُسُلِ اللَّهِ على شتائم أقوامهم لهم، فلَمْ يقابِلُوا شتائِمَ أقوامِهِمْ لهم بأمْثالها.

القضيَّة الرابعة: دلَّ عليها ما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْهُمْ بقوله: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

[كِسَفاً] فيها قراءتان بفتح السّين، وهي قراءة حفص، وبإسْكانها وهي قراءة بَاقي القُرَّاءِ العَشَرَة. **الكِسْفُ والكِسَفُ**: القِطَعُ مِنْ أيِّ شيء، واللفظُ جمعٌ واحِدَتُه «كِسْفَةٌ» وهي القِطْعَةُ من شيءٍ ما.

والمعنى: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا مَا تَسْتَطِيعُ إسْقَاطَهُ من قِطَعٍ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ تُعَذِّبُنا وتُهْلِكُنَا بها، إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في أنَّكَ نَبِيٌّ ورَسُولٌ أرْسَلَكَ اللَّه رَبُّنا إلَيْنَا.

جاء في العبارة استعمال حرف الشَّرْط «إنْ» للدَّلالَة على أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بنُبُوَّتِهِ ولا برِسَالَتِهِ، فَهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ هٰذا الطَّلَبَ على سَبِيلِ التَّعْجِيز، وهم يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ قادِرٍ على التنفيذ.

لقد غَرَّهُمْ طُولُ إمْهَالِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لهم، مَعَ وُجُودِ رَسُولِهِ بَيْنَهُمْ، يُعَالِجُهُمْ بكُلِّ وسائِلِ الحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ والجدال بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، ويَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُمَكَّنُونَ في أَرْضِهِم.

فأجابَهم شُعَيْبٌ عليه السَّلام بجوابٍ دلَّ عَلَيْهِ ما حَكَاهُ اللَّه عزَّ وجلَّ عنه بقوله:

● ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

أي: لَسْتُ أنَا الَّذِي أُسْقِطُ الكِسَفَ من السَّماء، إنما الَّذي يَفْعَلُ ذلِكَ هُوَ رَبِّي، ورَبِّي إنَّما يَفْعَلُه أو يَفْعَلُ شَيْئاً آخرَ يُهْلِكُكُمْ به، إذا عَلِمَ مِنْ أعْمَالِكُمْ الظَّاهِرَة والباطِنَة، الجَسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، أَنَّكُمْ صِرْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ إنْزَالَ العِقَابِ الشَّامِلِ فيكُمْ، واقْتَضَتْ حِكْمَتَهُ ذلِكَ، إنَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه ـ أعْلَمُ بما تَعْمَلُونَ.

فتعذيبكم وإهلاكُكُمْ إنّما يتم بتقدير رَبِّي وقضائه على وَفْق حكمتِهِ المقرونَة بعِلْمِهِ المُحِيط بكلّ شيء.

وحين وصل قوم شُعَيْبٍ عليه السَّلام إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يُؤْمِنُوا به وبما جاء به عَنْ رَبِّه عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّةِ، بحَسَبِ طبائع النُّفُوسِ في الواقِعِ البَشَرِيّ، وعنوان هٰذه الدَّرَكَة تَكْذِيبُهُمْ إيَّاهُ تَكْذِيباً لَا عِلَاجَ له، بإقناعٍ، أو تَرغيب، أو ترهيب، أوْ جدالٍ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ وسائِلَ تَعْذِيبهم وإهلاكهم إهلاكاً شاملاً مُسْتَأْصِلاً.

دلّ على هذا قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾:

[فكذَّبُوهُ]: هذا عنوانُ الدركَةِ السُّفْلَى الَّتي وصَلَ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السَّلام إليها، بَعْدَ الرِّحْلَةِ الدَّعَوِيَّة الطَّوِيلَةِ، الَّتي عَالَجَهُمْ فيها رسُولُهُمْ بكلِّ الوسائل الحكيمة، فلَمْ يُؤْمِنُوا، وأصَرُّوا بعِنادٍ نهائيٍّ على تَكْذِيبِهِ.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: أي: فَقَبَضَ علىٰ جميع كُفَّارِ قَوْمه قَبْضاً شديداً قاهراً عَذَابُ يَوْم الظُّلَّةِ.

أُسْنِدَ الأَخْذُ إلى العَذَاب، لأنَّهُ هو المَقْصُودُ مِنْ أخْذِ وسائِلِهِ لهم، إذِ المرادُ تَعْذِيبُهُمْ بالوسائل.

الظُّلَّة: هِيَ في اللُّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أظَلَّ وسَتَرَ وأطْبَقَ مِنْ فَوْق.

والإضافة في [**يَوْمِ الظُّلَّةِ**] هي بمعنى اللّام، أي: يَوْمِهِم الخاصِّ بالظُّلَّةِ الّتي عمَّتْ أرْضهم ومساكِنَهُم.

وكانت الظُّلَّة غَمَامَةً حارَّةً ذاتَ سَمُوم يَنْدَفِعُ مِنْهَا إلى أَرْضِهِمْ ومَسَاكِنِهِمْ، فيُعَذِّبُ مَنْ قَضَىٰ اللَّهُ علَيْهِ بالعَذَابِ بحرِّهَا وسَمُومِها، وبما تُحْدِثُهُ من اخْتِنَاقَاتٍ، واسْتَمَرَّتْ هٰذِهِ الغَمَامَةُ العذابيَّةُ، طَوَالَ يَوْمِ تعْذِيبهم مُطْبِقَةً على أَرْضِهِمْ ومَسَاكِنِهِم.

ووصف اللَّه عزّ وجلّ عذابَ يوم الظُّلَّة بأنَّهُ كان عذابَ يوم عظيم، وظاهر أنّ عذاب اليوم العظيم لا بُدَّ أنْ يكونَ عذاباً عظيماً مصاحِباً كُلَّ أجْزَاءِ ذلِكَ اليَوْم العظيم.

وفي ختام هذا الفصل المتعلّق بشُعَيْب عليه السّلام وقومه، جاءت في السُّورَة الآيتان اللَّتَانِ جعَلَهُمَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمَثَابَةِ فاصِلٍ يُكَرَّرُ في نِهَايَةِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ اللَّقَطاتِ المختاراتِ في السُّورة، من قِصَصِ رُسُلٍ سَبْعَةٍ وأقوامهم، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

وقد سبق تدبُّرُ هذا البيان في المرَّةِ الأُولى من إيراده في السورة في الآيتين (٨ و٩) فلا داعي إلى التكرار.

ولا شَكَّ أنَّ قِصَّةَ شُعَيْبٍ عليه السَّلام وقومه، قد اشْتَمَلَتْ على آيَةٍ عظيمة، ذاتِ عِبَرٍ وعِظاتٍ جليلاتٍ، ومَعَ تِلْكَ العِبَرِ والعظات فإنَّ أكْثَرَ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْش، الَّذِينَ قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِهِمْ:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قَدْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إيمانِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إراداتهمُ الحُرَّة، بحَسَبِ طبائعِ النُّفُوسُ، وما تُصَابُ بِهِ القُلُوبُ مِنْ أمْرَاضٍ مَعْنَوِيَّةٍ جَلَبَهَا أصْحَابُها إلَيْهَا باختيارهم الحرّ.

وقد أمْسَى هٰؤُلَاءِ غَيْرَ مُنْتَظَرٍ مِنْهُمْ بحَسَبِ واقع حالهم النَّفْسِيّ والقَلْبِيّ، أنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وعُولِجُوا، وقارَبُوا أنْ تَجْرِيَ عَلَيْهم سُنَّةُ اللَّهِ، في إهْلَاكِ مَنْ وَصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من إصْلاحهم عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، وعمَّ هذا الحالُ معظم أفرادهم.



(٧)
التدبر التحليلي للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الشعراء) وهو الآيات من (١٩٢ ـ ٢٢٧ آخر السورة)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾:

تمهيد:

عناصر هذا الدرس الثالث من دُروس السورة موصولة بعناصر الدرس الأول منها، في نَسِيجٍ تكامُليّ حكيم.

أمّا الدرس الثاني بفُصُولِهِ السَّبْعَةِ فقد جاء بأمْثِلَةٍ تاريخيَّةٍ سَبْعَةٍ من رُسُلِ اللَّه وأقوامهم، فيها آيات تَرْبَوِيَّة للرسول ﷺ وللدُّعاةِ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، إذ الرُّسُلُ أسْوَةٌ حَسَنَةٌ يُقْتَدَىٰ بهم في حِكْمَتِهِمُ الدَّعَوِيَّة، وفي صَبْرِهم على أقوامهم، وفيها آيات ذواتُ عِبَرٍ وعِظاتٍ لمعالَجَةِ المعنيّينَ بالمعالجة في الدَّرْس الأوّل، وهم كُبَراءُ مُشْرِكِي قريش، الَّذينَ قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ ﷺ بشأنهم في أوائل السورة:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

وتتّضح صلة عناصر الدَّرْس الثالث الأخير من دُرُوس السُّورة، بعَناصر الدَّرس الأوّل منها، بالبيان التالي:

(١) لقد جاء في الدرس الأوّل الحديث عن الكتاب المبين (القرآن الكريم).

(٢) وجاء فيه بيانُ حُزْنِ الرَّسُولِ ﷺ على قومه إذْ لم يُؤْمِنُوا مع هَمِّهِ الشَّدِيدِ من أجْلِهِمْ تَخَوُّفاً عَلَيْهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً، فيكونوا من المعذّبين بنار الجحيم عذاباً أبَدِيّاً.

(٣) وجاءت فيه الإشارة إلى تطَلُّع الرَّسُول ﷺ أنْ يُنْزِلَ اللّٰه لَهُمْ آيَةً حِسِيَّةً على وفق طَلَبهم، رجاء أنْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فيُنْقِذُوا بالإيمان أنْفُسَهُمْ من الخُلودِ في عذاب الجحيم.

(٤) وجاء فيه بيانُ إعراضِ المعنيّينَ بالمعالجة وهم كبراء مُشْرِكِي قريش، عَنْ كُلِّ نَجمٍ قُرْآنِيّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، يَتْلُوهُ الرَّسُولُ ﷺ عليهم.

وأضِيفَ إلى هذا ما أبانَتْهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ سابِقَةٌ مِنْ زَعْمِهِمْ أنَّ القرآن لَوْنٌ من ألْوَانِ الشِّعْرِ، تَهَرُّباً من تَدَبُّرِهِ على أنَّه تنزيلٌ من رَبِّ العالَمِين، وما جاء فيها مِنْ بيان أنَّهُمْ غَيْرَ عابئِينَ به.

وأضيف إلى هذا أيضاً ما أبانَتْهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّة سابِقَة، من جَدَلياتٍ قَدَّمُوهَا في مَزَاعمهم، إذْ طَرَحُوا احْتِمَالَ أنْ يَكُونَ رَئِيٌّ مِنَ الجِنِّ هُوَ الَّذي يُوحِي للرَّسُولِ بالنُّجُومِ القرآنية.

هذه العناصر مجتمعة تَسْتَدْعِي بَسْطَ البيان حول أنّ القرآن تنزيلٌ من عند اللّٰهِ رَبِّ العالَمِين.

وتَسْتَدْعي بيانَ أنَّ الجِنَّ مَعْزُولُونَ عَنِ السَّمْعِ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَسْتَرِقُوا اسْتِمَاعَ القرآنِ مِنْ ملائكةِ السَّماءِ، لِيُوحُوا بِهِ إلى أحَدٍ مِنَ الإنْسِ.

وبيانَ أنَّ القرآنَ لَيسَ مِنْ قَبيلِ الشِّعْرِ على ما زَعَمُوا للتَّبايُنِ بَيْنَ أغْراضِ الشعراء على يَعْلَمُ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْش، إذ الشعراءُ في كُلّ وادٍ يَهِيمُون، ويَتَّبِعُهُم الغَاوُون، وبَيْنَ القرآنِ الذي يَشْتَمِلُ على الإيمان والإسلام، وحقائق الوجود، وكمالِ الحكمة، وفضائل الأخلاق، وكمالَات السُّلُوكِ الإنساني.

وهذه العناصِرُ تَسْتَدْعِي مَزِيدَ تَرْبِيَةٍ من اللَّهِ لِرَسُولِهِ وللدُّعاةِ إلى اللَّه مِنْ أُمَّتِهِ، فجاءت الآيات من (٢١٣ ـ ٢٢٠) فيها توجيهٌ تَرْبَوِيٌّ مُلائم للمرحلة الدَّعَوِيَّة، الَّتِي يَمُرُّ بها الرسول ﷺ إبَّانَ نُزُول سورة (الشعراء).

وبهذا نُلاحظ النّسيج المتشابِكَ في عناصر السّورة الّتي اشتملَتْ عليها دروس السورة الثلاثة.

التدبّر التحليلي:

قول اللَّه عزّ وجلّ بادئاً بالحديث عن القرآن ومخاطباً رسولَه:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

تمهيد:

إنَّ حالَ المَعْنِيّينَ بالمعالَجة وهم كبراء مشركي قُرَيْش، الّذينَ جَحَدُوا كوْنَ القرآن تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العالَمِين، وحاولوا إقْناعَ جَماهيرِهِم بأنَّهُ نَوْعٌ من أنواع الشِّعْرِ المعْجِب، الذي تُوحِي به الشياطين من الجنِّ إلى قُرَنائهم من الإنْس، على ما كانوا يَعْتَقِدونَ في الشعراء، قد اقتضىٰ مَزِيدَ بيانٍ لتأكيدِ أنَّ القرآن تنزيلٌ من رَبّ العالَمِين، واقْتَضىٰ دفْعَ شُبْهَةِ الشِّعْرِ عن القرآن، ودَفْعَ فِرْيَةِ أنَّه مما تُوحي به الجنّ.

ولإدراك أنَّ هذا الدرس الثالث مُرْتَبِطٌ ارْتباطاً فِكْرِيّاً بما جاء في

الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسِ السورة، جاء مُصَدَّراً بِحَرْفِ العطف «الواو» في: **[وإنّهُ]** أي: وإنَّ الكتاب المبين الذي جاء الحديث عنه في الآية (٢) من السورة، وفي الآية (٥) منها لَتنزيلُ رَبّ العالَمِين، فأُولُوا الألْبَابِ الّذينَ يَتَدَبَّرُونَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ بهٰذه الحقيقَة، ما لَمْ تَصُدَّهُمْ حَواجِزُ كبرٍ، وهَوىً، واتّباعٍ للشهواتِ، واتّباعٍ لتقاليدَ عَمْيَاء، أوْ ما لَمْ تَطْمِسْ بصائِرَهُمْ نوازِعُ النفوسِ ونوازِغُ الشياطين.

التدبّر:

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾: أي: فَهُوَ في سُمُوِّه وعَظَمَةِ معانِيهِ ومَبانيهِ على قَدْرِ المنْزِلِ، يُدْرِكُ هٰذا من أحْسَنَ تَدَبُّر آياتِهِ وسُورِهِ.

تَنْزِيلٌ: مَصْدَرُ «نَزَّلَ» وُصِفَ القرآنُ هُنَا بالمَصْدَرِ، في مكان الوَصْفِ باسْم المَفْعُول «مُنَزَّل» للدَّلَالَةِ على أنَّ كُلَّ حَرْفٍ من مبانِيهِ، وكلَّ دَلَالَةٍ من دَلَالَاتِهِ، وكلَّ مَعْنَىً من مَعَانِيهِ، مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، فاستحَقَّ أنْ يَكُونَ بمَثَابَةِ الحَدَثِ المَصْدَرِيّ، الذي هو «التنزيلُ» من رَبّ العالَمِين لاستجماعه كلَّ صِفَاتِ حَدَثِ هٰذا التَّنْزِيلِ.

ودلَّتِ النُّصُوصُ القُرْآنِيَّة على أنَّ كُلَّ ما يَصْدُرُ عن اللّٰهِ لعِبَادِهِ هو تنزيلٌ، ولَوْ كانَ من خَلْقِهِ في الأرض، كَخَلْقِهِ الأنعام، لأنَّهُ جلَّ جلَالُهُ هُوَ العَلِيُّ الأعْلَى، وكلُّ ما سواهُ هو مِنْ دُونهِ، فكُلُّ عطاءاتِهِ، وخَلْقِهِ، وتَصَارِيفِهِ، تَنْزِيلٌ.

وجاءت هذه الجملة في الآية مؤكّدَةً بالمؤكدات: «إنَّ ـ الجُمْلَة الاسميّة ـ اللّام المزحلقة».

وعبارة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَدُلُّ على عَظَمَةِ القرآن، لما هُوَ مَعْلُومٌ من أنَّ ما يَصْدُرُ عن عظيم لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ عَظيماً، أي: فَتَدَبَّرُوهُ بإتقانٍ ووَعْيٍ، واسْتِيعَابٍ فإنَّكُم سَتَجِدُونَهُ عظيماً على قَدْرِ مُنْزِلِهِ رَبِّ العالَمِين.

قول اللّٰه تعالىٰ

• ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾: **الرُّوحُ**: هو هُنا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، ووَصَفَهُ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ بالأَمِين، للدّلَالَةِ على أنَّهُ لَا يَزِيدُ فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبِّهِ شيئاً، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئاً، كما هُوَ أَمِينٌ في كلِّ شيءٍ، فَهُوَ رَسُولٌ كامِلُ الأمانَةِ فيما يَحْمِلُ عَنْ رَبِّهِ من رِسالَاتٍ، وفيما يؤدّيها.

جاء في القرآن الكريم ذكر جبريل عليه السّلام بعنوان «الرُّوح» أو «الرّوح الأمين» أو «روح القدس» تِسْعَ مرَّات.

وجاء في القراءة الأخرى: **[نزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأمِينَ]**، أي: نَزَّلَ اللّٰهُ رَبُّ العالَمِينَ بِهِ جِبْرِيلَ الرُّوح الأمين، وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

قول اللّٰه عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أعرض الله عزّ وجلّ عن مخاطبة المَقْصُودِينَ بالمعالَجة بسبب إعراضِهِمْ عن تلقّي القرآن، إذْ جاء في أوائل السورة قول الله عزّ وجلّ بشأُنهم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

وخاطبَ اللّٰهُ رَسُولَهُ بهذا البيان، ليَسْمَعَ المقصُودُونَ بالمعالَجَةِ بطريقةٍ غَيْرِ مُبَاشِرةٍ.

أي: نَزَلَ بالقرآنِ الكرِيم جِبْرِيلُ نُزُولاً نافذاً مِنْ حاسَّةِ سَمْعِكَ ومَنْصَبّاً على قَلْبِكَ يا محمّد.

يرادُ بالقَلْب هُنا جِهَازُ الإدْراكِ الواعِي للمعارِف والعُلُومِ والأقوالِ في عُمْقِ الإنْسَان، ودلَّ ذِكْرُ القَلْبِ على تحقُّقِ الرَّسُول ﷺ واسْتِيعابِهِ لكُلِّ ما يَنْزِلُ بِهِ الوَحْيُ عَلَيْهِ، وأنّ الوَحْيَ لَمْ يَكُنْ يَقْتَصِرُ على إبْلاغِ السَّمْعِ، إذْ قَدْ

تَسْمَعُ الأُذُنُ ولَا يَعِي القَلْبُ مَا سَمِعَتْهُ، بَلْ كانَ يَنْفُذُ مِنَ السَّمْعِ وأجْهِزَتِهِ المُوصِلَةِ حتَّىٰ يكُونَ المُوحَىٰ به مُسْتَقَرّاً في عُمْقِ القَلْبِ، أي: في عُمْقِ جهاز الإدْراكِ الواعي للمَعَارِف والعُلُوم والأقْوالِ في عُمْقِ الإنْسَان.

وجاء ذِكْرُ عبارةِ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ للدَّلَالَةِ بها عن طَرِيقِ اللّوازِمِ الذِّهنِيَّةِ على كُلِّ وظَائِفِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتي يأتي الإنْذارُ في آخِرِها. وأوَّلُها التبليغ، ثم البَيانُ والتَّوضيح، ثم اتّخاذ وسائِلِ الإقناع بالحجج والبراهين، ثمّ الترغيب والترهيب، ثم الجدال بالّتي هِيَ أحْسَنُ، ثُمَّ مُتَابَعَةُ التذكير بما سَبَق، فإذا وصَلَ المَدْعُوُّون إلى حالَةٍ مَيؤوسٍ من إصلاحِهِمْ مَعَها عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة، كانَ الإنْذارُ هُوَ الخِتَامَ الذي تَنْقَطِعُ عِنْدَهُ وَسَائِلُ العِلاجِ البيانيّ.

الإنْذَار: هو الإعْلامُ بما هو مخوف منه. وبالعواقب غَيْرِ الحميدة، للأعْمالِ السَّيِّئَة أو المنهيّ عنها، ومن العواقب غير الحميدة العذابُ الأليم من قِبَلِ رَبّ العالَمِين على مَعْصِيَةِ عباده لَهُ بالكفر فيما دونَهُ.

قول اللَّه تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾:

يُطْلقُ «اللِّسَان» ويُرادُ به لغةُ القوم، وهذا إطلاقٌ لغويٌّ، وهُوَ من التوسُّع في الدَّلالَة، إذْ أصْلُ مَعْنَىٰ اللِّسَان الأداةُ اللَّحْمِيَّةُ التي تكونُ في الفَم، ويكُونُ بها تذوُّق الطعام، وهي إحْدَى جهاز النُّطْقِ عند الإنسانِ، فيطلَقُ على اللُّغَة لأنَّه الأداة الناطقة بها، وهو في الأصل مجاز مرسل.

والمعنى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أنْزَل عَلَيْكَ يا محمَّدُ القرآنَ بواسِطَةِ أمِينِ الوحي جبريل، بلغَةِ العرَب، ذاتِ النُّطْقِ الفَصِيحِ المُبِينِ، والكَلِمَاتِ الدَّالَّاتِ على المَعَانِي المُرادَة بها دَلَالَاتٍ واضِحَاتٍ، لَا غُمُوضَ فيها، لِمَا تَشْتَمِلُ عليهِ من تَحْدِيدٍ للمعاني، عن طريقِ الحقائقِ الوضعيَّةِ، والمجازاتِ الجَلِيَّاتِ، والكِنَايَاتِ البَدِيعات.

وفي هذا ثَنَاءٌ على اللُّغَةِ العربيَّةِ مُحَرِّضٌ للعرب على أنْ يَفْتَخِرُوا بالقرآن الّذي أُنْزِلَ بلسانِهِمْ مُعْجِزاً من لَدُنْ رَبّ العالَمِين، وهذا يدعوهم إلى الإيمان به، لا إلى جُحودِهِ والكُفْرِ بِهِ، مع وُضوحِ دلائل الإعجاز فيه.

﴿مُّبِينٍ﴾: مِنْ فعل «أبانَ» وهذا الفعل يأتي لازماً، ويأتي مُتعَدّياً، فعلَىٰ اللُّزوم يكون المعْنَىٰ: «هو واضِحٌ وظاهِرٌ» وعلى التَّعْدِيَةِ يكون المَعْنَىٰ «هو مُوضِحٌ ومُظْهِرٌ»، أي: للمعاني الّتي يراد بيانُها به، في كلماتٍ وجُملٍ وأساليبَ وحَقِيقَةٍ ومَجَاز وكناياتٍ وتَشبيهات.

وكلا المَعْنَيَيْن صالحانِ هُنَا، فهما مُرادانِ، واللَّه أعلم.

قول اللَّه تعالىٰ

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

زُبُر: جمع «زَبُور» وهو الكتابُ المزْبُور، أي: المكتوب، يقال لغة: «زَبَرَ الكتَابَ يَزْبُرُهُ» أي: كتَبَه، أو أتْقَنَ كتابَتَهُ، فهو مَزْبُورٌ وزُبورٌ.

﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: لَفِي الكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أنْزَلَهَا اللَّه على الرُّسُلِ السَّابِقين، لهدايَةِ الأُمَمِ الأوَّلِين.

أي: وإنَّ مَا جاءَ في القرآن من حقائق إيمانية، ومبادئَ أخلاقية، وشرائِعَ إسلاميَّة، هي موجودةٌ بوَجْهٍ عامّ في الكُتُبِ السَّابِقَةِ المُنَزَّلَة على الرُّسُلِ السَّابِقين، لِهدَايَةِ الأقْوَام والأُمَمِ الأُوَّلين، وهذه هي الّتي يَجْحَدُها المشركونَ.

وهذا البيانُ لا يُنَافي ما اختصَّ اللَّهُ به القرآن من عُلُوم وإقناعَاتٍ وجدَلِيَّاتٍ، لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهَا زُبُر الأوّلين، لأنَّ جُحُودَ الكافِرِينَ وإنكاراتهم مُنْصَبَّةٌ على أُسُسِ العَقَائدِ والأخلاقِ وشرائع المعاملات، وأحكام الحلال والحرام، فهي جَوْهَرُ الدِّين، وهي موجودة حتماً في زُبُرِ الأوَّلِين، ولو على سبيل التوزيع بَيْنها، بحَسَبِ أحوال الأُمَمِ الّتي أُنْزِلَتْ لِهَدَايَتِها.

قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾:

وفي قراءة ابْن عامر: [أَوَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ]، برفع [آية] وقَدْ سبقَ توجيه القراءتين عند ذكر القراءات.

جاء عند علماء علوم القرآن أن هذه الآية مدنية ضمَّتْ إلى سورة مكيَّة، واللَّه أعلم.

أقول: دلَّتْ هٰذه الآية على أنَّ المَعْنَيِّين بالمعالجَة في السّورة، وهم كُبَرَاء مشركي قريش، قد سَأَلُوا سِرّاً عُلَماءَ بَنِي إسرائيل في رحلاتهم إلى يَثْرِب وكانت لهم بهم صِلَاتٌ تجاريَّةٌ، عن القضايا الدّينيَّة الّتي أبانَتْهَا السُّوَر القرآنيَّةُ، الَّتي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الشُّعراء)، فأبانُوا لهم أنَّها ممَّا يَعْلَمُونَهُ من قَضَايَا الدّين الرّبانيّ الَّذي أَنْزَلَهُ اللَّه على مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلام، وأنَّها حقٌّ، وربّما سألُوهُمْ عَنِ النبيِّ المنتظر، فأبانُوا لَهُمْ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَاتِهِ، وكَتَمَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ هٰذا الأَمْرَ عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، فأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بهٰذِه الآية بما جَرَىٰ، فقال لَهُمْ كاتماً خَبَرَ سُؤَالِهِمْ عُلَمَاءَ بني إسرائيل، وطاوِياً لَهُ في مَثَانِي النّصّ، وعاطفاً عليه بالواو قائلاً عَنْهُمْ: أَلَمْ يَسْأَلُوا عُلَمَاءَ بَنِي إسْرَائِيلَ، ولم يكُنْ لَهُمْ آيَة (أي: علامَةً دالَّةً) أنْ يَعْلَمَ صِدْقَ ما نزلَ في القرآن من قضايا الدِّين عُلَمَاءُ بَنِي إسرائيل الذّينَ سَأَلُوهم.

ولم يَأْتِ في الآيَةِ التّصْرِيحُ بِسُؤَالِهِمْ عُلَمَاءَ بَنِي إسْرائيل وبجَوَابِ هؤلَاءِ العُلَمَاءِ لهم، لِئَلَّا يَتَجَرَّؤُوا على إنْكَارِ الحادِثَةِ، إذْ كانَتْ سِرّاً، وباسْتِطَاعَتِهِمْ أنْ يَجْحَدُوهَا، إذْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ شُهُودٌ من النَّاسِ عليها. وهٰذِهِ من رَوَائِعِ وبدائع الطَّيِّ القرآنيِّ في المثاني، الّذي يَفْتَحُ اللَّهُ علىٰ بَعْضِ عِبَادِهِ باستنباطه وفَهْمِهِ.

قول اللَّه عزّ وجلّ بشَأْنِ المعنيِّينَ بالمعالَجة تُجَاه القرآن:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: قال أبو الفتح بنُ جِنّي: أصْلُ «الأعْجَمين» الأعْجَمِيِّين، ثُمَّ حُذِفَتْ ياءُ النَّسَب، وجُعِلَ جَمْعُهُ بالياءِ والنُّونِ دَلِيلاً عَلَيْها.

يُشيرُ هذا البيانُ ضِمْناً إلى الْعُنْجُهِيَّةِ العَرَبِيَّةِ والكِبْرِ القوميّ، الّذي يتّصِفُ به هؤلاء المعنِيُّون بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ.

فلَوْ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جَمَعَ إلىٰ إعْجَازِهِ في مبانيهِ ومَعَانِيهِ، وإنْزالِهِ على أُمّيٍّ، بُرْهَاناً آخَرَ، فأنْزَلَهُ كتاباً مَكْتُوباً على بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ فِي نَشْأَتِهِمُ النُّطْقَ باللِّسانِ العَرَبيّ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصُّحُفِ المُنَزَّلَةِ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، ولَاسْتَكْبَرُوا بِعُنْجُهِيَّتِهِمْ العَرَبِيَّةِ عَن اتِّباعِ أعْجَمِيٍّ، مَعَ رَفْضِهِمْ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الّتي تُخَالِفُ أهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وتَقَالِيدَهُمْ العَمْيَاءَ.

وفي هٰذا تَيْئِيسٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ مِنْ إيمَانِهِمْ، إذْ وَصَلَتْ حالَتُهُمُ النَّفْسِيَّةُ مِنَ القَسْوَةِ والعِنادِ والاِسْتِكْبَارِ إلى دَرَكَةٍ لَا يُجْدِي مَعَها أنْ يَأْتِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِآيَةٍ حِسِّيَّةٍ عَلَى مَا يَطْلُبُونَ، كَعَصَا مُوسَىٰ، وإحياءِ الموتىٰ لِعِيسَىٰ.

وفي هذا البيانِ تَرْبِيَةٌ للرَّسُول محمّد ﷺ أنْ يَقْطَعَ رَجَاءَهُ عَنْ إيمان أَكْثَرِهِمْ، وأنَّ مِنَ الخَيْرِ أنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أجْلِهِمْ، وأنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ إيمَانِهِم، إذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِحُزْنِهِ عَلَيْهِمْ وهَمِّهِ مِنْ أجْلِهِمْ إلى التَّهْلُكَة، كما قال له في أوائل السُّورَة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

وفي هذا البيان أيضاً دَمْغٌ لَهُم بأنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ جُفَاةٌ مُعانِدُونَ، لَا يَسْتَحِقُّونَ حِرْصَ الرَّسُولِ ﷺ على إيمَانِهِمْ، وحُزْنَهُ وهَمَّهُ مِنْ أجْلِهِمْ، فَهُمْ سَيَلْقَوْنَ مَصيرَهُمْ خِزْياً في الدُّنيا، وسَوْف يَلْقَوْنَ مَصِيرَهُمْ عَذاباً أبديّاً في جَهَنَّم يومَ الدِّين.

قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ كُلِّ المُجْرِمِينَ تُجاهَ القُرْآنِ في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ عَصْرٍ، وأنَّ حَالَ قُلوبهم كحالِ قُلُوبِ أكْثَرِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيش:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾: أي: أدْخلْناه، يُقالُ: «سَلَكَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ»، أي: أدْخلَهُ فِيه، وجَعَلَهُ يَعْبُرُه.

يَدْخُلُ المَحْبُوبُ في القُلُوبِ دُخُولَ مَسَرَّةٍ وإينَاسٍ وإسْعَادٍ، وقَدْ يكونُ مَعْشُوقاً لها.

وتَدْخُلُ الحقائِقُ الإيمَانية في القُلُوبِ الّتي تُحِبُّ الحقّ، فَتُؤْمِنُ بها، وتَعْشَقُها.

وتَدْخُلُ الفضائل الأَخْلَاقِيَّة في القُلُوبِ الّتي تُحِبُّ الفضائل، وتُحِبُّ الخَيْرَ، فتَتَعَلَّقُ القُلُوبُ بها وتَعْشَقُها، وتَرْغَبُ في مُمَارَسَتِها.

وهٰذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في القُلُوبِ، وهِيَ نَتَائِجُ لِاخْتِيارٍ حُرٍّ في داخِلِ الإنْسَان.

ويَدْخُلُ المَكْرُوهُ في القُلُوبِ دُخُولاً مُشْقِياً لَهَا ومُعَذِّباً، فَتَحْمِلُ به حَزْناً، أو هَمّاً وغمّاً، وما دامَ سالكاً فيها فَهُوَ مُعَذِّبٌ لها، ومن أمْثِلَتِهِ الحِقْدُ والْحَسَدُ، والبغضاء، والعَدَاوَة المعذّبَةُ لِلْقُلوب.

ويَدْخُلُ تَصَوُّرُ الحقِّ المَجْحُودِ في القُلُوبِ الّتي لَا تُحِبُّ الحقَّ، فَتَكْفُرُ بِهِ، وتَتَأَلَّمُ مِن انْتِشَارِهِ، ومن قُوَّةِ سُلْطَانِهِ في الأَرْضِ، وكُلُّ خاطِرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَمَسُّهَا بعذاب.

وتَدْخُلُ تَصَوُّراتُ الفَضَائِلِ والمتحلِّينَ بِهَا مِنَ النَّاسِ، في قُلُوبِ مُرْتَكِبِي الرَّذَائِلِ الغَارِقِينَ في أَوْحَالِهَا، فتمَسُّها هٰذه التصوّراتُ بالمكاره،

وتحاوِلُ القُلُوبُ الكارِهَةُ لمُمَارَسَةِ الفضائل جُحُودَها، واتِّهامَ المتحلِّينَ بها بالنّفاق، وابتغاء المصالح الدُّنْيَوِيَّةِ من التظاهر بها.

ومن هذا التَّحْلِيلِ يَتَبَيَّنُ أنَّ مَا يَسْلُكُ في القُلوبِ قِسْمَان:

القِسْمُ الأَوّل: هو القِسْمُ الّذي تَرْغَبُ فِيهِ القُلُوبُ السَّوِيَّةُ، وتَأْنَسُ بِهِ وتحبُّه، وإِذَا كانَ مِمَّا يَجِبُ الإيمان به آمَنَتْ به، وإذا كان مِمَّا يُعْشَقُ عَشِقَتْهُ.

القِسْمُ الثاني: هو القِسْمُ الذي تَنْفِرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ المَرِيضَة، وتتأذىٰ به، وإذا كانَ ممَّا يَجِبُ الإيمانُ به كَفَرَتْ به وجَحَدَتْهُ، وإذا كانَ ممَّا يَحْسُنُ حُبُّهُ، كَرِهَتْهُ وَشَقِيَتْ بِكَرَاهِيَتِهِ له.

وكلُّ ذلكَ خَاضِعٌ لِسُنَنِ اللَّهِ في عباده، الّتي هي من نتائج اختياراتِهِمُ الحرَّة، للحقّ أو للباطل، للخير أو للشّرّ، للفضائل أوْ للرّذائل.

وعلى هذا فالقرآنُ وحقائِقُهُ يَدْخُلُ في قُلوبِ المُجْرِمِينَ دُخُولَ مَكْرُوهٍ مَجْحُودٍ مَكْفُورٍ بِهِ، وهٰذا هُوَ سُلُوكُهُ في قُلُوبِ المُجْرِمِينَ الذين اختاروا بإراداتِهِمُ الحرَّة سُبُلَ الضّلالِ والإثم والجريمة.

ويدخلُ القرآن وحَقَائِقُهُ في قلوب مُحبِّي الحقّ والخير، دُخُولَ مَحْبُوبٍ مُعْتَرَفٍ بِهِ مُحَاطٍ بالإيمان به والإذعانِ له، وهذا هو سلوكُهُ في القلوبِ السَّلِيمَةِ الزكيَّة الطاهرة من أَرْجَاسِ حبّ الإثم والشَّرِّ وارتكابِ الجرائم.

فالمعنىٰ: ومثل سُلُوك القرآنِ في قُلوبِ كُفَّارِ كُبَرَاء قُرَيْشٍ المُجْرِمِينَ، سُلُوكَ كُفْرٍ بِهِ، ونُفُورٍ مِنْهُ، وعَدَاوَةٍ له، نَسْلُكُهُ في قُلُوبِ سَائِرِ المُجْرِمِينَ، من غَيْرِ المَعْنِيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة، في كلِّ عَصْرٍ، وفي كُلِّ أَرْضٍ وقَرْيَة ومِصْر، لأنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الحقّ والخَيْرَ والفَضِيلَةَ، مُتَّبِعِينَ أهواءهم وشهواتِهِمْ وتقاليدهم العَمْياء، ووساوس شياطين الإنْسِ والجنّ وتَسْوِيلاتهم.

وهذا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في عباده الناتجة عن اخْتِيَارَاتهم الحرَّة، بلا جَبْرٍ ولَا إلْزَامٍ قَهْرِيّ، وهو كإحْرَاقِ اللَّه يَدَ مَنْ يَضَعُ يَدَهُ في النّار باختياره الحرّ.

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ المُجْرِمينَ الّذينَ يَصِلُونَ إلى جُحُودِ الحقِّ عناداً ومكابَرَةً، ويَكْفُرُونَ بالقرآن مع فَهْمِهِمْ لقضاياه الدينيّة الّتي أبانَها في آياتِهِ وسُوره:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

فدلَّ هذا البيان على أنّ التجربة في معالجة المدعُوّين، متىٰ قدّمَ المُعَالِجُ فيها كُلَّ وَسَائِل الإقناعِ الفكريِّ بحُجَجِهِ وبَرَاهِينِهِ، وكلَّ وَسَائِلِ الترغيب والترهيب، بما فيها ما يتيسَّرُ مِنْ تَأْلِيفِ القُلُوبِ بعَطَاءٍ ماديٍّ، وكُلَّ ما يَلْزَمُ مِنْ مُجَادَلَةٍ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ حتَّىٰ الإفْحام، ثُمَّ تابع المعالج التذكير بما سَبَقَ عِدَّة مرَّات دُون جَدْوىٰ، صارَ تَغْيِيرُ حَالِهِم إلى الاِسْتِجَابَةِ أمْراً مَيْؤُوساً مِنْهُ، بكلِّ حَدِيثٍ بيانيّ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا تَخْوِيفُهُمْ بقَوابِلِ العَذَابِ الَّذِي كانوا قَدْ أُنْذِرُوا بِهِ ومُقَدِّمَاتِهِ وعَلَامَاتِهِ، فَإذَا رَأوا هٰذِهِ المقدّماتِ والقَوَابِلَ قادِمَةً إلى أرْضِهِمْ ومسَاكِنِهِمْ أوْ مَوَاطِنِ تَجَمُّعِهِم، وأدْرَكُوا أنَّ عَذَابَ اللَّهِ الأليمُ مُحِيطٌ بهم، ونازِلٌ عَلَيْهِمْ لَا مَحالة، فإنَّهُمْ عِنْدَئِذٍ يُؤْمِنُونَ، لَكِنَّ إيمانَهُمْ سَاعَتَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ ولَا يَرْفَعُ العَذَابَ عَنْهُمْ، لأنَّهُ إيمانٌ نَاتِجٌ عَنْ خَوْفٍ مِنْ عذابٍ مَشْهُودِ المقدِّمات، فَهُوَ كالإيمانِ عند طلوع الرُّوح من الجَسَدِ، وشُهُودِ شَيْءٍ من مُقَدِّمات عذابِ الآخِرة وأهوالِها، والمطلوبُ في امتحانِ العباد أن يكونَ إيمانُهُمْ إيماناً بالغيب عن طريق البَرَاهِين الفكريّة، لا إيماناً عن طريقِ الشُّهُود بالحواسِّ الظاهرة.

فدَلَّت عبارةُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ علىٰ أنّ

إيمانَهُمْ في ظروف حياةِ الامْتِحَانِ غَيْرُ مَطْمُوعٍ فيه مُطْلقاً، فَلَا جَدْوَىٰ من مُتَابَعَةِ مُعَالَجَتِهِمْ.

وإذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ إنْزَالَ العَذَابِ عَلَيْهِمْ وإهْلَاكَهُمْ إهْلاكاً جماعيّاً، فإنَّ عذابَ اللَّهِ يَأْتِيهم مُباغِتاً مُفَاجِئاً وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ أوْ هُوَ قادِمٌ عَلَيْهِمْ، ورُبَّما تَوَهَّمُوا أنَّ سَحَابَةَ العذابِ القادمة سَحَابَةُ مَطَرٍ نَافِعٍ، حتَّىٰ إذا فَرِحُوا بها تَسَاقَطَ عَلَيْهِمْ ما يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِهِ عذاباً أَلِيماً، ويَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْمُهْلِكَاتِ الماحقات.

وحِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ العذابُ الأَلِيمُ يَقُولُونَ وهُمْ يَذُوقُونَ الآلَامَ الشَّدِيدَة: هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ قَلِيلاً حتَّىٰ نُؤْمِنَ تائِبِينَ إلى رَبِّنا؟!

ولَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أنْ يُنْظَرُوا، فَقَدِ ٱنْتَهَىٰ وَقْتُ الِابْتِلَاء، وجَاءَ زَمَنُ الجزاء.

• ﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢﴾:

﴿بَغۡتَةٗ﴾: أي: فَجْأَةً دُونَ إشعارٍ سابق، يقالُ لغة: «بَغَتَهُ، يَبْغَتُهُ، بَغْتاً، وبَغْتَةً» أي: فَجَأَهُ وبَهَتَهُ، ويقال: «باغَتَهُ، مُبَاغَتَةً، وبِغَاتاً» أي: فاجَأَهُ.

أَطْلِقَ المَصْدَرُ «بَغْتَةً» في مَوْقِعِ اسم الفاعل «باغِت» أو «مُباغِت»، أوْ هو صِفَة لمفعُول مطلق محذوف تقديره: فَيَأْتِيهِمُ العذابُ إتْياناً بَغْتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ إتيانِهِ. **الشُّعور**: أدْنَىٰ درجاتِ العِلْمِ بالشَّيْءِ، كَمَنْ يُحِسُّ بأنَّ شَيْئاً قَدْ مَسَّ أطراف شَعْره.

• ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣﴾:

أي: فَيَقُولُوا عَقِبَ أنْ يَذُوقوا أوائِلَ عذابِ اللَّهِ لَهُمْ: هَلْ نَحْنُ مُمْهَلُون مُؤَخَّرُونَ قَلِيلاً، حتَّى نَتُوبَ إلى بارِئِنَا ونُؤْمِنَ؟!

﴿مُنظَرُونَ﴾: اسْمَ مَفْعُولٍ، مِنْ فعل «أنْظَرَهُ» بمعنىٰ أمْهَلَهُ وأخَّرَهُ، أي: هَلْ نَحْنُ نُمْهَلُ ويُؤَخَّرُ تَعْذِيبُنَا حتَّىٰ نُؤْمِنَ تائِبينَ إلى بارئنا؟!

لا يَسْتَطِيعُونَ أن يَطْلُبُوا إمْهَالَهُمْ بصريحِ العبارة فقد أُمْهِلُوا كثيراً، فَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ بأُسْلُوبِ الاستفهام، فالاستفهام هنا يُرَادُ به التعبيرُ عن تَمَنِّيهِمْ، وهُمْ على يَقِينٍ بأنّ أُمْنِيَّتَهُمْ لَنْ تَتَحقَّقَ، فَقَدْ عُولِجُوا طَوِيلاً وجَحَدُوا، وكَذَّبُوا بالحقّ الّذي جَاءَهُمْ من عِنْدِ رَبِّهِمْ، ولَا عُذْرَ لَهُمْ فيما كانوا بِهِ مِنْ تَكْذِيبٍ.

قول اللَّه عزّ وجلّ يَصِفُ اسْتِعْجَالَ الكَفَرَةِ المُعَانِدِينَ عذابَ اللَّهِ، إذْ يَقُولُونَ للرَّسُولِ: ائْتِنَا بالعذابِ الّذي تُنْذِرُنا به، ومنهم المَعْنِيُّونَ بالمعالجة في السُّورة، وهم كُبَرَاءُ مُشْرِكِي قُرَيْش:

• ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

دلَّ هذا البيانُ على أنّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ، كانَ قَبْلَ نُزُولِ سورة (الشُّعراء) يُنْذِرُ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ المُكابِرينَ المُعانِدِينَ المكذّبين له، والمكذّبين بما جاءهم عن رَبّ العَالَمِين، بعذابٍ يُهْلِكُهُمْ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهِ، عُقُوبَةً لَهُمْ، شَأْنُهُ في هٰذا كَشَأْنِ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ مَعَ كُفَّارِ أقْوامِهِمْ المُعَانِدِينَ المُكَابِرِينَ الجَاحِدِينَ.

ويَدُلُّ على أنَّ الرَّسُولَ لَمَّا تَابَعَ عَلَيْهِمْ إنْذَارَاتِهِ لَهُمْ، وأطْمَعَهُمْ إمْهَالُ اللَّهِ وتَأْخِيرُهُ إنْزَالَ عَذَابِهِ عليهم، صارُوا يَقُولُونَ للرَّسُولِ ﷺ: أيْنَ العذابُ الّذي تَتَوَعَّدُنَا بِهِ؟ هَيَّ أنْزِلْهُ إنْ كُنْتَ صَادِقاً في أنَّكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وربّما ألَحُّوا عَلَيْهِ بهذا الاسْتِعْجَالِ لإشْعَار جَمَاهِيرِهِمْ بأنَّهُ غَيْرُ صادِقٍ فيما يُخْبِرُ بِهِ مِنْ وَعِيد.

وحِكْمَةُ اللَّهِ المُقْتَرِنَةُ بِعِلْمِهِ المُحِيط بأحْوَالِ نُفُوسِهِمْ، قَدْ قَضَتْ بإمْهَالِهِمْ جميعاً، لأنَّ فِيهِمْ أفراداً لَدَيْهِمُ الاستعدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا إذا أُمْهِلُوا.

فَاسْتَغَلَّ الجَاحِدُونَ المُعَانِدُونَ المُكَابِرُونَ هذا لِتَوْجِيه عبارَاتِ الاسْتِعْجَالِ، بُغْيَةَ تَضْلِيل أتباعِهِمْ بأنّ محمّداً لَيْسَ رَسُولاً صادقاً، وهم في الحقيقة لَا يُرِيدُونَ نُزُولَ العَذَاب عليهم.

وقد تَحَدَّثَ اللّه عزَّ وجلَّ عنهم بحَسَبِ ظاهر أقوالهم، فقال بشأنهم:

• ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾؟! اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أمْرِ استعجالهم العذابَ الذي لا يَفْعَلُهُ من لَدَيْهِ ذَرَّةٌ من فَهَم.

يقالُ لُغة: «اسْتَعْجَلَ الأَمْرَ» أيْ: طَلَبَ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِهِ قَبْلَ أوانِهِ الذي تقتضي الحكمَةُ تحقيقَهُ فيه.

والباء في [**بعَذَابنَا**] تُلَائِمُ الفِعْلَ المضَمَّنَ في فعل «اسْتَعْجَلَ» ويمكن تقديرُهُ بأن نَقُولَ: أَيَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَنَا اسْتِهَانَةً بِهِ، وهُوَ عَذَابٌ لَا يَسْتَهِينُ بِهِ مَنْ لَدَيْهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلٍ أوْ فَهْمٍ أوْ عِلْم، وحِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا يَمْلِكُونَ الدُّنْيَا كلَّها لَقَدَّمُوهَا فِداءً.

فالاستفهام في العبارة استفهامٌ تعجيبيٌّ مِنْ أَمْرِ اسْتِعْجَالِهِمْ عذابَ رَبِّهِمْ، حَمْلاً لاستعجالهم على ظواهر عباراتهم، لَا على مُرَادَاتِهِمْ منها، الرَّامِيَةِ إلى إقناعِ أَتْبَاعِهِمْ بِكَذِبِ الرَّسُول، مُغْتَرِّينَ بإمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ.

❁ ❁ ❁

وجاءَ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ بَعْدَ التَّعْجِيبِ مِن اسْتِعْجَالِهِمْ، إقْنَاعُهُمْ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُباشرٍ لَهُمْ بالخِطَابِ، بَلْ عَنْ طَرِيق مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ بِشَأْنِهِمْ، ومُخَاطَبَةِ كُلِّ مُتَلَقٍّ لخِطابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾:

الفاء في [أَفَرَأَيْتَ] فَصِيحَةٌ تَعْطفُ على مَحْذُوفٍ يُدْرَكُ بالتأمُّل، ويُمْكِنُ تَقْدِيره بما يلي: أفكَّرْتَ في حَالِ هٰؤُلَاءِ المُعَانِدِينَ المكذّبين، فرَأَيْتَ بفِكْرِكَ وعَلِمْتَ، أنَّنا إنْ مَتَّعْنَاهُمْ عِدَّةَ سِنِينَ بأنواعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيا، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَ هٰذِهِ السِّنِينَ مَا كانُوا يُوعَدُونَ مِنْ عَذَابٍ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِمْ بَلَاغاً عَنَّا، فَسَيَجِدُونَ أنْ كُلَّ مَتَاعٍ تَمَتَّعُوهُ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيا ولَذَّاتِهَا وشَهَوَاتِهَا مَا صَرَفَ عَنْهُمْ شَيْئاً من العذَابِ الألِيمِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ تَحْقِيقاً لِلْوَعْدِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَهُ.

إنَّ الإِمْهَالَ والإنظارَ مع واقعِ حالِ قُلُوبِهِمْ المَرِيضَة يُطِيلُ مُدَّة استمتاعِهِم بمتاعاتِ الحياة الدنيا الزائِلَةِ الفانيَة، فماذا يَفْعَلُونَ بَعْدَهَا بالْعَذَابِ الخالِدِ الأبَدِيّ في الجحيم.

هَلْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ذِكْرياتُ المَتاعِ الّذي مَتَّعْنَاهُمْ إيَّاهُ في الحياة الدُّنْيا شيئاً من عذابِ يومِ الدِّين، أو تُخَفِّفُ عَنْهُم شَيْئاً مِنْ مَقَادِيرِ أنْوَاعِ العَذابِ؟!

لَقَدْ كانَ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ أنْ يَدْفَعُوا عَنْهُمُ الخلود في عذابِ النَّارِ بالتَّنازُلِ عَن كبرهم وعنجهيّاتهم وحمَاقَاتِهِمْ، وإعلانِهِمُ الإيمان والإسلام، ولَنْ يَخْسَرُوا مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنيا إلَّا شَيْئاً قَلِيلاً هو ما حَرَّمَهُ اللَّهُ على عباده، إذا استقاموا، ويَحْمُونَ أنفسهم من الخلود في عذابِ النار إذا لم يَسْتَقِيمُوا.

❁ ❁ ❁

قول اللَّه عزَّ وجَلَّ:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

هذا البَيَانُ مَوْصُولٌ بما جاء في السُّورَة بشأْنِ الأُمَمِ الَّتي جاءَ بيان إهلاكها، وهم فرعون وجنوده، وقَوْمُ نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط،

وأصحابُ الأيكة، ودلَّتْ أحْدَاثُ إهْلَاكِ هؤلَاءِ المُهْلكين على أنَّ اللَّهَ قدْ أَرْسَل إلَيْهِمْ رُسُلاً أبْلَغُوهم رِسالَاتِ رَبِّهِمْ، وقامُوا بوَظَائِفِهِمْ الدَّعَوِيَّة أحْسَنَ قيام، وكانَ آخِرُ أمْرِ كلٍّ مِنْهُمْ أنْ أنْذَرَ الَّذِينَ أصَرُّوا مِنْ قَوْمِهِ على الكُفْرِ والتَّكْذِيب عِناداً ومُكابَرَةً على الباطِلِ، بعذابٍ يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ بِهِ إهلاكاً مُسْتَأْصِلاً، وقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الواقِعِ ما كانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ.

واقتضىٰ هٰذا التفصيلُ الجُزْئِيُّ إصْدَارَ قاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَكْشِفُ سُنَّةَ اللَّهِ في كُلِّ عِبَادِهِ، وهِيَ أنَّ كُلَّ أهْلِ قَرْيَةٍ قَدْ أَهْلَكَهُمُ اللَّه فإنَّهُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ إلَّا بَعْدَ أنْ أرْسَلَ لَهُمْ مَنْ أبْلَغَهُمْ دِينَهُ، وبيَّنَهُ لَهُمْ، ووعظهم وذكَّرَهُمْ وقام بكلِّ وظائِفِهِ الدَّعَوِيَّةِ فيهم، فلَمَّا أصَرُّوا على الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ والجحودِ عناداً واسْتِكْبَاراً، أنْذَرَهُمْ بأنّ اللَّهَ سَيُنْزِلُ بهم عذاباً مُهْلكاً، وتمَّ في الواقع تحقيقُ ما كان أنْذَرَهُمْ به.

ويَدْخُلُ ضِمْنَ هٰذِهِ القاعِدَة الكلِّيَّة وُصُولُ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ مع كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ المعنيّين بالمُعالَجة في السّورة، إلى مَرْحَلةِ الإنْذارِ الأخيرِ بعذابٍ مُهْلِكٍ لَهُمْ، وقَدْ أَلْمَحَتْ إلىٰ هٰذِهِ المَرْحَلَةِ الأخيرة الآية (١٩٤) في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في السّورة بشأن القرآن، وخطاباً لرسوله:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

أي: لِتَكُونَ مُنْذِراً بالعذابِ المُهْلِكِ مِن المُنْذِرِينَ الَّذِينَ أنْذَرُوا أقْوامَهُم بعذابٍ مُسْتَأْصِلٍ، مَعَ إنْذارِهِمْ لَهُمْ بِعَذَابٍ أبَدِيٍّ يَوْمَ الدِّينِ في الجحيم.

المعنى: فكونُوا يا كُبَرَاءَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ في حالَةِ توقُّعِ تحقيقِ ما أنذرَكُمْ بِهِ رَسُولُنا مُحَمّد.

وتَحْلِيلُ الآيَة كما يلي: ومَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ في تاريخ الناس، في حالٍ من الأحوال، إلَّا في حَالِ أَنَّهُ قَدْ كانَ لَهُمْ مُنْذِرُونَ قد أَنْذَرُوهُمْ عَذَابَ رَبِّهِمْ المُهْلِكَ، فتمرَّدُوا وعَانَدُوا واسْتَكْبَرُوا فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا، إذ استحقّوا ذلك بمقتضىٰ الحِكْمة.

«مِنْ» في ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ زِيدَتْ لتأْكِيدِ العُمُومِ والتَّنْصِيصِ عليه.

﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: استثناء من عُمُومِ الأحوال.

﴿ذِكْرَىٰ﴾: تأتي هذه الكلمة للدّلالة على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ للتَّذْكِيرِ. أي: يأتي في القُرْآنِ تَكْرِيرُ بيانِ إهلاك الكَفرةِ المُجْرمين السَّابِقين، بَعْدَ إنذار رُسُلِهِمْ لهم بالإهلاك، إذا أصَرُّوا على كفرهم وعِنادهم وجحودهم، تَذْكِيراً بهٰذِه السُّنَّةِ من سُنَنِ اللَّهِ في عباده.

المعنى الثاني: الذِّكْرى: اسْمٌ للتَّذْكِرَة. أي: نَضَعُ أَمَامَ النَّاس أَمْثِلَةَ إهْلاَكِنَا المُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ، لتكونَ بمثابَةِ بِطَاقَةٍ مُذَكِّرَة، أو أيَّةِ وسيلَةٍ مُذَكِّرَةٍ كالرَّتِيمَة، تُذَكِّرُ بِسُنَّتِنَا في عبادِنا المجرمين.

المعنىٰ الثالث: الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ لتَذَكُّرِ. وهذا المعنى مُسْتَبْعَدٌ هُنا فيما أرى.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: أي: وما كُنَّا بِإهْلاَكِنَا المُجْرِمِينَ مِنْ أهلِ القُرَىٰ السَّابِقِينَ ظَالِمِينَ، بَلْ كُنَّا عَادِلِينَ نَتَصَرَّفُ بِكَمَالِ الحِكْمَةِ.

وفي هٰذا إلْمَاحٌ إلى أنَّ إهْلاَكَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لأمْثَالِ الأوَّلِينَ، مِنَ المُجْرِمِينَ الآخِرِينَ تحقيقاً لسُنَّتِهِ في عباده، لَنْ يَكُونَ فِيهِ ظالماً، بل يكونُ فيه عادِلاً يَتَصَرَّفُ في عبادِهِ بكمال حِكْمَتِهِ.

فَلْيَتَوَقَّعِ المُجْرِمُونَ مِنَ الآخِرِينَ تَحْقِيقَ سُنَّتِنَا فيهم، مَهْمَا عَلَوْا في الأَرْضِ، وكانُوا فيها ذَوِي قُوىً قاهِرَةٍ، ومَهْمَا كانوا فيها جَبَّارِين.

❀ ❀ ❀

قول اللَّه عزّ وجلّ بِشَأْنِ القرآنِ، رَدّاً على افْتِرَاءِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، بأنَّ الْقُرْآنَ يُوحِي بِهِ إلى مُحَمَّدٍ رَئِيٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ، كما يوحي القرينُ مِنْهُمْ للشَّاعِرِ أجْمَلَ شِعْرِه:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾:

في هٰذهِ الآياتِ الثّلاثِ بيانُ أرْبَعَ قَضَايَا لِدَفْعِ مَزَاعِم أئِمَّةِ التّضليل من كُبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، المَعْنِيِّينَ بالمعالجة في السّورة:

القضيَّة الأُولىٰ: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾: أي: وما تَنَزَّلَتْ بالقُرْآنِ الشَّيَاطِينُ على مُحَمَّد، إذ دَلَالَاتُ آيَاتِ القُرآنِ الدّينيَّة المُشْتَمِلَةُ على الحقِّ والخَيْرِ وفضائِلِ السُّلُوكِ الفَرْدِيّ والاجتماعي، والمُشْتَمِلُ على الجَزاءِ الثوابيّ بفَضْلِ اللَّهِ للمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحات، والجَزَاءِ العِقَابِيّ بعَدْلِ اللَّهِ لِلْكفَرَةِ والجَاحِدِينَ والآثِمينَ بفِعْلِ السَّيِّئَاتِ، تتَنَافَىٰ تَنَافِياً كُلِّيّاً مَعَ أهْدَافِ الشّياطِينِ القائِمَةِ على الإغْوَاءِ والتّضليلِ عن الحقِّ وصِرَاطِ اللَّهِ المُسْتَقِيم.

فبَيْنَ أهْدَافِ الشّياطين ومسَالِكِهِمْ، وما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن، تَبَايُنُ التضادّ والتناقُضِ، فالقرآنُ لَا تَتَنَزَّلُ بِهِ الشّياطين.

إنَّ الشياطينَ إذا أوحَتْ شيئاً إلى قُرنائِهِمْ مِنَ البَشَر، فإنَّها تُوحِي بالكُفْرِ باللَّهِ، وبجُحُودِ الحقِّ، وبإنْكَارِ الجزاءِ، وبالتّكْذيبِ بيَوْم الدِّين، وبنَشْرِ كلّ رَذِيلَةٍ، وبمُحَارَبَةِ كلّ فَضِيلَة، وتُزَيِّنُ كلَّ ذٰلِكَ بزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ، لِلإِيهَامِ بصِحَّةِ ما تُوحِي بِهِ وتَدْعُو إلَيْهِ.

وأمّا غَيْرُ الشَّيَاطِين مِنَ الجِنِّ، فَإذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ يَخافُونَ عذابَ اللَّهِ فَلَا يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ، وَإذَا كانُوا أصْحَابَ أدْيَانٍ ومَذَاهِبَ مُنَافِيَةٍ لِلإِسْلَام، فَإِذَا شَاءَ بَعْضُهُمْ أنْ يُوحِيَ إلى بَشَرٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يُوحِي بِمَا يُؤَيِّدُ دِينَهُ أوْ مَذْهَبَهُ، ولَا يُوحِي بما يُضَادُّه أوْ يُنَاقِضُه.

وبهٰذا تَسْقُط فِرْيَةُ أنَّ الْقُرْآنَ أمْلاهُ على مُحَمَّدٍ قَرِينٌ لَهُ أوْ قُرَنَاءُ مِنَ الجِنِّ، شَيَاطِينَ كَفَرَةً أوْ غَيْرَ شَيَاطِينَ.

القضيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: أيْ: وَمَا يَصْلُحُ للشَّيَاطِينِ، وَمَا يَتَسَهَّلُ لَهُمْ أَنْ يُوحُوا بالقرآنِ لأحَدٍ.

فمبادئُ القُرْآنِ، وَتَعْلِيمَاتُه، وَوَصَايَاهُ، مُنَافِيَةٌ لِمَبَادِئِ الشَّيَاطِينِ، وتَعْلِيماتِهِمْ، وَمَا يَحْرِصُونَ على إغْرَاءِ النَّاسِ به. وإعْجَازُ القرآنِ في مبانيه، وفي معانِيهِ، مِمَّا تَعْجَزُ الشَّيَاطِينُ عَنْهُ، ويَعْجَزُ عَنْهُ سَائِرُ الجِنِّ والإِنْسِ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ ولَا لِغَيْرِهِمْ أَنْ يُوحُوا به.

القضيَّة الثالِثَة: دلَّ علَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أي: وَمَا يَسْتَطِيعُ الشَّياطِينُ أنْ يُؤَلِّفُوا القرآنَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ هُمْ وكُلُّ الجِنِّ مَعَ الإِنْسِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْتَرِقُوا اسْتِمَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، إذْ عُزِلُوا بالقَهْرِ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ، كما سَبَقَ بَيَانُهُ لدَىٰ تَدَبُّر سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

حُذِفَ المفعول به وهو مُلَاحَظٌ تقديراً، ويَسْهل إدْرَاكُهُ ذِهْناً.

القضيَّة الرابعة: دلَّ علَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾، أي: لَمُبْعَدُونَ مَطْرُودُونَ.

يُقالُ لغة: «عَزَلَهُ يَعْزِلُهُ عَزْلاً» أي: أَبْعَدَهُ ونَحَّاهُ.

وسبق لدَى تدبُّر الآيات من (٨ ـ ١٠) من سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) شَرْحُ وتَفْصِيلُ عَزْلِ الجنّ عن اسْتِراقِ السَّمْعِ مِنَ المَلَائِكَةِ في السماء، وهي قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً لِأَقْوَالِ النَّفَرِ مِنَ الجنّ الّذين اسْتَمَعُوا القُرآنَ من الرَّسُولِ ﷺ وآمَنُوا بِهِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

قول اللَّه عزَّ وجلَّ خِطاباً للرَّسُولِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ في توجيه تَرْبَوِيّ، موصول بالآيتين (٣ و٤) في أوَائِلِ السُّورة، وبالآياتِ من (١٩٢ ـ ١٩٦) من أوّل هذا الدرس الثالث.

• ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَى [فَتَوَكَّلْ] بالْفاءِ بَدَلَ الواو، والقراءتان متكاملتان في الدَّلالةِ على المَعْنَىٰ المُراد، أي: فإنْ عَصَوْكَ عِصْياناً شَدِيدَ الإيلام لقلبِكَ ونَفْسِكَ، فبَاشِرْ دون إبطاء بالتَّوَكُّلِ على رَبِّكَ العزيز الرَّحِيم. وإنْ عَصَوْكَ عِصْياناً عادِيّاً مُتَحَمّلاً بالصَّبر، فأنْتَ في فُسْحَةٍ مِنْ أَمْرِكَ أنْ تُبْطِئَ قَلِيلاً بِإعْلَانِ توكُّلِكَ على العزيز الرَّحِيم، لأن «الواو» لَا تقتضي ترتيباً ولا تَعْقِيباً.

هذا التوجيه التربَوِيُّ يَشْتَمِلُ على أرْبَعِ قضايا:

القضيَّة الأولى: دلَّ عليها قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾:

أي: فتفريعاً على كَوْنِ القرآن تنزيلَ رَبِّ العالَمِين، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ على قَلْبِكَ يا مُحَمَّدُ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ، لَا تَدْعُ لَدَىٰ قِيامِكَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ مَعَ اللَّهِ مَعْبُوداً آخرَ غَيْرَ اللَّهِ، فتكُونَ إنْ دَعَوْتَ إلٰهاً آخَرَ

مَعَ دُعَائِكَ اللَّهَ مُعَذَّباً مِنَ المُعَذَّبِينَ المُشْرِكِينَ، لأنَّكَ بِدُعَائِكَ إلٰهاً آخرَ تَكُونُ مُشْرِكاً مِنَ المُشْرِكِينَ، أي: بعبادتِكَ إلٰهاً آخر.

خاطَبَ اللَّهُ رَسُولَهُ بهٰذا الخِطَاب، مَعَ أَنَّهُ ﷺ ما كانَ، ولَا هُوَ كَائِنٌ عِنْدَ الخطاب، ولَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبلاً مِنَ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ويَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخرَ، إذْ هُوَ مَعْصُومٌ عَنْ كُلِّ مَعَاصِي مَرْتَبَةِ المُتَّقِينَ بِعِصْمَةِ اللَّهِ لَهُ، لِيَعْلَمَ الكَافِرُونَ، ولِيَعْلَمَ المُؤْمِنُونَ ولا سِيَما الدُّعاة إلى اللَّهِ مِنْهُمْ، أنَّ الرَّسُولَ مُخَاطَبٌ بعَقَائِدِ الإيمانِ وبِشَرَائِعِ الإسْلَامِ وأحْكَامِهِ بِوَصْفِهِ أَوَّلَ مُخَاطَبٍ بها، فَلَا إعْفَاءَ لَهُ بِاعْتِبَارِهِ رَسُولاً مَفَضَّلاً مُخْتَاراً، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَوّلَ المُؤْمِنِينَ، وأَوَّلَ المُسْلِمِينَ، والأُسْوَةَ الحَسَنَةَ لِكُلِّ المُكَلّفِين.

وإذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ وحَبِيبُهُ المُصْطَفَىٰ غَيْرَ مَعْفِيٍّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَذّباً مِنَ المُعَذَّبِينَ، لَوْ أَنَّهُ أَشْرَكَ فَدَعَا مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ دُونَهُ مِنَ المَنْهِيّينَ عَنْ أَنْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئاً، أَوْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إلٰهاً مَعْبُوداً آخر.

﴿فَلَا تَدْعُ﴾ : أَصْلُ معنى الدُّعَاء، النّداءُ، والطَّلَبُ، والدُّعاء للَّهِ مِنْ أجَلِّ أنواعِ عبادَتِهِ، وحَمَلَ الدُّعَاء مَعْنَىٰ العبادَةِ بوجهٍ عامّ في الاستعمال.

فالمعنى: فَلَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ إلٰهاً آخر.

القضيَّة الثَّانِيَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾: وهذا يَنْسَحِبُ على كلّ داعٍ إلى اللَّهِ من أُمَّتِهِ.

هذه الآيَةُ تَكْشِفُ أنَّ الّذِينَ حَزِنَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ أَجْلِهِمْ وحَمَلَ هَمَّ الخَوْفِ عَلَيْهِمْ أنْ لَا يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، فيكونوا مِنَ الخالِدِينَ في عذابِ النَّار يوم الدّين، والّذِين قال اللَّهُ له بشأْنهم في أوَائِل هذه السُّورَة: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، قَدْ كانَتْ عَشِيرَتُهُ الأَقْرَبُونَ من أكثر الّذِينَ كانَ يُعَانِي الحزْنَ والهَمَّ مِنْ أَجْلِهِمْ، خَوْفَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وإذْ قَدْ

وَصَلَ هٰؤُلَاءِ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا أنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيق إراداتهمُ الحرَّة، وأنَّ حَالَتَهُمْ يُنَاسِبُهَا تَوْجِيه الإنْذارِ الختامِيّ لَهُمْ، فَقَدْ عَالَجَهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ بكُلِّ مَرَاحِلِ العِلَاجِ البياني، مع شَيْءٍ من عِلاجِهِمْ بالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، وِفْقَ سُنَّةِ اللَّهِ في الأُمَمِ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ.

والمَعْنَىٰ: فَوَجِّهْ إنْذَارَكَ الخِتَامِيَّ لِلْمَعْنِيِّينَ بالمُعالَجَةِ في هٰذِهِ السُّورَة، وابْدَأْ بإنْذَارِ عَشِيرَتِكَ الأَقْرَبِينَ مِنْهُمْ، لأنَّ البَدْءَ بِهِمْ يَدُلُّ الآخرين على أنَّكَ مُتَجَرِّدٌ في دَعْوَتِكَ مِنْ عَوَاطِفِكَ نَحْوَ الأقْرَبِينَ مِنْ عَشِيرَتِكَ، إذْ إنَّكَ تَبْدَأُ بِهِمْ في تَوْجِيهِ الإنْذَارِ الختامِيّ لَهُمْ، بأنَّهُمْ قَدْ عَرَّضُوا أنْفُسَهُمْ لانْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ بإنْزَالِ العَذَابِ المُهْلِكِ لَهُمْ، وتَفْعَلُ هٰذا طاعَةً لِرَبِّكَ، وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

هذا الفهم هو الّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّبَاقُ والسِّيَاقُ في السُّورَة.

ولٰكِنْ يُشْكِلُ مَعهُ مَا جَاءَ في صَحِيحِ البخاريّ عن ابْنِ عباس أنّ آيَة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وتطبيقَ الرَّسُولِ ﷺ لها بإنْذارِ عَشِيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ، قَدْ نَتجَ عَنْهُ قولُ أبي لَهَبٍ للرَّسُولِ: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، ألِهٰذا جَمَعْتَنَا؟! فنزلَتْ سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾، وهِيَ فيما ذَكَرُوا السُّورَة السَّادِسَةُ مِنَ التَّنْزِيلِ المكّي، وتَرْتِيبُ سورة (الشّعراء) عِنْدَ عُلَمَاءِ عُلُومِ القرآن (٤٧) ولَيْسَ في هذه السُّورَةِ ما يُشْعِرُ بأنَّها مِنْ أوائِلِ التّنزيل المكيّ.

والحلّ أنّ آيَةَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قَدْ نَزَلَتْ على الرَّسُولِ تَكْلِيفاً قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (المَسَد) فأدَّىٰ الرَّسُول ﷺ ما جاء فيها تبليغاً وإنْذاراً أوَّلِيّاً، ثُمَّ نَزَلَتْ في سُورَةِ (الشعراء) لِيُقَدِّمَ لِعَشِيرَتِهِ الإنْذَارَ الأخِيرَ، بَعْدَ وُصُولِهِم إلى دَرَكَةٍ مَيْؤوسٍ معها مِنْ إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرادَاتِهِمُ الحرَّة[1].

---

(١) فتح اللَّهُ عليّ بهذا الفهم، مستفيداً ممَّا ذكره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية في سورة (الشعراء) مع مخالفةٍ له في بعض الرأي.

﴿عَشِيرَتَكَ﴾: عَشِيرَةُ الرَّجُلِ بَنُو أَبِيهِ الأَقْرَبُونَ، وقبيلتُه.

مِمَّا وَرَد في السُّنَّة بِشَأْنِ آيَة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ عن عائِشة، وابنِ عباسٍ، وأبي هريرة:

«لمَّا نزلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على الصَّفَا، فدَعَا قُرَيْشاً فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْر، يا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فقالَ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فعَمَّ وخَصَّ، يا بني كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَنقِذُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا».

أي: سَأَرُشُّ عَلَيْهَا مَاءً مِنْ عِنْدِي في الحياةِ الدُّنْيا، وفي هذه العِبارة كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ سَيَصِلُهُمْ في الدُّنْيَا بِصِلاتٍ تَقْتَضِيهَا الرَّحِم، ولكنَّه لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ بِنَافِعَةٍ إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا.

(٢) ورَوىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:

«لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشاً وعَمَّ وخَصّ، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ

النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي قُصَيّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، يَا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمّد، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّها بِبِلَالِها».

(٣) وروىٰ البخاريّ عن ابْنِ عبّاسٍ قال:

«لمَّا نزلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ صَعَدَ النَّبِيُّ علىٰ الصَّفَا، فجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْر، يا بَنِي عَدِيّ، لِبُطونِ قُرَيْش، حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا فجَعَلَ الرَّجُلُ إذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً، لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فقال:

«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أنّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»

قالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقاً.

قال: «فإنّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

فقال أبو لَهَب: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْم، إلهٰذا جَمَعْتَنَا؟!

فــنــزلــت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾.

وتوجَدُ رِوايات أخرى، منها الصحيح ومنها الضعيف، أوْرد عدداً منها ابنُ كثيرٍ في تفسيره.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾: وهٰذا التَّوْجِيهُ يَنْسَحِبُ أيضاً على الدُّعاة إلى اللَّه مِنْ أُمَّةِ محمّد ﷺ، وعلى أئِمَّةِ المُتّقِينَ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِهِمُ المُؤْمِنُونَ عِلْماً وعَمَلاً.

والمراد بخفض الجَناح للمؤمنينَ، التَّواضُعَ لَهُمْ، والرَّحْمَةُ المُلْتَصِقَةُ بهم، والحُنُوُّ عَلَيْهِمْ، وضَمُّ أفرادِهِمْ كأنَّهُمْ أُسْرَةٌ واحِدَةٌ، والهيمَنَةُ عليهم.

هكذا يخفضُ الطائر الحَانِي جَناحَهُ على فِراخِهِ تواضعاً، وحنوّاً، ورَحْمَةً، وضَمّاً، وهَيْمَنَةً. وقَيْدُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْعِرُ بِأَنَّ مَنْ يَتَّبِعُكَ مِنَ المنافقين لَا يَسْتَحِقُّون أن تخفض جناحك لهم.

هذه العبارة: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ هي من التشبيه المكنِيّ (وهو تَشبيهٌ مُضْمَرٌ لم يُذْكَرْ فيه لفظُ المُشَبَّهِ بهِ، وإنَّما ذُكِرَ فيه بَعْضُ صِفاتِهِ، أو بعضُ خصائصِهِ، أو بعضُ لوازمه) وأصْلُهُ تَشْبيه بَلِيغٌ[١].

ففي هذه العبارة تَشْبِيهُ التواضُعِ والرَّحْمَةِ وضمِّ الأفرادِ والهَيْمَنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ الإمام لِمَنِ اتَّبَعَهُ، بخَفْضِ الطَّائِرِ جناحَهُ مُنْكَسِراً لِفراخِهِ، ولكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبِيه، فَلَمْ يُذْكَرْ لَفْظُ المُشَبَّهِ به، وإنَّما كُنِّيَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفاتِهِ وهُوَ الجناح.

فالمعنىٰ: لتَكُنْ في تواضُعِكَ ورَحْمَتِك وحُنُوِّكَ وهَيْمَنَتِكَ كطَائِرٍ يَخْفض جَنَاحَهُ لفراخِهِ، فحُذِفَتْ أوّلاً أداةُ التشبيهِ، فصارَ تَشْبيهاً بَلِيغاً، ثُمَّ حُذِفَ لفظ المشبَّهِ به، ورُمِزَ إلَيْهِ بشيءٍ من صفاتِهِ، وهو الجناح، الّذي يخفضُهُ الطائِرُ لفراخِهِ تَذَلُّلاً ورَحْمَةً وحُنُوّاً.

---

(١) اعتبار هذا المثال ونظيره من التشبيه المكني، هو ما ترجّح لديّ في كتابي: «البلاغة العربيّة»، ويجعلُه كثير من الباحثين والكاتبين من الاستعارة التخييليّة المكنيّة، بسَبَبِ عدم فرز قسم التشبيه المكنيّ عن التشبيه البليغ. انظر: «التشبيه المكني» في الصفحات من (٢٠٤ ـ ٢٠٨) منه.

الخفض في اللُّغة: التواضُعُ ولين الجانب، والمَيْلُ إلى المنخفض مِنَ الأرض، وهو ضدّ الرفع.

القضيَّة الرابعة: دلَّ عليها قول اللَّه عزّ وجلّ لِرَسُولِهِ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: وهـذا التوجيه يَنْسَحِبُ أيضاً على الدُّعاةِ إلى اللَّهِ.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: أي: فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتِكَ، ولَمْ يُؤْمِنُوا، ولَوْ كانُوا عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين.

﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أي: فَقُلْ لَهُمْ بِصَرَاحَةٍ لَا مُدَارَاةَ فيها ولَا مُصَانَعَة: إنّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُون. أي: إنّي مفارقٌ ومُبْتَعِدٌ ومُتَخَلٍّ عَمَّا تَصْنَعُونَ، ولَنْ أدْفَعَ عَنْكُمْ شَيْئاً من عقاب اللَّهِ، وقرابتي لن تَنْفَعَكُمْ بشيءٍ.

ولمَّا كانَ الكُفْرُ بالحقِّ مِنْ أعْمَالِ القُلُوبِ الإراديَّة، كانَ إعْلَانُ تبرّئِهِ مِمَّا يَعْمَلُونَ تبرُّأً مِنْ كُلِّ كُفرياتِهِمْ، وآثامِهِمْ الظاهِرَة والباطِنَة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[فتوكل]** وسبَقَ بَيَانُ التَّكامُلِ بَيْنَ القراءَتَيْن.

وفي الأمْرِ بالتَّوَكُّلِ إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّهُ رُبَّما يُلَاقِي من الّذِينَ يُعْلِنُ لهم براءَتَهُ ممَّا يَعْمَلُونَ، إرادةَ شَرٍّ أو ضُرٍّ أو أذىً، وعَلَيْهِ تُجاهَ ما يَتَوَقَّعُ مِنْهُمْ ضِدَّهُ أو ضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أنْ يَتَوَكَّلَ على رَبِّهِ العزيزِ الرّحيم.

﴿وَتَوَكَّلْ﴾: أي: وَوَجِّهْ قَلْبَكَ للتَّوَكُّلِ على اللَّهِ رَبّك، وحَرِّكْ فِكْرَكَ ولِسانَكَ بعِبَارَة: تَوَكَّلْتُ على العَزِيزِ الرَّحِيم.

التَّوَكُّلُ على اللَّه: الاسْتِسْلامُ إلَيْهِ، وتَفْوِيض تَدْبيرُ الأُمُورِ وتَحْقِيقِ المَرْجُوِّ إلَيْهِ، مَعَ القِيَامِ بالأسْبَابِ المُسْتطاعةِ، المادِّيَّة والمَعْنَوِيَّة طاعَةٍ لأمْرِ اللَّهِ ونَهْيِهِ.

يقال: «تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُ تَوَكُّلاً»، أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعتماداً صادِقاً، مُسْتَسْلِماً لما يختارُهُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ، مع قيامه بالأسْباب الكَوْنِيَّة، الّتي لَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ اتِّخاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بِشَيْءٍ منها.

واخْتِيرَ هُنا بعِنَايَةٍ اسْمُ اللَّه «العزيز» واسْمُ اللَّهِ «الرَّحِيم» إذْ يَقْصِمُ بعِزَّتِهِ مَنْ أَرادَ المتوكِّلَ عَلَى رَبِّهِ بِسُوء. ويَشْمَلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، فيَحْمِيهِ ويَحْفَظُهُ ويُعِينُهُ.

العزيز: القَوِيُّ الغَالب، من قولهم: مَنْ عَزَّ بَزّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

الرَّحِيم: أي: العظيمُ الرَّحْمَةِ كمّاً وكَيْفاً.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾:

أي: إنَّ تَوَكُّلَكَ على رَبِّكَ العَزِيزِ الرَّحِيم مَعْلُومٌ لَهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ من أُمُورِكَ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ صَغِيرَةٌ ولَا كَبِيرَة.

وأعْلَمَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنَّهُ يَرَاهُ حِينَ يَقُومُ عابداً رَبَّهُ بالقيام ليلاً، وحِينَ يَتَقَلّبُ رَاكِعاً وسَاجِداً لِرَبِّهِ ضِمْنَ السَّاجِدِينَ، وحِينَ يَذْكُرُ اللَّهَ في صَلَوَاتِهِ، وحِينَ يَدْعُوهُ مُتَضَرِّعاً له.

السُّجُود: يَشْمَلُ الرُّكُوعَ لُغَةً، إذْ هُوَ الانْحِناءُ والتَّطامُن، وغايَتُهُ وَضْعُ الجَبْهَةِ على الأرض.

ودَلَّ على أنَّهُ في صَلَواتِهِ يَتْلُو القرآن، ويُرَدِّدُ الأذكار، ويَدْعُو رَبَّهُ، ما جاء في الآيَةِ التالية:

• ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: أي: إنَّ العَزِيزَ الرَّحِيمَ هو وَحْدَهُ في الوجود السَّمِيعُ لكلّ شَيْءٍ والعَلِيمُ بكُلّ شَيْءٍ، فبِعِزَّتِهِ وبِرَحْمَتِهِ يَنْصُرُهُ على مَنْ يُرِيدُهُ بِسُوءٍ أو ضرٍّ أو شرّ.

فالسَّمِيعُ العليم البصير العَزيزُ الرَّحيم، لَنْ يتخلَّى عن نُصْرَة من يَتَوَكَّلُ عليه من عباده، فكَيْفَ به إذا كان رَسُولاً من رُسُلِهِ المصطفَيْن الأخيار، ثم كَيْفَ به إذا كانَ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ.

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

في هذه الآيات عَوْدٌ لِلْحَدِيثِ عن الشياطين الوارد قَبْلَ ثَمَانِي آيات، على طَرِيقَةِ القرآنِ في المُرَاوَحَةِ، ونَقْلِ الطَّاعِمِ مِنْ مَائِدَتِهِ عَنْ لَوْنٍ من ألوانِهَا إلى غَيْرِهِ، والعَوْدَةِ بِهِ إلَيْهِ، لما في هٰذا مِنْ تَجْدِيدِ نَشَاطِ الذِّهْنِ لتناوُلِ المعارف والبيانات الَّتي اشْتَمَلَ عليها.

سبقَ أن جاء في الآيات من (٢١٠ ـ ٢١٢) قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ القرآن:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

أمّا الآيات من (٢٢١ ـ ٢٢٣) فالحديثُ فيها يتَعَلَّقُ بالكُهَّانِ الَّذين تَتَنَزَّلُ عليهم الشياطين، لِبَيانِ الفارقِ العَظِيمِ بَيْنَ مَنْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وبَيْنَ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الوَحْيُ من لَدُن رَبِّ العَالَمِينَ، ومِنْهُمْ رَسُولُهُ العظيم مُحَمَّدُ بن عَبْد اللَّهِ ﷺ.

إنّ الفارقَ بَيْنَهُمَا كالفارِقِ ما بَيْنَ العَرْشِ وبَيْنَ مَسَاكِنِ الشياطِين في الأرض.

فالرَّسُولُ الَّذِي يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ بآياتٍ من عِنْدِ اللَّهِ، طاهِرُ القَلْبِ، طاهِرُ النَّفْس، ذو خُلُقٍ عظيم، واسْتِقَامَةٍ بحَزْمٍ وعَزْمٍ على فضائل السُّلُوكِ،

وعلى مُخْتَلِفِ أنواع الكمالات، ومنها الصِّدْق والأَمَانَة والعِفَّة.

أمَّا مَنْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشّياطينُ كالكُهَّانِ، فَمِنْ صفاتهم الواضِحَاتِ فيهم أنَّهُمْ أفّاكُون، كذَّابُونَ يَصْرِفُونَ عن الحقِّ والخيرِ والهُدَىٰ، وَيَدْعُونَ آلهةً شُركاءَ للَّهِ مِنْ دُونِهِ، فَهُمْ فاسِدُونَ كالشياطِين الّتي تَتَنزَّلُ عليهم.

• ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾:

استفهامٌ يُرادُ به استثارةُ حوافِزِ النَّفْسِ، لمعرفةِ الفِئَةِ من النَّاسِ الذين تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِين، فَتُوحِي إِلَيْهِمْ بالضَّلاَلاَتِ، وزُخْرُفِ الأقوال، ويُرادُ به الإخبارُ بأمْرٍ حقٍّ، أيْ: إنّي أُنَبِّئُكُمْ بصفاتِ الفِئَةِ من الناس الَّذِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فاسْمَعُوا وعُوا، وقارِنُوا بَيْنَ صِفَاتِ الرُّسُلِ وصِفاتِ الكُهَّان.

• ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جوابُ مَنْ يقول: نعم على الاستفهام بحرف الاستفهام [هَلْ].

﴿أَفَّاكٍ﴾: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل من فِعْلِ: «أفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وإفْكاً، وأُفُوكاً» و«أَفِكَ، يَأْفَكُ، إفْكاً»، وهذا الفعل وتصاريفه يأتي بمعنَىٰ «كَذَبَ عامداً مُفْتَرِياً»، وبمعنى «صَرَفَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْه».

فمعنى «أفَّاك» كذَّابٌ مُفْتَرٍ. كثيرُ صَرْفِ الأشياء عن وُجُوهِها الّتي يَنْبَغِي أنْ تكونَ عليها. وهذان الوصفان من أوصاف الشياطينِ مِنَ الإنْسِ والجنّ، أي: فشياطينُ الجِنِّ تَتَنَزَّلُ على أوليائهم من شياطين الإنس.

﴿أَثِيمٍ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل، «آثِم» أي: كثير ارْتِكابِ الإثم مِنْ كبائر الذنوب.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾: أي: يُبَالِغُونَ في شِدَّةِ الإصغاء لشياطين الجنّ، لالتقاط الأخبار عَنْهُمْ، حتَّىٰ كأنّ أسماعَهُمْ مُلْقَاةٌ مِنْ مواضِعِها على ما يُخْبِرُهُمْ بِهِ شياطين الجنّ، لأخذه باسْتيعابٍ كامل، كمَنْ يُلْقِي كُلَّ كَفِّهِ على ما يَقْبِضُ من طعامٍ أو غيره مما يُحِبُّ أن يأخذ مِنْهُ أكْبَرَ قَدْرٍ يَسْتَطِيعُ أخْذَه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾: أي: وأكْثَرُ هؤلاء الكَهَنَةِ وسائر الَّذِينَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، كاذِبُونَ فيما يُخْبِرُونَ عَنْ أوليائهم من شياطين الجنّ.

وجاء بيان هذا في عدّة رواياتٍ عن النبيّ ﷺ.

مما جاء في السُّنَّة عن تَلَقِّي الكُهَّانِ والسَّحرَةِ مِنْ شياطينِ الجنّ:

(١) روى البخاري عن عائِشة أمّ المؤمنين رضي اللّه عنها قالت: سَأَلَ ناسٌ النبيّ ﷺ عَنِ الكُهَّان؟ فقال:

«إنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ».

قالوا: يا رَسُولَ اللّهِ فإنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بالشَّيْءِ يَكُونُ حَقّاً.

فقال النبيّ ﷺ: «تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُها الجِنِّيّ، فَيُقَرْقِرُهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ، كَقَرْقَرَةِ الدّجاج، فيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كَذْبَةٍ».

(٢) وروى البخاري عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إذا قَضَىٰ اللّهُ الأمْرَ في السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوان، فَإذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قالوا: مَاذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا لِلَّذِي قالَ الحقّ وهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْض».

وصفه سُفْيانُ أحَدُ رُواةِ الحديث بِيَدِهِ فحرفَها وبَدَّدَ بَيْنَ أصابِعِهِ:

«فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إلى مَنْ

تَحْتَهُ، حتَّىٰ يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا، ورُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وكَذَا، كَذَا وكَذَا، فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

(٣) وروىٰ البخاريّ عن عُرْوَة عن عائشة، عن النبيّ ﷺ أَنَّهُ قالَ:

«إنَّ الْمَلَائِكَةَ تُحَدِّثُ في الْعَنَانِ (والعَنَانُ: الغَمَامُ) بالأمْرِ في الأرض، فتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الكَلِمَةَ، فَتُقِرُّهَا في أُذُنِ الكَاهِنِ كَمَا تُقِرُّ القَارُورَة، فيَزِيدُونَ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَة».

وتوجَدُ روايات أُخْرَى وبَعْضُها عِنْدَ مسلم في صحيحه.

قول اللَّه عزّ وجلّ يصف الشعراء بأنّهم غَيْرُ مُؤَهَّلِينَ لِتَلَقِّي الوَحْيِ الرَّبّاني، لِدَفْعِ اتّهامِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ بأنَّهُ شَاعِرٌ، وأنَّ ما يَتْلُوهُ من القرآن لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشِّعْر:

﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

تمهيد:

سبق أن عرفنا أن أبرز مَقَالَاتِ المَعْنِيّينَ بالمُعَالَجَةِ في السّورة، إبَّانَ نزول سورة (الشّعراء) كانت تَدُورُ حول زَعْمَيْن ساقِطَيْن:

الزَّعم الأوّل: أنّ القرآن نوعٌ من أنْواع أقوال الكُهَّانِ والسَّحرة، وأنَّ هؤلاء يَتَلَقَّوْنَ عن أوْلِيَائِهِم من الجِنّ، وعلى هذا فمحمّدٌ كاهِنٌ، أوْ ساحر.

وقد سبَقَ في الآيات بيانُ الفَرْقِ الشاسع بَيْنَ آياتِ القرآن، وبَيْنَ

أقوال الكَهَنَةِ وأقوال السَّحَرَة، وبيان الفَرْقِ بَيْنَ الرَّسُولِ الذي يتلقَّىٰ الوَحْيَ عن رَبِّهِ، في كمالاتِهِ الفكريَّة والنفسيَّةِ والسُّلُوكِيَّة القائمة على الطهارة والنقاء والفضائل، وبين مَنْ يَتَلَقَّوْنَ عن الجنّ الذين هم في الحقيقةِ شياطين، سواءٌ أكانوا كهنَةً أمْ سَحَرة، إذْ هم أخباثٌ أفَّاكُونَ أثِيمُون، يُلقُون السَّمْعَ إلى شياطينهم، فيتلَقَّوْنَ عنهُمْ، ويضيفون مِنْ عِنْد أنْفُسِهِمْ، أكاذيب إلى ما سَمِعُوهُ مِنْ شَياطِينِهِمْ، ويُحَدِّثُونَ بها النّاس.

الزَّعْمُ الثاني: أن القرآنَ نَوْعٌ من أنواع الشِّعْر، وقَدْ كانَ قائماً في أذْهَانِ العَرَبِ قَبْلَ الإسْلَام، أنّ لِكُلِّ شاعِرٍ شيطاناً يُوحِي إليه بالشِّعْر، واسْتَغَلَّ أئمّة الكُفْرِ هذا لإطْلَاقِ فِرْيَة أنَّ محمّداً شاعِرٌ، ولَيْسَ رَسُولاً مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ.

وقَدْ سبقَ في آياتِ السورة بيانُ الفرق بين القرآن وبين معظم فنون الشِّعر، المعروفة في الجاهليّة، في الأساليب، وفي الأغراض، وفي المجالات الفكريّةِ والنفسيّة التي ينْظِمُ فيها الشّعراء شِعْرَهم، إنَّهُ كالفَرْقِ الشّاسِعِ بَيْنَ العَرْشِ وبين الأرض حَيْثُ ينْظِمُ الشّعراء قصائدهم، ويَرْسُمُونَ فيها أخْيِلَتَهُمْ، ويَتّبِعُونَ فيها أهواءهم، ويُطْلِقُونَ مِنْ خِلَالِهَا أكاذِيبهم.

وفي هذه الآيات من (٢٢٤ ـ ٢٢٧) بيانُ الفرق الشّاسِع بَيْنَ صِفاتِ الرَّسُولِ وبين الصِّفَاتِ التي يتَّصِفُ بها الشُّعَراء غالباً، باستثناء المؤمنين الَّذِينَ يَمْنَعُهُمْ إيمانُهُمْ وإسْلامُهُمْ مِن اتِّبَاعِ أهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ومصالحهم التَّكَسُّبِيَّة، ومِنِ افْتِراءِ الأكاذيب.

التدبُّر التحليليّ:

قول اللّه عزّ وجلّ:

• ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾:

سَبَقَ في الآية (٢١٥) توصِيَةُ اللَّه عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ بأنْ يَخْفِضَ جناحَه لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وفي هٰذا إشارة ضِمْنِيَّةٌ إلى أنَّ أتْبَاعَ الرَّسُولِ الصَّادِقِينَ، هم الَّذين يُؤْمِنُونَ بالحقّ، ويَهْتَدُونَ بهُدَىٰ اللَّهِ الّذي أنْزَلَهُ على رَسُولِهِ، واتَّبَعُوا الرَّسُولَ لِمَا رَأَوْا عِنْدَهُ من الحقّ والخَيْرِ والهُدَى والفضائل والكمالَات.

وهذا يَسْتَدْعي المُقارَنَةَ بيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ الشَّاعِر، من خِلَالِ التَّفَكُّرِ بَيْنَ أتْبَاعِ الرَّسُولِ، وبين أتباع الشُّعراء.

وإذا كان المؤمنون الصادقون هم أتباعَ الرَّسُول، وكان أتْبَاعُ الشُّعراء هُمُ الغَاوِينَ، وكان الغاوُون لَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ صادقين، كان هٰذا دَلِيلاً من واقِعِ حال الأتْباع أنَّ الرَّسُولَ محمّداً ليس بِشاعِرٍ، وأنّ القُرْآنَ لَيْسَ بِشِعْر.

فلَوْ كانَ الرَّسُولُ محمَّدٌ شَاعِراً لاتَّبَعَهُ الغَاوُون، ولَمْ يَتَّبِعْهُ المُؤْمِنُونَ طالِبُو الهِدَايَة، ومُحِبُّو الاسْتِقَامَة على صراطِ اللَّهِ، الحريصُون على سُلُوك سَبِيلِ الرُّشْدِ.

﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾: هُمُ الضَّالُّونَ الفاسِدُون، الَّذِينَ يَتْرُكُونَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَنْ قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتّباعاً للهَوىٰ.

وإذا كانَ الغَاوُونَ هُمْ أتْبَاعَ الشُّعَراء، فكَيْفَ تكُونُ أحْوَالُ المَتْبُوعِين، إنّ مَزَالِقَ الشِّعْرِ كَثِيرَةٌ تُزْلِقُ الشَّاعِرَ إلى أَوْدِيَةِ الفِسْقِ والفُجُورِ والكَذِب، وهِجَاءِ الفُضَلَاءِ ظُلْماً وعُدْوَاناً، ومَدْحِ الأَرْذَلِينَ وَالأَخَسِّينَ استجداءً، وللنِّكايَة بأعْدَائِهِمْ زُوراً وبُهْتاناً، وقَلَّمَا يَتَّجِهُ شِعْرُهم إلى ذُرُواتِ الفَضَائِلِ والكمالَاتِ، بَلْ يَنْحَدِرُ غَالباً إلى أَوْدِيَةٍ سَحِيقَةٍ من أَوْدِيَةِ الغَوَايَة، باستثناء الشُّعراء المؤمِنينَ الّذين يَخْشَوْنَ اللَّهَ رَبَّهُمْ، ويُوَظِّفُونَ شِعْرَهُمْ في تَأْيِيدِ الحقِّ والخَيْرِ والفَضائِل.

قول اللَّه عزّ وجلّ عَنِ الشُّعراء:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾: أي: اسْتَقْرِئْ أيُّها المتفكِّرُ البَاحِثُ إذا كُنْتَ لَا تَعْلَمُ، أَحْوَالَ مُعْظَم الشُّعَراء، فإنَّكَ سَتَجِدُهُمْ في الأَوْدِيَةِ يَهِيمُونَ، وقَلَّمَا يَصْعَدُونَ في اتِّجَاهِ الذُّرُوَاتِ.

﴿يَهِيمُونَ﴾: أي: يَسِيرُونَ في حَيَاتِهِمْ على غَيْرِ خُطَّةٍ سابِقَةٍ، وعلى غَيْرِ هُدًى واضِحِ المعالِم، بَيِّنِ المَسَالِكِ، بَلْ تُسَيِّرُهُمْ أهْوَاؤُهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ ورغباتُهُمْ آناً فآناً، دُونَ أنْ يَعْلَمُوا غايَةً يَسْعَوْنَ لِتَحْقِيقِهَا.

يقال لغة: «هَامَ فُلَانٌ يَهِيمُ هَيْماً، وهَيَمَاناً»، أي: خَرَجَ على وَجْهِهِ في الأَرْضِ لَا يَدْرِي أيْنَ يَتَوَجَّهُ، فَهُوَ يَذْهَبُ كلَّ مَذْهَبٍ، مُتَحَيِّراً مضطرباً لا خُطَّةَ لَهُ في اتِّجاهِهِ.

الوادي: كلُّ مُنْفَرِجٍ بَيْنَ الجِبالِ والتِّلالِ والآكامِ.

والمرادُ هَيَمانُ الأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والأفكار والأعمال، والمرادُ بالوِدْيَانِ مجالَاتُ أَنْشِطَتِهِمُ العَمَلِيَّةِ والحَرَكِيَّة في الحياةِ، إذْ هُمْ لَا يَخْتَارُونَ مَعَالِي الكَمَالَاتِ والفَضَائِلِ، مثل كمالات المعرفة، والأعمال الّتي فيها نَفْعٌ وخَيْرٌ عَام، ومِثْل الدَّعْوَةِ إلى سَبيلِ اللَّهِ بالحِكْمَةِ والموعظة الحسنة، والمُشارَكَة في الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، ومثل تَرْبِيةِ الأجْيالِ على الفضائِلِ، بل يَتَعَلَّقُونَ بالتُّرَّهَاتِ، وسَفَاسِفِ الأُمُورِ، فَيُضَيِّعُونَ أعْمَارَهُمْ بالمَدِيحِ لاسْتِجْداءِ العَطَايَا، أو بهجاء الَّذِينَ لَمْ يُغْدِقُوا عَلَيْهِمْ عَطَايَاهُم، أو بالتفاخُرِ الكَاذِب، أو بالذَّمِ الظَّالِم، أو بِالتَّغَزُّلِ بالعَفِيفَاتِ الشَّرِيفات، أو بوَصْفِ العِشْقِ اللَّاهِبِ، والبُكَاءِ الصَّاخِب، أو بالتَّزَلُّفِ الكاذِب، إلى غَيْرِ هذه الأمور مِمَّا لَيْسَ فيه ذِرْوَةُ جَبَلٍ، أو تَلَّةٍ، أو أكَمَة، بَلْ كُلُّها حَضِيضٌ مُنْحَطٌّ في الوِدْيَانِ، أو قَرِيبٌ مِنْه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام عن نَفْيِ العِلْم، للتَّقْرِيرِ بالعِلْمِ، أو للإعلام بالحقيقة. والمخاطَبُ كُلُّ مُتَلَقٍّ صالِحٍ للْخِطَابِ.

• فإذا كانَ عالماً قال: بلىٰ، فأقَرَّ بِعِلْمِهِ، وتحَقَّقَ المطلوب، فالرَّسُولُ ليس شاعراً.

• وإذا لَمْ يَكُنْ عالماً، فالْبَيَانُ القُرْآنِيُّ يقول له: فاعْلَمْ إذاً، واعْلَمْ أنَّ الرَّسُولَ محمّداً مُنَبَّأٌ مِنْ رَبِّهِ وَلَيْسَ شاعِراً.

قول اللّٰهِ عزّ وجلّ عن الشُّعَراءِ أيضاً:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾:

ظاهر استعمال الفِعْلِ المضارع الذي يَدُلُّ على الحال والاستقبال في: [**يقولونَ**] وفي [**يفعلونَ**] أنَّهُمْ إذَا قالوا: نَحْنُ نَفْعَلُ الآنَ كذَا فَإنَّهُمْ يَكْذِبُونَ في هٰذا القَوْلِ، كَأَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ لِمَمْدُوحِهِ: أنَا أُحِبُّكَ الآنَ وأُمَجِّدُكَ وأعْتَقِدُ أنَّكَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ وأعْظَمِهِم حِكْمَةً وذَكَاءً، وسَمَاحَةً وسَخَاءً، وأنا عَظِيمُ السُّرُورِ والغِبْطَةِ والفَرَحِ بِلِقَائِكَ، مَعَ أَنَّهُ في كُلِّ هٰذا الّذي ذَكَرَهُ كَاذِبٌ لَا يَفْعَلُ في نَفْسِهِ شَيْئاً مِنْهُ.

وكَأَنْ يَقُولَ قائلهم: عِنْدِي أيتامٌ أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وأسْعَىٰ في كَسْبِ الرِّزْقِ لِإِطْعَامِهِمْ، وكُسْوَتِهِمْ، وإيوائهم، وتَهْيِئَةِ سائِرِ مطالِب حياتِهِمْ، وأنَا فَقِيرٌ لَا مَالَ عِنْدِي، مَعَ أَنَّهُ في كُلّ هذا الَّذِي ذَكَرَهُ كاذِبٌ، لَا يَفْعَلُ في واقع حاله شيئاً ممّا ادَّعَىٰ.

وأَنَّهُمْ إذَا قالُوا: سَنَفْعَلُ في المُسْتَقْبَلِ كذا وَكَذَا، فإنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا يَعِدُونَ أَنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَهُ في المُسْتَقْبَلِ، إذْ لَيْسَ في إرَادَاتِهِمْ الرَّغْبَةُ في أَنْ يَفْعَلُوا مَا ذَكَرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ وَعْدٍ، وإنَّمَا أَرَادُوا به المُخَادَعَة، لِتَحْقِيقِ غَرَضٍ آنِّيٍّ لِأَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ كَاذِبُونَ ابتداءً في مَوَاعِيدِهِمْ، لِأَنَّ عَادَتَهُمْ الكَذِبُ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِهِم ومَنَافِعِهِم مِنَ الدُّنْيا ولَذَّاتِهَا.

وقياساً على أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فيما يَقُولُونَ، وهٰذا الكَذِبُ عادَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ لَدَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ باللُّزُومِ الذِّهْنِيِّ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَاضِيهِمْ مِثْلَ

حَاضِرِهِمْ ومُسْتَقْبَلِهِمْ، إذْ لَمْ يَكْتَسِبُوا عَادَةَ الكَذِبِ الَّتِي صارُوا بِهَا كَذَّابِينَ، مَا لَمْ يُمَارِسُوا الكَذِبَ زَمَناً طَوِيلاً قَبْلَ ذٰلِكَ حتَّى ٱكْتَسَبُوا عادَةَ الكَذِبِ، كما جاء في الصَّحِيحِ من كلام الرَّسُولِ ﷺ:

«وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذُبُ ويَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً».

فدَلَّتِ الآيَةُ بِمَنْطُوقِهَا وَبِلَازِمِهَا الذِّهْنِيِّ، عَلَىٰ أَنَّ مُعْظَمَ الشُّعراءِ، باسْتِثناء الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً، كَذَّابُونَ.

أي: فالرَّسُولُ محمَّدٌ ﷺ لَيْسَ مِنْ فِئَةِ الشُّعَراءِ الَّذِين زَعَمَ كبراءُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ شاعِرٌ مِثْلُهُمْ، وأَنَّ آيات القُرْآنِ الَّتِي يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ الشِّعْرِ.

فَلَيْسَ القرآنُ مَذْهَباً مِنْ مذاهِب الشِّعْر، ولَيْسَ مُحَمَّدٌ شاعراً من الشُّعراء.

وسبقَ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول اللَّه عزّ وجلّ بشأنه:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ... ﴿٦٩﴾﴾.

قول اللَّه عزّ وجلّ في آخِرِ آيَةٍ مِنْ آياتِ سُورَةِ (الشُّعراء) يَسْتَثْنِي من عموم الشُّعراء الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

اسْتَثْنَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِنْ عُمُوم الشُّعراء الذين يَكْثُرُ فيهم الغاوُون، الَّذِينَ هُمْ في كلِّ وادٍ يَهِيمُونَ، ويَكْثُرُ فيهمُ الكذَّابُونَ، فِئَةَ الشُّعراء المؤمنين، الَّذِينَ يَتَحلَّوْنَ بِثَلاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الأُولَىٰ: صِفَةُ الإيمان الصادقِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: مُمَارَسَةُ الأَعْمَالِ الصَّالحة، دلَّ عليها: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

الصفة الثالثة: مُمَارَسَةُ ذِكْرِ اللَّهِ كَثِيراً، دَلَّ عليها: ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وَأَذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِهٰؤُلَاءِ بأَنْ يَنْتَصِروا لِأَنْفُسِهِمْ بالعَدْلِ، فيما يَقُولُونَ مِنْ شِعْرٍ، إِذَا ظُلِمُوا بِهِجاءٍ أَوْ بِغَيْرِهِ، دُونَ أَنْ يَتَجاوَزُوا حُدُودَ العَدْلِ، وهُوَ مُقابَلَةُ الظُّلْمِ بِمِثْلِهِ المأذونِ بِهِ شَرْعاً، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

ومِنَ الجهادِ في سبيلِ اللَّهِ مُقابَلَةُ هِجاءِ المُشْرِكِينَ للرَّسُولِ وللمُؤْمِنِينَ وللقرآن، بهجاءٍ شِعْرِيٍّ مِنْ قِبَلِ الشُّعَراءِ المؤمنين، وقَدْ كانَ هٰذا الإعْلامُ الشِّعْرِيُّ مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ الحَرْبِ الإعْلَامِيَّة، في الجاهليّة وفي صَدْرِ الإسْلامِ، واسْتَمَرَّ وَسِيلَةً فعَّالَةً في عِدَّةِ عُصُور.

وفي آخِرِ آيَةِ اسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصالحات من عُمُومِ الشُّعراء أَنْذَرَ اللَّه عزّ وجلَّ الظَّالِمِينَ الّذِينَ ظَلَمُوا بالطَّعْنِ في دِينِ اللَّهِ، أو بالطَّعْنِ في الرَّسُولِ أو المؤمِنين، بأَنَّهُمْ سَيَنْقَلِبُونَ على رُؤوسِهِمْ أَذِلَّاءَ خَاسِئِينَ، عقوبَةً لَهُمْ على ظُلْمِهِمْ، وسَيَنْصُرُ الرَّسُولَ والمؤمنين عَلَيْهِمْ نصراً عظيماً، وقد تَحَقَّقَ هٰذا بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إلى المَدِينة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿... وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

﴿وَسَيَعْلَمُ﴾: استعمال «السِّين» هُنَا يُشْعِرُ بأنّ حُصُولَ هذا العِلْمِ يكُونُ في الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّين، لأنّ الغالِبَ في استعمال المؤجَّلِ إلىٰ يوم الدِّينِ في القرآن أن يكونَ بحَرْفِ «سَوْفَ» أمّا «السّين» فالغالِبُ أن يكون لما هو في الدنيا من ثواب أو عقاب.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: أي: الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أهْلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ بوجهٍ عامٍّ، ويَدْخُلُ فيهم الَّذِينَ كانُوا يَسْتَخْدِمُونَ الشِّعْرَ وَسِيلَةً لمحاربةِ الإسلام، وشتيمة الرَّسُولِ وهجائه، وشتيمة المؤمنين المُسْلِمِينَ وهجائهم، ولم يَتُوبوا، بَلْ أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وماتُوا عليه، ولم يُتْبِعُوا سَيِّئَاتِهِمْ بالحسنَات.

﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾:

«**يَنْقَلِبُ**» مُطاوِعُ فِعْلِ «قَلَبَهُ يَقْلِبُهُ قَلْباً فَانْقَلَبَ»، أي: جَعَلَ أعْلَاهُ أسْفَلَهُ، أو بَاطِنَهُ ظَاهِرَهُ، أو يَمِينَه شمالَهُ، ويأتي الفِعْلُ بمعنَىٰ صَرَفَهُ.

ويأتي فعل: «انْقَلَبَ» بمَعْنَى رَجَعَ، وبمَعْنَىٰ انْصَرَفَ.

والمعنىٰ الملائِمُ هُنَا انْقِلَابُ حَالِهِمْ مِنَ القُوَّةِ والسُّلْطَانِ والأَمْنِ والعَافِيَة، إلى الضِّعْفِ، والذِّلَّةِ، والخَوْفِ، والعَذَابِ.

[**أيَّ**]: اسْمُ اسْتِفْهام، وهي هُنَا مَفْعُولٌ مُطْلَق لفِعْلِ [**يَنْقَلِبُونَ**]، والتقدير: يَنْقَلِبُونَ ٱنقِلَاباً أيَّ انْقلاب.

أمّا انْقِلابُهُمْ بمَعْنَىٰ رُجُوعِهِمْ إلى بَارِئِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُلاقُوا عَذَابَهُمْ في الجحيم، إذا أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ ومَاتُوا عَلَيْهِ، فَقَدْ دَلَّتْ عليه نُصُوصٌ كثيرَةٌ، والسِّبَاقُ في الآيَاتِ يُشْعِرُ بأنَّ المُرادَ بالَّذِينَ ظَلَمُوا أئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مكَّة إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، وهُمُ الَّذِينَ كانُوا يُحَرِّضُونَ شعراءَهُمْ على هجاء الرَّسُولِ ﷺ، ومُحَارَبَةِ الإسْلَام والمُسْلِمِين، وهجائهم وإيذائِهِمْ، بأشعارهم وقصائدهم، وهُمُ الَّذِين أذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ للشعراء المؤمنين بهجائهم انتصاراً لأنفسهم، وللرَّسُولِ وللإسلام.

وبهذا تمّ تدبّر سورة (الشُّعراء) والحمد للَّه على معونته ومَدَدِهِ، وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

ملاحق تدبّر سورة (الشعراء)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة

الملحق الثاني: حول الشعر والشعراء في القرآن والسُّنَّة.

(٨)
مستخرجات بلاغية من سورة (الشعراء)

توجد في سورة (الشعراء) بلاغيات وفنيَّات بيانيَّة عَدِيدة، وقد اسْتخرجت منها بتوفيق اللَّه ومعونته ما يلي دون استيعاب:

أولاً:

من الإيجاز بالحذف الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ حَذْفٌ يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ بالتَّدَبُّر، والتقدير: فَظَلَّتْ أعْنَاقُهُمْ مُنْكَسِرَةً في ظَاهِرِ سُلُوكِهِمْ، وظَلُّوا مِنْ أعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ خَاضِعِينَ لَهَا.

المثال الثاني: في قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَة حذفٌ مِنَ الأوائل لدَلَالَةِ الأواخِر، وبالعكس، وهو ما يُسمّىٰ عند البَلاغِيّين «الاحتباك» والتقدير:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ واسْتَهْزَؤُوا ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ تَحْقِيقُ ﴿أَنْبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ يُكَذِّبُونَ و﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وبهذا التقدير يظهر للمتدبّر حذف مُضافٍ قبل: ﴿أَنْبَٰٓؤُا۟﴾ أيضاً.

المثال الثالث: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

الواو في [**أَوَلَمْ**] تَعْطِف على محذوف يمكن بالتدبّر تقديره على الوَجْهِ التالي: أَلَمْ يَشْهَدُوا آيات اللّهِ الكثيرة في كونه، ونِعَمَهُ الكثيرة الّتي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَهَا، ولَمْ يَرَوْا بأفكارِهِمْ وقلوبهم ناظِرِينَ بأعْيُنِهِمْ إلى الأرض، كمْ أنْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم، إنعاماً منَّا عليهم، ورحمةً مِنَّا بهم.

المثال الرابع: في قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ يا مُحمَّد مَا أَرْشَدْنَاكَ إليه سابقاً في السُّورة، وضَعْ في ذاكِرَتِكَ الأحداث الآتي بيانُها عن موسَىٰ للانتفاع بها، والقياس عليها والاعتبار بها.

المثال الخامس: في قول اللّه عزّ وجلّ حكاية لقول موسىٰ عليه السَّلام لفِرْعَوْنَ بعد أن هدَّده بالسِّجن:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: أتَأْمُرُ بسجْنِي ولو جِئْتُكَ بشيءٍ مُبينٍ يُبَيّنُ لَكَ أنّي رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ حقّاً وصِدْقاً.

فالواو في [**أَوَلَوْ**] عَطَفَتْ على محذوفٍ من السَّهْلِ استخراجُهُ ذِهْناً بالتدبّر.

المثال السادس: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: فجُمِعَ السَّحَرَة لإجراءِ المباراة بينهم وبين موسى في ميقات يَوْمٍ مُحَدَّدٍ معلوم.

المثال السابع: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: قالوا لا نعلم أنّ أصْنَامَنَا يَسْمَعُونَنَا، أو ينفعونَنَا، أو يَضُرُّونَنا، بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا يعبدونها فعَبَدْناها.

المثال الثامن: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

الفاء في: [**أَفَرَأَيْتُمْ**] فَصِيحَة، أيْ: أتفكَّرْتُمْ تفكُّراً سَلِيماً سَدِيداً، فرأيْتُم بعقولكم وقلوبكم ما كُنْتُمْ أَنْتُمْ وآباؤكُمْ الأَقْدَمُونَ تعبُدُونَ مِنْ دون اللَّهِ رَبِّ العالَمِين، فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلّا رَبَّ العالَمِين، لأنَّها آلهةٌ باطلة.

المثال التاسع: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾:

الفاء في [**أَفَرَأَيْتَ**] فصيحة، تعْطِفُ على مَحْذُوف، والتقدير: أفكَّرْتَ في هؤلاء المعاندين المكذّبين، فرأيْتَ بفِكْرِكَ أنَّنا إنْ أمْهَلْنَاهُمْ ومَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَهَا جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ من تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ، فَهَلْ يُغْنِي عَنْهُمْ ما زِدْنَاهُمْ من مَتَاعٍ في الحياة الدُّنيا؟

إنهم بَعْدَ إنْزال العذاب والإهلاك بهم، يَجِدُونَ أنَّهُ ما أغْنَىٰ عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ شيئاً.

❁ ❁ ❁

ثانياً:

من القصر الأمثلة التالية:

المثال الأول: في قول اللّه عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قاله إبراهيم عليه السّلام:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾:

في هذه الآيات قَصْرُ الهدايَةِ والإطعامِ والسَّقْيِ والشفاء باللّهِ الخالِقِ عزّ وجلّ. استفيد القصر من تعريف طرفَي الإسناد، أو من ضَمِير الفصل. وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصرٌ حقيقي.

المثال الثاني: في قول اللّه عزّ وجلّ في حكاية قول الضّالّين الأتباع وهم يُعَذَّبُونَ في الجحيم:

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

دلَّ على القصر في هذه الآية النفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ بحسب ادّعائِهِمْ.

المثال الثالث: في قَوْلِ اللّهِ عزّ وجلّ حكايَةً لما قالَهُ نوحٌ عليه السّلام لقومه:

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

دلَّ على القصر النفي بـ«إنْ» والاستثناء بـ«إلّا» وهو من قَصْرِ موصوف على صفة. وهو قصر إضافيّ، أي: ما أنا بالنِّسْبَةِ إليكم يا قَوْمِي

الَّذِينَ كذَّبْتُمُوني، وفي حُدُودِ وظَائِفِ رِسالتي إليكم، بَعْدَ أن وَصَلْتُمْ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ إصْلاَحِكُمْ معها عن طريقِ إراداتكم الحُرَّة، إلَّا نَذِيرٌ لكم بعذابِ رَبّكم، فقد أدَّيْتُ كُلَّ وظائِفِ رِسالَتِي، ولم يَبْقَ عِنْدِي إلَّا أنْ أُنْذِرَكُمْ.

المثال الرابع: في قول اللَّه عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ هودٌ عليه السلام لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: ما أجْرِي إلَّا على ربّ العالمين، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

المثال الخامس: في قولِ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾:

دلّ على القصر النّفي والاستثناء، وهو من قصر صفة على موصوف، وهو قَصْرٌ إضافي.

المثال السادس: في قول اللَّه عزّ وجلّ في حكاية معنى قول ثمود لرسولهم صالح عليه السّلام:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾:

دلّ على القصر أداة «إنّما» في الآية (١٥٣) و«ما» و«إلَّا» في التي بعدها.

أي: ما أنت إلَّا من المخبّلين الّذين سُحِرُوا مرَّةً بعد مَرَّة، وهو من قصر موصوف على صفة، وهو قصرٌ إضافي، أي: بالإضافة إلى ادّعاءاتك.

ومَا أنت إلَّا بَشَرٌ، لا تَصْلُحُ بِبَشَرِيَّتِكَ لأَنْ تَكُونَ رَسُولَ رَبِّ

العالمين، وهو قَصْرٌ إضافي، من قَصْرِ الموصُوفِ على صفة في ادّعائهم الباطل.

المثال السابع: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾:

دلَّ على القصر النفي والاستثناء، وفيه قَصْرُ إهلاك اللَّهِ أهْلَ القُرَىٰ السَّابِقِينَ إهلاكاً جماعيّاً مقروناً بتَعْذيب، على من أُرْسِلَ إلَيْهم رُسُل قاموا بوظائِفِ رِسالَةِ رَبِّهِمْ إلَيْهِمْ، فلمَّا كذَّبُوهُمْ تَكْذِيباً لَا أَمَلَ مَعَهُ بصلاحِهِم إذا أُمْهِلُوا، أَهْلَكَهُمُ اللَّه.

❁ ❁ ❁

ثالثاً:

التوكيد للجمل الخبريّة لوجود الدواعي إليه من أحوال المقصودين بالخطاب، وفي السورة أمثلة كثيرة، منه:

المثال الأول: في قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾:

المؤكّدات في هٰذه العبارة: «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللّامُ المزحلَقة ـ ضمير الفصل».

رُوعي في هذا التأكيد حالُ المكذِّبين، وحالُ الشَّاكّينَ على دَرَكاتهم.

المثال الثاني: في قول اللَّه عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

التوكيد هنا بـ«إنّ ـ والجملة الاسميّة»، والهدف زيادة طَمْأَنَةِ موسىٰ وهارون، عند مقابَلَتِهِما فرعونَ وملأَهُ.

المثال الثالث: في قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قاله فرعَوْن لملَئِهِ عن موسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾:

المؤكّدات في هذا القول: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلَقة»، يؤكّد فرعون لملئِهِ جنون موسىٰ، لِيَصْرِفهم عن التفكير بِبَيَانَاتِهِ القويّة.

المثال الرابع: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى قول فرعونَ لموسىٰ عليه السّلام:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

المؤكّدات في هذه العبارة: «القسم الذي دَلّت عليه اللام الموطّئة للقسم في [لَئِنْ] ونون التوكيد الثقيلة اللازمة بعد هذا القسم».

المثال الخامس: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايةً لمعنى ما قالَهُ السَّحَرة حينَ ألقوا أدوات سِحْرهم:

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

المؤكّدات في عبارتهم: «القسم (بعزّة فرعون) ـ إنّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللّامُ المزحْلَقة ـ ضمير الفصل (نحن)».

المثال السادس: في قول اللّهِ عزّ وجلّ حكاية لمعنى ما قالَهُ فرعون لسَحَرَتِهِ بَعْدَ أنْ خَرُّوا ساجِدِينَ وأعْلَنُوا إيمانهم برَبّ العالَمِين، رَبّ موسىٰ وهَارون:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

المؤكّدات هنا: «لام الابتداء ـ والقسم المنويّ الذي دلَّتْ عَلَيْهِ اللام في [**لَأُقَطِّعَنَّ**]، وفي [**لَأُصَلِّبَنَّكُمْ**]، ونون التوكيد الثقيلة فيهما».

المثال السابع: في قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لمعنى ما قالَهُ فِرْعَوْن لجنودِهِ الذين جمعهم وساقَهم لقتال بني إسرائيل الفارّين من مصر:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

في كلٍّ من هٰذه الآيات الثلاث التوكيد بالمؤكّدات: «إنّ - والجملة الاسميّة - واللّام المزحلَقة».

المثال الثامن: في قول اللّه عزّ وجلّ حكاية لما قال أصحاب موسىٰ له ولما أجابَهُمْ به حين اقترب منهم جيش فرعون:

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

المؤكّدات: «إنّ - الجملة الاسميّة - اللّام المزحلَقة»، في عبارة أصحاب موسىٰ عليه السّلام.

أمّا في عبارة موسىٰ عليه السّلام فالمؤكّدات: «إنّ - الجملة الاسميّة» مع ما في [كَلَّا] مِنْ زَجْر يتضمَّنُ معنى التوكيد.

المثال التاسع: في قول اللّه عزّ وجلّ يحكي ما سَوْف يقوله الأتباع الذين يُعَذَّبُونَ في الجحيم للآلهة الّذين كانوا يَعْبُدونهم من دون اللّه:

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

المؤكّدات: «القسم - إنْ المخفّفة من الثقيلة - الجملة الاسميّة - اللّامُ المزَحْلَقَة».

والغرض تأكيدُ ما يَشْعُرُونَ به مِنْ تَحَسُّرٍ ونَدَم على ما كانُوا فيه في الدُّنيا من ضَلَال وسُوءِ اعتقاد وفسادٍ في الرَّأيِ واتّباعٍ للباطل.

المثال العاشر: في قول اللّهِ عزّ وجلّ يحكي ما سَوْفَ يقولُه هؤلاء أيضاً:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾:

زيدت «مِنْ» لتوكيد استغراق العموم والتّنصيص عليه.

المثال الحادي عشر: قول اللّه عزّ وجلّ يَحْكِي بعضَ مقالات نوح عليه السّلام لقومه:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾:

زيدت «الباء» للتوكيد.

المثال الثاني عشر: في قول اللّه عزّ وجلّ يحكي بعض مقالَاتِ كبراء قوم نوحٍ عليه السّلام له:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾:

أكّدوا تَهْديدَهم لنُوحٍ بالمؤكّدات: «القسم المنوي ـ اللام الواقعة في جوابه ـ نونُ التوكيد الثقيلة».

المثال الثالث عشر: في قول اللّهِ عزّ وجلّ يحكي مقالةً قالها هُودٌ عليه السَّلام لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾:

- زيد «مِنْ» لتأكيد عموم النفي والتنصيص عليه.
- وفيها القصر كما سبق بيانه.

ومقالته لهم

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾:

أكّدها بـ «إنّ ـ الجملة الاسميّة».

المثال الرابع عشر: في قول اللّه عزّ وجلّ يحكي مقالةً قَالها قوم لوطٍ عليه السّلام له:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾:

جاء تأكيدها بـ «القسم المنويّ ـ اللام في جوابه ـ نون التوكيد الثقيلة».

المثال الخامس عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ يحكي رَدَّ لُوطٍ على قومِهِ:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

فجاء في هذا الرَّدّ التوكيد بـ «إنَّ ـ الجملَة الاسميّة».

المثال السادس عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ يحكي مقالةً قالها قوم شُعَيْبٍ له:

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾:

فجاء فيها التوكيد بـ «إنْ المخفَّفة من الثقيلة ـ الجملة الاسميّة ـ اللّام المزحلقة».

المثال السابع عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأن القرآن المجيد:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ و﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

جاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ التوكيد بـ «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزحلقة».

المثال الثامن عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأن إهلاكه للقرى الظالمة:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾

زيدت «من» لتوكيد عموم النفي والتنصيصِ عليه.

❁ ❁ ❁

رابعاً:

الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبَعِيد لداعٍ بلاغي:

وهو الدلالة على بُعْدِ مَنْزِلَتِهِ ارتقاءً في اتجاه الأعلَىٰ، أو تَسَفُّلاً في اتّجاه الحضيض.

المثال الأول: قول اللَّه عزّ وجلّ بياناً لارتفاع منزلةِ آيات القرآن المجيد:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾:

فدلّ اسم الإشارة «تِلْك» على ارتفاعِ منزلَةِ هذه الآيات الّتي تُتْلَىٰ من القرآن.

المثال الثاني: قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ يَحْكِي مقالةً قالَها موسَىٰ علَيْهِ السَّلام لفِرْعَون، إذ امْتَنَّ عليه بنعمةِ تَرْبِيته في القصر الفرعونيّ وإقامَتِهِ فيه، حتى صارَ رَجُلاً ذا قيمة اجْتِماعِيَّة:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

فدلّ باسم الإشارة «تِلْكَ» الموضوع للمشار إليه البعيد، على احْتِقَارِهِ، وإبْعَادِهِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ القَصْرُ الفرعونيّ إلى الدّركاتِ السُّفْلَى، بجانب أنَّهُ اسْتَعْبَدَ بني إسرائيل، وأصْدَرَ قراراً بِتَذْبِيحِ مواليدهم من الذّكور، الأمْر الّذي ألْجأ أُمَّهُ إلى وَضْعِهِ في تابوت (صُنْدُوق محكم) وإلقائِهِ في اليَمّ، فأوصَلَهُ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ وألْطَافِهِ الخفيَّة إلى ساحلِ القصر الفرعونيّ، فالتقطه آل فرعون.

❀ ❀ ❀

خامساً:

اختيار ضمير المتكلّم العظيم (وهو ضمير الجماعة) بدلَ ضمير المتكلّم المفرد، للدّلالة على عظمة رُبوبيّة الرَّبِّ، وصفاته الجليلات:

ومن الأمثلة قول اللَّه عزّ وجلّ:

١ ـ ﴿أَنۢبَتْنَا﴾ في الآية (٧) من السورة.

٢ ـ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ في الآية (١٥) من السّورة.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ في الآية (٢٠٨) من السّورة.

❀ ❀ ❀

سادساً:

فَنِّيّة الإعراض عن المعنيّين بالخطاب، والحديث عنهم بأُسْلوب الحديث عن الغائب، وتوجيه الكلام لغيرهم، معاملةً لَهُمْ بالمثلِ إذْ أعْرَضُوا عن تَلَقّي ما يَنْزِلُ من قرآنٍ بإقْبالٍ، وحوّلُوا وجُوههم عن المقابَلَة:

ومن الأمثلة ما يلي:

المثال الأول: قول اللّه عزّ وجلّ بشأن المكَذِّبين المعرضين عن تلقّي نجوم التنزيل، دون مواجهتهم بالخطاب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

المثال الثاني: قول اللّه عزّ وجلّ في معرض الحديث عن القرآن، مُعْرِضاً عنهم أيْضاً، وموجِّهاً خطابَهُ لرَسُول اللّه ﷺ، مع أنَّهم هُمُ المَعْنِيُّونَ بالخِطَاب، في مقابل إعراضهم وإدْبارهم عن تَلَقّي القرآنِ بإقبال ومواجهة:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.



سابعاً:

استخدام أسْلُوب الكناية، بإطلاقِ العبارَةِ وإرادَةِ لوازِمِهَا الفكريّة:

ومن أمثلتها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ لمَا قالَهُ شعيبٌ لقَوْمِهِ إذْ تحدَّوْهُ بأنْ يُنَزّل عَلَيْهِم كِسَفاً من السَّماء:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

فكنّىٰ بهٰذِهِ العبارة عن أنّ مُنَزِّلَ الكِسَفَ من السَّماءِ هو اللّه عزّ وجلّ، وهو أعلم بما تَعْمَلُونَ، وحين تقتضي حِكْمَتُه إهلاكَكُمْ فَهُوَ الَّذِي يُهْلِكُكم، ولَسْتُ أنا الذي أُهْلِكُكُمْ.

ثامناً:

التشبيه المكنيّ، وهو تشبيه مُضْمَرٌ لم يُذْكَرْ فيه لفظ المشبَّهِ به، وإنما ذُكِرَ فيه بعضُ صفاته، أو بعضُ خَصائِصه، أو بَعْضُ لوازمه، ومنه قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ لرسوله في السّورة:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَة تشبيهُ التواضُعِ، والرَّحْمَةِ، وضَمّ الأفراد، والهَيْمَنَةِ عليهم، بخَفْضِ الطَّائر جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لفراخه.

ولكن أُضْمِرَ التشبيهُ فَلَمْ يُذْكَرْ لَفْظُ المشبَّه بهِ، وإنَّما كُنِّيَ عَنْهُ بشيءٍ من صِفاتِهِ وهُوَ الجَنَاح.

هذا ما ترجَّحَ عندي في كتابي «البلاغة العربية» لا أنه من قبيل الاستعارة المكنية.

تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل وَضْعِهِ اللّغويّ وهو طلَبُ الإفْهام، للدّلالة على معانٍ أُخْرَى تَدُلُّ عليها القرائن، أو الاقتضاءات الفكريّة:

ومن أمثلته في السّورة ما يلي:

المثال الأول: قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾؟:

يُرادُ بالاستفهام هنا التَّلويمُ والتثريبُ والتوبيخ.

المثال الثاني: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمقالةٍ قالَها فِرْعَوْن لموسَىٰ عليه السَّلام:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾؟:

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تقريريّ.

المثال الثالث: قول اللَّهِ عزّ وجلّ حكاية لما رَدَّ به موسىٰ عليه السّلام على فِرْعَوْن:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾؟:

الاستفهام الملاحظُ ذهناً في هذه العبارة استفهامٌ تعجُّبيٌّ إنكاريّ.

المثال الرابع: قول اللّه عزّ وجلّ حكايَةً لدَعْوَةِ جمهور المصريّين لحضور المباراة بين موسىٰ عليه السّلام وسَحَرَةِ فِرْعَوْن:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام هُنَا العَرْضُ المُتَضَمِّنُ مَعْنَىٰ الحَثِّ على حضور المباراة.

المثال الخامس: قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايَةً لمقالةٍ قالَها إبراهيمُ عليه السَّلام لقومه:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام في هذا القَوْلِ الإخْبارُ والإعلام، أي: انظروا متفكّرين فيما تعبدون من دون اللّه فإنّهم عَدُوٌّ لي.

المثال السادس: قول اللّه عزّ وجلّ بشأن ما يُقالُ للمشركين الذين تُبَرَّزُ الجحيمُ لَهُمْ يومَ الدّين:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؟:

الاستفهام في هذا القول يرادُ به التَّحْسِير على ما فرَّطوا في جنب اللّه، وكانوا من الغَاوِين، فجلَبُوا لأنْفُسهم الخلودَ في عذابِ الجحيم.

المثال السابع: قول اللّه عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالَةٍ قالَها قومُ نوحٍ عليه السّلام له:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾؟:

يُريدُون بتوجيه الاستفهام النَّفْيَ والاسْتِنْكار، أي: لا نُؤْمِنُ بك مُسْلِمِينَ لكَ، ونَسْتَنْكِرُ اتّباعَكَ وقد اتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون.

المثال الثامن: قول اللَّه عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالَةٍ قالَها هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾؟:

يُراد بالاستفهام في هذه العبارة الاسْتِنْكَارُ والتَّلْوِيمُ علىٰ العَبَثِ، وبَذْلِ الطّاقاتِ والأموالِ فيما لا نَفْعَ فيه.

المثال التاسع: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايةً لمقالَة قالَها صالحٌ عَلَيْهِ السَّلام لقومِهِ ثَمُود:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾؟:

يرادُ بهذا الاستفهام النَّفْيُ والتحذير، أي: لَا تُتْرَكُونَ آمِنِينَ، وأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ، وَتَعْصُونَ اللَّهَ رَبَّكُمْ، ولَا تُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ ولا بما جاءكم به عن رَبِّكُمْ.

المثال العاشر: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايَةً لمقالَةٍ قالَهَا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلام لقَوْمِهِ:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾؟:

الاستفهام في هذه العبارة يُراد به الاستنكار، والتَّلوِيم، والتوبيخ.

المثال الحادي عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ حكايَةً لما يَقُولُهُ مَنْ أَقْبَلَتْ عَليهم مقدّمات العذاب والإهلاك الشامل لكفرهم وطغيانهم:

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾؟:

الاستفهام في مقالتهم يرادُ به التَّمَنّي.

المثال الثاني عشر: قول اللَّه عزّ وجلّ بشأنِ هؤلاء:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾؟:

الاستفهام في هذا البيان استفهامٌ تَعْجِيبيٌّ من أَمْرِهِمْ.

وفي السّورة بلاغيّات أُخرىٰ أتْرُكُ اسْتِخْراجَها للمختصّين بعلومِ البَلَاغَةِ والفُنُونِ الجماليَّة البَيانيَّة.



(٩)
الملحق الثاني
حول الشعر والشعراء في القرآن والسُّنّة

مَا جاءَ في القرآن حول الشعر والشعراء ومزاعم المشركين بشأنِ القُرآنِ والرسول

لم يجد كبراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ الّذِين أصَرُّوا على الكُفْرِ والعِنَادِ والمكابَرَة بالباطل، ورَفْضِ الإيمان بأنَّ القُرْآنَ تنزيلٌ من رَبِّ العَالَمِين، وأنَّ مُحمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ نبيٌّ يَتَلَقَّىٰ الوَحْيَ منه، ورَسُولٌ يُبَلِّغُ رِسالَاتِهِ للناسِ، مَا يَزْعُمُونَهُ ضِدّ القرآنِ وضِدّ الرَّسُولِ ﷺ، إلّا أَنَّهُ كاهِنٌ أو شاعِرٌ، وأنَّ القُرْآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ كَهَانَةٌ من نَوْعِ أقْوَالِ الكُهَّانِ، أو شِعْرٌ اتَّخَذَ فِيهِ مُحَمَّدٌ مَذْهباً جَدِيداً في الشِّعْرِ غَيْرَ مَعْرُوفٍ لدَىٰ الشُّعراء.

وكان ما زَعَمَه المُشْرِكُونَ بِشَأْنِ القرآنِ والرَّسُولِ ﷺ في بِدَايَةِ الأمْرِ هَمْساً، ثم صَارَ حَدِيثاً مُعْلَناً، ثُمَّ صارَ إشاعَةً تُكَرِّرُها أفْوَاهُ أتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ صارَ مقالَةً إعْلَامِيَّةً دائِرَةً يُرادُ بِهَا صَدُّ الّذين تَتَّجهُ قُلُوبُهم للدُّخُولِ في الإسْلام، تأثّراً بالقُرْآنِ المجِيدِ، وبالكمالات الفكريّة والخُلُقِيّةِ والسُّلُوكِيَّةِ الّتي يَتَّصِفُ بها رَسُولُ اللَّهِ محمَّدٌ ﷺ.

ولم يَتْرُكِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مَا زَعَمَهُ كُبَرَاء المُشْرِكِينَ، وأطْلَقُوهُ مِنْ مَزَاعِمَ في جَمَاهِيرهِم، دُونَ أن يُتَابعَ إسْقَاطَهُ مَعَ الأطْوَارِ الَّتِي يَتَطَوَّرُ فيها ضعفاً وشِدَّةً، حتَّى بدأ الإسلامُ يَنْتَشِرُ ويَقْوَىٰ، وتَسْقُطُ مع انْتِشَارِهِ مَزَاعِمُ كُبَرَاء المُشْرِكِينَ شيئاً فَشَيْئاً، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَهَا صَوْتٌ يَرْتَفِعُ، ولَا مَقُولَةٌ مَسْمُوعَةٌ، وكانَ هٰذا قُبَيْلَ أوَاخِرِ العَهْدِ المكِّيّ مِنْ مَسِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعَوِيَّة.

ونَجِدُ في القُرآنِ المجيد سِتَّةَ نُصُوصٍ مَكِّيَّة التَّنْزِيل، ذوات مراحِلَ، تابَعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهَا الأطْوارَ الّتي كانَتْ تَتَطَوَّرُ إلَيْهَا هذه المزاعم بشأن القرآن المجيد، وشأْنِ الرَّسُولِ ذي الخُلُقِ العظيم، والعَمَلِ السَّدِيد، والمَنْهَجِ الرَّشِيد.

ومِنَ المُفِيدِ للمُتَدبِّر عَرْضُ هٰذِهِ النُّصُوصِ السِّتَّةِ، مَعَ بيان تَرْتيب نُزُولِ سُوَرِهَا، والنَّظَرِ فيها بِشَيْءٍ مِنَ التَّدَبُّر:

النّصّ الأوّل:

قول اللَّهِ عزَّ وجلّ في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأْنِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ والقرآن المجيد:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هذا النَّصّ لدىٰ تدبُّر سُورَةِ (يٓس).

وأُوجِزُ هنا ما سَبَقَ بيانُهُ لتَتَكامَلَ صُورَةُ مُتَابَعَةِ المراحلِ في ذِهْنِ المتدبّر، واللَّهُ يتحدَّثُ بضمير المتكلّم العظيم.

أي: وما عَلَّمْنَا رَسُولَنَا محمّداً شعراً أوْحَيْنا بِهِ إلَيْهِ، وما جَعَلْنَا في طَبيعَةِ نَفْسِهِ اسْتِعْداداً لِقَرْضِ الشِّعْر، ذِي الموازين الخاصَّةِ بِهِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يكون شاعراً، بمعْنَىٰ أنَّهُ لا يَصْلُحُ لَهُ وَلِدَعْوَتِهِ أنْ يَكُونَ شاعراً

بِحَسَبِ تَصَوُّرِ قَوْمِهِ العَرَب للشُّعَراء، وما يَسْهُلُ لَدَيْهِ أنْ يَنْظِمَ الشِّعْرَ ويَقْرِضَهُ، لأنَّنَا لَمْ نَجْعَلْ مِنْ صِفاتِ نَفْسِهَ القُدْرَةَ على نَظْمِ الشِّعْرِ.

ويُمْكِنُ أنْ نُدْرِكَ أنَّ الحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ هِبَةِ نَفْسِهِ القُدْرَةَ على نَظْم الشِّعْرِ، سَدُّ ذَرِيعَةِ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ، إذْ لو كَانَ شَاعِراً بِفِطْرَتِهِ لوَجَدُوا رَوَاجاً لاتِّهَامِهِمْ إيَّاهُ بأنَّ النَّزْعَةَ الشِّعْرِيَّةَ في نَفْسِهِ، هِيَ الّتي جَعَلَتْهُ يَتَخَيَّلُ تَخَيُّلَاتِ النُّبُوَّة، وجَعَلَتْهُ يَتَطَلَّعُ إلى صِنَاعَةِ البَيَان الرَّفِيع، وأنَّ القرآنَ مِنْ صُنْعِهِ وإبْدَاعَاتِهِ.

يُضافُ إلى هذا ما في نفوسِ مُعْظَم الشُّعَراء الفُحُولِ، واسِعِي الخَيَال، من اسْتِعْدَادٍ للدُّخُولِ هائِمِينَ في كلِّ وادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الكلام، مَهْمَا كانَ وادِياً سَحِيقاً هابطاً إلى أَوْحَالٍ غَيْرِ أخْلَاقِية، فيها الكذب، والرِّياء، والنِّفاق، والهجاءُ الفاحِشُ، والثّناءُ بغير حقّ، والاسْتِجْدَاءُ، والتغزُّلُ بالعفيفات الشريفات، المُشْعِرُ بِرِضَاهُنّ، وبأَنَّهُنَّ يُشارِكْنَ الشاعر الهَوَىٰ، ولَهُنَّ مَعَهُ لِقاءاتٌ غَيْرُ مَحْمُودَة.

أمّا القرآن فَما هو إلَّا كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، لِيَتَبَلَّغَهُ النَّاسُ، ويَتَفَهَّمُوهُ، ويَعُوهُ، ويَحْفَظُوهُ، ثُمَّ لِيَتَذَكَّرُوا مِنْهُ مَا يُلَائِمُ الحالَةَ الّتي يَكُونُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهَا، ولِيُنْذِرَ بِهِ الرَّسُولُ وكُلُّ داعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ كانَ ذَا حَيَاةٍ قَلْبِيَّةٍ، تُؤَثِّرُ فِيهِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ مِنْ إنْذاراتٍ، أمّا مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ بالأهْواءِ والشَّهَواتِ وزيناتِ الحياة الدُّنيا، والكُفْرِ بالحقِّ الرَّبَّانِيّ، فيَحِقُّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ بِأَنَّهُمْ مِنَ المُعَذَّبِينَ الخالِدِينَ في الجحيم يومَ الدِّين.

فأبان هذا النصّ أنّ الرَّسُولَ ليسَ شاعراً، ولَا يَمْلِكُ مَوْهِبَةَ الشِّعْر، وأنَّ الشِّعْرَ لَا يَنْبَغِي لَهُ، وأبانَ أنَّ القرآنَ لَيْسَ شِعْراً ولا مَذْهباً مِنْ مذاهبِ الشِّعْر، وإنَّما هُوَ كتابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ، لِيَكُونَ ذِكْراً لِمَنْ يَتَلَقَّاهُ مُؤْمِناً به.

النّصّ الثاني:

قولَ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الشّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأْنِ الشُّعَراء، والفرق بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أنبياء اللَّهِ ورُسُلِهِ:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

وقد سبقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآياتِ قَرِيباً، وهي آخِرُ آيات سورة (الشعراء) ولا حاجَة إلى الإعادة بِبَسْطٍ ولا إيجاز.

النصّ الثالث:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الصافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بشَأْنِ حال المشركين وهُمْ يُعَذَّبُونَ في الجحيم يَوْمَ الدِّين:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

دلَّ هٰذا النصُّ على أنَّ كُبَرَاءَ الكَفَرَةِ المُشْرِكِينَ في مَكَّةَ إبَّان تَنْزِيلِ سُورَةِ (الصَّافات) كانوا بِسَبَبِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ يَتَّهِمُونَ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بِصِفَتَيْنِ تَجْعَلَانِهِمْ يَأْنَفُونَ مِنَ الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ:

الصِّفَةُ الأُولىٰ: أنَّهُ شاعر وهم لا يَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ أنْ يَتَّبِعُوا شاعراً، لأنَّ الشُّعراء في تصوّرهم مُتَسَوِّلُونَ على أبوابِ المُلُوكِ والعظماء والأُمَرَاءِ والرُّؤَسَاءِ، وفي نفوسهم خِسَّةُ الذُّلِّ بالاسْتِجاء، ولكلّ واحِدٍ مِنْهُمْ شَيْطانٌ يُوحِي إِلَيْهِ بِشِعْرِهِ.

الصِّفَةُ الثانية: الجنون، إذْ جاءَ قَوْمَهُ بِدِينٍ جديدٍ، فَرَّقَ بِهِ جَمْعَهُمْ، وسَفَّهَ بِهِ أَحْلَامَ كُبَرَاءِ عَشِيرَتِهِ وقَوْمِهِ، ومثلُ هذا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مجنون.

• ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: إنَّهُمْ كانُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيا إذَا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بالرَّسُولِ وقُولُوا لَا إِلٰهَ إلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ الإيمانِ بِهِ، وعَنِ اتِّبَاعِهِ، فَهُمْ لَا يَقُولُونَ لَا إِلٰهَ إلَّا اللَّهُ، اسْتِكْبَاراً مِنْهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ.

دلَّ على هذا ما جاءَ في الآيَةِ التالية:

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾: استفهام يدُلُّ على اسْتِنْكَارِهِمْ اسْتِنْكاراً شَدِيداً، أنْ يَتْرُكُوا آلِهَتَهُمْ الَّتِي كانَ يَعْبُدُهَا آبَاؤهم وأجدادُهُمْ، ووَرِثُوا عَنْهُمْ عِبادَتَهَا، استجابَةً لِدَعْوَةِ شَاعِرٍ مَجْنون، والشَّاعِرُ لَيْسَ مُؤَهَّلاً لِأَنْ يُحْتَرَمَ رَأْيُهُ ويُسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ، فَكَيْفَ بِهِ وهو يتّصِفُ بالجُنونِ، مع اتِّصافِهِ بِكَوْنِهِ شاعراً؟!!

والمعنى: إنَّنا نُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ أنَّنا لَنْ نَتَّبِعَ هذا الَّذي يَزْعُمُ أنَّهُ رَسُولُ رَبّ العَالَمِينَ، لأنَّهُ شاعِرٌ بِبيَانِهِ، مَجْنُونٌ في تَصرُّفَاتِهُ في دَعْوَةِ قَوْمِهِ إلى نَبْذِ دِينِ آبائِهِمْ، واتّباعِ الدِّينِ الجديدِ الَّذي أتاهُمْ به.

فردَّ اللَّه عزّ وجلّ هٰذه المَقُولَةَ الشَّيْطانِيَّة اللَّئِيمَة الخَسِيسَة بقوله في الآيَة التالية:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: لَيْسَ شاعراً ولَا مَجْنُوناً، بَلْ رَسُولاً يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، بِدَلِيلِ أنَّهُ جاء بالحقّ، فَلَيْسَ في شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ بَاطِلٌ، وصَدَّقَ فِيمَا جَاءَ بِهِ المُرْسَلِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ، ومِنْ تَصْدِيقِهِ لِلْمُرْسَلِينَ أنَّ مَضْمُونَ أُسُسِ الدِّينِ الذي جاء به، مطابقٌ لمَضْمُونِ مَا جاءَ به المُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ، ومِنْهَا أنْباءُ يومِ الدِّين، يوم البَعْثِ والحِساب وفَصْلِ القضاء وتَحْقيق الجزاء.

وهٰذه حقَائِقُ لَا يَأْتي بها شاعِرٌ ولَا مَجْنُون، بَلْ يَأْتِي بِهَا الإنسانُ الكامِلُ المُصْطَفَىٰ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ بالنُّبُوَّةِ، ولِحَمْلِ رِسالاتِهِ لِعِبادِهِ.

وبما أنَّهُمْ بِحَسَبِ المَشْهَدِ المَعْرُوضِ هُمْ في يوم الدّين يُعَذَّبُونَ، فَمِنَ المُنَاسِبِ أنْ يُخَاطَبُوا وهُمْ في العذابِ يَتَقَلَّبُونَ، بِمَا جاءَ في قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ التالي:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّكُم مُسْتَمِرُّونَ في أنْ تَذُوقُوا العذابَ الألِيم في الجَحِيم، وإنَّكُمْ تُجْزَوْنَ بالعَدْلِ، لَا تُظْلَمُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وأنْتُمْ مَا تُجْزَوْنَ إلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بإراداتِكُم الحُرَّة.

النصّ الرابع:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في بيان حال كبراء مُشْرِكِي مكَّة إبَّان نزول هذه السُّورة:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾:

- قرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[قَالَ رَبِّي]** بالفِعْلِ الماضي «قالَ»، وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[قُلْ رَبِّي]** بفعل الأمْر.

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عزّ وجلّ لرسوله [قُلْ] فقال الرَّسول ﷺ: ﴿رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قول اللّٰه عزّ وجلّ:

• ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾:

الاقْتِرابُ: مَعْلُومٌ، وهُوَ الدُّنُوّ. يقال لغة: «اقْتَرَبَ الشَّيْءُ للشّيء»، أي: دنا منه.

﴿لِلنَّاسِ﴾: المراد بالنّاس في المدَّةِ الّتي نزَلَتْ فيها سُورَة (الأنبياء) كُبَراءُ مُشْرِكِي مكَّةَ المُعَانِدُونَ المُصِرُّونَ على الكُفْرِ جُحوداً، مع اسْتِيقانِ نفوسهم بصِدْق الرَّسُول، وبأنّ القرآنَ تنزيل من رَبّ العالَمِين، بدَليل ما جَاء في الآية (٢) عَقِبَ هٰذِهِ الآية كما سيَأْتِي بيانُه.

﴿حِسَابُهُمْ﴾: أي: حِسَابُهُمُ المعجَّلُ، والقضاءُ بِشَأْنِهِمْ، وإنْزَالُ العقابِ بِهِمْ، وهُوَ ما حَدَثَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ وما بَعْدَها.

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾: **الغفْلة عَنِ الشَّيء**: انصرافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ ومراقبَتِهِ مع وجودِهِ في مجالِ الإدراكِ، أو وُجودِ أدِلَّتِهِ، وإمكانِ إدْراكِهِ، لَوْلَا وُجُودُ الصارفِ أو السَّهْو، يقال لغة: «غَفَلَ فُلَانٌ عَن الشَّيْءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفْلَةً».

﴿مُّعْرِضُونَ﴾: **الإعْراضُ**: وسَطٌ بَيْنَ الإقبالِ والإدْبارِ، وأصْلُ الإعراضِ إعْطاءُ الجانب. عُرْضُ الشَّيْء في اللُّغَة جانبه، وعارِضَا الإنسانِ صَفْحَتَا خَدَّيْه.

والإعْراضُ عن الشيء يَدُلُّ على عَدَمِ العنايَةِ بالشّيء، وعَدَمِ الاكْتِراثِ له أو المُبالَاةِ به.

قول اللّٰه عزّ وجلّ:

• ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾:

أي: ما يأْتِيهِمْ مِنْ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، إلّا اسْتَمَعُوهُ مُدْرِكِينَ

الدَّلَالَاتِ العامَّةَ لِآيَاتِهِ، إلَّا أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ انْصِرَافَ أَذْهَانِهِمْ عَنْهُ باللَّعِبِ الَّذِي يَلْعَبُونَهُ سَاعَتَئِذٍ، وهذا اللَّعِبُ قَدْ يَكُونُ بِشُؤُونِ دُنْيَاهُمْ، أَوْ بِأَلْعَابٍ كانُوا يُمَارِسُونَها لِرِيَاضَةِ الفِكْر، أو رِيَاضَةِ أعْضَاءِ الجَسَدِ، كَدَحْوِ الحجارة، ورَمْيِ السِّهَامِ، ونحو ذلك.

وسَبَقَ أنْ نزَلَ بِشَأْنِهِمْ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قولُ اللَّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾.

والفرق بَيْنَ آيَة (الشُّعراء) وآيَةِ (الأنبياء) أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ أطْمَعَهُمْ بِرَحْمَتِهِ في آيَةِ الشُّعراء، إذْ جاء فيها قولُهُ تعالىٰ: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾، وأَنَّهُمْ كانوا حِينَئِذٍ في حُدُودِ «مُعْرِضِين».

أمّا آيَةُ (الأنبياء) فَقَدْ خَوَّفَهُمُ اللَّهُ فِيهَا بِسُلْطانِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ؛ إذْ جاءَ فيها قولُهُ جلَّ جلالُهُ: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾، وأَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى طَوْرِ أنْ يَسْتَمِعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ.

وظاهِرٌ أنّ الإعْراضَ السَّاكِنَ أخَفُّ من الاسْتِماعِ الخفيِّ مع إظْهارِ اللَّعِبِ والاشتغال به.

قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾:

أي: إلَّا اسْتَمَعُوهُ، وهُمْ يَلْعَبُونَ في حركاتِ أجْسادِهِمْ حالَةَ كَوْنِ قُلوبِهِمْ لَاهِيَةً عَنِ التَّأَثُّرِ بِمَا جاءَ فيه، إذْ تَسْتَمِيلُهَا الأهواء والشَّهَواتُ ورَغَباتُهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنْيا.

اللَّهْو: الِاشْتِغَالُ عمَّا يَجِبُ توجيه الجَهْدِ والعَمَلِ له، بكلِّ أمْرٍ غَيْرِ

ذي قِيمَةٍ حقيقيَّةٍ تُعادِلُ قِيمَةَ المَتْرُوكِ، أو تُقَارِبُهَا، وربما كانَ المعتنَىٰ به من سَفَاسِفِ الأُمُورِ أو مَتَاع الحياة الدُّنيا السَّريع الزَّوال.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: اشتغَلَ النحويُّون بتوجيه وُجُودِ الفاعل ضميراً مُتَّصلاً في ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾، ووُجُودِهِ اسْماً ظاهراً في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وأوردوا وجوهاً إعرابيّة متعدِّدة، وعِنْد ابْنِ هشام أنَّ هذا على لُغَةِ من يقول من العرب: «أكَلُوني البَراغيث»، وهي لُغَةٌ عِنْدَ «هُذَيْل». وقد وصَفَهُمُ اللَّه بالظُّلْم لكُفْرِهِمْ بالحقّ، ولإرادتهم الصَّدَّ عَنْ دينِ اللَّهِ الحق.

﴿ٱلنَّجْوَى﴾: الإسْرارُ بالحَدِيث. وهنا يُقال: إذا كانت النجوى الإسرار بالحديث، فلماذا قال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾؟

أقول: في هذه العبارة دَلَالَةٌ على أنَّهُمْ بالَغُوا في إخْفَاءِ تَنَاجِيهِمْ، حتَّىٰ عَنْ جَمَاهِيرِهِمْ، لِئَلَّا تَعْلَمَ جَمَاهِيرُهُمْ مَا تَشَاوَرُوا فيه، لإِشَاعَةِ ما يَرْجُونَ التأثير به على العامَّةِ من مقالَاتٍ، لصَدِّ النَّاسِ عن الِاسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

وقد تَوَصَّلُوا بَعْدَ تَنَاجِيهم الذي أسَرُّوه عَنْ عامَّتِهِمْ إلى إشاعَةِ مَقَالَتَيْنِ، تَبِعَتْهُمَا أرْبَعُ مَقَالَات:

فالمقالَتان جاء بَيَانُهُمَا في هٰذه الآيَةِ الثَّالِثَة، والمقالَاتُ الأرْبَعُ الأُخْرَى جاءت في الآية (٥) الآتية.

المقالَةُ الأُولَى: دلَّ عليْها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟ أي: هَلْ هٰذا الَّذي يَدَّعِي أنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟ فكَيْفَ يكونُ لَهُ قُدْرَةٌ على الاتِّصالِ بعَالَمِ الغَيْبِ وتَلَقِّي الوَحْيِ من رَبِّ العَالَمِين.

لَقَدْ أعْجَبَتْهُمْ هٰذِهِ الفِكْرَةُ، ورَأَوْا أنَّهَا صَالِحَةٌ لِصَدِّ النَّاسِ عن الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِهِ، بَعْدَ التَّنَاجِي السِّرِّيِّ فيما بيْنَهُمْ، وسَبَقَ أنْ قَالُوهَا كَمَا جاءَ في

سُورَةِ (الفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) ولكِنْ لا بعنوان لفظ «بَشَر»، بل بذِكْرِ بَعْضِ صِفاتِ البَشَر، من أنَّه يَأْكُلُ الطَّعامَ أو يَمْشِي في الأسْواق يَكْتَسِبُ رِزْقه:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

وقد سبَقَ تدبُّر هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ لدى تدبُّر سورة (الفرقان).

وهي مَقُولَةٌ اتَّكَأَ عَلَيْهَا كُلُّ مُكَذِّبِي الرُّسُل السابقين، وقد جاء تفصيلُ هذا في المُلْحَقِ الثالث مِنْ ملاحق تدبُّر سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

وفي إشارتِهِمْ إلى الرَّسُولِ ﷺ باسْمِ الإشارةِ [هٰذَا] في عِبَارَتِهِمْ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، إرادَةُ ازْدِرائِهِ لَدَىٰ تَرْويج عَبَارَاتِ الصَّدِّ عن الِاسْتِجَابَةِ لدَعْوَتِهِ.

المقالة الثانية: دَلَّ عليها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً لها: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: أي: أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ مَجْذُوبِينَ إِلَيْهِ بِسِحْرِهِ الكَلَامِيّ الَّذِي يُسْمِعُكُمْ إيَّاهُ، وأنْتُمْ تُبصِرُونَ أنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِثْلَمَا تَأْكُلُونَ ويَشْرَبُ مِثْلَمَا تَشْرَبُونَ، وَيَنْكِحُ النِّساء كَما تَنْكِحُونَ.

هٰذه هي الفكرة الدِّعائِيَّة الثَّانِيةُ، الَّتي اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ على تَرْويجها، لِإبْعادِ الجماهيرِ عن الِاسْتِمَاعِ لما يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ آياتِ القُرْآنِ المَجِيد وسُوَرِهِ، زاعَمِينَ أنَّ تَأَثُّرَهُمْ بالقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبيلِ التَّأْثِيرِ السِّحْرِيّ.

وبَلَغَتِ الرَّسُولَ ﷺ المقالَتانِ الدِّعائِيَّتانِ اللَّتَانِ شَرَعُوا في تَرْوِيجِهِمَا، فقالَ مُلَوِّحاً بأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، لِإرادَتِهِمُ الصَّدَّ عَنْ دِينِهِ بالأباطيلِ، ما أَبَانَهُ اللَّه تعالىٰ في الآية التالية:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾:

أي: سواءٌ أسْرَرْتُم نَجْواكُمْ لِصُنْعِ المَكِيدَةِ الدِّعائِيَّة بُغْيَةَ الصَّدِّ عن دينِ اللَّهِ الحقِّ، أمْ أعْلَنْتُمْ أقْوالَكُمُ الكَيْدِيَّة، فإنّ رَبِّي الذي أرْسَلَنِي رَسُولاً، ويُنَزِّلُ عَلَيَّ نُجومَ القُرْآنِ المَجِيدِ، يَعْلَمُ كُلَّ قَوْلٍ في السَّماءِ والأرْضِ، وَهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، العَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فاسْتِخْفاؤُكُمْ بِإسْرَارِ النَّجْوَى الكَيْدِيَّةِ لا يَحْجُبُكُمْ عَنْ سَمْعِ رَبِّي وبَصَرِهِ وعِلْمِهِ المُحيطِ بكُلِّ شَيْءٍ.

وتابَعَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والصَّدِّ عن دِينِ اللَّهِ، مُشَاوَرَاتِهِم الكَيْدِيَّة الَّتِي يُبَالِغُونَ في كِتْمَانِ التَّنَاجِي بِهَا عن جَماهِيرِهِم، فَنَجَمَ عَنْ تَناجِيهِم التَّشَاوُري العَزْمُ على تَرْوِيجِ إشَاعَاتٍ مُخْتَلِفاتٍ مُخْتَلِطاتٍ لِتَضْلِيلِ الرَّأْيِ العامّ، دلَّ على هذا قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في الآية التالية:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾:

دلَّت هٰذِهِ الآيَة على أنَّ مُشَاوراتِهِم الكَيْدِيَّةَ السِّرِّيَّة اللَّاحِقَة، نتج عَنْهَا قرارٌ بتَرْوِيجِ أرْبَعِ مَقَالَاتٍ دعائياتٍ صادَّاتٍ عَنْ دِينِ اللَّهِ الحقّ، وعَنْ رَسُولِهِ الصّادق الأمين، إضافَةً إلى المقالَتَيْن السابقتين:

المقالَةُ الأُولَىٰ: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ﴾:

﴿بَلْ﴾ هُنَا للإضراب الانتقالِيّ لَا لإبطال ما سَبَقَ أنْ قَرَّرُوا تَرْوِيجَه.

أي: قَرَّرُوا أنْ يُرَوِّجُوا فِكْرَةَ أنَّ القُرْآنَ كَلامٌ لَا ترابُطَ بَيْنَ جُمَلِهِ ومَعَانِيهِ، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ تَنْزِيلاً مِنْ رَبِّ العَالَمِين.

هٰذه الفكرة قد تَرُوجُ عِنْدَ الأغبياء مِن الدَّهْمَاءِ، الَّذِينَ لَا يُدْرِكُونَ

خُطُوطَ الترابُطِ الذِّهْنِيِّ العَجِيب، بَيْنَ فقراتِ الآيَةِ، مَعَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة، ولَا بَيْنَ المَعانِي الذي تَكْشِفُهُ اللَّوازِمَ الفكرِيَّة، والمحاذيف في النصّ.

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾: أي: كالأضْغاثِ مِنَ الأَحْلَام، على طَرِيقَةِ التَّشْبيهِ البَلِيغ. أي: القُرْآن أفْكَارٌ مُخْتَلِطَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، لَا نِظَامَ لَهَا، ولَا تَرَابُطَ بَيْنَهَا، كالْأَحْلَامِ المُخْتَلِطَةِ الَّتي لَا يَسْتَطِيعُ مَنْ يَرَاهَا اسْتِبَانَةَ فِقَراتها، ولَا إِدْرَاكَ الترابُطِ بَيْنَها.

أَصْلُ معنىٰ «الضِّغْث» ما جُمِعَ مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وقُبِضَ عَلَيْهِ بِجُمْعِ الكَفِّ ونَحْوِهِ، كقَبْضَةٍ مِنْ حَشِيشٍ مُخْتَلِفِ الأَنْوَاعِ والأَصْنَافِ اخْتلاطاً عَشْوائياً، وجَمْعُهُ «أضْغاث».

وأضْغَاثُ الأَحْلَام مَا كانَ مِنْهَا مُلْتَبِساً مُضْطَرِباً مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْض.

المقالة الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايةً عَنْهُمْ: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: بَلْ صَنَعَهُ مُحَمَّد، وادَّعىٰ كَذِباً أنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ وَحْياً.

هٰذِهِ المقالَةُ تَسْنُدُ المقالَةَ الأُولَىٰ الّتي زَعَمُوا فيها أنّ القُرآنَ أضْغَاثُ أحْلام في مُخَطَّطِهِم الكيدي.

أي: وبما أنّ القرآنَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يكونَ تَنْزِيلاً من عِنْدِ رَبِّ العالَمِين، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ مِنْ عِنْدِهِ، ويَدَّعِي أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِين.

الافْتِرَاءُ: اخْتِلَاقُ الكَذِب بإرَادَةٍ جَازِمَةٍ.

المقالة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ حكايَةً عنهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: بَلْ صَنَعَ مُحَمَّدٌ القرآنَ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُدْرَةٍ على قَرْضِ الشِّعْرِ، وبهذا تُوجَدُ في الأقْوالِ الّتي يَقُولُهَا على أنّها قُرْآن تَحليقَاتٌ شِعْرِيَّة

ساحِرَةٌ، تَجْذِبُ هُوَاةُ البَيَانِ الشِّعْرِيّ البَدِيع، وقَدْ ابْتَكَرَ مُحَمَّدٌ طَرِيقَةَ بَيانِهِ فيه على مَذْهَبِ شِعْرِيٍّ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لَدَى الشُّعَراء مِنْ قَبْلِهِ.

وقَدْ سَبَقَ بيانُ أنَّ مَضامِينَ القرآنِ لَا تَلْتَقِي مَعَ أغْرَاضِ الشُّعَراءِ، لَا في نَزَعَاتِهِمْ، ولَا في نَزَغاتهم، ولَا في الوِدْيانِ الرِّجْسِيَّةِ الَّتي يَهْبِطُون إلَيْها، أو المَلِيئَة بالوَحْلِ والمنْتِنَات.

المقالَة الرابعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ حكايَةً عَنْهُمْ: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

هٰذه المَقالَةُ الدِّعَائِيَّة الَّتِي تَصَوَّرُوا أنَّهَا مَقالَةٌ صادَّةٌ عَنِ الإيمَانِ بالرَّسُولِ واتِّبَاعِهِ، تُوجّه جماهِيرَهُمْ لمطالَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ مَادِّيَّةٍ يَشْهَدُ اللَّهُ له بِهَا أنَّهُ رَسُولُه حقّاً وصِدْقاً، مثل عَصَا مُوسَىٰ، وإحْيَاءِ المَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عليهما السّلام.

وقَدْ أجابَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سُورَة (الأنبياء) علىٰ هذه المقالاتِ الدِّعائِيَّة، الَّتي قَرَّرَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مكَّةَ تَرْوِيجها بَيْنَ جماهِيرِهم، إبَّان نُزُول سُورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

النصّ الخامس:

قول اللَّه عزَّ وجلَّ في سُورة (الطُّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُكَلِّفاً ومُثَبِّتاً:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

تابع المشركون بتوجيهٍ من أئمّة الضلال والتضليل، وهم كُبَرَاءُ كُفّار

قُرَيْشٍ المُعاندون، تَرْويجَ اتِّهام الرَّسُول محمّد ﷺ بأَنَّهُ شاعر، واتّهامِهِ بأَنَّهُ مَجْنُون، لِيُثْنُوهُ عَنْ مُتابَعَةِ دَعْوَتِهِ، ولِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الإصغاءِ إليه، وعنِ اتِّباعِهِ والإيمان بأَنَّهُ نبيّ اللَّهِ ورسُولُهُ، والإيمان بما يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهم.

فأمر اللَّهُ رَسُولَهُ بأنْ يُتَابعَ تَذْكِيرَ الَّذِين لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ من الجحود العناديّ، مَيْؤُوسٍ معها من إيمانهم عَنْ طَرِيق إراداتِهم الحرَّة، فقالَ لَهُ في هذا النصّ من سورة (الطور):

• ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَتَابعْ تَذْكِيرَكَ لِمَنْ تَطْمَعُ باسْتِجَابَتِهِم، فَمَا أَنْتَ بنِعْمَةِ رَبِّكَ عَلَيْكَ بالقُرْآنِ، وبَالِاصْطِفَاءِ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، بِكَاهِنٍ مِنَ الكُهَّانِ، ولَا مَجْنُونٍ، كما زعم المُعانِدُون المكذِّبُون.

الكاهِن: الَّذِي يتلقَّى عَنْ قَرِينِهِ مِنَ الجِنِّ عُلُوماً غيبيَّةً، أو يدّعي علوماً غيبيَّةً، والكاهِنُ غالباً ذو ذكاءٍ مفرطٍ مع خبثٍ في داخله. والمجنون: فاسِدُ العقل، فكيف صدَرَ عنهم هذا التناقض.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿أَمْ﴾ هٰذه هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» الّتي هي للإضراب الانتقالي، أي: بَلْ أيَقُولُونَ مُحمَّدٌ شاعِرٌ يأتي بأقوال هي مِنْ نوع الشِّعر المؤثّر الّذي ابتكر فيه مذهَباً جَدِيداً في الشعر، ونَحْنُ نَنْتَظِرُ مَوْتَه لِنَسْتَرِيحَ مِنْهُ ومِنْ دَعْوَتِهِ.

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنْتَظِرُ. **التَّرَبُّص**: الانْتِظار.

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حَوَادِثَ الدَّهْرِ المُمِيتَة. **المَنُون**: المَوْت. يقال: هي المَنُون، وقَدْ يُذَكّر، فيقال: هو المنون.

فعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ ما يَرُدُّ به عليهم فقال لَهُ:

• ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: انْتَظِروا مَوْتي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ أنْ يَنْصُرَني اللَّهُ عَلَيْكُمْ ويُعْلِي كَلِمَته.

• ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

الأحلام: العقول. **الطَّاغون**: أي المتجاوزن الحُدود المقبولَةَ المُحْتَمَلة في التجاوُز بحَسَبِ معاصِي النّاسِ إلى البَغْيِ والعُدْوانِ والفَساد ونَشْرِ الفساد في الأرْض، ومُحَارَبَةِ الحقّ والخير والفضيلة ودين اللَّه الحَقِّ.

والمعنى: بَل أتَأْمُرُهُمْ عُقُولُهُمْ بأنْ يَكُونُوا في أقوالهم مُتَناقضين؟! إنَّ هٰذا لأمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ لَدَىٰ كُلّ أصْحَابِ العُقُولِ المُلْتَزِمِينَ بالاختيار المعقول المقبول، وهو يَدُلُّ على أنهم لا عُقولَ لهم.

بل هم قَوْمٌ طاغُونَ طغياناً فاحِشاً جدّاً، لا يكون إلّا من غُلَاة الفاسِدين الضّالّين المضِلّين، وهذا الطغيان هو الذي يسقطهم في التناقض.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿تَقَوَّلَهُ﴾: أي: اخْتَلَقَ القرآنَ اخْتِلَاقاً مِنْ عِنْدِهِ، ولَمْ يُوحَ إلَيْهِ به مِنْ عِنْدِ رَبِّ العَالَمِين، **التَّقَوُّل**: تَكَلُّفُ القَوْل، ولا يُسْتَعْمَلُ غالباً إلّا في صُنْعِ القَوْلِ المَكْذُوبِ المُفْتَرَى بنِسْبَتِهِ إلى غَيْرِ قائِلِهِ.

أي: بل أيَقُولُونَ إنَّ مُحَمَّداً تَقَوَّلَ القرآن ونَسَبَهُ إلى رَبِّ العالَمِين.

بَلْ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبلاً بالحقِّ الَّذي جاءَهم من رَبِّهم، لأنَّهُمْ حَجَبُوا قُلُوبَهُمْ بحُجُبٍ كثيفَةٍ من الكِبْرِ، والأَهْوَاءِ، والشَّهواتِ ورغباتِهِمْ من الحياة الدُّنْيا، ووَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من جحودِ الحقّ، والعناد الإجراميّ، ميؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحُرَّة.

وإذْ تضمَّنَ ادِّعاؤُهُمْ تَقَوُّلَ الرَّسُولِ لِلْقُرْآنِ أنَّ البَشَرَ قادِرُونَ على أنْ يَأْتُوا بمِثْلِهِ، كانَ مِنَ الأَمْرِ الحكيم أنْ يَتَحَدَّاهُمْ اللّهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يَأْتُوا بمِثْلِ القُرْآن، إذا كانوا صادقين بأنّ البَشَرَ قادرون على أنْ يأتُوا بمِثْلِهِ، فَهُمْ بَشَرٌ مِنَ البَشَرِ، فَلْيَجْتَمِعْ بُلَغَاؤُهُمْ وفُصَحَاؤُهم ومُفَكِّرُوهُم وأذْكِياؤُهُمْ، ولْيَصْنَعُوا قُرْآناً مِثْلَ هٰذا القُرْآنِ.

إنّ الجِنّ والإنْسَ لَنْ يَسْتَطِيعُونَ ذٰلِكَ، ولو كان بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

النصّ السادس:

قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) خطاباً لِغَيْرِ المؤمنين:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قُرِئ: [**يُؤْمِنُونَ**] و[**تُؤْمِنُونَ**] و[**يَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَكَّرُون**] على التوزيع ضِمْنَ القرّاء العشرة، وبَيْن هٰذِهِ القراءات تكامُلٌ في الأداء البيانيّ في الخطاب والغَيْبَة، وبحذْف التاء الثانية في: [**تَذَكَّرُون**] تخفيفاً، وبإدْغَامِهَا بالذّال في: [**يَذَّكَّرُونَ**] و[**تَذَّكَّرُون**].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: نَفْيُ القَسَم جاء هُنَا على طَرِيقَةِ القرآنِ مِنْ مُرَاعَاةِ اقْتِضَاءَيْنِ: أحَدُهُمَا يُلَائِمُهُ القَسَمُ المؤكّد للخبر، والآخر يلائمه عدم القَسَمِ لِعَدَم حُصُول الفائدة مِنْه، فكان الحلُّ البيانِيُّ المُبْتَكر اختيار ذكر لفظ القَسَمِ والمُقْسَمِ به تنبيهاً عَليه، مع سبقه بأداة النفي «لا».

والجانب الّذي اقتضىٰ القَسَم رُوعِي حالُهُ بذِكْرِ القَسَمِ والمُقْسَم به، والجانب الّذي اقتضىٰ عدم حُصُولِ الفائدة المرجُوّة مِنَ القَسَمِ رُوعِيَ حالُهُ بنَفْيِ القَسَمِ بأداة النَّفْي «لا».

إنّ الموجودات الكونيَّة الّتي لَا يُبْصِرُهَا النَّاسُ، لَا يَعْرِفُ المخاطَبُون إبَّانَ التنزيل قِيمتَهَا وعَظَمَتَهَا، وعظمةَ خَلْقِ اللَّهِ لَهَا، فَلَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ من القَسَمِ بها، لتأكيد أنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين، لٰكِنْ سَيَأْتِي زَمَنٌ يَكْتَشِفُ الباحِثُونَ العِلْمِيُّونَ فيه عَظَمةَ الموجُوداتِ الكونيَّة، الّتي لَا يُبْصِرُونها بأعْيُنِهِمْ، فالقَسَمُ بها يُؤكِّدُ لَدَيْهِم خبرَ أنَّ القرآنَ تنزيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين.

ومُرَاعاةً لهٰؤلَاءِ وهٰؤُلَاءِ معاً ذكر اللَّه القسم، ونفاه بأداة النفي «لَا».

﴿... بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: بما تَرَوْنَ أيُّها النَّاسُ المَعْنِيُّونَ بالخِطاب بأبْصارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ في كَوْنِي، ومَا لَا تَرَوْنَهُ بِأَبْصَارِكُمْ مِمَّا خَلَقْتُ في كوني.

وقدْ أثْبتَتِ البُحُوثُ العِلْمِيَّةُ أنَّ الكائِنَات غَيْرَ المرئيَّة بأبْصارِ النَّاسِ أعْظَمُ وأكْثَرُ جداً مِنَ المَرْئِيِّ بالأبْصار، وقَدْ تكُونُ نِسْبَةُ المَرْئِيِّ إلى غير المَرْئِي بالأبْصَار، كنِسْبَةِ الذَّرَّة إلى حَجْمِ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ أو أقَلَّ.

• ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾: إنّ القُرْآنَ لَقَوْلٌ نَزَلَ به رَسُولٌ كَرِيمٌ مِنْ لَدُنَّا هُوَ أمِينُ الوَحْي جِبْرِيلُ، وأَوْحَىٰ بِهِ إلى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ قَوْلاً مَلْفُوظاً، فَتَلَقَّاهُ مُحَمَّدٌ كَمَا أوحَىٰ إلَيْهِ بِهِ رَسُولُنَا جِبْرِيلُ، حَرْفاً فَحَرْفاً، وكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وآيَةً فَآيَة.

• ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَيس القرآن بقَوْلٍ يُمْكِنُ أنْ يَصْدُرَ عَنْ شاعِرٍ، وقد سَبَقَ أنْ بَيَّنا لَكم في سورة (يَس) وفي سورة (الشُّعراء) وفي سورة (الصافّات) أنّ الشعراء لا يُمْكِنُ أنْ يَأْتُوا بمِثْلِ

هٰذا القرآن، للتَّبايُنِ بَيْنَ ما تَضَمَّنَهُ القرآن، وما تضَمَّنَهُ شِعْرُ كُلِّ الشعراء، وللتبايُن بَيْنَ الصِّفَاتِ النفسيَّة والسُّلُوكِيَّة للشاعر، وبَيْنَ الصِّفَاتِ النَّفْسِيَّة والسُّلُوكِيَّة للنَّبِيِّ الرَّسُول، وقَدَّمْنَا لكُمُ الإقْناعَ الكافِي، ولٰكِنَّكُمْ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ، إنَّكُمْ قَدْ يَحْصُل في نفوسِكُمْ اسْتِيقانٌ بالحَقّ، ولٰكِنَّهُ إذا خالف هواكم ومَا تُحِبُّونَ من متاع الحياة الدنيا، فإنَّكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِهِ إيماناً إرادِيّاً دافِعاً لكُمْ إلى العَمَلِ بما يَدْعُوكُمْ إلَيْهِ ويَقْتَضِيهِ، أمّا إذا وافَقَ هواكم فإنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ به.

ولمّا كان الحقُّ الّذي يُوافِقُ هَوَاكُمْ قَلِيلاً، وكانَ الحقُّ الَّذِي يخالفُ هواكم كثيراً، فإنَّهُ يَصْدُقُ عليكم أَنَّكُمْ ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أي: إيماناً قليلاً جدّاً بالحقائقِ تُؤْمِنُون.

لفظ «قليلاً» صفة لمفعول مطلق محذوف مُقدَّم على فعله، ولفظ «ما» لَفظٌ مُبْهم جيء به لتأكيد القلّة.

• ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: ولَيْسَ القرآن بقَوْلٍ يُمْكِنُ أن يَصْدُرَ عَنْ كاهِنٍ، وقد سَبَقَ أنْ بَيَّنَّا لَكُمْ أنّ القُرْآنَ لا يُمْكِنُ أنْ تَتَنَزَّلَ به الشياطين في أواخِرِ سورة (الشعراء)، ولكنَّكُمْ قَلِيلاً ما تذَكَّرُون.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصْلُها: «تَتَذَكَّرُون» حُذِفَتِ التاء الثانية تخفيفاً في النُّطْقِ.

لَقَدْ كان من الواجب عليكم أنْ تَتَذَكَّرُوا ما سَبَقَ أنْ بَيَّنَاهُ لكم تذَكُّراً دافِعاً إلى الإيمان بالحقّ، لٰكِنَّكُمْ تُهمِلُونَ ما لا يوافِقُ هواكم فتُبْعِدُونَهُ عَنْ ذاكِرَاتِكُمْ، فلَا تَسْتَحْضِرُونَهُ عِنْدَ وجُودِ الدَّاعِي إلى استحضاره، وتَسْتَمِرُّون على تكْرير ما يُوافِقُ أهواءَكم مِنْ باطل.

• ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: إنَّ القرآن الَّذي تَزْعُمُون مَرَّةً أَنَّهُ قَوْلُ شاعِرٍ، وتَزْعُمُونَ أخرىٰ أَنَّهُ قَوْلُ كاهِنٍ، وأنَّ محمّداً يَتَقَوَّلُهُ على رَبِّه كَذِباً وافْتِراء، هُوَ تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، نَزَلَ بهِ الرُّوحُ الأَمِينُ جِبْرِيل، فأوحَىٰ به إلى مُحَمَّد.

وللرَّدِّ على زَعْمِهِمْ أنَّ مُحَمَّداً تَقَوَّلَهُ على رَبِّه، أَبَانَ اللَّهُ لَهُمْ أنَّ محمَّداً لَوْ تَقَوَّلَ شيئاً قَلِيلاً عَلَيْنا لقَتَلْنَاهُ بقَطْعِ وَتِينه، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

سبَقَ قَرِيباً بيانُ مَعْنَىٰ التَّقَوُّل، والمُرادُ هُنا أنَّهُ يَقُولُ كلَاماً من عنده ويَزْعُمُ أنَّهُ قَدْ أوحَىٰ اللَّهُ بِهِ إلَيْهِ.

﴿ٱلْوَتِينَ﴾: هو الشريانُ الرَّئيس الّذي يُغَذّي جِسْمَ الإنْسَان بالدَّمِ النقيّ الخارج من القَلْب.

المعنى: أَلَمْ تُفكِّرُوا بَعْدَ أنْ أيَّدْنَاهُ بآياتِنَا لِنَشْهَدَ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَّا، قَدْ بَعَثْنَاهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِنَا، أنَّهُ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بعض الأقاويلِ، فإنَّنا لَنْ نَتْرُكَهُ يَكْذِبُ عَلَيْنَا ونَحْنُ نَشْهَدُ بِصِدْقِهِ في نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ وفي تَبْلِيغَاتِهِ عَنَّا.

إنَّهُ لَوْ فَعَلَ شيئاً مِنْ ذٰلِكَ لَأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِين، ولَعَذَّبْنَاهُ، ثُمَّ بَعْدَ أنْ يَنَالَ نَصِيبَهُ مِنَ العذابِ لَقَطَعْنَا مِنْهُ وَتِينَهُ فَهَلَكَ، ولمنعناهُ بذٰلِكَ مِنْ أنْ يَكْذِبَ عَلَيْنَا.

وعندئذٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ مِنْكُمْ أنْ يَحْجُزَنَا عَنْ تَعْذِيبِهِ وإهْلاكه، مهما جَمَعَ مَعَهُ مِنْ جُمُوعٍ وكانوا مَعَهُ حَاجِزِين.

نُزِّل الواحِدُ مَنْزِلَةَ الجَمْعِ الَّذِي يَجْمَعُهُمْ معه، فجاء الخَبَر عنه بلفظ **[حَاجِزين]**.

❁ ❁ ❁

ما جاء في السُّنَّة بِشَأْنِ الشعر والشعراء:

جاء في السُّنَّة الثناء على الشعر الذي يشتمل على حقٍّ وحكمةٍ ودَعْوَةٍ إلى الخير ومكافحةٍ للباطل والمبطلين، ودفاعٍ عن الدِّين الحقّ، وعن

الرَّسول وصالحي المؤمنين، وحثٌّ على الجهادِ في سبيل اللَّه، ويلزم من هذا الثناء على شعراء هذا النوع من الشعر.

وجاء فيها ذمّ الشِّعْرِ الَّذِي يدعو إلى باطل أو رذيلة، أو يَنْصُرُ المبطلين والمجرمين، أو يَشْتَمِلُ على شَتِيمَةٍ أو هِجَاءٍ بغَيْرِ حقٍّ، أو فَضْحٍ للمؤمنين، أو إشاعَةٍ للفاحِشَةِ والفِسْقِ والفجور، أو تَعْرِيَةٍ للعَوْراتِ أو إساءَةٍ أو تجريحٍ أو غِيبَةٍ أو نَمِيمَةٍ للمستورين، أو يَشْتَمِلُ على أيّ شيءٍ لم يَأْذَنْ به الدِّين في أيّ كلام، سواءٌ أكان نثراً أم شعراً.

ويلزم من ذمِّ هذا النَّوْع من الشِّعر ذمُّ شُعَرائِهِ، مهما كانوا من فحول الشُّعَراء، ومَهْما كانَتْ مَوْهِبَتُهم عاليةً في الإبْداعِ والتَّحْلِيقِ الشِّعْرِيّ.

ما جاء في السُّنَّة مِنْ ثَناءٍ على الشِّعْرِ المأذون به في الدِّين:

(١) روى الإمام أحمد، وأبو داود، عن عبد اللَّهِ بْنِ عباس رضي اللَّه عَنْهما، أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ:

«إنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْراً، وإنَّ مِنَ الشِّعْر حِكَماً»[١].

(٢) وجاء في صحيح مُسْلِم أنَّ حسَّان بنَ ثابتٍ قال لِأَبِي هُرَيْرَة: أَنْشُدُكَ باللَّهِ، هل سَمِعْتَ النبيّ ﷺ يقول:

«يا حسَّانُ أجِبْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أيِّدْهُ برُوحِ القُدُس»؟

فقال أبو هريرة: «نعم». ورُوحُ القُدُس: هو جبريلُ عليه السّلام.

(٣) وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن البراء بْنِ عازِبٍ، قال: سَمِعْتُ رسُول اللَّهِ ﷺ يقول لحسَّان بن ثابت:

«اهْجُهُمْ، أوْ هَاجِهِمْ وجِبْرِيلُ مَعَكَ».

---

(١) انظر الحديث (٢٢١٥) من صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني.

(٤) وروى مسلم أيضاً عن عائِشَةَ رضي اللّه عنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ لحسَّان:

«إنَّ رُوحَ القُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ ما نَافَحْتَ عَنِ اللّهِ ورَسُولِهِ».

(٥) وروى الإمام أحمد بسَنده عن عبد الرحمٰن بْنِ كَعْبِ بنِ مالكٍ عن أبيه، أنَّه قالَ للنَّبيِّ ﷺ، إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أنْزَلَ في الشُّعَراءِ ما أنْزَلَ!! فقال رَسُولُ اللّهِ ﷺ:

«إنَّ المؤمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ ولِسَانِهِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ».

أي: مَا تَرْمُونَ به أئِمَّةَ الكافِرينَ وأتْباعَهم مِنْ شِعْر، يُشْبهُ نَضْحَهُمْ بالسِّهَام.

النَّضْحُ بالنَّبْل: الرَّمْيُ بالسِّهام، يُقالُ لغة: «نَضَحَ القَومَ بالنَّبْلِ» أي: رماهم بالنَّبْلِ، ففَرَّقَهُم.

(٦) وروى الترمذيُّ عن أنسٍ رضي اللّه عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل مكَّةَ في عُمْرَةِ القضاء، وعَبْدُ اللّه بنُ رَوَاحَة يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ　　اليَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ　　ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، فِي حَرَمِ اللّهِ وبَيْنِ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ تَقُولُ الشِّعْرَ؟!

فقال لَهُ النبيُّ ﷺ:

«خَلِّ عَنْهُ يا عُمَرُ، فإنَّهُ أسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْل».

(٧) وروى أبو بكر بن العربيّ في أحكام القرآن بِسَنَدِهِ إلى خُرَيْم بْنِ أوْسِ بْنِ حارِثَةَ أنَّهُ قالَ: هاجَرْتُ إلى رسُولِ اللّهِ ﷺ بالمَدِينَةِ، مُنْصَرَفَهُ مِنْ

تَبُوك، فَسَمِعْتُ العَبَّاسَ قال: يَا رَسُولَ اللَّه، إنّي أُرِيدُ أنْ أمْتَدِحَكَ، فقال: «قُلْ لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فاكَ».

فقال العباسُ أبياتاً سبعة، مِنْهَا قوله:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ في الظِّلَالِ وفي   مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

فقال له النبيّ ﷺ: «لَا يَفْضُضِ اللَّهُ فاكَ»[١].

(٧) وثبت أنَّ الرَّسُولَ ﷺ أجاز «كَعْبَ بْنَ زُهَيْر» فخَلَعَ عليه بُرْدَتَهُ، إذْ جاء مؤمناً، وأنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ المشهورة، الّتي يَقُولُ في مَطْلَعِها على عادَةِ الشُّعَراءِ الجاهِلِيِّين، إذْ يَبْدَؤُونَ قَصَائِدَهُمْ بالنَّسِيب:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[٢]

وانتقل إلى الاعْتِذار والتوبَة ومَدْحِ الرَّسُول ﷺ.

(٩) وقال أبو هريرة: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ على المنبر:

«أصْدَقُ كَلِمَةٍ قالَتْهَا العَرَبُ، كَلِمَةُ لَبِيد: ألَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ».

(١٠) وكانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَنْشِدُ شِعْرَ أُمَيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ، لِمَا فيهِ من الحِكْمة، وقال بشَأْنِهِ: كادَ أُمَيَّةُ أنْ يُسْلِمَ.

ما جاء في السُّنَّةِ من ذَمٍّ للشعر غير المأذون به:

(١) روى الإمام أحْمَدُ بِسَنَدِهِ عن أبي سعيد قال: بَيْنَما نَحْنُ نَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بالعَرْج، إذْ عَرَضَ شاعِرٌ يُنْشِدُ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) أخذاً من الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره لآخر سُورة (الشعراء).

(٢) **بانَتْ**: ابتعدَتْ. **مَتْبُولُ**: أسقمه الشوق. **مُتَيَّم**: ذليل مستعبد. **لم يُفْدَ**: لم يَخلُص من الأسر. **مَكْبُول**: مقيّد.

«خُذُوا الشَّيْطانَ، أو أَمْسِكُوا الشَّيْطانَ، لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

وهذا محمولٌ على أنّ الشَّاعِرَ كانَ يُنْشِدُ شِعْراً فيه ضلالٌ وإثم، وفسادٌ وشرٌّ، فوصَفَهُ الرَّسُول بأنَّهُ شيطان، وقال: لأنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خيرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً، أي: من هٰذا الشِّعْرِ القَذِر.

(١) ورَوىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أبي هُرَيْرة، قال: قال رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً».

«**يَرِيه**»: أي: يأكُلهُ ويُفْسِدُه، يُقالُ لغة: «ورَىٰ القَيْحُ جَوفَ المَرِيضِ يَرِيهِ»، أي: أَكَلَهُ وأفْسَدَه.

وهٰذا مَحْمُولٌ على الشِّعْرِ المتضمِّنِ ضَلالاً وإضْلالاً، وفساداً وإفْساداً، نظير الحديث السَّابق.

مما ورد بأنّ الشِّعر كسائر الكلام:

(١) قال القرطبي: روىٰ إسماعيلُ بْنُ عبّاسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْن، عَنْ مُحَمّد بْنِ سيرين عَنْ أبي هُرَيْرَة قال: قال رسُول اللَّهِ ﷺ:

«حَسَنُ الشِّعْرِ كَحَسَنِ الكَلَامِ وقَبِيحُ الشِّعْرِ كَقَبِيحِ الكَلَامِ»

قال القرطُبيّ: رواه إسْمَاعيل عن عبد اللَّه بْنِ عَوْنٍ الشّامي، وحديثُهُ عَنْ أهْلِ الشام صَحِيح فيما قال يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وغيره.

(٢) قال: ورَوَى عبد اللَّه بْنُ عَمْرِو بن العاصِ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«الشِّعْرُ بِمَنْزِلَةِ الكَلَامِ حَسَنُهُ كَحَسَنِ الكَلَّامِ، وقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الكَلَّامِ».

الرَّسُول يَطْلُبُ اسْتِمَاعَ شِعْرِ أُمَيَّة بْنِ أبي الصَّلْت:

روى مُسْلِمٌ من حَدِيث عَمْرو بْنِ الشَّرِيد عَنْ أبِيهِ، قال: رَدِفْتُ

رَسُول اللَّهِ ﷺ فقال: «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْت؟»

قُلْتُ: نَعَم. قال: «هِيهِ»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً. فقال: «هِيهِ»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً، فقالَ: «هِيهِ»، حتَّىٰ أَنْشَدْتُهُ مِئَة بَيْتٍ.

عُمَرُ بنُ الخطَّاب وعامِلُهُ النُّعمانُ بْنُ عَدِيّ:

ذكر مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقٍ، ومحمَّد بْنُ سَعْدٍ في الطَّبَقاتِ، والزُّبَيْرُ بْنُ بكَّارٍ في كِتابِ الفُكَاهَةِ، أنَّ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رضي اللَّهُ عنه، اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ بن عَدِيّ بن نضلة، على مِيسَان من أرْضِ البَصْرَة، وكانَ يَقُولُ الشِّعْر، فقالَ:

أَلَا هَلْ أَتَىٰ الحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا ... بِمَيْسَانَ يُسْقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ

إذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ ... ورَقَّاصَةٌ تَحْذُو عَلَىٰ كُلِّ مِبْسَمِ

فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبالأَكْبَرِ اسْقِني ... وَلَا تَسْقِنِي بالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

نَدْمَانِي: أي نَدِيمِي. **النَّدِيم**: المصاحِبُ على الشراب المسامر.

فلمَّا بَلَغَ ذٰلِكَ أمِيرَ المُؤمنين عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنهُ قال: إِي واللَّه، إنَّهُ لَيَسُوؤُني ذٰلِكَ، ومَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أنّي قَدْ عَزَلْتُه.

وكتبَ إِلَيْهِ عُمَر: «بسم اللَّه الرَّحمٰن الرحيم. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾. أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي قَوْلُكَ:

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وَٱيْمُ اللَّهِ، إنَّهُ لَيَسُوؤُنِي، وقَدْ عَزَلْتُكَ.

فلمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بكَّتَهُ بهٰذا الشِّعر، فقال: واللَّهِ يا أميرَ المؤمنين ما شَرِبْتُها قَطّ، وما ذاكَ الشّعر إلّا شَيْءٌ طَفَحَ على لساني.

فقال عُمَر: أظُنُّ ذٰلِكَ، ولٰكِنْ واللَّهِ لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلاً أَبَداً، وقَدْ قُلْتَ ما قُلْتَ.

شعراء المشركين كانوا يهجون الرَّسُول ﷺ:

كانَ نَفَرٌ مِنَ الشُّعَراء بمَكَّة يَهْجُونَ الرَّسُولَ ﷺ، وكانَتْ جماعاتٌ مِنَ المُشْرِكِينَ يَجْتَمِعُونَ إليهم، ويَسْمَعُونَ أشعارهم، وهجاءَهُمْ للرسول.

ومِنْهُمْ:

(١) النَّضْرُ بن الحارث.

(٢) هُبَيْرَةُ بْنُ أبِي وَهْب.

(٣) مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَاف.

(٤) أبُو عَزَّة الجُمَحِيّ.

(٥) ابْنُ الزِّبَعْرَىٰ.

(٦) أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْت.

(٧) أبو سُفْيان بنُ الحارث.

(٨) أُمُّ جَمِيل، العَوْراءُ بِنْتُ حَرْب، زَوْج أبي لَهَب.

ومِنْ هؤلاء مَنْ تابَ وأناب، وأسْلَمَ واختارَ الحقَّ والصَّواب، وتحوّل إلى مَدْحِ الرَّسُولِ وتمجيد الإسلام، ومنهم:

(١) عبد اللَّه بن الزِّبَعْرَىٰ، ومن شعره بعد أسلامه:

يا رَسُولَ المَلِيكِ، إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

إذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَـ ... ـنِ الغَيِّ ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

(٢) أبو سُفْيانَ بنُ الحارث بنِ عَبْدِ المطلب، فقد كان مِنْ أشَدِّ

النَّاسِ عداوةً للرَّسُول ﷺ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، ومن أكْثَرِهِمْ هِجاءً له، فلمَّا أسْلَمَ لم يَكُنْ أحَدٌ أحَبَّ إلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وصارَ يَمْدَحُهُ في شِعْرِهِ، ويَتَوَلَّاهُ.

من الذين أسْلَمُوا من الشعراء ومِنْهُمْ من جاهَدَ بِشِعْرِهِ:

(١) من شعراء الأنْصَار الذين أسْلَمُوا وجاهدوا بشعرهم: «عبد اللَّه بْنُ رَوَاحَة، وحسَّانُ بْنُ ثابت».

(٢) ومن الشعراء الذين أسْلَمُوا من غير الأنصار: «لَبيد» و«كَعْبُ بْنُ زُهَيْر» و«سُحَيْمٌ عَبْدُ بَنِي الحَسْحَاس».



خاتمة المجلد الثامن

بفضلٍ من اللَّه الجليل الرَّحيم الرؤوف الوهَّاب، كتبتُ هذا المجلّد الثامن المشتمل على تدبّر السُّوَر الثلاث (طَه - والواقعة - والشعراء) وملاحق هذا التدبّر، وأنا مُنْبَطِحٌ على السَّرِير أرتقي سُلّم العافية درجةً فدرجةً، بعناية ربّي وألْطافِهِ الخفيّة، ولساني وقلبي يسألانه تمام العافية وتمام الشفاء، وأن يَمُدَّنِي بالمَعُونَةِ، ويَهَبَني القُوَّة والبَصِيرَة النَّفَّاذة، والفَهْمَ السَّدِيدَ على مُرادِهِ من آياتِ كتابه، حتَّى يُنْهِيَ لِي بفَيْضِ عطائِهِ، تدَبُّرَ سائِر سُوَرِهِ، ويَجْعَلَهُ مُبيناً لحقائِقِهِ، ودَقَائِقِهِ، ونافِعاً لراغِبِي فَهْم كِتَابِهِ في العالمين، وخالصاً لوَجْهِهِ الكريم، إنَّه عَلِيمٌ سَمِيعٌ مجيب.

والحمد للَّه على ما فتح به، وعلَّمَ، وألْهَمَ، ووفَّقَ، وأعانَ، وأسأله أن يَجْعَلَنِي عَبْداً شَكُوراً.

وكان الفراغُ من كتابة هذا المجلد، صباح يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة (١٤٢١) هجرية، الموافق لـ(١٨) من شهر كانون الأول لسنة (٢٠٠٠م)، في دار إقامَتي بمكّة المكرمة، وفي غرفة أرى من نافذتها غارَ حراء، فيذكّرني بالصلاة والسّلام على سيّدنا محمّد بن عبد اللَّه، الَّذِي أنْزَلَ اللَّهُ عليه أوَّل سُورَة (العَلَق)، وهو يَعْبُدُهُ في الغار الكائنِ في ذروته، إذْ كانَ ذلك مَعَ بَدْءِ نُبُوَّتِهِ ﷺ.

ربّ لا تقطَعْ عني مدَدَك وفَتْحَكَ ومعونَتَكَ وتوفيقك وعافيتَك، إنَّك جواد كريم، رؤوف رحيم وهّاب.

٢٢ رمضان المبارك، ١٤٢١هجرية، عبد الرحمٰن حسن حبنّكه الميداني
١٨/ ١٢/ ٢٠٠٠ ميلادية

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة طَه

٢٠ مصحف/٤٥ نزول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

ملاحق تدبّر سورة (طه)

الموضوع الصفحة

سورة الواقعة

٥٦ مصحف/٤٦ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع **الصفحة**

مَلاحق تدبر سورة الشعراء